

٤

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملثمون

في المغرب والسودان والأندلس

دكتور

سعد زغلول عبد الحميد



الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية

جلال حزى وشركاه

تاريخ المغرب العربي

الجزء الرابع

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملثمون
في المغرب والسودان والأندلس

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد
كلية الآداب - جامعة الكويت
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية (سابقاً)

الطبعة الأولى ١٩٩٥

توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

«قرآن كريم ، سورة يوسف»
آية ١١١

تقديم

وبعد سنوات أخرى من الجهد والتعب يخرج الجزء الرابع من كتابنا في تاريخ المغرب العربى ، فى موضوع المرابطين ، من : بربر صنهاجة الملثمين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس ـ فكان لهم دورهم فى توجيه الغرب الاسلامى بعامة الى ما آل اليه فى العصر الحديث ، وحتى أيامنا هذه .

اننى أتذكر تعليق أستاذنا الدكتور/محمد مصطفى زيادة على بحث عرضته عليه ، اذ قال (يرحمه الله) : « اننا ننحت فى الصخر » . كما أتذكر رهبتى عندما كان يسألنى أستاذنا عزيز سوريال (له الرحمة) عن باكورة أعمالى .

اننى لا أمل تكرار الشكر لكل من عاوننى فى انجاز هذا العمل وأخص بالذكر :

- مكتبة كلية الآداب بجامعة الكويت وقاعة دورياتها الجديدة (وقتئذ) .
- مكتبة كل من قسمى التاريخ واللغة العربية ومكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية .
- الزملاء الأساتذة والأبناء الطلبة الذين قدموا لى كل عون .
- رفاق الدرب على مسيرة اخراج كتابى فى تاريخ المغرب : د/نبيلة حسن ، والأستاذ/يوسف شكرى .
- وارحب بالرفاق الجدد : محمد الجمل ، ابراهيم سلامة ، أحمد اسماعيل ـ طلبة الدراسات العليا ، علماء المستقبل .

– أما عمن افتقدناهم : د/محمد عبد العال ، د/محمد عبـد العزيز ، د/مصطفى أبو ضيف – فاهم الرحمة وخالد الذكرى ٠

ولا أنسى شكر الناشر السكندرى الأستاذ جـلال حزى ، والعـاملين بمؤسسته « منشأة المعارف بالاسكندرية » ٠

وأرجو أن يتيسر لنـا عمـا قريب اخراج الجزء الخـامس فى تاريـخ الموحدين ٠

وعلى الله التوفيق ٠

سعد زغلول عبد الحميد

الاسكندرية فى ١٩٩٤/٩/١١

الفهـــرست

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملثمون في المغرب والسودان والأندلس

الخرائط والأشــكال

الصفحة

الصفحة

محتويات الكتاب

الفصل الأول
البلاد والسكان

الفصـل الثانى

قبائل الجمالة الصحراوية قبيل قيام دولة المرابطين
النظم السياسية والحياة الاجتماعية

الفصـــل الثالث

عملية النهضة المرابطة : أبو عمران الفاسى وحركة التجديد الثقافية فى صحراء الملثمين

الفصل الرابع
قيام دولة المرابطين ـ القواعد التأسيسية والسياسة المدنية

الفصل الخامس
دولة يوسف بن تاشفين

الفصــل السادس
المرابطون وحرب الاسترداد فى الأندلس
على عهد يوسف بن تاشفين

المقـــــدمـــة

فى أهمية الموضوع ومصادره :

الأهميـــــة :

يعتبر تاريخ المرابطين فى المغرب من موضوعات التـاريخ الاســـلامى الهامة لأكثر من سبب ، ربما لا يكون أهمها تلك العمليـــة التى قام بهـا يوسف بن تاشفين لانقاذ المسلمين فى الأندلس من الســقوط تحت ضغط حرب الاسترداد المسيحية المعروفة بالريكونكيستا • هذا ، وان كان لدخول الأندلس تحت حكم المرابطين فى مراكش آثار عظيمة من حيث الربط بين طرفى الغرب الاسلامى شمال المضيق وجنوبه ، فى وحدة سياسية ـ حضارية واحدة ، بقيت علاماتها المميزة ، فى كل من غرب أوربا وغرب أفريقيـا الى اليوم •

ومثل هذا يقال عن أهمية دخول المرابطين مملكة غانة السودانية قبل ذلك ، ونشر الاسلام فى المناطق التى لم يكن قد دخلهـــا بعـد ، جنـوب الصحراء ، الأمر الذى كانت له آثاره الحاسمة فيما آلت اليه حديثا الأوضاع السياسية والمظاهر الحضارية فى غرب أفريقيا حتى أيامنا هذه •

والمهم بشكل عام أن دولة الرباط التى قامت فى صـحراء المغرب فى منتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، تأسس قيامها على عملية احياء للاســلام ودولته مثل غيرها من عمليات التجديد التى كان يحاولها بعض الموهوبين من رجال الاصلاح المسلمين من أهل السياسة والدين بين حين وآخر ، بغرض تنقية الاسلام مما لحق به من الشوائب أو محاولة تقويم ما لحق بالمجتمعات الاسلامية ودولها من اعوجاج عن الطريق المستقيم أو انحراف • وذلك فى ضوء مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو بدعوة العودة الى عصر النقاء الأول : عصر النبوة والرشاد •

وهكذا بدأت الحركة المرابطية تقليدية هدفها نشر الاسلام السنى فى الصحراء ، ولكن تمددها جنوبا فى السودان وشمالا فى أسبانيا حولها مع مرور الوقت ، الى امبراطورية متعددة الثقافة والأعراق ، الأمر الذى عرضها

الى زلزلة أسقطتها بعد حوالى ٦٠ (ستين) سنة فقط من ضم الأندلس ، لكى تحل محلها فى كل من المغرب والأندلس حركة اصلاح جديدة ، أكثر تطورا ، قامت باسم دولة الموحدين - موضوع دراستنا القادمة - ونجحت فى دمغ بلاد المغرب بطابعها المميز الذى تعيشه الآن ٠

المصادر والمنهج :

التاريخ لدولة المرابطية هو التأريخ للجيل الثانى من قبائل صنهاجة المغربية ، وهم الملثمون من بربر الصحراء ٠ فكأنه تسجيل لحياة بعض الشعوب البدوية ، تماما مثل التأريخ للعرب فى رمال جزيرتهم وواحاتهم أو تسجيل لحياة الترك والمغول فى سهوب بلادهم فى أواسط آسيا وفيافيها٠ فهو اذن تاريخ لم يدون بشكل منتظم الا بعد وقت من بداية الحركة المرابطية واستقرار قواعد دولتها ٠ وبناء على ذلك فهو يعتمد فى بداياته على الرواية الشفهية التى كثيرا ما تتطور وتتحور ما بين الحقيقة الواقعة والاسطورة المتخيلة ٠ وهذا ما يعانى منه تاريخ المرابطين فى بداياته الاولى ، تماما كما هو الحال بالنسبة لتاريخ العرب والاسلام فى بداياته الأولى ، وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الترك والمغول فى مراحله الأوليـة حيث تغلب القصص الشعبى المعروف بالفلكلور على كثير من أطرافه ٠

وهنا يمكن أن نجد بديلا لذلك القصص الشعبى فى التاريخ المدون لدى بعض الشعوب المدنية المجاورة ٠ والمثال لذلك تاريخ العرب المسلمين عند البيزنطيين ، وتاريخ الترك والمغول عند الصينيين ٠ ومثل هذا يقال عن تاريخ المرابطين حيث تتمثل بداياته الأولى فى روايتين ليستا محليتين من بنات الصحراء ٠ أولاهما أندلسية ، وهى رواية البكرى المعاصرة ، وثانيتهما أفريقية تونسية للأمير الزيرى الصنهاجي : عبد العزيز بن شداد المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ م ٠ والمهم أن هـذين الاتجـاهين : الأندلسى والأفريقى سيستمران كعلامتين مميزتين فى التـأريخ للمرابطين ، وخاصة بعد نزولهم فى الأندلس وضمها الى دولتهم باسم الاسلام والدفاع عن دياره ، وذلك فى مقابل النزعة الأندلسية فى التـاريخ المرابطى التى تجعل من الضم افتئاتا على حقوق الأندلسيين فى حكم بلادهم والدفاع عنها ، وان كان بمعونة من الأخوة المسلمين وأميرهم فيما وراء العدوة (أو المضيق) ٠ فكأنها نزعة من الشعوبية بين العرب والعجم ، أو نزاعا طائفيا اقليميا ، مما ساد فى ذلك الوقت على المستوى الاسلامى والطائفى الاقليمى

أيضا ، مما نأتى الاشارة اليه فى هذا التعريف بالمصـادر أو فيما يتطلبه التوثيق المنهجى فى العرض التاريخى ·

والمهم فى التاريخ المرابطى أنه يعانى كثيرا من نقص المصـادر على مستوياتها المختلفـة ، من الوثائق والأدب التاريخى والجغرافى والثقـافى بعامة ، والاثرى بخاصة ـ حيث لم يبق لنا شىء من بقـايا المرابطين أو لقاياهم وآثارهم ، وهى الآفات التى يعانى منها التاريخ الاسلامى ، نتيجة طبيعية لآفات المجتمعات الاسلامية المتمثلة فى عدم الاستقرار السـياسى وتوابعه من الاضطرابات الاجتماعية أو العكس من ذلك ·

البـكرى :

والبكرى هو أبو عبيد عبد الله (القرطبى ، ت ٤٨٧ هـ) ، وكتـابه الذى يهمنا هو الجزء من المسالك والممالك المعروف باسم « المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب » ، والذى نشر بمعرفة البارون دسلان (De Slane) بالجزائر سـنة ١٨٥٧ م ، تحت عنوان « وصف أفريقيـا الشـمالية » ، بالفرنسية ، مع تعريف بالبكرى وبيان بأهمية الكتاب بالنسبة لتـاريخ المغرب استنادا الى تقييم محتوياته ·

ووصف أفريقيا للبكرى يعتبر وثيقة معاصرة (٤٦٠ هـ/٨ ـ ١٠٦٧ م) من الطراز الأول بالنسبة للعصر المرابطى الأول فى بلاد المغرب ، من حيث التعريف بالبـلاد الصحراوية وطرقها ومفاوزها ، وأهلها الجمـالة الملثمين وحياتهم القاسية فى الصحراء ـ التى كان لها سحرها أيضا ـ وخصوصية عاداتهم وتقاليدهم النابعة من طبيعة تفردهم فى القفار ، وكيف تهيـأ لهم القيام بحركة الاصلاح الدينية المرابطية التى غيرت الشمال الأفريقى (فى القرن الـ ٥ هـ/١١ م) من حال الى حال ، بفضل فريضة الحج التى ربطت بين الشرق الاسلامى والمغرب فى دائرة ثقافية واحدة ـ ممـا نعرض له فى الدراسة ـ متجددة مع توالى المواسم والأعوام ·

ومع أهمية الرحلة ورحلة الحج بصفة خاصة كمصدر حى للأخبـار ، فان المعلومات الدقيقة التى يقدمهـا البكرى عن البلاد والطرق والنـاس والتراتيب والعادات والتقـاليد ترقى الى المستوى الوثائقى بمعنى رجوع البكرى الى وثائق أرشيف قرطبة الاستعلامية التى كان يزخر بهـا الديوان هناك منذ أيام الناصر والمنصور ، والتى استفاد منها البكرى من غير شك ،

كما يرى دسلان فى تقديمه للكتاب بالفرنسية (ص ١٣ - ١٥) ، وهـــو الأمر المقبول حقا .

والمهم أن معلومات البكرى الفريدة عن أحـــوال المرابطـين من بربر صنهاجة الصحراء الملثمين كانت موردا نهـل منه القـــدامى ، من الادريسى (قرن ٦ هـ/١٢ م) الى الحسن الوزان (ليون الأفريقى : قرن ١٠ هـ/١٦ م) والمحدثون ، من كولى :
(W.D. Cooley, Early History and Geography of Central Africa,
(E.F. Gautier, Le Sahara, 1940) : الى جوتييه (1841
الى حد اعتماد البعض بحق ، عليه فى عمل الدراسات المتعمقة ، كمـا فعل جان ميشيل ليســـار (J.-M. Lessard) فى دراســـته عن سجلماسة (هسبيريس ، ١٩٦٩ فصل ١ - ٢) ، وهو ما نقتدى به من غير تردد .

ومن المهم الاشارة هنا الى أننا اســـتفدنا من توقيت البكرى الدقيق للأحداث فى تصحيح بعض التواريخ الخاطئة عند غيره من المتأخرين ، الأمر الذى ساعد على تحديد مسار التاريخ المرابطى فيما بعد عصره بشكل منطقى مقبول ، الأمر الذى يكرس مرجعية البكرى من غير شك .

الادريسى ، وصاحب الاستبصار ، وليون الأفريقى :

ومن الواضح أن الادريسى (القطعة الخاصة بالمغرب ، دراسة محمـد حاج صادق) استفاد من تاليف البكرى فى أخبـــار قبائل المرابطـين من صنهاجة لمتونه ولمطة ، الرحالة الذين ليس لهم مدينة الا نول لمطة وازقى ، حيث محطات خدمة قوافل الابل الصحراوية (ص ٧٤ - ٧٥) ، الى جانب ما يقدمه من معلومات عن بناء مراكش عـــلى عهـــد يوسف بن تاشفين ، واستكمال بنائها على عهد على بن يوسف ببناء قصر الحجر ، وجلب المـاء من العيون خارجها (ص ٨٣ - ٨٤) .

أما صاحب الاستبصار (أواخر قرن٦ هـ/١٢ م) فجعل اعتماده فىأخباره على البكرى - فى هذا الموضوع . كما يظهر أثر البكرى أيضا عنـد الحسن الوزان (القرن ١٠ هـ/١٦ م : ليون الأفريقى ، وصف أفريقيا ، الترجمة العربية عن الفرنسية - السعودية) الى جانب مشاهدات القرن الـ ١٦ م التى يمكن الاســـتفادة منها عن طريق القياس والمقـــارنة ممـا يظهر فى الدراسة .

ابن شداد الزيرى (ت حوالى منتصف القرن ٦ هـ/١٢ م) :

وبمثل الرواية الأفريقيـــة التونسية فى تاريخ المرابطين فى كتـاب « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقـــيروان » لعبد العزيز (أبو محمـــد عز الدين) بن شـــداد بن (الأمـــير) تميم بن المعز بن باديس (الزيرى الصنهاجى) المتوفى حوالى منتصف القرن الـ ٦ هـ/١٢ م ٠ فبسبب انتماء ابن شداد الى الزيريين فى أفريقية يمكن اعتبار كتابه هذا نوعا من التاريخ الوطنى او القومى الصنهاجى ، وان أصبح بحكم الاقتباس والنقول يمثل وجهة نظر المشارقة لتاريخ المرابطين ٠

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) :

فابن الأثير — بما له من رسوخ فى التاريخ الاســلامى — يعطى وزنا عظيما من غير شك ، لرواية ابن شداد عندما يعرضها فى تاريخ المرابطين بعد عرضه لرواية الرقيق فى الهلالية وسقوط خلافة قرطبة التى يثق فيها بصفتها رواية « رب البيت الذى هو أدرى بما فيه » — وان كانت رواية ابن شداد قد تعرضت مع مرور الوقت ، لأخطاء النساخ وربمـــا للتحوير والتزييف — خصوصا بعد قيام دولة الموحدين المعادية للمرابطين ٠ والمثل لذلك قصة الفيل الذى ركبه الفونس ، وقصة اخفـــاق أمير المسلمين فى التخلص من شيخ جبل كزوله ، والكف عنه بعد ما انكشف سره ، الى جانب قصة الرجال الثلاث الذين اشتهى أحدهم زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين ٠

النويرى (ت ٧١٩ هـ/١٣١٩ م) :

وهى من الآفات التى تعانى منها رواية ، النويرى (تاريخ الغـــرب الاسلامى : أفريقيا والمغرب والأندلس ، تحقيق كل من مصطفى أبو ضيف — الدار البيضاء — وحسين نصار — القاهرة) الذى رجع الى رواية ابن شداد فنقلها أو لخصها مع ما هو معروف عنه من النقل من ابن الأثير ٠

ابن القطان (ت ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م) :

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا من الجزء الذى وصـــل الينا من كتاب « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، لابن القطان ، الا قطعة صغيرة متناثرة عن أواخر عهد المرابطين (٥٠٨ هـ/١١١٤ م — ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م : تحقيق محمود مكى ، الرباط) ٠ وهذه القطعة من تاريخ المرابطين

فى الأندلس خاصة بفترة المطاولة (الصراع) بين المرابطين والموحدين ·
ومن أهم ما تقدم تلك القطعة من تاريخ المرابطين فى الاندلس وقعة أقليش (سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م) ، وغزو اقليم طلبيرة (٥٠٣ هـ/١١١٠ م) ، وهى السنة التى يضع فيها احراق كتاب الأحياء للغزالى ، الى جانب أخبار محمد بن تومرت الأولى ·

ابن عذارى (يكتب حوالى ٧١٢ هـ/١٣١٢ م) :

ويرجع الفضل لابن عذارى الذى تعتبر حولياته فى « البيان المغرب » العمود الفقرى لتاريخ المغرب الاسلامى فى كل العصور ، الأمر الذى يتأكد من عرض مصادره فى الجزء الأول الذى نشر بمعرفة بروفنسال وكولان ·
ومن حسن الحظ أن أسفرت جهود الباحثين عن استكمال أجزاء هامة من الكتاب بعد الجزئين اللذين نشرهما دوزى ، مثل الجزء الثالث فى تاريخ الطوائف الذى أخرجه بروفنسال ثم الجزء الرابع فى تاريخ المرابطين ، قبل القسم الخامس فى تاريخ الموحدين ، مما كان لويثى ميراندا جهده فى اخراجه الأمر الذى ساعده على اخراج كتابه فى « تاريخ امبراطورية الموحدين » ·

وتتأكد أهمية أخبار ابن عذارى فى تاريخ المرابطين بمقارنتها بغيرها من روايات المتقدمين عنها والمتأخرين ، اذ تثبت المقارنة أن ابن عذارى مؤرخ موهوب ، يعرف كيف يوازن بين مختلف الروايات ، ويميز الغث من الثمين ، الأمر الذى يؤكده التوقيت الصحيح للاحداث — عصب التاريخ الرئيسى — الأمر الذى يساعد حقا فى تحديد المسار السليم للوقائع عندما تضطرب فيما بينها وتختلف لسبب أو لآخر ·

ورغم ما يعترى القطعة من البيان الخاصة بالمرابطين والتى تمتد على طول مائة عام تقريبا وتمثل الجزء الرابع من الكتاب حسب نشرة احسان عباس (بيروت ١٩٦٧) ، من النقص فى البداية والنهاية الى جانب بعض الخروم مثلما يشير اليه المحقق فى ص ٣٠ (عن أحداث ما بين ٤٦٩ — ٤٩٥ هـ/١٠٧٦ — ١١٠١ م) ، فانه زاخر بالموضوعات والمعلومات الوفيرة ، من : حركة الأمير أبى بكر بن عمر الى الصحراء ، وتسمية يوسف بأمير المسلمين ، وعبوره الى الأندلس ، وثورة ابن جحاف ببلنسية ، وأخبار البلاد الشرقية ، وحرق الاحياء ، الى ولاية على بن يوسف ، وتاشفين بن على ·
ومما يحمد للمحقق محاولته استكمال تلك القطعة بتزويدها ، بالملاحق

الخمسة فى : ترجمة يوسف وبعض أعماله ، الى جانب المعلومات عن القادر ابن ذى النون ، والقاضى ابن جحاف فى بلنسية ٠

ابن أبى زرع (ت حوالى ٧٤٠ هـ/١٣٣٩ م) :

وكتاب ابن أبى زرع الذى يعتبر من نوع كتب التـاريخ المحلى ، من حيث انه يحمل عنوان « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » (الرباط ١٩٧٣) فكأنه من كتب تاريخ المدن . حتى شبهه جوتييه بكتب الارشـــاد السياحى ، من حيث عنـايته الفائقة بمعالم مدينة فاس القديمة ، التى ما زالت باقية الى اليوم ، لتجعل من فاس بحييها « البالى » و « الجديد » تحفة فى متحف « المغرب » الحديث ، من تحف العصور الوسطى التى تعتز بها بحق مديرية الآثار هناك ، وقد يكون ذلك من مبررات ترجمة الكتاب الى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة ، من الألمانية والبرتغالية والأسبانية ، بل والقديمة مثل ترجمة طورنبرج اللاتينية ٠

ورغم ذلك فروض القرطاس يعتبر بحق أيضا مصـــدرا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ « المغرب » (الحديث) من : الأدارسة وحتى العصر المرينى فى أوائل القرن الثامن الهجرى/١٤ م ٠ والمؤلف يعرض بشكل عام لتاريخ دول المغرب دون توثيق أو اسناد . ودون اتباع منهج الحوليات التاريخى ، وان كان قد عوضه بأسلوب شبيه آخر ، وهو انهـاء تاريخ الدولة بعرض لأهم الاحداث ، من اجتماعية واقتصادية وظواهر كونية مع وفيات الاعيان ٠ وهو فى ثنايا عرضه يلجأ الى استكمال تواريخ آثار فاس وخاصـة جامـع القرويين حيث يعالج أعمال الدول المختلفة حتى أيامه ، مثلما يتكلم عن أعمال يوسف بن تاشفين فى الجامع العريق بعد أعمال العامريين (سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) (ص ٥٩) ، ويتبع ذلك بأعمال الموحدين والمرينيين ٠

وفيما يتعلق بتاريخ المرابطين فهو يشغل قسما معتبرا من الكتاب ، تحت عنوان الخبر عن ظهور الدولة المرابطية اللمتونية ، وقيامهـــا بالمغرب والقبلة ، وبلاد الأندلس ، وذكر ملوكهم ومدة أيامهم الى انقضائها وذهابها٠ وهكذا تتوالى على دولة المرابطين بعد عبد الله بن ياسين ٤ (أربعة) عهـــود نسمى بالدول ، وهى دولة كل من : الأمير أبى بكر بن عمر (ص ٣٣) مع وفاة زينب النفزاوية سنة ٤٦٤ هـ (؟) ، والأمير يوسف بن تاشفين ثم ابنه على وحفيده تاشفين — دون اعتبار للمراهق : ابراهيم بن تاشفين — آخرهم٠

ورواية البكرى واضحة المعالم ، فى الفترة المرابطية الأولى ، وكذلك

رواية القاضي ابن جنون (قنون) (ص ١٦٦) الذى يعتبر من مصادر ابن شداد ٠

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) :

يعالج ابن خلدون دولة المرابطين عرضا فى اكثر من موضع ، فهو يعرض لها فى المقدمة ، كما يعالجها فى تاريخ البربر على مستوى الدولة ، وعلى مستوى القبيلة من : لمتونة الى غيرها ، مثل : مسوفة ٠ وهكذا يعرض للمرابطين تحت عنوان : الطبقة الثانية من صنهاجة ، وهم الملثمون ، وما كان لهم بالمغرب من الملك (ج ٦ ص ١٨١ ، من ط ٠ بولاق المصورة ببيروت) ٠ ويتناول هذا القسم العناصر الآتية : الملثمون من صنهاجة (ص ١٨١) ، وتاريخهم الأول من بداية اسلامهم ، وفيه يظهر أثر البكرى ، كما تأتى الاشارة أكثر من مرة الى ابن أبى زرع ، (١٨١ — ١٨٢) ، والخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك (١٨٢) ٠ وهو فى عرضه لحرب يوسف بن تاشفين لمغراوة وبنى يفرن فى فاس وتلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط يذكر ما حدث به المؤرخون بشكل عام ، ويخصص عندما يذكر قول صاحب : نظم الجواهر (ص ١٨٤) الذى لا نعرف ان كان يقصد به صاحب نظم الجمان (ابن القطان) أم لا ، قبل أن يوجه أنظاره ، نحو الأندلس والعبور الى الفونس الـ ٦ (ص ١٨٦) ، وسوء العلاقة بملوك الطوائف والفتوى بخلعهم (ص ١٨٧) ، ومخاطبة الخلافة العباسية ، ومخاطبة الغزالى له (ص ١٨٨) ، وملك على بن يوسف ، والصراع مع الفونس الـ ٦ الى ظهور المهدى محمد بن تومرت (ص ١٨٩) ٠

ونص ابن خلدون ما زال فى حاجة الى تحقيق ، فكثير من الأسماء بل والتواريخ محرفة نتيجة لأخطاء النساخ وكذلك الأمر بالنسبة لعدد من التواريخ ، وهذا ما يظهر فى ترجمة دسلان وتصحيحاته التى يمكن أن تساعد كثيرا فى اعادة تحقيق النص ٠ فـ « تاوكا » صححتها « تاركا » (طارقه ، تارغه) على سبيل المثال ، وبنو « صولان » : بنو مولان ، وكاكرم: كاكدم (قاقدم) ، و « بثولوثان » : « يتلوتان (ج ٦ ص ١٨١) ، « وتيزاو بن وانشق بن بيزا» : تينزوابن واشنق بن بيزار ، و «ناشرت» : نارشت، و «الكندالى» : الكدالى (الجدالى) (ج ٦ ص ١٨٢ د والترجمة ج ١ ص ٦٥)٠

وتأتى (فى ص ١٨٣) قراءة اسم « لقوط » (البرغواطى — صاحب سبتة وأغمات) ليعتمد صححتها دسلان فى شكل «Laghout» بدلا من «سكوت»

التى تأتى فى ابن خلدون فى مواقع أخرى ، والتى أصبحت دارجة عند غير ابن خلدون من القدامى والمحدثين بدلا من لقوط ٠

ومثل هذا يقال عن بعض التواريخ مثل : اســتيلاء الفونس الـ ٦ (الطاغية) على بلنسية سنة ٨٥ (١٠٩٢/٤ م بدلا من ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) وجواز يوسف الثانى سنة ٨٦ (٤) هـ/١٠٩٣ م بدلا من ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م (ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٩) ٠

والمهم فى رواية ابن خلدون أنه اســتطاع أن يقابل بين الروايات المتضاربة ، وأن يختار الصحيح منها ، وأن يستبعد الروايات القصصية ، ويقدم رواية سليمة وان كانت مختصرة ٠ والمهم أن يتهيأ من ينقيها ممــا شابها من تحريفات النسخ والنقل ٠

« الحلل الموشية » فى الأخبار لمراكشية (لمجهول انجزها فى ربيع الأول سنة ٧٨٣ هـ/مايه ١٣٨١ م) :

ورواية الحلل رغم تأخرها النسبى وسرعتها تعتبر من المراجع الهــامة بالنسبة لتاريخ الدولة المرابطية ، من حيث أنه يمكن عن طريقها سد بعض الفراغات فى تاريخ المرابطين سواء فى المغرب أو الأندلس ، أو اكمــال ما تعانى منه بعض الروايات من الخروم أو القطع ٠ هذا ، كما تميزت هــذه الرواية المجهولة المؤلف بتوازنها من حيث العناية بكل من المغرب والأندلس بنفس القدر ، وكذلك الأمر بما فيها من توازن فى تقييم العمـل المرابطى بالأندلس دون تحيز لأى من موقفى الأندلسيين والصحراويين الملثمين ، بما يمثله كل طرف على المستويات الحضارية والانسانية ٠

وصاحب الحلل يذكر بعض الكتب التاريخية التى أخذ عنهــا ، مثل : البكرى ، وأبى يحى بن اليسع ، صاحب كتاب المغرب فى محاسن المغرب (ص ٦٢) ، وكذلك محمــد بن الخلف (ص ٦٦) ، الى جـانب روايات المعاصرين من شهود العيان ، ذوى المناصب المعتبرة ، مثـل : محمـد بن عبد العزيز بن الامام : أحد خواص المعتمد بن عباد (ص ٥٧) ٠

والمهم أن صاحب الحلل ينفرد ببعض المعلومات التفصيلية ذات الشكل الديوانى ، من حيث العناية بالعدد والوصف الدقيق ، مثل : قائمة الهدية الذى قدمت من قبل يوسف بن تاشفين الى ابن عمه الأمير الأكبر : أبى بكر ابن عمر ، عند عـودته من الســودان ، والتى احتـوت دنانـير الذهب ،

والأفراس والسيوف المحلاه بالذهب وأنواع الملابس الثمينة ، من العمائم المقصورة والأثواب السوسية ، والبرانس الملونة ، وقباطى الشاش الملونة ، والجوارى الأبكار ، وأرطال العود الغالى والمسك الطيب والعنبر والند ٠٠الخ والحقيقة أن النص على أن يوسف كتب الى أبى بكر كتابا يعتذر فيه عن قلة الهدية (ص ٢٨) ، ربما تعنى أن مصدر تلك المعلومات التفصيلية المدهشة هى تلك الرسالة ، على ما نظن ٠

هذا الى جانب ما يعرضه صاحب الحلل من خطابات رسمية بمناسبة اتخاذ لقب أمير المسلمين (ص ٢٩) ، أو بمناسبة استصراخ المتوكل بن الأفطس بأمير المسلمين (ص ٣٤) ، وكذلك المعتمد (ص ٤٥) وهو مايعنى الثقة فى الأصول الديوانية (الوثائقية) فى الحلل الموشية ، بصرف النظر عن سرعتها واضطراباتها أحيانا ٠

الأوراق الرسمية والوثائق :

والحقيقة أنه كان للاندلس بحضارتها الديوانية العريقة التى كانت قرطبة ما زالت تحتفظ ببعض بقاياها ، أثرها على الكتابة التاريخية للدولة المرابطية والموحدية ، وهما الدولتان العريقتان فى أصولهما الصحراوية « والجبلاوية » ، من حيث طغيان المادة الوثائقية المتمثلة فى الرسائل الرسمية الصادرة من دواوين الطوائف ٠ وانه لما يؤسف له أنه لم تصلنا - بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عمت كلا من الأندلس والمغرب فى القرون التالية - أية نماذج أصلية من تلك الرسائل ٠ فالذى وصلنا منها هى نماذج مشوهة نقلها الهواة من : كتاب أدباء أو مؤرخين هواه بعضهم عن بعض ، حتى وصلت الينا مشوهة الصورة والنسخ ٠ ولما كان كتاب هذه الرسائل من الأدباء والشعراء أصلا ، كانت غلبة الطابع الأدبى على تلك النسخ من الرسائل الى جانب الاسراف فى استخدام المحسنات اللفظية ، والتشبيهات والاستعارات ، مما يحد ان لم يمنع الاستفادة منها الى حد كبير ٠

بروفنسال :

ويرجع الفضل للأستاذ بروفنسال فى الكشف عن مجموعة مخطوطة من الرسائل الرسمية المرابطية والموحدية ، اكتفى بنشر الأخيرة منها لأنها كانت أحدث وأوثق (نشر الرباط ، ١٩٣٤) ٠ أما بقية الرسائل المرابطية

الأقل قيمة وفائدة فقد كان من حسن الحظ أن لقيت من عكف على دراستها من المختصين اقتداء ببروفنسال ·

مؤنس ومكي وعنان :

فكان لحسين مؤنس نشاطه في هذا المجال حيث نشر بعض الرسائل في المجلة المصرية للدراسات التاريخية (١٩٤٩) ، وفي صحيفة المعهد المصري بمدريد (١٩٥٤) ، وخاصة تلك الرسائل التي نشرها في دراسة عن الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة (مصر ١٩٩٢) ، وتحتوى على ٤ (اربع) رسائل ، أولاها عن موقعة أقليش (٥٠١ هـ/١١٠٨ م) . والثـــانية عن سقوط سرقسطة (٥٢٣ هـ/١١٢٩ م) ، والثالثة والرابعة عن هزيمة القلعة (٥٢٣ هـ/١١٢٩ م) · هذا ، كما قام محمود مكي بتحقيق ونشر ماكان قد بقي من رسائل بروفنسال (المرابطيـــة) ، وهي ٢٢ (اثنتان وعشرون) رسالة مرابطية في موضوعات مختلفة ، منها : لقاء ابن رشد بيوسف بن تاشفين ، بمناسبة مسألة المعاهدين ، وغزو منطقة طليطلة على عبد على بن يوسف (٥٠٧ هـ/١١١٣ م) ، ورسالة موجهـــة سنة ٥٢٣ هـ/١١٢٩ م الى قاضي ريه عن زيادة اختصاصات القضـــاة ، ووصايا عـلى بن يوسف الى رعيته الأندلسيين (٥٠٠ _ ٥٠٨ هـ/١١٠٦ _ ١١١٤ م) ، ورسالة من مراكش سنة ٥٠٦ هـ/١١٠٢ م عن مركز الفقهاء المميز لدى المرابطين ، وعن أحوال بلنسية التي اســـتنقذت من السيد (٤٩٥ هـ/١١٠٢ م) ، واستدعاء الكاتب ابن أزرق سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م لاستخدامه في ديوان انشائه ، وتولية شخص على ميورقة ربيع ٥١٠ هـ/١١١٦ م ، ورسالة في قتل الجراد (لابن القبطرنة) · هذا كما نشر محمد عبد الله عنـــان بعض الرسائل المرابطية في ملحق كتابه عن المرابطين والموحدين ·

أما عن أهم الأدب التاريخي الخاص بالمرابطين في الأندلس ، فهو ذلك النوع الذى يأخذ شـــكل المذكرات الشخصية ، سواء كانت معـاصرة أو متأخرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجي ، وأعلام ابن الخطيب ، ومعجب عبد الواحد المراكشي ، وأخيرا ذخيرة ابن بسام ·

مذكرات الأمير عبد الله (٤٦٩ _ ٤٨٣ هـ/١٠٧٦ _ ١٠٩٠ م) :

تعتبر مذكرات الأمير عبد الله المعروفة « بكتاب التبيان » من المصادر الهامة بالنسبة للتدخل المرابطي في الأندلس · ففي مقدمتها ينص الأستاذ بروفنسال (ذخائر العرب ، رقم ١٨ ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨) على أن تلك

المذكرات التى دونت أثناء الاقامة الجبرية لمؤلفها فى أغمات ، تمثـــل أعظم مجموعة وثائق وصلت الينا فى تاريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويرا ٠

والحقيقة أن المؤلف يستهل مذكراته تلك بمقدمة يقرر فيها الطريقــة التى اتبعها فى الكتابة ، وهى التى تمثل منهجا معتبرا فى أسلوب التأليف ، من : جودة الصياغة ، والأمانة فى النقـــل ، ومراعاة ترابط الأحـــداث ، واستخدام العقل فى القيـــاس ، مـع مقارنة المـاضى بالحاضر من حيث أن الـ « أنا : آن الآن » ، بمعنى أن ادراك الوجود هو ذات الزمان ، كما نظن٠ وهو اذ يعرف أن التجربة مهمة فى التعليم ، فانه يدرك أيضـا أن : ليس العلم بكثرة الرواية ، انما هو نور يضعه الله فى القلوب ، بمعنى أن العلم لا يعنى بالتكرار والاعادة ، بل بالكشف والتجديد ، وهو ما يشبه الاستنارة العقلية لدى المـاوردى فى باب العقل من أدب الدنيا والدين ٠

وينص الأميرالغرناطى وطنا الصنهاجى أصلا ، على أهميـــة التمرس بالتجربة السياسية بالنسبة لأمثاله من الأمراء المستقلين بالحكم والادارة ٠ وهو فى ذلك يأخذ بمقالة كل من الفارابى والمـاوردى فى أن صناعة الحـكم والرئاسة هى أشرف الصناعات ، الأمر الذى يتطلب أن يـكون صـــاحبها فيلسوفا عالمـا ، شبه معصوم من الخطأ[1] ٠

ولا ينسى الأمير عبد الله فى مذكراته التنبيه الى الاســتفادة بتجارب المـاضى التاريخية ، حيث الاشارة الى ذاتية الأحداث التاريخية ، وأهميـة الصدفة فى المسار التاريخى ، كما فى قصة تسلم المنصـــور بن أبى عامر لقمة السلطة فى قرطبـــة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لهم فى غرناطـــة (المذكرات ، ص ١٨) ٠

أعمال الأعلام لابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٥ م) :

وهذا الكتاب هو الآخر من روائع الأدب التاريخى المتخصص فى عصر ملوك الطوائف رغم تأخره بشهادة مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب ، أحـــد كبار رجال السياسة والأدب فى القرن الثامن الهجرى/١٤ م ، مثل معاصره وصديقه ابن خلدون ٠

---

(١) أنظر للمؤلف ، المـاوردى بين التاريخ والسياسة ، جامعة الاسكندرية (الموسم الثقافى) ١٩٧١ ، ص ٦٢ ٠

فلقد جمع ابن الخطيب مادة تاريخية غنية عن تلك الفترة ، جعلت روايته ترقى الى مستوى المصدر الأصيل ، تماما كمـــا هو الحال بالنسبة لروايته المتأخرة عن غرناطة القرن (الـ ٨ هـ/١٤ م) الموسومة بالاحاطة حقا ، الى جانب كونها أساسية بالنسبة لأصول نظام الطوائف وجـذوره التي عرف في رجل السياسة والأدب كيف يكشف عن مظانها المعتبرة ، كما كان لديه الذكاء والخبرة الميدانية التي تمكنه من بيـان عللها ومعرفة خباياها .

فنشأة نظام الطوائف كان نتيجة طبيعية لسقوط خلافة قرطبة التي أعلنها شيخ الجماعة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور عندما اتفق على خلع هشام المؤيد ، وابطال رسم الخلافة جملة ، حيث تقسم بعدئذ رؤساء الطوائف البلاد والأقطار (أعمال اعلام، نشر بروفنسال ، ص ١٣٩) ، تماما كما كانت الدكتاتورية العامرية من الأسباب المباشرة لسقوط الخلافة ، من حيث أجهدت البلاد في اقامة آلة حربية ضخمة ، واستئناف نظام الصوائف السنوية ، في وقت كانت الأوضاع قد استقرت فيه على طول الثغور الشمالية ، وكأنها حدود نهائية .

والمهم هنا هو أن قرطبة العاصمة المدنية العمـــلاقة ، المكونة من ٢١ (واحد وعشرين) حيا والتي بلغ محيطها ٢٥ كم ، وعدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة كانت المدينـــة الوحيدة القادرة عـــلى ربط أطراف الأندلس بعضها الى بعض ، وفرض سلطانها تحت رايات حكومتها المركزية (ص ١٣ وما بعدها) . فبعد أن سقطت قرطبة في مستنقع الفتنة تحولت من عاصمة حامية الى ساحة قتال مفتوحة لا يغشاها المتنافسون على السلطة من العرب والبربر والصقالبة فقط ، بل والحلفاء المسيحيون من ممالك الشمال (ص ١١٣ ــ ١١٤) . هذا ، كما كان استيلاء العباديين على قرطبة يحقق لهم التفوق على غيرهم من رؤساء الطوائف (ص ١٥٤) .

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ت ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م) :

يعتبر ابن بسام من شهود عصر الطوائف ، وتتلخص أهمية كتـابه « الذخيرة » في أنه كتاب أدب وتاريخ ، اذ يرجع ابن بسام فيه الى تاريخ ابن حيان المعروف بالمقتبس والذي يعتبر بدوره كتاب تاريخ وأدب ، الأمر الذي ينفث فيه شيئا من الحياة رغم الاختلافات المنهجية بين العلمين(١) .

---

(١) عن كتاب ابن حيان ، انظر أحمد مختار العبادي ، مجلة عالم الفكر (الكويت) ، المجلد ٨ ، العدد ١ ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٤٧ ــ ٤٩ .

والكتاب الذى يأخذ بشكل السير أو تراجم الرجال مقسم جغرافيا الى ٤ (أربعة) أقسام ، ثلاثة منها حسب تقسيم بلاد الأندلس ، الى : الوسط وتمثله قرطبة والغرب حيث اشبيلية وما يتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط ، ثم الشرق وما يتصل به من الجزر والثغور ، حيث يعالج أهل كل اقليم على حدة بينما يخصص القسم الرابع والأخير للطارئين على البلاد من الشعراء والكتاب الى جانب بعض المشاهير من المعاصرين من أهل أفريقية والشام والعراق ٠

ابن بسام وابن حيان :

والحقيقة أن ما يعطى الكتاب شكله التاريخى المميز بالنسبة لبلاد الأندلس فى عصر الطوائف بخاصة أنه يعالج فى كل من الأقسام الثلاثة الأولى عددا من رجال الدولة والكتاب الى جانب الأدباء (المقدمة ، ص ٥) ، كما أنه يعول فى معظم ذلك على تاريخ أبى مروان ابن حيان (المقدمة ، ص ١٨) ٠

واذا كان ابن بسام قد عدل فى نقوله من أبى مروان بن حيان ، سواء من التاريخ الكبير المعروف بالمتين أو من تاريخ ملوك الطوائف الذى عده المعاصرون من « فرص العمر وغرره » حيث حسن التصرف فى المادة المقتبسة ، من الاختصار أو التخفيف حسب مقتضى الحال ، الى جانب التمسك الواضح بأصول منهج البحث التاريخى ، من : التثبت من صحة النص المكتوب بخط المؤلف الى سلامة طريقة البحث وهدفه ، والنقد لما يعرض له ابن حيان فى المقدمة ٠ هذا ، وان قرر فى الختام « أن المؤرخ متهم على كل حال »(٢) ٠

واغراض البحث كما يعرضها ابن حيان تتلخص فى الآتى :

- الاعتبار بدروس الماضى ، الأمر الذى يقضى باستقصاء الأخبار ، والعناية بتقييد شاردها وواردها ٠

- واذا كان اضطراب الأحداث بسقوط الخلافة ، وفتنة الطوائف قد

---

(٢) الذخيرة ، ق ١ م٢ ، ص ٥٧٣ - حيث التمثل ببيت الشعر الذى يقول فيه ابن الرومى :

مهما ثقل فسهام منك مرسلة   وفوك قوسك والأعراض اغراض

جعلت ابن حيان يتوقف عن جمع الأخبار أو يتعذر عليه متابعتهـــا لبعض الوقت ، فانه يعود الى استئناف تقييد الأحداث من لدن أهل العلم والأدب ، وان كان بشكل لم يرض نهم الباحث المجتهد ، اذ يقول : « لزهد من قبلنا قديما وحديثا فى هـــذا الفن ، ونفيهم له عن أنواع العلم » (ق ١ م ٢ ، ص ٥٧٦) ٠

والمهم أنه نجح فى وصل ما كان قد انقطـــع من أخبار بداية فتنـــة الطوائف ، وأخبار أبطالها وشهود حروبها ، مما أسعفته به الذاكرة أو اخذه عن أهل الثقة ، أو ما سمحت بمشاهدة الأحداث التى ظل بعضها يأخـــذ بخناق بعض حتى اكتمل نظمها وانتشرت مطاويها ، وأعلنت خوافيها دون محاباة لها أو خوف عليهـــا من سطوة الحق أو صرامة الصدق (ق ١ م ٢ ص ٥٧٧) ٠

والظاهر أن مؤرخ الأندلس ابن حيـان انتابته أزمة نفسية منعته من متابعة دورة تاريخ الطوائف أشبه بتلك التى انتابت ابن الأثير عندما توقف لفترة من الوقت عن التـــاريخ لغزو جنكيز خان لدولة خوارزم مشاه ، على اعتبار أن اعلان مثل هذا النبأ الخطير كان فى رأيه بمثابة نعى للاسلام فى تلك الجهات المشرقية من أواسط آسيا ٠ والحقيقة أن ابن حيان بعد أن توقف عن اعلان أخبار عصر الطوائف فى الأندلس ، عـــلى اعتبار أنه نعى لخلافة قرطبة المروانية ، رأى أن التاريخ لدويلات المشرق الايرانى — التركى التى ظهرت بشكل قوى ، الى جانب خلافة بغداد الضعيفة ، اعتبـارا من القرن الثالث الهجرى/٩ م ، هى النموذج الذى يمكن أن يقتدى به فى التـأريخ للأندلس اعتبارا من مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م)[١] ٠

---

(١) انظر الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ص ٥٧٧ — ٥٧٨ حيث النص على أنه استمر فى التاريخ لعصر الفتنة الطائفية ، اسوة بالمتاخرين من أصحاب التاريخ بالمشرق كالحصنى وابن القواس والفرغانى (ت ٣١٢ هـ/٩٣٤ م ، الذى له صلة لتاريخ الطبرى) ، ونظرائهم من أعلام الفقهاء الذين عاصروا الفتنـة التى لحقت بالمشرق اعتبـارا من أول القرن الـ ٤ هـ / ١٠ م ، حيث تصريحهم باخبار امرائهم المتوثبين على المملكة عند وهن منقلدى الخلافة منهم ٠ فالأمر ما اعتنوا بذكر اخبار الأعاجم هناك من الديلم والأتراك ، مع عدم الفائدة فيها ، ونفشى العار بوجوهها ، وبعدها مما كتبه من قبلهم من اخبار ملوك العرب فى صدر الاســلام لفظا ومعنى ، وعقدا ومبنى ، حتى توسعوا فى ذكرها وتناهوا فى التنقيب عنها — وان ذلك لا محالة كان لاستغرائهم من شانها ٠٠٠ واشار لهم الى انها طرقت هادمة لما بنته الدنيا ، ومنيرة لمحاسنها مزهدة فيها ، مؤذنة بانقطاعها ، لكى يكون البقاء لمن تفرد بجبروته ، ويدام البهاء لمن لا تتسلط =

وبنـــاء على ذلك استكمل ابن حيـان تاريخه الكبير بتاريخ رؤساء الطوائف ، وكان له رأيه الخاص فى أولئك الملوك الصغار الذين حملوا الالقاب الملوكية التى حملها الخلفاء ، الأمر الذى كان يثير استنكار البعض أو سخرية الآخرين · وهذا ما أخذ به الجمهور العريض من الناس ، وان لم يمنع ذلك أصحاب المآرب الخاصة من قبول نظام الطوائف كنوع من نظام حكم المتغلبين الذى يعتبر ظاهرة سياسية تاريخية فى حالة عجز الحـكومة المركزية عن ضبط الأمور فى الأصقاع البعيدة ، فكأنه نوع من الحكم المؤقت الذى ينتهى بنهاية أسباب وجوده · وفى هذا الشأن توجـد مادة متنوعة فى ذخـيرة ابن بسام تعبر عن مختلف وجهـات النظر من عامة شاملة أو خاصـة محدودة ·

عبد الواحد المراكشى (أنجز مؤلفه سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) :

يعرف عبد الواحد المراكشى بمؤلفه فى تاريخ المغرب والأندلس الذى يحمل عنوان « المعجب فى تلخيص أخبار الأندلس والمغرب » الذى ألفه فى المشرق فى أواخر شهر جمادى الثانى ٦٢١ هـ/يونيه ١٢٢٤ م · وتتلخص أهمية الكتاب فى أهمية صاحبه عبد الواحد الذى يعتبر واحـدا من كتاب الدولة الموحدية ، من حيث صلته بالأمير اسحق بن يعقوب المنصور الذى كان حاكما لاشبيلية على أيام أخيه الناصر ·

ورغم أن عبد الواحد كتب المعجب فى بغداد فالكتاب يعتبر ، بسبب مركز صاحبه الاجتماعى ، وثيقـة هامة بالنسبة لتـاريخ المرابطين رغم اهتماماته الأدبية الخاصة ، حيث التعريف بكثير من الشخصيات الأدبيـة السياسية من ملوك الطوائف وكتاب دواوينهم — وهو من هذا الوجه له رأى يميل فيه بشدة الى المعتمد بن عباد ولكنه لا يبتعد بنفس القدر عن يوسف ابن تاشفين ·

هذا ولعبد الواحد الذى يعتمد كثيرا عـلى الحميدى (ص ٦٩) رغم

= الغير على ملكوته · فركبت سفن من تقدمنى فيما جمعته من ملوك هذه الفتنة البربرية ، وأنظمته وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة وسبب انتقاض دولهم ·· وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخباه لولدى ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب احمادى به الى ذمى ومنقصتى ·· الى ان رأيت زفافه الى ذى خطبة سنية أتتنى على بعد الدار ··· الأمير المؤثل الامارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين : يحيى ذى النون ·

تصريحه بتشتت الذاكرة واعتذاره بغياب كتبه ، نظرات عميقة فى السياسة وشئون الحكم · فالأندلس كانت كرسى المملكة الى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين فصارت اذ ذاك تبعا لمراكش من بلاد العدوة (ص ٥) ، وأهم سمات طليطلة التى زلزلت أخبار سقوطها أهل ذلك العصر ، هو القرب من وسط الأندلس (ص ٧) ، تماما كمـــا يلح على ذلك الحميرى صـــاحب الروض المعطار · وهو بالنسبة لعصر الطوائف فى الأندلس يقدم روايات وثائقية جيدة ، مثل : قرطبة التى تحولت على عهد ابن جهور الى جمهورية شعبية ، جنودها أهل الأسواق وان كان ابن جمهور يدير أمورهـــا بأسلوب الملوك المتغلبين (ص ٥٩ — ٦٠) الذين حملوا ألقاب الخلافة (ص ٧٠) ·

واذا كانت أطماع « الروم » (الأسبان) قد قويت فى بلاد المسلمين فقد انقطع هذا الطمع بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبى يعقـــوب يوسف بن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر عـــلى ابنه عـــلى ذلك (ص ٩٢ — ٩٣) ·

ورغم نقده لرؤساء الطوائف بعامة فهو يعرف للمخبرين منهم قدرهم · فعلى بن مجـــاهد الذى خلف والده فى دانية وميورقة : مصـــون النفس طاهرها لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، مؤثر للعلوم الشرعية ، توفى قبل فتنة المرابطين بيسير « لا أتحقق تاريخ وفاته » (ص ٧٤) · والمتوكل عمر بن الأفطس ناظم ناثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، قتله المرابطون وولديه الفضل والعباس ، ضربوا أعناقهم فى غرة ســـنة ٤٨٥ هـ/فبراير ١٠٩٢ م · وفيهم قال ابن عبدون قصيدته الغراء ، ومطلعها :

الدهـــر يفجع بعـــد العين بالاثر	فما البكاء على الأشباح والصـــور
أنهـــاك أنهـــاك لا آلوك موعظة	عن نومة بـــين ناب الليث والظفر

(ص ٧٥ وما بعدها)

وهكذا كان عبد الواحد الأديب يرى فى المعتمد بن عباد صنوا لهارون الرشيد : ذكاء نفس وغزارة أدب الى فضائله الذاتية من الشجاعة والسخاء ، وهو على الجملة ، اذا عدت حسنات الأندلس فهـــو أحدها ، بل أكبرهـــا (ص ١٠١) · وهذا لا يمنع من اعترافه ليوسف بن تاشفين بقدره ويمن نقيبته التى قطع الله بها طمع العدو فى بلاد المسلمين ·

التراجم :

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض أهم مصـــادر تاريخ المرابطين فى المغرب والأندلس فلا يبقى الا الاشارة الى كتب التراجم التى استفدنا منهـا فى الدراسة ، مثل صـــلة ابن بشكوال وصلتها لابن الأبار ، وهى التى خصصنا لها صفحات داخل الدراسة ، وحاولنا الاستفادة منها فى حل بعض المشاكل المتعلقة بضبط التواريخ ، مما يظهر فى صميم العمل • وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات الحديثة التى أشرنااليها فى كثير من المواضع ، مع اعتذارنا لمن سقط ذكره ـ عن غير قصد •

المرابطون : صنهاجة الصحراء الملثمون في المغرب والسودان والأندلس

التمهيـــد :

اذا كان قيام دولة بنى زيرى خلفاء الفاطميين فى افريقية والمغرب ، اعتبارا من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، قـد حقق غلبة قبائل صنهاجة أفريقية أنصـــار الفاطميين المتأخرين عـلى الكتاميين أنصارهم الأولين السابقين الذين انتقلت بقاياهم مـــع قوات الخـلافة الى القاهرة ، فان الهيمنة الزيرية لم تلبث أن تزعزعت من أصولها عندما رنت أبصارهم الى الاستئثار بالسيادة دون الخلفاء المصريين ، اعتبارا من منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) ٠

ومن المهم الاشارة الى أن القرن الخامس الهجرى (١١ م) له أهميـــة خاصة فى تاريخ عالم الاسلام من حيث كان قرن سيادة البـدو الرحالة ، سواء فى المشرق حيث ظهر الأتراك السلاجقة رعاة الخيل فى بلاد التركستان بأواسط آسيا ، ونجاحهم فى الغلبة على الخلافة فى بغداد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ، أو فى المغـــرب حيث كان العـــرب الهـــلالية يندفعـــون من صحراوات مصر نحو بلاد القيروان ، الأمر الذى كانت له ردود فعـــل عنيفة ليس فى أرض الاسلام فقط ، بل وفى العالم المسيحى المعاصر ، سواء فى بيزنطة التى كانت هزيمتها فى ملازكرد ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م ايذانا بتحويل أرض الروم (الأناضول) الى تركستان جـديد ، أو فى شبه جزيرة أيبريا حيث انتهت هزيمـــة قشتاله ، أقوى الممالك المسيحية على أيدى المغـاربة الصحراويين فى الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م الى دخول اسبانيا الاسلامية تحت الهيمنة المغربية فى عصر المرابطين وخلفائهم من الموحدين ثم المرينيين ٠

فلقد تسببت الهجرة الهلالية التى تمت تحت رعاية الخلافة الفاطمية ــ وان كان ذلك فى ظروف اقتصادية صـعبة بالنسبة لكل من مصر والخـلافة وعرب الهلالية مع من كان يصاحبهم من بنى سليم ــ فى قلب الأوضـــاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية (العرقية) فى أفريقية التونسية رأسا على عقب ، مما كانت له آثاره الهامة على مستقبل البلاد الى قرون عديدة ، بل وبشكل نهائى حتى أيامنا هذه ، وخاصـــة فيما يتعلق

بالتركيبة السكانية لكل الشمال الافريقى بدءا من برقة على تخوم مصر ، وانتهاء بالصحراء الغربية وموريتانيا حتى سواحل الأطلنطى ، وربما على بعض مجتمعات السودان الغربى أيضا · فمن الآثار السلبية للهجرة الهلاليه ضعف الزيريين فى المهدية وبنى عمومتهم الحماديين فى القلعة وبجاية ، الأمر الذى كانت له أصداؤه فى ضعف أوضاع المسلمين فى صقلية فى مقابل ازدياد التهديد النورمندى · كذلك خرج الصغار من أبناء زيرى بن مناد على أبناء عمومتهم ، ملوك المهدية وبجاية ، وانضموا الى خصوم العائلة من زعماء زناتة ، حلفاء الآمويين فى الأندلس · واذا كان بعضهم قد مد نشاطه الجهادى فى ثغور الأندلس ، كما نجح البعض فى اقتطاع مملكة هناك فى غرناطة ، فالمهم انهم شاركوا فى زيادة تفتيت الأندلس فى نظام ملوك الطوائف ، الذى أصبح وكأنه حتمية تاريخية مقدرة ، ليس على الأندلس فقط ، بل وعلى أفريقية والمغرب أيضا ·

وهكذا انتهى الأمر بانحسار النشاط الفردى للزعماء الزيريين ، مصحوبا بعجز الدولة عن مدافعة الهلالية أو مواجهة الخطر النورمندى · وتوالت النذر تبشر بزوال النظام الصنهاجى فى أفريقية ، واذا ببوارق الأمل تظهر فى الأفق البعيد بالمغرب ، فى شكل عملية انقاذ على أيدى جماعات صنهاجية أخرى ، لم يكن أفسدها الملك والترف بعد ، وهم صنهاجة صحراوات المغرب الأقصى من « الجمالة الكبار » ، طوارق العصور الوسيطة ، جوابة الصحراء الكبرى ·

الفصــل الأول

فى البــلاد والسكان

البــلاد :

وطن المرابطين الأصـــيل اذن ، هو الصحراء الغربية من الشـــمال الافريقى وامتداداتها : جنوبا ، حتى أوليل ومصب نهر السنغال على ساحل المحيط ، وشمالا فى موريتانيا حيث بلدة اطار ، على طريق نواكشــوط ـ مراكش ، حتى مدينة نول ونخوم السوس الأقصى • وشـــمالا بشرق فى صحراوات الجزائر الجنوبية حيث مرتفعات الحجار (الاحجار) عـــلى سمت وارجلان (ورقلة) وغدامس (شرقا) ـ وحيث مدينة توات (عين صـــالح حاليا) ، موطن الطوارق الحاليين ، أسلاف الملثمين من المرابطين ، وصحراوات ليبيا الجنوبية ، حيث مدينة « زويلة » القديمة جنوب فزان على الطريق الى هضبة تيبستى ، التى كانت بابا مفتوحا بين كل من السودان (الأوسط) وطرابلس ومصر • وشرقا ، من موريتانيا حتى بحيرة تشاد ، مرورا بصحراء مالى حيث بلدة تساليت فى منطقة أدرار افوراس ، من حيث يؤدى الطريق الجنوبى الى تومبوكتو غربا ، والى نيامى فى جمهورية النيجر ، جنوبا بشرق• وفى صحراء النيجر الشمالية الشرقية المتاخمة لتشاد ، تقــع هضبة آير التى تمد بحيرة تشاد ببعض المياه الموسمية ـ وحيث تقع مدينة (أجاديس) ، غير بعيد من تادمكة القديمة ، شرق أوغست • وبحــيرة تشاد تعتبر همزة الوصل بين النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد التى تقع عاصمتها «نجامينا» على نهر شارى (Chari) الذى يمد البحيرة بالقدر الأكبر من المياه[1] •

---

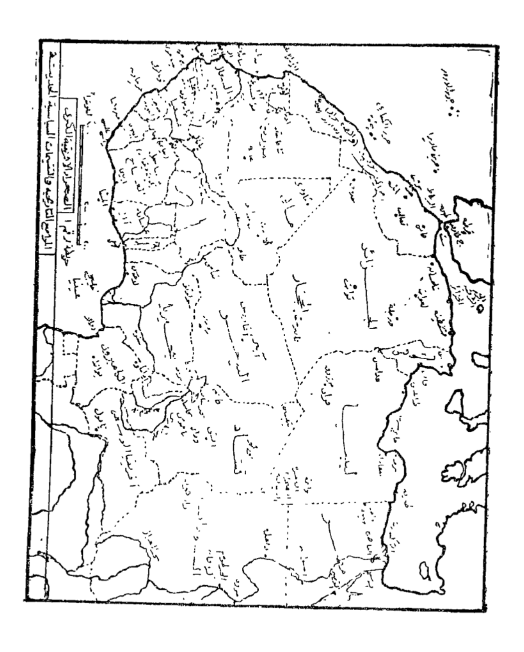
(١) أنظر أطلس مصر والعالم ، جيوبروجكنس ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، وقارن ، كولين ماكيفيدى ترجمة مختار السويفى ، ص ٧٩ وخريطة سنة ٩٠٠م ، ص ٨٥ وخريطة سنة ١٠٥٥ م • وقارن تحديد ابن أبى زرع ، القرطاس ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٢٠ (عن بلاد قبائل صنهاجة) حيث النص على أنها صحراوية كلها : مسيرة ٧ (سبعة) أشهر فى القبلة (الجنوب) طولا ، ٤ (أربعة) أشهر عرضا ، من نول لمطة (عـــلى تخوم الســوس الأقصى البحرية) الى قبلة القيروان ، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان • ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ ـ حيث تعداد قبائلهم ، ثم النص على انهم كلهم ما بين البحر المحيط (الأطلنطى) بالمغرب (الغرب) الى غدامس من قبلة (جنوب) طرابلس وبرقة • وقارن ليون الافريقى ، الترجمة =

الاقليم الصحراوى : السمات العامة :

بلاد المرابطين تعادل اذن ، فى وقتنا الحالى ، صحراوات موريتانيا والسنغال ومالى وأكثر النيجر ، ويحدها جنوبا الخط الفاصل بين الأجناس الصراوية البيضاء والأثيوبية السوداء ، امتدادا من مصب السنغال الى منحنى النيجر ، وحتى بلاد تشاد • أما الحد الشمالى فيتمثل فى سفوح جبال أطلس (الصحراوية) الجنوبية التى تنتهى غربا على ساحل المحيط ، وهو الحد الغربى للصحراء الكبرى ما بين مصب وادى السوس شمالا الى مصب السنغال جنوبا •

وتظهر أهم خصائص الصحراء فى بنيتها الرملية الجدبة ، التى قد تضطرب سطوحها بفعل الرياح كموج البحر ، فتنتقل من موضع الى آخر ، وتجلب معها التصحر والبوار • وهى عديمة الأمطار ، قليلة الرطوبة ،

= ص ٥١٧ وما بعدها ، حيث اقسام صحارى ليبيا الخمسة وهى : ١ ـ صحراء زناقة (صنهاجة الجافة القاحلة ، من المحيط غربا حتى ملاحات تغازه شرقا • وشمالا تخوم نوميديا وجنوبا حتى بلاد السودان ومملكتى ولاته وتومبوكتو ، ٢ ـ صحراء قنزيغة (ونزيغة) عند ابن خلدون (ص ٥١٩) وتمتد شرقا من تخوم تغازه حتى تخوم آيير ، وشمالا حتى سجلماسة (تافللت) ، ٣ ـ صحراء الطارقة (ص ٥٢١) من تخوم آيير شرقا حتى صحراء يفبدى غربا وشمالا حتى الزاب ، ٤ ـ صحراء لمه (لمطة ـ لمتونه ـ ص ٥٢٢) حتى صحراء برداوة (شرقا) ، وشمالا حتى ورقله (ورجله) وغدامس ، وجنوبا حتى كانو (مملكة الزنج) ، ٥ ـ صحراء برداوة (ص ٥٢٤) ، وتمتد شرقا حتى أوجله وشمالا حتى فزان وبرقة ، وجنوبا حتى بلاد البرنو ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى (ص ١٩٢) حيث الاشارة الى تقسيم الحسن الوزان ، وحيث زناتة ؟ بدلا من زنافة (زناجة : صنهاجة) ، وأنظر حسن احمد محمود ، المرابطون ، ص ٤٤ ـ ٤٦ ـ حيث الاشارة الى الاعتماد على البكرى (ق٥/١١) والادريسى (ق٦/١٢) ، وفيه تعريف بالوطن العام : ويمتد من غدامس (جنوب طرابلس) الى المحيط ، ومن درن (جبال أطلس ـ شمالا) حتى مصب السنغال والى منحنى النيجر والى تاد مكة والوطن الخاص الذى يمتد بين ترغه فى وادى درعه • وتلى بلاد لمتونه منطقة لمطه وجزوله ، من وادى نول حتى رأس موجادور الحالية • وشرقا الى مدينة ازكى (على ٧ أيام من نول) وهى حصن لمتونه ، وجنوبا يمتد وطن لمتونه الى صحراء نيسر الممتدة الى المحيط ، وقارن لنفس المؤلف ، المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين المجلة التاريخية المصرية مجلد ١١ ، ح ٦ ، ١٩٦٥ ، ص ١١٢ ـ حيث تحديد مناطق الطوارق ، وتوزيع قبائل الملثمين عن ابن خلدون • وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ١٥ ـ حيث يقابل مهد المرابطين : موريتانيا ، ومالى ، وغانا ، وأكثر النيجر • وانه يحده من الجنوب الخط الفاصل بين الأجناس الليبية ، والاجناس السودانية ، من مصب السنغال وحوضه الأدنى ، الى منحنى النيجر وحتى بحيرة تشاد • اما الحد الشمالى فيتمثل فى المرتفعات (السفوح) الجنوبية من جبال أطلس ـ وأنظر الخريطة رقم ١) •



خريطة رقم ١ الصحراء الأفريقية الكبرى – المواقع التاريخية فى التقسيمات السياسية الحديثة

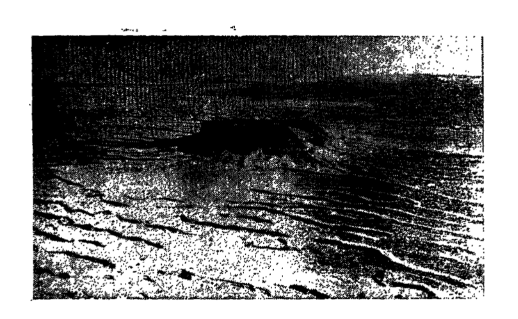
شديدة الحرارة التى قد تتعدى الـ ٥٠ درجة مئوية نهارا . وتتميز الصحراء بالمسافات الشاسعة التى كانت تقاس قديما ، ليس بمسيرة الأيام ، بل بالشهور طولا وعرضا ، بمعنى آلاف الكيلو مترات فى جميع الاتجاهات . ويترتب على كل ذلك ندرة فى السكان وقلة فى التجمعات العمرانية ، وبالتالى ضعف المستوى الحضارى بسبب الانغلاق القارى ، والبعد عن البحار رغم واجهة المحيط ، الذى كان يعرف أيضا ببحر الظلمات بمعنى المجهول .

وبطبيعة الحال لم يستطع بدو الصحراء الا اقامة جسور ضعيفة بين حضارات البحر المتوسط والحضارات السودانية المدنية ، الامر الذى ترتب عليه بقاء طريق الشرق التاريخى مفتوحا للانسان والحيوان والنبات ، من حيث لا يتغير التواتر فيه الا عند تغير الارتفاع(٢) .

---

(٢) أنظر جاك ريشار ــ مولارد ، افريقية الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ١١ ــ ١٤ . لاروز ، الجزائر ، باريس ، ١٩٥٠ (بالفرنسية) ، ص ٩٨ ــ ٤٩ ، وقارن جوبيه ، ماضى شمال أفريقية ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ، حيث التركيز على امبراطورية قرطاجنه التجارية قديما ، فى الربط بين حضارتها وبلاد السودان الغربى حتى قلب خليج غينيا الذى اكتشفته عن طريق البحر عبر مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) ، وانه بعد سقوط قرطاجنه حلت محلها لبدة (لبتيس ماجنا : طرابلس) التى أصبحت مركزا لتجارة ما وراء الصحراء برا عن طريق فزان ، وبعد ذلك استخدم تجار العرب نفس طريق القوافل القديمة . وهكذا ظهرت التأثيرات ، القديمة لحوض البحر المتوسط فى افريقيا الغربية السوداء ، الأمر الذى يشرح توزيع السكان . وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٣ ــ حيث المعنى اللغوى للصحراء الذى يشدد على صفة الاستواء والفضاء دونما أشجار أو جبال . اما الصحراء الكبرى فيحدها من الشمال الشرقى البحر فى برقة ، ومن الجنوب امتداد هضاب النيجر الذى يتفق مع انتشار النبتة التى تسمى « كرام ــ كرام » (cram - cram) ، ص ١٤ ــ حيث الاشارة الى زحف الرمال نحو الشمال ، والمثل لذلك منطقة الأغوار فى جنوب الجزائر ، والتى كانت صحراء فى أواخر القرن الماضى ، ص ١٧ حيث الرياح العاتية فى توات (بلاد الطوارق) . وقارن ابراهيم بن محمد الساسى العوامر ، الصرف فى تاريخ الصحراء وسوف . تونس ١٩٧٧ ، ص ٣٩ ــ ٤٠ ــ حيث النص على أن اسم منطقة سوف (جنوب شرق الجزائر) نسبة الى « السيوف » التى تعنى كثبان الرمل ذات القمة الحادة . والممتدة كالنصل ، ص ٤٦ ــ حيث النص على أن الرمل يأتى من الصحراء الكبرى من جهة الجنوب . وأنظر اسماعيل العربى ص ١٧ ــ حيث النص على انه بسبب الرياح وتحرك كثبان الرمل عرف أهل الواحات نظام التسقيف بالقبة المخروطية فى عمارة مبانيهم ، اذ هو يمنع تراكم الرمال عليها ، وتهديد المبنى بالسقوط .

وعن أشكال الكثبان الرملية شديدة الانحدار ، ذات القمة الحادة كنصل السكين ، والمعروفة فى الجزائر باسم السيف ، والتى يمكن ، عن طريق التقاطع أن تشكل هيئات هرمية =



شكل رقم ٢ ـ موجات الكثبان الرملية الصغيرة ـ جنوب ورجلة (الجزائر)

هكذا ظهر منذ القرن الـ ٣ هـ/٩ م ، الى جانب الطريق الغربى المؤدى من المغرب الأقصى ـ عبر مستنقعات ايجلى (مولار ، المقدمة ص ١٤) ـ الى غانة ومالى ، طريقان آخران ، هما : الطـــريق المؤدى من غرب الجزائر الى النيجر الأوسط (بلاد السونغاى) والطريق المؤدى من طرابلس الى بحيرة

= ونحسة ، أنظر والطون ، الأراضى الجافة ، ترجمة على شاهين ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، وعن الكثبان الهلالية الشكل (البرخان) ، حيث بعض النماذج فى موريتانيا والى الشمال من ثنية النيجر ، أنظر ص ١٢٣ ، وقارن جودة حسنين ، حسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٠ ، ص ٣٢٩ . كما توجد نماذج منها فى واحات مصر ، كما فى الخارجة ـ أنظر شكل ٢ عن أشكال هلالية قرب الخارجة ـ صورة للمؤلف بتاريخ يناير ١٩٦٣ .

تشاد (بلاد كانم شرقى البحيرة)(٣) ٠

بحار الرمل : مكوناتها النوعية :

تتكون رمال الصحراء المنتشرة على السطح نتيجة لتفتت صخور الكتلة القارية المكونة من الجرانيت والدولوريت (dolorite) مع صخور بللورية ، وأنواع من الصـــوان والعروق الصحراوية التى تنشطر وتتفتت نتيجـــة للتغيرات الجوية ، من الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، بـــين الصيف والشتاء ، والليل والنهار ، وما الى ذلك من هبوب الرياح وهطول الأمطار ، وجريان الأودية والسيول ٠ هذا الى جانب طبقات رسوبية تكونت على طول الأزمنة من أصول بحرية ، من : الأصداف والأعشاب والطحالب والقواقع ، كمـــا فى السنغال والنيجر والصحراء الوسطى ، وغـــيرها من النقـــاط

---

(٣) ن ٠ ماكيفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ ، وقارن لبون الافريقى ، الترجمة ص ٨٦ ـ حيث الاشارة الى صعوبة الرحلة فى الصحراء التى لا ماء فيها من حيث هى رملة برمتها ، ووجوب التزود فيها بالماء ، وخاصة على طريق فاس ـ تومبوكتو . وطريق تلمسان ـ أغادس ، الى جانب الحديث بعد ذلك عن صعوبة الرحلة المفتتحة مؤخرا بين فاس والقاهرة ، عبر صحارى ليبيا ، مع المرور بجوار بحيرة تشاد ٠ وقارن شعيرة ، المرابطون ص ١٦ ، ٢٠ ، ٢٣ ـ حيث الاشارة الى ٣ (ثلاثة) طرق أولها : الطريق القديم الذى يعادل طريق المناجم الحديث عبر موريتانيا ، من : تارودانت (شرقى أغادير) الى نول (تندوف حديثا) الى أوليل (سانت ايتين ـ ص ١٦) ٠ والطريق الثانى الى مالى وغانة وهو الأوسط ، من : سجلماسة (تافيللت) ، الى النيجر ، عبر درعه أو عبر أودغشت ـ وهو يقابل اليوم طريق كولمبشار ـ ادرار ـ منحنى النيجر من الشرق (ص ٢٠) ، أما الطريق الثالث ، فمن . نفوسه وطرابلس الى السودان الأوسط (تشاد) ثم الغربى (ص ٢٣) ٠ وانظر حسن محمود ، المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ ـ ١٩٦٥ ص ١١٦ ـ حيث الاشارة الى ان انتشار الاسلام كان يتم شرقا عبر منحنى النيجر وتشاد وبلاد الكانم ودارفور ٠



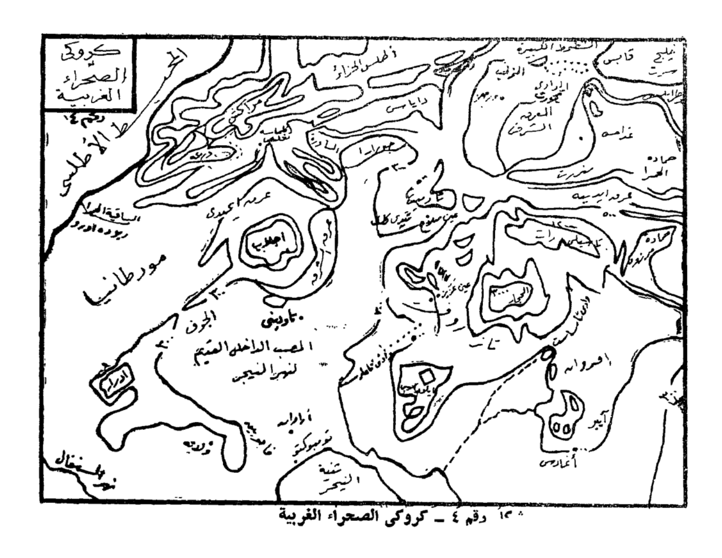
شكل رقم ٣ ـ أشكال هلالية (رملية) قرب الخارجة ـ الوادى الجديد (مصر)

الساحلية(٤) .

---

(٤) مولارد ، ص ١ ، ٢٧ ، وانظر جودة حسنين . وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ص ٧١ - ٧٢ - حيث يتكون الغلاف الصخرى للأرض من أوكسجين ٤٧٪ وسيليكون ٢٨٪ وألومنيوم ٥ر٧٪ وحديد ٢ر٤٪ وكالسيوم ٣ر٣٪ وصوديوم ... الخ . وحيث يكون غطاء الأرض من صخور نارية منها البازلت والجرانيت والسيانيت والدولوريت ، وصخور رسوبية ، منها الجيرية والرملية والطينية والغرينية ، حيث يتحول منها تحت الضغط الجرانيت (عن النيتيس (Gneisis) و(الشيست (Schist) (عن الطينية) والرخام (عن الجيرية) . وانظر لارنود ، الجزائر ، ص ٥٢ - حيث مصطلحات : العرق : كل شبكة من الحصى المكون بسبب هبوب الرياح ، بعد تسوية السطح وحمل الطبقات الخفيفة من الرمل ، تاركة طبقات الحصى المدور . الأخدود (ص ٥٣) وتعنى : سلاسل تلال الرمل الممتدة والتى قد تصل الى ٢٠٠ - ٣٠٠ م . البطن (ص ٥٤) : وتعنى الضلوع التى نشأت عن مجارى المياه القديمة والتى تمتد من مئات الأمتار الى الكيلو مترات ، الحمادة (ص ٥٤) : وتعنى الهضاب القائمة على طبقات جيرية كثيفة تحيط بالسهول . وقارن جوتييه ، الصحراء (بالفرنسية) ، ص ٤٦ - حيث تعريف الحمادة بأنها شكل من الترسيب الفيضى يظهر فى صورة الحصى المدور ، والأعمدة المنعزلة والحيطان الصخرية ، فكأنها طاولة من الصخر العارى الملمع بالرمل - كما فى الجزائر وطرابلس ، حيث يكون السير على الحمادة لعدة أيام متواصلة (وعن تعريف الحمادة عند العباشى ، أنظر ج ١ ص ٧٤) . وأنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٤٦ - عن التجمعات الأخدودية البحرية الحديثة ، التى توجد فى موريتانيا الجنوبية ، وعنها يقول الجولوجيون انه كان موضعها خليج اختفى من ٤ آلاف سنة ، ص ٤٧ حيث يرى مونو (Monod) ان هذا الخليج لا يؤثر على استقامة الساحل وان الاقليم مغطى بكثبان قديمة (من الرمل) ثبتتها النباتات الخضراء ، الأمر الذى يعنى عدم تغير الطقس من رطب الى جاف فى العصور التاريخية ، لا فى موريتانيا ولا فى غيرها منذ ألف سنة على الأقل .

وعن تنوع صخور الرمال ، أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤٠ - ٤٢ حيث ترجيح مقالة الأنطاكى (داود العشاب) التى تنص على ان الرمل أصله من جبال وأحجار فتتها الماء لطول الأزمنة ، ومن ثم تكثر قرب البحار والأراضى التى قلبت برا ، وص ٤١ - حيث القول ان رمل سوف ناعم كالدقيق المنخل ، وأنه ملح المذاق ، وفيه الحلو والمر والحريف (تبعا لاختلاف معادن الأحجار) - اما عن أسماء حجر الرمل الأحمر ، فالصلب : الوسن ، المركب ذو الرؤوس الحادة : كبشة ، والقطع الصغيرة : ورد ، واليابس عسر الكسر : سفة (صفا) ، اما الصوان فهو أشدها صلابة . والأرض الرسوبية السوداء تسمى بالبربرية : تتغرت أى غمرة أو الشهباء (ص ٤٣ وهـ ٩) . ومن الطبقات الرسوبية فى الأقاليم الصحراوية وشبه الصحراوية : « العرق الذى يعنى نوعا من المنخفض الممتد لعدة أميال فى شكل أرض مسطحة صلبة ، مكسوة بالحصى والمخلفات المترسبة ، دون أحجار كبيرة أو صخور أو نباتات ، انظر جان درش ، أصول تاريخ التسميات فى جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات الاسلامية (بالفرنسية) كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ ، ص ٢٣٩ - حيث النموذج : وادى نون فى منطقة جولمين ، حيث يسمى ورق (عرق) النون (Warg ennun) .



شكل رقم ٤ - كروكي الصحراء الغربية

وتظهر الكسوة الرسوبية بما فيها من مطمورات طبقات الحجر الرملي العظيمة ، متجمعة مع طفح بركاني في موريتانيا في مرتفعات ادرار ، وفي حوض تاوديني وفي غينيا الفرنسية (في فوطه : فوتا) وفي السودان . وبسبب اتجاه جبال درن (أطلس) من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، ابتداء من منطقة السوس ، تكون الحوض الرسوبي الواسع في صحراء جنوب مراكش ، والذي يعرف بتندوف ، حيث الطبقـــة المتفحمة في اقليم درعه بالجنوب المراكشي ، وفي مرتفعات تيبستي تتداخل الصخور البركانية في الطبقات الرسوبية (الكسائية) ، وكلما قل الارتفاع كلمـا ازداد التحلل الكيماوي للصخور .

واذا كان السطح الصحراوي الرملي بما يتداخل فيه من القمم الصخرية والطفوح البركانية له شكل متواتر حزين ، فان مجاري المياه والقمم الجبلية في الجنوب الصحراوي تقدم تغيرا ملفتا للنظر في منطقة الشريط على تخوم السودان المعروفة « بالساحل »(٥) .

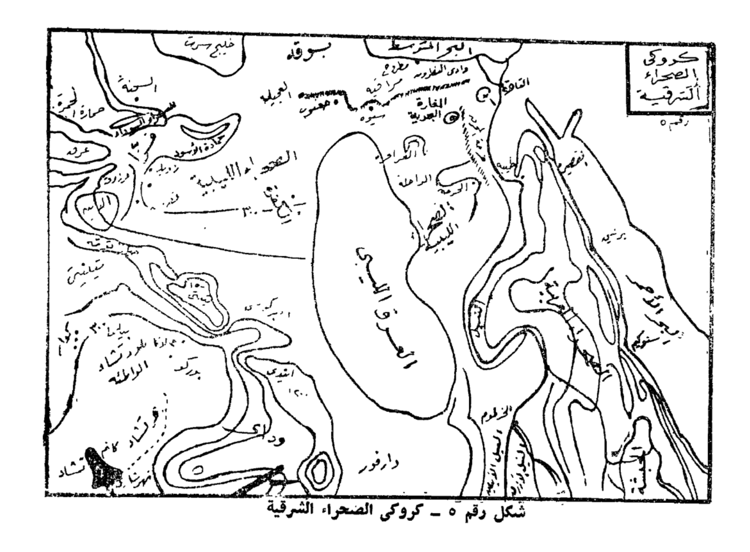
الطقس :

والحقيقة ان ما تتسم به الصحراء من جفاف يفسر ارتفاع الحرارة يرجع الى طبيعة الرياح السائدة واهمها الريح الشرقية الحارة المعروفة بالحرمتان (Harmattan) والتي لها آثار حاسمة من حيث توزيع الأقاليم النباتية ، وبالتالي الظواهر الانسانية والاقتصادية .

ففي الشتاء تأتي رياح الاليزيه (Alizé) اللطيفة الرطبة من المحيط الأطلنطي ، ولكنها لا تؤثر الا في الأقاليم الســـاحلية حتى الرأس الأخضر بداكار ، وذلك انها تتجه غربا تحت تأثير اندفاع الحرمتان الشرقية . وفي سيف تتحول رياح الاليزيه الجنـــوبية الى رياح موسمية جنـــوب خط

---

(٥) مولار ، ص ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٦٤ . وقارن اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ١٤ - حيث ارتفاعات تبستي والهقار (الهجار) تصل الى ٤٤٠٠ م و٣٠٠٠ م ، وان المناطق رفية منخفضة بالنسبة للمرتفعات الغربية ، وان الصحراء الوسطى تخترقها سلسلة من راكين من المشرق الى المغرب ، بين تيبستي وعبر زير عبر الهجار (الحجار) ، مكونة ٣ (ثلاث) لاسل جبال صخرية وهي : أغلب التي تكون امتدادا لجبال موريتانيا في الغرب ، والهجار الوسط ، ومنها ادرار وايفورا (غربا) وآير (شرقا) ثم تيبستي (على حدود ليبيا تشاد) .



شكل رقم ٥ ـ كروكى الصحراء الشرقية

الاستواء ، عندما تصطدم برياح الحرمتان ، وكذلك الأمر فى الربيع عندما تنزلق تحت الحرمتان ، مما يؤدى الى اعصارات وأمطار رعدية ، وفى وسط الصيف تتغير الظروف الجوية تبعا للارتفـــاع ، ففى الآقاليم الســـودانية الشمالية تصطدم الرياح الموسمية مع الحرمتان وتكون العواصف والأمطار التى تقل كلما صعدنا شمالا • وفى الخريف تنعكس الأوضاع فلا تصيب الرياح الموسمية أفريقيا الغربية الا نادرا(٦) •

وهكذا يكون لرياح الحرمتان السودانية أو الاستوائية القارية أهميتها بالنسبة لأفريقيا الغربية ، من حيث الأمطار ونزول درجة الحرارة والرطوبة ، وخصوصا فى المناطق الســـاحلية فى داكـار وحتى كاييس (Kayes، فى الداخـــل • وبذلك تكون الحرمتان أكثر أهميـــة من رياح الســـيروكو (Sirocco) المحملة بالرمال والغبار ، والتى تهب لأيام قليلة فى شمال أفريقيا ، مقابل هبوب الحرمتان لعدة شهور جنوبا ، فى الأقاليم السودانية ، وجنوب الصحراء(٧) •

---

(٦) أنظر مولار ، ص ١٥ — ١٧ ، وقارن لاربود ، الجزائر ، ص ٤٩ — حيث تفسير ان جفاف الصحراء بسبب قلة الأمطار يتعلق بمسألة فلكية خاصة بدوران الرياح حول الكرة الأرضية ، اذ ان الصحراء تتبع النظام الذى تتجمع فيه فى الطبقات العليا كتل من الهواء تصل من خط الاستواء عن طريق الرياح المضادة للاليزيه ، والتى تتجمع قرب خط العرض ٣٠ درجة لكى تكون مراكز ضغط عال ، مضاد للعواصف • وبذلك لا تقلت الأليزيه الا على طبقات السطح السفلية ولا تسقط مطرا الا حيث المرتفعات • وقارن أيضا جوتييه ، الصحراء (بالفرنسية) ، ص ١٢ — حيث مناطق الضغط المنخفض الخاصة بالرياح الغربية ورياح الأليزيه (Alizés) ، وحيث المنخفضات العاصفة التى تأتى من أمريكا وأوروبا ولا يصل الا القليل منها الى افريقيا شتاء ، بينما تكون معظم رياح الازورس (Acores) فى أقصى جنوب الأطلنطى بينما تستمر الأمطار الاستوائية متتبعة الشمس فى شكل عواصف شديدة ، وهى لا تصعد شمالا أبعد من السنغال •

(٧) مولار ص ١٧ — ١٨ ، وقارن ليون الافريقى ، ص ٨٧ — ٨٩ — حيث الاشارة الى ٣ (ثلاثة) أنواع : الشرقية (الحرمتان) وا(السيروكو) والجنوبية ، وهى ضارة بالمحاصيل ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٢١ — حيث يختلف اسم هواء الصحراء الملتهب عادة ، والمشهور بالحرمتان ، او السموم ، من مكان الى آخر • فهو السيروكو فى الجزائر ، والشهيلى [illegible] الجنوبى فى الصحراء ، وهو الخماسين (أى ريح الخمسين يوما) فى مصر ، [illegible] محلية لنفس الريح تقريبا ، وص ٢٢ — حيث ارتباط رياح الخماسين ببعض الظواهر المغناطيسية أو الكهربائية التى تؤثر على الانسان والحيوان ، من حيث التهاب المخاط [illegible] ، أو الاصابة بضربة الشمس القاتلة ، [illegible] المنظمة للحرارة [illegible] حرارة الجلد الى حرارة الهواء — مع الانتقال الى [illegible] ٥٠ — =

وبذلك لا يتأتى الانتقال من الطقس السواحلى الى الطقس الصحراوى الا عندما ينعدم سقوط المطر لسنة أو أكثر فى موضع معين ، ويكون ذلك عادة جنوب الصحراء • أما عن سقوط المطر فيكون فى فصل الصيف ، فهو مطر موسمى • وبالنسبة لمطر اقليم البحر المتوسط فهو أكثر ندرة ، ودرجة الحرارة تتعدى فى شهر يونيه الـ ٥٠ درجة ، أحيانا ، أما عن برد يناير فهو قاس يصل الى درجة التجمد(٨) • وبفضل رياح الاليزيه (Alizé) القارية الباردة ، ورياح الحرمتان الشرقية الحارة ، التى تظل تعصف طوال ٦ (ستة) أشهر ، فان بقاء المزروعات الجافة يصبح غير أكيد بسبب عدم انتظام المطر الذى تتراوح نسبته من سنة لأخرى من ١ الى ٥ أمثال ، الأمر الذى يتسبب فى التصحر ، اذ تتحول الأرض شيئا فشيئا الى أرض رملية بسبب الحريف من ناحية ، وبسبب الرمال التى تلقيها رياح الاليزيه القارية على الأرض الصالحة للزراعة ، وهو ما يدفع الفلاحين السود من الولوف الى الهجرة نحو الجنوب ، الى حياة البداوة فى فصل الشتاء ، والتجمع صيفا على الحواشى والأطراف حيث الماء ، وهجر منطقة

= حيث الاشارة الى ان عناصر الحماسين مأخوذة من طمى النيل الناعم (الذى قد يكون سبب النهاب الجهاز التنفسى وليس المغناطيسية الكهربية ؟) •

وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٦ ــ ١٧ حيث : تؤدى شدة الحرارة عند خط الاستواء الى ضغط جوى منخفض يجذب تيارات الهواء من الجانبين ، فى مقابل ضغط مرتفع على مستوى القطب نتيجة للهواء المتجمع العائد من خط الاستواء ، والمتوقف بسبب دوران الأرض ، فى طريقه الى القطب • ومن هذه الحركة تتكون منطقتان رئيسيتان لاعصار معاكس على المحيط فى منطقة الأصور (الأزورس) وفى الصحراء الوسطى ، وهذا الاعصار المعاكس هو السبب ، الى حد كبير فى عدم نزول الأمطار فى الصحراء • وعن الرياح فالجنوبية فى الصحراء تسمى « الشهلى » ، « والسيروكو » جنوبية شرقية حارة ، مثقلة بالرمال والغبار ، اما ريح الخمسن (الحماسين) المصرية ، فهى رياح عاتية جنوبية غربية • وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ ــ حيث الرياح السموم ، ومنها : الشهيلى وهى حافة حارقة ، وضد السموم : ريح الصبا البحرى ، وهى معتدلة يتلذذ الانسان بها •

(٨) مولار ص ٢٥ ، ٢٦ ، وقارن لارنود ، ص ٥٠ ــ حيث النص على ان الصحراء أكثر بلاد العالم حرارة ، وهى فى الصف أتون ملتهب مع الاشارة الى ان الحرارة قد تصل فى تندوف بصحراء الجزائر الى ٥١ درجة • وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى • ص ١٥ ــ حيث المطر قليل لا يتجاوز على ساحل المحيط ، ٢٠ ملليم • اما فرق درجة الحرارة فيصل ما بين ٥٠ نهارا و٢٠ ليلا • وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٠ ــ حيث الجو منتهى الحرار حرا (صيفا : أكثر من ٥٠ درجة) ، ومنتهى البرودة بردا (شتاء : أقل من الصفر) •

الوسط(٩) ٠

الأرض الطيبة ــ منطقة « الساحل » :

والحقيقة ان هذه المناطق الجنوبية من صحراء شمال أفريقيا الكبرى ، ذات طبيعة جغرافية خاصة اذ تمثل منطقة انتقال من الصحراء العطشى الى بلاد السودان الجنوبية ، المغمورة بالأمطار الموسمية الأمر الذى أعطاها اسم « الساحل » ، من حيث تبدأ فيها الخضرة العشبية التى يراها القادم من بلاد الشمال الصحراوية ، وكأنها ساحل البحر تماما ، كما كان الحال بالنسبة لغابات الزيتون فى منطقة صفاقس التى اشتهرت « بالساحل » حسبما كان يراها القادم اليها من الصحراء(١٠) ٠

واقليم الساحل هذا ، يمثل نطاقا يمتد من ساحل المحيط الموريتانى غربا حتى تشاد شرقا ، عبر منحنى نهر النيجر ، الأمر الذى يحدث نوعا من التداخل بين شريط « الساحل » والاقليم السودانى ذى الفصل المطير الواحد الذى يطول ما بين ٧ أشهر جنوبا و٥ أشهر شمالا ، والذى يجمع بين الأمطار الشتوية العادية والأمطار الموسمية التى تقل كلما صعدنا شمالا نحو « الساحل » والصحراء ٠ هذا ، كما يطول فصل الجفاف لمدة ٥ أشهر ، ويكون تأثيره السلبى أشد فى اقليم الساحل الذى قد يعانى أحيانا من التصحر(١١) ٠

---

(٩) مولاد ص ٤٧ ٠ أما فى سان لوى وداكار ، وعلى طول كل الشاطىء السنغالى حتى الرأس الأخضر فيسود طقس خاص جدا ، يسمى شبه الكانارى (Sub-canarien) حيث يكون لرياح الأليزيه هناك تأثير يجعل الجو هناك أشبه بطقس الكانارى ، بل وشواطىء الأطلنطى المراكشية ، وهو ما يناسب البيض من سكان البحر المتوسط (كالسوريين الذين لهم نشاطهم الاقتصادى) ٠ ولكن هذه الظروف الجوية المناسبة لا توجد فى الجنوب أبعد من ذلك ، اذ الرأس الأخضر هو الحد الأقصى فبعد ذلك يتحول الطقس مباشرة الى استوائى ينطلب الاحتياط (جوتييه ، ماضى شمال افريقية ص ٥٠ ــ ٥٢) ٠

(١٠) أنظر البكرى ، ص ١٩ (حيث ساحل الزيتون ، ص ٨٥ (حيث «أهل الساحل») ، وقارن فدج (Fage) تاريخ غرب أفريقية (بالانجليزية) ص ٢ ــ حيث ملاحظة انه مع الانتقال من الشمال جنوبا تنتهى الصحراء وتظهر النباتات الشوكية التى تتحول بلطف الى أرض العشب الذى تزداد كثافته مع ظهور الأشجار شيئا فشيئا حتى أرض الغابات الحقيقية ٠ وأن هذا النمط لا يتغير من الشرق الى الغرب بسبب الارتفاع غير المحسوس ٠

(١١) أنظر مولاد ، ص ٩ ، ٢٥ ــ حيث الطقس السواحلى الشمالى الذى يتميز ، عن الصحراوى بالمطر صيفا ٠ ففى ولاته تصل نسبة المطر الى ١٠٨ مللم ، بينما هو فى تيدال ١٣٠ مللم ، مع احتمالات فروق شاسعة من سنة الى أخرى ، وقارن ص ٤٧ ــ حيث من الصعب تحديد اقليم «الساحل» الشمالى بمعنى الخط الفاصل بين الصحراء والسودان (افريقيا =

وهنا تجدر الاشارة الى أن حزام بلاد النخل الذى يحف شمالا ببلاد المغرب الخصيبة كما يحف نطاق الساحل جنوبا ببلاد السودان ، اذ يمتد من تارودانت فى أقصى السوس حتى واحات مصر الشرقيـــة ، عبر واحـات وارجلان ، وبلاد الجريد وفزان(١٢) ٠ والفرق بين الاقليمين انه بينما يعتمد اقليم الساحل فى حياته على المطر ، يكون اعتمـــاد بلاد النخيل على ميـاه الواحات الجوفية التى تأتى عادة من سفوح أطلس (درن) الجنوبية مثل نهر الساورة (ج ١ ص ٧٤) أو من بعيد ، من هضـــاب الصحراء الوسطى أو تخوم بلاد السودان (انظر فيما بعد ، ص ٥١ ، هـ ١٥) ٠

والمهم أن منطقة الساحل بصفتها منطقة انتقال بين الصحراء العطشى والسودان الجنوبى المغمور بالمطر مهددة بالتصحر ، ليس بسبب الجفاف ، بل عن طريق تيبس الأرض الرملية التى تنبت الأعشاب فى فصل الشتاء ، ولكنها عندما تعود رملية متحركة فى فصل الصيف ويصيبها المطر تتعرض للنيبس « الأسمنتى الحديدى » أى « للبوار » الذى ربما كان أصلا لـكلمة البـــوال (bowal) ، وهى الكلمة السواحلية التى عرف بها ، عـلى ما نظن ، وذلك بشكل لا رجعة فيه ٠ ومن الواضح أن عملية التصحر هذه تتم كيميائيا فى جو « الساحل » حيث المطر والحرارة ، بينما تقل شمالا فى الصحراء بسبب الجفاف ، وكذلك جنوبا فى الســودان المطـير (الجنوبى) بسبب رياح الحرمتان التى تحمى الأقاليم الاستوائية الغينية عنـــدما تهب باردة فى فصـــل الشـــتاء فلا تكون لها خاصية التيبس ، فيندر البوار

= (المدارية) بسبب وجود عامل طرد من المنطقة الصحراوية ، عن غير قصد ، وهو الأمر الذى جعل الساحل بلدا يقطنه البدو البيض من المعاربة (Maures) فى الغرب ، والطوارق فى الوسط (حتى مصب النيجر) ٠ فمع ان هؤلاء هم سادة الصحراء حقيقة ، الا انهم كانوا عبيد مطالب حيواناتهم ، وقارن محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ١٧ – حيث الاشارة الى منطقة السهول والمراعى الفسيحة التى تسمى (أزواغ) والممتدة من أعالى نهر السنغال غربا الى بحيرة تشاد شرقا ، ومن أطراف المناطق الرملية الى غابات السفانا جنوبا ٠ وتضم هذه المنطقة : الواحات والوديان التى تشق جبال تاسيلى (فات – جانت) والهقار (تمنغست) وآيير (أفدر) واضغاغ (كيدال) ٠

(١٢) أنظر ج ١ ص ٧٣ وهـ ٦٤ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٢ – حيث تقسيم الأقاليم الطبيعية فى افريقيا من الشمال الى الجنوب كالآتى : ساحل المتوسط ، السهول الجبلية ، والتلول ، وسهول النخيل فى نوميديا ، صحارى ليبيا الرملية حتى بلاد السودان ثم السودان ٠

(البوال)(١٣) ٠

الأرض الرسوبية والأرض السوداء :

أما الأرض الجيدة فتتجمع على ضفاف الأودية ، وفى الوهاد ، وعلى طول مجارى المياه ، من بركانية ورسوبية رملية وطفلية ، وهى محمية من حرارة الشمس ورياح الحرمتان الحارة بكسوة من الخضرة النباتية ، وطبقة رقيقة من التربة ، الأمر الذى قد يؤدى وقتيا وبسرعة الى التيبس أو التصحر (bowalisation) ٠

والأرض الخصبة السوداء ، وهى التى تترسب على الشواطىء الواطئة عند مصبات أنهار الجنوب ، حيث يلتقى المد بمجرى الماء العذب ، وتتكون عادة من بقايا عضوية ، من الوحل والطين مع الرمل والحصى ، كما فى أسافل السنغال والسين (Sine) ٠ وهى تتيبس فى وقت الجفاف وتصبح صلاحيتها محدودة للزراعة ، وهى تسمى عندئذ التان (tann) ٠

وفيما وراء جامبى (Gambé) حيث الأمطار الغزيرة تغمر الأراض ، يمكن اقامة زراعات الأرز التى تفيدها أيضا الفيضانات الشتوية ٠ وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأراضى التى تغمرها مياه السنغال والنيجر الأعلى

---

(١٣) أنظر مولار ، ص ٢٨ ـ ٣٠ ـ حيث الاشارة الى انه ربما كانت ارض الساحل من رمال العرق ، وهو من شواهد عصور الجفاف ، وتصل فى انتشارها غربا الى جامبيا وشرقا الى اقليم نيورو (Nioro) وشمال سجو (Ségou) وواجادو (Ouagadou) فى الحوض (Hodh) ، وشمالا الى نيجيريا ٠ وهناك طبقات من الدروع الحديدية الاخدودية ـ وهى شواهد على فترات أكثر رطوبة ـ وتمتد من الفرلو (Ferlo) الشرقى وجبد مكة (Guidmeka) الى شمال شرق جاو (Gao) ، بينما الكهوف وأودية الأنهار الكبيرة مكسوة بالصلصال والتربة الطفلية الرملية وغيرها ، وذلك فى ارض والو (Walo) ونهر السنغال وحوض سجو ـ موبتى (Ségou - Mipti) وأسافل تشاد (ص ٢٨) ٠ وبعد منطقة انتقال ذات امكانات متنوعة هى منطقة الامبراطوريات السودانية من : غانة الى مالى وغيرهما (ص ٢٩) ، ينتشر البوال ـ وهى الأرض القبيحة بالنسبة للفلاح ـ فى اعالى جامبيا وغينيا الفرنسية وجنوب السودان (ص ٣٠) ، وأنظر دائرة معارف لكسكون يونيفرسال (Lexicon Universal) نيويورك ، ١٩٧٥ ، ج ١ ص ١٤١ (افريقيا Africa) ـ حيث الاشارة الى ضعف الخصوبة فى الأراضى الحارة وهى أراضى الأعشاب (الساحل (Steppes)) التى ينقصها البوتاس والمغنسيوم ، والفسفور والمواد العضوية ، والأراضى البركانية قليلة فهى لا توجد فى غرب افريقيا الا فى السنغال ٠ اما أراضى المتوسط فى الشمال فهى حمضية عديمة الخصوبة ٠

والأوسط والأدنى(١٤) ٠

توزيع المياه الجارية فى الصحراء والساحل :

يعتمد تقسيم المياه الجارية على طبيعة الطقس وأحوال السطح والتربة٠ وهكذا يكون الاعتماد على الأودية النهرية ، من : دائمة ومؤقتة فى شمال الصحراء حيث جبال أطلس ، من غربية عليا أو شرقية صحراوية ، ومطر البحر المتوسط الشتوى ، أو فى جنوب الصحراء حيث المطر الموسمى الصيفى الذى يميز أنهار غرب أفريقيا التى تخترق الصحراء ومنطقة الساحل ، أو أنهار هضاب أفريقيا الوسطى الجارية من مرتفعات الحجار (الهقار) وادرار وآير (بلاد الطوارق) وتيبستى (بلاد التبو) – من حيث تهبط أودية تافساسيت وتامنرست ، ووادى اغرغار ، والتى قد تلتقى مع بعضها البعض فى الصحراء ٠ فبفضل أمطار أطلس الصحراوية ، وبعض مياه أفريقيا الوسطى الموسمية تتجمع المياه تحت سطح التربة ، وتنفجر فى شكل مياه جارية من العيون والآبار الارتوازية ، فى الواحات الشمالية ، فى وادى ريغ وبلاد الجريد وورجلان (ورقلة) وصحراء وهران ، وفى توات ، حيث يكون الرى حسب نظام دقيق متعارف عليه بين أهل البلاد ، يقنن حصص الماء بينهم حسب الوقت أو الحجم ، بوسائل تقنية محلية(١٥) ٠

---

(١٤) مولار ، ص ٣٠ ، ٣١ – حيث الاشارة الى أن يبس (البران) و(البان) لم يكن وحده آفة الأرض فى أقاليم الساحل والسودان الجنوبى ، بل يضاف اليه تضاؤل عناصر الخصوبة فيها ، من : الازوت والبوتاس والفوسفور على مر الزمن ، وقلة الصخور الجيرية ، وكثرة صخور الكوارتز الحديدية من الحجر الرملى والجرانيت والجنيس (gneiss) والصوان حتى كاد الأمر ينتهى باهمالها على أنها أرض مجدبة ٠ ومن جهة أخرى فان هطول الأمطار الشديدة والساخنة كان يتسبب فى تذويب الأزوت ، وبالتالى تهديد الأراضى ، حتى الخصيبة (باليبس – والتصحر) ٠

(١٥) أنظر جوسبه ، الصحراء ، ص ٧٤ – حيث نهر شارى الذى يعادل النيجر وبحيرة تشاد ، ص ٨٣ – حيث وادى ساوره ، ص ٩٤ – وادى ايغار غاره الذى ينبع من الحجار فى جنوب شرق الجزائر ، ص ١١٥ وما بعدها – حيث الواحات الخصبة وحياة الاستقرار فى الصحراء الصعبة والعرق ، بلاد الطوارق ، ما بين الحجار وبلاد السودان ٠ ص ٣٨ – حيث الرى الشرقى فى واحات النخيل عن طريق الفجارات التى ترجع الى القرن ٣ هـ / ٩ م وهى القنوات التى توجه فيها مياه العيون الجوفية الارتوازية ٠ وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٩ – ٢٣ – حيث الاشارة الى العيون والآبار والفجارات ، ص ٢٢ – التى تعنى قنوات تحفر فى الأرض وتلتقط المياه الجوفية التى تجرى الى منحدر الواحة ، ص ٢٥ – حيث نهر شارى (Chari) الذى ينبع من الجبال الاستوائية ، وينصب فى بحيرة تشاد العذبة والتى تبلغ =

أبار الصحراء :

اما فى قلب الصحراء حيث لا يتجاوز متوسط المطر ١٢٥ ملليمتر فى السنة الا فى حالات استثنائية ، فيكون الاعتماد على ماء الآبار ، من : أحساء سطحية او حفائر عميقة ، من عذبة حلوة أو ملح أجاج(١٦) ٠

وهكذا يعدد البكرى ١٠ (عشرة) موارد للماء علـى طول الطريق من سجلماسة الى فاس ، بعدد مراحل الطريق العشرة ، فكان طول هذا الطريق حوالى ٤٠٠ كـ٠ م ٠ وأول هذه الموارد : حمة أى ماء حار كبريتى ، وثانيها أحساء يصل عمق المـاء فيها حوالى ذراع ، بينما المواقف التالية على جداول وأنهار ومياه سائحة (نازلة من سفوح أطلس)(١٧) ٠ والطريق من درعه الى سجلماسة يمتد ٦ (ست) مراحل ، محطات مائها ما بين ملح (تيسن) ، ومنسوب الى بعض حيوان المنطقة ، مثل بئر الأيائل ، وماء النعام ، فكأنه ملح أيضا (ص ١٥٦) ٠

أما الطريق الـكبير من تامدلت الى أودغست ، وطوله ٤٠ (أربعون) مرحلة ، فيعدد محطات مياهه ، من : بير الجمالين وعمقها ٤ (أربع) قامات فى ارض محجرة ، ينبعها (شعب) طريق جبلى ضيق ، ينتهى بعـــد ٣ مراحل (١٢٠ كـ٠ م) بأرض رملية رخوة ، فيها آبار ماء (تندفس) تنهار وتندفس بمجرد حفرها ٠ أما المـاء الوافر الذى لا يستنزف فى بئر ويطوفان، فهو زعاف يصيب من يشربه من الانسان والحيوان بالاسهال ٠ وماء الارض الورقاء فى أوكازيت — أصعب مراحل الطريق (٣ أيام) — وانزمين ، القريبة من السطح (٤ أيام) يصنف ما بين العذب والزعاف ٠ وهذا الموضع يمثل تقاطع الطرق الى بلاد السودان — فهو مجمع القوافل ، وهو مستهدف من قطاع الطريق ٠ ومثل هذا يقال عن بئر بنى عبد الوارث (على ٥ مراحل)٠

مساحتها ٢٥٠٠٠ كـ٠م٠م ، والتى ربما كانت لها موارد أخرى تحت الأرض ، كما قد تتسرب مياهها من جهة الجنوب الشرقى فى اتجاه بحر الغزال ، ص ٢٧ — حيث التعريف بوادى الساوره الذى سحب مياهه جنوبا حتى أعالى واحة توات ، ص ٢٨ — ٢٩ — حيث وادى اغرغار الذى ينبع من مرتفعات تبستى ويتجه شمالا لمسافة ١٠٠٠ كـ٠م ، لكى يغوص فى شط (تلال رملية) غير بعيد من تقرت أى عند أقدام جبال الأوراس التى تأتيها مياه سفوح الأطلس التى تنحدر فى [illegible] والخريد والراب ٠

(١٦) أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٤ — حيث تصنيف مياه الآبار فى : [illegible] ، وسائح ، ومصرح ، وملح ، وأجاج ، ومر ٠

(١٧) البكرى ، ص ١٤٧ ٠

وآبار أغرف التالية الملحة لا تصلح الا لشرب الابل . واذا كانت المياه فى آبار اقرتندى على ٥ أيام من سجلماسة جيدة المـاء الوفير حيث أصـــناف الشجر ، فان بئر وازن فى منتصف المسافة ، مالح المـاء(١٨) .

وعلى عكس هذا يقال عن مياه الطريق المحازى لساحل المحيط من نول لمطة الى أوليل ، حيث يستنبط المـاء العذب من الآبار القريبة من الشاطىء المـالح ، بسبب رياح الاليزيه (Alizé) الرطبـــة ، والأرض الصخرية (الصفاه) التى تكون مصايد حسنة لمياه المطر العذبة(١٩) .

أما عن الآبار على الطريق الصحراوى من درعه الى الســـودان ، ففى المراحل الخمسة الأولى يوجد المـاء العذب حتى الوصول الى بئر تزامت فى بداية الصحراء حقيقة ، وماؤها معين أقرب الى الملوحة ، رغم انه محفوظ فى طبقات الحجر الصلد (البكرى ص ١٦٣) ، وهى فى شرق بئر الجمالين ، على أول طريق تامدلت ـ أودغست ، التى تقع فى مثـــل تلك الأرض الحجرية (ص ١٥٦) ، فيكون ماء الجمالين معينا هو الآخر ، ربمـــا بسبب معدن الحديد (ص ١٦٤) وغيره . والظاهر أن آبار تلك الصـحراء التى تعتبر موطنا لقبائل صنهاجة كلها معينة تصلح لسقيا الابل وحيوانات الصحراء فقط ، الأمر الذى يفسر كيف كانت أموالهم الأنعـــام ، وعيشهم من اللحم واللبن ومثلها(٢٠) .

ميـاه السودان الجارية :

وهكذا فرغم طول المجابات القاحلة والمفاوز الجرداء التى قد تطول الى ست مراحل وثمانية ، فلا ذكر بعد ذلك للماء المعين والمـالح أو الزعاف حتى بلاد السودان القريبة من مواطن جداله ، على ٦ (ست) مراحل ، وهى بلاد صنغانة(٢١) .

وواضح من وصف صنغانة أنها مدينتان عـــلى ضفتى النيـــل ، وأن

---

(١٨) البكرى ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(١٩) البكرى ، ص ١٧٢ ، وانظر فيما سبق ص ١٠ ، هـ ٩ وهامش جونبيه عد الجوشبه الكنارى والشاطىء المراكشى على طول ساحل السنغال .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٤ .

(٢١) البكرى ، ص ١٧٢ - حيث ارض جدالة آخر بلاد الاسلام فى الصحراء ، وأقربها الى بلاد السودان .

عمارتها متصلة الى البحر المحيط وان المقصود النيل هنا هو نهر السنغال ، وليس النيجر ، وان المقصود منغانة هو غانة المسبوقة بكلمة صن التى هى صفة لغانة فكأنها بلاد ملوك السوننيك (Soninke) • وبذلك تكون غانة منتصف القرن الخامس الهجرى/١١ م عند البكرى ، هى مدينة السنغال الدارسة التى تحدد أطلالها بموضع كومبى صالح (كومبى بيشار) ، فى الركن الجنوبى الشرقى من جمهورية السنغال ، حاليا(٢٢) •

وهكذا بوصف كل من نهر السنغال ونهر النيجر بأنه « نيل » ، بمعنى النهر الصحراوى الموسمى الأصل ، والذى يفيض حتى الطوفان ، ويجف بعد ذلك حتى القاع - والذى قد يتواتر طوفانه أو جفافه لعدة سنوات متتالية ، وهى سمات الأودية والأنهار الصحراوية(٢٣) •

ففى الصحراء كما فى اقليم الساحل ، تكون الوديان جافة عادة الا لفترات قليلة عقب هطول زخات المطر • ومثل هذا يحدث لبعض روافد السنغال أو النيجر حيث الأودية التى تسمى دلول (dellol) والتى يمكن أن تجرى كالأنهار بشكل مؤقت ، وهى قوية عنيفة تحمل المواد المختلفة لكى تنتهى ناشرة الأوحال والرمال والحصى(٢٤) •

السنغال والنيجر :

هذا ويحتفظ كل من نهرى السنغال (١٧٠٠ كم) والنيجر (٤٢٠٠ كم) ببعض مياهه فى فصل الجفاف • وفى اقليم الساحل الجنوبى تجرى مياه الأودية لمدة شهرين أو ثلاثة وتجرى أنهار المناطق السودانية

---

(٢٢) انظر فيدج (Fage) تاريخ غرب افريقيا (بالانجليزية) ، ص ٢٠ - حيث النص على انها على بعد ٢٠٠ ميلا شمال باماكو (Bamako) عاصمة مالى الحالية • وانظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - حيث النص على ان دولافوس كان أول من حدد خرائب كومبى صالح موضعا لغانة القديمة •

(٢٣) انظر جوبيه ، الصحراء ص ٧٢ - ٧٤ - حيث الاشارة الى ان نهر النيجر ينتمى الى الصحراء من عند ثنيته قرب تومبوكتو • فهو بعد أن ينزل من مرتفعات فوتا - جالون على شاطىء خليج غينيا يدير ظهره الى الخليج ثم يدب مباشره شمالا ، حتى الاقليم الصحراوى • وبذلك يختلف النيجر الأعلى منذ الثنية عن النيجر الأسفل •

(٢٤) مولار ، ص ٣٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٤٩٠ - ٤٩١ - حيث يكون الأمر كذلك بالنسبة للوادى الذى يرفد واحات درعه فى الشمال المراكشى ، والذى قد يفيض كأنه البحر ، فينشر الطين والأوحال بشكل مزعج خلال فصل الشتاء •

خلال فصل الشتاء ، ولكن الضعيفة منها لا يتجاوز جريانها شهر مارس ، بينما أصبحت بعض أنهار السنغال مثل الفرلو (Ferlo) والسين (Sine) والســالون (Saloun) خنادق ومطامير . مثلما تغير مجرى أنهار أخرى مما ينحدر سريعا على الهضاب ، كما فى النيجر وفولتا ، لأسباب مختلفة من تغير الطقس ، والتحول التركيبى الصحراوى ، كما فى تشكيل الحمادة أو العرق ، الذى يؤدى الى تحول بعض الأنهار الداخلية نحو شاطىء البحر . هذا ، كما يشد نهر السنغال من منطقة الحوض فى تشــاد أنهارها ، مثلما تحولت أنهار الفولتا ، مثل : السورو (Sourou) نحو المحيط(٢٥) .

ويستثنى كل من نهرى السنغال والنيجر من هــذه الظواهر . فنهر السنغال الذى يقع فى منطقة الجفاف الطويل ، وينطبق عليه نظام المنــاطق الحارة ، ينبع من مستنقعات الشمال الشرقى ، وهو ضعيف التــدفق فى شهر مايو بينما يعظم فيضانه ، وخاصة عند المصب فى أغسطس وسبتمبر . وهذا يفسر الفيضان السنوى لكل سهل الوالو (Walo) فى الحوض الذى يصل عرضه الى حوالى ٢٠ كم . فيصبح بلدا خصبا(٢٦) .

---

(٢٥) مولار ، ص ٣٣ . وقارن والطون ، الأراضى الجافة ، ص ١١٤ (الترجمة) حيث النص بشكل عام على ان الأنهار الصحراوية صالحة للملاحة والنقل وقت الفيضان ولكنها كثيرا ما تقل مــاء ، بل وتعف عن الجريان كلية ، وهى فى المناطق المستوية تضطر الى ارســاب حمولتها بدءا بالمواد الخشنة ثم الناعمة بعيدا من حضيض التل ، الأمر الذى يؤدى الى نشأة السبخات والعروق والحمادات .

(٢٦) مولار . ص ٣٣ ـ ٣٤ ـ حيث الاشارة أيضا الى ان النهر يجرى أمام داجانا بين التلال ويملأ بحيرتى ركيز (Rkiz) وجيير (Guier) على ضفتيه اليمنى واليسرى . اما عن دلتا السنغال فهى محاطة بحزام ساحلى لا يستطيع النهر اختراقه الا بصعوبة ، الأمر الذى أدى الى تغير المجرى كثيرا على مر العصــور التــاريخية . وهو مفتــوح جنــوب ســان لوى (Saint Louis) بعد جريانه بحذاء الساحل خلف لسان البربرى ، وهو كتلة من الرمل المتحرك الذى تغطيه سيول الطين المتدفقة فوقه . وقارن أيضا ص ٣٦ ـ حيث وصف الساحل شمال داكار بانه منخفض كثيرا مع وجود نطاق من الصبار (صبار المور (Sbar des Maures) الذى ينتشر كالأنداء الصغيرة مقابل أمواج المحيط التى تتدفق موجاته فى سلاسل متوالية ، وحيث يوجد منخفض طبيعى بموازاة الساحل ، كان فى السابق بحيرة ، فهو حاليا مغطى بالقواقع ، وفيه يندفع فيضان نهر السنغال بعيدا لمسافة ٣٥ كم . حتى المصب . وعلى طول الساحل جنوب لوجا الى داكار ، وبسبب الرطوبة ، تنتشر الزراعة شبه الغيضية التى يسميها الولوف (Oulouf) نيايس (Niayes) . وقارن جوتيبه ماضى شمال افريقيا (بالفرنسية) ، ص ٤٧ ـ حيث يصلح نهر السنغال للملاحة من المحيط حتى كايس (Kayes) عند التقاء النهر برافده الفاليمة (Falémé) حيث يكونان مثلثا من الأرض أحسن =

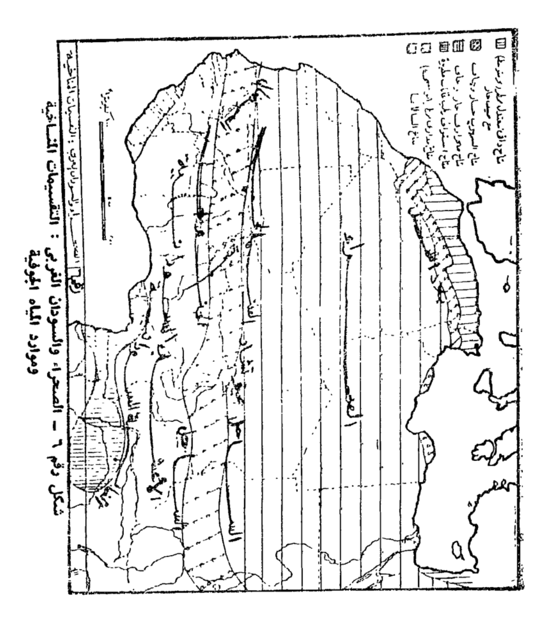
أما نهر النيجر فله نظام معقد يتمثـــل فى مجريين ، الأعلى منهمـــة ([illegible] كم) له روافد قوية ذات فيضانات مهمة ما بين يوليه وديسمبر ، و[illegible]وتها فى أكتوبر وديسمبر(٢٧) .

وفى الجزء الأخير ينتظم جريان النهر فى حوض يتسع ما بـين ١ ـــ ٢ [illegible] م. وأخيرا يحد المصب شكل شبكة من المياه الفسيحه ، حيث يتسع [illegible] وماتانى يفقد نسبة من المـاء بالبخر والرشح ، وتنتهى الدلـــا فى شكل مزدوج ، شبه حرف (W) ، وعدد من الأذرع الفرعية . أما المجرى [illegible] من النهر . وهو الكوارا (Kouara) ، وخاصة فى نيجيريا فيظهر فى [illegible] نهر محلى ، اذ يجرى قليل المياه حسب نظـــام البلاد الحارة فى نيجيريا الشمالية ، بينما تكون له طبيعة استوائية فى الجنوب ، حيث زمن الأمطار الى نهاية الصيف وفى بداية الخريف ، وبعد عدة أشهر فى الفترة من يناير الى أبريل يضعف المجرى ، فلا يبلـغ عمق المـاء أكثر من نصف [illegible] ([illegible] سم) (مولار ، ص ٣٥) . وهكذا فبسبب الطبيعة الموسمية لكل من السنغال والنيجر وكذلك نهر جامبيا ، والعقبات التى تعترض مصباتها [illegible] الوصول الى غرب أفريقيا عن طريق البحر من الصـــعوبة [illegible] بالدخول اليها من الصحراء(٢٨) .

[illegible] (Bem bouk) . اما عن السنغال الأسفل [illegible] ويصبح نهرا مفتقدا فى مجرى غير محدد . وبذلك [illegible] وجه مجرى من للنهر شمال سان لوى (Saint Louis) [illegible] شكل الجزيرة أو الخلجان غير الثابتة ، ومجرى النهر ينحر فيها [illegible] .

[illegible] ص ٣٥ ـ حيث روافد القسم الأعلى ، وهى : ميلو (Milo) ، ونياندان (Niandan) [illegible] (Sankaran) [illegible] تنكسو (Tin kisso) وبانى (Bani) [illegible] الصحراء ، ص ٧٢ ـ حيث النص عن ان النيجر ينتهى [illegible] اذ ينزل من مرتفعات فوتا ـ جالون على شاطىء خليج [illegible] شمالا ، حتى الاقليم الصحراوى . [illegible] الأسفل .

[illegible] ـ حيث عن النيجر الطينى ، ومجراه ضيق فى [illegible] بالنسبة للسنغال الذى يصلح [illegible] (٥٦٠ ميلا) ، ومثل هذا يقال عن [illegible] (Barracunda) (٥٣٠ ميلا) .



شكل رقم ٦ – الصحراء والسودان الغربي : التقسيمات المناخية وموارد المياه الجوفية

الســـكان :

صنهاجة الصحراء : الملثمون ، القبائل وتوزيعها :

قبائل الصحراء التى أقامت دولة المرابطين ، والتى تقيم فى الصحراء الغربية ما بين ســـاحل المحيط الأطلنطى ، جنوب جبـــال درن (أطلس الغربية)(٢٩) ، عند خط التماس مع بلاد السوس الأقصى بالمغرب وحتى غدامس جنوب طرابلس ، تنتسب الى قبائل صنهاجة التى تعد من مجموعة قبائل البرانس الحضرية ، كما هو الحال بالنسبة لصنهاجة أفريقية الذين أقاموا دولة بنى زيرى فى تونس ، ودولة بنى حماد فى شرق الجزائر(٣٠) ·

ولكنه اذا كان صنهاجة الصحراء هنا يمثلون واحدا من الاستثناءات البارزة لقاعدة تقسيم البربر الى قبائل بدوية مثل زناته ، وقبائل حضرية مثل صنهاجة ، فانه استثناء يؤكد القاعدة ، كما يقال أحيانا · فالحقيقة أنه اذا كانت صنهاجة الصحراء تمثل البداوة فى أجلى مظاهرها ، من حيث انهم جمالة ، رعاة ابل ، يسكنون القفر وراء الرمال ، ويبعدون فى مجـــالات النجعة التى لا يعرف لها حدود ثابته حتى صاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا كما ينص ابن خلدون(٣١) · فان انشاءهم لدولة المرابطين الكبرى التى ضمت البلاد من السودان جنوبا الى الأندلس شـمالا ، تعنى أنهم مدوا جسورا متينة بين حضارات الأندلس والمغرب والسودان ، وتجعل

---

(٢٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ وعن تسمية جبل درن انظر درش (J. Dresch) مجلة الدراسات الاسلامية ، كراسة ٣ ـ ٤ ، ١٩٣٩ (بالفرنسية) ، ص ٢٢ ـ حيث « ادرارن درن » (Adraren Dren) تعنى «جبل الجبال » ، فأدرار تعنى جبل والجمع ادرارن (جبال) ـ وان كانت كلمة (درن) تعنى أيضا جبل الزئير من الفعل ندر أى زأر الذى يتغير مصدره الى درن ·

(٣٠) عن البرانس والبتر ، انظر ج ١ ص ٨٦ وما بعدها ، وعن صنهاجة افريقية ، انظر ايضا ج ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها ·

(٣١) العبر ج ٦ ص ١٨١ ، وانظر لبون الافريقى ، ص ٥١٨ وهـ ١٢٣ ـ حيث يمتد البربر جنوبا باراء السودان فى شكل حزام يسير من الغرب الى الشرق تبعا لمواطن : حداله ، ولمتونه ولمطه (لمته) ، وتارغه ، ويقابله حزام العرب على امتداد السوس الأقصى ، والمغرب الأوسط والزاب مع برارى نحاية وقسنطينه ، ثم افريقية ، وحيث توجد على التوالى مواطن العرب ، من : ذوو حسن ، وذوو منصور مع « ذوو » عبد الله ، وبنورياح ثم بنوسليم وانظر الخريطة او الشكل رقم ٢ ·

من بداوتهم استثناء يصحح من وضعهم فى جماعات البربر أهل الحضر ، مثل اخوانهم صنهاجة أفريقية(٣٢) ٠

واذا كان الشائع أن قبائل لمتونة هى أشهر قبـــائل المرابطين حتى عرفت « الامبراطورية » المرابطية بأنها دولة لمتونة المالية(٣٣) ، فمن المقبول ضم قبائل لمطه الى لمتونة على اعتبار انهما تحملان اسما واحدا ، بصرف النظر عن كتابته أو نطقه بالطاء أو التاء ، حيث تكون لمتونة تفخيما للمتة عـــلى الطريقة المغربية الأندلسية كما فى خلدون وعبدون(٣٤) ٠

---

(٣٢) وهنا لا باس من الاشارة الى ما ينص عليه أوليفر وفيج من ان أثر مدنية البحر البحر المتوسط ظهرت فى تقوية الفروق بين البربر فى الشمال وبين البربر الرعاة فى نطاق السافانا والصحراء ، وان هذه الفروق زادت بدخول الجمل ثم الاسلام – موجز تاريخ افريقيا ، الترجمة ص ١٩ ٠

(٣٣) وفى رثاء دولة لمتونه المرابطية يقول الشاعر المعاصر محمد امبارك اللمتونى ، وهو ينتقد اوضاع السياسة على أيامه :

ولم تبن من بعـد لمـــــتون دولـة ولم يبك فى بنيانه بعدهـــم طـل
أولئك لمـــــتون الأُلى قد ســـنابهم أساس الهدى اذ مسّ الضعف والخذل

أنظر ، محمد سعيد العشاك ، التوارق ، ليبيا ، ١٩٨٩ ، ص ٢٥ – ٢٦ ٠

(٣٤) أنظر ليون الافريقى ، ص ١٨ه ، هـ ١٢٣ – حيث لمطة فى شكل لمه ، وقارن الادريسى ، المغرب بتحقيق صادق ، ص ٧٣ – ٧٤ حيث يجعل لمطة صنوا أو أخا لصنهاج اللذين كثر نسـلهما ، وتسلطوا على الأمم حتى اجتمعت عليهم قبائل البربر فأزعجوهم الى الصحراء المجاورة للبحر المظلم فنزلوها الى الآن – كما يصفهم بأصحاب ابل وبخت عتاق ، وأنهم رحالة (لا يستقرون) ٠ وص ٧٢ – حيث النص على ان بلاد الصحراء يسمى جول لمطة ، وبارا كاعت ، واعرنوا كما يضيف اليها (ص ٧٥) بلدة أرقى على أنها للمطة أيضا . ويعدد من قبائل لمطة : مسوغة ، وشان ، وثمالة ، ويجعل من قبائل صنهاجة : جدالة ولمتونه مع بنى منصور وتميه ، وبنى ابراهيم ، وبنى تاشفين ٠ ويجعل نهر مدينة نول ، على طول امتداده من الشرق الى الغرب ، من مواطن لمتونه ولمطة . وص ٧٦ – حيث أرقى – من بلاد مسوفة ، ولمطة ، واسم المدينة البربرية أزقى ، وبالجناوية أى السـودانية قوقدم (جوجدم) وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ حيث النص على كثرة الملثمين وتعـدد قبـائلهم ، ثم البدء بتقديم كدالة « جدالة » على لمتونه ومسوفة ، ثم ذكر ونزيلة (وتريكة) وناركا (تاوكا) وزغاوة ثم لمطـة ، وحيث النص على ان بطون لمتونة ، هم : بنو ورتنطق (أشرافهم) وبنو زمال ، وبنو صولان ، وبنو ناسجة ، وان لمتونة كان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف بـ « كاكدم » (قوقدم) وانهم لم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الأندلس ٠ وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٥ – حيث تصحيح وتزيله وتاركا (وانظر هـ ٥ – حيث تاركا = تارجا وجمعها طوارق – وحيث ذكر بنى ورتنطق (Ourtentac) وهو الاسم الذى ما زال باقيا فى موضع بورتنتيك (Portentic) على ٤٠ مرحلة شمال السنغال – وبنو نيال =

ولا بأس من الاشارة الى انه لما كان اللمط اسم لنوع من الأيائل الصحراوية ذات القرون الحادة (انظر فيما بعد ، ص ٩٣) فالمفترض أن قبائل بدو الصحراء هؤلاء عرفوا العبادة الطوطمية ، قديما وأنهم اتخذوا « لمط أو لمت » جدا أسطوريا لهم ، كما هو الحال فى قبائل أسد ونمر وعجل العربية . وبذلك يكون « لمت » هو الأصل ، « ولمتون » — الذى يؤنث في العربية الى لمتونة — هو الاسم المستحدث فى شكل التفخيم (انظر شكل ١١ ص ٩٣) .

وبعد ذلك تأتى قبائل جداله (كداله) وجزوله (كزوله) العديدة ، التى يجعل البكرى مساكنها (عمارتها) مجاورة لمساكن لمطة على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أيام (مراحل) من عاصمة السوس : ايجلى الى مدينة نول لمطة(٣٥) ، الأمر الذى يسمح بأن تكون جزوله تحريفا لاسم جداله أو العكس . وهذا ما يؤيده الحسن الوزان الذى يضم جداله الى لمتونة تحت اسم « زناقة » (زناجة) الذى يعتبر تحريفا لصنهاجة أو النطق الأصيل للاسم قبل تعريبه(٣٦) .

= (زمال) وبنو صولان (مولان) وبنو ناشجه ، وموطنهم يعرف بـ «كاكدم» (Kakdem) وقارن حسن أحمد محمود ، ص ٣٩ — ٤٠ ، حيث تجميع قبائل الملثمين دون نقد ، بحيث تاتى لمتونه فى رقم ٥ بين جزولة وجدالة ، وحيث تاتى مسوفة فى رقم ١١ ، وقبلها رقم ٩ قبيلة كاكدم (Kakdem) . والاسم فى الحقيقة موضع لبعض قبائلهم (كما فى ترجمة دسلان هنا) . وفى النهاية ياتى تقرير ان الزعامة للمتونة وتنازعها باستمرار جدالة (ص ٤٠ استنادا الى الحلل الموشية) . وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ — حيث النص على ان نول لمطة آخر بلاد السوس . وأنظر القرطاس ، ص ١٢٠ — حيث النص على ان صنهاجة ٧٠ (سبعون) قبيلة ، من أصيلة ، مثل لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ، وفرعية ، مثل مسراتة ، وتكلاته ، ومنداسة وبنى وارث — وفى كل قبيلة بطون وأفخاذ لا تحصى .

(٣٥) البكرى ، ص ١٦١ (وقارن الاستبصار ، ٢١٢) ، وأنظر ايضا البكرى ، ص ١٦٤ — حيث جدالة تجاور البحر المحيط ، وص ١٧١ — حيث يقع منجم الملح فى أوليل فى بلادهم ، ص ١٧٢ — حيث يصاقبون بلاد السودان ، على بعد أيام من صنغانة . وانظر حسن محمود ، المرابطون ، حيث جدالة جنوب صحراء نيسر حتى مصب السنغال ، وان مركزها أوليل : مركز نجم الملح المشهور . وانها قريبة من غانة وشعب صنغانة على الضفر السرى للنيجر (منحنى النيجر) .

(٣٦) ج ٣ ص ٢٩١ ، وانظر لبون الافريقى ، ص ١٥٥ — حيث تحديد منطقة حزلة بانها متاخمة لجبل هلاله من السوس ، ومن الشمال اطلس (درن) ، والشرق درعة ، مع النص على أنها منطقة جدالة ايضا ، وانظر ص ١٨ هـ ١٢٣ . وهو ما اخذ به شعيرة ، المرابطون ص ٢٩ — ٣٠ من وحدة القبيلتين — عندما وحد بين نسب يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وعبد الله ابن ياسين الجزولى .

أما قبائل مسوفة فتأتي مواطنها في المنطقة ما بين سجلماسة وغانة ، وتوصف بأنها مسيرة شهرين (حوالى ٦٠ مرحلة : ٢٤٠٠ كم) في رمال وجبال غير عامرة ، قليلة المـاء ، ولذلك فهم بدو رحل ليس لهم مدن ولا عمارة ، باستثناء وادى درعه على مسيرة ٥ (خمسة) أيام (٢٠٠ كم)[٣٧] ، وفيما بين درعه وسجلماسة تقع مواطن قبيلة سرطة (أو شرطة) ، المعدودة وقتئذ من قبائل صنهاجة الصحراء[٣٨] ٠

وعن قبائل ترغه (كما في البكرى) أو تارجا (كما في الاستبصار) التى يمكن أن تتحرف الى طارغة وطارجة وطارقة بمعنى قبـــائل الطوارق (Touareg) وهم الملثمون حقيقة ، فكانت مواطنهم عـــلى مسافة يومين (٨٠ كم) من سجلماسة[٣٩] ٠ ومن المهم أن ليون الافريقى (قرن ١٦ م) يقدم قبائل الطوارق على لمتونة ، ويجعلهم فى صحراء آير (مرتفعات وسط النيجر حاليا) ، ويفسر الاسم (طوارق) بمعنى الساقية أو القناة ، كناية عن خبرتهم فى رى بساتينهم بتقنية اقتصادية عالية فى المـاء ، كما يوصف بذلك أهل الجريد ، وخاصة فى واحات قفصة[٤٠] ٠

---

(٣٧) البكرى ، ص ١٤٨ ، ١٥٥ ، وانظر الأدريسى ، تحقيق صادق ، ص ٧٥ — حيث يجعل مسوفة من قبائل لمطـة الأمر الذى يؤيد فكرة الطوطمية فى لمطـة وأنها الأصل للمتونة ٠ وقارن الاستبصار ، ص ٢٠١ — حيث النص على ان قاعدة درعة (مدينتها المركزية) تيمى بتومتين ٠

(٣٨) البكرى ، ص ١٥٥ — ١٥٦ ٠

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ — حيث المسافة ٥ (خمسة) مراحل : ٢٠٠ كم ، من وادى درعه — حيث ينص البكرى على ان مدينة ترغة خربت بعد بناء سجلماسة وعمرانها وذلك فى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، وهو ما لا نجده فى الاستبصار ٠ والظاهر ان الترغيين انتقلوا الى سجلماسة ، اذ يوصف أهل سجلماسة الذين بقوا على ما كانوا عليه وقتئذ حتى أيام البكرى ، بانهم « يلتزمون النقاب ، فاذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله » ٠

(٤٠) ليون الافريقى ، ص ٥٢١ وهـ ١٢٥ — حيث الطارقة اسم بربرى يعنى السـاقية والقناة وذكر صحزاوات آير (المعتدلة الهواء الكثيرة المـاء والكلأ) وايغيدى وتوات وأغادس ، وانظر هـ ١٢٦ — حيث تصحيح المواضع وتعريف ايغيدى بانها عرق رملى من كثبان عالية ، الأمر الذى ينطبق على صحراء لمطـة جنوب اقليم الزاب — وعن تقنية السـقيا فى واحات جنوب الجزائر ، أنظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٢٧ — حيث يعرض كثيرا من احتمالات أصل تسمية الطوارق ، منها ما هو منقبى كالنسبة الى طريق الهداية وطارق ابن زياد ، أو مهنى لطروق الصحراء ، ومنها ما هو جغرافى مثل النسبة الى الاسم اللاتينى لمدينة سجلماسة ، او ظهور لاسم حديث فى منطقة ازواغ بجوار ممالك السونغاى =



خريطة رقم ٧ – توزيع الطوارق وغيرهم من الجماعات العرقية
في الصحراء والساحل والسودان

السمات العامة لقبائل الملثمين الصحراوية :

لما كانت قبائل صنهاجة الصحراء تحيط ببلاد السودان الجنوبى ، كان طبيعيا أن يتم الامتزاج بينهم وبين الأجناس الحبشية السودانية فى منطقة التماس هذه ، حيث غلبت البشرة السوداء على أهلها ، وان ظلوا منتمين الى الجنس الأبيض(٤١) ، ولا بأس أن تكون قاعدة التقسيم لغوية حيث تكون كل من اللغة العربية والبربرية ، وخاصة لهجة التيميناغ الطارقية ، سمة للبيض(٤٢) ، وتكون اللهجات السودانية للهوسا والسونغاى والفولان سمة للسود ، فكأن الجغرافية السياسية مبنية على التقسيم العرقى(٤٣) ٠

= والهوساء ، والنسبة الى وادى درعه او الى قبائل تارغه (تارجا) وهو ما ناخذ به ، ولكن على اساس ان قبائل ترغه هى التى اعطت اسمها لوادى درعه (انظر فيما بعد ص ٨٨) ٠ هذا ولو ان المؤلف ينهى كل ذلك بترجيح ان يكون الاسم قد جاء من اسم « الوادى » اى وادى الآجال (الأمل والحياة) بليبيا ؟

(٤١) عن اجناس شعوب شمال افريقيا البيضاء انظر ماكيفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ، ترجمة السويفى ، ص ٣٥ ، حيث التقسيم الأولى الى (اربعة) اجناس تنتمى الى : الساميين فى شبه جزيرة العرب ، والحاميين فى شمال افريقية (البربر) والمصريين فى وادى النيل ، والكوشيين فى الصحراء الشرقية « البجاه » ٠ وهنا توصف الشعوب النيلية الصحراوية بضخامة الأجسام وسواد البشرة ، وان كانت اجسامهم ووجوههم أنحف من الزنوج ٠

(٤٢) عن اللغة البربرية أنظر ج ١ ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٤٧ ـ حيث الاشارة الى ان اللغة الافريقية (البربرية) تسمى عادة (اوال أمازيغ) أى اللغة النبيلة ، مع النص على أنها تحوى بعض الكلمات العربية ، وان هذا سبب انتساب البربر الى العرب الحميرين ، والصحيح ان القرابة مع اللغة العربية أتت عن طريق عملية التعريب ٠ وانظر ص ٧٩ ـ حيث الاشارة الى ان كتابة الأفارقة (البربر) ضاعت فى أعقاب الحكم الرومانى لبلاد البربر ، ص ٨٠ وهـ ١٨٨ ـ حيث النص على انها الكتابة المستعملة حديثا لبربر الطوارق واسمها التفيناغ ، ص ٨١ و١٩١ ـ حيث حلت الحروف العربية محل الكتابة الافريقية وان كتابة التفيناغ كانت منتشرة حتى جزر كنارى (الخالدات) ، وفى أواسط الصحراء الكبرى وغربيها ، وان كتابة الطوارق مشتقة منها ، وأنظر جوتييه ، الصحراء ص ٢١٠ ـ حيث النص على ان الطوارق هم الوحيدون الذين يكتبون الأبجدية الليبية (البربرية) ٠

(٤٣) انظر ماكيفدى ، اطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ـ حيث النص على انه منذ قضاء الرومان على قرطاجنة والاستيلاء على الشمال الافريقى من بداية التاريخ الميلادى وقع حدث هام تمثل فى تدفق هجرات قبائل الزنوج من غرب القارة الى وسطها فى تيارين متوازيين من قبائل الزاندى (Zande) والبانتو (Bantu) ، وان الطريق : من جبال =

وأهم سمات أهل الصحراء انهم جمالة ، زعاة ابل يجوبون الصحارى الشاسعة لآلاف الكيلومترات وراء الكلأ والماء لابلهم ، والتماسا للدفء اللاينم شتاء لنتاجها ، وسعيا وراء الرزق ، بدلالة القوافل ، أو حمل المتاجر ، وحتى الغارة على الجيران • وبذلك يصبح الجمل هو السيد الحقيقى للصحراء • فعلى الابل بخاصة معاشهم ، اذ يأكلون لحومها طازجة مطهية ، وقديدا مجففة ودقيقا مطحونا — كما كان يفعل العرب قديما ، أيام التشريق فى موسم الحج — ويشربون من ألبانها ويأتدمون ، وينسجون من وبرها الملابس كما يتخذون النعال والأدوات المنزلية من جلودها كالسفر للطعام والسطول لرفع الماء من الآبار ، الى غير ذلك من أدوات الركوب كالسروج واللجم والاقتاب — وان كان الجيد منها من اختصاص أهل المهن فى المراكز الحضرية(٤٤) • فكأنهم اكتفوا اقتصاديا فى معاشهم بفضل ابلهم • وان كان اقتصادا بدويا يكتفى بالضرورى من أسباب المعاش ، ولا يتعدى درجة الحاجى منها الى الكمالى • وهكذا فهم قلما عرفوا الخبز عن طريق قوافل التجار ببواديتهم ، حيث كانوا يتحفون به رؤساء العشائر والقبائل منهم(٤٥) •

الكاميرون الى حوض زائير الى منابع النيل الأبيض والأخدود الغربى المحيط ببحيرة فكتوريا • وقارن دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال Lexicon Universal (Africa)، ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٣ — حيث النص على ان سكان اقليم الساحل (السافانا) العشبى ، الممتد جنوب الصحراء من الغرب حتى أعالى النيل يحوى عددا من الجماعات العرقية ، معظمهم من الزراع المستقرين ، منهم : الولوف (Wolof) والسرير (Serer) السنغاليون ، والفولانى (Fulanic) الغينيون (فى غينيا وشمال نجيريا) ، السونينكى (Soninki) والمالينكه (Malinka) والبامبارا (Bambara) والدوجون (Dogon) فى مالى ، والسنوفو (Senufo) فى ساحل العاج ، والموسى (Mossi) فى فولتا العليا ، واليوربا (Yoruba) والهوسا (Hausa) فى نيجيريا ثم السارا (Sara) فى جنوب تشاد •

(٤٤) أنظر الأدريسى ، صادق ، ص ٧٥ ، اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢١٠ •

(٤٥) ابن حوقل ، ص ٩١ — حيث الاشارة الى ان قبائل البربر فى برارى سجلماسة وأودغست ونواحى لمطة وتادمكة الى الجنوب ، ونواحى فزان ، فهم مهملون لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب ، وقوام حياتهم اللبن واللحم ، وقارن ، البكرى ص ١٦٤ ، والادريسى ، تحقيق صادق ص ٧٤ — حيث النص على ان عيشهم من ألبان الابل ولحومها مقدده ومطحونة ، مع الاشارة الى انه ربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب وان احتفال طعامهم تلك الوجبة التى تسمى « اسلوا » ، والتى تعد من الحنطة المقلوة المجروشة ، ممزوجة بالعسل والسمن ، مطبوخة على النار • وقارن القرطاس ، ص ١٢١ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ — ٢١٥ — حيث الاشارة الى انه رغم طعامهم القليل من اللحم واللبن والسمن ، فانهم فى صحة جيدة ، بل وفى منتهى القوة ، وان أمكن تفسير ذلك بأنه تعبير عن حالة نفسية تتمثل فى نظرة =

وهؤلاء الجمالة فرسان بحكم النشأة ، فهم الرعـــاة الكبار ، الـذين يعتنون بحيواناتهم الضخمة فى المرعى والسقيا ، وهم الذين يسوسونهـا وقت النتاج(٤٦) • وعلى الطرق الصعبة ، فى الرمال المتحركة ، والمستنقعات السبخة ، والصخور التى تحفى لها اخفاق الابل(٤٧) • وهم الغزاة بفضل ابلهم الكريمة المعروفة بالنجب ، ومفردها نجيب ، التى كانت تسابق الخيل التى عرفوها فى الواحات حيث يتوفر الشعير والمـاء • وقطعان الابل التى كانت ترعى بالآلاف قرب ديارهم كانت تستخدم كدروع رادعة للأعـــداء

= الخوف من قبل اهل الحضر بالنسبة لأهل البادية الذين ربما ظهروا فى اعينهم بمظهر الوحوش الكاسرة حسبما ينص ابن خلدون فى المقدمة ، فى البـاب الثانى فى العمـران البدوى ، الفصل الثانى فى ان جيل العرب فى الخلقة طبيعى (ط • التجارية ، القـاهرة ، ص ١٢١) — حيث النص : واما من كان معاشهم فى الابل فهم أكثر ظعنا ، وأبعد فى القفر مجالا •• فرارا من أذى البرد الى دفء هوائه طلبا لماخض النتاج فى رماله •• وأيضـا •• نفرة عن الضمة منهم ، فكانوا بذلك اشد الناس توحشا ، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه •• وهؤلاء هم العرب ، وفى معناهم ظعون البربر وزناتة المغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق ••• ومن صنهاجة الملثمين • وأنظر ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ — حيث النص على أنهم الموغلون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب ••• منذ دهور لا يعرف اولها • اصحروا عن الأرياف وهجروا التلول وجفوها ، واعتاضوا عنها ألبان الأنعام ولحومها ، انتباذا عن العمران وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر ، فنزلوا من ريف الحبشة (السودان) جوارا ، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا • وقارن ليون الافريقى ، ص ٦٧ — حيث النص على انهم يصبرون على الجوع ، وانهم يأكلون الخبز او الوجبة المجهزة ، بل يغتذون بحليب النوق واللحم المقدد المغلى فى الحليب • وفى الربيـع حيث يتوفر الحليب لا يهتمون بشرب المـاء او استخدامه لعلته فى مناطق العشب وقتئذ ، وكذلك ص ٦٩ — حيث يصف مادبة امير زناقة (صنهاجة) فى مضاربه ، حيث ذبحت الجمال والخراف وطير النعام ، وقدمت اللحوم مشوية ومسلوقة فى شرائح متبلة بالأعشاب وبهارات بلاد السودان مع خبز الذرة الناعم والتمر مع الحليب — هذا ، مع النص على ان الداعين أكلوا وحدهم وبدون خبز •

(٤٦) انظر جوتيه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٢١٧ وما بعدها — حيث تقسيم البربر الى رعاة صغار هم رعاة الشاة والماعز ورعاة كبار ، هم رعاة الابل ، وهى نظرية ابن خلدون الذى يقسم البربر تبعا لأحوال معاشهم الى قسمين هما ، المستضعفون ومعاشهم فى الفلح ودواجن السائمة ، والمعتزون ، وهم : « أهل الانتجاع والاظعان » فى نتاج الابل وظلال الرماح — العبر ج ٦ ص ٨٩ •

(٤٧) البكرى ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢١٣ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ — حيث النص على انهم لا يركبون سوى الابل ، ويستخدمون لهذا سرجا يضعونه بين السنام وبين عنق الجمل ، يسمى الرحلة (ص ١٣٤) وانهم قد يضعون ساقا فوق ساق على عنق الجمل الذى يثقب منخاره ويوضع فيه سير يمكن بواسطته تدوير الجمل وتوجيهه ، كما يقاد الحصان باللجام •

عندما نطلق تمليهم دفعة واحدة فتدهسهم دهسا(٤٨) .

ومن قوة الجمال التى كانوا يتعاملون معها ، استمد الرجـــال قواهم وعزمهم ، ورغم خفة وزنهم فهم كالرماح السمهرية فى قوامهم ، وفى شدة بأسهم ، والرمح فملا سلاحهم المفضل قبل القوس والنبل ، وهذا ما يظهر فى خطط معاركهم (بعد تأسيس دولتهم) وما يؤيده انتشار حمل الرماح بين أهل البلاد المتاخمة لصحرائهم ، كما فى السوس(٤٩) . وهم فوق ذلك يعرفون أوضاع البر واقتفاء الأثر ، واكتشاف مواضع المـاء ـ ولهم فى ذلك الحس الذى لا يدانيهم فيه غيرهم(٥٠) .

واذا كانت روايات القرن (٣ والـ ٤ هـ/٩ ـ ١٠) عندما تتكلم عن خشونة حياتهم ، تنص على انهم يتشحون بثيابهم ولا يلبسون القميص(٥١)

---

(٤٨) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ ـ حيث النص على ان ملك صنهاجة كان يملك من الابل ما يسمح له بالقضاء على أعدائه بمجرد الاعتماد على هيج بعضها ونفارها على الخصوم بغتة . وقارن البكرى ، ص ١٥٩ ـ حيث يقول ان ملك أودغست ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى/ ١٠ ميلادى ، كان يستطيع ان يجيش مئة الف نجيب ، وان يمد حليفه ملك ماسين (من ملوك السودان) بـ ٥٠ (خمسين) ألف نجيب . وعن دخول الجمل الى المغرب وغزو الصحراء (ج ١ ص ١٠٥) ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ـ حيث النص على ان صنهاجة اخترقت الصحراء بفضل الجمال التى دخلت شمال افريقيا منذ غزا الفرس البلاد فى القرن الـ ٦ ق.م ، وانها وصلت الى المغرب فى القرن الأول ق.م ، وشاع استعمالها فى القرن الـ ٤ م ، وبفضل استخدام الجمل كسفينة لاجتياز الصحراء ، عرفت صنهاجة الدولة الزنجية التى اسستها قبائل السونينكى (Soninke) وهى مملكة غانة فى شمال حقول الذهب فى بامبوك (Bambuk) .

(٤٩) أنظر الادريسى ، صادق ، ص ٧٨ ـ حيث النص على ان أهل تارودانت ، لا يمشى الرجل منهم ، الا وفى يده رمحان قصار العصى ، طوال الأسنان رقاقها ، الأمر الذى يعنى مهارة بالغة فى استخدام الرماح ، والذى يذكر بمهارة الترك فى الضرب بالنبال حتى كان الفارس منهم يحمل قوسين ، ويضرب من أمام ومن خلف ، فكان له عينان فى قفاه أيضا كما ينص الجاحظ فى رسالة مناقب الترك ، وانظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٣٤ ـ حيث النص على أن سكان فزان الجرمنتيين ، على عهد اليونان ، واللاتين ، كانوا لا يستخدمون الســهام والقوس فى الرمى ، بل كان سلاحهم الوحيد هو الحربة . وان الطوارق فى تومبوكتو عند ثنية النجر ما زالوا يرمون بالرماح ، وهم يرمحون بالحبل بدقة مدهشة . وأنظر ص ٢١٠ حيث النساء الطوارق يحملن الخنجر فى الذراع ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ٢٨ ـ حيث لا يمشى الرجل من أهلها الا وفى يده رمح أو رماح طوال الأسنان من أطيب الحديد .

(٥٠) ابن حوقل ، ص ٩٧ .

(٥١) اليعقوبى ، ص٣٥٩ ، وقارن ابن حوقل ، ص٨٣ ـ حيث النص على أنهم يتشحون =

فالرأى ان الزى المناسب لهم ، بصفتهم جمالة (فرسان) هــو السراويل المناسبة للركوب ، مثلهم مثل « الأحديين » المتصــلين بالمغرب من جهــة الشرق ، وهم أصحاب زى كزى المغاربة ، وفيهم جند يلبسون السراويلات المفتحة الطوال(٥٢) ، ولا بأس أن تكون ثيابهم قد تطورت مع مرور الوقت ، وتعلم بعضهم ركوب الخيل(٥٣) .

اللثــام :

أما أهم ما يميزهم من الكساء فهو اللثام ، المتخذ من فضــل العمــامة لتغطية الفم والأنف معا ، فلا يظهر من الوجه الا العينان ، فكأنه من الفعل لثم بلثهم ، وهو الذى أعطاهم اسم الملثمين(٥٤) ، الأمر الذى يذكر بطبقــة

= بالكساء ، وقارن الادريسى ، المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٤ ـ حيث النص على ان لباس الرجال والنساء لدى لمتونة الصحراء (لمـط وصنهاج) « الاكسية الصوف » ،ـفكان الأوضاع ظلت مستمره ـ فى مجال الثياب ـ دون تغيير يذكر حوالى ٤ (أربعة) قرون وأكثر .

(٥٢) ابن حوقل ، ص ٥٥ .

(٥٣) أنظر ليون الافريقى (قرن ١٦ م) ـ حيث يقرر ان لباس جزولة عبارة عن صدرية قصيرة من الصوف دون أكمام ، ملتصقة بأجسامهم (الترجمة ، ص ١١٥) وهذا يعنى انهم يلبسون ذلك فوق السراويل ، على ما نظن . وعن ثياب الطوارق قارن أيضا ، ص ٦٦ ـ ٦٧ حيث ثياب العامة : كساء كفوطة ضيقة من الصوف الخشن ، وعلى الرأس قطعة قماش سوداء ملفوفة حول الوجه كالعمامة . أما الوجهــاء فيلبسون قميصا كبيرا له أكمام عريضة ، من قماش القطن الأزلى الذى يشترونه من التجار القادمين من بلاد السودان . وعن ثياب الطوارق حاليا ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ليبيا ١٩٨٩ ، ص ١٧ ـ حيث الزى عبارة عن القميص الفضفاض والسروال الواسع ، والحذاء العريض من جلد البعير .

(٥٤) أنظر لسان العرب : ط . بيروت ، ج ١٢ ، ص ٥٣٣ ، لثم ـ حيث اللثام من الفعل لثم يلثم بكسر الثاء ، وربما بفتحها يعنى رداء المرأة وهو قناعها على « أنفها » وهو اللثام عندما يكون على الفم (بحيث تظهر العينان والأنف) وهو « اللفام » اذا كان على الأنف (فلا تظهر الا العينان) ، وأنظر اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ـ حيث النص على ان صنهاجة السودان الغربى يتلثمون بعمائهم ، سنة فيهم ، وقارن ابن حوقل ، ص ٩٧ حيث النص على انه لا يرى لأحد من صنهاجة منذ عرفت ، من وجوههم غير عيونهم ، وذلك انهم يتلثمون وهم أطفال ، وينشئون على ذلك ، وقارن الادريسى ، المغرب العربى تحقيق صادق ، ص ٧٤ ـ حيث النص على لمتونة (لمـط وصنهاجة) يربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازين . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨١ ـ حيث النص على انهم اتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم ، وقارن ترجمة دسلان (DeSlane) ج ١ ص ٦٤ ـ حيث النص على أن اللثام هو نوع من شريط أو رباط القماش ، وقارن ج . مارسيه ، المغرب الاسلامى والمشرق فى العصور الوسطى ترجمة هــيكل ، ص ٢٦٥ ـ حيث اللثام عند الطوارق الحاليين ، قطعة من القماش =

« الأستاذين المحنكين » فى الدولة الفاطمية بمصر والشام(٥٥) .

هذا كما عرفت صنهاجة مثل بربر الصحراء بوضع النقاب على وجوههم فلا يرى منها غير العينين — وبذلك فهم « المتقبون »(٥٦) .

والنقاب أشبه بالقناع الصغير يوضع فوق اللثام فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين وكذلك الأمر بالنسبة للبرقع، وهى مما عرفه العرب أيضاً قديما وحتى الآن . وأغلب الظن أن اللثام (على الفم وحده) تطلب ظهور النقاب (أو القناع) الذى يوضع على العينين فوق اللثام — زيادة فى التحفظ — فلا يظهر من الوجه الا محاجر العينين(٥٧) .

ورغم ما يقال من أن سبب وضع اللثام أو النقاب هو باعتبار الفم ، بصفته مدخل الطعام عورة يجب سترها مثل المخرج(٥٨) ، أو أنه من أجل

= يغطون بها وجوههم من أسفل الى أعلى ، وقارن حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٥١ — ٥٣ — حيث اللثام المعاصر . قطعة من القماش تصنع فى السودان ، وتحمل الى الطوارق ، وهو على لونين : أسود للنبلاء (ولهم القيادة) وأبيض للعبيد (أصحاب الأعمال اليومية الدارجة) وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ص ٦٨ — حيث النص على او أشرافهم يلبسون فوق رؤوسهم لثاما أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه ، فلا نظهر سوى عيونهم ، ويكونون هكذا عندما يأكلون . فكشف الفم عند تناول اللقمة فقط ثم ستره فى الحال ، وانظر هـ ١٤١ — حيث يدعى اللثام بالبربرية : « تاغلموست » .

(٥٥) أنظر صبح الأعشى للقلقشندى ، ج ٣ ص ٤٧٧ — حيث النص أنهم أجل طبقات « الأستاذون » ، وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة (وهو ما يمثل أرثا مغربيا وفد الى مصر مع الفاطميين . وقارن جمال الشيال ، أعلام الاسكندرية ، ص ١١٠ ، هـ .

(٥٦) الاستبصار ، ص ٢٢٣ — حيث النص على أن أهل تادمكة على تخوم السودان ، مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء .

(٥٧) أنظر لسان العرب ، ج ١ — أ ب ، ص ٧٦٥ — نقاب (وقناع) — حيث النقب فى أى شىء كان والنقاب = القناع على مارن الأنف ، ويقال تنقب وأنتقب . والأصل فى النقاب انه من رداء المرأة ، وهو مستحدث من الخمار ، لسان العرب ، ج ١ — أ ب ، ص ٧٦٨ (نقب) . اما البرقع فهو لباس الدواب ونساء الأعراب (ج ٨ — ع ، غ ، ص ٩) . وأنظر أولبفر وفيج ، موجز تاريخ افريقية ، الترجمة ، ص ٧٠ — حيث النص على ان اللثام كان رداء الطبقات النبيلة من الأحرار ، دون العبيد من الزراع والصناع .

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ — حيث أنهم يزعمون ان الفم سوءة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه ، اذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة ، وقارن البكرى ص ١٦٨ ، الذى يفهم من روايته انهم يفعلون ذلك حرصا على أفواههم أن يصيبها الذباب ، ذلك انهم =



شكل رقم ٨ ــ طارقى ملثم (اللثام من النوع الصغير)

التخفى عند القيام بأعمال اللصوصية — التى كثيرا ما يضطرون اليها بسبب القحط والجفاف — أو للدفاع عن الوطن(٥٩) ، كما يفعل الملثمون من شباب المناضلين الفلسطينيين ضد الاحتلال الاسرائيلى ، حاليا ٠

ولا بأس أيضـــا فى أن يكون ارتداء اللثام لأغراض دينية سحرية محضة ، كأن تكون هناك علاقة بين الاقنعة ذات الأشكال العجيبة والألوان الصاخبة التى يرتديها أهل السودان الغربى فى احتفـــالاتهم الآن ، وبين استخدام اللثام قديما عند بربر الصحراء(٦٠) ٠

= يسمون من لا يضع اللثام من غيرهم « أفواه الذبان » بلغتهم ، وقارن حسن أحمد محمود ـ ص ٤٩ — حيث يعتبر ان اللثام لستر الوجه كله ، لأن الوجه كالعورة ، وهو ما لا يندم له سـندا ٠

(٥٩) أنظر ، ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ — حيث قصة ارتداء النساء السافرات عادة اللثام تشبها بالرجال من أجل تخويف القراصنة المهاجمين عندما يرون كثرة عدد المدافعين عن مساكنهم ، ولو أن المعركة انتهت بأن كان من قتل من النساء أكثر ٠ فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه ، فلا يعرف الشيخ من الشاب ، اذ لا يزيلونه ليلا ولا نهارا ٠ أما بداية النص فيفهم منها أن لمتونة كانوا مثل العرب يتلثمون من الحر والبرد ، ولكنهم بعد ان ملكوا ضيقوا اللثام ، فكأنه أصبح رمزا لحالة ثقافية معينة ، عبر عنها الشاعر العربى بأنها الحياء .

قوم لهـم درك العـلى فى حمـير	وان انتموا صـــنهاجة فهـم هـم
لـما حذوا احراز كل فضـــيلة	غلب الحيـاء عليهـم فتلثمـــوا

وقول الآخر :

اذا التثموا بالريط خلت وجوههم	أزاهـر تبدو من فتوق الـــكمائم
أو التـاموا بالســـابرية أبرزوا	عيون الأفـاعى من جلـود الأراقـم

وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٣ — ٣٨٥ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ — مع اضافة بعض الطرائف عن تمسك لمتونة باللثام الى الحد الذى يسمح للرجل منهم بأن يقدم ستر وجهه على ستر عورته — وذلك فى دمشق بعد انقضاء دولة الملثمين ٠

(٦٠) أنظر جوليان (ش ٠ ا) ، تاريخ افريقيا الشمالية ، الترجمة العربية ، ج ٢ ص ١٠٤ — حيث النص على ان لمتونة كانوا يجوبون واحـات جنوب المغرب الأقصى الى بـلاد الزنوج ، ولعلهم كانوا يضعون اتقاء من العين لثاما يحجب أسفل وجوههم فسموا بالملثمين ، وقارن أحمد مختار العبادى ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ٢١/٦٧ — ٦٨ ص ٤٩ — حيث النص على ان ارتداء اللثام عادة أخذت من زنوج افريقيا المحاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم ، مع الاشارة الى جوليان (تاريخ شمال افريقيا ، ١٩٥٢ ، ص ٧٧) ، وهو مختلف عنه اذ يمكن أو يكون العكس هو الصحيح — والأمر احتمال على كل حال ٠ وأنظر لـون الافريقى ، هـ ١٤١ ص ٦٨ — حيث الاشارة الى كثير من الأساطير غير المقنعة مما يتعلق باللثام ، منها : انه لدفع أمر محرم حقيقى ، وهو الفم أمام المرأة والأشخاص المحترمين ، وهو ما لا يشير اليه المؤرخون = (Taboo)

والحقيقة أن ما يأخذ به البعض من رفض فكرة ارتداء اللثام من أجل انفاء عوارض الجو المختلفة من الغبار والبرد والحر ، وترجيح فكرة الخشية من تسرب الأرواح الخبيثة الى الجسد عن طريق الفم والأنف له علاقة بالمعتقدات السودانية التقليدية فى جنوب الصحراء ، والتى تتمثل فى أساطير وقصص عن الله والبشر والطبيعة • ويظهر ذلك فى الفن التقليدى فى وسط أفريقيا وغربها فى الأقنعة بشكل أساسى ، وفى الرؤوس ذات المعنى الدينى السحرى والتى تستعمل فى القيام بالشعائر الدينية والضرب على الطبل وقص الحكايات • وبدون ذلك لا يمكن للفن المرئى القيام بوظيفته فى المجتمع الافريقى التقليدى ، والتى تتمثل فى الصراع من أجل السيطرة على القوى المختلفة ، من : طبيعية وعلوية لكى تنتهى الأمور على ما يراد ويشتهى ، فكأن الفن هو وسيلة العلاج(٦١) •

هذا وتعرف ديانة السودان عند الباحثين بـ « الاحيائية » (animisme) ، من حيث أنها ترتكز على تقديس الأرواح أيا كانت ، لاجتذاب الخيرة منها وتقريبها ، ودفع الشريرة منها وطردها ـ فكأنها من الديانات الثنوية ، مثل : السمنية (Chamanisme) : ديانة المغول والتتر • وهى تعتنى بأرواح الموتى الباقية مع الاحياء وهى الأكثر عددا ، الى جانب أرواح مظاهر الطبيعة المختلفة ، من : الماء والأرض والشجر والحيوان وغيرها من الكائنات ، الأمر الذى يعبر عن وحدة المجتمع والبيئة حيث يفنى الفرد فى سبيل الجماعة(٦١ م) •

= القدامى • وان كان من الممكن ان يكون القناع لاخفاء قبح الوجه احيانا ، أو ان يكون ارتداء اللثام الذى يتم فى حفل عائلى صغير بالنسبة للغلام (المراهق) دلالة على أنه بلغ مبلغ الرجال ، وانه يستطيع المشاركة فى الغزو وكذلك التردد على النساء •

(٦١) دائرة المعارف ليكسيكون يونيفرسال ، ط ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٤٦ (عن الدين) وص ١٦٠ (عن الفن) ، وص ٦٤٦ (عن قناع للتامل مصنوع من الخشب والليف (من زائير الكونغو) وهو فى الحقبة لباس للراس دقيق النحت والتلوين ، ويقوم بارتدائه شاب أثناء احتفال الختان أو الرقص ، وانظر شكل ٧ ـ حيث قناع من غينيا الفرنسية يجمع بين القسمات الانسانية وراس التمساح وجسد الأسد •

(٦١ م) عن السمنية انظر للمؤلف ، الاسلام والترك ، مجلة عالم الفكر الكويتية ، عدد ٢ سنة ١٩٧٩ ، ص ١٦٦ • وعن ديانات السودان ، انظر مولارد ، افريقيا الغربية الفرنسية ، ص ٧٧ (عن الديانات) ـ حيث يتطلب فناء الفرد فى مصلحة الجماعة اعدادا شاقا للشخص منذ نعومة اظفاره ، مما يشبه الاعداد فى الجمعيات السرية ، كما يتطلب احتفالات سرية تستخدم فيها الأقنعة الرمزية الخاصة بتلك الديانة ، ص٨٠ والصفحة المقابلة حيث صورة =



شكل رقم ٩ ـ قناع من غينيا الفرنسية ـ يجمع بين القسمات الانسانية
ورأس التمساح وجسم الثعبان

والمهم انه رغم كل ما يقـــال عن العلاقة بين اللثـــام والديانات السودانية المشار اليها ، فان المتعارف عليه ابتـــداء أن استخدام اللثام بالصحراء ، بل وفى كل مكان مفتوح كالريف والبحر والفضـاء أيا كان ، أمر مطلوب لحماية الوجه وجهـــاز التنفس ، بل والعينين أيضا ، ممـا قد يتهددها من أذى الرياح المحملة بالرمال والأتربة ، والتى تسفو عاصفة على طول الطريق - وخصوصا فى مواسم التقلبات الجوية(٦٢) ٠

ومن المهم الاشارة هنا الى أن اللثام الصحراوى تطور فى مملكة جنى التى خلفت تومبوكتو كالعاصمة التجارية ، والتى عرفت عند المغاربة باسم جنيوه ، وهو الاسم الذى أصبح عند تجار المغرب كناية عن بلاد السـودان حيث جادت صناعة نسيج القطن فأصبح اللثام (فى القرن ١٦ م) كبـــير الحجم ، أسود اللون أو أزرقه ، ويتغطون به حتى الرأس ، بينما تميز لثام العلماء والفقهاء باللون الأبيض(٦٣) ٠

وهكذا يصبح اللثام نوعا من عوامل الربط بين بربر الصحراء وقبائل

= قناع خاص بجماعات النالو والباجا من غينيا الفرنسية ، وتظهر فيه مسحة الوجه الانسانى ، وشكل رأس التمساح مع جسم الأفعى (شكل ٩ ص٨٢)٠ وقارن كولين ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص٢٣ - حيث تحفة فنية تمثل مقعدا من النحاس للأغراض السحرية ، قائمه حية ضخمة ملتفة، وقاعدته مزينة بالضفادع والأقنعة البارزة ، بينما المقعد (ص ٧١) مزخرف برموز بارزة ، من الصليب البيزنطى الى القناع والسيف وبعض الأدوات الحرفية ٠ وانظر أيضا ص ٨١ - حيث قناع من العاج يمثل رأس ملكة افريقية مزين بافريز كالمقرنص (كورنيش) من رؤوس البرتغاليين الأوائل الذين وصلوا الى افريقيا (من محفوظات المتحف البريطانى بلندن) ٠ وقارن فيدج (Fage) مقدمة لتاريخ غرب افريقية (بالانجليزية) ، ص ٧ - حيث تتلخص عقائد الزنوج فى ان لكل جماعة رئيس كهنوتى ، وانهم يعتقدون فى اله أعلى هو خالق الكون واعداد من الآلهة لهم علاقة بالأشياء الأرضية ، مثـل : الصخور والأنهار والبحيرات وهم أقرب الى الانسان منهم الى الاله الخالق ، وهناك اعتقاد فى الحياة بعد الموت ، وهناك عالم الأرواح ، ومنها أرواح الموتى ولهم تأثير قوى على الناس والأشياء ٠

(٦٢) أنظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٤١ وهـ ٦ - حيث النص على انه اذا ثارت الرياح أطارت رمل « سوف » الناعم كالدقيق ، فى الجو أعمدة قد تغشى القوافل فتدفنها (فكأنها عواصف الثلج فى ممرات أطلس وجبال الريف على تخوم الصحراء ٠ كما ينص ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٥) ٠ ولذلك فانه فى زمن الرياح لا يستطيع الانسان السير فى «أرض سوف» من غير ستر عينيه بزجاج هو فى الحقيقة منظار يستخدمه أهل الصحراء - الأمر الذى يعنى ان المناظر (النظارات) الزجاجية تعتبر نوعا من النقاب ، وان الأقمشة المعقمة التى يتخذها الأطباء على الأنف والفم أثناء الكشف على المرضى نوع من اللثام أيضا ٠

(٦٣) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٣٧ ٠

السودان الشمالى الذين امتزجوا بهم بحكم الهجرة والجوار منذ القديم ، حتى أصبح الجميع ملثمين ، فكأن السمة المميزة لدولة المرابطين هى انهـــا دولة السمر أصلا ، أى أهل الوسط المهجنين بين الجنسين الأبيض والأســـود ، وهى طبيعة الوطن فى اقليم الساحل ، حيث التماس بين الجنسين الذى ربط امتزاج الدم بينهما عرقيا ، كما ربط اللثام بينهما حضاريا وثقافيا ٠

وتظهر تلك التفرقة فى تقسيم الزنوج فى أفريقيا الى عرقين ، هما : السود فى غرب أفريقيا ، وهم « السودان » وحدهم ، نسبة الى مجمـــوعة اللغات التى يتحدثونها ، وهى اللغات السودانية ، وهـــؤلاء يختلفون عن العرق الآخر الذى يمثله السود فى شرق ووسط وجنوب أفريقيـــا ، ولهم لغاتهم الخاصة بهم ، فهم البانتو (Bantu) أهـــل الغـابات ، نسبة الى اللغة ، وهم الزنوج الحقيقيون(٦٤) ٠

وثمة سمة ثالثة زادت فى تميز ذلك المجتمع الصحراوى الســـودانى الملثم ، تتمثل فى مركز السيادة الذى تمتعت به المرأة ، فالأسرة فيـــه من النـــوع الأموى (المـــاترياركى matriarcale) ٠ ففى الامبرا ــطوريات السودانية كانت الوراثة لابن الأخت ، وفى دولة المرابطين كان الانتساب الى الأم اذا كانت من الأسرة المـالكة ، كما يأتى ٠

---

(٦٤) أنظر فيدج ، مقدمة لتاريخ غرب أفريقيا ، ص ٤ - حيث كلمة بانتو تعنى الرجال (men) ، وص ٥ ـ حيث الهجرات والاختلاط بين السود والبيض خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية ، الأمر الذى يوضح ان دولة غانة كانت أكثر شمالا مما يظن وكذلك الأمر بالنسبة لجماعات الهوسا فى الغرب ٠ وأنظر ص ٩ ـ حيث الاشارة الى ذوبان الغزاة من البربر فى المجتمع الزنجى الذى تعلم تقنياتهم واقام الامبراطوريات ٠

الثروات الطبيعيـــة

النبـــات :

الصحرا بطبيعة الحال ، قليلة الخيرات تبعا لقلة المـاء ، وبالتـــالى قلة النباتات التى عليها معاش الحيوان والانسان · ولمـا كانت صحراء الملثمين هى الصحراء بالامتياز أى قلبها المقفر ، كانت النبـــاتات فيها من النــوع الابرى أو الشوكى ، الذى يدافع عن وجوده ضد الحيوان من أجل البقاء ، ربما باستثناء الجمـــل المهيأ خلقيـا للتعـــامل مع هذا اللون الصعب من الطعام(٦٥) ·

النخلـــة :

واذا كان الجمل هو الرمز الأول للصحراء حسبما هو معروف ، فان النخلة هى الشعار الثانى للصحراء · والحقيقة أنه اذا كان الجمـــل معروفا بتحمله للعطش سمة الصحراء الأولى ، فان النخلة ليست كذلك ، اذ لا تصبر طويلا عن المـاء مثل نباتات الصبار وهى لذلك لا توجد فى الصحراء الا فى الواحات حيث تتوفر المياه الجوفية ، كما فى أحساء الرمل والبطائح والسباخ والشطوط ، أو غير بعيد من موارد المـاء على طول الأودية والأنهار أو حول العيون والآبار(٦٦) ·

---

(٦٥) الى جانب النباتات الشوكية عرفت الصحراء النباتات التى تقاوم الحرارة والجفاف عن طريق الأوراق الصغيرة المضادة للنبح ، والجذر الكبير للحفاظ على الرطوبة ، ومنها القصير العمر (مثل : Baerhavia repens على الحواف الجنوبية للصحراء ، والتى تزهر وتموت فى ٨ (ثمانية) أيام فقط · وهى عادة تستهلك كميات قليلة من المـاء ، وتهىء بذورها للانتشار الواسع وساعدها فى ذلك حيوانات الرعى ، من الجمل والغزال والماعز حيث ساعد أشواك البذور على التعلق بارجل الحيوانات وشعرها ووبرها والرحلة معها ـ أنظر والطون الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٤٧ ـ ١٥١ ·

(٦٦) وفى غرس النخيل تشير دراسة أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر ،

وهكذا تكون النخلة رمزا للصحراء شراكة مع عائلة الصبار والنباتات الشوكية الأخرى ، حيث أن أوراق سعفها الابرية وتحملها للحرارة الشديدة، الى جانب ارتفاعها المستمر مع مرور الوقت ، تجعل منها شارة حقيقية فى قلب الصحراء : تهدى الى مواضع الماء ، وتدل على الطريق ٠ هـذا ، الى جانب أهميتها الاقتصادية الكبيرة ، من حيث أن ثمرها مصدر الطعام الطبيعى فى الصحراء والواحات ٠ ولما تقدمه أيضا من خدمات عامة للانسان والحيوان ، كالفىء عند لفح أشعة الشمس وحرارة الجو ، والطراوة عند اجحاف الجفاف ، الى جانب المنظر الجميل الذى أوحى للبنائين اقامة السوارى السامقة ، والأساكيب (المعمارية) الرائقة(٦٦ م) ٠

ولتوطن النخلة فى صحراء أفريقيا الشمالية قصة أشبه ما تكون بقصة توطن الجمل فيها وان كانت أحدث منها ، كما تدل الشواهد ٠ فالنخلة وافدة من المشرق ، بوابة عمران المغرب ٠ ولا بأس أن تكون قد دخلت البلاد فى العصر الرومانى رغم افتقاد الأدلة على وجودها وقتئذ ـ على الأقل بالكثافة المعروفة الآن فى غابات النخيل ٠ وهذا الأمر يدعو الى قبول فكرة أن غرس الواحات بالنخيل ، مثل سكناها بالجنس الأبيض ، وتطور أساليب الرى فيها بتقنية متقدمة انما كانت تتم شيئا فشيئا فى العصور الوسيطة والحديثة ، منذ انتشار الجمل الذى جعل الوصول الى الصحراء أمرا ميسرا ، كما جعل استقلالها الاقتصادى شيئا ممكنا(٦٧) ٠

شمال سيناء ١٩٩١ ص ١٥٦ ، الى أنه يتم غرس الفسائل فى حفر يصل عمقها الى الماء السطحى ، أو الرمال المشبعة بالماء ٠٠٠ وان النخل يثمر عادة بعد ٦ (ست) سنوات بعد التسميد والتذكير ٠ مع النص على ان النخلة تحتاج الى رعاية واكرام من صاحبها حتى تكرمه بالمحصول الوفير ٠

(٦٦م) عن الأسكوب (فى المفرد) وهو العنصر المعمارى فى الجامع الذى يعادل البلاطة المعترضة ، عند أحمد فكرى (المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها) ، أنظر للمؤلف ، العمارة والفنون فى دولة الاسلام ، ص ٢٩٤ وهـ ١ ٠

(٦٧) أنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ حيث النص على ان غابات



شكل رقم ١٠ ـ وادى سوف (الجزائر) ـ المدينة فى المقدمة وغابات النخيل بين كثبان الرمل

اقليم النخـــل :

والمنطقة المقابلة « للساحل » شمالا ، هى حزام النخـــل الذى يحـد الصحراء ابتداء من السوس الأقصى غربا ، مما يتاخم مواطن قبائل جزوله ، ويمتد شرقا عبر سفوح درن (أطلس) الجنوبية وبلاد درعة وسجلماسة الى وارجلان والجريد حتى غدامس (جنوب طرابلس) ، وهى منـــاطق شبه صحراوية ، يتوفر فيها المـاء والخصب • فايجلى عاصمة السوس ، على نهر

النخل الجملة فى وادى ريـغ ـ جنوب بسـكرة (بالجزائر) لم يكن لها ذكر فى النصوص الرومانية ، ولا يوجد له أثر فى البقايا الرومانية (الأثرية) ، وانظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ، حيث التركيز على ما للنخلة ـ شجرة سوف بالامتياز فى العصر العربى الاسلامى ـ من أدب خاص بها • فهى الشجرة المباركة التى خلقت من فضلة طينة آدم ، وهى تشبه الانسان من عدة وجوه ، من : الاستقامة ، وتمييز جنسها ، والاثمار بلقاح الذكر ذى الرائحة الانسانية ، والهلاك اذا قطع راسها أو أصيب جمارها (مخها) ، وعدم رجوع غصنها اذا قطع (كالعضو الآدمى) ، وكسوة الالياف (أشبه بشعر الجسد) ، ثم انها تعى عندما تهدد بالقطع اذا لم تثمر فتعود الى الاثمار • اما عن أسمائها فيعدد أكثر من ١٠٠ (مائة) نوع • والمهم بعد ذلك أن النخلة ليست شجرة صحراوية عنيدة ، فهى وان تحملت الحر الشديد لا تصبر كثيرا على العطش ، فهى لذلك شجرة الواحات التى تحتاج الى الرعاية ، مما سبقت الاشارة اليه •

ماست ، شهيرة بكثرة النخيل ورخص التمر(٦٨) . والمهم أن ايجلى على ٣ (ثلاث) مراحل فقط من مدينة نول لمطة ، من حيث يبـــدأ الدخـول في الصحراء(٦٩) .

وبلاد درعه التي يمكن أن تكون قد أخذت اسمها من قبائل ترغه (أو الطوارق) التي سكنتها قديما(٧٠) ، اشـــتهرت بكثرة بساتين الفـاكهة والنخيل(٧١) .

وتعتبر سجلماسة (تافلالت) القريبة من درعه من بلاد النخـل هي الأخرى الى جانب بساتين الفاكهة ، وان تميزت على غـــيرها من الواحـات بزراعة القمح(٧٢) .

وفي الطريق الى المشرق كانت ورجلان التي امتدت في شكل ٧ (سبعة) واحات أو حصون من بلاد النخل ، تمثل محطات رئيسية على طريق القوافل

---

(٦٨) البكرى ، ص ١٦٢ (والاستبصار ، ص ٢١٢) — حيث وفرة قصب السكر ايضا ، وشجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت الطعام الشائع الاستعمال ، والمستخدم ايضا في علاج الكلى وادرار البول .

(٦٩) الاستبصار ، ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٧٠) عن ترغة أنظر ، ما سبق ص ١٤ وهـ — اما عن وادى درعه فهو عدة قرى متصلة على طول النهر الذي ينبع من جبال اطلس (درن) ويجرى بقبليها من الشرق الى الغرب . وعاصمة تلك القرى التي كانت تسكنها قبيلة سرطة أيام البكرى (منتصف القرن الـ ٥ هـ / ١١ م) هي « يتوميتين » (البكرى ص ١٥٥ — ١٥٦) .

(٧١) هذا كما اشتهرت درعه بالزيتون والأعشاب شبه الطبية التي تنمو في ظل النخيل كالحناء خاصة ، والكراوية او الصناعية مثـل النيلج (المستخدم في صباغة اللون الأزرق) — أنظر الادريسى المغرب ، تحقيق صادق ، ١٩٨٣ ، ص ٧٧ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ — حيث الانفراد بالمعلومات التي ربما سقطت من نسخة البكرى ، والتي تنص بخاصة على جودة الحناء التي عظم انتاجها حتى كانت تؤخذ منها بذور الحناء الى سائر البلاد ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، ص ٢١ . هذا كما يوجد بدرعه شجر التاكوت الذي يستخدم ورقه في دباغة الجلد الغدامسى ، كما كان ورق شجر النامجلشت يستخدم كصحاف الطعام ، لعظمته وقوته ، كما كان الحال في سجلماسة — البكرى ، ص ١٥٦ ، الاستبصار ، ص ٢٠٧ .

(٧٢) البكرى ، ص ١٤٨ ، والاستبصار ، ص ٢٠١ — حيث سقيا القمح من النهر الذي ينبع من أحدى العيون الارتوازية ، وكذلك الشعير . بينما يضيف الادريسى الى الحناء والكراوية والكمون زراعة القطن (المغرب العربي ، تحقيق صادق ، ص ٧٦) .

الى واحات مصر(٧٣) • أما قسطيلية (القلاع) وقاعدتها توزر الشـــهيرة بهندسة الرى الدقيقـــة ، فكانت مـــع بلاد الجريد القريبة ، بـلاد التمر بالامتياز(٧٤) • وفى جنوب شرق الجريد عرفت غدامس بكثرة تمرهـــا ، وشهرة جلودها — وهى آخر مواطن الطوارق فى ليبيا حاليا(٧٥) •

وهكذا امتدت بلاد النخل من تارودانت بالسوس غربا الى واحات مصر شرقا • والى جانب النخلة وفى ظلالها حيث تتوفر الرطوبة وجدت النباتات والأعشاب الطبية والعطرية ، من الحناء والحبق وأصناف الأشجار من الاهليلج وشجر الصمغ وغيرها مما كان يستخدم فى الغذاء والدواء وفى الصـــناعات من الصباغة والدباغة وغيرها(٧٦) •

نبـــاتات الساحل :

أما عن منطقة الساحل (حزام أعشاب السافانا الجنوبية) ، شـــبه الصحراوية ، فتوجد بها الى جانب الأعشاب الابرية ، شجيرات الدوم ، كما تنتشر فيها شجيرات الطلح (الأكاسيا : Acacia) ، والـــكرام كـرام (Cram - cram) الى نخلة الرونييه الثمينة : (Roniez Barassus Flabe llifer) (٧٧) •

---

(٧٣) الاستبصار ، ص ٢٢٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٠٠ — ١٠١ — حيث بلاد النخل تمثـل اقليما طبيعيا فى شمال الصحراء يمتد من السوس الى مصر ، وانظر ج ١ ص ٧٥ — ٧٧ • والشكل ٨ — عن غابات النخيل فى وادى سوف بالجزائر •

(٧٤) البكرى ، ص ٤٧ — ٤٨ ، والاستبصار ، ص ١٥٥ ، ١٥٠ •

(٧٥) البكرى ، ص ١٨٢ ، الاستبصار ، ص ١٤٥ — ١٤٦ — وعن طوارق غدامس الآن ، انظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، ص ١٧ — حيث تمتد مواطنهم من غدامس الى تمنغست بالجزائر وتيمياوين على الحدود مع مالى ، الى تينبكتو بمالى وطاوه بالنيجر ، وابشة شرق تشاد •

(٧٦) البكرى ، ص ١٥٧ — حيث موضع اقرتندى على طريق تامدلت — أودغست ، وهو بئر عطبة فى حد بنى وارث ، من صنهاجة وانظر ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٥٢ وما بعدها ، حيث نباتات منطقة سوف ، مع النص فى ص ٥٣ — على ان شجر الصحراء الحطبى فقط ، هو : الأزال والأرطى والعلندة والبلبال والباقل والمرخ ، مع الاهتمام بذكر أشجار الدواء ، من : الدعار (للسـعال والبواسير) والطرفاء (وجع الســنان) والأثل (شـــد الشـــعر) •

(٧٧) مولارد ، ص ٤٦ — ٤٧ ، وانظر دائرة معارف ليسيكون يتيفيرسال ، افريقيا ، ج ١ ص ١٤١ — حيث الاشارة الى ان منطقة الأعشاب (سافانا) تمثل ⅓ (ثلث) مساحة افريقيا ما بين الغابات والصحراوات ، وأنها تتدنى كلما اقتربت من الصحراء حيث بعض الشجيرات التى تتحدى الجفاف ، وبعض الخضرة المتباعدة التى تتحمل بعض الرعى •

وتعتبر مدينة أودغست أول مناطق هذا الحزام جنوب الصحراء ، حيث تتوفر الحياة الحضرية بتوفر المـاء ، من : البساتين والنخيل ، بل وزراعـة القمح عن طريق الحرث (بالفؤوس) والسقيا الصناعية بالدلاء ، فكأنهـا نظيرة سجلماسة ودرعه (شمال الصحراء) ، ويؤكد شهرتها فى انتاج الحناء أيضا(٧٨) ٠

وبعد أودغست تكون النقلة الى البيئة السـودانية الموسمية ، حيث يزرع القمح وكذلك الأرز الذى يسمى « الرشيد » ، وهو يحتاج الى الغمر فى المـاء ، الأمر الذى توفره مياه نهرى السنغال والنيجر(٧٩) ٠ أما الغابات الجنوبية فأكثرها شجر الأبنوس من اسود (غالبا) ومجزع ، والذى يكون منه الوقيد(٨٠) ٠

الحيـــوان :

الجمـل :

الجمل الذى دخل الى صحراوات المغرب فى القرون الميلادية الأولى ، هو بحق سفينة الصحراء ، فبفضله أمكن التوغل فى قلب بحار الرمل ، وارتياد أطرافها جنوبا حتى بلاد السودان حيث أصبحت الصحراء همزة الوصل ، وطريق المواصلات الذى يربط شمال أفريقية بوسطها ، وشرقها بغربهـا بشبكة من الطرق أحدثت فى المنطقة ثورة اجتماعية سياسية ، كمـا يقول جوتييه ، أشبه بما أحدثته خطوط السكك الحديدية ، وظهور السيارة ثم الطيارة(٨١) ٠ ويرجع ذلك لضخامته وقدرته على حمل الأثقـال ، وتحمله الجوع والعطش ، وتاقلمه مع البيئة بفضل الأخفاف المضـادة للغوص فى الرمال ، واعتياده على أكل شجيرات الصحراء الشوكية ، وشرب ماء العيون

---

(٧٨) البكرى ، ص ١٥٨ ـ حيث النص على انه لا ياكـل دقيق القمح الا الميسـور ، اما العامة ناكلهم الذرة وغيرها ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ (حيث سقطت الحناء ، وعن درعه ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧) ٠

(٧٩) مولار ، ص ٣٠ ٠

(٨٠) البكرى ، ص ٧٣ ، وانظر دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ ـ حيث النص على ان الغابات الاستوائية تنتج حاليا نخلة الحمر الثمينة ، ونخلة الزيت ، والأبنوس وخشب الماهوجنى ٠

(٨١) أنظر ماضى شمال افريقية لجوتييه ، ص ٢٠٩ ، وقارن شعيرة ، المرابطون ، المقدمة ص د ٠

المالحة(٨٢) ٠

والجمل الكريم يسمى نجيب (والجمع نجب) ، وهو سريع العدو يسابق الخيل ، فراكبه فارس محارب مثل راكب الفرس وأشد(٨٣) ٠

والخيل التى دخلت المغرب عن طريق المشرق عبر مصر ، ربما منذ عصر الهكسوس أو الفرس(٨٤) ، لا توجد فى الصحراء الا فى الواحات حيث المـاء

---

(٨٢) ما سبق ، ص ٦٢ ، وانظر والتون ، الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٦٢ - ١٦٨ - حيث الاشارة الى ان الجمل هو الحيوان الأساسى من بيئة آكلات العشب فى البيئة الصحراوية والجمل الآسيوى ذو السنامين اشد من الافريقى ذى السنام الواحد ، واقدر على تحمل الجوع والعطش والحر والبرد ، وعن خصائصه الفسيولوجية ، فالخف الكبير يساعد على توزيع الوزن فوق مساحة كبيرة من الرمل ، وسمكه يحصن ضد الاشعاع الحرارى من السطح الصخرى الحار ٠ اما عن تحمله للحرارة والبرودة فلأنه لا يعرق قبل درجة حرارة ٤١° ، بينما يبرد جسمه ليلا الى درجة حرارة ٣٤° ، وهو يعوض ما يفقده من المـاء مما هو مخزون فى سنامه ، وذلك عن طريق أكسدة الشحم فيه ٠ والحقيقة انه ليس للجمل خزان مياه فى جسده ، واقصى ما يحده المرتحل عند ذبح بعيره وقت الظما ، هو العصارة الهضمية الخضراء فى تلافيف معدته ٠ وعن دورة حياة الجمل ، أنظر احمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى مصر وشمال سينا ، ص ٨٠ - ٨١ ، حيث الاشارة الى الثقافة الكبيرة عن دورة حياة الجمل حيث المولود (حوار) والمفطوم (لبنى) ، والطليق (مفروط) ، والمنظم الاستخدام (مربوط) ، وذلك قبل مرحلة التطبيع ٠ والجمل « صايم » عندما يطلب الأنثى فى الشتاء ، والحمل ١٢ شهرا ، وفترة الرضاعة فرصة طيبة لأصحاب الناقة لأخذ شيء من لبنها ٠

(٨٣) وانظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٢٠٩ - حيث تراه شارحا لنظريات ابن خلدون ، اذ يقول ان الجمل لا ينفصل عن الرجل الذى يستخدمه ، وهو البدوى الكبير ، راعى الابل الذى يتجمع فى قبائل مخيفة ، كل واحدة منها أشبه بكتيبة مقاتلة منذ مولدها ، فهى سريعة الاتصال ، ويمكن أن تظهر ككارثة طبيعية ، غير متوقعة ٠٠٠ وهو بسبب الفقر وافتقاد الشبع والمتع والنقود يصبح وحشا آدميا ، ينزع الى النهب والسيطرة ٠ وقارن اسماعيل العربى ، الذى يأخذ بمقولة دخول الجمل الى صحراء المغرب عن طريق مصر ، منذ عصر الهكسوس ، وعلى طول عدة قرون ، فكان الهكسوس الخيالة جلبوا معهم الجمل أيضا من آسيا - بصرف النظر عما هو معروف من أن الجمل الآسيوى ذو سنامين - وهو يشير أيضا الى ان حيوان الأثقال فى الصحراء المغربية ، قبل الجمل كان الثور ذا القتب (السنامة) ٠ وقارن أوليفر ، وفيج ، مقدمة تاريخ افريقية الغربية ، الترجمة ، ص ٦٧ ، - حيث النص على أنه قبل مجيء الجمل الى شمال افريقيا كان هناك نوع من العربات التى تجر الواحدة منها ٤ (اربعة) خيول تجوب الصحراء فى طريقين ، من فزان وجنوب مراكش الى ثنية النحر العظيم ، حيث كان يوجد الذهب - وهو الأمر المستغرب - وان ذلك بناء على الرسوم الموجودة على الصخور الأثرية فى الصحراء ٠

(٨٤) انظر جوتييه ، ماضى ، شمال افريقية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ (عن الحصان المغربى) ٠

والعلف ، من الشعير أو من رديء التمر - بينما يكون النوى أحيانا غـذاء المـاعز(٨٥) ٠

حيوانات البرية :

أما عن حيوانات البرية فمنها اللمط (اللمت) وهو نوع من الأيائل الشبيهة بالبقر الوحشى ، مثل الرنة(٨٦) ، والذى كان يصنع من جلده دروع الدرق اللمطية ، آلة الحرب الشهيرة لخفتها ومتانتها ، ليس بين الصحراويين فقط ، بل وفى كل بلاد المغرب ، وكذلك بالأندلس(٨٧) ٠

ومع اللمط عاشت فى الصـــحراء أنواع من الـكباش التى تسـمى (الدمانية) وهى شبيهة بتلك الأيائل أيضـا ، وان كانت أكبر حجمـا ، وشعرها مسترسل كشعر المـاعز(٨٨) ٠ ووجـــد بنفس الصحراء الثعلب وخاصة النوع الأبيض الصـــغير الحجم ، كبير الأذنين ، المعروف بالفنــك والمطلوب لفرائه الجميل ، الثمين(٨٩) ، كما « الفيزون » (انقنـــدس) فى أيامنا هذه ٠

---

(٨٥) أنظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ - عن درعه حيث التمر علف الخيل والنوى المجروش غذاء الماعز ٠

(٨٦) أنظر فيما سبق ، ص ٧٠ - حيث اعتبار اللمط الجد الأسطورى الذى تتسمى به بعض القبائل الصحراوية ، من لمته (لمطة) أو لمتونة ، وانظر ليون الافريقى ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ ، هـ ٦ - حيث اللمت نوع من الوعل (Addas او Oryx) ، وحيث النص على ان كلمة « ودان » فى ليبيا (غير ودان موريتانيا) تعنى نوعا من المها البرى بحجم العجل ، وقارن ابراهيم العوامر ، الصحراء وسوف ، ص ٦٧ - حيث تقرير ان البقر الوحشى (اليحمور بالعربية والكوزن بالفارسية) كان بصحراء سوف الجنوبية الى عهد قريب ، وأنظر ص ٦٨ - حيث النص على ان الغزال يأكل الحنظل والحدج فيستحليه ، ويشرب ماء البحر الملح فيستعذبه ٠

(٨٧) انظر البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ٠ وانظر شكل ١١ - النموذج الأخير للمط فى الجزائر ٠

(٨٨) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر دائرة معارف لكسيكون، يونيفرسال ، افريقية ، ج ١ ص ١٤١ - حيث تحوى أراضى العشب الافريقية حاليا معظم ما بقى فى العالم من قطعان الحيوانات البرية من : الأيائل والزراف والحمار الوحشى فى شرق افريقيا والحيوانات الوحشية التى ترعى عليها ٠

(٨٩) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ١٩١ - ١٩٢ حيث الاشارة الى ان هيرودوت الذى ذكر مثل هذه الحيوانات وبضمنها الخيل لا يذكر الجمل الذى سيكون دخوله المغرب فى القرون الميلادية الأولى ٠



شكل رقم ١١ ـ اللمط (الوعل) ـ النموذج الأخير فى صحراء الجزائر ـ
منطقة الراوى غرب سواره (حيث تم القضاء عليه تماما)

وغير ذلك لا تعرف الصحراء الا بعض الزواحف ، من الحيات والأفاعي غير السامة ، من صغيرة وضخمة ، ومن ذات القرون • كما عرف الجرذون الذى يعرف فى اللغة البربرية باسم « اقزيم » ، وكان يؤكل فى سجلماسة(٩٠) ، هذا ، وكان الجراد الذى كانت تحمله رياح الحرمتان من اقليم الساحل بشرق أفريقيا ، رغم هجماته التخريبية(٩٠ م) طعاما محببا لأهل الصحراء فى السوس ، حيث يأكلونه بكثرة مقلوا ومملوحا(٩١) • وأغلب الظن أنهم كانوا ينتظرونه ، كما كانت تنتظر طيور السمان المهاجرة فى تنيس ودمياط بشمال الدلتا(٩٢) •

وفى منطقة صحراء جدالة على شاطىء الأطلنطى ، ما بين السوس والسنغال ، عرف صيد البحر • وهناك ذكر للسلاحف البحرية الضخمة التى تكثر فى منطقة جزيرة أيونى ، قرب الساحل ، حيث كان معاش أهلها على لحومها(٩٣) •

---

(٩٠) الادريسى ، المغرب العربى ، تحقيق صادق ، ص ٧٧ — وهنا لا بأس من الاشارة الى أنه جرت العادة على أكل الكلاب فى بعض الواحات ، حتى كان يعتنى بتسمينها فى سجلماسة وبلاد الجريد ، فى قفصة وقسيطيلية •

(٩٠م) وانظر مولار ، ص ٥٠ ، ووالتون الأراضى الجافة ، الترجمة ، ص ١٥٥ — حيث الجراد أعظم خطر يهدد البيئة لأنه مستهلك للنباتات الخضراء ، وص ٣٥٦ — حيث تركيب الجراد الفسيولوجى غير ملائم لظروف الجفاف نظرا لحاجته الى قدر من الرطوبة لدورة حيرته القصيرة ، ولكن الذى يساعده على البقاء هو قدرته على الترحال •

(٩١) الادريسى ، ص ٧٨ ، وأنظر شعيرة ، المرابطون ، ص ١٨ •

(٩٢) الاستبصار ، ص ٨٨ — حيث كانت تنصب الشباك لصيدها ، كما هو الحال فى الصحراء غرب الاسكندرية الآن ، وكما كان ينتظر موسم الجراد فى بعض المواضع بالخليج (العربى) الى عهد قريب •

(٩٣) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ — ولما كان النص يهمل طريقة صيدها مكتفيا بالاشارة الى ان درقتها الكبيرة قد يستخدمها صياد السمك كزورق ، فربما كان اصطياد السلاحف البحرية بكثرة ، موسميا عند خروجها الى البر فى موعد وضع البيض (؟) • وهنا لا بأس من الاشارة الى ان لحم « الترسة » وهى السلحفاة البحرية فى الاسكندرية ، كان يباع كلحم البقر (عبد اللطيف البغدادى ، وكتاب الافادة والاعتبار •• ، ص ٨٤) • وانظر عن السلاحف البرية التى تبالغ الروايات فى ضخامتها على طريق تيرقى بالسودان ، والتى ينبغى التفرقة بينها وبين سلاحف جزيرة أيوتى البحرية ، وان كانت رواية الاستبصار تشير الى انها كانت تؤكل أيضا — البكرى ، ص ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٢ — حيث الاشارة الى أكلها وهو ما لا يذكره البكرى ، ولا تعرف ان كان الخطأ قد وقع استنادا الى أكل لحوم السلاحف البحرية فى أيونى وساحلها أم لا (؟) •

ثدييات اقليم الساحل :

واقليم الساحل العشبى (السافانا) هـــو اقليم الحيوانات الثديية بالامتياز ، ومنه يمكن أن يتسرب بعضها شمالا الى الصحراء أو جنـوبا الى السودان ، بل وحتى الغابة الاستوائية • ومن تلك الثدييـــات : السنور والذئب ، والفهد والقطط الوحشية ، والأسود والنمور ، الى الفار والخنزير الوحشى والوعل ، والقردة والفيل (الافريقى) ، وفرس النهر ، والبقر •

ونموذج البقر هو الثور الذى يوجد منه فى المنطقة ٣ (ثلاثة) أنماط ، أولها : الثور ذو الفتب ، من حيث انه تعود على الجفاف وأصبح ســـاحلى الموطن ، بل وأمكنه الاستقرار خارج النطاق العشبى (المستقر) وذلك فى جنوب الصحراء(٩٤) •

وهكذا يمكن ان نفهم كيف كانت الماشية من الغنم والبقر كثيرة فى أودغست ، رخيصة الثمن كما كانت أيائل اللمط كثيرة بالمنطقة(٩٥) •

والنوع الثانى من البقر ، هو الثور الحامى ذو القرنين الكبيرين ، وهو أصلا من وادى النيل من سلالة الأوروك (Aurocks) الذى اندفع جنوبا الى السودان وأعالى النيل وغربا الى شـــمال أفريقيــة حتى مراكش ــ انه العجل أبيس (Apis) الذى انقرضت سلالته من أوروبا بعـــد أن كان يعيش هناك فى العصور الوسطى •

أما النوع الثالث فهو الذى يعرف بـ « الأزواق » كما يعرف أيضــا بـ « العربى » فى شرق جوره وفى النيجر ، وهو أصغر حجما من ذى القتب ، ويعطى اللبن ، ويستخدمه الطوارق بالصحراء والهوســا بالســـودان فى

---

(٩٤) مولار ، ص ٥٣ • هذا ، ولا بأس من الاشارة الى ان هذه القائمة من الحيوانات ، من متوحشة ومستأنسة توجد فى تقارير القدماء من القرطاجنيين (هنونون) الى اليونان (هيرودوت) والرومان (أميان مارسلان) ، وأنظر جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، ص ٤٨ ـ ٤٩ (عن التمساح وفرس النهر) ، وص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ حيث التماسيح البرية (الورل : (Lezards) ، والفنك واللمط والبقر والخيل ، ص ١٩٤ ـ حيث أول ذكر للجمل عند بلينى (Pline) ، وص ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ حيث انتشار الجمل فى طرابلس ، الذى استعمله الرومان فى حمل المؤن حسب رواية مارسلان •

(٩٥) البكرى ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ •

الركوب(٩٦) ، كما كان يستخدم فى السودان الشرقى فى القتال أيضا كالخيل والجمال(٩٧) ٠

وفى عالم الطير لا يلفت نظر البكرى الا نوع من الحمام واليمام صغير الرأس ، غليظ المناقير قرب أودغست (ص ١٥٧) ٠ أما عن النعام ، أكبر الطيور وأسرع الدواب ، والذى كان يصـــاد فى الصحراء ، بل ويربى فى الواحات فىالقرن الـ ١٠هـ/١٦ م حسبما ينص الحسنالوزان(٩٨) ، فلا ذكر عند البكرى لشىء من ذلك ، ولا يأتى اسمه الا عابرا ٠ والمعروف حاليا أن بأفريقيا حوالى ٢٣٠٠ نوع من الطيور(٩٨ م) ٠

أما عن السودان فعالم مختلف تماما ، حيث الخيول القصيرة جدا فى غانة(٩٩) ، الى جانب فرس النهر الذى يشبه الفيل فى ضخامته وأنيابه ، وفى خروجه من النهر للرعى ثم العــــودة الى المـــاء ٠ وكان يتم اصـــطياده بالمزاريق والحبال لأكل لحمه واستخدام جلده فى عمل الســـياط المبرومة ، المعروفة بذنب الفأر ، والتى كانت مطلوبة فى جميع البلدان(٩٩ م) ٠

واشتهرت بلاد السودان بالأفاعى الضخمة ذات الجلود المبرقشة ، التى كانت تتخذ منها بعض الملابس ، كما كان بعضها موضـــع التبجيل ، بل والتقديس ، مثل الكبش حسب عقيدة الطوطمية ، كما قد يظن ، وان رأى البعض أن الكبش رمز لعبادة آمون(١٠٠) ٠

ومن الطيور عرف فى السودان ذلك الطائر الذى يشبه الخطـــاف ، والذى كان يطير فى مدينة بوغرات وهو يصوت بـ : « قتل الحسين ، قتل

---

(٩٦) مولار ، ص ٥٣ ٠

(٩٧) انظر المسعودى ، ج ٤ ، ص ٤ ـ ٥ ٠

(٩٨) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٨٩ وهـ ٤ ـ حيث صيد اللمت والنعام بالاشراك فى موريتانيا ، وص ٤٩٢ حيث تربية طيور النعام فى درعه ، ووصف لحمه بانه قاس له رائحة منفرة لا سيما الفخذ اللزج ٠

(٩٨م) دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال ، افريقيا (Africa) ، ج ٢ ص ١٤٢ ٠

(٩٩) البكرى ، ص ١٧٧ ٠

(٩٩م) البكرى ، ص ١٧٣ ٠

(١٠٠) البكرى ، ص ١٧٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٨ ، (عن تبجيل الحية بالسودان) ، وعن عبادة الكبش ٠ انظر جوتييه ، الصحراء ، ص ١٩٥ ـ حيث النص على ان عبادة الكبش التى عرفت قديما فى توات تعنى عبادة صنم له رأس كبش يمثل الاله المصرى آمون ٠

الحسين » عدة مرات ثم يقول « بكربلاء » مرة واحدة ، الأمر الذى قد يعنى وجود جالية عربية شيعية لاجئة فى ذلك الموضع(١٠١) ٠

الثروة المعدنيـة :

وأول معادن الصحراء الشهيرة فى القرون الوسطى ، هو الملح الصخرى الذى كان يستخرج من المناجم ، كما تستخرج سائر المعادن ، فى كتـــل شبيهة بالحجارة ٠ وأشهر مناجم الملح اثنان : أحدهما فى قلب الصحراء فى تاتنتال ، بأول ايجابة (المفازة) فى أول الطريق الى سجلماسة ، على بعد ٢٠ (عشرين) مرحلة (٨٠٠ كم) منها ٠ والمنجم الثانى الذى يقـــع على شاطىء الأطلسى فى موضع أوليل من بلاد جدالة ، غير بعيد عن جزيرة أبونى (جزيرة السلاحف البحرية)(١٠٢) ٠

وكان معدن الحديد فى جبل أزور ، على طريق تامدلت ــ أودغست(١٠٣) وربما كان أيضا فى جبل الحديد المعروف بـ « أدرار » ان وزال(١٠٤) ٠

أما النحاس فمنجمه غير بعيد من ايجلى التى كان يسبك فيهـــا على سفوح جبال أطلس (درن)(١٠٥) ، وكانت الفضة فى أرض تامدلت ، حيث اشتهر منجمها بوفرة الانتاج(١٠٦) ٠

هذا ، كما وجدت فى جبل هزرجه ، فى أول طريق أغمات ــ أودغست ، أنواع من الياقوت الجيد ، الحسن اللون ، الشديد الصلابة حتى يكل حجر السنادج عن ثقبه(١٠٧) ٠ وفى طريق تادمكه ــ غدامس كان يوجد حجـــارة

---

(١٠١) البكرى ، ص ١٨١ ، وانظر أيضا ص ١٨٣ ــ حيث النص على ان أهل مملكة لولوا سموا بهذا الاسم لأن ذلك ما يفهم من نغمة طبلهم ٠

(١٠٢) البكرى ، ص ٧١ ــ ٧٢ ــ حيث الاشارة الى ان المسافة من نول لمطة على ساحل السوس الجنوبى الى أوليل تقدر بـ ٦٠ (ستين) يوما (٢٤٠٠ كم) ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٤ ، وانظر فيدج (Fage) مقدمة لتاريخ غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٩ ــ حيث الاشـارة الى موجودات الملـح الصـخرى فى الصـحراء ، فى مواضع تغـازى (Taghaza) وتاودينى (Taodeni) ، وتاوتك (Taotk) ــ وذلك بعد العصر المرابطى ٠

(١٠٣) البكرى ، ص ١٥٦ ــ حيث يوجد فى شكل قضبان لا تذيبها النار ٠

(١٠٤) البكرى ، ص ١٦٤ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ ــ حيث النص على « جبل الحديد » ، وان لم يحدد ان كان به حديد أم لا ٠

(١٠٥) البكرى ، ص ١٦٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٢ ٠

(١٠٦) البكرى ، ص ١٦٣ ٠

(١٠٧) البكرى ، ص ١٥٣ ، وانظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا =

شبيهة بالعقيق تسمى « تاس النسمت » ، ربما كان في الحجر الواحد عدة ألوان ، من : الحمرة والصفرة والبياض · وهى الى جانب جمالهـــا تتميز بالصـــلابة الشديدة لا تتأثر بالحـــديد ، اذ لا تجلى ولا تثقب الا بحجر « تنتواس »(١٠٨) · وفى هذه الصحراء يوجـــد الشب الأبيض الطيب ، الذى يصدر الى كثير من البلاد(١٠٩) ·

والى تلك الخيرات الطبيعية يضاف عنبر جزيرة أيونى ، على ســاحل المحيط فى بلاد جداله(١١٠) ، كما وجدت بوادى درعه حجارة التامضغيت (الاسبستوس) التى تغزل خيوطا كالكتان ، وتصنع منها الأمرسة والقيود للدواب ، مثلما تنسج منها الثياب والمناديل التى لا تؤثر فيها النار(١١١) ·

هذا عن معادن الصحراء ، أما السودان فعالم وحده ، فهو بلاد الذهب بالامتياز حيث التبر جزافا فى متناول الجميع بلا حساب ، بينما الحـــديد وأنواع من الصدف والخرز هى حلى النساء التى ترتفع أثمانها الى ما يوازى وزنها من الذهب ، ومثل هذا يقال عن الملح الذى كان عزيزا الى حد التعامل بقطعه أحيانا ، بدل النقود ·

أما عن نسيج الاسبستوس المتخـــذ من حجــارة وادى درعه ، والذى

= الكوكب ، ص ٩٩ ـ حيث مقياس صلابة الصخور الذى يتدرج الى ١٠ (عشر) درجات أولاها : ١ وهى صلابة التلك (Talk) ، وآخرها ١٠ (عشرة) وهى صلابة الماس ·

(١٠٨) البكرى ، ص ١٨٢ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ ـ حيث اسم الحجر « تنتوامى » وانظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ٨٤ ـ عن الألوان حيث النص على أن الوان الصخور تتوقف على التركيب الكيماوى الأصلى ، وعلى نظام الأيونات والذرات فى البلورة ·

(١٠٩) البكرى ، ص ١٨٣ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٢٥ ·

(١١٠) البكرى ، ص ١٧١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٥ ·

(١١١) البكرى ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢٠٧ ـ ولا بأس من الاشارة الى ان مثل هذا النسيج المضاد للحريق كان يستخدم فى صنع بقايا مقدسة تنسب للسيد المسيح ويتقرب بها الى بعض ملوك القسطنطينية أو غاليسيا (الجلاقة) بالأندلس ـ حث الضريح المبجل لسان جان دى كومبوستل · وعن معدن الاسبستوس · انظر جودة حسنين وحسن أبو العينين ، سطح هذا الكوكب ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ حيث يصنف معدن الاسبستوس الصخرى ، ضمن أنواع صخور السيلكات التى تمثل ٩٠٪ المعادن فى الطبيعة (ص ١١٦) ، وهى من النوع المعروف باسم (الثعبانية : (Serpentine) من حيث تاخذ شكل كتل حبيبية أو صفائحية فى هيئة ليفية ، والنوع الأخضر منه هو المسمى اسبيستوس (Asbestos)

لا تؤثر فيه النار ، فكان بديله فى السودان يستخلص من نبتة فى بلاد الدمدم ، توصف بأنها شجرة ذات ساق طويل تسمى تويريرى ، لها ثمرة كبيرة منتفخة ، داخلها صوف أبيض يغزل وتصنع منه الثياب والأكسية التى لا تؤثر فيها النار ، فكأنه قطن معدنى — وهى من العجائب(١١٢) .

من هذا العرض لثروات الصحراء الافريقية الكبرى من بشرية وطبيعية ، تصبح مقولة شعيرة (محمد عبد الهادى) التى يرددها بقوة عن جوتييه (Gautier) الذى كان يستوحى ابن خلدون (فى العمران) ، والتى تتلخص فى أن الصحراء الافريقية فى العصور العربية الاسلامية الوسطى كانت تنبض بالحيوية والثراء ، على غير ما عليه الصحراء البائسة التى نعرفها اليوم .

فقوافل الجمال العظمى التى كانت تجوب الصحراء واردة وصادرة من أقصاها الى أقصاها ، كانت تقوم بنفس الدور الحضارى الذى قامت به السكك الحديدية الحديثة والتى تقوم به خطوط الطيران الحالية بين أطراف العالم لتضخ فيها الحركة والحياة . كذلك كان الأمر بالنسبة لقوافل الجمال : سفن الصحراء الممهدة — بشىء من المبالغة — لسفن الفضاء .

---

(١١٢) الاستبصار ، ص ٢٢٥ ، وانظر دائرة معارف ليكسيكون يونيفرسال ، ١٩٧٥ ، ج١ ، افريقيا : (Africa) ، ص ١٤٢ — حيث تعتبر افريقيا الجنوبية الشهيرة بمعادنها من الماس والذهب ، ثانى أكبر منتج للاسبستوس فى العالم .

الفصـــل الثـــانى

قبائل الجمالة الملثمين بالصحراء الكبرى
قبيل قيام دولة المرابطين

النظم السياسية والحياة الاجتماعية :

تمهيـــــد :

المعروف أن اقاليم شمال أفريقيا العامرة كانت تقطنهـــا مجتمعـــات البربر — الآسيوية الأصل — منذ العصور القـــديمة ، بينما كان يســكن الصحراء جماعات السود ، الأفريقيون حقيقـــة ، الذين عرفوا عند قدامى الكتاب من اليونان والرومان باسم الاثيوبيين أى الأحبـــاش ذوى البشرة السوداء ، والذين كانوا يقعون تحت ضغط اهل الشمال البيض(١) ٠

والحقيقة أنه منذ بدأت هجرات شعوب البحر المتوسط ، من فينيقيين (قرن ٨ ق٠م) ، ويونان (قرن ٥ ق٠م) ، وروما (قرن ٣ — ١ ق٠م) ثم واندال (قرن ٥ — ٦ م) وبيزنطيين قبل العرب ، سواء للاستيطان أو التجارة أو الغزو فى شمال أفريقيا ، ازدادت حركة زحزحة الســودان من الشمال الى الجنوب ، فحل البربر المغاربة مكان السود الأفارقة فى الصحراء بشكل مضطرد ، تبعا لضغط المستعمرين الجدد فى الشمال أو من دخل فى خدمتهم من البربر الذين كانوا يطلبون العبيد السود ، عماد الطبقة العاملة

---

(١) هاينز (Haynes) طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ — حيث ينص هيرودوت على ان الجرمنتيين فى فزان كانوا يستخدمون عربات تجرها الخيل فى صيد الأثيوبيين من التبو (Tibbou) — اهل تبيستى ٠ وأنظر ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ترجمة السويفى ، ١٩٨٧ ، ص ٣٥ — حيث الاشارة الى وجود ٥ (خمسة) أجناس متمايزة فى افريقيا ، منها ٤ (اربعة) لا مثيل لها فى القارات الأخرى ، وهم :

الزنوج ، والشعوب النيلية الصحراوية ، والأقزام ، ثم البوشمن : وانظر فيدج ، تاريخ غرب افريقية بالانجليزية ، ص ١٤ — حيث الاشارة الى رأى ديلافوس الذى يقول ان الهجرة البربرية الى بلاد الســودان بدأت بعد ثورات اليهود ضد الأمبراطورية الرومانية فى برقة (Cyrenaïca) فى القرنين ١ ، ٢ م ، وفى الجنوب والغرب كان الاستقرار بين جماعات السونينك (Soninké) بين موقع تيمبوكتو ومسينا ٠

فى تلك العصور(٢) ٠

ولكن حلول البربر البيض مكان الأحباش السود ومزاحمتهم لهم فى الصحراء ، ظل محدودا فى نطاق الشـــمال حيث حزام الواحات (فى بلاد النخل) ، عند أقدام جبال أطلس الصحراوية بشكل عام ٠ وهكذا كانت قبائل الصحراء متناثرة فى جماعات صغيرة ، تبعا لتناثر الواحات وموارد المـاء ، وصعوبة وسائل الاتصال التى كانت تعتمد على العربات التى تجرها الثيران(٣) ٠

والمهم أن وسائل المواصلات فى الصحراء ظلت محدودة المدى ، وباهظة التكاليف الى ما بعد دخول الحصان الوافد من المشرق فى الألف الأول ق٠م تقريبا ، والذى لا يستطيع العيش الا فى الواحات حيث العلف والمـاء(٤) ٠ أما عن دخول الجمل الى بلاد المغرب والصحراء اعتبارا من أوائل التقـــويم المسيحى ، فقد كان بمثابة انقلاب ، ليس فى وسائل المواصلات بالصحراء فقط ، بل وفى تكوين جماعات عرقية كبيرة العدد ، أشبه باتحادات قبلية ضخمة من أصحاب الجمـــال الذين استطاعوا اخضاع غـيرهم من ضـــعفاء الفلاحين ، ورعاة الشاة والمـاعز ، واقامة الامبراطوريات الكبرى ، اعتمادا على قطعان جمالهم التى صارت وقتئذ بمثابة فرق العربات المدرعة والسريعة

---

(٢) أنظر ، هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، ص ٢٥ - ٢٦ (عن الفينيقيين واليونـان) ، ص ٣١ - ٣٤ (عن رومـا وقرطاجنـة) ، ص ٣٦ (عن الحـدود الرومانية) ، ص ٦١ - ٦٣ (عن الوندال والبيزنطيين والانتصار على الليبيين ، واقرار الأمور حتى الفتح العربى) ، وقارن ماكيفيدى أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٥ ، وقارن ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٠ - حيث النص على ان صنهاجة الصحراء (فى منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ م) فى كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة حتى يأخذوا فى جهة الجنوب فتستحيل الوانهم وأبشارهم (الى السواد) ، وأنظر ص ١٠١ - حيث الاشارة الى ما يقال من ان بنى تانماك ، ملوك تادمكة (شرق أودغست) والقبائل المنسوبة اليهم ، أصلهم سودان أبيضت أبشارهم - كناية عن تأثير البيئة فى لون البشرة ٠

(٣) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ هـ ٨٣ ، والهامش على ص ١٦ وشكل ١ عن هاينز - حيث العربات التى تجرها الخيل ٠

(٤) أنظر فيما سبق ، ص ٩١ وهـ٨٤ ، هاينز ، طرابلس فى العصـور القديمة ، بالانجليزية ، ص ١٥ - حيث الاشارة الى صور عربات الخيل المرسومة على الصحراء قديما ، مع المقارنة مع تقرير الكابتن ليون - رحالة القرن الـ ١٩ - الذى يشير الى متاعب الخيل فى الصحراء حيث كان كل حصان فى حاجة الى جمل ليحمل له المـاء فقط ، دون العلف من الشعير والتمر ٠

الحركة ، حديثا ، فحققت لهم تفوقا ساحقا على غيرهم من أهـــل الواحات وصغار البدو .

وهكذا كان الجمالة من صنهاجة قد حققوا النصر عـلى السـودان فى الصحراء ، ووصلوا فى القرن الرابع الميــلادى جنوبا حتى ثنية النيجر ، وغربا حتى نهر السنغال حيث أقاموا مدينة غانة التى ستتحول الى مركـز مزدهر لتجارة السودان ، وذلك غير بعيد من الموضع الذى ستحل فيه كل من جنه (Jenne) وتيمبوكتو ، فيما بعد(٥) .

أما عن أول ظهور لهؤلاء المحاربين من بربر البدو الجمالة فى شـمال أفريقيا ، فكان أثناء الصراع ضد البرابرة (الأخر) من الواندال . فلقـد تحصن المغاربة (الموريتانيون) داخـل دائرة من الجمـــال مكونة من ١٢ (اثنى عشرة) صفا من الابل ، فى وسطها النساء والأطفال والأموال ، بينما وقف المقاتلة منهم بين أرجل الجمال العـــالية ، وانتهت المعركة بخســارة الوندال الذين فزعت خيولهم خوفا من الجمـــال الغريبـة المنظر . ومثـل هذا حدث فيما بعد عندما التقى المغاربة مع جيوش بيزنطة بقيادة سولومون. فلقد فزعت خيول الروم ، وشبت على قوائمها ليقع الفرسان من على ظهورها، وللا ينقذهم من الهزيمـة الا ما لجأ اليه القـــائد البيزنطى من الأمر بنزول الفرسان عن ظهور الخيل لكى يحـــاربوا رجالة ، حيث نجحوا فى اختراق صفوف الجمال . وعن هذا الطريق تحقق لهم النصر على الموريتانيين(٦) .

وهكذا كان دخول الجمل الى صحراوات المغرب بمثابة ثورة اقتصادية واجتماعية وفى النهاية سياسية . فلقد قصر الجمل المسافات ما بين الواحات فى أطراف الصحراء وأدى الى سهولة التبـــادل التجارى ما بين الشـمال والجنوب ، والشرق والغرب ، كما أدت سهولة المواصلات الى نشأة قبـــائل بدوية كبيرة ، مثل : البتر والبرانس وصــنهاجة وزناتة وهى فى الحقيقـة اتحادات قبلية تنتشر فى كل البلاد ، وتصل الى مستوى الشعوب ، كمـا يقول ابن خلدون ، وتؤسس العصبية قاعدة قيام الدولة كما يرى(٧) .

---

(٥) مولار ، غرب افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٦٠ .

(٦) أنظر ج ١ ، ص ٨٦ ، وقارن جوتييه ، ماضى شمال افريقية بالفرنسية ، ص ١٩٥ .

(٧) المقدمة ، فصل ٨ فى أن العصبية انما تكون من التحام النسب ، ط التجارية ، ص ١٢٨ وما بعدها .

هذا ولو انه منذ دخل العرب بلاد المغرب وصحراواتها فى مطلع القرن السابع الميلادى لم يعرفوا لهم خصوما من البدو الجمالة ، وان طالت المقاومة على غير ما حدث فى الفتوح الأخرى ، الأمر الذى يفسره ان لقاءات الفتح فى المغرب وقعت على طول الطريق التاريخى ، فى مواطن العمران ما بين برقة وفاس فى المغرب الأقصى . وهذا يعنى أن الجمالة من رعاة الابل المغاربة كانوا قد انسحبوا جنوبا الى الصحراء أمام قوات الامبراطورية البيزنطية منذ حملة بليزاريوس واسترداد البلاد من أيدى الوندال . ومن الواضح أنهم كانوا قد رضوا بحياة العزلة جنوبا وراء رمال الصحراء ، مجاورين لبلاد السودان ، شبه الصحراوية ، مكتفين بأعمالهم السلمية فى خفارة الطريق ونقل المتاجر على جمالهم . واذا كان ابن خلدون ينص على أن جمالة صنهاجة الملثمين تركوا الأقاليم الخصبة الشمالية الى ما وراء الرمال ، وأبعدوا فى القفر جنوبا مجاورين لريف الحبشة (السودان) ، منذ دهور لا يعرف أولها ، فان ذلك لا يعنى أكثر من عدم معرفة : كيف ومتى حدثت تلك الهجرة[٨] . والحقيقة أن هناك رواية أخرى فى الادريسى ، تقول ان قبائل « لمط وصنهاج » ، كثر نسلهم (فى المغرب) وتسلطوا على الأمم ، فاجتمع عليهم قبائل البربر فازعجوهم الى الصحراء المجاورة للبحر المظلم (المحيط الأطلنطى) فنزلوها الى الآن . وتفسر هذه الرواية امكانية هذه الهجرة على أساس أن قبائل صنهاجة : « أصحاب ابل ونجب عتاق ، رحالة »[٩] . والحقيقة أن الجمالة الملثمين فى صحراوات شمال أفريقيا ينقسمون الى جماعتين كبيرتين أولاهما : غربية تتكون من صنهاجة اللثام على شواطىء المحيط ، والثانية شرقية ، تتمثل فى جمالة اقليم الحجار (الهقار : الأحجار) وتيبستى وادرار وتشاد[١٠] . وهؤلاء الأخيرون يتميزون عن الصنهاجيين بطول القامة وسواد البشرة ، بمعنى أن نسبة أكبر من الدم الأسود تجرى فى عروقهم ، ولهذا فهم ينسبون الى جماعات التبو (Tebbou) السودانية ، حيث يعتبر وجودهم فى تلك المناطق المنعزلة من الصحراء الكبرى ، دليلا على سكنى الصحراء بجماعات السودان ، قبل سيادة الجمل

---

(٨) انظر العبر ، ج ٦ ص ١٨١ .

(٩) المغرب العربى ، نشر محمد صادق ، ص ٧٤ .

(١٠) جوتييه ، ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠ (عن الملثمين من شرقيين وغربيين) ، وقارن مولار ، ص ٦٠ — عن اجداد صنهاجة البيض المختلطين بالسود من القديم ، وسلالتهم من المغاربة (المور : (Maures) ومن الطوارق فى الوسط .

على الصحراء الكبرى اعتبارا من القرن الثالث الميلادى(١١) ٠

والمهم أن سيادة الجمل فى أول الأمر كانت على طرق التجـــارة التى ترفد بلاد المغرب بخيرات بلاد السودان ، وخاصة العبيد السود والذهب ، مما كان ينعش دويلات المغرب المستقلة ، اعتبارا من بداية العصر العباسى ٠ فلا شك أن خيرات السودان هى التى دفعت القوات الأموية من أهل الشام الموجودين على حدود بلاد المغرب ، الى الهجرة نحو غانة ، عندما تأكدوا من سقوط دولتهم فى المشرق ٠ فهناك رواية للادريسى تقول ان ذرية هذا الجيش الأموى كونت جالية عربية فى غانة ، عرف أهلها باسم « الهنيهيين » الذين اشتهروا ببياض البشرة وبأنهم يحافظون على نقائهم العرقى فلا يتزاوجون مع أهل البلاد السودان الا بحساب(١٢) ٠ ولاشك أن دخول عرب الشام الأمويين الى غانة فى ذلك الوقت المبكر ، يعتبر من الأحداث الهـــامة فى طريق نشر الاسلام فى تلك البلاد ٠ وتبع ذلك اهتمام دول المغرب المستقلة منذ العصر العباسى بالمعاملات التجارية مع السودان الغربى ٠ فبنو حبيب (الفهريون) اهتموا برعاية الطرق التجارية وتمهيد الوعر منهـــا ، وحفر الآبار - وهى محطات المياه التى يمكن أن تشبه بمحطات البنزين حاليا ، على طول تلك الطرق(١٣) ٠ أما الأغالبـــة (التميميون) ، خلفـاء بنى حبيب فى تونس (المـالكية) فلقد اعتمدوا على فرق المماليك السودان ، منـذ بداية أمرهم (ج ٢ ص ٣٣) بينما أخذت امامة بنى رستم (الأباضية) فى الجزائر شكل جمهورية تجارية كان الأئمة يشاركون فى نشاطهم مـع بلاد الســودان من حيث كان يتدفق الذهب حتى صارت عاصمتها تاهرت مدينة عالمية يؤمهـا التجار من كل البلاد (ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١) ٠ هـذا ، كمـا كان لدولة الأدارسة (الزيدية) فى فاس اهتمامات خاصة بذهب السودان (فيمـــا بعد ، ص ١١٣) وكذلك الأمر بالنسبة لدولة بنى مدرار (الصفرية) فى سجلماسة (ج ٢ ص ٤٠٩) التى بلغ الأمر بأمرائها الى حـد اتخـاذ اللقب

---

(١١) اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٨ (عن التبومن ازمنة غابرة فى جبال تيبستى) ، ص ٣٤ (عن الرجل البدوى ، ضامر الجسم ، مرتفع القامة ، ذى القدرة على تحمل العطش والجوع والتعب) ٠

(١٢) البكرى ، ص ١٧٩ ، الاستبصار ، ص ٢٢٢ ٠

(١٣) أنظر فيما سبق ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٣ - حيث الاشارة الى ان الطريق الوعر الذى يسير فى الصخر من درعه الى وادى ترجا ، على طول ٥ (خمسة) مراحل (حوالى ١٧٥ كم) انما هو أعجوبة من عمل القدماء (الأوائل) ، ولو ان البعض يزعم انه من عمل ملوك بنى أمية (أى الأندلسيين على ما نظن) ٠

الخلافى وكأنهم منافسون جدد لنخلافة الفاطمية ، حتى أصبحت دنانيرهم « الشاكرية » مضرب المثل بين النقود المغربية من حيث : دقة السك وعيار الذهب (ج ٣ ص ٢٣٣) ·

والى جانب التنافس فى جلب ذهب السودان ومماليكه كان لتجار دول المغرب هذه ، جهودهم فى نشر الاسلام على مذاهبهم المختلفة فى بلاد السودان ، فكأن طرق التجارة الصحراوية كانت فى نفس الوقت طرق الحضارة والثقافة ، وكأن التاجر المسلم ، بصرف النظر عن مذهبه ، كان الداعى الى نشر مبادىء الاسلام دون تفريعات مذهبية · وهكذا يسجل ابن حوقل (حوالى منتصف القرن ٤ هـ/١٠ م) أنه كان من قبائل صنهاجة الصحراء من يعتنق التشيع كأهل السوس ، ومنهم من كان يأخذ بآراء المعتزلة وينهج نهجهم فى العلم مثلما كان يفعل الخوارج (الشراة) أيضا ، الذين تميزوا بقوة التدين والتمسك بأهداب العقيدة(١٤) · والذى يلفت النظر هنا ، أنه اذا كان الأدب التاريخى والجغرافى يمكن أن يكون مفيدا فى تتبع أخبار انتشار الاسلام فى بلاد السودان منذ وقت مبكر ، فان الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتشار الاسلام فى الصحراء المغربية ، وهو ما يفهم بسبب قلة المراكز العمرانية فى الصحراء ، الى جانب طبيعة الحياة البدوية الصعبة ، وهموم مشاكلها اليومية التى لا تفسح الوقت لكثير من التأمل فيما وراء الطبيعة · وهكذا تنص رواية لابن خلدون على أن موطن قبائل لمتونة كان يعرف باسم كاكدم (قاقدم - جاجدم) فكأنه فى الصحراء السودانية ، حيث عرفوا الاسلام بعد فتح العرب الأندلس ، أى اعتبارا من القرن الثانى الهجرى(١٥) · هذا ، ولو أنه توجد رواية أخرى لابن خلدون تنص على أن دخول الملثمين فى الاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، حيث بدأوا يجاهدون جيرانهم ممن لم يسلموا ، الأمر الذى تؤيده تفصيلات تاريخ ملوك الملثمين حتى القرن الرابع الهجرى (١٠ م)(١٦) ·

---

(١٤) صورة الأرض ، ص ٩٩ - ويظهر أثر الفكر الشيعى المنتشر فى بعض أقاليم السودان فيما يقال عن احدى مدن السودان ، وهى بوغرات التى كانت تسكنها قبيلة مراسة الصنهاجية ، من ان بعض الطير فيها كان يفهم من صوته « قتل الحسين » بايقاع متكرر بينما كانت تأتى « بكربلاء » بعدها فى نقرة (مرة) واحدة (أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٤ - حيث تنسب تلك الرواية الى « الفقيه عبد الملك » الذى ربما كان يتشيع) ·

(١٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨١ ، الأمر الذى تؤيده أعمال ابن حبيب فى اصلاح طرق التجارة الصحراوية ، وأنظر ما يأتى ، ص ١٠٩ ·

(١٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ ·

ومنذ ذلك الوقت وحتى القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، كانت جماعات من البربر المسلمين تستقر فى اقليم ادرار وتاجنت (Tagent) والحوض (Hodh) وتستخدم الزنوج فى استغلال مناجم الملح(١٧) ، فكأن أحداث الصحراء الجنوبية لم تعد تنفصل عن وقائع السودان منذ استقرار الفتوح فى الشمال الأفريقى ٠

النظم الاجتماعية - السياسية :

القبائل والمواطن وطرق المواصلات :

فيما يتعلق بالتراتيب الاجتماعية والسياسية لا تسعفنا المصادر الا بالقليل من المادة الأولية اللازمة لرسم صورة تقريبية لما كانت عليه قبائل الصحراء من حيث : التقسيمات الاجتماعية ، ابتداء من الوحدة الصغرى الممثلة فى البيت أو الأسرة أو العائلة ، وما يتلوها من تراكيب اجتماعية أخرى مما يعرف عند العرب بالعشائر والأفخاذ والبطون ، وانتهاء بالتجمع الأكبر وهو القبيلة ، وما قد يتلوه من اتحادات بين القبائل المختلفة ، التى تحمل عادة اسم القبيلة صاحب القيادة والهيمنة ٠ وفى ضوء هذا الترتيب المنهجى الذى عرفته قبائل العرب ، والذى يظهر بوضوح فى ذلك النسق من التاريخ العربى المعروف باسم علم الأنساب ، الذى اقتدى به نسابة البربر ، بلغت عدة قبائل صنهاجة من الملثمين ، حسب احصاء ابن أبى زرع (قرن ٧ هـ/١٣ م) الذى أخذ به ابن خلدون (قرن ٨ هـ/ ١٤ م) ، ٧٠ (سبعين) قبيلة(١٨) ، بينما كان المشهور منها عند قيام دولة المرابطين فى منتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م خمسة : هى لمتونة ولمطة ، ومسوفه ، وجداله وجزولة ، يمكن أن تختصر الى ٣ (ثلاثة) فقط ،

---

(١٧) انظر فيدج ، غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ١٤ ٠

(١٨) القرطاس ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، العبر ، ج ٦ ص ، وقارن ابن حوقل (منتصف القرن ٤ هـ / ١٠ هـ) الذى يعدد منهم ٤٥ قبيلة ، منها ١٩ (تسعة عشر) من القبائل الخلص و٢٦ (ست وعشرين) قبيلة يشتبه فى صحة نسبها الصنهاجى ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٣٩ - ٤٠ - حيث تجميع أسماء قبائل الملثمين ، من قدامى الكتاب والمحدثين - دون التزام بالترتيب الزمنى (التاريخى) أو القيمة الوثائقية - من كل من : ابن حوقل ، والدمشقى (نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر) ، وباسية (Basset) ، والنويرى ، والبكرى ، وابن خلدون ، والادريسى ، والبيدق ، وكولان ، وجوليان ، وديمومبين ، والحلل ٠

اذ اندمجت كل من الأولى والثانية تحت اسم لمتونة ، والرابعة والخامسة تحت اسم جدالة (ما سبق ، ص ٦٩) • هذا ، كما يمكن أن تندرج القبائل الخمسة تحت اسم لمتونة ، دون غيرها (ما سبق ، ص ٧٠) وان كان الدارج في تأسيس دولة المرابطين الحاق مسوفة بلمتونة ، تماما كما يلحق - في التغريبة الهلالية - عرب بنى سليم بعرب بنى هلال ، وان كان الذكر فى « التغريبة » للهلالية دون غيرهم •

وهنا لا بأس من الاشارة الى أن من بين غزوات العرب للمغرب كانت الهجرة الهلالية أشدها تأثيرا فى قلقلة القبائل المغربية ، وتوجيه الجمالة منها نحو الجنوب حيث ضربوا نطاقا حول سهوب السودان ، جنوب الصحراء ، فى مقابل النطاق الذى صار للعرب الهلالية الخيالة حول بلاد النخل فى شمال الصحراء ، وان تطلب هذا الأمر عدة قرون لكى تؤول خريطة المغرب العرقية الى ذلك الشكل فى القرن الثامن الهجرى/١٤ م على عهد ابن خلدون(١٩) •

وهكذا فعن طريق اتحاد قبائل الجمالة الملثمين تحت هيمنة احداها : لمتونة كانت أو مسوفة ، كان يمكن لرئيسها اقامة امبراطورية كبرى على طول البلاد وعرضها ، ما بين المغرب والسودان ، أشبه ما تكون بامبراطوريات السهوب الآسيوية ما بين الصين شرقا وايران غربا(٢٠) • وكان من الطبيعى أن تكون امبراطورية الملثمين الافريقية ، دولة تجارية تنقل المتاجر وأسباب الحضارة ، وتجنى الأموال ما بين الجنوب السودانى والشمال الأفريقى ، تماما مثل امبراطوريات فرسان آسيا الوسطى ، حيث طريق الحرير الذى كان عامرا بفضل الجمل الآسيوى ذى السنامين •

واذا صحت رواية ابن خلدون عن أن لمتونة كانت تقطن منطقة كاكدم (السودانية) عندما دخلت فى الاسلام فى مطلع القرن الـ ٢ هـ/٨ م ، بعد

---

(١٩) العبر ، ج ٦ ص ٧ •

(٢٠) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧ - حيث ينص على انه كان لقبائل الملثمين فى قلب البر فى أواخر القرن الـ ٣ هـ / ٩ م ، « ملك يملكهم تكبره صنهاجة » وسائر تلك الديار ، لانهم يملكون تلك الطرق (ما بين أودغست وسجلماسة) وحيث انهم أهل « البسالة والجراة والفروسية على الابل ، والخفة فى الجرى والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله ، والدلالة على مياهه ، وقارن عن الترك والمغول فرسان السهوب ، رينيه جروسيه ، أمبراطورية السهوب (R. Grousset, L'Empire des Steppes) ، بالفرنسية ، المقدمة ، ص ٧ وما بعدها •

فتح الأندلس (ما سبق ، ص ١٠٦) ، فلا بأس أن يكون ذلك قد تم عن طريق حملات عبد الرحمن بن حبيب ، أمير أفريقيا التونسية ، الوافد من الأندلس (١٢٦ – ١٣٧ هـ/٧٤٤ – ٧٥٥ م) ، الذى يذكر له الاهتمام بطريق التجارة الى السودان ، من تمهيد وامداد بمحطات المياه(٢١) . وعلى العكس من أعمال عبد الرحمن بن حبيب التى نشطت تجارة السودان ، وأفادت قبائل الملثمين ، كان لبناء مدينة سجلماسة (الصفرية) قريب ذلك الوقت (١٤٠ هـ/٧٥٨ م) آثار سلبية على مدينة ترغا (طرقا) الطوارقية من حيث تحول طريق القوافل الى سجلماسة ، مما أدى الى خراب ترغا التى هجرها أهلها وأقاموا فى المدينة الجديدة(٢٢) ، التى أصبحت أهم محطة فى الطريق الى بلاد السودان خلال القرن الثالث الهجرى (٩ م) ، قرن سيادة القيروان ، عاصمة أفريقية التى غلب ملوكها من الأغالبة على عقد المواصلات اليها(٢٣) .

---

(٢١) أنظر فيما سبق ، ص ٦٢ – حيث يذكر لعبد الرحمن بن حبيب حفر ٣ (ثلاثة) آبار فى الطريق الصخرى الى أودغست ، اشهرها بئر الجمالين (ما سبق ، ص ٦٣ وعن ولاية عبد الرحمن بن حبيب ، أنظر ج ١ ، ص ٣١٣ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٥ – حيث خريطة المغرب سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ) على عهد ابن حبيب ، والنص على أهمية فتح العرب لمناطق الجنوب المغربى حيث قبائل صنهاجة الحبيرة بخبايا الصحراء ، الأمر الذى أدى الى اكتشاف طريق بلاد السودان ، وقارن الحبيب الجنحانى ، المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٦٢ – حيث النص على ان علاقة القيروان بتجارة السودان ترجع الى القرن ٢ هـ / ٨ م ، وفى سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م على وجه التحديد ، عندما وجه الى المغرب : عبد الله بن الحبحاب قائده حبيب بن أبى عبيدة (والد عبد الرحمن) الى المغرب الأقصى فغزا السوس الأقصى ، وبلغ ارض السودان (؟) – مع الاشارة الى ابن عذارى .

(٢٢) البكرى ، ص ١٥٨ .

(٢٣) أنظر الاصطخرى ، ص ٣٤ – حيث النص على انه بين المغرب والسودان مفاوز منقطعة لا تسلك الا من مواضع معروفة كان يغلب عليها ملوك افريقية من أولاد الأغلب – أما عن القيروان فهى أول المحطات وأكبرها على الطريق ، ليس الى السودان الغربى فقط ، بل عن طريق السودان الأوسط (تشاد وكانم) أيضا ، وكانت المسافة بينها وبين سجلماسة تعادل ٨٠ مرحلة فى الطريق الصحراوى (حوالى ٢٨٠٠ كم) ، وهى ثلث المسافة فى طريق العمارة التى تبلغ ١٢٠ مرحلة (حوالى ٤٢٠٠ كم ، بينما المسافة ما بين تاهرت وسجلماسة ٥٠ مرحلة (حوالى ١٧٥٠ كم) فقط . اما المسافة بين القيروان وزويلة (على طريق تشاد ، فهى ٣٠ مرحلة (حوالى ١٠٥٠ كم) .

بداية دولة الملثمين :

وفى هذا الوقت من مطلع القرن الثالث الهجرى يبدأ التاريخ الحقيقى لدولة الملثمين وأسرتها الحاكمة جنوب الصحراء ، حسبما يقـــدمه ابن أبى زرع ، ويأخذ به ابن خلدون مع ما أضافه اليه من مواد أخــرى ٠ وهكذا يكون أول البارزين من ملوك صنهاجة هـــو الثانى منهم واســمه تيلوتان (Tiloutan) المتوفى سنة ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م ٠ ولما كان ابن خلدون يربط ما بين نشأة دولة الملثمين المسلمة وبين قيام دولة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس (سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م) فانه يجعـــل تلكاكون (تلجاجون) (Telgagoun) والدتيلوتان أول ملوك صـــنهاجة الصحراويين[٢٤] ٠ فكان الفارق الزمنى بين ولاية تلجاجون الأول وبين وفاة ابنه تيلوتان ، وهـــو الثانى ، تبلغ حوالى ٨٥ سنة ٠ ولما كان روض القرطاس يقول ان حـكم تيلوتان بلغ ٦٥ (خمسة وستين) سنة ، يكون حكم تلجاجون ٢٠ (عشرين) سنة ٠

بداية نشر الاسلام جنوب الصحراء :

وبناء على هذه الرواية تكون بداية نشر الاسلام فى الصحراء الجنوبية وفى بلاد السودان قد تمت حوالى ســـنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م ، وراء جيوش الملثمين ، وذلك قريب الوقت الذى كان خوارج الصفرية يعتزلون مواطنهم فى بلاد الريف الخصبة لكى يبنوا سجلماسة (سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م) على مشارف الصحراء ، ويستخدمونها موطنـــا (ج ٢ ص ٤٠٩) ٠ واذا كانت الرواية لا تخصص دورا محددا لتلجاجون فى هذا المجال ، فيمكن أن يكون المفهوم من سياق النص انه أول من ترك دين المجوسية ليدخل بكل حماسة المسلم الجديد ، المنبهر بدينه ، فى ميدان نشر الاسلام ٠ أما عن تيلوتان ولى عهده وثانى الملوك (ت ٢٢٢ هـ/٨٣٧ م) ، فهو فارس الاسلام الذى يجوب

---

(٢٤) انظر روض القرطاس ، ص ١٢٠ ـ حيث أول ملك بالصحراء تلبلوتان بن تلاكاكين الصنهاجى اللمتونى ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨١ ـ حيث النص على انه الرياسة كانت فى لمتونة ، وانه استوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) وانه توارثه ملوك منهم تلاكاكين وورتكا (أوراكن) بن ورتنطق ، جد أبى بكر بن عمر امير لمتونة ، وأنظر توجمة دسلان (De Slane)، ج ١ ص ٦٥ ـ حيث التصحيح الى تلكاكون (تلجاجون) بن أوركوت أو أراكن بن ورتنطق (Ourtentac) جد أبى بكر بن عمر ، أمير لمتونة المعروف ـ وحيث الاشارة الى ان اسم ورتنطق ما زال باقيا فى موضع (Portendic) على مسافة ٤٠ مرحلة شمال السنغال ٠

البلاد على رأس جيشه الذى بلغت عـدته ١٠٠٫٠٠٠ (مائة ألف) نجيب (فارس هجان) ليفرض الهيمنة على كل الصحراء ، كما يفرض الجزية التى كانت تمير خزائنه بالأموال على ٢٠ (عشرين) ملكا من ملوك السودان ، حتى امتدت مساحة امبراطوريته التى تكونت على طول ٦٥ سنة ، حوالى ٣ (ثلاثة) أشهر طولا فى مثلها عرضا ، أى عـلى امتـداد أكثر من ٣٫٠٠٠ (ثلاثة آلاف) ك٠م(٢٥) ٠

أما ثالث الملوك فهو يلتان (Ilettan) الذى توفى سـنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م فكأنه حكم ٦٥ (خمسة وستين) عاما هو الآخر ٠ ويخلفه فى الملك ابنه تميم (ابن يلتان) ، فكأنه أول من حمل اسما عربيا من ملوك الملثمين ، ولا يمنع ذلك من أن يكون له اسما بربريا آخر ، كما كانت العادة فى حمل اسم قومى الى جانب الاسم العربى أو اللقب عند بربر المغرب ، وعند الترك فى المشرق ٠ وحكم تميم ٢٠ (عشرين) سنة (مثل تكلكاكون) ، اذ كانت وفاته غدرا على أيدى مشايخ لمتونة ، سنة (٣٠٦ هـ/٩١٨ م)(٢٦) ٠

---

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٠ ـ ١٤١ ، العبر ج ٦ ص ١٨٢ ـ حيث الاسم يتيلوتان فكأنه ايت (بنو) يلوتان والتصحيح من ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٦ ـ حيث النص على ان الأخطاء فى الأسماء فى النص العربى ، نرجع الى جهالة النساخ ، وخاصة فى روض القرطاس ، وانظر الفلقشندى ، ج ٥ ص ١٨٩ ـ حيث النص على اسماء الملوك نقلا عن ابن أبى زرع ـ والاشارة الى أولهم بنلوتان الذى كان يركب فى ١٠٠٠ (الف) نجيب بدلا من ١٠٠٫٠٠٠ ، وتوفى فى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م ٠

(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢١ ـ حيث الثالث هو حفيد تيلوتان واسمه الأثير بن قطر ابن تيلوتان بدلا من يلتان ، اما عن تميم فهو ابن الأثير ٠ هذا ، ولقد أخذنا برواية ابن خلدون على أساس ان نسخة القرطاس التى كانت بين يديه أصح من التى بين أيدينا اليوم ، وهو الأمر المقبول بناء على البعد الزمنى ، الى جانب انه حصل على معلومات اضافية أخرى استفاد منها فى نظرته الى القرطاس ٠ وقارن العبر : ج ٦ ص ١٨١ ـ حيث توجد رواية أخرى تقول ان من اشهر ملوك صنهاجة هؤلاء : تبنزوا (Tinezwa) بن واشنبق (Ouechenic) ، وهو فى الأصل وانشق بن بيزار (Bezar) وقـيل بيرويان (Berowian) وهو فى الأصل : يرويان ابن استولى بدلا من واشنق بن يزار : (Izar) ٠ فكان الأول : (تيزاو ابن واشنق بن بيزا كما فى نص بولاق المصور) يقوم مقام تلجاجون ، وكان الثانى (يرويان بن واستولى بن يزار ، كما فى نص بولاق) بديلا لتيلوتان ونجبه الـ ١٠٠٫٠٠٠ ، على أن يقابل ملكه عهد عبد الرحمـن النـاصر وابنه الحكم المسـتنصر فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) فى الاندلس بدلا من عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م قبل أن يفترق أمرهم طوائف ٠ وقارن القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ ـ حيث يلتان (ت ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م) وتميم بن يلتان الذى قتلته صنهاجة ، ثم افتراق الـ ١٢٠ سنة الى ملك أبى عبد الله تيفاوت ثم قيام صهره يحيى بن ابراهيم الجدالى الذى حج سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ٠

ملوك الطوائف الصنهاجية :

وبعد تميم يفترق أمر امبراطورية الملثمين الصنهاجية الى عدد من ملوك الطوائف يستمر ملكهم لمدة ١٢٠ (مائة وعشرين) سنة ، حاول ابن خلدون أن يملأها بروايات أخرى ولكنه لم يوفق بسبب تصوره أن تلك الروايات الجديدة تتعلق بملوك آخرين لنفس الفترة السابقة (كما أشرنا فى الهامش السابق) • وربما كان له الحق فى ذلك بسبب تكرار بعض المعلومات الاحصائية التى تتعلق بأعداد عسكر الملك أو أعداد التابعين له من أمراء الأقاليم السودانية •

والحقيقة أن الروايات التكميلية التي يقدمها ابن خلدون دون الاشارة الى مصدرها ترجع الى البكرى الذى يوثقها بتواريخ أكيدة تنهى فترة الطوائف هذه ـ وان ظلت اختلافات قراءة أسماء الملوك بسبب أخطاء النساخ • والرأى ان دسلان (De Slane)، استخدم روايات البكرى فى محاولته تصحيح أسماء ملوك السودان الملثمين ، فى ترجمته لابن خلدون •

والمهم انه بفضل رواية البكرى نعرف أن دولة صنهاجة نهضت من كبوتها بعد أقل من ٥٠ (خمسين) سنة ، ولكن لفترة وجيزة ، بفضل تين بروتان (الملك) الذى هيمن على أودغست وفرض سلطانه على غانة خلال حكمه الذى امتد من ٣٥٠ هـ/٩٦١ م الى ٣٥٩ هـ/٩٧١ م ، وكأنها كانت النهضة الثالثة لدولة صنهاجة الصحراء[٢٧] •

النهضة على عهد نارشت الى ظهور يحيى بن ابراهيم :

والمهم أن تلك النهضة الثانية لصنهاجة انتهت بعد فترة غامضة ثانية على عهد أبى عبيد الله بن تيفاوت (Tifaout) المعروف بنارشت (Naresht)، الذى تم اختياره ملكا سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م ، لما عرف به من صفات الرئاسة ، من : التدين والورع واداء فريضة الحج والجهاد • ولم تطل ولاية المجاهد المنتخب (أبى عبد الله نارشت) الا ٣ (ثلاث) سنوات فقط ، اذ

---

(٢٧) انظر فيما بعد ، ص ١١٧ ، ١٢٠ ـ والمهم هنا هو ان معلومات البكري عن برويانز فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) هى نفس المعلومات الخاصة بتيلونات المتوفى فى أوائل القرن الـ ٣ هـ/٩م ، الأمر الذى قد يشكك فى نهضة صنهاجة الصحراء فى تلك الفترة المبكرة •

سقط شهيدا فى ميدان الجهاد فى السودان (سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م) فى موضع غربى مدينة بانكلابين حيث بنو عبد الوارث الصنهاجيين ، اسمه قنقارة (جنجارة) ، نسبة الى سكانه من السودان الذين كانوا من اليهود « الفلاشة »(٢٨) ٠

وبعد نارشت (أبى عبد الله محمد) ظهر يحيى بن ابراهيم الجدالى (الكدالى)(٢٩) ثم ابنه ابراهيم بن يحيى ولى عهده ، وهو الذى مر بالقيروان(٣٠) ٠

النشاط التجارى لدول المغرب عبر الصحراء :

أما عن أعمال الأدارسة فى سبيل تنشيط التجارة مع السودان فيرجع الفضل الى الامام عبد الله بن ادريس (العلوى : ٢١٣ هـ/٨٢٨ م)(٣١) ، فى بناء مدينة تمادلت (أو تامدلت) ، التى اشتهرت بمنجم فضتها الغزير الانتاج ، غربى مدينة درعة ، وعلى الطريق الى سجلماسة ، طريق القوافل التجارية الى غانة والسودان(٣٢) ٠

ومع ازدهار تجارة السودان ونشاط دول المغرب المستقلة الأولى ، ظهر

---

(٢٨) انظر القرطاس ، ص ١٢١ — حيث النص على ان المدينة (تاتا كلاتين) كانت لبنى وات (هكذا) من أوائل مسلمى المغرب الذين أسلموا على يدى عقبة بن نافع ، والدين عرفوا بالصلاح وبأنهم يجاهدون السودان غير المسلمين ، وحيث موضع استشهاد نارشت هو بغاره بدلا من ونغارة ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، والبكرى ، ص ١٦٢ (حيث نارسنى بدلا من تارشت) وقنقارة (بدلا من بغارة) وبانكلابين (الذى أخذنا به بدلا من بانكلابين) ، وقارن الاسنبصار ، ص ٢١٦ — حيث ملك أوغست فيما بين (٣٥٠ — ٣٦٠/ ٩٦١ — ٩٧١) صنهاجى يعتد فى ١٠٠ر٠٠٠ نجيب ، ومسيرة بلاده شهرين فى مثلها فى عمارة متصلة ٠

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٢ — حبث النص على انه بقى فى الولاية الى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م — الأمر الذى يعتبر متقدما بعض الشىء عما وصلنا اليه فى الدراسة ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ٠

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ ، الذى يضع مكان ابراهيم بن يحيى ، يحيى بن عمر بن تلاكاكين(Telagaguin) ولا ندرى ان كان قد وقع فى الخطأ بسبب اسم مدينة تاتكلاتين التى استشهد بقربها أبو عبد الله نارشت ٠

(٣١) وكانت مملكته تشمل أغمات وبلاد المصامدة وبلاد السوس الأقصى مع بلاد لمطة — ج ٢ ص ٤٥٩ ، وقارن زامباور ، الترجمة ص ١٠٣ ٠

(٣٢) البكرى ، ص ١٦٣ ، وهى فى اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ، تامدلت — حيث تعتبر مهدا لجماعات الطوارق (بنى ترحا) حيث مناجم الذهب والفضة ٠

فى مطلع القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، مع قيام الدولة الفــاطمية ، طريقــان جديدان الى السودان الغربى ، أحدهما غربى وهران وتلمسان الى النيجر الأوسط وبلاد غانة ، والثانى الى بلاد السودان الأوســـط من طرابلس الى بلاد كانم وتشاد(٣٣) ٠

والحقيقة أن ازدهار تجارة الســودان ، فى القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، يظهر فى ازدهار مدينة سجلماسة ، أهم محطة فى طريق السودان ، وأهم أسواق الصحراء وقتئذ حسبما يروى ابن حوقل الذى زارها فى ســـنة ٣٤٠ هـ/٩٥١ م ، وسجل رواج تجارتها وكثرة أرباح أهلها الذين ظهرت عليهم النعمة فى الأفعال والكمال فى الأخلاق ، كما كانت سجلماسة مركزا علميا مرموقا ، حيث تفوقت على غــيرها من مدن المغرب بكثرة المشــايخ والعلماء ٠ وفى تلك الزيارة تكلم ابن حوقل عن ذلك الصك الشهير الذى حرره لأحد تجار سجلماسة بعض عملائه من تجار أودغست السجلماسيين بمبلغ ٤٢ ألف دينـــار(٣٣ م) ، الأمر الذى لم يعرف الرحالة العراقى له نظيرا فى المشرق ، أى فى مرافىء تجارة الهند والصين وطريق الحرير ، فى الخليج ، من : البصرة الى سيراف وهرمز(٣٤) ٠

مسالك التجارة وطرقها :

هكذا تمثلت خريطة التجارة فى أفريقيا الشمالية فى ٤ (أربعــة) خطوط طولية وخطين عرضين ٠ والخطوط الطولية هى :

١ — طريق الساحل الغربى ، الممتـــد على طول شـــاطىء المحيط الأطلنطى ، وعقدة مواصلاته الشمالية ، هى نول لمطة (أونون)٠

٢ — الطريق الغربى الأوسط الذى يعبر الجزائر ، وعقد مواصلاته : توات شمالا ثم سجلماسة وأودغست ٠

٣ — طريق المغرب الأدنى وبدايته القيروان (فهو طريق القيروان) ، وعقدتا مواصلاته : سجلماسة وأودغست ٠

---

(٣٣) ماكفيدى ، اطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٧٩ ٠

(٣٣ م) صورة الأرض ، ص ٩٦ ٠

(٣٤) صورة الأرض ، ص ٣٤ ، وانظر لسـار (J-M. Lessard)، سجلماسة ، المدينة وعلاقاتها التجارية فى القرن الحادى عشر ، عن البكرى
La ville et ses relations commerciales au XIe siècle)
، مجلة هسبيريس ، ١٩٦٩ ، ص ٥ — ٣٦ ٠

٤ - الطريق الشرقي وبدايته طرابلس ، وعقد مواصلاته الى السودان الغربي (غانة) : سجلماسة وأودغست ، والى السودان الأوسط : فزان الى تشاد وكانم ، وتادمكه الى السودان الشرقي والواحات الشرقية الى مصر ٠

أما الخطان العرضيان : فالشمالي منهما هو الطريق التاريخي الشمالي الآتي من مصر والمنتهى عند تازا وفاس ، ومدنه ، من برقة الى طرابلس ، فالقيروان ، وتونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، واغمات ، هي نهايات لنخطوط الطولية ٠ وأما الجنوبي فهو طريق التجارة الأعظم عبر واحات بلاد النخل وهو طريق الحج أيضا ، الذى يستوعب القوافل العظمى التى تحوى آلاف الجمال مثلما تستوعب طرق الملاحة عبر المحيطات حاليا ، سفن النقل العظمى التى لا تعرفها موانىء البحار الداخلية والقنوات بين القارات - كما أنه الطريق الأقصر (ما سبق ، ص ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٩) ٠

الخريطة السياسية الاجتماعية للصحراء الكبرى فى القرن ٤ هـ/١٠ م :

والمهم انه فى هذا الوقت من منتصف القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، كانت سجلماسة تابعة اسميا للدولة الفاطمية ، خاضعة فعليا لأسرة آل مدرار (الصفرية) وهم من البتر ، بدو زناتة الجمالة الذين يصعب التفرقة بينهم وبين صنهاجة الصحراء الذين يتميزون باللثام والنقاب على الوجه والعينين ٠

أما الصحراء حيث قبائل صنهاجة الملثمون ، فكان لها ملكها ، معاصر ابن حوقل ، الذى كان يحكم منذ سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م وذلك فى عصر الفرقة (الطوائف) قبل يروتان (ما سبق ، ص ١١٢)(٣٥)٠ وينص ابن حوقل على أن رعية الملك الصنهاجي وقتئذ بلغوا نحو ٣٠٠ر٠٠٠ (ثلثمائة الف) بيت أى أسرة ، بمعنى حوالى ١ر٥٠٠ر٠٠٠ (مليون وخمسمائة الف) نسمة وأكثر ، على أساس أن متوسط ٥ (خمسة) أفراد للأسرة ، بمعنى زوجين وثلاثة أبناء ، يعتبر معدلا قليلا بالنسبة لأفراد الأسرة فى المجتمعات البدوية والريفية - حيث الزواج الداخلى وتعدد الزوجات ٠ والمهم أن المليون ونصف المليون وأكثر من قبائل صنهاجة - يعنى بلغة العصر نوعا من أزمة التضخم السكانى التى تبشر بالانفجار ٠ والمهم أن تلك الكثرة

---

(٣٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٩٧ ٠

السكانية يفسرها نوع البيوت المستخدمة للسكنى والتى كانت حسب ابن حوقل ما بين نواله (خيمة من الجلد) أو خص (كوخ من الأعشاب والعصى)، الأمر الذى يعنى أن مساكن صنهاجة فى منتصف القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، كانت فى منطقة الساحل (أعشاب السافانا) الفاصلة بين جنوب الصحراء وشمال السودان الغربى • والظاهر أن المساكن السودانية الحديثة المبنية بالأعشاب وعروق الشجر فى شكل أكواخ مستديرة ويغطيها سقف مخروطى من الأعشاب أيضا ، أو تلك التى تأخذ شكل حظيرة مربعة يغطيها سقف سنامى (جمالون) من فروع الشجر وأوراقه(٣٥ م) ، لها أصول عريقة فى القدم • فقبائل الجرمنتيين القديمة فى فزان كانت لها بيوت من الاعشاب التى تكسو أعواد الخشب فى شكل القارب المقلوب ، أو خيام الجلد مثل خيام البدو الحاليين (وهى المادة الخام المتخذة من البيئة المحلية من أعشاب السفانا أو من جلود حيواناتها)(٣٦) • وهذا ما يفسر أيضا كيف كان من أساليب حربهم الدفاعية الاعتماد على أعداد ابلهم الغفيرة فى سحق الأعداء ، هدما ودهسا ، بمجرد اثارتها ونفارها على العدو بغتة(٣٦ م) •

ومن الواضح أن أودغست ، بصفتها باب السودان الجنوبى ، كان لها حكومتها المستقلة ، تماما كما كان الحال بالنسبة لسجلماسة ، باب الصحراء الشمالى ، كما كان هناك نوع من أوجه الشبه بين الحكومتين ، فذلك ما تفرضه طبيعة المكان وتكوينه البشرى على مر الزمان • ويتلخص وجه الشبه فى أن موقع كل من البلدين فى منطقة التماس بين بربر الصحراء من البدو الجمالة مع كل من حضارة بربر الشمال « المتوسطية » وحضار سودان الجنوب « الافريقية » ، بمعنى أن صنهاجة فى ذلك الزمان كانت همزة الوصل عرقيا وحضاريا بين الشمال الافريقى الأبيض وبين الوسط الافريقى الأسود ، وكان من الطبيعى أن يكون التأثير الأبيض طرديا نحو الشمال والتأثير الأسود عكسيا نحو الجنوب ، فتكون حكومة سجلماسة ومجتمعها أقرب الى حضارة البحر المتوسط ، ومجتمع أودغست وحكومتها أقرب الى الحضارة الافريقية « النيلية » أصلا •

(٣٥م) أنظر دبلافوس ، الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ •

(٣٦) أنظر هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢١ ، وقارن عن مساكن الطوارق الحاليين سعيد القشاط ، الطوارق ، ص ٨١ – حيث مساكن الطوارق من : جلد ، أو حصير او قش الى جانب سكنى الكهوف •

(٣٦م) أنظر ابن حوقل ، ص ٩٧) •

مملكة غانة والعلاقة بأودغست :

والمهم أن كلا من حكومتي سجلماسة وأودغست لم تكن حكومة عسكرية ، بل أشبه بجمهورية تجارية ، مثل امبراطورية غانة التى تمتعت لهذا السبب ، بالاستقرار منذ نشأتها فيما بين القرنين الثالث والرابع للميلاد ، وذلك فى منطقة أوكار (Aukar) شمال أودغست حيث كان موطن زنوج « الماندنج » المهاجرين من شمال أفريقيا ، والذين كانوا متأثرين بالثقافة اليهودية ٠ ومن منطقة أوكار توسعت دولة غانة جنوبا الى منطقة الحوض ، واستمرت أسرتها الحاكمة حتى القرن الثامن الميلادى حيث سقطت فى سنة ٧٧٠ ميلادية على أيدى أسرة أخرى من زنوج « السونينكه » التى استمرت فى الحكم حتى قيام دولة المرابطين(٣٧) ، ومن الواضح أنه رغم اتساع مملكة غانة المعاصرة لابن حوقل شمال وجنوب غرب أودغست ، فان هذه الأخيرة كانت تتمتع بالاستقلال تحت حكم الصنهاجيين الملثمين ، وأنها كانت على علاقات طيبة بمملكة غانة ٠

وفى ذلك ينص ابن حوقل على أن ملك أودغست كان يحرص على مداراة (التقرب من) ملك غانة ، أغنى ملوك الدنيا بما لديه من أموال الجباية ومخزون التبر ، وان هذا الأخير كان يسترضى تابعه ملك كوغه بالهدايا ، بيمنا كان ملوك غانة وكوغه حريصين على استرضاء ملك أودغست المسلم لحاجتهم الماسة الى الملح الذى كان يأتيهم من بلاد المسلمين(٣٨) ٠

والحقيقة أنه قبل قرن تقريبا من ظهور دولة المرابطين كانت امبراطورية الملثمين قد تفتتت الى نوع من دويلات الطوائف منذ اغتيال مشايخ صنهاجة لملكهم تميم سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م ، الحالة التى استمرت حوالى ٢٠ سنة (الى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م) ، وهى الفترة التى ملأها ابن خلدون برواية أخرى للبكرى الى جانب رواية القرطاس (ما سبق ، ص ١١١ وهـ ٢٦) ٠وفى منتصف فترة التردى السياسى هذه كانت خريطة الصحراء تتمحور حول مملكة أودغست التى كانت قد بلغت الذروة من القوة والهيمنة ، بفضل جيشها الكبير الذى كان يحوى ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) نجيب (من الجمال الحربية

---

(٣٧) انظر ج ٠ دفيدج ، تاريخ افريقيا الغربية ، ص ١٨ - حيث النص على ان ملوك تلك الأسرة بلغوا ٤٤ ملكا ٠

(٣٨) ابن حوقل ، ص ١٩٧ - حيث الاشارة الى ارتفاع سعر الملح فى بلاد السودان ، اذ كان ثمن الحمل منه ما بين ٢٠٠ دينار فى المناطق القريبة من العاصمة (غانه) و٣٠٠ دينار فى الأقاليم النائية ٠

السريعة الحركة) ، ومساحة أراضيها التي كانت تقدر بمسيرة شهرين طولا وعرضا (حوالى ٢١٠٠ ك٠م) في بلاد عامرة ، والتي كان يحكمها أمير صنهاجي ، هو : تين يروتان بن ويسنو بن نزار ، الذى كان يخضع له عشرون أميرا من حكام الأقاليم ، يؤدون اله الجزية السنوية ، خلال حكمه الذى استمر عشر سنوات (٣٥٠ — ٣٥٩ هـ/٩٦١ — ٩٧٠ م)(٣٩) ٠

ومن الواضح أن امبراطورية أودغست التى كانت قد بلغت الذروة أخذت تعانى من أعراض التصدع والاضمحلال ، فهذا ما يتبين فى النزاعات الداخلية التى دبت بين الحكام المحليين من أمراء الاقطاع السودانيين الذين يلقبهم البكرى بالملوك ٠ ولقد تطلب الأمر تدخل ملك أودغست فى سبيل الحفاظ على وحدة دولته الصنهاجية ٠ فعندما قام النزاع بين يعرين أمير مقاطعة ماسين وبين أمير مقاطعة أوغام ، وقف تين يروتان ، الملك ، الى جانب الأول عندما طلب منه النجدة ٠ وعندما استشعر خطورة ملك أوغام ، سير ضده جيشا كبيرا ، من ٥٠٫٠٠٠ (خمسين ألف) نجيب (جمل سريع) ، تمكنت من اقتحام عاصمة أوغام واستباحتها نهبا واحراقا ، الأمر الذى انتهى بمقتل أميرها على أيدى المحاربين الصنهاجيين وانتحار زوجاته ، كما كانت تقضى بذلك التقاليد السودانية(٤٠) ٠ وهكذا بلغت أودغست أوج عزها فى ظل صنهاجة قبل دولة المرابطين ، وسيطرت على أجزاء هامة من بلاد السودان ، وصارت منافسا تجاريا لغانة ٠ ولكنه لم تمض عشرون سنة على انقضاء عهد يروتان حتى استعادت مملكة غانة السونينكية قوتها ، ونجحت فى سنة ٩٩٠ م (٣٨٠ هـ) فى الاستيلاء على أودغست من الصنهاجيين(٤١) ٠ وبذلك أصبحت أودغست قاعدة لمملكة أوكار (غانة)

---

(٣٩) البكرى ، ص ١٥٩ ٠

(٤٠) البكرى ، ص ١٥٩ — حيث النص على أن ملك اوغام القى سلاحه وضحى بنفسه فى ميدان القتال ، وان نسوته قتلن أنفسهن أسفا عليه ، وانفه من أن يملكهن البيضان ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١٦ — حيث رواية البكرى ذاتها مع تغيير طفيف يتلخص فى ان ملك اودغست الصنهاجى غزا ملكا من السودان اسمه « أوغام » ، فكان أوغام هو اسم الملك ، كما يقال ان غانة هو الملك وان المملكة اسمها أوكار ٠ وهنا لا بأس من الاشارة الى انه فى مقابل نجب الصنهاجيين وجمالهم التى كانت تعد بعشرات الألوف ، كان المنصور بن أبى عامر وقتئذ يعتنى باستنتاج الخيل ، حيث خصص لذلك فى اصطبلات اشبيلية ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) من الرماك و(١٠٠) مائة من الفحول ، وأنه فى بعض غزواته كان معه ٤٦ (ستة وأربعون) الف فارس بينما كان الرجالة ٢٦ (ستة وعشرين) الفا فقط — انظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، نشر بروفنسال ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ٠

(٤١) أنظر فيدج ، ت٠ غرب افريقيا ، ص ٢١ ، وقارن مولار ، غرب افريقيا الفرنسية ، =

حيث انتقل اليها غانة (أى الملك) ، وعاش فى كنفه البربر من الزناتية الى جانب العرب ، بينما أدت الصدمة النفسية التى ألمت بصنهاجة الى التحالف فيما بينهم ، والعمل على التقوى برباط الدين . وبذلك كانت الهجمة السودانية على أودغست فى ذلك الوقت المبكر من أواخر القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، وراء حركة الاستنارة السياسية التى أشعل لهيبها المرابطون(٤٢) .

ففى سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م دخل أهل تكرور — فيما وراء غانة — وكانوا من عباد الكواكب والأصنام ، فى الاسلام كرها ، على يدى وزجاى ابن ياسين ، بطل نشر الاسلام حربا وسلما(٤٣) ، وذلك قريبا من الوقت الذى كان فيه زعيم جدالة يفاوض أبا عمران الفاسى ، عالم القيروان من أجل ارسال من يراه أهلا لتعريف سكان الصحراء بقواعد دينهم الصحيحة — من تلاميذه (ما يأتى ، ص ١٧٠) . وبعد حوالى ٥ (خمس) سنوات ، كان رئيس صنهاجة وهو محمد المعروف بنارشت بالبربرية ، يجاهد بعد سنة

= ص٦٠ — حيث الاشارة الى الأمير تونكا (Tounka) الذى يظن انه فاتح اودغست وكان يتخذ من نيما (Néma) فى الجنوب الغربى عاصمة له ، ورغم هذه الحال فقد كان متساهلا مع المسلمين فى بداية أمره (نهاية القرن ١٠ م) حيث انه أقام ١٢ (اثنى عشر) مسجدا .

(٤٢) انظر فيدج ، ت . غرب افريقيا ، بالانجليزية ، ص ٢١ ، وقارن ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، ص ٧٦ — حيث تعرفت صنهاجة بفضل الجمل ، على الدولة الزنجية التى أسستها قبائل السونينكى (Soninké) شمال حقوق الذهب فى بامبوك (Bambouk) وانظر الاستبصار ، ص ٢١٩ — حيث النص على ان كلمة غانة هى سمة لملوك تلك الدولة السودانية ، بينما اسم البلد أوكار بناء على كتاب الملك الغانى الى يوسف بن تاشفين ، ونصه : « الى أمير أغمات ، قال غانة » ، وهذا دليل على ما قيل — كما يقال للدول التى تنسب الى ملوكها من : فرعونية وساسانية وأموية ... الخ .

(٤٣) الاستبصار ، ص ٢١٧ ، حيث النص على دخول أهل مدينة سلى بالترغيب على يديه ، على عكس أهل التكرور ، (فى بلاد السنغال — أول من دخل فى الاسلام من السودان) — وغيرهم ممن دخلوا فى الاسلام جبرا بالسيف والحرب ، وانظر أسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٠ — حيث الاشارة الى سكنى التكرور على ضفاف نهر السنغال ، وخاصة فى منطقة كايس (Kayes) فى اعاليه . وانظر أمين طيبى ، أثر الاسلام فى غانة العصر الوسيط ومالى ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ، المجلد ٤ ، صيف ١٩٨٤ (بالانجليزية) ، ص ٢٥٤ — حيث التكرور ، غرب غانة على المجرى الأسفل لنهر السنغال ، ص ٢٥٠ — حيث النص على ان شعب التكرور ظل وثنيا الى أن دخل مملكه وارجابى بن رابيس (بدلا من وزجاى بن ياسين) فى الاسلام وذلك فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م (بدلا من ٤٣٥هـ/١٠٤٣ م) .

٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م فى بلاد السودان ، حيث استشهد بأرض قبيلة قنقارة (جنجارة) ، غربى مدينة بانكلابين التى كان يسكنها بنو عبد وارث ، من بطون صنهاجة(٤٤) .

النظم الاجتماعية عند قبائل الملثمين المرابطية :

يضع ابن خلدون قبائل الملثمين فى صحراوات المغرب ، فى الطبقة الثانية من قبائل صنهاجة ، حسب أقدميتها فى التاريخ السياسى بالنسبة لصنهاجة أفريقية ، أصحاب الدولة الزيرية ممثلو الطبقة الأولى ، وما تفرع عنهم من الدول بالمغرب والأندلس(٤٥) . فكان صنهاجة هنا هى الجذم أو الأصل لذلك الجنس من البربة الذى يوضع بين قبائل البرانس أى الحضر . هذا ، ولو أن ابن خلدون عند الكلام عن نسب صنهاجة ولمطة ينسبهما ، كما هى العادة الى أبوين أسطوريين ، هما صنهاجة ولمط ، ويجعلهما أخوين . وينسبهما الى أمهما - وليس الى أبيهما - وهى تيزكى العرجاء التى تزوجت بأكثر من رجل من البتر والبرانس ، وأنجبت أكثر من ولد صار أبا تاريخيا لقبيلة من القبائل(٤٦) ، الأمر الذى يعنى استقرار مبدأ النظام الأموى ، الذى يعنى تفوق الأم فى العائلة البربرية حيث يمكن الانتساب اليها ، وبالتالى تقنين كل ما يترتب على ذلك من امتيازات قانون الوراثة ، وحقوق النبالة والشرف(٤٧) .

والمهم انه فى منتصف القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، عندما كان ابن حوقل يجمع معلوماته عن قبائل الملثمين ، أثناء ذروة الدولة الصنهاجية الزيرية ، على عهد يوسف بلكين بن زيرى ، كانت القيادة للموغلين من الملثمين فى صحارى المغرب الأقصى وبراريه ، وهم صنهاجة أودغست تحت راية ملكهم « تنبروتان بن اسفيشر » الذى كانت تخضع له كل القبائل ويدين له زعماؤها بالولاء والطاعة ، بأعدادهم التى لا تحد حتى انه كان لا يعرف الكثير ممن يترددون عليه بل ولا سمع بأسمائهم ، الأمر الذى يعنى أن اسم

---

(٤٤) البكرى ، ص ١٦٢ - حيث الاسم البربرى بارشى الذى صحح الى نارشت كما سبق ، ص ١١٩ .

(٤٥) العبر ، ج ٦ ص ١٥٣ - حيث استخدام كلمة « طبقة » بالنسبة للدول اشبه ما تكون بكلمة « جيل » بالنسبة للأفراد .

(٤٦) العبر ، ج ٦ ص ٩٠ ، جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، بالفرنسية ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤٧) انظر ج ١ ص ١١٦ ، وما يأتى ، ص ١٢٥ .

« صنهاجة » كان يعنى الاسم السياسى لاتحاد قبائل الملثمين تحت قيـــادة آل تنبروتان ، أصحاب السيادة ٠

ومن الواضح أن الملك الصنهاجى كان منتخبا بصفته من آل تنبروتان، بمعرفة رؤساء القبائل ومقدميها الذين كان لهم ، بطبيعة الحال ، حق عزله اذا ما عن لهم ذلك ٠ وكانت أهم القبـــائل فى المنطقة ما بين سجلماســة وأودغست ثلاثة ، هى : سرطة (أو شرطـة) وسمسطة ثم بنـو مسوفا : أكبرها(٤٨) ، بينما يعدد ابن حوقل ٤٤ اسما لتجمعات صنهاجية من قبائل وبطون وأفخاذ ، من أصيلة أو قريبة من العروق الصنهاجية ٠ والمهم انه من بين ١٩ (تسع عشرة) قبيلة صنهاجية أصيلة عند ابن حوقل لا نجد ذكرا منها ، عند البكرى بعد حوالى مائة عام ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، الا لست فقط ، هى : بنى مسوفا ، وبنى وارث ،وسرطة ، وترجه ، وبنى لموتونا ثم لمطة(٤٩) ، الأمر الذى يعنى اندماج تلك القبائل فى بعضها البعض ، وقيام تجمعات قبلية كبيرة العدد ، تربط بينها قرابة الدم بفضل تعدد الزوجات ، ووحدة المقر (الوطن) ، بعد أن سهل الجمل طرق المواصلات فميا بينها ٠ ومن المقبول أيضا أن تكون المسميات الباقية تعنى فى هذه التجمعات القبلية ، طبقة النبلاء أو الأشراف الحاكمة ومنهـــا طبقة الأحرار المحاربة ، وفيهم — الى جانب أهل السياسة — رجـال العلم والفقه والمعرفة والآثار والتواريخ(٥٠) ، بينما يهبط أفراد القبائل المنسية الى الطبقة المحمية « من المقهورين » ، ثم طبقة الموالى والعبيد السود ، ومنهم الخدم والرعاه والحرفيون الصغار (فى البادية)(٥١) ٠ أما طبقـة الحرفيين

---

(٤٨) ابن حوقل ، ص ٩٧ — ٩٨ ، وقارن ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٨ — حيث النص على حياة الملثمين الصعبة ، على أيامه (قرن ١٦ م/١٠ هـ) ، والتى تلخصت فى عدم النظام وسرقة ابل الأعداء ، ومع ذلك فقد كانوا يدينون بالطاعة المطلقة لأميرهم — الذى كان يدعى « امينة كال » (من الأمانة على ما نظن) — ويكنون له الاحترام ٠

(٤٩) ابن حوقل ، ص ١٠٠ — حيث القبائل الـ ١٣ التى نسيت أسماؤها ، هى : انكيفو ، وبنى ماكسن ، وبنى كاردميت ، وبنى سيفيت ، وبنى صالح ، وبنى توتك ، وسططة ، ومداسة ، ومغرسة ، وومومنه ، وفرية ، وملوانه ثم نيكارت ، وقارن الادريسى ، المغرب العربى ، ص ٧٥ — الذى يجعل مسوفه من لمطـة (مع قبيلتى وشان وغالة) بينما يجعل جداله من صنهاجة (مع قبائل : بنى منصور ، وتميمة ، وبنى ابراهيم ، وبنى تاشفين) ٠

(٥٠) ابن حوقل ، ص ١٠ — حيث التعريف بسيد ملوك تادمكة : فهر بن القاره ، وايناو بن سبنزاك ٠

(٥١) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٤٩٢ — حيث الاشارة الى ان درعه (مهد الطوارق) =

حقيقة ، من : الحدادين والنجارين والصاغة والحاكة ، وغيرهم من الأتباع والغرباء فلا توجد الا فى المدن والمراكز العمرانية الكبيرة ، مما سبقت الاشارة اليه(٥٢) ·

السمات الطبيعية (الفيزيقية) :

ولما كان الملثمون من صنهاجة ، مثلهم كمثل آبائهم الليبيين ، مرتبطين بعائلة شعوب البحر المتوسط · فهم من أصحاب الجسم الضامر والقامة المرتفعة ، والرؤوس الطويلة ، والوجه الاهليلجى ، والانف الأقنى ، والعيون السود ، والجلد البنى (البرونزى) ، والشعر الأسود(٥٣) · وهذا لم يمنع من وجود نماذج ذات جلد أبيض وشعر أصفر أو أحمر ، مما ينم

= التى كانت عاصمتها صبيح فى القرن الـ ١٦ م كان لأهلها عبيد زنوج من الجنسين يتوالدون ، ويحتفظ الناس (أسيادهم) بالأولاد لخدمتهم ، وقارن اليعقوبى ، البلدان ، ص ٣١٤ - حيث استخراج التبر فى الملاقى عن طريث العبيد السودان الذين يحفرون ويستخرجونه كالزرنيخ الأصفر قبل أن يسبك ·

(٥٢) أنظر ص ٧٤ ، هـ ٤٤ ، وقارن العمرى ، مسالك الأبصار ، نشر أبو ضيف ، ص ٧٨ - حيث سلاطين ممالك السودان الصحراوية البيض ، من البربر ، وهى ٣ (ثلاثة) فى بلاد آهير ، ودقوسية ، وتادمكة (شرق اوغست) ، وقارن مع تنظيمات قبائل الصحراء حاليا من الطوارق ، محمد سعيد القشاط ، التوارق ، ص ٦٥ وما بعدها ، عن الطبقات الاجتماعية ، حيث النبلاء (أما جفن) والطبقة المقهورة (أو اللاجئة : امغاد) ، وطبقة الفقهاء (انسلمن) ثم الحدادون (الصناع النقلبديون) ثم العبيد والموالى ، وص ٤٩ - ٤٦ - حيث تقسم بلادهم الى ٧ (سبع) مناطق تسمى سلطنات ، على رأس كل منها سلطان كما فى : غات بليبيا ، وتمنغيست فى الجزائر (الهقار) ، وازواغ (سلطة الليمدن غرب) والليمدن - شرق (تقريقريت) ، وسلطنة آيير ، وسلطنة تمزقدا (جنوب آيير) ثم سلطنة كل أقرس (جنوب) أزواغ) ، قرب الهوسا · وأنظر ص ٦٣ - ٦٤ - حيث تتكون السلطنة من عدد من القبائل ، وتنقسم القبيلة الى عدد من المحلات أو الأحياء ، والحى الى عدد من العشائر التى تتكون من عدد من الأسر والأسرة هى الخلية الاجتماعية الصغرى ، وقارن اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ١٧٦ - وحيث ينقسم طوارق الرحل اجتماعيا الى : أسياد نبلاء وأتباع وعبيد من الزنوج ، والنبل صفة للعشيرة كلها التى تكون على رأس القبيلة ، ومنها رئيسها · وعن طوارق الهجار (جنوب الجزائر) فينقسمون الى ٣ قبائل ، هى : كل دولة ، وتيغية ملت ، وطيطوق ، وانظر ص ٣٥ - ٣٧ - عن طبقة العبيد التى عليها حراثة الأرض ، فهم الحراثون ، الى غير ذلك من امتهان : الحدادة والنجارة والاشارة الى انهم يتحولون فى فترات معينة الى تجار يبيعون منتجاتهم لأهل الواحات نظير ما يحتاجونه من التمر والملابس والأسلحة والأدوات المنزلية حتى أنهم يسيطرون اقتصاديا على الواحات ·

(٥٣) هاينز ، طرابلس ، فى العصور القديمة ، ص ١٨ - وانظر اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٣٤ - ٣٥ ·

عن تأثيرات وافدة من أورروبا عبر التاريخ ، عن طريق الوندال والقوط وغيرهم من جماعات أهل الشمال (النورمان)(٥٤) . هذا ، ولو أن الدم الأسود كان يفد الى الشمال بشكل طبيعى ، عن طريق اباضية زويلة - جنوب ودان - الذين كانوا يجلبون أنواعا من السودان ، من : البريين ، والزغاويين ، والمرويين ، كما كان أهل كوار جنوب زويلة ، يأتون بأنواع أخرى ، الى جانب أن ملوك السودان كانوا يبيعون أبناء بلادهم من غير شيء ولا حرب(٥٥) .

أما عن صفات السودان بعامة فهى التى عرفها اليونان قديما بشكل علمى عن طريق جالينوس ، الذى يعدد لهم ١٠ (عشر) خصال ، هى : الشعر المفلفل ، وقلة اللحية واتساع المنخار ، وسماكة الشفتين ، وقوة الأسنان ، ورائحة الجسد (الزفرة) ، وسواد البشرة ، وخروج الأذنين ، وطول عضو الذكورة ، وأخيرا الميل الى الفرح والضجيج(٥٦) .

وهكذا امتزج البيض والسود فى الصحراء ، ما بين الجنوب والشمال ، وأصبح اللون البرونزى (البنى) هو المميز لأهل الصحراء المغربية ، تماما كما هو الحال عند العرب فى صحرائهم التى يحف بها السودان الشرقى عبر البحر الأحمر ومضيق باب المندب ، حيث البجاه ، الأشد سوادا من الحبشة الذين يتميزون بلون بشرتهم الوسط ، ما بين البياض والسواد ، مثل العرب (الاصطخرى ، ص ٣١) . وخير مثال لهذا النموذج الصحراوى الوسط ، بين الرجل الأبيض والرجل الأسود ، هم سكان المرتفعات الوسطى فى أقاليم الهقار (الحجار) وآير وتشاد حيث الطوارق الملثمون من المغاربة البيض أصلا ، أو فى تيبستى حيث التبو (Tebou) ممثلو أهل الصحراء القدماء من الجنس الحبشى أصلا .

---

(٥٤) نفس المصدر .

(٥٥) اليعقوبى ، ص ٢٤٥ .

(٥٦) م. ديلافوس ، الزنوج ، (بالفرنسية) ، ص ٦
(Maurice Delafosse, Les Nègres. Ed. Reider, Paris)

وقارن ابن رسته ، ص ٩٩ - ١٠٠ - حيث النص على ان ساكنى منطقة خط الاستواء سود الالوان بسبب الحرارة والجفاف ، وأن شعورهم قططة ، وأبدانهم نحيفة ، وطباعهم حارة ، وفى أخلاقهم الجفاف والذكاء .

الوحدة العرقية الصغرى : الأسرة أو البيت :

الدارج عند قدامى الكتاب : استعمال المسكن للتعبير عن الأسرة أو الوحدة الاجتماعية النواة لدى شعوب البدو ، سواء الافريقيين البربر ، أو الآسيويين الترك ٠ والبيت البدوى اما أن يكون خيمة أو خباء من الشعر أو الصوف أو الوبر ، وهو الدارج ، أو من جلد الحيوان أو من الأعشاب وفروع الأشجار وهو ما يسمى « بالخص » ، وبخاصة فى منطقة الساحل وأعشاب السفانا ، أو من الألياف الخشنة النامية بين براعم النخيل العليا ، كما فى الجنوب المراكشى(٥٧) ٠

وفى تفضيل الرجل الصحراوى للخيمة على البيت المبنى ، ينسب الى الطوارق انهم يسمون البيوت والمنازل المبنية « قبور الأحياء »(٥٨) ٠ ومن الواضح أن الطوارق جنوب الصحراء شاركوا السودان فى طراز مساكنهم التى عرفت حديثا بأنها أكواخ مستديرة الشكل تنتهى بسقف مخروطى ، أو حظائر مربعة (أو سقائف) ذات أسقف جمالونية (هرمية) مغطاة بأفرع الشجر وورقه العريض أو الأعشاب الطويلة(٥٩) ٠ أما عن الأثاث والرياش فى خيام الملثمين وأخصاصهم ، فليس لدينا من مرجع عن طبيعتها الا معلومات القدامى من أصحاب رسوم ما قبل التاريخ ، ومن مؤرخى اليونان والرومان أو من الكتاب المتأخرين من العصور الحديثة المبكرة ، قبل مشاهدات المعاصرين ٠ فالفراش نوع من مواد بناء الخيمة أو الخص ، فالنوم على بسط وبر الجمل أو على حصر الخيزران الناعمة(٦٠) ، والأوانى المنزلية مما لا يستخدم فى الطبخ ، من : الخشب أو الجلد أو بيض النعام(٦١) ٠

والمهم أن البناء القبلى يقوم — بعامة — على أساس الروابط العاصبة

---

(٥٧) انظر فيما سبق ، ص ٦١ ، وقارن ابراهيم العوام ، الصحراء ،وسوف ، ص ٨٢ ، ٨٤ — حيث مساكن زناتة من زرائب الحلفاء القائمة على أعمدة خشب الأزل والمرخ أو من جريد النخل التى تسمى طرود ، كما عرفوا البيوت المبنية من طين الشطوط ، ذات الأبواب المعمولة من عصى مشدودة بأسيار من جلود الابل او غيرها ٠ وانظر ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٧ وص ١٣٧ ، والبيت بالبربرية الطارقية « تازقى » ، انظر البكرى ، ص ١٥٧ ٠

(٥٨) اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى ، ص ٢٠٨ ، وهو قريب من تسمية بعض اهل الخليج حاليا ، شقق الوافدين بانها صناديق (صغيرة) ٠

(٥٩) ديلافوس : الزنج ، بالفرنسية ، ص ١٧ ٠

(٦٠) ليون الافريقى ، ص ٦٧ ٠

(٦١) هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢٠ ٠

فى خط الذكور ، بينما تحل المرأة واهلها فى مكانة تالية • أما عن تكوين الأسرة فانه يقوم على قاعدة الزواج ـ الداخلى ـ فى العائلة أو العشيرة ـ وتبعا لعرف تعدد الزوجات الذى يؤدى الى الاندماج التام بعد مدة • وبطبيعة الحال فان الأسرة رغم كونها الوحدة النواة ، فانه لا يعتد بقيمتها الاجتماعية وان تحولت الى عائلة كبيرة تحوى ثلاثة أجيال أو أربعة ، وذلك ان الحى بمعنى مجموع العشائر هو الذى يكون « الحى » أو الوطن الأصغر ، الذى يمكن أن يكون مستقلا ، بل ويفرض سلطانه على بقية الأحياء والعشائر ، أى على القبيلة كلها(٦٢) •

النظام الأموى (الماتريارقى) :

والظاهر أن طبيعة الحياة البدوية فى الصحراء ، هى التى أملت النظام الأموى الذى يعنى سيادة الأم فى الأسرة ، عكس النظام الأبوى (البطريارقى) الدارج فى مجتمعات الريف والحضر • فالرحلة بعيدا ، سواء للرعى والسقيا ، وخاصة بالنسبة للجمال أو السفر مع قوافل التجارة يضع المرأة الباقية فى الدار أمام مسئولياتها ، ليس فى ادارة البيت وشئون الصغار والمسنين فقط ، بل وفى الدفاع عن الحمى اذا ما اضطرتها الظروف الى ذلك(٦٣) • ولما كانت التفرقة الأولية بين قيمة الرجل والمرأة قائمة على القوة الاقتصادية ، فان تقسيم العمل فى المجتمعات البدوية يظهر الأهمية النسبية الكبيرة للمرأة • فاذا كان الرجل هو راعى الجمل بالامتياز فان المرأة هى راعية الغنم والماعز بالتخصص ، كما أنها تشارك الرجل فى مراعاة الابل وسياستها ، وخاصة وقت النتاج ، فى فصل الشتاء(٦٤) •

---

(٦٢) وهذا ما يقول به الأنثبروبولوجيون ، من : أن كل جماعة قرابية تؤلف فى الوقت ذاته وحدة مكانية متمايزة ، وانه رغم انتشار أفراد الجماعة القرابية الواحدة الا ان اسم الجماعة يظل مرتبطا بالاقليم الذى يعتبر بمثابة الوطن الأساسى لهم • بمعنى ان الجماعات المجاورة فى المكان داخل أرض القبيلة ، تكون مرتبطة بروابط قرابة من درجة معينة • انظر أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ١٩٩١ ، ص ١٦٨ ـ مع الأخذ فى الاعتبار ما قد يكون من الاختلافات بين سكان شمال شرق افريقيا (سيناء) وشمال غرب القارة (الصحراء الغربية) •

(٦٣) انظر فيما سبق ، عن قصة اللثام ، ص ٨٠ ، هـ ٥٩ •

(٦٤) انظر (مع الفارق) أحمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية فى شمال سيناء ، ص ١٧٩ ـ حيث ما للمرأة من قيمة اقتصادية كبيرة ، وذلك فى توزيع العمل بين النساء والرجال ، ورغم ذلك فالمجتمع يسوده النظام الأبوى بمعنى سيادة الرجل ـ وهو الأمر =

وعلى الرغم مما عرفته المرأة من المركز المتميز فى المجتمـــع الطارقى قديما وحديثا ، من حيث العمل ، والسفور ، والتمتع بقدر واضح من الحرية فى معاملاتها العاطفية ، فمن الواضح أيضا أن تلك الحرية كانت شكلية ، وأن السيطرة كانت للرجل . حقيقة أن بعض النساء قد وصلن الى مركـز الزعامة كالكاهنة قديما (انظر ج ١ ص ٢١٧) أو أن بعض عظماء الرجال من أهل الحرب والسياسة انتسبوا الى أمهاتهم ، كمـــا هو معروف عنـــد المرابطين ، من ابن فاطمة وغانية أوفانو مما يأتى ذكره أيام بنى تاشـفين (ص ٣٠٦ ، ٣٩٢) ، الا أنه لم ينبغ من نســاء الملثمين نابغة ، كمـا كان الحال عند الترك ، من : شجر الدر (عند المماليك) وتركان خاتون (عند السلاجقة) أو خواتين السلطان (عند ترك القرم) . أما عن نموذج زينب النفزية ، زوجة صاحب اغمات ثم زوجة زعيم المرابطين « أبوبكر بن عمر » وبعده يوسف بن تاشفين ، فانها لم تكن صنهاجية بل زنانية (ما بعـد ص ٢٥١ ، ٢٥٤) .

والمهم أن ذلك المجتمع « الأموى » الافريقى ، أى الذى يقـــدر المرأة كعضو عامل فى المجتمع ويحترم مشاعرها كانسان عاقل له حقوقه المساوية لحقوق الرجل بالرضا والاختيار ، استوحى مبادىء حقوق الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة من مصر القديمة ووادى النيل(٦٥) . ومن هناك انتشرت الى سودان النيل بين البجاه والزنج والحبشة ، والى شمال أفريقيا من حيث انتشرت الى الصحراوات الوسطى ، وصارت من ثوابت العادات والتقاليد فى الصحراء جنوبا ، وفى السودان الغربى الذى كان يزهو بنسائه(٦٦) . فرغم أن بلدة تسابيت ، على ٢٥٠ ميلا شرق سجلماسة كانت بمثابة منطقة انعزال صحراوية ، حيث يوصف أهلها بأنهم زنوج ، فان نسائهم يوصفهن بالجمال وان كن سمراوات(٦٧) . أما سجلماسة ، على خط التقسيم الحدى بين عالمى البيض والسود ، فقد كانت سوقا رائجة ، ومدرســـة متخصصة

= المستغرب . وانظر ص ١٨٧ — حيث الرعى والعناية بالقطيع ، يعلم الفتاة الدقة والحرص ، وحسن استغلال الوقت ، والتعرف على طبائع الحيوان والتعامل معه برموز الأصوات والاشارات التى يدركها ، كما كان للنساء خبرة فى عمليات تولـد النوق ، دون الرجال .

(٦٥) انظر جوتييه ، ماضى شمال افريقيا ، ص ٣٤ وما بعدها — حيث الأثر المصرى بشكل عام . وانظر الصحراء ، ص ١٤٥ وما بعدها .

(٦٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج ٢ ص ٧٧٧ ، وانظر شكل ٩ — حيث .. امراة بربرية سافرة تماما وبصحبتها خادمتها (اسيرتها) السودانية .

(٦٧) ليون الافريقى ، ص ٥٠٥ هـ ٧١ .



شكل رقم ١٢ ـ امرأة بربرية (مغربية) وبصحبتها خادمتها (أسيرتها)

لتدريب الجوارى من البيض والسود ، على مختلف أنواع الخدمات المنزلية من الأطعمة أو الترفيه(٦٧ م) •

أما فى السودان فكانت النساء فى بعض مواطن العراة يترددون عـلى الأسواق (الدولية) لا تستر الواحدة منهن الا عورتهـا بسيور من الجلد المضفور(٦٨) •

حرية المرأة فى النظام الأموى :

والظاهر أن النظام الأموى الذى كانت تعرفه كثير من قبائل الطوارق والذى يسمح بنوع من الحرية للمرأة البربرية ، كان سببا فى ظهور أدب قصصى موضوعه العاطفة بين الرجل والمرأة من انسانية رفيعة ، وشهوانية وضيعة • وهنا لا بأس أن يكون للنزاعات التاريخية بين العرب والبربر ، وما نتج عنها من اتجاهات شعوبية مناهضة لأحد الفريقين أو الآخر ، أثر فيما يظهر من تحريف لبعض هذا القصص الذى يقتضى أن يكون ذا أهداف نبيلة فى أصوله الأولى وان كانت النبالة والوضاعة نسبية ـ كما هو الحال بالنسبة للحقيقة •

وهنا يمكن الاشارة الى ما يقال من جريان عادة اكرام الضيفان بتقديم بعض نساء الأسرة لهم • وفى هذا الشأن يقدم لنا الادريسى رواية عن مدينة

(٦٧ م) أنظر البكرى ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ـ حيث كان يجلب من أودغست جوار حسـان الوجوه بيض الألوان ، مائسات القدود لا ينكسر لهن نهود ••• ، لطاف ضخام الأرداف •• ، المستمتع باحداهم كانه يستمتع ببـكر أبدا • هذا كما كان العدول من مشايخ فاس ، وجبل نفوسة ، ويروون الطرف عن مشاهداتهم فى جمال نسـاء أودغست ذوات الخصور اللطيفة والأرداف العظيمة ، الأمر الذى كان يسمح لولد الواحدة منهن الطفل بالدخول تحت خصرها والنفوذ من الجهة الأخرى ، وأنظر الاستبصار ، ص ٢١٥ ـ حيث كانت تجلب سـودانيات طباخات محسنات فى عمل أصناف الحلوات من الجوزينقات واللوزنجات والقـاهريات ، من الكنافات والقطائف ، يزيد ثمن الواحدة منهن على ١٠٠ (مئة) دينار وأكثر • وقارن الادريسى ص ٧٨ ـ عن السوس ـ حيث : نساء حاذقات فى الصناعات • أما عن نساء تادمكة ، شرق أودغست (الاستبصار ، ص ٢٢٤) فقد اشتهرن بأنهن فائقات الجمال حتى قيل انهن أجمل نساء العالم •

(٦٨) الاستبصار ، ص ٢٢١ ـ حيث الاشارة أيضا الى ان النساء كن يحلقن شعر الرأس ويطلقن شعر العانة • ومن النكت الطريقة فى هذا الشأن ما يروى من أن واحدة منهن عبرت لأحد التجار عن اعجابها بلحيته الكثة الطويلة حتى انها تمنت لو كانت ملثها فى عانتها ، الأمر الذى أثار حنق الرجل وغضبه ـ عندما ترجمت له مقالتها ـ حتى شنع فى سبها •

أزكى ، وهي جوجدم باللغة الجناوية (السودانية) ، والتى تعتبر سرة وطن قبائل مسوفة ولمطة ، وعقدة المواصلات الى مدن سلى وتكرور وغانة ، تقول على لسان من دخلها — دون التعريف به — « ان النساء اللاتى لا أزواج لهن عند (سن) الأربعين ، يتصدقن بأنفسهن على من أرادها »(٦٩) • واذا كان مثل هذا اللقاء يمكن أن يعتبر نوعا من زواج المتعة الذى عرفه الشيعة فى المغرب ، فان تلك الرواية عنـــدما تتحور بحيث تعنى : أن المرأة هى التى كانت تختار الرجل الجميل أو الشجاع وتستضيفه لكى تأخـــذ منه نسلا متميزا يمنع من ذلك(٧٠) ، وان كان من المقبول أن يكون الأمر متعلقا أصلا باستضافة بعض التجار العابرين من أجل البيع والشراء ، وهم فى الطريق الى السودان أو العودة منه •

والحقيقة ان ما يقوله الحسن الوزان عن نساء الملثمين يمكن أن يكون قرينة على اتجاهات شعوبية عند أصحاب تلك الروايات ، مناهضة للبربر • فوصف النساء المغرى من حيث أنهن بدينات ، ذوات أرداف (ثقيلة) وأثداء ناهدة ، وقوام دقيق(٧١) ، يتبعه القول أنهن لطيفات عند الحديث ، يمدن اليك أيديهن ، ويندفعون فى الملاطفة الى حد السماح بتقبيلهن دون التمادى فى ذلك ، فالرجال يقتلون لأسباب مثل هذه(٧٢) •

---

(٦٩) المغرب العربى ، تحقيق محمد صادق ، ص ٧٥ — ٧٦ •

(٧٠) أنظر الاستبصار ، ص ٢٢٣ — حيث الاشارة الى أن نساء تادمكة فائقات الجمال ، واتباع ذلك بالقول ان الزنا عندهم مباح ، وان النسوة هناك يتصارعن على الرجل الجميـــل أيتهن تحمله الى منزلها • وقارن هاينز ، طرابلس فى العصور القديمة ، ص ٢١ ، الهامش — عن عادة تعدد الزوجات بين بعض قبائل الصحراء قديما ، حيث الاشارة الى أن هيرودوت يقول أن قبائل النزامون كانت تمارسها بشكل دارج ، مع الاشارة الى ان المبالغة فى حرية المرأة قبل الزواج لدى هذه القبائل ربما كانت بسبب عدم معرفة اليونان والرومان لعادة تعدد الزوجات •

(٧١) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٦٩ ، هـ ١٤٢ — حيث الاشارة الى أن هذا الوصف خاص بالنساء عند القبائل الارستقراطية •

(٧٢) نفس المصدر والصفحة ، وهـ ١٤٣ — حيث النص على السماح للرجال بزيارة النساء والملاطفة الخفيفة ، اما الاتصال الجنسى فعقوبته تصل الى الاعدام • ومثل هذا معروف عند جماعات البدو الأخرى سواء فى صحراوات افريقيا أو آسيا • وعن عادة اللقاء بين الشبان والشابات عند الطوارق المعاصرين ، أنظر محمد سعيد القشاط ، التوارق ص ٨٩ — حيث اللقاء فى الأفراح والمرأة سافرة والرجل ملثم ، وص ٩٠ — حيث السمر فى الصحراء : من : ايقاد النار ، والاستماع الى الموسيقى والغناء ، وجلوس كل شاب الى جانب محبوبته (عشـيقته) فى عفة دونما شيء يجرح الطهر والحياء حتى الفجر ، ص ٩١ — حيث يتم الاتفاق على الزواج عندما =

هذا ، ولقد انتشرت عادة تحرر المرأة هذه ، من الشمال الى الجنوب السودانى حيث لاحظها ابن بطوطة فى رحلته الى مالى فى ايوالاتى (ولاتة) التى حلت محل أودغست ، حيث سمح لنفسه باستنكارها ، ولكنه قوبل برد مضيفه بأن المهم فى استقبال المرأة لصديق من الرجال هو العفة والسلوك القويم - عكس سلوك التستر الفاسد(٧٣) ٠

كتابة التيفيناغ(٧٣ م) :

وفى اطار النظام الأموى يمكن وضع لغة البدو الملثمين فى العصر الوسيط وخلفائهم الطوارق المعاصرين ، وخاصة خط تلك اللغة التى لم تعد مستعملة كتابة منذ الفتح الاسلامى الا بشكل عرضي ، وسط الخط العربى واللغة العربية ، وسيلتا التفاهم على المستوى الرسمي بشكل خاص ٠ ومن الواضح أنه على عكس ما قد يظنه البعض من أن اللغة العربية - بصفتها لغة القرآن والاسلام - هى التى وضعت حدا لاستخدام اللغة والكتابة البربرية ، فالصحيح أن البربرية كانت قد اضمحلت تماما فى أعقاب الحكم الرومانى لبلاد البربر ، كما كانت الكتابة قد ضاعت تماما(٧٤) ، على امتداد ألف سنة تقريبا ٠

فعند وصول العرب الى المغرب الأقصى (فى النصف الثانى من القرن الـ ٧ م) كانت الرطانة اللاتينية متغلغلة بين البربر حتى قلب الصحراء فى بلاد الجريد وامتداداتها بالجزائر ، وفى واحات المغرب الأقصى ٠ أما اللغة البربرية فكانت لاجئة فى مناطق الانعزال الجبلية والصحراوية ، كما فى جبل نفوسة وجزيرة جربة والقبائل (بالجزائر) ، وفى جبال مراكش (السوس الأقصى)(٧٥) ، حيث أن جبل « درن » يعنى « جبل الجبال »

= يتأكد الشاب من حب صاحبته له ، وكيف يتم ذلك ٠٠٠ ، وانظر احمد أبو زيد ، المجتمعات الصحراوية ، شمال سيناء ، ص ١٨٨ - حيث النص على ان المجتمع يسمح للمرأة (قبل الزواج) بالخروج للرعى (السرح) فى الجبال والاودية ، وان القانون العرفى ونسق القيم السائدة تعمل على الحفاظ على كرامة المرأة ، حيث اعتراض طريق الفتاة الراعية يعادل الاعتداء على العرض ، وص ٣٠١ - حيث النص على العقوبات المشددة بالنسبة للاعتداء على المرأة ، وان كانت لا تتجاوز الغرامات الشديدة على كل حال ٠

(٧٣) الرحلة ، تحقيق على الكتانى ، ج ٢ ص ٧٧٧ ٠

(٧٣ م) انظر ج ١ ص ١١٠ ٠

(٧٤) ليون الافريقى ، ص ٧٩ ٠

(٧٥) انظر ليون الافريقى ، ص ٨١ - حيث النص (فى القرن الـ ١٦ هـ) على أن =

(ما سبق ، ص ٦٩ ، هـ٣٤) وحيث « نول » أو « نون » على حافة الصحراء تعنى الابرة بالبربرية القديمة(٧٦) ٠

واللغة البربرية (الافريقية عند حسن الوزان) تسمى عادة « أوال أمازيغ » أى اللغة النبيلة ، من حيث هى لغة الفرسان ، وهى واحـــدة من مجموعة اللغات الحامية والافريقية ٠ واذا كان بينها وبين اللغه العربية شيء من التشابه ، فالرأى أن ذلك نتيجة الاحتكاك الحضـــارى ، وليس بسبب القرابة العائلية (اللغوية)(٧٧) ٠

والمهم من كل ذلك أن الفضل يرجع الى النساء فى الحفاظ على اللغـة البربرية فى مناطق الانعزال ، سواء فى الجبال منها او الصحراوات أو الجزر، حيث بقيت المرأة بعيدا عن مراكز العمران العربية ، وتاثيراتها الحضرية على المستويات الرسمية والشعبية ، لا تعرف الا لغتها الأم التى كان يتلقنهـــا الأطفال حتى سن الشباب (ج ١ ص ١١١) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لانتشار العروبة ، ليس فى المغرب البربرى فقط ، بل وفى المشرق الايرانى، حسبما نرى أيضا ٠ والأهم من ذلك هو أن المرأة البربرية احتفظت ببقايا الكتابة الافريقية ، ممثلة فى الرموز المســـتخدمة فى الوشـــم الذى كان يستخدم لأسباب طبية علاجية أو لأسباب أخرى مثل تلك النقوش المستخدمة فى ذلك النوع من الحناء السائلة (كالحبر الشينى البنى) ، التى عرفهـــا

= ضياع الكتابة الافريقية منذ ٩٠٠سنة ، واستعمال الحروف العربية بدلا منها ، وهـ١٩١ — حيث كان انتشار اللغة البربرية حتى جزر الكنارى (الخالدات) ، وفى أواسط الصحراء الكبرى ، وغربها ٠

(٧٦) ليون الافريقى ، الترجمة ، ص ٥٢٥ ، وهنا يمكن القول أن آخر مجموعة موحدة لغويا تتكلم البربرية هى الموجودة فى الصحراء ، وان لهجة أهل الصحراء هذه تنتسب من حيث التركيب اللغوى الى لهجة قرى جبال الأطلس الغربية ٠ أنظر لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ، ص ٦٦ ٠

(٧٧) أنظر ليون الافريقى ، ص ٤٧ — حيث الاشارة الى ان وجود بعض الكلمات العربية فى اللغة البربرية يعنى وجود قرابة بين اللغتين ، فكانهما من عائلة لغوية واحدة ، الأمر الذى نفسر على أساسه القرابة بين البربر والعرب الحميرين من اليمن ٠ وقارن محمد سعيد القشاط التوارق ، ص ٢٩ — حيث تسمى لغة الطوارق حاليا (تمشاك) وهى « التفيناغ » ، ص ٣١ — حيث النص على انها لغة الفينيقيين فهى سامية عربية أصلا ، مع الاشارة الى بعض النماذج ، مثـل : « أودم » = الوجـه ، « ايسـلان » = اسـالك عن حالك ، وص ٣٤ — حرف + (= ت) ، وهو يوسم على رقاب الابل ، لأنه أول حرف فى اسم « توارق » أو (تماشق) وانظر ج ١ ص ٩١٠ (عن البربرية) ، ص ٨٧ والهوامش عن القرابة بين البربر وعرب اليمن ٠

المصريون باسم « حنة الزرافة » ، والتى كانت تزين أيدى النساء وأرجلهن فى المناسبات الفرحية وخاصة زواق العروس « ليلة الحناء » ٠

والمعروف أن هذا اللون من زينة الحناء الذى كان منتشرا لدى عامة أهل الاسكندرية (باب المغرب) وربما لدى غيرهم ، كان مركبا من وحدات زخرفية صغيرة الحجم مما يشبه حروف الكتابات القديمة ، من : نبطيــة وثمودية وصفوية (أو ديموطيقية)(٧٧ م) ٠ ولهـذا يرى البعض أن ذلك الطراز من حروف زخرفة الحناء النسائية لدى الطوارق بصفة خاصة ، والذى يسمى « تيفيناغ » هو آخر تطور لأشكال الكتابة البربرية(٧٨) ٠

وهكذا يمكن القول أن الصحراء ، على مشارف القرن الخامس الهجرى

(٧٧ م) أنظر الاستبصار ، ص ٥٨ - ٥٩ وهـ ١ - حيث تخطيط للعلم المصرى القديم مع مقارنة بالحروف العربية ، حسبما تصورها مؤلف القرن ١٢ م المغربى ٠ وعن الأثر المصرى القديم فى الصحراء الافريقية الكبرى ٠ أنظر جوتييه ، الصحراء ، ص١٤٥ وما بعدها ٠ وعن ليلة الحنة فى مصر الحديثة ، أنظر ا ٠ و ٠ لين (Lane) ، عادات وتقاليد المصريين المحدثين (من مكتبة د٠ عبد المعز) (Manners and customs of the Modern Egyptians) ص ١٧٢ - وان عرف المؤلف بالحنة العادية فى شكل عجينة يابسة دون اشارة الى حنة الزرافة المماثلة ٠٠ أنظر شكل ١٣ - حيث كف امرأة (عروس) مزوقة بحنة الزرافة فى أشـــكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة - من كتاب : فاطمة برنيس Bernisse بعنوان : جنس ، فكر ، اسلام - مجموعة : المرأة والمجتمع ، ترجمة فرنسية عن الأمريكية - صورة الغلاف - من مكتبة احمد أبو زيد ٠

(٧٨) أنظر ج ٦ ، ص ١١٠ وما بعدها ، وقارن ليون الافريقى ، ص ٨٠ وهـ ٨٨ ، وص ٨١ ، وهـ ١٩١ - حيث النص على ان التفيناغ لدى الطوارق هى الكتابة اللسية البربرية فى شكلها الحديث أو أنها مشتقة منها على كل حال ، وقارن لارنود ، الجزائر ، بالفرنسية ، ص ٦٧ - حيث احتمال ان تكون كتابة التيفيناغ من أبجدية اللبيين ، وهى كتابة الطوارق ، وخاصة النساء ، اللاتى يمارسنها بتخطيط التلاميذ الصغار المبتدئين ، وهى ما زالت باقية ، على كل حال ٠ وأنظر شكل(١٣) نقش الحناء فى يد العروس فى المغرب ، صورة الغلاف لكتاب « فاطمة برنيس » (Fatma Bernisse) ، الجنس والفكر والاسلام (Sexe Ideologie Islam) باريس ١٩٨٣ ٠ هذا ، كما يمكن أن ترى بعض حروف تلك الكتابة ، من : الدائرة والمثلثات (دلتـا) والخطوط المتموجة فى اشكال دائرية أو مدببة او متقاطعة ، فى التطريز الزخرفى « للشال » أو « الطرحة » النسائية ، من عمل راحة سيوة ، كمـا يروى بعض أبنائها (أحمد السنوسى معرف) ٠

(١١ م) ، كانت مركز جذب للتقاليد المغربية القديمة وحفظ لها ، فى مقابل بلاد العمران الشمالية التى صارت مركز قلقلة وطرد ، نتيجة للصراع بين القبائل الصنهاجية والزناتية ، تحت رايات القوى المتنافسة من الفاطميين فى أفريقية والأمويين فى الأندلس ، الأمر الذى ازداد اشتعالا بقدوم الهلالية الى المغرب تحت تهديد الفـــاطميين وترغيبهم ، وذلك ما يقتضى التعريف بأحوال أهل الصحراء الملثمين الثقافية والدينية من حيث كونها المدخـــل الطبيعى لفهم أصول حركة الاحياء المرابطية .



شكل رقم ١٣ - كف امرأة (عروس) مزوق بحنة الزرافة فى أشكال هندسية متنوعة مع حروف كتابية واضحة

مقـــدمات الحركة المرابطية :

خريطة الصحراء الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) :

يتطلب رسم خريطة ثقافية لصحراء المغرب الـــكبرى قبيل ظهـــور المرابطين ، قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) أن نتعرف عـــلى المراكز العلمية المحيطة بالصحراء ، والتى كانت على صلة بهـــا عن طريق خطوط القوافل ما بين الشمال حيث حضارة المتوسط الاسلامية ، والجنوب حيث حضارة السودان الافريقية والمتطورة تحت التـــأثيرات الاســـلامية الوافدة ٠

وأول ما يلاحظ هو أن قبائل الصحراء فى ذلك الوقت ، ورغم دخولها فى الاسلام منذ فترة مبكرة ، فانها لم تكن تعرف من الاسلام الا واجهتـــه السطحية من حيث كونه دين التوحيد الالهى فى مقابل التعددية فى عبادة الأصنام أو الكواكب والنجوم مما كان يعرفه الصـــابئة أو عبـادة النـار المجوسية ، أو السحر والشعوذة مما يدخل فى عبادة الأرواح من خـــيرة وشريرة ، أو الطوطمية حيث عبادة الحيوان من داجن ووحشى ، مما يرجى خيره ويتقى شره ٠ وليس من المستغرب أن كانت مثل هذه الممارســـات موجودة ، وخاصة فى المناطق المنعزلة حيث كان لها أثر فى تحوير الفكر الاسلامى وتحريفه ، فى كثير من المناطق المنقطعة ، والتى كانت أرضا صالحة لانتشار المذاهب المعارضة لدولة الخلافة ـ ان لم نقل للسنة والجماعة ٠

ونظرة خاطفة على خريطة المغرب الدينية توضح أن الصحراء الكبرى كانت واقعة تحت ضغوط المذاهب الشيعية والخارجية بفرقها المختلفة ، منذ وقت مبكر ٠ فمذهب الزيدية (الشيعى المعتدل) بدأ ينتشر على حـــدود الصحراء بفضل جهود الأدارسة الذين بنوا مدينـــة تامدلت على مســـافة ٢٠٠ كم شرقى درعه ، فى قلب وطن الملثمين من بني ترجا (الطوارق)[١] ٠

---

(١) انظر اليعقوبى ، ص ٣٥٩ ـ حيث أسسها عبد الله بن ادريس العلوى ، فى موضع تحيط به مناجم الذهب والفضة ، وان أهل المنطقة هم بنو ترجا ٠ وتضيف الرواية ان الطريق الى بلد غشت (أودغست) فيه المنازل ، وفيه ملك لا دين له ، يغزو بلاد السودان وممالكهم ٠ وقارن البكرى ، ص ١٦٣ ـ حيث مناجم الفضة دون ذهب ٠

والظاهر أنه منذ هذا الوقت بدأ التشيع الفـاطمى الاسـماعيلى فى الانتشار فى سفوح جبال أطلس الصحراوية ، فى منطقة تازرارت ، حيث منجم الفضة القديم الذى كان يستغله الصنهاجيون من بنى ماغوس ، وبنى المـاس ، والذين كانوا قد اعتنقوا جميعا مذهب الاسماعيلية (الروافض) الفاطمى على أيدى بعض دعاة المذهب القادمين من نفطة (من بلاد الزاب) قبل دخول أبى عبد الله الشيعى أفريقية • هذا ولو أنه يفهم من الرواية أن الأدارسة كانوا قد نجحوا فى اكتساب هؤلاء الاسماعيلية الذين عرفوا باسم البجليين عندما نشروا بينهم فكرة أن الامامة تكون فى ولد الحسن ، وليس الحسين(٢) • هذا ولو أن التشيع الفاطمى لم يلبث أن كانت له الغلبة فى قلب صحراء المغرب الأقصى حيث تمت الهيمنة على مدينة سجلماسة التى صارت جزءا من المملكة العبيـدية(٣) • وبفضل دعاة التشيع الاسـماعيلى الفاطمى ، المبنى على امامة الحسين ، الامام المستقر ، عرف ذلك المذهب فى قبيلة مراسة الصنهاجية ، القاطنة فى مدينة بوغرات ، جنوبا بالسودان(٤) • كما كان سكان مدينة تيويوين فى بلاد السوس شيعة جعفرية (اثنا عشرين)، مقابل أهل تارودانت المـالكية الحشوية(٥) •

والى جانب الشيعة كان الخوارج الصفرية قد سـيطروا على حـدود الصحراء فى سجلماسة وتمكنت الأسرة المدرارية من التشبث بها رغم الفتح الفاطمى(٦) • واذا كان التأثير الخارجى غير واضح بين قبـائل صنهاجية الصحراء ، فان تجار تاهرت الاباضية كان لهم نجاحهم فى نشر الاسلام فى السودان (ج ٢ ، ص ٤٠٦ وهـ ٣٩٢) • ومن بين الاباضـية من تجـار أودغست ، أهم مركز تجارى جنوب الصـحراء فى القرن الرابع الهجرى (١٠ م) ، أبو رستم النفوسى الذى تروى له بعض مشاهداته الطريفة فى بلاد السودان(٧) •

والى جانب خصوصيات مذاهب المعارضة الشيعية والخارجيـة ، كان

---

(٢) البكرى ، ص ١٦١ •

(٣) انظر ج ٣ ص ٩١ ، ٢١٧ ، ٣٤٣ •

(٤) الاستبصار ، ص ٢٢٤ ـ حيث كان تفسير الدعاة لصوت طائر هناك ، بأنه يعبر عن النداء بمقتل الحسين فى كربلاء •

(٥) الادريسى ، ص ٧٨ ـ ٧٩ •

(٦) ج ٣ ، ص ٢٣٧ ـ حيث تحولت الامارة فى سجلماسة الى خلافة •

(٧) البكرى ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ـ عن محاسن نسـاء أودغست •

للصحراء خصائصها المميزة مما يتمثل فى التنظيمات الاجتماعية والأنساق العرفية والعادات والتقاليد ، اضافة الى ما سبقت الاشارة اليه من نظـــام الأسرة الأموى ، وما كان للمرأة من الحرية عند بربر الصحراء (ما سبق ، ص ١٢٥) ، وما كان دارجا من اجراءات التحقيق مـــع المتهمين فى جرائم السرقة وغيرها ، مما يشبه نظام المبـــاهلة أى الحـكم الالهى (الأوردالى : (Ordalie ، ممـــا نراه من عادات الصـحراويين عنـــد البكرى(٧ م) ٠ فالادريسى (منتصف القرن الـ ٦ هـ/١٢ م) ، يصف أهل السوس – دون تفرقة بين السنة والشيعة – بأنهم أرق الناس عيشا ، وانهم يشربون نوعا من النبيذ الحلو المذاق ، المعد من عصـــير العنب المطبـوخ ، والذى يعرف بالأنزاز ، ويسكر سكرا عظيما ٠ وفى أواخر ذلك القرن كان أهل السوس متخصصين فى عمل أنواع من النبيذ المستخلص من عسل بلدهم الفـــاخر الذى كان يتطلب شرابه التخفيف بالمـاء بنسبة ١٦ (ستة عشر) مثـلا ، ليخرج بديع اللون الأخضر الذى يشبه الزمرد(٨) ٠ ومن الواضح أن شرب هذا النبيذ كان مباحا على أساس ما كان معروفا من تحليـــل شراب بعض أنواع النبيذ(٩) ، على مذهب أهل العراق ، عـــلى ما نظن ٠ والذى يلفت النظر أن مثل هذا النبيذ لم يكن منتشرا فى القرن الـ ١٦ م/١٠ هـ فقط ، حسب رواية الحسن الوزان ، فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد السكر وحدها، بل وفى غيرها من قرى جبال درن(١٠) ٠ والمهم هنا الاشارة الى أن ما كان يمارس على تخوم الصحراء من اختراقات للشريعة فى مجـــالات الطعـــام والشراب ، لم يعرف مثله فى الصحراء الفقيرة ، التى ربما كانت فى حاجة الى الملح أكثر من احتياجهـــا الى المواد السكرية ، وما يستخرج منهـا من الأغذية الكمالية ٠

أما آفة الصحراء والبدو عامة وفى كل مكان ، فهـو الفقر الذى كان يؤدى الى اختراق شرائع الأحوال المدنية ، وخاصة عند القيام بأعمال السلب والنهب والقتل ، واختطاف الذرارى والنساء ، وخاصة على حدود السودان

(٧ م) انظر البكرى ، ص ١٧٠ – حيث النص على أنه من سير أهل الصحراء لمتهم أن يعمدوا الى عود فيشق بأثنتين ويشد على صدغيه فى متدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك ان يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته ٠

(٨) الاستبصار ، ص ٢١٢ ٠

(٩) الادريسى ، ص ٧٩ ٠

(١٠) ليون الافريقى ، ص ٣٢٦ فى فاس ومملكتها ، ص ٣٣٢ فى جبال القبائل المختلفة (حيث الكرم والعسل) ٠

- مورد العبيد - : الذهب الأسود فى تلك العصور • وهكذا كانت قبائل لمطة وجزولة ، أشهر قبائل الملثمين (الطوارق) فى مطلع القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، تغير على قوافل التجار الوافدة على السودان والخارجة منه ، وذلك فى منطقة عقدة المواصلات ، ومحطة المياه ، على مسافة ٥ (خمسة) أيام (حوالى ٢٠٠ كم) شمال أودغست(١١) • ولا ندرى ان كان نتاج مثل أعمال السلب هذه هى التى كانت تميز سوق منطقة جزولة فى القرن الـ ١٦ م والتى كانت تستمر حسب رواية الحسن الوزان لمدة شهرين ، وان كانت المنطقة غنية وقتئذ بمناجم النحاس التى كانت تصنع منه أوعية بديعة تصدر الى مختلف الأنحاء لمقايضتها بالأقمشة والتوابل والخيول ، رغم وصفه السكان بأنهم أجلاف لا يعرفون العملة(١٢) • وهكذا يلخص الحسن الوزان أحوال الملثمين المعيشية على أيامه (القرن ١٦ م) بأنها حياة صيد وسرقة ابل أعدائهم ، وأنهم قوم لا يخضعون للنظام - رغم طاعتهم لأميرهم واحترامه ، كما يأخذ عليهم الجهل فى الآداب والفنون والمعارف(١٣)• وبينما ينصرف الزنوج الى حب المتعة والمرح والرقص ، يستنكر الوزان عيوب الأفارقة (البربر) ، من : الفقر وسرعة الغضب والتعارك ، الى عدم العفة والديوثية ، حتى ينتهى قائلا : « أشعر بالحياء لأن أفريقيا كانت موطنى »(١٤) - ولا ندرى ان كانت مثل هذه المشاعر تراود زوار أوروبا والعالم الغربى من الأفارقة بعامة ، بيضا كانوا أم سودا •

حقيقة أن بعض رواد الاصلاح الأوائل من زعماء الملثمين ، مثل يحيى ابن ابراهيم الجدالى قد نص على أن قومه كانوا يعانون من الجهل ، ولا يعرفون قراءة القرآن ولا تعاليم الاسلام الأولية التى يدعو اليها القرآن والسنة(١٥) ، ولكنه من الواضح أيضا أن الصحراء لم تكن خلوا من الحياة الروحية والثقافية ، بفضل مراكز التجارة والحضارة التى كانت بطبيعة الأحوال مراكز العلم والدين ، وخاصة سجلماسة وأودغست بالنسبة للسودان الغربى ، وتادمكه بالنسبة للسودان الأوسط ، فى مقابل مركزى الاشعاع الرئيسيين فى فاس والقيروان •

---

(١١) البكرى ، ص ١٥٧ - حيث النص : وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان ، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ، ويتخذونه رصدا لهم •

(١٢) ليون الافريقى ، ص ١٥٥ •

(١٣) ليون الافريقى ، ترجمة : حميدة ، ص ٦٧ •

(١٤) ليون الافريقى ، ص ٩٧ - ٩٩ •

(١٥) القرطاس ، ص ١٢٢ - ١٣٢ وما يأتى ص ١٧١ •

فسجلماسة التي زارها ابن حوقل في سنة ٣٤٠ هـ/٩٥١ م ، كانت أكثر بلاد المغرب مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم(١٦) . واودغست التي يعرفها اليعقوبي (في أواخر القرن ٣ هـ/٩ م) باسم « غشط » ، كانت في حوزة ملك ملحد (لا دين له) يحارب ملوك السودان(١٧) ، الأمر الذي انتهى بغلبة ملك غانة عليها . والمعروف أن الزناتية والعرب كانوا يكونون الكتلة الكبيرة من سكان أودغست في مطلع القرن الخامس الهجري (١١ م) ، وأنهم كانوا مياسير يعملون في مرافق التجارة ، ولهم من العاملين في تلك النشاطات الألف رجل أو أكثر ، من الخدم المتمرسين والعبيد الحمالين(١٨) . ولا بأس أن يكون ما يشير اليه البكري من التباغض والتدابر بين الفريقين يعني التنافس بينهما في الأعمال التجارية ، ومحاولة استئثار كل جماعة منهما بالنصيب الأعظم منها .

وهكذا لا نجد لأودغست نشاطا في ميدان العلوم والفنون ، حتى بعد أن دخلت في طاعة المرابطين . فصاحب الاستبصار (في أواخر القرن الـ ٦ هـ/١٢ م) يصف أهل أودغست بأنهم أخلاط من الناس من جميع الأمصار ، يسكنون المنازل الرفيعة(١٩) ، دون اشارة الى أي نشاط ثقافي أو علمي بينهم ، مما يعني انشغالهم بأمور التجارة وخدماتها . ومثل هذا يقال عن تادمكة ، شرقي الصحراء على سمت غدامس ، رغم ما يقال من أن اسمها يعني « شبيهة مكة » ، وأن أهلها مسلمون ، الا أنهم مشغولون أبدا بأمور التجارة وخدمات التجار(٢٠) .

وهكذا لم تكن تسمح طبيعة الحياة الصحراوية البسيطة ، حيث الاشتغال بالرعي أو التنقل على طول طرق التجارة أو حتى الاقامة في مراكزها الكبيرة في حركتها الدائبة ، من الاشتغال بالعلم والثقافة . وهم لذلك لم يعرفوا النشاط الفكري وحياة التأمل الديني الا في مراكز المغرب الكبرى ، وخاصة في فاس والقيروان ، عاصمتي المغرب وأفريقية .

---

(١٦) ابن حوقل ط بيروت (الحياة) ، ص ٩٦ ، وانظر الحبيب الجيحاني ، المغرب : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ص ٧٥ ، وقارن ليون الافريقي ، ص ٥٠٤ - حيث كان أهل فيقبق (على بعد ٢٥٠ ك . م شرق سجلماسة) يتصرف بعضهم بالتجارة في السودان ، وغيرهم يذهب الى فاس للدراسة ليكون اماما او خطيبا .

(١٧) اليعقوبي ، ص ٣٥٩ .

(١٨) البكري ، ص ١٦٨ .

(١٩) الاستبصار ، ص ٢١٥ .

(٢٠) البكري ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

فاس والقيروان وحركة الاشعاع الاسلامى في مطلع القرن الـ ٥ هـ/١١ م :

تمهيـــد :

والحقيقة أن النظرة الفاحصة فى سير علماء الدين والثقافة فى الفترة ما بين أواخر القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ومنتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، تبين أن كلا من فاس والقـــيروان ، كانت وقتئذ مركزا علميـــا مرموقا ، رغم الاضطرابات السياسية التى عمت بلاد المغرب كنتيجة حتمية لسقوط كل من دولتى الأمويين والفاطميين فى الأندلس والمغرب ، وقيام نظام حكومات المدن المتفرقة والعشائر ، المعروف بنظام الطوائف . ويرجـع الفضـل فى ذلك الى كل من جامـع عقبة العتيق بالقيروان ، وجامـع القرويين العريق بفاس ، اذ كان كل منهما بمثابة جامعة أو معهد علمى عال فى أيامنا هذه ، وذلك بفضل نظام القراءة والسماع والكتابة ، والأخذ عن المشايخ . وبفضل نظام الاجازة (العلمية) التى تشبه الشهادات الجامعية الحالية ، ممـا كان يعطى شفاهة بشكل مباشر فى أول الأمر ، ثم صار يعطى كتابة عن طريق المراسلة ، لبعض من لم تتيسر لهم الرحلة لطلب العلم أيضا . ولا بأس أن يكون لنظام الاجازة صلة بنظام المدارس الذى كان قـــد ظهر حينئذ فى المشرق الايرانى ، مركز العلوم والثقـافة الذى كان يرفد مراكز العلم فى الشام ومصر والمغرب والأندلس ـ فضلا عن الحجاز ، وخاصـــة فى موسم الحج .

وبناء على الموقع الجغرافى يكون الوضع العلمى فى تلك البلاد متناسبا طرديا أو عكسيا حسب القرب أو البعد من مركز المدارس الذى انتقل الى بغداد السلجوقية مع بناء النظامية فى أواخر هذا القرن (الـ ٥ هـ/١١ م). وبذلك تصبح بغداد بحر العلم الذى يفيض على ما حوله ، من أهل الشـــام والحجاز ، ومصر ثم المغرب والأندلس . والمهم فى حالة الأندلس أن علماءها لم يكونوا ينتظرون وصول التأثيرات العلمية المشرقية الى بلادهم ، بل كانوا يبادرون بالمسير الى مراكزها المشرقية على طريق الحج ، مرورا بالقيروان ، ومصر (الفسطاط والقاهرة) التى كثيرا ما كانوا يحطون الرحال فيها للأخذ والعطاء ، سواء فى طريق الذهاب أو طريق العودة . وهنا تقدم سير رجال الأندلس ـ الى جانب رجال القيروان ـ معلومات ثمينة عن الأحوال العلمية أو الثقافية الدينية ، مما سيكون له أثره الحاسم على قيام حركة التجديد فى

صحراوات أفريقيا الشمالية ، وتوابعها ، على أيدى أهل الصحراء أنفسهم من المرابطين الملثمين ٠

والمهم هنا أن انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر سمح للقيروان وعلمائها من أهل السنة وخاصة المالكية ، بتنفس الصعداء على عهد الامارة الزيرية التى كان يهمها التقرب الى أهل البلاد ، ولو بشىء من الستر أو الخفاء عن أعين عملاء الخلافة فى البلاد ٠ وهكذا كانت القيروان أول محطة رئيسية ينزلها علماء الأندلس الرحالة فى سبيل تحصيل العلم وأداء فريضة الحج ، فكانوا يأخذون من مشايخها فى طريق الذهاب ، ويقدمون لهم ما يحصلون عليه من العلم ، سواء فى مصر (الفسطاط) التى ظلت منارة لعلوم أهل السنة ، ومقصدا لطلاب المغرب والأندلس طوال العصر الفاطمى ، نتيجة للسياسة المعتدلة التى سار عليها الأئمة الخلفاء ووزرائهم فى القاهرة ، والتى جعلت من التشييع الاسماعيلى مطلبا خاصا لأهل الدولة ، ومن يدور فى فلكهم ، دون غيرهم ٠ أما عن مكة ، نهاية المطاف بالنسبة لحجاج المشرق والمغرب ، فكانت مجمع علماء الاسلام جميعا ، من أهل السنة الظاهرين ، أو من أصحاب المذاهب المعارضة المستترين ممن كانوا ينتهزون فرصة الموسم لنشر أفكارهم ، والتعرف على أحوال اخوانهم — خاصة وأن بغداد كانت وقتئذ ، تحت سيطرة البويهيين الشيعة الزيدية ٠ وبطبيعة الحال كان الغالب على مكة هم علماء المشرق الوافدين من العراق وطبرستان وفارس وخراسان ، ممن كانوا يحملون ألقاب مدنهم أو أقاليمهم ، أو مذاهبهم السنية فى بعض الأحيان ٠

ولا شك أن تعرض المشرق الايرانى لقلقلة هجرات القبائل التركية المتواترة ، من : الأوجور والخطا والفراخانية والغز ، مع ما صاحب ذلك من عملية احياء اللغة الفارسية — اعتبارا من القرن الـ ٤ هـ/١٠ م — كانت من الأسباب التى أدت الى توجيه هجرة كثير من علماء خراسان وفارس الى العراق والشام والحجاز ومصر ، الأمر الذى انتهى بتميز المدرسة المصرية من حيث اشتمال مناهجها على مقررات من العلوم العقلية الى جانب الدروس النقلية التقليدية ، مقارنة بعلوم المدرسة المغربية الأندلسية ، المحافظة أصلا ٠ ولما كانت رحلة العلم المغربية تنتهى عادة فى مكة ، وفى موسم الحج خاصة ، كانت المدرسة الحجازية فى الحرمين الشريفين هى الرافد الأول لعلماء المغرب والأندلس ، قبل المدرسة المصرية ، فى تلك الفترة السابقة على قيام المرابطين فى المغرب ، اعتبارا من أواخر القرن الرابع الهجرى (١٠ م) حتى قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى (١١ م) ٠

المدرسة المكية :

وتتمثل المدرسة المكية كما نرى ، فى جمهرة علمائها وفيما يقدمونه من مقررات دراسية ومناهج أو أساليب فى طرق التعليم • فمن قدامى الأساتذة بالنسبة لطلبة الأندلس والمغرب وعلمائها ، فى الفترة مجال البحث ، الآجرى (أبو بكر) الذى يرد ذكره فى الرحلة العلمية التى قام بها (سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٨ م) الأبادى (القرطبى) حيث قرأ عليه المدونة والمستخرجة (من الموطأ) وغيرها(٢١) • كما لقيه الدجاج (القرطبى) الذى كان معتنيا بعلم الحديث — وان كان فى نفس الوقت متهما باتجاهاته الكلامية وميوله العقلانيه نحو مذهب محمد بن مسره(٢٢) • واثر ذلك أتى الدينورى (أبو اسحق) والبلخى (أبو عبد الله) والصيدلانى (أبو يعقوب يوسف بن أحمد) ، الذين لقيهم ابن الحذاء (القرطبى) فى رحلة حجه سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢ م ، وكان محدثا يغلب عليه علم الأثر ، وله كتاب التعريف فى ذكر ما فى موطا مالك بن أنس من الرجال والنساء(٢٣) • ولقد سمع من الصيدلانى بعد ذلك ، ابن ميمون الطليطلى سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م(٢٤) • ويضاف الى هذه الطبقة : النيسابورى (أبو أحمد الحسن بن على) والجرجانى (أبو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم) ، ولهما ذكر فى رحلة سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م التى لقيهما فيها القناعزى (القرطبى) الذى جمع الى تعمقه فى علم الحديث والخبرة بالمذهب المالكى حتى أنه جمع تفسيرا للموطأ حشد فيه ما نقله من موطأ يحيى بن يحيى وموطأ يحيى بن بكير ، الاجتهاد بالقرآن والمعرفة بالمستنبط من الرأى ، وفى هذا المجال اختصر تفسير القرآن لابن سلام(٢٥) •

---

(٢١) الأبادى هو أبو محمد مسلمة بن محمد ابن مسلمة — توفى فى ذى الحجة ٣٩١هـ/ ديسمبر ١٠٠٠م ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٧ ، ترجمة رقم ١٤٢٢ •

(٢٢) الدجاج هو أبو القاسم رشيد بن محمد — ت فى آخر رجب ٣٧٦ هـ / ٥ نوفمبر ٩٨٦ ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ص ١٢٦ ، ترجمة رقم ٤٣٧ •

(٢٣) والحذاء هو : أبو عبد الله محمد بن على بن أحمد التميمى — ت ٤١٦ هـ/١٠٢٥ م ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٨٧ ، ترجمة رقم ١٦٧٨ •

(٢٤) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم الترجمة ٣٥ ، ص ٢١ ، وانظر فيما يأتى ، ص ١٤٥ •

(٢٥) والقناعزى هو : أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان ابن عبد الرحمن الأنصارى — مولده فى ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م ووفاته فى رجب ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م • أنظر ابن بشكوال الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ ، ص ٣١٦ •

أما عن طبقة الجيل التالى ـ بالنسبة لفترتنا ـ من المكيين فيتمثل فى العجيفى (أبو الطاهر محمد بن جبريل) الذى يرد ذكره فى أكثر من رحلة من رحلات الأندلسيين العلمية ، كما فى سنوات ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلى[٢٦] ،وابن قرلمان الطلمنكى الذى انصرف الى قرطبة بعلم كثير ، جمع فيه ما بين علوم القرآن والحديث ومذاهب السنة ، وأصول الديانات[٢٧] ٠ كما سمع منه ابن ذنين الصدفى (الطليطلى) ، وكانت له رحلة سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، وكان الغالب عليه رواية الحديث وكتابته ، وقراءة الآثار والعمل بها ، كما التزم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقوم بذلك بنفسه ولا تأخذه فى الله لومة لائم ـ وله كتاب الأمر بالمعروف[٢٨] ، وأبو المطرف الصدفى (الطليطلى) الذى كانت له عناية كاملة بالحديث[٢٩] ٠

وابن جهضم (أبو الحسن) واحد من أعلام هذا الجيل من المكيين ، فله ذكر فى العديد من رحلات العلم ، فى سنوات ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م ، ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، ٤٠٠ هـ/١٠١٠م، و ٤٠٧ هـ/١٠١٧ م ، حيث سمع منه ابن ميمون (ما سبق ، ص ١٤١) ، وابن جهور (سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) أبو عمرو أحمد بن محمد (المرشانى

---

(٢٦) وابن ميمون ، هو : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموى ـ ولد ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م وتوفى فى ٢٢ شعبان ٤٠٠ هـ / ١٨ ابريل ١٠١٠ م ، تعلم بقرطبة ورحل الى المشرق سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ مبصحبة ابن شنظير ، وسمع بمكة والمدينة ومدين وأيلة والقلزم ومصر وطرابلس والقيروان والمسيلة وتنس ، واستوطن طليطلة ـ والتزم الرباط بالفهميين ٠ وكان فاضلا وربما يأخذ نفسه مأخذ الأبدال ، وتنسب اليه كرامة عدم احتراق مكتبته عندما احترقت داره وهو فى الرباط ـ ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ ، ص ٢١ ـ ٢٣ ٠

(٢٧) ابن بشكوال ، ترجمة رقم ٩٠ ، ص ٨ ـ ٢٤٧ ـ حيث ابن قرلمان ، هو : أحمد بن محمد المعافرى مولده بطلمنكة ٣٤٠ هـ / ٩٥٠ م وسكنه بقرطبة ، ووفاته بطلمنكة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ـ أحد الأئمة فى علم القرآن : قراآته واعرابه وأحكامه وناسخة ومنسوخة ومعانيه ، كما شملت عنايته بالحديث : نقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله وحملته ٠ وكان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع ، غيورا على الشريعة ، شديدا فى ذات الله تعالى ٠ أقرأ الناس محتسبا وأسمعهم الحديث ثم خرج الى الثغر فتجول وانتفع الناس بعلمه ٠

(٢٨) وابن ذنين هو : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد ـ وتوفى فى ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م ، ابن بشكوال ، الصلة ترجمة رقم ٥٨١ ، ص ٢٥٩ ٠

(٢٩) وهو عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد ـ ولد ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م ـ وتوفى فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ / مايو ١٠١٣ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ ، ص ٣٠٧ ٠

— القرطبى — ت ٤٣٠ هـ/١٠٣٩ م)(٣٠) الذى رحـــل الى المشرق وحـج سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، وجاور أعواما • وروى عنه أبو القاسم بن الفرج ابن فارس (القرطبى — ت ٣٩٧ هـ/١٠٠٧ م أو ٤٠٠ هـ/١٠١٠ م) • كما أخذ عنه(٣١) •

ومن أشهر من أخذ عن ابن جهضم : القضاعى (أبو محمد عبد الله ابن بكير بن قاسم : الطليطلى ، ت ٤٣١/١٠٣٨ م) وذلك فى رحلته سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٧ م(٣٢) ، وابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الآزدى : القرطبى — ت ٤٠٣ هـ/١٠١٣ م) ، صاحب ابن بشكوال ونظيره فى الأخذ معه عن أكثر الشيوخ ، مؤلف تأريخ علماء الأندلس ، الذى توجه الى المشرق فى طلب علم الحديث(٣٣) ، والشنتجيالى (أبو محمد عبد الله ابن سعيد بن لهاج الأموى — ت ٤٣٦ هـ/١٠٤٤ م) الذى جاور طويلا بمكة ابتداء من سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، ولمدة ٤٠ سنة ، سمع فيها من المشايخ واهتم بكتابة الحديث(٣٤) •

وثالث المعاصرين من هذا الجيل من كبار علماء مكة ، هو السقطى ، وله ذكر فى رحلات ١٩٩١/٣٨٠ م ، ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م حيث سمع منه ابن ميمون الطليطلى (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو بصحبة نظيره فى الجمع والآثار : ابن شنظير (ص ١٤٢ هـ ٢٦) ، ولقيه ابن الميراثى البلوى ت ٤٣٨ هـ/١٠٣٦ م(٣٥) ، وابن افرانك (ت ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)(٣٦) ،

---

(٣٠) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٩٥ ، ص ٥٠ ، حيث اخذ ايضا عن السقطى ، كما اخذ عن ابى سعد الواعظ كتاب « شرف المصطفى » من تأليفه •

(٣١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٢٤٩ / ص ١١٢ — حيث النص (عن ابن بشكوال) على ان أبا القاسم أصبح كان حافظا للفقه ورأى مالك ، وانه روى العلم (الحديث) عن ابن جهضم ، وأخذ عنه ، كما كان مناضلا ضد قطاع الطرق على قوافل الحج •

(٣٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٨٦ / ص ٢٦٣ •

(٣٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٧ / ص ٢٤٨ •

(٣٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٩٣ / ص ٢٦٧ •

(٣٥) وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى (القرطبى — ولد ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م وتوفى فى ٤٢٨ هـ /١٠٣٦ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧ / ص ٤٦ •

(٣٦) وهو أبو العاصى حكم بن محمد بن حكم الجذامى (القرطبى) ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥١ — حيث النص على انه روى عن جماعة من كبار المحدثين ، كما كان صليبا فى السنة ، متشددا على أهل البدع ، ورعا ، منقبضا عن السلطان ، يتعيش من بضعة حل بيده ، يضارب له بها بعض ثقات اخوانه •

وابن جهور المرشانى ت ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م (ص ١٤٢) ، وابن ذنين الصدفى (ت ٤٢٤ هـ/١٠٣٣ م) فى رحلته سنة ٣٨١ هـ/٩٩٠ م (ص ١٤٢) ، كما سمع منه الشنتجيالى فى رحلته سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م (ص أدناه) ، ويأتى بعد ذلك العبقسى (أبو الحسن أحمد بن فراس) الذى سمع منه كل من الشنتجيالى أيضـــا ، فى رحلته ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، وابن الصـيرفى (المقرى) ، المحدث فى رحلته (فى مطلع القرن الـ ٥ هـ/١١ م)[٣٧] ، ثم ابن الدخيل (أبو يعقوب يوسف) ، وله ذكر في رحلات سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م ، حيث لقيه ابن افرانك (ص أدناه) وابن الفرضى (ص ١٤٧) ٠

ثم أبو الفضل الهروى (أحمد بن أبي عمران) الذى لقيه في ســـنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م كل من ابن افرانك ، وابن بنوش (القرطبي) المعروف بأنه عدل من أهل العلم والحديث[٣٨] ٠

وأبو ذر الهروى (عبد بن أحمد بن محمـد ت ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م) ، الذى لقيه سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م ، ابن بكر الأنصارى[٣٨ م] سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، والشنتجيالى ، وفى رحلة سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٧ م القضاعى أيضا (ص ١٤٩) ، كما أخذ عنه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن طاهر المرسى (ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م)[٣٩] ٠ أما أهم تلاميـــذ أبي ذي الهـــروى من الأندلسيين فهو أبو عمرو الصدفى[٤٠] ٠

---

(٣٧) وابن الصيرفى ، هو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموى (القرطبى) ، مولده ٣٧١ هـ / ٩٨١ م — توفى فى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٨٧٣ / ص ٣٩٨ ٠

(٣٨) وابن بنوش ، هو : أبو محمد عبد الله بن ربيع التميمى ، مولده ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م وتوفى فى ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٧٦ / ص ٧ — ٢٥٦ ٠

(٣٨ م) هو أبو محمد عبد الله بن الوليد ابن سعبد ، الذى استوطن مصر ، وتوفى بالشام سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م — ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٦٠٩ / ٢٧١ ٠

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٧٢١ / ص ٣٣٢ — حيث النص على أن مولده كان فى ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، فكان رحلته التى أخذ فيها أيضا عن كريمة المروزية بمكة تمت فى العقد الرابع من القرن الخامس الهجرى (١١ م) ٠

(٤٠) عثمان بن أبى بكر من حمود — توفى فى ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، أنظر ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٨٧٦ ص ٤٠٠ — وحيث النص على انه مات وهو فى طريقه الى القسطنطينية سفيرا عن الصنهاجى صاحب القيروان ٠ اما عن أهم أعمال أبي عمرو الصدفى =

وبعد عالمى هرات يأتى الجيلى (أبو القاسم سليمان المالكى : نسبة الى مقاطعة جيلان) ، وله ذكر فى رحلة سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، حيث لقيه ابن سعيد (ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ/١٧ يناير ١٠٣٧ م)(٤١) • والرازى (أبو العباس أحمد بن بندار) الذى لقيه ابن عبد المولى الأنصارى (الطليطلى) فى رحلته المشرقية(٤٢) •

المدينـــة :

أما عن علماء المدينة المنورة فيذكـــر منهـم جعفر بن الحسن (قاضى المدينة) الذى روى عنــه ابن الحداد (الطليطلى ســنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م — ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م) ، وأبو الحسين يحيى بن محمد الحسينى الحنفى ، وأبوعلى الحسن المفرى ثم أبو محمد الزبيدى ، ولهم ذكر فى رحلة ابن ميمون الذى سمع منهم سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م (ما سبق ، ص ١٤١) •

المدرسة المصرية :

وأهم سمات المدرسة المصرية انها كانت تمثل حلقة الوصل بين مراكز الثقافة الاسلامية فى ايران والعراق والحجاز وبين المراكز العربية فى المغرب والأندلس ، الأمر الذى يعنى رفادة الفكر التقليدى الذى نشأ فى دار الهجرة النبوية ممثلا فى علوم الحديث والذى انتقل عبر مصر الى المغرب والأندلس ، بالفكر العقلانى المتجدد ، والمتمثل فى الاجتهادات الفقهية وأصول استنباط الأحكام ، الأمر الذى جعل من مصر محطة تشد علماء المغرب والأندلس الذين كثيرا ما استقروا بها ليس للدراسة فقط ، بل وللتدريس أيضا — الأمر الذى يعنى نوعـــا من الربط بين الثقـــافة المصرية ونظيراتهـا المغربيـــة والأندلسية •

وأشهر علماء مصر فى تلك الفترة هو ابن رشيق (أبو الحسن) الذى

= العلمية فهو ما قام به بأصبهان من كتابة ١٠٠ر٠٠٠ (مائة الف) حديث ، أخذها عن أبى نعيم الحافظ ، الى جانب ما أخذه عن غيره من علماء المشرق كالفسوى والصابونى والكازرونى وكريمة بنت احمد السرخسية •

(٤١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٤٩٣ / ص ٢١٨ •

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن المفرج الذى استقر بمصر ، يدرس صحيح مسلم ، وكتاب الشريعة للآجرى ، وله شعر فى اعتزازه بكتبه التى كان يعز عليه حبسها عند مستعيرها — توفى بالقسطاط بالمارستان ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، اثر خبل ألم به فى آخر عمره ، أنظر ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ١١٥ ، ترجمة رقم ١٧٥٧ •

أخذ عن ٧٠٠ (سبعمائة) محدث ، والذى حمل لقب العدل الى جانب المصرى وتتلمذ عليه عدد كبير من طلاب الأندلس ، خلال ما يقرب من نصف قرن ، ما بين ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م ، ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م ، ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م ، ٣٩٥ هـ/١٠٥٥ م . وأول هؤلاء هو ابن فرتون (أحمد بن خلف المديونى - ت ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م) الذى روى عنه(٤٣) ثم أبو القاسم بن الأموى (القرطبى - ت ٣٩٦ هـ/١٠٠٦) فى رحلته سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م حيث أخذ عنه(٤٤) . ومن أشهرهم القنازعى الذى حصل على اجازته له ، فى رحلته سنة ٣٧٠ هـ/٩٨١ م(٤٥) . وممن كتب عن ابن رشيق فى سنة ٣٧٠ هـ/١٩٨٠ م ، ابن سعيد الخير (الوشقى - ت فى رمضان ٤٢١ هـ/ سبتمبر ١٠٣٠ م)(٤٦) ، وابن الخراز (الهمذانى - ولد ٣٣٨ هـ/٩٤٩ م - ت ٤١١ هـ/١٠٢٠ م) فى رحلته التى روى فيها عنه(٤٧) أبو القاسم الأنصارى (ت فى ذى الحجة ٤٠٦ هـ/نوفمبر ١٠٦٤ م) الذى سمع منه وحصل على اجازته له(٤٨) ، وابن خيرون (أبو محمد عبد الله بن سعيد - القرطبى ، ت ربيع الثانى ٤٠٣ هـ/أكتوبر ١٠١٢ م) الذى حصل على اجازة ابن رشيق ، وكان يحدث بالمدونة(٤٩) .

ويدخل فى زمرة الحسن بن رشيق من كبار العلماء المصريين : الأدفوى، وابنا غلبون الأب (أبو الطيب) والابن (أبو طاهر) ، وأبو بكر المهندس ، وابن ماهان ، والجوهرى وابن سعيد ، والكنانى ، وابن النحاس ، والحسن ابن شعبان ، وابن التمار ، وغيرهم .

---

(٤٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١ / ص ٤ - حيث يذكر الى جانبه أبو على الأسيوطى .

(٤٤) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ١٢ .

(٤٥) أنظر ما سبق بين ص ١٤١ هـ ٢٥ ، وابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ ص ٣١٦ - حيث الاشارة الى جماعة من علماء مصر ، من : الحسن بن شعبان ، الى أبى على المطرز ، وأبى القاسم عمر بن المؤمل الطرسوسى وأبى الطيب أحمد الحريرى .

(٤٦) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ٦٧ .

(٤٧) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٧ / ص ٣١١ .

(٤٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٠٨ / ص ٢٢٣ - حيث الاشارة الى انه جمع فى مصر ١٨ حملا من الكتب عاد بها الى الأندلس .

(٤٩) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة رقم ٥٦٩ / ص ٢٥٣ - حيث الاشارة الى مولد ابن خيرون فى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م (عن ابن حيان) ، ووفاته منكوبا بسجن المطبق بقرطبة ، وتسليمه الى أهله فى قيوده .

والأدفوى (أبو بكر محمد بن أحمد المصرى ت ربيع ٣٨٧ هـ/مارس ٩٩٧ م) له ذكر فى رحلات سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م ، حيث روى عنه ابن الحداد (أحمد بن سهل بن محسن الأنصارى ـ ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧ م ـ ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م)(٥٠) ، وسمع منه ابن الجعفرى المقرى (خلف مولى جعفر الفتى ـ ت ٤٢٥ هـ/١٠٣٣ م بطرطوشة)(٥١) ، وأبو القاسم الدقاق (خلف بن مروان بن أحمد التميمى الوراق ـ القرطبى ـ ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨ م) ، وصديقه : ابن الفرضى(٥٢) ، وأبو القاسم العجيبى (سلمة ابن أمية بن وديع (الاشبيلى ـ الامام ـ ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م ـ ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م)(٥٣) .

أما ابنا غلبون فهما : أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله المقرى (الأب) الذى روى عنه ابن الحداد سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م(٥٤) ، وسمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد(٥٥) ، وأخذ عنه : ابن حيون القرشى : أبو بكر أحمد بن محمد(٥٦) ، وقرأ عليه القرآن أبو القاسم خلف (الطلبيرى) : مولى جعفر الفتى ، فى رحلته التى انتهت بعد اقامة دامت فى المشرق لمدة ١٧ عاما(٥٧) ، كما لقيه فى رحلة سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ابن ذنين (ما سبق ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) . وأما ابن غلبون (الابن) فهو أبو الطاهر ، وقد لقيه (مع والده) أبو العباس الأقليشى : أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمى ، المقرى (٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ـ ٤١٠ هـ/١٠١٩ م) الذى كان ملتزما بتدوين الحديث متمسكا بمقولة : « كل من كتبت عنه حديثا فانا عبد له »(٥٨) . ولقد أخذ

---

(٥٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ ، وانظر محمد كامل حسين ، فى أدب مصر الفاطمية ، ١٩٦٣ ، ص ١٢١ ـ حيث النص على أنه اخذ العلم عن أبى جعفر النحاس النحوى ، وان له كتاب التفسير وكتاب الاستقصا فى علوم القرآن .

(٥١) الصلة ، ترجمة ، رقم ٣٧٣ هـ / ص ١٦٨ .

(٥٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٨٣ / ص ١٧١ .

(٥٣) الصلة ، ترجمة رقم ٥١٠ / ص ٢٢٤ ـ حيث النص على انه عند منصرفه من المشرق الى الأندلس ، وقع اسيرا بين أيدى الروم ، فلم يستنقذ الا بعد سنتين .

(٥٤) الصلة ، ترجمة رقم ٦ / ص ٨ .

(٥٥) الصلة . رقم ٣٥ / ص ٢٢ .

(٥٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٣٤ / ص ١٥٠ .

(٥٧) الصلة ، ترجمة رقم ٣٦٩ / ص ١٦٦ ـ حيث زار كلا من بغداد والبصرة والكوفة ، وانه عند عودته الى الأندلس اخذ عنه أبو بكر المصحفى قبل سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م .

(٥٨) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨ / ص ٣٣ .

عنه أبو اسحق ابراهيم بن جعفر الزهرى (الأشيرى ، السرقسطى ، ٣٧١ هـ/٩٨١ م — ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م) الذى جمع بين دراسة المدونة ، وحفظ الرأى(٥٩) ، كما لقيه ووالده أبا الطيب ، فى رحلته المشرقية سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م ، أبو القاسم وديع العجيبى وسلمة بن أمية ، المعروف بالامام — ت ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) ٠

وأبو بكر المهندى (أحمد بن محمد بنى اسماعيل) ، له ذكر فى رحلات الأندلسيين سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ، ٣٨١ هـ/٩٩١ م، حيث سمع منه ابن ميمون (ص ١٤١ ، ١٤٢) ، ولقيه صالح بن عمر بن محمد (القرطبى — ت ربيع الأول ٣٩٧ هـ/نوفمبر ١٠٠٦ م)(٥٩ م) ، وكتب عنه ابن بنوش (ما سبق ، ص ١٤٤ ، هـ ٣٥) ، ولقيه ابن ذنين (ص ١٤٢ ، ١٤٤) ، وأبو المطرف الصدفى : عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد (الطليطلى ، ٣٢٧ هـ/٩٣٨ م — ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م)(٦٠) ٠

وعن الجوهرى (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله — ت رمضان ٣٨٠ هـ/نوفمبر ٩٩٠ م) ، فقد سمع منه ابن ميمون ، وابن قرلمان الطلمنكى ، وابن الجعفرى ، ممن سبق ذكرهم ٠

وابن ماهان (أبو العلاء) الذى يعتبر من الأعلام حيث يميز بلقب الامام ٠ وممن لقيه أبو عمرو بن العارض : أحمد بن عبد الله بن شريعة اللخمى (الاشبيلى : ٣٣١ هـ/٩٤٢ م — ١٠ محرم ٣٩٦ هـ/أكتوبر ١٠٠٥ م) الذى عرف كواحد من فقهاء المذهب المالكى الأجلاء(٦١) ، وابن قرلمان الطلمنكى ، كما روى عنه ابن الرسان (٣١٩ هـ/٩٣١ م — ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) صحيح مسلم(٦٢) ٠

ولقد درس على : ابن الحافظ (أبو محمد عبد الغنى) ، فى رحلته سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، ابن الميراثى (ص ١٤٣ هـ ٣٥) ، وابن الجعفرى (ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن سعيد (سعيد بن محمد بن يحيى)(ص ١٤٦)

---

(٥٩) الصلة ، ترجمة رقم ٢٠١ / ص ٩٥ ٠

(٥٩ م) الصلة ، ترجمة ٥٣٣ / ص ٢٣٣ ٠

(٦٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٨٠ / ص ٣٠٧ ٠

(٦١) الصلة ، ترجمة رقم ١٣ / ص ١٠ ٠

(٦٢) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ ٠

وروى عنه ابن المـأمونى : قاسم بن حجاج بن هشام الرعينى ـ ت ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م[٦٣] .

أما الذين درسوا على الكنانى : حمزة بن اسحاق بن محمد (الحافظ) ، فى مصر فمنهم ابن الأموى (ص ١٤٣ ، هـ ٣٤) وابن الرسان (أعلاه) الذى حصـــل منه على الاجازة[٦٤] ، وأبو القاسم بن سلمة الأنصـــارى (ص ١٤٦ ، هـ ٤٨) . هذا واذا كان يفهم من ترجمة ابن زاهر : عمر بن عبد الله ـ البونى (ت بعد ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) ـ ان الكنانى (الحـافظ ، المصرى) كان يحدث فى حضرموت حيث لقيه جماعة من طلاب العلم المغاربة، فان اسم الجامع الذى كان يخطب فيه وهو جامع ابن لهيعة ـ أحـد أقطاب المدرسة المصرية الأولى فى الحديث والتـــاريخ ـ يعنى أن اللقـــاء كان فى مصر[٦٥] .

وهكذا يتوالى بقية علماء مصر ـ على طول الصلة ـ من ابن البنـــا ، وابن التمار ، وابن النحاس ، وابن الدباغ ، والحسن بن شعبان ، وابنى المنير : أحمد بن الحسن (الأب) ، وولده : عبد الوهـــاب[٦٦] ، وبضمنهم مشاهير علماء الاسكندرية كأبى القاسم العلاف ، والقاضى أبى على بن سكره، ويتوالى عليهم طلاب الأندلس ، من : ابن افرانك القرطبى ، وابن الفرضى ، وابن ذنين ، والقضاعى ، وابن الصيرفى ، وابن سلمة الأنصارى ، وأبوالقاسم الأنصارى ، والقنازعى ، وابن سعيد العبدرى (الطرطوشى)[٦٧] ، وأبى العلاء القشيرى ـ ت ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م[٦٧ م] .

مدرسة القيروان وعلماؤها :

تعتبر مدرسة القيروان القاعدة الثقـــافية الحقيقيـة لبـــلاد المغرب والصحراء ، حيث علوم الدين من القرآن والسنة النبوية ، ومذاهب الفقهاء

---

(٦٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٣ / ص ٤٦١ .
(٦٤) الصلة ، ترجمة رقم ٤١ / ص ٢٧ .
(٦٥) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ ـ حيث طلبة العلـم المغـاربة ، هم : أبو الحسن القابسى ، وأبو موسى عيسى بن سعادة ، وأبو محمد الأصيلى . أما موضوع الحديث فهو : الحذر من فراسة المؤمن (عن سفيان الثورى) .
(٦٦) الصلة ، ترجمة رقم ٧٨٣ / ص ٣٩٨ .
(٦٧) الصلة ، ترجمة رقم ٥٢٨ / ص ٣٢ ـ حيث القاضى ابن سكرة بالاسكندرية .
(٦٧ م) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٢٩ / ص ٤٦٨ ـ حيث أبو القاسم العلاف بالاسكندرية .

على اختلاف مشاربهم ، من سنة وشيعة وخوارج ، وحيث الدعوة الى التمسك بأهداب الاسلام الأصولية ، من الأمر بالمعروف ، والدعوة الى الجهاد والرباط في الثغور – وهي الأمور التي كانت لها تأثيراتها جنوبا حتى الصحراء والسودان ، وشمالا حتى الأندلس وحدود الممالك المسيحية .

وعلماء القيروان الذين لهم وقتئذ ذكر ، هم : زياد بن يونس ، وابن السرور ، وابن أبي عقبة التميمي ، وأبوبكر هبة الله بن محمد ، وابن عزره ، وابن الصقلي (أبو القاسم عبد ارلحمن البكري) ، وابن دحمون (أبوجعفر أحمد) ، وابن أبي زيد (أبو محمد) ، والقابسي (أبو الحسن) ، وآخر من يهمنا منهم : أبو عمران الفاسي .

ومن قدماء هذه المدرسة ، في فترتنا السابقة على قيام المرابطين ، يذكر زياد بن يونس الذي روى عنه في رحلته العلمية ، الذهبي الأموي : أبو بكر أحمد بن عبد الله بن محمد (القرطبي) ، صاحب اختصار تفسير الطبري[٦٨] ، ومعاصره محمد بن مسرور العسال ، الذي لقيه في رحلته الى المشرق سنة ٣٣٨ هـ/٩٥٠ م ، ابن حجاج : أبو الوليد هاشم بن يحيى (البطليوسي – ت ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م)[٦٩] ، وابن أبي عقبة التميمي : أبوبكر هبة الله بن محمد ، الذي لقيه القنازعي في رحلته سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م ، وسمع عليه المدونة[٧٠] . وبعد هؤلاء يأتي ابن عزره : أبو بكر ، الذي سمع عليه ابن ميمون الأموي في رحلته سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م[٧١] ، كما أخذ عنه ابن الطرابلسي : أبو القاسم حاتم بن محمد التميمي (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م) في رحلته المشرقية سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م ، التي لقي فيها ابن سعيد السجزي ، وحمل عنه صحيح مسلم[٧٢] ، ومعاصره ابن الصقلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري الذي سمع منه ابن ميمون : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي (الطليطلي : ٣٥٣ هـ/٩٦٤ م –

---

(٦٨) الصلة ، ترجمة رقم ٢٩ / ص ١٩ – حيث « المذهبي » .

(٦٩) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٣٩ ، ترجمة رقم ٥٣٩ ، وقارن ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة ٥٠٨ / ص ٢٢٣ – وترجمة سلمة بن سعيد بن سلمة (الأنصاري) – توفي في ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، الذي سمع منه واجاز له في « المشرق » مع اختلاف الذنب : ابن مسرور « الدباغ » .

(٧٠) الصلة ، ترجمة رقم ٦٩١ / ص ٣١٦ .

(٧١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥ / ص ٢١ .

(٧٢) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ .

ت ٤٠٠ (شعبان) مارس ١٠١٠ م) فى رحلته سـنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م (رقم ٣٥/ص ٢١) • كما لقيه بنفس السنة (٣٨٠ هـ/٩٩٠ م) ، ابن سعيد الخزرجى : أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (ت ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤)(٧٣) •

أما كبار الأساتذة من الشيوخ فيبدأون بابن دحمون : أبو جعفر أحمد ابن ثابت الذى أخذ عنه ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم فى رحلته سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧/ص ٤٧٢) ، وسمع منه ابن غلبون الخولانى : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (القرطبى) سنة ٣٧١ هـ/٩٨١ م التالية(٧٤) ، كما لقيه كل من ابن قرلمان الطلمنكى ، وابن افرانك فى رحلتهما سنة ٣٨١ هـ/٩٩٠ م ، وكذلك ابن ذنين الصدفى وفى نفس السنة (٣٨١ هـ/٩٩١ م)(٧٥) ، وأخذ عنه ابن الفرضى فى السنة التالية (٣٨٢ هـ/٩٩١ م) ، وابن بكر الأنصارى الذى كان حجة فى علوم الحديث ، فى رحلة سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٥ م(٧٦) • وأخيرا التقى به ابن سعيد الصدفى : أبو المطرف عبد الرحمن (ت فى ذى القعدة ٤٠٣ هـ/ مايو ١٠١٢ م) (ص ١٤٨ هـ ٦٠) •

ويأتى الدواودى : أحمد بن نصر نظيرا فى الأستاذية لابن دحمون ، حيث سمع منه ابن أبى الربيع (الالبيرى) : أبو العباس أحمد بن أيوب (ت جمادى الثانى ٤٣٢ هـ/فبراير ١٠٤١) الذى عرف بأنه أديب شاعر وسنى ورع (رقم ٩٨/ص ٥٢) ، والسبتى : أحمد بن محمد بن سعيد القيسى (الاشبيلى : ت ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م) ، فى رحلته المشرقية سنة ٣٧٠ هـ/٩٨١ م(٧٧) • وأخذ عنه ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٣ م) ، فى رحلته سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م ، حيث طلب الحديث وعنى بعلومه (ص ١٤٣ هـ ٣٣) ، كما أخذ عنه ابن جرج : أبوالمطرف عبد الرحمن بن سعيد (ت ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م) فى رحلته الى المشرق سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م(٧٨) • وعنه روى ابن فطيس: أبوالحسن كامل بن أحمد بن

---

(٧٣) الصلة ، ترجمة رقم ٧٠٧ / ص ٣٢٦ •
(٧٤) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ •
(٧٥) الصلة ، ترجمة رقم ٥٨١ / ص ٢٥٩ •
(٧٦) الصلة ، ترجمة رقم ٦٠١ / ص ٢٧١ •
(٧٧) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ •
(٧٨) الصلة ، الترجمة رقم ٧٠٣ / ص ٣٢٥ •

يوسف القادسى (ت ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م) ،كما أخذ عنه أيضا البونى : أبو عبد الملك مروان بن على الأسدى القطان (القرطبى – ت قبل سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨ م) وصحبه لمدة ٥ (خمسة) أعوام ، حتى صار مرجعا فى الفقه والحديث ، فكان تاليفه للمختصر فى تفسير الموطأ من الكتب الكثيرة التداول بين أيدى الناس(٧٩) .

أما أشهر علماء القيروان فى تلك الحقبة ، فهما ابن أبى زيد (أبو محمد : عبد الله)(٧٩ م) ، والقابسى : أبو الحسن على بن أبى بكر محمد بن خلف – الكفيف (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) ، وهما نظيران ، كأنهما فرسا رهان . واذا كنا عددنا من تلاميذ ابن أبى زيد ، فى صلة ابن بشكوال حوالى ٥٠ (خمسين) رجلا من الأندلسيين فان تلاميذ القابسى الكفيف ، منهم بلغوا حوالى ٣٥ (خمسة وثلاثين) رجلا . أما عن الفترة التى قضياها فى التعليم ، فبينما تستغرق أخبار ابن أبى زيد الفترة من ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م الى ٤٠٢ هـ/١٠١١ م ، أى حوالى ٣٥ (خمس وثلاثين) سنة ، تستغرق أخبار القابسى الفترة من سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م الى ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م أى حوالى ٣٣ (ثلاث وثلاثين) سنة ، وهى نفس الفترة ، فكان طول العمر الذى وهبهما الله اياه كان من أسباب بلوغهما الأمل فى تحصيل العلم والمعرفة – كما يرى الماوردى(٨٠) .

فمن أوائل تلاميذ ابن أبى زيد الذين سمعوا منه فى سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م : القنازعى (ت ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م) الذى حصل على اجازته له أيضا ، وابن سعيد الخير : خلف بن عيسى (٣٣٨ هـ/٩٤٩ م – ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م) ، وذلك فى رحلته العلمية الى المشرق قبل سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م(٨١) ، وابن غلبون الخولانى : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (٣٣٠ هـ/٩٤١ م – شوال ٤٠٣ هـ/١٠١٢) الذى سمع منه فى رحلة

---

(٧٩) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٣٥ / ص ٥٥٧ .

(٧٩ م) أنظر مدارك القاضى عياض ، ط الرباط ، ج ١ ص ١١ وهـ ٥ – حيث النص على وفاة ابن أبى زيد فى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م (؟) . وهو الأمر الذى قد لا يتفق مع ما ياتى عنه من معلومات صاحب الصلة ، مما يشكك فى معلومات الديباج الذى يرجع اليه المحقق ، حيث الشك فى الاسم (« عبد الرحمن » النفزى بدلا من عبد الله) .

(٨٠) أدب الدنيا والدين ، فصل العلم ، ص ٤٥ .

(٨١) الصلة ، ترجمة رقم ٣٧٢ / ص ١٦٧ .

٣٧١ هـ/٩٧٢ م(٨٢) ، وابن محمد الأموى : أبو عبـــد الله محمد بن قاسم (الجالطى ــ القرطبى ــ ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ/٩٨١ م ، كما أن ابن أبى زيد ــ نفسه ــ أخذ عنه (أى الجالطى) بدوره كتاب رد الزبيدى على ابن مسرة (المتكلم ، صاحب القول بالاستطاعة أى حرية الارادة(٨٣) ، ثم السبتى : أحمـــد بن محمـد بن سعيد القيسى (الاشبيلى) ، فى رحلته سنة ٣٧٠ هـ/٩٨١ م(٨٤) ٠

أما عن تلاميذ ابن أبى زيد فى العقد التاسع ، فمنهم ، ابن ســـعيد (الاشبيلى) : أبو عمر أحمد بن سعدى بن محمد (ت بعد ٤١١ هـ/١٠٢٠ م) فى رحلته التى قام بها فى حدود سنة ٣٨٠ هـ/١٠٣٣(٨٥) ، وابن سعيد الخزرجى (ت ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م) ، وابن افرانك (الجذامى) الذى أخـذ عنه فى رحلة سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م ، وابن ذنين الصدفى : أبومحمد عبد الله (الطليطلى ــ ت ٤٢٤ هـ/١٠٣٣ م) الذى ســـمع منه فى نفس العـــام (٣٨١ هـ/٩٩١ م) وحصل على اجازته له (ص ١٤٢ ، هـ ٢٨) ، وكذلك صالح بن عمر بن محمد (القرطبى ــ ت فى نهاية ربيع الأول ٣٩٧ هـ/٢٤ يناير ١٠٠٦ م) الذى لقيه فى تلك السنة (رقم ٥٣٣/ص ٢٣٣) ، وكذلك ابن بنوش (ص ١٤٤ ، هـ ٣٨) ، وابن الفرضى الذى أخذ عنه (ص ١٤٤ ، ١٤٧ ، هـ ٥٢) ، وابن وديع العجيبى (ت ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م) الذى لقيه سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٣ م (ص ١٤٧ ، هـ ٥٣) ، وابن بكر الأنصارى : أبومحمد عبد الله (القرمونى ــ ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م (ترجمة رقم ٦٠٢/ص ٢٧١) ٠

ومن أسف فان بقية تلاميذ أبى محمد بن أبى زيد ، وهم كثر ، لم تكن لهم الحاسة التاريخية فلم يسجلوا تاريخ رحلاتهم العلمية المشرقيـة ، ولذلك نكتفى بتواريخ وفياتهم التى نتخذها قاعدة للترتيب ، عندما تتيسر٠ فأبو المطرف عبد الرحمن الصدفى (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) لا يحدد تاريخ رحلته (ص ١٤٨ ، هـ ٦٠) ، وابن سلمة الأنصارى (تأول٤٠٧ هـ/١٠١٦م) الذى أقام بالمشرق حوالى ٢٣ (ثلاث وعشرين) سنة ، لقى ابن أبى زيد ،

---

(٨٢) الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٨ / ص ٢٥٣ ٠
(٨٣) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٣٧ / ص ٤٧٢ ٠
(٨٤) الصلة ، ترجمة رقم ٩١ / ص ٤٩ ٠
(٨٥) الصلة ، ترجمة رقم ٦٥ / ص ٣٦ ٠

دون أن يحدد تاريخ ذلك (رقم ٥٠٨/ص ٢٢٣) وكذلك الأمر بالنسبة لأبى القاسم خلف (المقرى) الذى سمع منه ، والذى طالت اقامته بالمشرق لمدة ١٧ (سبعة عشر عاما) لا تعرف عنها الا أنه كان يجلس للتدريس سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م (رقم ٣٦٩/ص ١٦٦) . ويقال مثل ذلك عن الكنانى : أبو الحكم منذر بن منذر (ت ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م) الذى لقيه وأخذ عنه (رقم ١٢٥٩/ص ٥٦٥) ، وابن الجعفرى : خلف مولى جعفر الفتى الذى سمع منه (ص ١٤٧ ، هـ ٥١) ، وابن قرلمان (٣٤٠ هـ/٩٥١ م - ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ - ٨ م) الذى لقيه (ص ١٤٢ ، ١٤٨) ، وابن دنيل ادموى (القرطبى - ت جمادى الأولى ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م) الذى لقيه (رقم ٩٩/ص ٥٣) والزهرى الأشيرى (السرقسطى ، ٣٧١ هـ/٩٨١ م - ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ الذى اختصر مدونة ابن أبى زيد (رقم ٢٠١/ص ٩٥) ، والوراق الدقاق (القرطبى ، ت فى حدود ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، وعمره ٨٦ سنة) الذى حج قديما ، وسمع عليه (رقم ١٧٨٣/ص ١٧١) ، وابن المأمون : بو محمد قاسم بن حجاج (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) الذى روى عنه (رقم ١٠١٣/ ص ٤٦١) .

أما عن أقدم تلاميذ القابسى (أبو الحسن : ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) فهو ابن محمد الأموى : أبو عبد الله محمد بن قاسم (الجالطى - ت فى شوال ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) الذى أخذ عنه فى رحلة سنة ٣٧٠ هـ/٩٨٠ م (رقم ١٠٣٧/ص ٤٧٢) . ويأتى بعده فى رحلة سنة ٣٧٣ هـ ، ابن مؤمن الحضرمى : أبو القاسم اسماعيل بن محمد (الاشبيلى ، ت فى صفر ٤٢٦ هـ/ ٥ - ١٠٣٤ م) الذى أخذ عنه(٨٦) . وفى رحلة سنة ٣٨٠/٩٩١ م لقيه ابن سعيد الخزرجى: أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسن (المقرى ، القرطبى، ت ٢٦ محرم ٤٤٦ هـ/١٤ مايو ١٠٥٤ م) (رقم ٧٠٧/ص٣٢٦) . وفى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٥ م) ، أخذ عنه ابن بكر الأنصارى : أبو محمد عبد الله (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) (رقم ٦٠١/ص ٢٧١) . وتنقطع تواريخ الرحلات فلا نجد لها ذكرا الا فى سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، حينما رحل ابن سعيد : سعيد بن أحمد بن يحيى (ت ٢٤ ربيع الأول ٤٢٨ هـ/١٧ يناير ١٠٣٧ م) الى المشرق فحج ، وسمع القابسى فى طريق العودة بالقيروان(٨٧) . وكانت رحلة ابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (٣٦٨ هـ/٩٧٨ م - ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م) التى لقيه فيها سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م (رقم ٧٠٣/ص ٣٢٥) .

---

(٨٦) الصلة ، ترجمة رقم ٢٣٤ / ص ١٠٨ .

(٨٧) الصلة ، ترجمة رقم ٤٩٣ / ٢١٨ .

أما آخر تلاميذ أبى الحسن القابسى ، فهو ابن الطرابلسى : أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم التميمى (ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م) الذى قام برحلته العلمية المشرقية سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م ، ولقى القابسى ، وبقى عنده ، ولازمه فى السماع والرأى ، الى وفاته فى السنة التالية(٨٨) ٠

وبذلك لا يتبقى من زيارات طلاب الأندلس العلمية للقابسى الا تلك التى لا تحمل تاريخا محددا ، والتى نرتبها حسبما تتيسر سنوات الوفاة ٠ فالقبرى : أبو بكر محمد بن وهب الآزدى ، (القرطبى – ت ١٣ جمادى الأولى سنة ٤٠٦ هـ/٣٠ أكتوبر ١٠١٥ م) أخذ من القابسى فى رحلته المشرقية ، وتفقه عنده (وعند أبى زيد) ، وطالع عندهما علوما من المعانى والكلام ٠ وعندما رجع الى الأندلس أظهر شيئا من ذلك الكلام ، فى : نبوءة النساء ، ونحو هذه المسائل التى لا يعرفها العوام ، الأمر الذى أدى الى التشنيع عليه(٨٨ م) ٠ والكنانى (ت ٤٢٣ هـ/١٠٣٢ م) لقيه هو وابن أبى زيد أيضا (أعلاه ص ١٥٤) ، واللخمى المرليشى : حجاج بن محمد (ت ٤٢٩ هـ/٨ – ١٠٣٧ م) الذى روى عنه (رقم ٣٣٩/ص ١٥٣) ، وكذلك ابن فطيس : أبو الحسن كامل (ت ٤٣٠ هـ/ ٩ – ١٠٣٨ م) (رقم ١٠٢٠/ص ٤٦٥) كما لقيه ابن أبى الربيع الألبيرى : أبو العباس أحمد (ت ٢٦ جمادى الثانى ٤٣٢ هـظ/١٠٤٠ م) (ص ١٥١ هـ ٧٧) ، وابن جرج : عبد الرحمن بن سعيد (ت ربيع الأول ٤٣٩ هـ/أغسطس ١٠٤٧ م) الذى أخذ عنه ، وحفظ ملخصه للمدونة عن ظهر قلب (أعلاه ص ١٥٤) ، والبونى: أبو عبد الملك مروان (ت قبل ٤٤٠ هـ/١٠٣٨ م) الذى عرف بالعفة والصلاح ، والذى ألف كتابا فى شرح الموطأ ، أخذ عن القابسى ، وان كان قد لازم الداودى طوال ٥ (خمس) سنوات (رقم ١٢٣٥/ص ٥٥٧) ، وابن الصيرفى : أبو عمرو عثمان (ت ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م) ، الذى عرف بتعمقه فى علم الحديث سمع هو الآخر منه (رقم ٨٧٣/ص ٣٩٨) ٠

هذا ، كما كان لشاعر أفريقية والقيروان الشهير : ابن شرف ، رواية عن الحسن القابسى ، بعد خروجه الى الأندلس عندما اشتدت فتنة العرب الهلالية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ، كما روى عن أبى عمران الفاسى ،

---

(٨٨) فى جمادى الأولى سنة ٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٠١٢ م ٠ أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ٠

(٨٨ م) الصلة ، ترجمة رقم ١٠٥٧ / ص ٤٧٩ ٠

وصحبهما(٨٩) ٠

وبذلك نكون قد وصلنا الى الهدف من تلك المقدمات الخاصة بالخريطة الثقافية لبلاد المغرب والأندلس ، وتوابعها من مراكز العلم فى مصر والمشرق، مما يعنى : وحدة الفكر الاسلامى ، الأمر الذى يؤدى _ بحكم الضرورة _ الى أوضاع سياسية وحضارية متناظرة فى الجوهر ، وان بدت أحيانا متنافرة شكلا ٠ فلا شك أن روافد الثقافة المشرقية هى التى أدت الى اكتمال الشخصية المغربية فى مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد ، الأمر الذى سمح للمغرب باستكمال استقلاله السياسى ، وهو المقدمة الطبيعية للعمل الحضارى المتميز فى خصوصيته ، وهو ما سيقع على عاتق الملثمين من أهل الصحراء المرابطين _ الواعدين _ قدوة أهل جبال مراكش من مصمودة الموحدين ، فيما بعد ٠

---

(٨٩) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٠٨ / ص ٥٤٥ ٠

الفصل الثالث

عملية النهضة المرابطية
أبو عمران الفاسى وحركة التجديد الثقافية
فى صحراء الملثمين

يظهر لنا مما سبق أن القيروان كانت فى مطلع القرن الـ ٥ هـ/١١ م، العاصمة الثقافية للمغرب والأندلس ، استنادا الى تاريخها العلمى كمدرسة للمالكية بالامتياز ، والى موقف بلادها السياسى كجزء من الدولة الفاطمية التى بلغت ذروة قوتها وقتئذ فى المشرق ، بينما ظهرت فاس التى كانت قد فقدت سندها السياسى فى المغرب مع انهيار الأسرة الأموية فى قرطبة ، بمظهر التابع للقيروان على المستوى الثقافى بخاصة ٠

ويذكر من علماء فاس قبل ذلك الوقت ، أبو ميمونة : دراس بن اسماعيل (ت ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م) ، والصدينى ، وهما معاصران لأبى العباس تميم بن محمد القيروانى ، وأبى الحسن زياد بن عبد الرحمن اللؤلؤى القيروانى(١) ٠ وعلاقة ابن ميمونة (الفاسى) الذى عرف بأنه فقيه على مذهب مالك ، كانت وثيقة بالأندلس فى تلك الفترة من أوائل القرن الـ ٤ هـ/١٠ م ، على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث كان طالبا للعلم هناك ، ومجاهدا بالثغر ٠ وذلك قبل أن يقوم برحلته للحج والدراسة، وهى التى سمع فيها بالاسكندرية كتاب ابن المواز ، على الفقيه : على بن عبد الله بن مطر ، وهو الكتاب الذى حدث به فى القيروان فيما بعد ، وسمعه منه أبو الحسن القابسى(٢) ٠

أما عن أشهر علماء العصر من القيروانيين الفاسيين أصلا ، فهو شيخ المالكية أبو عمران موسى الفاسى (٣٦٨ هـ/٩٧٨ م ـ حوالى ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م) ٠ وينتسب أبو عمران الى قبيلة غفجومة الزناتية ، ولذلك كان يحمل الى جانب اسمه العربى « موسى » اسما بربريا هو « يحج » ، أما

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ٥٦٠ / ص ٢٤٦ ٠
(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٥ ، ترجمة رقم ٤٣٢ ٠

اسم أبيه فهو : عيسى بن حاج الغفجومي (الزناتي)[٣] ٠

الرحلة في طلب العلم :

والمهم في سيرة أبي عمران الفاسي انه بدأ في طلب العلم بالأندلس — التي كانت فاس تقع وقتئذ في دائرة نفوذها السياسي — حيث زامل واحدا من الطلاب اللامعين ، وهو ابو عمر بن عبد البر ، الذي عرفه بمجالس كبار مشايخ قرطبة ، فدرسا سويا على : أبي محمد الأصيلي ، وأبي عثمان سعيد بن نصر ، وعبد الوارث بن سفيان ، وأبي الفضل أحمد بن قاسم البزاز ٠ واقتداء بطلبة العلم الأندلسيين ، سار أبو عمران الفاسي على نفس النهج وقام بالرحلة الى المشرق بدأ بالمرور بالقيروان ومصر ، قبل أداء فريضة الحج وشهود الموسم ، والأخذ عن المشايخ هناك ، بعد موسم سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م ، أى وأبو عمران فى الثانية والثلاثين من عمره ٠ وفى مكة أخذ قراءة القرآن عرضا[٤] على الشيخ : أبى الحسين على بن عمر

---

(٣) أنظر الصلة ، ترجمة أبى عمران الفاسى ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ — حيث الجد الثانى أبو حاج الغبجومى — التى صححت الى الغفجومى ٠ ونحن نميل الى ترجيح الاسم القديم للقبيلة البربرية البترية التى كان لها شان فى مقاومة الفتح الاسلامى ، وهى « ورفجومة » (ج ١ ص ٣٣٧ وما بعدها) ٠ وقارن ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ — حيث أبو حفص عمر بن عبد الله ابن زاهر (البونى : الأندلسى أصلا) ، وحيث يرد الاسم على لسان أبى عمران نفسه : « أنا أبو عمران موسى بن عيسى بن حاج » التى رجحناها على « أبو حاج » ، الفاسى (بدلا من الغبجومى : الغفجومى) ٠ وانظر ترتيب المدارك للقاضى عياض (الذى كدنا نفتقد ذكره هنا) ، ط ٠ بيروت ، ج ٤ ص ٧٠٢ — حيث يتضح ان مدارك القاضى عياض هى الأصل الذى نهل منه الأندلسيون الذين تميزوا على كل حال بحسن العروض وسلامة المنهج والحرص على الاستقصاء ، الى جانب العناية بالتوقيت ٠

(٤) والحقيقة أن قراءة القرآن ، بل وحفظه ودراسته كانت المقدمة الطبيعية لدراسة الفقه ، وخاصة فقه المالكية المبنى على الحديث ، وتراث أبناء الصحابة من التابعين ، أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٦٧٨ / ص ٣١١ — عن ابن الجزار : أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الملك بن خالد (الهمذانى) الوهرانى — ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م — ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، الذى وصل فى رحلته المشرقية الى مرو حيث وجد الشيخ الترابى يقرأ المصحف فيعلق على ذلك بقوله : وعند أصحاب الحديث أن من لا يستظهر القرآن عن ظهر قلب فهو ناقص ٠ اما عن صاحب الترجمة فهو عند ابن بشكوال امام فى الحديث ٠ وقارن ترجمة رقم ٩٠ / ص ٤٧ — عن ابن قارلمان ، حيث النص على انه عاد من رحلته المشرقية بعلم كثير ، وانه كان أحد الأئمة فى علم القرآن العظيم : قراءاته واعرابه واحكامه ٠٠ وانه جمع كتبا كثيرة النفع على مذاهب أهل السنة ٠٠٠ وانه كان حافظا للسنن على هدى واستقامة ، وأنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير — فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ — حيث القول ان أبا عمران ، بدأ بالتعليم =

الحمامي المقرى وغيره ، قبل أن يتوجه الى بغداد فى نفس السنة (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م) حيث جلس للاقراء الى جانب حضوره دروس القاضى أبى بكر بن الطيب(٥) .

ومن بغداد عاد أبو عمران الفاسى الى مكة حيث درس الحـديث فى مجلس أبى ذر الهروى ، ولو أن الأمر انتهى بخصومة شديدة بين الطالب والأستاذ ، بسبب حرص أبى عمران على معرفة خبايا مكتبة أبى ذر العلمية، ولو فى غيبة الأستاذ ودون اذنه ، الأمر الذى أثار غضب هذا الأخير وسخطه، وأوقع أبا عمران فى الحرج فيما بعد عندما كان يروى عن أبى ذر فلا يشير اليه الا كناية(٦) .

العودة الى المغرب :

والمهم أن أبا عمران انصرف من المشرق بعـد اقامة استغرقت عدة سنوات ، حضر فيها أكثر من موسم وحج عدة حجج ، وعندما وصل القيروان أقام فيها للتدريس (الاقراء) مدة لم تحدد هى الأخرى فى ترجمـة صلة

= فى القيروان (بدلا من فاس) ، وانه تفقه هناك على « القابسى » وسمع من أبى بكر الزويلى ، وعلى بن أحمد اللواتى ، قبل ذهابه الى قرطبة ، اعتمادا على كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف ـ وهو ما لا تسمح به المصادر المعتمدة .

(٥) الصلة ، رقم ٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وانظر ابن القاضى ، جذوة الاقتباس ، القسم الاول أ ـ ص ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، عدد يناير ـ فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٠ ـ حيث انه دخل العراق فسمع من أبى الفتح بن أبى الفوارس ، وأبى الحسن بن ابراهيم المستملى ، وأبى أحمد الفرضى ، كما انه درس الأصول على القاضى أبى بكر الباقلانى ، والقاضى عبد الوهاب : اعلام مذهب مالك من البغدادية ، وذلك نقلا عن كتاب بيوتات فاس المجهول المؤلف ـ الذى لا نعرف أصلا له .

(٦) انظر ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٣ ـ ٥٥٢ ـ حيث يروى من حرص أبى عمران الفاسى على الدراسة ونسخ الكتب ما أوقعه فى غضب أبى ذر ، وذلك عندما سمح لنفسه باخذ مفاتيح خزانة كتب أبى ذر من حارسه المحرج ، أثناء وجود الشيخ فى وقت راحة له فى موطنه بجبل السراة ، لكى ينسخ ما شاء له من كتبه . الأمر الذى انزعج له الشيخ ، عندما بلغه الخبر مراسلة من حارس الخزانة نفسه فلقد اضطر الشيخ الى العودة مسرعا ، ليستعيد مفاتيح خزانته ، وهو يقسم انه لن يعلم أبا عمران الحديث بعدها ، أبدا . وهكذا كان أبو عمران ، وهو فى مجالسه ، بالقيروان اذا حدث عن أبى ذر يورى ويقول : « اخبرنى أبو عيسى » (حسبما كان يناديه العرب) .

وقارن مدارك القاضى عياض ، ط . بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ ـ حيث النص على انه طلب الكتب من جارة أبى ذر بل وانه اجبرها على ذلك فقامت قيامة أبى ذر .

ابن بشكوال ٠ والواضح أن الاقامة فى المشرق لم تزد على خمس سنوات ، وذلك أن أبا عمران كان يقـــوم بالتدريس فى القيروان سـنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م ، حيث أخذ عنه وقتئذ أبو القاسم حاتم بن محمد الذى كان ملازما لأبى الحسن القابسى حتى وفاته فى جمـادى الأولى سـنة ٤٠٣ هـ/نوفمبر ١٠١٢ م ، والذى عاد بعد ذلك من مصر مسرعا الى القيروان فى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م ، لمقابلة كتبه وانتساخ سماعاته من أصول أبى الحسن القابسى(٧)٠

وبعد اقامته تلك بالقيروان ، سار أبو عمران الى مسقط رأسه فاس ، ومحط عشيرته من آل أبى حاج (الغفجوميين الزناتية) ، ليؤدى حقوقهم عليه فى التعليم والتضلع فى امور الدين ، وان كنا لا نعرف تاريخا لتلك النقلة ، ولا لمدة بقائه فى فاس ، قبل الهجرة النهائية الى القيروان ٠ والواضح أنه وطد مركزه فى فاس ، ليس كفقيه راسخ فى المذهب المالكى فقط ، بل وكآمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو الشعار الذى بدأ ينتشر بشكل واسع فى المشرق الاسلامى اعتبارا من مطلع القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، مع انتشـار جماعات اخوان الطرق الصـوفية ، الأمر الذى بلـغ الذروة فى أواخر ذلك القرن ، الأمر الذى كان له أثره فى فكر الغزالى (فى الاحياء ، وفى دعـوة محمد بن تومرت الموحدية (فى العقيدة والمرشدة) ٠ وهكذا يكون سبب خروج أبى عمران من مسقط رأسه ليستوطن القـيروان ، أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، الأمر الذى أزعج حـكومة المدينـة المغراوية (الزناتية) ، فكان خروجه من فاس على أيدى « الطغاة » من العلماء العاملين عليها لحساب تلك الحكومة(٨) ٠

---

(٧) انظر الصلة ، ترجمة أبى عمران ، رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ ، وترجمة أبى القاسم حاتم ، رقم ٣٥١ / ص ١٥٨ ، حيث رحلته سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، ومجالسته لأبى عمران سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣ م ٠

(٨) انظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير ـ فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ـ حيث النص على أن مفهوم النهى عن المنكر الذى كان يأخذ به أبو عمران عن أبى الحسن القابسى ، يعنى النهى عن اجتماع أهل الزهد والعبادة الذين كانوا يجمعون ما بين قراءة القرآن ، وحكاية قصص الصالحين ، وانشاد الشعر ، وذلك حسب مقالة صاحب كتاب بيوتات فاس المجهولة المؤلف ، الأمر الذى يعنى موقف دولة زناته المغربية المعادى وقتئذ ، لحركة تجمعات الاخوان لغير العبادة والجهاد ٠ وعن كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس فى القديم ، لمؤلف مجهول ، أنظر أحمد مختار العبادى ، الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة آداب اسكندرية ٢١/٦٧ ـ ١٩٦٨ ـ حيث النص على انه نشر عبد القادر زمامه فى مجلة البحث العلمى ، الرباط ، عدد ٣ ـ ١٩٦٤ ، وعدد ٤ ، ٥ ـ ١٩٦٥ ، وفيه أن أبا عمران هو الذى وضع الخطوط الأولى مع الزعيم البربرى يحيى بن ابراهيم لقيام دولة صحراوية تقضى على الفوضى ٠

امامته فى الفقه المالكى ومعرفته بعلم الكلام :

وفى القيروان ، عاصمة العلوم والثقافة فى بلاد افريقية والمغرب أكد أبو عمران الفاسى امامته فى فقه المالكية ، وأستاذيته كواحد من كبار العلماء ، الأمر الذى حول داره الى مدرسة لاستقبال طلبة العلم ، وكانت المدارس التى ظهرت فى نيسابور وقتئذ لم تعرف بعد فى بغداد والمشرق العربى ، فضلا عن المغرب • وهكذا عرف عن أبى عمران الفاسى (أصلا) القيروانى (مسكنا) انه كان من أحفظ الناس وأعلمهم ، اذ جمع حفظ المذهب المالكى ، وحفظ حديث النبى وكذلك المعرفة بمعانيه ، الى جانب المعرفة بالرجال : المعدلين منهم والمجرحين • ولما كان حفظ القرآن هو الأساس فى علم الحديث ، فلم يعرف عن أبى عمران حفظ القرآن فقط ، بل وخبرته به وبقراءاته السبعة أيضا(٩) •

وعلى عكس ما هو معروف من أن علماء السنة المالكية هم أصحاب حديث لا يعرفون الرأى أو الاستحسان (كالحنفية) أو الاستنباط أو الاستصلاح (كالشافعية)، فان رحلات علماء الأندلس والمغرب الى علماء المشرق والأخذ عنهم ، وهم الذين عرفوا الكلام بل والفلسفة ، فتحت أمامهم نوافذ العلوم العقلية على مصاريعها • وهكذا قيل ان أبا عمران عندما سار الى بغداد (٣٩٩ هـ/١٠٠٨ م) التقى بالقاضى أبى بكر الباقلانى(٩ م) والقاضى عبد الوهاب ، من أعلام فقهاء المالكية ببغداد ، وحضر مجالس المناظرة التى كان يقيمها أهل الكلام من المالكية والشافعية ، وكانت أشهرها مجالس أبى بكر الباقلانى • وفيها ظهر عدم خبرة أبى عمران بذلك النوع من الجدل العقلانى الذى يحسنه المتكلمون • فهو عندما سئل من قبل بعض الشافعية عن مسألة فى الاستحسان ، أجاب بجواب صحيح – كما تقول الرواية – ولكنه مجرد من الدليل ، الأمر الذى دعا أحد شباب المشايخ البغداديين إلى الدفاع عنه بالتماس العذر بعدم الخبرة وتطييب خاطره بالتعبير له عن الاحترام ، على كل حال(١٠) •

---

(٩) الصلة ، ترجمة ١٣٢٣ / ص ٥٥٢ – ٥٥٣ •

(٩ م) أنظر مدارك القاضى عياض ، ط • بيروت ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ – حيث النص على أنه درس الأصول على أبى بكر الباقلانى ، الى جانب سماعه من أبى ذر بمكة •

(١٠) أنظر عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة المغربية ، يناير – فبراير ١٩٧٠ ، ص ٥٣ – ٥٤ – حيث النص – نقلا عن مدارك القاضى عياض – على ان أبا عمران ، كان اماما فى كل علم ، نافذا فى علم الأصول (موضوع المتكلمين بالامتياز) • وانه لما دخل بغداد توقع الناس حضوره مجلس القاضى أبى بكر الباقلانى حيث المناظرات الحارة ، وهناك تمت المواجهة بين أبى عمران وبين بعض مشايخ الشافعية من المتكلمين ، الأمر الذى دعا =

وهكذا كانت تجربة بغداد العلمية مفيـــدة لأبى عمران الفـاسى على المستويين السنى النقلى والاجتهادى العقلى ، الأمر الذى دعا القاضى عياض ينص على امامته فى الحديث وفى علم الأصول (الاعتقادات) جميعا • وعن هذا الطريق كان من الطبيعى أن يثبت أبو عمران الفاسى أستاذيته العلمية فى القيروان ، وأن يوطد مركزه كرجل دين معتدل له شعبيته التى تمكنه من تهدئة فتن العامة فى العاصمة الافريقية ، بفضـــل تمكنه من حفظ القرآن وتبحره فى علوم الحديث ، الأمر الذى هيأ له التفوق فى فنون علم الفتوى ودروبه ، مما سيعرف بعلم الحيل - بمعنى ايجاد المخارج الشرعية لبعض المشتبه فيه من الأحداث والنوازل • والمثل لذلك تلك الحيلة القانونية التى خرج بفضلها من مأزق فتنة عامة ، بسبب نداء رجل من العامة ، فى أسواق القيروان : « أنا خير البرية » فكأنه أفضل من أوليـــاء الله وأنبيائه ، الأمر الذى كان يشكك فى خروجه عن الاسلام(١١) •

وبذلك يكون أبو عمران الفاسى قد جمع بين الاتجاه السنى المحـافظ (المـالكى) والعقلانى المجتهد (المعتزلى) ، وهو الاتجاه الذى بدأ يسود فى المشرق الاسلامى وبغداد فى ذلك الوقت المبكر من القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، والذى يعتبر قاضى بغـداد المـاوردى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) من مشاهير من عرف به الى جانب زهده وورعه ، والذى انتهى بالتبلور فى فكر الامام الغزالى (المتمثل فى احياء علوم الدين)(١٢) • وعلى هذا النمط فى الجمـع

=احد الشباب الى المبادرة بالدفاع عن أبى عمران ، وهو يقول : هذا شيخ من كبار شيوخنا ، من الجفاء أن نكلفه المناظرة من أول وهلة •• كما اعلن أنه ينوب عنه فى الاجابة ، الأمر الذى دعا الى اعتذار السائل الشافعى •

(١١) انظر الصلة ، ترجمة رقم ١٤ / ص ٧٢ - حيث أبو العباس احمد بن العجيفى العبيدى (اليابس) الذى روى عن أبى عمران الفاسى حادثة الت بالقيروان بسبب رجل من (المريدين) كان يقول : « أنا خير البرية » ، فهمت به العامة وحملته الى أبى عمران الذى قرر الرجل فعرف أنه مسلم (لم يرتد) : يؤدى الفرائض • وبناء على ذلك استطاع أن يهدىء من روع الناس ، وأن يطيب خاطرهم بجودة حفظه وحضور بديهته عندما قرأ لهم الآية التى تقول : (ان الذين آمنوا وعملوا الصـالحات ، أولئك هم خير البرية » - (سـورة البينة ، آية ٩٨) •

(١٢) انظر للمؤلف ، المـاوردى بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الاسكندرية ١٩٧٠ - ص ٤٢ ، ٦٧ - حيث عرف المـاوردى بأنه شافعى فى الفروع معتزلى فى الأصول ، وعن تاليف أبى عمران ، أنظر عبد الله كنون ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ - حيث النص على أن تاليفه ليست كثيرة ، اذ لا يذكر له الا كتاب التعاليق على المدونة (الذى لم يكمله) كما تذكر له فهرسة (برنامج الأساتذة - عن عبد السلام بن سودة فى مؤرخى المغرب) • وعن احياء الغزالى أنظر ص ٤١٥ وما بعدها •

بين العلم (الحديث النبوى) التقليدى وبين الاجتهاد العقلى فى استنباط الأحكام ، عرف عدد من تلاميذ أبى عمران من كبار المشايخ مثل : ابن زاهر (أبو حفص عمر - ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) الذى كان يعتقد فى ذكاء المؤمن ويحذر من محاولة التغرير به ، بناء على بعض الأحاديث النبوية التى كان يسندها الأساتذة ، من أبى الحسن القابسى ، وحمزة الكنانى(١٣) وابن صالح القيروانى (أبو حفص عمر - ت ٤٦٠ هـ/٨ - ١٠٦٧ م) الذى اعتنى بالأصول (الالهيات) والفروع (العبادات والمعاملات) جميعا(١٤) . ومن بينهم تميز ابن الريولى (أبو محمد القاسم بن الفتح بن يوسف - ولد ٣٨٨ هـ/٩٩٨ م - ت ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) الذى روى عن أبى عمران الفاسى ، والذى اشتهر بالعلم بالحديث والمعرفة باختلاف الأئمة ، كما اشتهر بأنه صاحب اجتهاد ورأى ، اذ كان يقول بـ « العلة المنصوص عليها والمعقولة ، ولا يقول المستنبطة » ، ثم انه أعمل فكره وغير رأيه ، فبعد أن كان « يقول بدليل الخطاب » ظهر له « فساد القول فيه فنبذه وأطرحه »(١٥) .

وفى مثل هذه الاجتهادات من عقلية أو خطابية تذكر مقالة أبى عمران فى شرح « معرفة الله » عند غير المسلمين ، وهل تشبه معرفته عند المسلمين ؟ فلقد أجاب أبو عمران وهو يستخدم التشبيه فى الخطاب بنفسه (أى بأبى عمران) قائلا عن الفرق بين المعرفتين بأنه أشبه بالفرق بين من يصفه هو نفسه (أبا عمران) بأنه بقال يبيع البقل وغيره من الطعام فى دكانه فى السوق (وهى معرفة غير المسلمين الخاطئة) ، وبين من يقول عنه (أبى عمران) : انه فقيه يعلم الناس ويفتيهم فى داره أو فى المسجد (وهو الأمر الصحيح المخالف للأول) ، والذى يجعل البون شاسعا بين معرفة الله عند المسلمين وعند غيرهم مما آنس العامة من أهل القيروان وأرضاهم(١٦) .

---

(١٣) الصلة ، ترجمة رقم ٨٥٤ / ص ٣٩٠ .

(١٤) أنظر الصلة ، ترجمة رقم ٨٦٧ / ص ٣٩٩ .

(١٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٠١٤ / ص ٤٦٢ .

(١٦) جذوة الاقتباس لأبى القاضى ، القسم ١ (أ - ص) ، ترجمة رقم ٣٦٤ / ص ٣٤٤ - حث مسألة الكفار التى جرت بالقيروان ، نقلا عن عبد الجليل بن أبى بكر الديباجى ، وهل يعرفون الله تعالى أم لا ؟ وهى المسألة التى تنازع بشأنها العلماء والعامة فى الأسواق ، وكان قد تزعميم مؤذن يركب حمارا ويدور ويناظر المتكلمين والفقهاء ، الأمر الذى انتهى بطلب العامة الفتوى من أبى عمران الفاسى . وبعد أن طلب الشيخ من زعيم العامة أن يحسن الاستماع ، قال له : أرأيت لو انك لقيت رجلا فقلت له أتعرف أبا عمران الفاسى فقال لك =

وبمثل هذا الخطاب البسيط فى شكله والمقنع فى مضمونه ، وغيره مما سبق ، كان أبو عمران الفاسى يقترب من أفهام العامة ، بحسن سياسته لهم وبالتالى بالنجاح فى تأديبهم ، والاستحواذ على حبهم له وتقديرهم ٠ ونرى الى جانب ذلك ان تلاميذ أبى عمران من أدباء القيروان ، وبخاصة شعرائها ، مثل : ابن شرف ، أبو عبد الله محمد بن سعيد (الجذامى القيروانى) الذى كان له حظوة فى قلوب العامة ولا بأس ، والذى تغنى شجنيا بمأساة القيروان على أيدى العرب الهلالية (ج ٣ ص ٤٢٧) ، كان من الاسباب المساعدة فى الرفع من شأن أبى عمران الى مرتبة الزعيم الشعبى — قبل هجرة ابن شرف الى الأندلس سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م(١٧) ٠ والى جانب ابن شرف هناك ذكر لعدد من كبار الشعراء من معاصريه القيروانيين ، مثل : ابن رشيق (القيروانى) ، وابن حجاج ، وعبد الله العطار ، ممن لهم ذكر فى ترجمة الصدفى السفاقسى ، الذى غادر القيروان الى قرطبة سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م ، لكى يتوفى بها بعد سنتين (٤٤٠ هـ/١٠٠٩ م) — وان لم نعرف ان كان لهؤلاء الشعراء علاقة بأبى عمران الفاسى ، الذى لا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة (انظر ، ص ١٦٥ وما بعدها) ٠

ابو عمران الفاسى والتنظير (الايديولوجى) للدولة الصحراوية الدينية :

رغم ما قيل من أن صحراء الملثمين كانت قليلة السكان شحيحة الخيرات ، مفتقدة لأهم ضرورات الحياة من مادية وروحية ، فلم يعرفوا الخبز ، كما لم يعرفوا من أمور دينهم سوى أقل القليل كالشهادتين فقط ، فالحقيقة أن مثل هذه المقالة لا تنطبق الا على سواد الناس من طبقات الكادحين ٠ أما الطبقة المتيسرة فكانت على دراية بما يجرى فى العواصم الحضرية ، كما كانت تعرف شعائر الدين ، بل وتحرص على أداء فريضة الحج فى بلاد الحجاز البعيدة ، تحت تأثير الدعاة من التجار ، أو من رجال الدين من العلماء والفقهاء ، من مغاربة وأندلسيين ٠ ففيما يتعلق بأبى عمران الفاسى كان من بين تلاميذه من هم من أهل السوس الأقصى ، على حدود بلاد الملثمين من

=انه رجل يبيع البقل والزيت فى سوق هشام ويسكن البصرة أكان يعرفنى ؟ فقال لا ٠ ثم قال له فلو لقيت آخر فقال هو رجل يدرس العلم ويفتى الناس ويسكن بقرب السماط ، أكان يعرفنى فقال (الرجل) نعم ٠ وهكذا نجح فى وأد الفتنة ٠

(١٧) الصلة لابى بشكوال ، ترجمة رقم ١٢٠٨ / ص ٥٤٥ — حيث كانت لابن شرف الذى هو من فحول الشعراء ، رواية عن القبسى الفقيه ، وعن أبى عمران الفاسى ، اللذين صحبهما فى القيروان قبل خروجه منها ، الى الأندلس ، حيث استقر ٠

جدالة ولمطة ، مثل : وجاج بن زلوا مكتشف عبـــد الله بن ياسين ، المنظر المباشر للدعوة المرابطية ، فكأنه التلميـذ الروحى لأبى عمران : أســتاذ معلمه ٠ أما المكتشف الحقيقى لمعلم الصحراء ، وبالتالى المنظر الفعلى للدعوة المرابطية ، فهو الزعيم الصنهاجى الذى كان يقود وقتئذ طائفة من اخـوانه الملثمين عـــلى طريق وادى درعه ـ سجلماسه ، مرورا بالقـيروان ، حيث اجتذبته دروس أبى عمران وتعاليمه ٠ فكأن الامر تكرار لبداية الدعـــوة الفاطمية فى منطقة القبائل ببلاد الجزائر الشرقية ، وكأن أبا عمران الفاسى صنو ابن حوشب ، كبير الدعاة ، وكأن يحيى بن ابراهيم صنو الزعيم القبلى الكتامى ٠ وبذلك يكون عبد الله بن ياسين نظير الداعى الفاطمى أبى عبد الله الشيعى(١٨) ٠

والأمر الذى يستوعى الانتباه هو انه رغم ضخامة العمـــل التاريخى الذى قام به كل من الزعيم القبلى (الملثم) والفقيه الدينى (المـالكى) ، وأثره العميق فى الشمال الافريقى والسودان الغربى ، فان الغموض مازال يحيط بكل من الرجلين اللذين ينبغى أن ينسب اليهما ذلك الانجاز الكبير٠ فابو عمران الفاسى الذى يظهر فى القيروان كزعيم شعبى له دور محورى فى تهدئة الفتن بالأسواق ، واستتباب قواعد الامن فى المدينة ، ينتهى نهـاية غامضة ، وسط العاصمة الافريقية التى كانت تعج بالعلماء والشعراء وطلبة العلم ، من كل فج عميق ، الى ما بعد اضطرابها بوصول العرب الهـــلالية حوالى منتصف القرن الـ ٥ هـ/١١ م ـ وذلك فى فترة تمتد ما بين ســنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م ، وسنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ٠ وكذلك الأمر بالنسبة لزعيم جماعة حجاج صنهاجة الملثمين ، الذى تعدى الاختلاف بشأنه الحدود الزمنية التاريخية الى التنازع فى اسمه ، بل وفى حقيقـــة شخصه ٠ ولا بأس أن يكون الاختلاف فى تحديد وفاة أبى عمران الفاسى هو الذى أدى الى الاختلاف فى شخصية الزعيم الجدالى ٠

وهنا نرى أن المنهج يقتضى أن نرجع الى مصادرنا المعتبرة متسلسلة من الأقدم فالأحدث ، فى محاولة لكشف تتابع الأحداث فى مساراتها المنطقية فى متواليات فى شكل مقدمات ونتائج تترابط فيما بينها بشكل عضوى ، هو أصل العلية فى عملية التكوين التاريخية ٠

وفى هذا السياق يكون المصدر المعتمد هو البكرى الأندلسى ، المعاصر

---

(١٨) انظر ج ٢ ص ٥٤٦ ـ ٥٥٠ ٠

لتلك الأحداث . وهو يحدد بداية حركة الاصلاح المرابطية التى قامت بها قبائل صنهاجية فى مواطنها المتاخمة لسواحل المحيط الأطلنطى ، بشكل عام فيما بعد سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، حينما قامت « بدعوة الحق » تحت قيادة عبد الله بن ياسين (١٩) ، دونما تحديد لوقت لقاء أبى عمران بالزعيم الجدالى ، رئيس بعثة الحج الصنهاجية : يحيى بن ابراهيم الجدالى فى عودته من الحج ، والذى كان حريصا على التعلم فى مجلسه(٢٠) . أما ابن الأثير فيجعل بداية أمر الملثمين فى سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م ويحدد فى تلك السنة رحلة الحج التاريخية التى قامت بها بعثة الحج الصنهاجية حيث التقى رئيسها الجدالى الذى يحمل اسم « الجوهر » بفقيه القيروان ، الذى يقال انه « أبو عمران الفاسى » فى أغلب الظن(٢١) .

أما ابن أبى زرع ، صاحب روض القرطاس ، الذى يكتب فى مطلع القرن الـ ٨ هـ/١٤ م (٧٢٦ هـ/١٣٢٦ م على عهد المرينيين) فيجعل سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م هى سنة خروج المرابطين لغزو المغرب ، الأمر الذى يتفق مع رواية ابن الأثير ولكنه وهو لا يحدد سنة لقاء الزعيم الجدالى بالفقيه أبى عمران الفاسى ، يقرر التاريخ لذلك الحدث ضمنا قبل سنة ٤٣٠ هـ/٩ - ١٠٣٨ م ، وهى السنة التى توفى فيها أبو عمران بالقيروان ، كما يرى(٢٢) . هذا ، وهو يجعل بعد ذلك اللقاء فيما بين سنة ٤٢٧ هـ/

(١٩) البكرى ، ص ١٦٤ .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٤ - حيث النص على أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بنى جدالة وحج فى بعض السنين ، ولقى فى صدره (عودته) عن حجه الفقيه أبا عمران الفاسى ص ١٦٥ .

(٢١) الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ص ٦١٨ ، وقارن النويرى ، نشر أبو ضيف ، ص ٣٧٥ وهـ ٢ - حيث بيان المصدر الذى يشترك فى الأخذ عنه مع أبى الأثير ، ويتمثل فى رواية عز الدين بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس (الزيرى الصنهاجى) فى كتابه « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » بسند القاضى يعلى بن قنون (جنون) : قاضى مراكش - حيث محاولة للتوفيق بين رواية البكرى (بعد ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، ورواية ابن الأثير (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، بالنص على ان رحلة الحج الصنهاجية كانت فى العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م (عشر الخمسين وأربعمائة) - وحيث رصد الاختلافات ، بين سنة ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ - وأخيرا سنتى ٤٢٧ ، ٤٢٩ لخروج الجدالى الى الحج ووفاة أبى عمران التى نشير اليها فيما بعد . وقارن نشر دار الكتب (هيئة الكتاب) ، تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٣ ، هـ ١ - حيث ترجيح ان يكون « يحيى بن ابراهيم » هو « الجوهر » على أساس ان الجوهر لقبه - وذلك عكس ما راى حسن احمد محمود من أنهما رجلان مختلفان . اما عن الفقيه القيروانى الذى التقى به الزعيم الصنهاجى ، فالغالب انه أبو عمران الفاسى .

(٢٢) القرطاس ، ص ١١٨ ، ص ١١٢ بعدها - حيث يجعل وفاة أبى عمران فى ١٣ من رمضان (من تلك السنة : ٤٣٠ هـ / ١١ يونيه ١٠٣٩ م) .

٦ ـ ١٠٣٥ م (حيث خروج يحيى بن ابراهيم الى الحج) وبين سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م ، حيث وفاة أبى عمران ، على أساس أن اللقاء كان فى رحلة العودة (الصدور)(٢٣) ٠

أما ابن خلدون فيفسر وصول يحيى بن ابراهيم الجدالى الى منصب الرياسة بسبب صهره فى جماعة بنى ورتنطق التى تعتبر من طبقة النبلاء بين قبائل الملثمين ٠ وعن خروجه لقضاء فريضة الحج علـى راس جماعة جدالة ، فيجعله فى أول الأربعينيات من القرن الـ ٥ هـ/١١ م (٤٤٠ هـ/ ٩ ـ ١٠٤٨ م) ، أى فى بداية العقد الخامس ، حسب رواية عز الدين بن شداد (الزيرى) التى يأخذ بها ابن الأثير ، والتى يلخصـها النويرى ٠ وهكذا يكون لقاء حجاج كداله بأبى عمران فى طريق العودة فى السنة التالية (٤٤١ هـ/١٠٥٠)(٢٤) ٠

وهكذا يكون ابن أبى زرع أول من يحـدد وفاة أبى عمران بسـنة ٤٣٠ هـ/٩ ـ ١٠٣٨ م ، وهو فى الحقيقة يأخذ هذا التاريخ من ابن بشكوال فى ترجمته لأبى عمران ، نقلا عن أبى عمرو المقرى الذى يقرر ان عمره كان يناهز وقتئذ ، ٦٥ (خمسة وستين) عاما ٠ هـذا ، ولو أن ابن بشكوال نفسه ، يقرر أن وفاته كانت فى سنة ٤٢٩ هـ/٨ ـ ١٠٣٧ م ، السابقة(٢٥)٠

والذى يؤخذ على تحديد وفاة أبى عمران فى آخر العقد الثالث أو أول العقد الرابع ، حسب رؤية ابن بشكوال ، وبالتالى يجعل لقاءه بحجاج جداله فى نفس هذا الوقت ، هو ما يترتب على ذلك من طول الفترة اللازمة للاعداد لقيام الدولة المرابطية الوليدة ، فراغا دون احداث ما ، وهى الفترة التمهيدية التى يسـميها ابن خلدون « بالمطاولة » ، الى ما يقرب من ٢٠ (عشرين) سنة ، الأمر الذى يدعو الى الشك فى صحة أمدها هذا ، ليس بسبب بساطة التجهيزات المطلوبة للمطاولة فقط ، بل وبالمقارنة مع التواريخ التى يقدمها

---

(٢٣) القرطاسى ، ص ١٢٢ ٠

(٢٤) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٢ ، وقارن بما سبق وشعيرة ، المرابطون ، ص ٢٨ ٠

(٢٥) الصلة ، ترجمة رقم ١٢٢٣ / ص ٥٥٢ ـ حيث ينص ابن بشكوال على انه كان يأخذ عن أبى عمران بالقيروان ، وانه تركه حيا ، وعاش بعده الى أن توفى سنة ٤٢٩ هـ / ٨ ـ ١٠٣٧ ٠ اما عن ميلاد أبى عمران فهو فى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ، حسب رواية عمر بن عبد البر الذى يقول انه وأبا عمران الفاسى ولدا فى تلك السنة ٠ وقارن جذوة الاقتباس لابن القاضى ، قسم ١ (ص ٣٤٤ ، ترجمة رقم ٣١٤) ٠

ثقات المؤرخين الذين اضطروا الى التشكيك فى أن يكون لأبى عمران الفاسى دور فى ذلك التمهيد ، مما يتعلق بلقاء يحيى الجدالى • فاذا أخذنا بتواريخ البكرى وابن الأثير والنويرى ، وكذلك ابن أبى زرع وابن خلدون نستخلص منها أن حركة « المطاولة » المبنية على عمليـــة التجديد الدينى والاصـلاح الاجتماعى ، بناء على مشورة أبى عمران تبدأ باللقاء مع حجاج جدالة سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٩ م ، وتؤتى ثمارها سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م بغزو بلاد المغرب، فكأن فترة المطاولة لم تزد على ٦ (ست) سنوات أو ٧ (سبع) •

أبو عمران وليس بعض تلاميذه :

وهنا تبقى مسألة أبى عمران ، هل هو الذى لقيه حجاج جدالة أم انه أحد تلاميذه ، اذا كان قد توفى حقا فى سنة ٤٢٩ هـ/٨ ــ ١٠٣٧ م أو سنة ٤٣٠ هـ/٩ ــ ١٠٣٨ م التالية • والذى نراه أنه لما كان الواقع التاريخى يؤكد صحة أحداث ظهور الحركة المرابطية فى أربعينيات القرن الـ ٥ هـ/١١ م بالمغرب الأقصى أى الغـــاء الدور البارز الذى قام به فقيه القيروان أبو عمران الفاسى فى تحريك تلك الأحداث • فهنا نقترح ببساطة تعديل تاريخ وفاته الى ما بعد ٤٤٠ هـ/١٠٤٩ م ، كمـــا تنص على ذلك روايات المؤرخين الأصيلة بدأ من البكرى وانتهاء بابن خلدون ، على أن تكون ســنة ٤٢٩ هـ/٨ ــ ١٠٣٧ م وســـنة ٤٣٠ هـ/٩ ــ ١٠٣٨ م تصحيفا لسنتى ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م ، ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م ، فى رواية ابن بشكوال • ويـكون سندنا فى ذلك التواريخ المتعلقة بميلاد تلاميذ أبى عمران الفاسى ووفاتهم ، وخاصة المتـــأخرين منهم ، ممن توفوا فى أواخر القرن الـ ٥ هـ/١١ م أو أوائل القرن الـ ٦ هـ/١٢ م • فالذى يستشف من مناهج التعليم الدينى فى ذلك العصر ، أن من كان يقرأ أو يسمع أو يأخذ عن الشيخ أبى عمران أو يطلب الاجازة منه كان بمثابة طالب الدراسات العليا فى أيامنا هــذه ، بمعنى أن عمره كان لا يقل عن منتصف العقد الثالث ان لم يتجاوز هـــذا العقد ــ والمثل لذلك أبو عمران نفسه ، اذ كان فى الثانية والثلاثين عندما بدأ رحلته العلمية فى سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م •

وهكذا نرى أن واحدا من مشـــاهير طلبة الأندلس الذين جالســـوا أبا عمران الفاسى ، وهو ابن الطرابلسى : أبو حاتم بن محمد بن عبد الرحمن ابن حاتم التميمى (القرطبى أصلا والطليطلى سكنا ــ ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م ــ ٤٦٩ هـ (ذو القعدة)/مايه ١٠٧٧) يبدأ رحلته العلمية الى المشرق ســـنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م ، وعمره ٢٥ (خمســـة وعشرون) ســنة ، ويجـالس أبا عمران فى طريق العودة وعمره ٢٧ (سبع وعشرون) سنة ، وانصرف

الى بلاده بعد أن قضى فترة لا نعرف مقدارها ، ولكنها طالت الى سنوات على ما نظن ، حيث جمع فيها ، وهو المجتهـــد المعروف بأنه كان يكتب بخط متأنق ، وانه كان مثابرا على حمــــل العلم حتى فى أواخر أيامه ـ علمـا كثيرا[٢٦] . واذا كنا نفتقد تاريخ مولد المتأخرين من طلبـــة أبى عمران الفاسى ، مثل : أبى الحسن طاهر بن هشام الأزدى ، المتوفى سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م (رقم ٥٤٠/ص ٢٢٧) ، وأبى بكر محمد بن نعمــة (الأســدى العابر القيروانى المتوفى ســنة ٢ ـ ٤٨١ هـ/٩ ـ ١٠٨٨) (رقم ١٢٠٧/ ص ٥٤٥) ، فمن حسن الحظ أننا نعرف تاريخ ميلاد آخرهم وتاريخ وفاته ، وهو ابن غلبون الخولانى : أبو عبد الله بن محمد بن عبد الاشبيلى (٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م ـ ٥٠٨ هـ/١١١٤ م) .

والمهم هنا هو أن أبا عمران الفاسى أجاز للخولانى بمعنى انه لم يحضر دروس ابن عمران فى القيروان ، ربما لتقدم سن الشيخ أو لرواج الاجازة وقتئذ ، وهو الأمر الذى كان يتنبأ بخطورته بعض العلماء ، على أساس أن الاجازة التى تشبه الدراسة بالمراسلة ، أو عن طريق الجامعة المفتوحة حاليا ، تهدد ببطلان الرحلة ، التى تشبه ايفاد البعثات الطلابية الى الخارج للدراسة . وهنا اذا افترضنا أن سن ابن غلبون الخولانى ، عندما حصــل على الاجازة (الشهادة) العلمية كان يبلغ الـ ٢٥ (خمس وعشرين) سنة ، فان ذلك يعنى أنه حصل على تلك الاجازة ســـــنة ٤٤٣ هـ/١٠٥١ م ، وان لم يكن بعدها ، فكأن أبا عمران الفاسى كان حيا قريب هــــذا الوقت ، الأمر الذى يتفق مع تقارير مؤرخينا ، المعتمدين ، من البكرى الى ابن الأثير وابن خلدون، ومن سار على دربهم هذا .

وبذلك تنحل عقـــدة وفاة المنظر الأول للفكر المرابطى : أبى عمران الفاسى ، على أساس أنها تمت فى مطلع العقد الخامس (الأربعينيات) من القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، فلا يغمط حق الرجل فيما أنجزه من عمــل كبير كان له أثره العميق فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى مطلع العصور الحديثة ، ولا ينسب ذلك الى مجهول آخر من تلاميذه ، كما نرى فى ابن الأثير ، ومن أخذ من نفس المصدر (ما سبق ، ص ١٦٤ وما بعدها) ، الأمر الذى يعاكس تماما مقاصد التاريخ وأغراضه .

وتبقى مشكلة الزعيم الجدالى : وهل هو : يحيى بن ابراهيم ، كما هو

---

(٢٦) الصلة ، ترجمة رقم ٣٥١/ص ١٥٨ ، وأنظر فيما سبق ، ص ١٦٣ .

متعارف عليه لدى معظم الكتاب والمؤرخين أم هـــو نفس الشخص الملقب بـ « الجوهر » ، وهو ما أخذ به ابن الأثير فى كامله ، نقلا عن ابن شـــداد (الزيرى - ما سبق ، ص٢٩ وما يأتى ص ١٨١ وهـ ٥٢) - وله ولكتابه ما لهمـــا من الرسوخ فى التاريخ الاســـلامى · والحقيقة أن مسألة الجـــوهر محسومة فى مصدرنا الرئيسى عن قيام الدولة المرابطية ، وهـــو البكرى ، الذى يفرق بين رئيس بعثة الحج الجدالية فى مطلع العقد الخامس من القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى ، وهو الشخصية التاريخية الراسخة ، مثل أبى عمران الفاسى ، وبين الثـــائر (اللمتـــونى) المسمى بالجوهر بن سكم ، الذى كان يسانده فى ثورته رجلان من كبرائهم ، أحدهما يحمل اسم « أيار » والآخر اسم « اينتكوا »[٢٧] ·

اللقاء بين أبى عمران الفاسى ويحيى بن ابراهيم الجدالى (٤٤٠ هـ/٩ - ١٠٤٨ م) :

بناء على ما تقدم يكون لقاء يحيى بن ابراهيم الجدالى قائد بعثـــة حج الملثمين الصنهاجية ، بفقيه القيروان أبى عمران الفاسى قد حـــدث مرتين ، أولاهما : أثناء رحلة الذهاب (الورود) سنة ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م ، والثانية فى طريق العودة (الصدور) سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) · ومن الواضح أن الزعيم الجدالى كان محبا للعلم · فهـــو اذا كان قد مر سريعا بمجـــالس أبى عمران ، سواء فى داره قرب السماط ، أو فى المسجد الجـــامع ، فانه أحسن الجلوس فى رحلة العودة · ولا بأس أن يكون قد شاهد بعض مجالس علماء الحجاز فى مكة أو المدينة ، ممن سبقت الاشارة اليهم (ص ١٤١) ، وأن ذلك كان أدعى الى ارتباطه الى فقيه القيروان الفاسى ، عـــلى أساس أنه الأقرب اليه لهجة وتقليدا · والمهم أنه حدث تجـــاوب بين الزعيم الدينى والشيخ القبلى اللذين تقاسما شرف التفكير فى عملية الاصلاح الاجتمـــاعى فى صحراء المغرب الكبرى · فالروايات الأولى التى تبـــدأ بالبكرى تنسب الفضل الى أبى عمران الذى سأل رئيس جماعة الملثمين عن بلده وأحواله ، ومذاهب أهله الدينية · وعندما اتضح له أن الرجل الصحراوى ليست لديه

---

(٢٧) البكرى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وهذا ما اخذ به حسن احمد محمود ، فى رسالته عن قيام دولة المرابطين ، وهو ما لم يقتنع به حسين نصار فى تحقيقه للجزء الـ ٢٤ من النويرى ، دون سند اعتمادا على أن يكون الجوهر لقبا ليحيى - مما سبقت الاشارة اليه ، ص ١٦٦ وهـ ٢١ ·

معرفة بالمذاهب الاسلامية ، بل وانه لا يعرف الا القليل عن فرائض الاسلام، ورغم ذلك فلديه رغبة شديدة فى التعلم ومعرفة واجباته الدينية ، ناقشه فى امكانية سد هذا النقص الخطير ، المتمثل دينيا فى تعلم شريعة الاسلام ، ومدنيا (فى الحياة اليومية) فى تطبيق مبـــدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهنا اعتذر يحيى بأن من يأتى الى بلادهم من المعلمـــين مجردين من الورع والتقوى ، جهلة لا علم لهم بمذاهب أهل السنة ، وسأله أن يختار له من طلبته من يقوم بتلك المهمة الشاقة بين الجفاه من أهل الصحراء(٢٨) . أما الروايات التالية التى تظهر عند ابن الأثير والنويرى وابن أبى زرع ، فتجعل الفضل فى ذلك الى الزعيم الجدالى ، الذى بادر أبا عمران بقوله انه ليس عندهم فى الصحراء شيء من هذا (علوم الدين) غـير الشهادتين فى العامة ، الى جانب الصلاة فى بعض الخاصة فقط ، مع سؤاله أن يبعث معـه من يثق فيه ليعلمهم شرائع الاسلام(٢٩) .

اختيار المعلم :

عرض الأمر على طلبة القيروان :

ولم تكن مهمة القيروان فى اختيار المعلم المناسب لسكان الصحراء من

---

(٢٨) البكرى ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢٩) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٨ — ٦١٩ ، وقارن النويرى ، تحقيق « أبو ضيف » ، ص ٣٧٦ — حيث ينسب الجزء الأخير من الجدل الخاص بحمل العلم الى أبى عمران ، وانظر تحقيق حسين نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ — حيث النص « فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملتهم ، وكمال دينهم » ، وانظر القرطاس ، ص ٢٢ — حيث يدور حوار بين الرجلين يعرف فيه الجدالى بسعة بلاده وما فيها من الخلق الذين غلب عليهم الجهل . وعندما يظهر لأبى عمران ان جهل يحيى بواجبات دينه لا ينقص من رغبته فى التعلم ، وعرف منه ان أهل بلاده يحبون الخير ويسارعون اليه اذا ما وجدوا من يدرس لهم العلم ، ويدعوهم الى العمل بالكتاب والسنة ، وانه يدعوه الى المساعدة فى تحقيق ذلك ، ليكون له الأجر العظيم ، حيث يكون سببا لهدايتهم ، عمل أبو عمران على تحقيق رغبته تلك . وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ والترجمة ج ١ ص ٦٧ — حيث الارتفاع بالخبر الفردى الى حالة القانون الاجتماعى ، اذ يكون الفضل الى جماعة حجاج جداله الذين انبهروا بعلم أبى عمران وفتاويه فسألوه ان يبعث منهم من يرجعون اليه فى قضايا دينهم . وقارن حسن احمد محمود ، المرابطون ، ص ١٠٧ — حيث القول — كما هو الحال بالنسبة لـ « كتاب ذكر بعض مشاهير فاس لمجهول » (ص ٦٣) ، بان يحيى الجدالى خرج لطلب الحقيقة وليس للحج فقط ، وانه خرج لارتياد مدارس المغرب ؟

الملثمين من الأمور السهلة فلقد اجتهد أبو عمران فى البحث عن الرجـــل المناسب بين المقربين اليه من طلبة حلقته ، بل ومن بين أفراد أسرته . وهناك تفصيلات - شبه قصصية - اجتهد المتأخرون من الكتاب فى رصدها يستدل منها على ان مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الصحراء البعيدة عن العمران لم تكن من الامور المحببة لرجال الدعوة الناشئين(٣٠) ، وان التمسنا لهم العذر على أساس أنهم لم يكونوا قد تدربوا على الأصول الفنية المعروفة لدى المحترفين من الدعاة ، وخاصة من أبنـــاء تنظيمات الحركات السرية ، كالدعوة الفاطمية (ج ٣ ص ٢٠) .

وهكذا لجأ أبو عمران فى البحث عن الرجل المنشود - بعد أن تعهد له يحيى بن ابراهيم بـ « حفظه وبره واكرامه » - الى واحد من أبناء اخوته اسمه عمر ، وعرفه بما سيكون له من الذكر الجميل لدى الناس ، والثواب العظيم من الله عز وجل ، حتى أقنعه بالقبول . ولـكن طالب القيروان المرفه لم يلبث ان استعفى من الغد ، من تلك المهمة التى قد لا تحمد مغبتها(٣١) .

دور محمد : وجاج بن زللوى (السوسى) :

وازاء رفض طلبة القيروان دخول الصحراء الموحشة والذى ربمـا كان مقدمة مصطنعة تهدف أصلا الى تقرير صـعوبة مهمة المعلم الداعى ، رأى أبو عمران أن خير من يقوم بتلك المهمة واحد من شباب العلماء من أهـــل البلاد ، من صنهاجة الصحراء ، الملثمين . وهذا ما أخبر به يحيى بن ابراهيم الجدالى اذ طلب منه أن يعرج ، وهو فى الطريق الى بلاده المتاخمة لســاحل المحيط الأطلنطى على بلاد السوس ، حيث يوجـد واحـد من علمـاء طلبته المجتهدين ، هو : محمد وجاج (وكاك) بن زللوا اللمطى ، الذى كان يقيم

---

(٣٠) انظر البكرى ، ص ١٦٥ - حيث مجرد الاشارة الى ان أبا عمران لم يجد فيمن رضيه (من تلاميذه) من يجيبه الى السير معه (يحيى بن ابراهيم) ، فقال له : قد عدمت بالقيروان بغيتكم .

(٣١) النويرى ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٥٤ - حيث النص على أنه طلب الاستعفاء لأن أهل الصحراء جاهلية لهم عاداتهم التى اذا طلبوا بخلافها لجأوا الى قتل من طالبهم بذلك ، وقارن الغرطاس ، ص ١٢٣ - حيث يندب أبو عمران بناء على طلب الزعيم الجدالى - تلاميذه الى ذلك « فامتنعوا ، وأشفقوا من دخول الصحراء ... » ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ - حيث عرض المسألة كقضية عامة يرفضها طلبة القيروان الذين ندبهم اليها أبو عمران ، حرصا على ايصال الخير اليهم ، ولكنهم استوعروا مسغبة بلادهم .

ببلدة (ملكوس) ، والذي اشتهر بعلمه وورعه(٣٢) .

ورود أبو عمران يحيى بن ابراهيم بخطاب الى وجاج — يبدأ بالتسليم والبعدية ، ثم التعريف بالزعيم الجدالى . أما موضوعه فتوصية فقيه القيروان تلميذه القديم فقيه السوس ، بأن يبعث مع يحيى الى بلاده واحدا من طلبته ، ممن يثق فى دينه وورعه وعلمه ، ليعلمهم ويفقههم فى دينهم ، وله الثواب والأجر العظيم . وينتهى الخطاب بالتسليم .

واذا كنا نشك فى صحة الكتاب — الذى لا نعرف من أين أتى الى صاحب روض القرطاس ، ولا كيف — فان مضمونه لا يختلف عما كان يدور بين أبى عمران وبين يحيى بن ابراهيم بشأن المعلم الآمر بالمعروف — وهو ما يبين الكيفية التى تم بها وضعه(٣٣) . والمهم أن الزعيم الجدالى : يحيى بن ابراهيم سار الى وجاج ، الذى كان يعتكف في رباط له بنفيس ، حيث كان منقطعا لأعمال الورع والتقوى وتدريس العلم ، والدعوة الى الخير (دعوة الأمر بالمعروف) ، وعرفه بمقصده ، من : طلب معلم محتسب يعلمهم شرائع دينهم ، ويهديهم الى الخير، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٠ هـ/مايو ١٠٤٩ م(٣٤) .

---

(٣٢) البكرى . ص ١٦٥ — حيث النص على انه ربما ظفر عند وجاج بن زلوى ببغيته ، « فجعل ذلك يحيى بن ابراهيم أوكد همه » . وقارن روض القرطاس ، ص ١٢٣ — حيث النص على انه « لما يئس (أبو عمران) منهم ، قال : انى أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا تقيا ورعا لقينى هنا ، وأخذ عنى علما كثيرا ، واسمه واجاج بن زلوا اللمطى ، من أهل السوس الأقصى ... ، وهو يدعو الناس الى الخير فى رباط هنالك ... ، أكتب له كتابا لينظر فى تلامذته من يبعثه معك فسر اليه ، فعنده تجد ما تريد . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ — حيث اسم فقيه السوس : محمد وكاك (وجاج) بن زللو اللمطى ، بسجلماسة (ولبس بالسوس) ، وقارن ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٨ — حيث : محمد و — كاك (ou — Aggag) بمعنى محمد بن وجاج ، والذى نراه ان محمدا هو اسمه العربى وان وجاج هو اسمه البربرى ، تماما مثل يوسف : بلكين قبله ، ومحمد : اسفو بن تومرت بعده ، وأنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ — حيث اختصار ذلك بالقول أن أبا عمران هو الذى أرسل عبد الله بن ياسين مباشرة مع يحيى بن ابراهيم . ومن الواضح أنها رواية عز الدين بن شداد الزبرى الصنهاجى التى ينقلها النويرى (ج ٢٤ ص ٢٥٤) — حيث النص على أنه عندما خالف عمر ابن أخى أبى عمران ، عز على ابن ياسين ذلك ، وقال لأبى عمران : « يا فقيه ، ارسلنى معه (يحيى بن ابراهيم) والله المعين » ، فارسله معه ، وتوجها (سويا من القيروان) الى الصحراء ؟

(٣٣) القرطاس ، ص ١٢٣ .

(٣٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٣ — حيث النص على ان يحيى الجدالى وصل الى نفيس ودفع الكتاب الى وجاج فى رجب من سنة ٤٤٠ هـ / ديسمبر ١٠٤٨ م بدلا من ٤٣٠ هـ / =

وانتهى لقاء الرجلين بذلك الحدث التاريخي الذى حول بلاد الصحراء من حال الى حال ، وبالتالى بلاد المغرب والأندلس التى ارتبط مصير الواحدة منهما بالأخرى ، فكونتا امبراطورية عظمى ، ذات حضارة مغربية أندلسية عاشت الى مطلع العصور الحديثة ، وكان لها أثرها فى تشكيل البلاد الى ما آلت اليه اليوم • ذلك الحدث هو اختيار عبد الله بن ياسين ليقوم بدور المحتسب فى صحراء الطوارق الملثمين - دور مهدى المرابطين ، كما يحلو لصاحب روض القرطاس أن يسميه - تشبيها بابن تومرت(٣٥) :مهدى الموحدين •

عبد الله بن ياسين محتسبا :

عرض محمد : وجاج مهمة الدعوة فى صحراء الملثمين ، بصحبة يحيى ابن ابراهيم ، على تلاميذه فى الرباط ، وبين لهم أن حسن الثواب فى تلك المهمة الخيرة يكون على قدر العمل • وانتهى الأمر بانتداب عبد الله بن ياسين للقيام بالمهمة الشاقة فى بلاد القفر الموحشة ، فكان اختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب ، كما يقال فى أيامنا هذه • فالرجل أصلا من أهل الصحراء ، من قبيلة جزولة ، أخت جدالة ان لم تكن بعضا منها أو هى نفسها (ما سبق ، ص) • فابن ياسين صحراوى مغربى (بربرى) أصيل • واذا كان اسم أمه « تين يزامارن » بربرى قح ، فان اسمه : عبد الله ، واسم أبيه : ى (ياء) و (سين) ، عربيان اسلاميان تماما(٣٦) • أما عن مسقط رأسه فهو قرية تسمى « تماما ناوت » فى طريق صحراء غانه(٣٧) ، من غرب أفريقيا ، على تخوم بلاد السودان •

وهذا الأمر يدعونا الى التأمل فى مغزى الرواية التى يفهم منها أنه

= ١٠٣٨ م - وهو ما عدلناه حسبما اقتضت اصول المنهج وسلامة الحس - مما سبقت الاشارة اليه : ص ١٦٩ • وعن وجاج الذى لا يعرف ان كان من تلاميذ ابى عمران فى فاس أم فى القيروان - أنظر ترتيب المدارك للقاضى عياض ، ط • بيروت ، ج ٤ ص ١٨١ - حيث الاسم أوكاد (وجاج) بن زللوه اللمطى وان اللقاء كان فى دار وجاج بالسوس التى سماها دار المرابطين ، وقارن عبد الله كنون ، أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥ •

(٣٥) ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٢٤ • وقارن ترتيب المدارك للقاضى عياض ، ط • بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٠ - ٧٨١ - حيث نص على أن ابن ياسين « ذو الأنباء العظيمة والقصص الغريبة ، القائم بدعوة المرابطين ، المزين لدولتهم أول خروجهم » •

(٣٦) عبد الله أشهر ما عبد من الأسماء ، وال ى س من الحروف القرآنية الرمزية المبجلة التى تبدأ بها بعض السور (أنظر سورة ى س رقم ٣٦ ، آية ١) •

(٣٧) البكرى ص ١٦٥ •

عبد الله بن ياسين كان من تلاميذ أبى عمران الفاسى ، وأنه عرض نفسه للقيام بتلك المهمة ارضاء لأستاذه الذى أسف لاعتذار ابن أخيه عمر (ما سبق ، ص ١٧٢) • وهنا يمكن القول أن قصة ابن ياسين فى القيروان هذه يمكن أن نشكك فى حقيقة قصة البحث عن المعلم (الصحراوى) بين طلاب أبى عمران أو قرابته ، وما اعترض ذلك من عقبات • وهنا نرجح فكرة أن أبى عمران لم يكن ليغيب عنه أن أصلح المعلمين لأهل الصحراء ، هو من يكون منهم أصلا • وعندئذ تكون محاولة اختيار معلم قيروانى مجرد اجراء شكلى ، الهدف منه محاولة تجميل موقف العاصمة الثقافية الافريقية ، وبالتالى مدرستها المالكية(٣٨) •

رباط وجاج :

والمهم من كل ذلك هو : أين وجدت مدرسة وجاج أو رباطه الذى درس فيه عبد الله بن ياسين ، الطالب الوافد من جنوب الصحراء ، من تخوم بلاد السودان الغربى ؟ وهنا نجد ٣ (ثلاثة) مواضع ، أولها : ملكوس (التى لا تعرف لها مكانا) (البكرى ص ١٦٥) ، وثانيها : « رباط » نفيس غير بعيد من الموضع التى ستبنى فيه مدينة مراكش (القرطاس ،ص ١٢٣) ، وثالثها : بسجلماسة (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢) • واذا كنا نستبعد سجلماسة التى لم تعرف بأنها موطن رباط ، فضلا عن بعدها عن العدو البحرى ، وكذلك الأمر بالنسبة لنفيس من حيث كونها من مدن وادى تنسيفت ، وهى المنطقة الوعرة التى لا يطرقها أهل الصحراء من طلبة العلم • وهكذا فلا تبقى الا ملكوس التى نرى أنها تحريف لاسم مدينة ماست التى ينسب اليها نهر السوس فهو وادى ماست ، والتى كانت وقتئذ على عهد البكرى موطن رباط مقصود ، له موسم عظيم ومجمع جليل ، من حيث كانت مأوى للصالحين(٣٩) •

وكان ذلك الرباط على ساحل البحر ، فى موضع اللسان الأرضى الذى

---

(٣٨) أنظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ص ١١٢ - حيث انتقاد ما يقال من ان الفقهاء والمالكية أعربوا عن اشفاقهم من السفر البعيد فى الأرض التفرة ، وحيث فكرة أن أبا عمران فكر فى الرجل الصحيح من أهل المنطقة وهى فكرة لا باس بها ، ومع ذلك فالذى نراه ان فقهاء المالكية بشر لهم مصالحهم الدنبوية مثل غيرهم ، فهم ليسوا رهبانا رغم استخدام النصوص لكلمات مثل : التعبد والرهبنة والتنسك ، على كل حال • وبناء على ذلك فلا باس أن يكون عرض النزوح من القيروان علبهم الى الصحراء نوعا من الشكلبات التى يجب أن تستوقى •

(٣٩) البكرى ، ص ١٦١ ، وقارن الاستبصار ، ص ٢١١ - ٢١٢ •

يلتقي عنده نهر السوس بالبحر المحيط (الأطلنطي) • والمقصود بالرباط هو ملجأ العباد والمجاهدين على نسق ما هو معروف في ساحل القيروان وخاصة فى سوسة (ما بعد ص ١٨٣ وهـ ٢) •

الطريق الى جدالة :

من المهم هنا الاشارة الى أن مادتنا التاريخية الخاصة بعملية تثقيف أهل الصحراء هذه ، تتضارب فى طبيعتها • فهي تفصيلية مسهبة تتراوح ما بين المذكرات الشخصية الوثائقية ، والأساطير الشعبية ، فكأنها من طراز روايات الأيام الشفوية أصلا ، وخاصة فيما يتعلق بالدعوة ونشر الاسلام • وهى مختصرة ناقصة أو مفتقدة تماما فى مواضع أخرى ، حيث افتقاد التوقيت ، مما يقلل من قيمتها التاريخية ، وعدم الاهتمام بتحديد الأماكن والطرق مما يقلل من أهميتها الجغرافية والطبوغرافية ، الى غير ذلك مما تعرضت له الرواية من التحريف والتقطيع ، على طول تداولها بين أيدى النساخ والكتاب ، مما يقتضى محاولة اعادة الترتيب(٤٠) •

وهكذا لم نعرف شيئا عن الطريق من القيروان الى رباط وجاج (بالسوس الأقصى) ، وأغلب الظن أنه طريق الغرب المتعارف عليه الى فاس ، والى أغمات فالسوس ، فطريق البحر من نول لمطة الى جدالة على طول الساحل(٤١) • وكذلك الأمر بالنسبة الى عدد أفراد جماعة المسافرين مع عبد الله بن ياسين ، لا نعرف عنهم شيئا ، ولا عن أحداث الرحلة ، وهو الأمر الذى يثير الكثير من التساؤل • واذا كانت هناك بعض المعلومات عن نهاية الرحلة بأرض جدالة ، حيث خرج الناس من قبائل جدالة (كدالة) ولمتونة ، فالتقوا الفقيه بالسرور وفرحوا به غاية الفرح ، وبالغوا فى اكرامه وبره(٤٢) ، فانها معلومات عامة ليست ذات بال •

والمهم أن احتساب عبد الله بن ياسين في جدالة وفى لمتونة لم يكن

---

(٤٠) أنظر النويرى ، نهاية الأرب ، ابو ضيف ، ص ٣٧٧ وما بعدها ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٥ - ٢٥٤ - حيث النص خطأ على خروج ابن ياسين من القيروان مع يحيى الجدالي الذى نزل عن جمله وامسك بزمام جمل ابن ياسين ، اجلالا وتقديرا ، وهو يقول عنه : هو حامل سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمفترض أن يكون هذا المشهد خاصا بالخروج من جدالة الى لمتونة على عهد رئاسة أبى بكر بن عمر •

(٤١) البكرى ، ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٦٠ •

(٤٢) القرطاس ، ص ١٢٣ •

من الأمور السهلة • فتعليم الجفاة من أهل الصحراء الـذين لا يعرفون من الاسلام الا اسمه ، والذين يعيشون على قوانينهم الطبيعية وأعرافهم القديمة التى قد تتفق مع أعراف الجاهلية ، وليس مع شريعة الاسلام ، مما سبقت الاشارة اليه قديما (ص ١٢٥) ومما عرفه الداعى فى تجربته المرابطية •

أصول الاحتساب عند عبد الله بن ياسين :

فى أرض جدالة :

كان من الطبيعى أن يبدأ عبد الله بن ياسين عملية التجديد الاسلامى فى صحراء صنهاجة الملثمين فى بلاد قبـــائل جـدالة ، عصبية يحيى بن ابراهيم ، الرئيس المرموق ، صهر جماعة النبلاء من بنى ورتنطق (ماسبق ، ص) • فعندما وصل الى موضع سكنه ، وبفضل الدعاية التى قام بها الشيخ الجدالى التف الناس حوله للتعلم(٤٢ م) • وفى البداية سارت الأمور على ما يرام • فالداعى كان يتحسس طريقه فى شبه المجهول ، حيث تقضى أصول الدعوة الى اتباع حكم الشريعـــة بالبدء بالكلمة الطيبة مع القـدوة الحسنة • ومع مرور الأيام بدأ ابن ياســين يكتشف أنه يحرث فى أرض جدبة ، وان جذور الاسلام فى تلك الصحراء سطحية فوق الرمل • وكانت أولى المفاجآت ما عرفه ابن ياسين من أن صـــاحبه الزعيم الجدالى يحيى بن ابراهيم عنده ٩ (تسع) زوجات دفعة واحدة(٤٣) • وكان على الفقيه أن يبين له أصـــول الشرع فى مســـائل الزواج والتسرى • واذا كان يحيى المتحمس للاسلام الصحيح قد وافق بسهولة على تصحيح موقفـه بفراق ٥ (خمسة) من نسائه ، فان الأمر لم يكن هينا بالنسبة لرؤساء القبـــائل الآخرين • وهكذا كانت مطالبة الناس بالالتزام بأداء الفروض ، من صلاة وزكاة فى مواقيتها من المشقات التى استصعبوها ، وخاصـــة مسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر • وهكذا انقسم الجداليون الى مؤيدين للفقيـه ومعارضين(٤٤) • والظاهر أن كفة المعارضين كانت الأرجح بفضل مؤيديهم

(٤٢ م) البكرى ، ص ١٦٥ •

(٤٣) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٤ ، وهنـا لا بأس من الاشارة الى ان البعض يفسر الآية التى تنص على انه يمكن للمسلم أن يتزوج « مثنى وثلاث ورباع » على جمع هذه الأعداد (٢ + ٣ + ٤ = ٩) وان كان ذلك يمكن ان يكون بعض النكت التى يتندر بها أصحاب بعض المذاهب على أصحاب مذهب آخر •

(٤٤) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ــ حيث النص على ان منهم من أطاع ومنهم من عصى •

من الرؤساء الذين رأوا النجاح المتوقع للفقيه ضياعا لما لهم من سلطات . وذلك أنهم عندما استثقلوا ما عرضه عليهم من الواجبات ، فتبرأوا منه وهجروه ، فكر في الرحيل الى بلاد السودان الاسلامية ، لمتابعة نشاطه الخيرى(٤٤ م) .

واذا كان أبى زرع يرى أن يحيى بن ابراهيم له الفضل في توجيه أنظار عبد الله بن ياسين الى اقامة رباط للتعبد بدلا من الهجرة الى السودان فمن الواضح أن ابن ياسين كان في أول مراحل نشاطه في جدالة لم يعرف غيرها من قبائل الصحراء الصنهاجية ، من لمتونة ومسوفة ولمطة وغيرها ، وهو ما سوف يعود اليه ملخصا بعد تكوين الرباط ، فكأنه تقطيع لأوصال الرواية وتقديم بين بعض أجزائها وتأخير ، مما يجافى تواصل الأحداث وتواترها التاريخى(٤٥) .

والذى نراه هنا هو استكمال قصة الدعوة السنية في جدالة من رواية ابن شداد الصنهاجي التى يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى ، وان خالفا السياق التاريخى بتقديم الدعوة في لمتونة على الدعوة في جدالة(٤٦) .

فعندما استشعر عبد الله بن ياسين قوة المعارضين الذين التفوا حول رؤسائهم في شبه حزب رسمى رأى تحريض أنصاره على التحزب في تجمع مضاد ، يعمل على استخدام القوة في الدفاع عن نفسه ، عن طريق اقامة جيش مسلح ، واتخاذ رمز خاص لتلك القوة ، ممثلا في رايتها المميزة ، واختيار أمير للقيادة وادارة الحرب ضد « مخالفى الحق » وهو يحيى بن ابراهيم الجدالى ، الذى كان يظهر وكأنه المستشار (المساعد) للفقيه ، حامل أمانة الشريعة(٤٧) .

(٤٤ م) روض القرطاس ، ص ١٢٤ - حيث النص على انهم عندما تبرأوا منه وهجروا ونافروه ، وثقل ذلك عليهم أراد الرحيل عنهم الى بلاد السودان الذين دخلوا فى الاسلام .

(٤٥) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٦ .

(٤٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ - حيث البدء بلمتونة ، ص ٦٢٠ - حيث وعادوا الى جدالة ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ (لمتونة) وص ٣٧٨ (جدالة) ، وتحقيق حسين نصار ، ص ٢٥٤ (لمتونة) ، ص ٢٥٦ (جدالة) .

(٤٧) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٨ ، حسين نصار ، ص ٢٥٦ .

فى ارض لمتونة :

والذى يفهم من رواية البكرى انه عندما قويت جماعة أهل الحق فى مواجهة المعارضين من الجداليين نقلت نشاطها الى أرض لمتونة المجاورة حيث دخلوا جبلهم الحصين وغنموا أموالهم رغم قلة عددهم(٤٨) الا اذا كان ذلك قد تم بترتيب مسبق مع أعوان « دعوة الحــق » فى لمتونة ، حيث تشير الروايات الى حسن استقبال اللمتونيين لابن ياسين الذى كان يحيى الجدالى يأخذ بزمام جملة تعظيما لشريعة الاسلام(٤٨ م) بصرف النظر عن اختلاف ترتيب الأحداث ٠

وهكذا تنتقل قيادة دعوة الحق من ارض جدالة ، الى أرض لمتونة حيث تبدأ حركة التأهيل الاسلامية ـ فى شكلها المـالكى ـ على نطاق واسع ، وبمفاهيم أعمق ، وامكانيات أكبر ، مــع ضوابط عملية ممثلة فى تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠ وكان من الطبيعى أن يؤدى مثل هذا التشدد فى محاولة العودة بالاسلام الى نقائه الأول الى رد فعل مضاد فيما يتعلق بأمور المعاملات وشئون الحياة اليومية الجـارية ٠ فابن ياسين عندما قدم اليهم بصفته الفقيه العارف بشئون الدين ، والمعلم الحامل لسنة رسول الله قوبل بما يستحقه من التبجيل والاحترام ٠ وهو عندما طالب بأداء الفروض من الصلاة والزكاة ، وافقوه على أنه أمر « قريب » أى سهل مقبول ٠ ولكنه عندما طالب بتطبيق شريعة القرآن مما يتعلق بالقـانون الجنائى ، من مثل : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع (تقطع يده) ، ومن زنى يجلد أو يرجم ، رفضوا ذلك ، قائلين هذا « أمر لا يلزمنا »(٤٩) ٠ على

---

(٤٨) البكرى ، ص ١٦٥ ـ حيث النص على أن غزاة الجداليين من اعوان ابن ياسين كانوا سبعين رجلا فقط ، الأمر الذى قد يعنى أنهم اخذوا لمتونة على غرة ، الا اذا كان استخدام الرقم سبعة له مدلول رمزى كما هو الحال عند الشيعة ، حيث نجد ـ فى روض القرطاس ان الجداليين الذين ابتنوا أول رباط لابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) ، وأن ابن ياسين بعد الخروج من الرباط جمع أشياخ القبائل وظل يدعوهم الى التوبة ٧ (سبعة) أيام ـ الأمر الذى يشكك فى علاقة ما بين تنظيم الدعوة المرابطية السنية والدعوة الاسماعيلية الفاطمية فى منطقة القبائل بقسنطينة (ج ٢ ، ص ٥٥٧) ٠

(٤٨ م) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى ، أبو ضيف ٣٧٧ ـ حيث النص على انهم انتهوا الى قبيلة لمتونة ، على ربوة عالية ، وان أعيان لمتونة وأكابرهم خرجوا للسلام على الزعيم الجدالى الذى عرفهم ان الفقيه هو حامل سنة الرسول ، وانه جاء يعلم اهل الصحراء ما يلزمهم من دين الاسلام ، وقارن نشر حسين نصار ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(٤٩) ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٦١٩ ، وقـارن النويرى ، أبو ضــيف ، ص ٣٧٧ ، وحسين نصار ، ح ٤، ص ٢٥٥ ـ حيث « أمر لا يلزمنا ، ولا ندخل تحته » ٠

أساس أنهم يرون أن القوانين العرفية (الطبيعية) المطبقة عنـــدهم كانت تؤدى الغرض منها(٤٩ م) ، فكأنهم يطالبون بالفصل بين الشريعـة الدينية وبين القوانين المدنية ، أو الفصل بين الدين والدولة المتمثل فى مقولة اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله(٥٠) .

والذي يلفت النظر أن حركة الاصلاح فى الصحراء ، تنص بشدة على أداء كل من فريضتى الصلاة والزكاة دون اشارة واضحة الى الصيام(٥١) . ولا ندرى ان كان ذلك يعنى أن الصوم فى الصحراء كان أمرا هينا بالنسبة لأهلها المعتادين على شظف العيش ، أم أن الجوع فى البـادية — مـع كثرة التنقل والسفر — كان لا يزين لهم التفكير كثيرا فى الصوم ؟ وانه على العكس من ذلك كان يؤدى الى الحاح المسئولين فى جباية الزكاة والصدقات وغيرها من الجبايات ، ممن كانوا يستطيعون ذلك ، وخاصـــة من أهـل الواحات والقرى — وهنا لا بأس من التفكير فقهيـــا فى أن المسافرين يمكنهم ارجاء الأداء .

والخلاصة أن « دعوة الحق » اصطدمت فى لمتونة بحركة مقاومة أشبه بتلك التى صادفتها فى بلد جدالة . ولكنه اذا كانت بعض الروايات تقول أن اللمتونيين عندما استثقلوا حسبة ابن ياسين قالوا له : اذهب الى غيرنا ، فرحل بصحبه الرئيسى الجدالى يحيى بن ابراهيم ، فان من المقبول أن نأخذ

(٤٩ م) أنظر فيما سبق ، ص ١٧٧ ، وفيما بعد هـ ٥٢ ص ١٨١ .

(٥٠) وهى المسالة المثارة حاليا فى كل من العالمين العربى والاسلامى ، بين جماعات المسلمين المتشددين الذين يرون ان عملية انقاذ عالم الاسلام مما دهاه من تدنى لا تتأتى الا بالرجوع بالاسلام الى ما كان عليه فى عصر « السلف الصالح » ، الأمر الذى لا يتحقق الا فى ظل حكومة تطبق الشريعة الاسلامية بشقيها : الدينى المتعلق بالاعتقادات والفرائض ، والدنيوى المتمثل فى القوانين المدنية ، وخاصة تطبيق الحدود الاسلامية ، بدلا من القوانين الجنائية الحديثة المبنية على قوانين الطبيعة والسياسة العقلية ، وهى التى تتفق مع روح الاسلام ، والصالح العام ، وهى المسالة التى يصل الخلاف فيها — حاليا وهو الأمر المستغرب — الى حد قطع أسباب الود ، واستباحة استخدام العنف بدلا من الحوار والاقناع بالرأى ، الأمر الذى لا يتفق مع استقرار عصر العلم ، والتنوير والحرية ، عصر حقوق الانسان كائنا من كان ، رجلا كان أم امرأة مما لا تنكره مصلحة ولا شرع ولا دين .

(٥١) أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ، النويرى أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ ، القرطاس ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ — حيث التركيز على أخذ الصدقات .

برواية البكرى التى تقول بشــكل قصصى ، أن أمر الأنصــار الجــدد من اللمتونيين كان يزداد قوة ، بعد أن استعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين فى الوقت الذى كان عبد الله بن ياسين ، رافضا لطعامهم وشرابهم ، على اعتبار الشك فى أنها حرام غــير مشروعة فكأنه ضرب عليهم نوعا من الحرمان الكنسى (excommunication) (٥٢) ٠

معسكر أهل الحق : مدينة ابن ياسين الفاضلة :

والمهم أن ذلك كان بداية لانفصال جمــاعة « أهل الحق » عن بقية « المحرومين » (من رضاء الفقيه) من أهل لمتونة ٠ فلقد قرر عبد الله بن ياسين بناء مدينة خاصة به وأنصاره ، هى التى عرفت باسم « ارتننى » ، والتى تقرر فى عمارتها اتباع شروط المدينة الاسلامية على عهــد عمر بن الخطاب ، وهى « ألا يشف (يرتفع فيها) بناء بعضهم على بناء بعض »(٥٣) ، بمعنى تحقيق مبدأ المساواة والأفقية فى عمارة بيوت المدينــة ذات الطابق الواحد عادة ، الأمر الذى جعل من الأفقية واحدة من أهم سمات العمــارة الاسلامية المبكرة ٠ وبفضــل البساطة فى المظهر والتقــوى فى المخبر ، أصبحت « ارتننى » رباطا وسط لمتونة ، ومركزا للدعوة السنية فى قلب صنهاجة الصحراء ٠

والمهم أن ضغوط الالتزام بالخط الرفيــع الذى يفصــل بين الحلال

---

(٥٢) أنظر البكرى ، ص ١٦٥ ـ حيث النص : وعبد الله بن ياسين متيم فيهم ، متورع عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم ، لما كانت أموالهم غير طيبة ، وانما كان عيشه من صيد البرية ٠ وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ ـ حيث الجوهر هو يحيى الجدالى ، الذى يطلب من ابن ياسين أن تكون الامارة لأبى بكر بن عمر رأس لمتونة وكبيرها ، والذى سماه ، كما تنص الرواية بـ « أمير المسلمين » ٠ وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ـ حيث النص على ان زعماء لمتونة طلبوا ، ومنهم أبو بكر بن عمر ، من عبد الله بن ياسين أن يعلمهم ما يلزمهم من الدين ٠٠٠ وانهم رفضوا الحدود من القطع والجلد والرجم ، ص ٣٧٨ ـ حيث أبو بكر ابن عمــر ، والهامش ٧ ـ حيث نقل القيــادة اليه بعد وفــاة يحيى بن ابراهيــم الجدالى ، وص ٣٧٩ ـ حيث عقد الراية لأبى بــكر بن عمر ، وتســميته بأمير المســلمين ، ص ٣٨٠ ـ حيث حسد الجوهر (يحيى الجدالى) لأبى بكر بن عمر ، ونشر حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ حيث هلك يحيى بن ابراهيم وافترق أمرهم ، وأطرحوا عبد الله بن ياسين ، واستصعبوا علمه ، وتركوا الأخذ عنه ، لما تجشموا فيه مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك يحيى بن عمر بن تلاكاكين ـ من رؤساء لمتونة ٠

(٥٣) البكرى ، ص ١٦٥ ٠

والحرام أو بين الخير والشر لم يلبث أن فجر سكون الامتثال للأوامر ، والسمع والطاعة • وفى ذلك قالت بعض الروايات أن « أهل الحق « نقموا على ابن ياسين بعض قراراته عندما وجدوا تناقضا فى عدد من أحكامه ، الأمر الذى أدى الى الخروج عليه • وتقول رواية البكرى ان الذين قادوا الثورة على ابن ياسين فقيه يدعى الجوهر ، بمعاونة اثنين من رؤساء لمتونة : أحدهما يدعى أيار ، والآخر انتتكوا(٥٤) • ومن الواضح أن فتنة الجوهر لم تثر خواطر اللمتونيين فقط ، بل جميع الصنهاجيين الذين لم يرتفع لهم صوت عندما هب المعارضون لابن ياسين يجردونه - خطوة بعد أخرى - من سلطاته الروحية والمدنية التى كان يمارسها جميعا بشكل فعلى • فلقد بدأوا بعزله عن « الرأى والشورى » ، بمعنى تجريده من السلطات السياسية ، ثم انهم « قبضوا منه بيت مالهم » ، والمال عصب السياسة والحرب كما نعرف ، وانتهى الأمر ليس بطرده من المدينة فقط ، بل وبهدم داره بعد نهبها وتخريب أثاثها(٥٥) - حتى لا يفكر فى العودة ثانية •

وبذلك انتهى مشروع المدينة الفاضلة التى أقامها ابن ياسين ، بناء على الفكر السنى المالكى ، ولم ترتفع أصوات المعارضة لهذا العمل المناهض للأصولية الاسلامية الا من رباط وجاج بن زللو فى أقصى السوس على مصب الوادى فى البحر المحيط ، حيث أدين الثوار ، وأهدرت دماء زعماء الثورة والمساندين لهم(٥٦) •

والحقيقة ان ما تقوله رواية البكرى من أن وجاج أمر ابن ياسين بالعودة فرجع وقتل الذين قاموا عليه ، كما قتل كثيرا من الخلق الذين استوجب الأمر قتلهم (بحرابة أو فسق) ، فهو يعبر عما حدث بعد اقامة الرباط وتكوين النواة الأولى من المرابطين الذين وقع عليهم نشر الدعوة بالترغيب والترهيب ، والذين استولوا « على الصحراء كلها » ، كما تختم بذلك نفس رواية البكرى(٥٧) •

---

(٥٤) البكرى ، ص ١٦٥ •

(٥٥) البكرى ، ص ١٦٥ - ١٦٦ •

(٥٦) انظر البكرى ، ص ١٦٦ - حيث النص على ان ابن ياسين « خرج مستخفيا من قبائل صنهاجة الى ان أتى وجاج بن زلوى ، فقيه (ملكوس) فعاتبهم وجاج على ما كان منهم الى عبد الله ، وأعلمهم ان من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة ، وأن دمه هدر » •

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٦٦ - حيث النص أيضا على أن جميع القبائل أجابت ابن ياسين « ودخلوا فى دعوته والتزموا السنة به ثم نهضوا الى لمطة » •

الربـــاط :

رباط عبد الله بن ياسين :

والأمر المستغرب فى بداية حركة المرابطين بمجهـــودات عبد الله بن ياسين ما قد يظن من ان اهم معالمها وهو الرباط لم يلفت أنظار المعاصرين ، حيث تمر رواية البكرى على عملية تأسيس الرباط مر الكرام فلا تقدم لنـــا بعضا من تفصيلاتها ، وكانها لا توليها شيئا من الاهتمام ، وهـــذا ليس بصحيح أبدا • فالفضل يرجع للبكرى المعاصر فى تعريفنا بأهم التفصيلات التنظيمية الخاصة بالرباط ورجاله ، مما يدخل فى مجال الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بمعنى أن اهتمام أهل العصر كان منصبا على حركة التجديد الاسلامية ، والتأهيل المعنوى لرجال المرابطـــين أكثر من الاهتمام بالأمور السياسية والعسكرية ، أو النفسية على وجه العموم ، مثل الظروف التى أدت الى اقامة الرباط ، واختيار المكان ، واعداد المرابطين ، وطريقة معاشهم ، وأساليب تدريباتهم اليومية من مادية ومعنوية •

والهدف الأول من الرباط : فى الاسلام كما يرد فى الآيات القرآنية هو الدفاع عن حظيرة الاسلام وحماه بتجميع العباد المجاهدين على الحـــدود وتجهيزهم بالعدد والعتاد ، من أنواع الأسلحة وخاصة الخيل(١) ، لمدافعة الأعداء ، وخاصة العدو البحرى ، فى المواضع الساحلية المعرضة للخطر ، التى عرفت باسم الثغور ــ فكانها فتحات ضعيفة يلزمها التحصين والحماية• وهكذا كانت الثغور فى « جزيرة (بلاد) المغرب » بحرية ، كمـــا اشتهرت بانها أربطة للجهاد وللعبادة ، وكان من أشهرها فى قرننا الـ ٥ هـ/١١ م رباط سوسة ورباط المنستير فى منطقة الساحل التونسية(٢) وفى السوس

---

(١) سورة ٨ ــ آية ٦٠ ــ حيث النص « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخـــل ترهبون به عـــدو الله وعدوكم ــ والخيـــل فى الحروب القديمة كانت بمثابة العربات المدرعة ، السريعة الحركة ، فى الحروب الحديثة •

(٢) البكرى ، ص ٣٥ ــ حيث النص على رباط سوسة الذى عرف بمحرس الرباط وانه عظيم كالمدينة ، وانه ماوى للصالحين وبداخله حصن كان هو القصبة ــ ص ٣٦ ــ حيث رباط المستنير كالمدينة المستقلة بمرافقها من الطواحين الفارسية (الهوائية) وصهاريج المياه (المواجل) ــ والحمامات فى حصن الرباط حيث النساء المرابطات •

وانظر ج • مارسة ، المجمل فى الفن الاسلامى Manuel d'Art Musulman ج ١ ص ٤٧ ــ ٤٩ ــ حيث بناء الرباط (المحرس) على نسق الجامع من حيث التخطيط المربع =

الأقصى رباط ماسة (ما سبق ، ص ١٧٥) • أما عن أشـهر ربط المغرب حاليا وهى مدينـة الرباط (رباط الفتح) التى أنشئت فى القرن التـالى (٦ هـ/١١ م) — فهى وريثة رباط عبد الله بن ياسـين • أما فى المشرق الآسيوى فقد تحولت ثغور الشام فى العصر العباسى الى عواصم ، جمـع عاصمة بمعنى الحصن والحامية ، بينما حملت ثغور أواسط آسـيا وبلاد ما وراء النهر اسم الربط وواحدتها « الرباط » وظلت كذلك حتى بعد أن تحولت الى « تكايا » للعباد أو « فنادق » للقوافل فى طريق الحرير(٣) •

وعلى هذا الأساس اعتبرنا مدينة « ارتننى » حيث كانت دار عبد الله ابن ياسين مركز الحكم ، وساحتها (صحنها) مكان الصـلاة على ما نظن ، مكان الرباط الأول الذى اعتكفت فيه جماعة أهل الحق ، لكى تصبح النواة الصالحة للمجتمع السنى الفاضل الذى كان يطمع فيه ابن ياسين • وهكذا لم يكن الرجل الذى يوصف بالعلم والورع ، والشهامة وقوة النفس والحزم ، وحسن التدبير والصبر ، ليياس من مجرد الفشل للمرة الثانية فى لمتونة بعد فشله الأول فى جـدالة • ولا بأس أن يكون وقوف الزعيم اللمتونى يحيى بن عمر بن تلاجاجين الى جانبه مما زاد من صلابته ، وحماه من كآبة اليأس والفتور • وهنا ينبغى أن ينسب شرف مؤازرة الفقيه وتشريفه (الذى يعزى خطأ للزعيم الجدالى الأول ، يحيى بن ابراهيم) الى الزعيم اللمتونى الثانى يحيى بن عمر — وهو الأمر البين(٤) •

= والصحن المكشوف (السماوى) ، ولكنه من طابقين : الأول للسكنى والمخازن ، والأعلى ، حيث المصلى للعبادة والتعلم — أما المنارة المدورة ، حيث استخدام الاشارة الضوئية ، فتقع فى الركن الجنوبى الشرقى • وانظر محمد توفيق بلبع ، مطبوعات جمعية الآثار ، بالاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ٤٧ (سوسة) ، وص ٤٤ (المنستير) •

(٣) أنظر للمؤلف ، الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٧٩ ، المجلد ١٠ ، عدد ٢ ، وأنظر محمـد توفيق بلبع ، نشـأة الرباط وتطوره •• ، مطبوعات جمعيـة الآثار بالاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٣٨ — ٤٠ •

(٤) أنظر البكرى ، ص ١٦٥ — حيث من الواضح ان الرئاسة المدنية لجماعة ابن ياسين بعد دخول لمتونة مباشرة ، كانت ليحيى بن عمر تلاجاجين — بينما الجوهر وهو أحد الفقهاء ، كما سبق ، ص ١٧٠ ربما كاو ممن وصفهم يحيى بن ابراهيم وهو فى القيروان بأنهم قليلوا العلم ، ضعيفوا الايمان ، أنظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦١٩ — حيث انتقال الرئاسـة من يحيى بن ابراهيم الجدالى (الجوهر) الى يحيى بن عمر اللمتونى ، وان كان بشكل غامض ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٧٧ ، حيث كان أبو بـكر بن عمـر بين المرحبين بالفقيـه ومد معـه عند قدومهـم (من جـدالة) الى لمتـونة ، وقارن ص ٣٧٨ — حيث روايـة =

مكان الرباط :

من المهم الاشارة الى أن تاريخ انشاء رباط عبد الله بن ياسين ما زال من الأمور الغامضة فى تاريخ قيام دولة المرابطين ، رغم أهميته من حيث كونه الحدث المحورى الذى يدور حوله تاريخ تلك الفترة . هذا ، كما يحيط الغموض أيضا بالمكان الذى أقيم فيه الرباط ما بين مصب وادى السوس الأقصى ومصب نهر السنغال .

وفيما يتعلق بتاريخ اقامة الرباط ، فالمعروف أن اقامته تمت بعد تجربتى فشل الدعوة فى كل من جدالة على عهد الرئيس يحيى بن ابراهيم ، ولمتونة على عهد يحيى بن عمر . واذا كنا قد أخذنا بسنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م كتاريخ لبدء الدعوة فى جدالة ، فلا بأس أن يكون بناء الرباط فى سنة ٤٤٣ هـ/٢ — ١٠٥١ م ، على أساس أن تاريخ غزو جدالة بعد بناء الرباط كان فى السنة التالية ٤٤٤ هـ/٣ — ١٠٥٢ م ، حسبما ينص ابن أبى زرع(٥) . وهو ما ينسجم مع تاريخ خروج المرابطين من الصحراء الى غزو درعة وسجلماسة سنة ٤٤٥ هـ/٤ — ١٠٥٣ م ، حسبما ينص على ذلك ابن خلدون(٦) .

أما عن مكان الرباط فترجع الرواية فضل اختياره الى الزعيم اللمتونى

=ابن شداد (الزيرى) وفيها ان الزعيم الجدالى تنازل عن الرئاسة لأبى بكر بن عمر منذ بدأت الفتنة فى جدالة ، أما ابن أبى زرع فهو فى محاولته ترتيب الأحداث فى سياق تاريخى قصصى لا يشوبه اختلافات زمنية أو مكانية أو شخصية جعل يحيى بن ابراهيم الجدالى الشخصية المركزية من البداية الى تحقيق النصر النهائى ، فهو الذى بدأ بالدعوة فى كل من جدالة ولمتونة دفعة واحدة (ص ١٢٤) لكى يبنى الرباط منذ أول اختلاف (ص ١٢٥) . فهو الذى هزم كدالة ولمتونة ومسوفة (ص ١٢٦) ، كما أخضع بلاد القبلة والمصامدة وسائر بلاد المغرب (ص ١٣٦) — قبل أن تاتى وفاته فيقدم عليهم يحيى (أخو أبى بكر) بن عمر اللمتونى . اما ابن خلدون الذى يعرف رواية القرطاس فهو يقدم ملخصا مفيدا ، بجعل فيه هلاك يحيى الجدالى سبب افتراق أمرهم ، وبذلك يكون صاحب الرباط هو يحيى (أخو أبى بكر) بن عمر ابن تلاكاكين ويكون غزو لمتونة وجدالة ومسوفة تحت رايته .

(٥) القرطاس ، ص ١٢٦ — حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ — ١٠٤٢ م التى عدلناها الى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م كما سبق ، ص ١٧٠ .

(٦) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ .

يحيى بن عمر، الشريك المدنى فى رياسة «أهل الحق» الى جانب ابن ياسين(٧) .

وفى اختيار الرباط تقول رواية القرطاس - بصرف النظر عن الترتيب الزمنى - انه عندما كاد اليأس يغلب على عبد الله بن ياسين ، ففكر فى ترك الصحراء والذهاب للدعــوة فى بلاد الســودان المسلمة جنوبا ، اعترض « يحيى بن عمر » على اقتراحه هذا ، وعرفه بوجود جزيرة قريبة فى بلاد جدالة ، تتوفر فيها جميع الشروط اللازمة للحياة الكريمة ، حسبما تقضى قواعد الدين(٨) . فالموقع حصين من حيث هو جزيرة يحيط بها ماء البحر من كل جانب ، وان كانت فى وقت الجزر (عنــدما ينحسر المــاء) يمكن الدخول اليها مشيا على الأقدام ، ولكنه فى وقت المد (عند امتلاء البحر) يكون الدخول اليها فى الزوارق . أما من حيث الطعام فيها فهو حلال محض لا شك فيه ، يجمع ما بين خيرات البر والبحر من ثمار الشجر وصيد الوحش والطير والسمك (الحوت) - وكل ذلك دون عناء كبير ، الأمر الذى يحقق لهم العبادة دون أن يشغلهم ، هم الطعام الى ما شاء الله حتى الموت(٩) .

واذا كان ابن خلدون يأخذ برواية ابن أبى زرع فهو يعد لها حسبما يتراءى له من أصول المنهج العلمى . فالجزيرة عنده ربوة عالية تتفق مـع وصف بلاد لمتونة الجبلية ، والمــاء المحيط بالجزيرة مع نهر النيل (النيجر

---

(٧) والحقيقة ان قصــة الرباط ليست واضــحة فى الروايتين الأســاسيتين ، وهما : الرواية الأندلسية للبكرى المعاصر ، والرواية الافريقية لابن شداد الصنهاجى المتأخر قليلا عن البكرى ، فهى تكاد تضيع فيهما فى غمرة الانتفاضة اللمتونية ضد ابن ياسين . والحقيقة انه اذا كان البكرى قد عوض ما أثاره من الغموض بالتفصيلات المدهشة عن الحياة فى الرباط مما يجعله حقيقة ناصعة مثــل : الترتيب الدقيق الذى خطط للدخول فى الرباط ، واللوائح المنظمة للعقوبات الخاصة بالجرائم المختلفة والتى عادة ما يكون تطبيقها بأثر رجعى ، كما يقال الآن ، والذى يمكن فى تلك الحال أن يكون الاتهام فيها أمرا محتملا وليس أكيدا ، كنوع من التزكية والتطهر ، فان رواية ابن شداد أثارت البلبلة فى كتابات المتأخرين ، حتى الكبار منهم مثــل ابن الأثير ، والنويرى . أما عن ابن أبى زرع ، صاحب روض القرطاس ورغم ما فيه من الاضطرابات فيرجع اليه الفضل فى محاولة ترتيب الأحداث اعتبارا من تأسيس الرباط ، وبالتالى محاولة القاء الضــوء على ظروف بنائه ، الأمر الذى اخـذ به ابن خلدون ، واكده غيره من المحدثين .

(٨) القرطاس ، ص ١٢٤ - مع ملاحظة جعل يحيى بن ابراهيم الجدالى مكان يحيى ابن عمر - مما سبقت الاشارة اليه - ص ١٨٤ - حيث النص على انه أى يحيى (الجدالى) لم يرتكه بل قال له : هل لك فى رأى أشير به عليك ان كنت تريد الآخرة ... الخ .

(٩) القرطاس ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

والسنغال عند الجغرافيين العرب) الذى يهيىء الماء العـذب اللازم لشرب الجماعة والذى تقوم عليه بطبيعة الحال حياة الشجر والوحش والطير(١٠) ٠

والذى نراه أن وصف مكان الرباط بأنه جزيرة فى البحر فى بعض نواحى جدالة ولمتونة ، كما يرد فى قرطاس ابن أبى زرع يمكن أن ينطبق على واحد من ثلاثة مواضع على شاطىء الأطلنطى : أولها جزيرة أيونى أو جزيرة السلاحف البحرية (الترسا) عند البكرى (ما سبق ، ص ٩٤) ٠ ولكن تلك الجزيرة لما كانت غـير عامرة الا لصيد البحر من الأسـماك والسلاحف الى جانب بقايا العنبر التى تقذفها الحيتان فى البحر فترسوا على الشط ، فهى اذن ليست صالحة لاقامة رباط يحوى أعدادا كبيرة من الناس لنقص الغذاء فيها ، والماء ، وهى لذلك مستبعدة ٠

أما عن الموضعين الآخرين فأولهما رباط ماسة الذى رأينـا احتمال كونه رباط وجاج ابن زللو (رباط ملكوس) افتراضا جيـدا (ما سبق . ص ١٧٣) بسبب كونه فى مصب وادى ماست ، فى تلك المنطقـة الغنية بخيراتها الزراعية ، وبوفرة مياهها ٠ ويؤيد افتراضنا هـذا وصف ليون الافريقى الذى يكاد يطابق وصف ابن خلدون لرباط ابن ياسين من حيث وجوده فى منطقة جزائر بحرية يحيط بها الماء ٠ فمدينة ماسة عبارة عن ٣ (ثلاث) مدن على ساحل المحيط ، ونهر السوس يمر بينها ٠ وهذا النهر يعبر خوضا فى الصيف ولكن لا يمكن اجتيازه شتاء الا فى مراكب صغيرة ليست مهيأة تماما لتلك المهمة(١١) ٠ هذا ، ومما يوجه النظر الى منطقـة ماست ، ما تقوله رواية القرطاس أيضا من لجوء عبد الله بن ياسين الى وجاج

---

(١٠) العبر ج ٦ ، ص ١٨٣ — حيث النص على هلاك يحيى بن ابراهيم ، وترك الأحذ عن ابن ياسين « لما تجشموا فيه من مشاق التكليف ، فاعرض عنهم ، وترهب ، وتنسك يحيى بن عمر بن تلاكاكين ، من رؤساء لمتونة » ٠ وعن وصف الرباط ، يقول : « فنبذوا الناس فى ربوة يحيط بها بحر النيل من جهاتها ضحضاحا فى المصيف وغمرا فى الشتاء ، فتعود جزرا منقطعة ٠ وهنا يكون ابن خلدون قد غابت عنه ظاهرة المد والجزر ، وجعل بدلا منها ظاهرة الفيضان النهرى وان وضع الصيف مكان الشتاء — حيث فيضان الأنهار المدارية موسميا فى الصيف ، وهو ما لاحظته د٠ عصمت فى رسالتها عن دور المرابطين فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧١ — ٧٢ ٠

(١١) لـون الافريقى ، ص ١٢٥ ، وهـ ٦٨ — حيث أحيـاء ماست الثـلاثة هى : غبالو ، واغادير نسوق ، وتاسلنوت ٠

ابن زللو عقب طرده من « ارتننى » ، رباط لمتونة المحلى وهدم داره هناك ، والقول بانه عاد مؤيدا بمساندة وجاج لكى يقاتل خصومه ويهزمهم ويقتص منهم ، قبل فتحه كل بلاد الصحراء (ما سبق ، ص ١٨٢) ٠

وفيما يتعلق بالموضع الثالث والأخير ، فالحقيقة أن تحديد ابن خلدون لمكان الرباط فى النيل حاز موافقة جمهرة الباحثين ، وخاصة منذ ترجمة الجزء الخاص بالمغرب (بلاد البربر) من كتاب العبر بمعرفة دسلان (De Slane) ، الذى حدد جزيرة الرباط بمنطقة مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى (ما سبق ، ص ١٨٧ ، هـ ١٠) ٠ ويرجح هذا الاحتمال بطبيعة الحال ، قرب مواطن جدالة ولمتونة ، بشكل عام ، كما ان منطقة الجنوب الصحراوى المتاخم لغانة كانت موطن آل عبد الله بن ياسين من جزولة (ما سبق ، ص ١٧٤) بصفة خاصة ، وهذا ما كان يلح عليه فى أن ينقل نشاطه الدعائى جنوبا نحو بلاد السودان الاسلامية ، منطقة التكرور ٠ ولكل ذلك كانت منطقة مصب السنغال هى المنطقة المثالية بالنسبة لابن ياسين ليقيم « الرباط »[١٢] ٠

---

(١٢) انظر العبر ج ٦ ص ١٨٣ ، وترجمة دسلان ، ج ١ ص ٦٩ وهـ ٤ — حيث المقارنة مع وصف القرطاس للرباط ، والنص على ان ابن خلدون محق عندما يجعل الرباط فى نهر السنغال ، من حيث أن من المعروف ان هذا النهر يفصل بين الجنس الزنجى (الأسود) والجنس البربرى (الأبيض) ٠ ويؤيد ذلك ما لاحظه البرتغاليون سنة ١٤٤٦ ، عندما كانوا يقومون باستكشافاتهم الأولى فى الساحل الافريقى الغربى حيث كانت قبائل الصنهجى (Assanhgi) او الزنجية (Zanaga) تعيش على الضفة الشمالية لنهر السنغال ، بينما كانت قبائل اليالوف (Yalof) او الولوف (Wolof) اى القبائل السودانية تحتل الجانب الآخر (الجنوبى) ٠ هذا ، كما يجب ملاحظة ان السنغال هو تحريف بكلمة اصناجه (Asnaga) او تزناجن (Zenaguen) ، وهى جمع صناج (تزناج : Zenag اى صنهاجة ٠ وقارن حسن احمد محمود ، المرابطون ص ١٢٤ — ١٢٥ — حيث اقتراح حسين مؤنس (فى مقدمة رياض النفوس) أن يكون الرباط فيما يلى تارودانت جنوبا على حدود الصحراء ، واقتراح ديلاشابل أن يكون الرباط قرب بلدة اولبل فى خليج ارجان (Arguin) قبل ترجيح مصب السنغال الأدنى ٠ وقارن عصمت دندش ، دور المرابطين فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، ص ٧٠ وما بعدها — حيث نفس الاختلافات مع محاولة تحديد موضع الرباط فى « حوض السنغال الذى تسيطر عليه ممالك السودان » ؟ ، واضافة اقتراح عنان ان يكون الرباط جزيرة فى منحنى نهر النيجر ٠

نظام المرابطة :

الذى يفهم من مجمل الروايات الخاصة ببناء الرباط أن الذين دخلوه بصحبة الفقيـــه : عبد الله بن ياسين (الجزولى : الجـــدالى) والرئيس : يحيى بن عمر بن تلاكاكين (تلاجاجين) اللمتونى ، كانوا عصـــبة قليلة لم تبلغ أكثر من ٧ (سبعة) أفراد ، وهو الأمر غير المقبول من غير شك ٠ ونحن نقبل رقم الـ ٧٠ (سبعين) رجـــلا الذى يقول البكرى أنهم دخلوا لمتونة ، فكانوا نواة « رباط » « ارتننى » فى أرض لمتونة ، على أساس أنه وضع فى غير موضعه الصحيح(١٣) ٠ فلا أقل من هذا العـــدد من الأنصار يكونون فى معية الداعى المـــالكى ، وصـــاحبه الزعيم اللمتونى بما له من الشأن والجاه ، مهما كانت النقمة على دعوتهما ، والنوء بثقل التكاليف التى فرضاها على الناس فى كل من بلاد جدالة ولمتونة ٠ وأما القول بأن القصد كان البحث عن ملجأ متواضـــع من أجـــل التعبد والتنسك ، فالمعروف أن الرباط كان فى الأصل مؤسسة عسكرية جهادية ، وأن هـــذا ما عبر عنه ابن ياسين عندما فكر فى المسير الى بلاد السودان الاســلامية (ما سبق ٠ ص ١٨٦) التى يكون الرباط على حـــدودها من أجل مجاهدة الـــكفار منهم والعمل على نشر الاسلام الصحيح بين الجميع ٠ وهذا لا يمنع بطبيعة الحـــال أن تكون البداية متواضعة ، وأن يكون الهدف الأول المعلن عن التجمع فى الرباط هو العبادة ٠

واذا كان أبى زرع ينص على أن جماعة المؤسسين للرباط من مريدى ابن ياسين كانوا ٧ (سبعة) نفر من الجداليين(١٤) ، فان هذا النص يمكن قبوله على أساس أن هؤلاء الجداليين كانوا من الأنصار الأوائل الذين دخلوا معه الى بلاد لمتونة أو لحقوا به هناك ، وأنهم ظلوا أنصارا مخلصين ، فخرجوا مع من خرج معه من جمهـــور لمتونة تحت أمرة رئيسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين اللمتونى — ولا بأس أن يكون عددهم ٧٠ (سبعين) رجلا ، وهو الرقم الذى يقدمه البكرى ، وان كان بمناسبة الدخـــول الى لمتونة وليس بمناسبة الخروج منها (ما سبق ، هـ ٤٦ ص ١٧٩) ٠ والمهم أن جمـــاعة المؤسسين من المرابطين ، اكتفت فى معاشها بالمـــآكل الحلال المحض من ثمار الشجر وصيد البر والبحر ، وانقطعت الى حياة الزهد والعبادة لمدة ٣ (ثلاثة)

---

(١٣) انظر فيما سبق ، ص ١٧٩ وهـ ٤٨ — حيث الاشارة الى اهمية الرقم ٧ فى الفكر الفاطمى الاسماعيلى ٠

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٥ ، وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ — حيث النص على انهم دخلوا فى غياضها (الربوة) منفردين للعبادة ٠

أشهر ، وصلت خلالها أخبار تنسكهم الى أبنـــاء القبائل فى المنطقة(١٥) ، الأمر الذى يعنى أن الدعاية للرباط كانت تسير جنبا الى جنب مع أعمـــال الورع والتقوى ، ان لم تكن تلك الأعمـال التعبدية ، من : قراءة القرآن . والاستمالة الى الآخرة ، والترغيب فى الثواب ، والتحذير من العذاب ، هى نفسها مادة الدعاية للجماعة ومصدرها . ففى ذلك تقول رواية القرطاس انه عندما تسامع الناس بأخبارهم كثر « الوارد » عليهم «والتوابون»(١٦) ، فكان الداخلون فى الرباط ما بـين وارد للسقيا أى لطلب العـلم والخـير ، وتائب عن الذنب والشر ، فكأنهم طلاب أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو المبدأ الاسلامى المنبثق عن الفكرة الأساسية فى الاسلام ، كما فى الديانات السماوية الأخرى ، مبدأ الحساب والثواب والعقاب ، الذى يعنى أن الحياة الدنيا لم تخلق عبثا . ومن هنـــا كان تطبيق مبدأ التوبة كشرط مسبق لدخول الرباط ، وعن هذا الطريق تحول « أهل الحق » الى « توابين » قبل أن يصيروا « مرابطين » .

شروط الالتحاق بالرباط :

وهكذا نرى أن نظام الرباط كان يتكامل بشـكل طبيعى مـع مرور الوقت ، وخاصة بعد أن تهافت المحرومون من أهل الصحراء وفقرائهم ، على طلب ثواب الجنة الذى وجدوا فيه عزاء لهم عن مشاق حيـاتهم ومتاعبها . والحقيقة أن الفضل يرجع الى البكرى فى التعريف بنظام الرباط من حيث تقرير مبدأ التوبة على الداخلين الجدد فى الجماعة وما يقتضيه من العقوبات المختلفة بدءا من التعزير ، الى اقامة الحدود ، وحتى العقوبة العظمى ، وذلك حسب اللائحة التى وضعها عبد الله بن ياســين . واذا لوحظ فى تطبيق العقوبات شىء من الصرامة ، مثل تطبيقهـــا بأثر رجعى ، فان ذلك يعنى حسبان مقتضى الحال بالنسبة لمجتمع الصحراء بعاداته الخشنة وأعرافه الحادة مما يسمح لأهل الحواضر بوصفه بمجتمع الجاهلية (ما سبق ، هـ ٤٥ ص٧٥) . وتظهر القسوة فى تطبيق قواعد الشرع بشكل تاريخى سافر فى الصحراء ، عندما انطلق رجال عبد الله بن ياسين من الرباط ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى بلاد القبائل ، والمطالبة « بحقوق الله » من أموال أهل القرى

---

(١٥) القرطاس ، ص ١٣٥ .

(١٦) القرطاس ، ص ١٢٥ وقـارن ابن خلـدون ، ج ٦ ص ١٨٣ ــ حيث النص : وتسامع بهم من فى قلبه مثقال حبة من خير ، فتسايلوا اليهم ، ودخلوا فى دينهم ، وغيضتهم .

والواحات ، الأمر الذى أثار اشمئزاز وجاج بن زللو : أستاذ ابن ياسين ، وقدوته فى المرابطة (ما بعد ٢٠٦) ·

وهنا نود الاشارة الى أن بعض ما ينسبه البكرى الى فترة الرباط من أعمال الشدة مع الواردين أو التوابين فى الرباط يمكن أن يكون قد اختلط بما طبق من القوانين بصرامة — ربما كانت مبررة — مع المهزومين وخاصة فى الصحراء ، من الأخوة وأبناء الجلدة ، ممن كان عليهم الالتحاق بصفوف المجاهدين فى فترة التحول الحاسمة هذه ، حيث كانت الحاجة ماسة للرجال قبل الأموال ·

التوبة والتطهر :

وهكذا كان على عبد الله بن ياسين ومن معه من رؤساء الرابطة أن يحسنوا اختيار المريدين بعد أن تزايد عدد الراغبين منهم فى الانتساب للرباط ابتغاء عمل الخير وثواب الجنة · فكان عليهم أن يخضعوا الداخلين الجدد فى زمرة الجماعة لاختبار حسن النية وصدق الارادة مع قوة العزيمة عن طريق تجربة التحمل النفسى والجسدى · ومن الواضح أن الرباط كان لا يقبل الا الناضجين من الرجال ممن تخطوا مرحلة الشباب ، الأمر الذى كان يعنى تمام الجسم مع كمال العقل ، ويضمن حسن التصرف · ويستنتج ذلك مما كان يعرض على الداخل فى الدعوة بعد أن يعلن التوبة ، من أداء حقوق الله فيما كان يمكن أن يكون قد اقترفه فى شبابه ، من الذنوب ، فيقام عليه حد الزانى (١٠٠ سوط) ، وحد المفترى (٨٠ سوطا) ، وحد الشارب (للخمر ١٠٠ سوط) ، بل وربما زيد على ذلك زيادة فى الحيطة ·

أما اذا اتضح من اجابة الرجل المستجوب أنه ارتكب جريمة القتل مثلا ، فانهم يقتلونه « سواء أتاهم تائبا طائعا أو مجاهرا عاصيا »(١٧) ·

وأداء فريضة الصلاة كان خاضعا للرقابة المشددة ، تحت العقوبة الجسدية للمتخلف أو المقصر ، بل وكانت الصلاة تؤدى كاملة مرتين ، مرة أولى بصفة شخصية كصلاة فردية ، ومرة بشكل رسمى كصلاة جماعة ، عوضا عن التفريط · وهنا كان لكل ذنب عقوبته المناسبة ، فالتخلف عن

---

(١٧) البكرى ، ص ١٦٨ ·

الصلاة عقوبته ٢٠ (عشرين) سوطا ، وعن الركعة الواحدة ٥ (خمسة) أسواط(١٨) .

ومن الواضح أن هذه الترتيبات الخاصة بأداء الصلاة وباقامة الحدود مما عرف فى الرباط ظلت تطبق فى العهد الأول للدولة المرابطية ، عهد « صحابة » عبد الله بن ياسين . فامامة الصلاة فى مساجدهم ظلت حكرا أو عملا شرفيا لأولئك الذين صلوا وراء ابن ياسين ، حتى ولو وجد بين المصلين من هو أكثر علما وورعا(١٩) . وأولئك الذين دانوا «لدولة الرباط» سواء بالقهر أو بالرغبة كان عليهم أن يخضعوا للامتحان الجسدى بعد اعلان التوبة(٢٠) .

وهكذا كان عبد الله بن ياسين يمكنه أن يأخذ الموافقة من الأمير يحيى ابن عمر لخلع ملابسه حتى ينزل به عقوبة التأديب الخفيف جلدا . وهو ما فعله الفقيه قبل أن يعرفه أن ذنبه التهور أثناء المعركة ومباشرته القتال بنفسه الأمر الذى عرض حياته للخطر ، وفى ذلك تعريض لهلاك عسكره(٢١) .

الخروج من الرباط والعمل الايجابى :

رغم النظام الصارم الذى اتبعه ابن ياسين فى التأهيل الدينى والنفسى لأهل الرباط ، فان النصوص التى بين أيدينا لا تشير الى أى ترتيبات تتعلق

---

(١٨) البكرى ، ص ١٦٩ — حيث النص على أن أكثر عوامهم يصلون بغير وضوء اذا أعجلهم الأمر جزعا من الضرب .

(١٩) البكرى ، ص ١٦٩ — حيث النص : « وهم الآن (على عهد البكرى) لا تقدم طائفة منهم أحدا للصلاة الا من صلى وراء عبد الله ، وان كان فى تلك الطائفة أقرأ منه وأورع من لم يصل وراءه .

(٢٠) البكرى ، ص ١٦٩ — حيث النص على انهم « يفعلون (هكذا) بمن تغلبوا عليه وأدخلوه فى رباطهم ... سواء أتاهم تايبا طايعا أو غلبوا عليه مجاهرا عاصيا لا ينفعه توبته ولا يغنى عنه رجعته . وقارن القرطاس ، ص ١٢٦ — حيث القول فى توبة قبائل صنهاجة : « كان كل من أقبل اليه تائبا منهم طهره بأن يضربه مئة سوط ، ثم يعلمه القرآن » ... الخ .

(٢١) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٧ — حيث عدد الضربات ٢٠ سوطا — وحيث تتلخص واجبات الأمير فى الحرب فى الوقوف وتحريض الناس وتقوية نفوسهم .

بالإعداد العسكرى للجماعة ، فى أى من مجالات التاهيل البدنى أو الفنى أو التقنى . والحقيقة أنه لا بأس فى أن يكون المرابطون الأوائل فى غير حاجة الى التدريبات العسكرية من حيث أن أهل الصحراء من الجمالة كانوا معدين للأعمال العسكرية وخوض المعارك الحربية بحكم النشأة . فهم بدو رحالة ، اعتادوا مشاق الطرق الوعرة بأشكالها ، والتوحد فى القفر ، كما اعتادوا على أعمال الدفاع عن الديار ، واحترفوا أحيانا الغارة على الجيران . وهكذا انقطعت الجماعة الأولى الى أعمال العبادة والتنسك . واذا كان ابن أبى زرع ينص على أن شهرة الجماعة كانت قد ذاعت بين القبائل خلال ٣ (ثلاثة) أشهر فقط ، وأنه لما كثرت الوفود على الرباط فكر ابن ياسين جديا فى الخروج من الرباط لنشر دعوته — دون تحديد الوقت — فان الوقائع تدل على أن تلك المرحلة استغرقت ما يناهز الثلاث سنوات وأكثر من سنة ٤٤١ هـ/١٠٤٩ م (حيث التفكير فى انشاء الرباط — ماسبق ص١٨٥) الى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م (حيث الخروج لغزو بلاد جدالة — المتاخمة للرباط — فما بعد ، ص ١٩٥) .

واذا كانت الرواية الدارجة تنص على أن عبد الله بن ياسين ، قرر الخروج لمواجهة الأعداء عندما بلغ أنصاره ١٠٠٠ (ألف) رجل من أشراف القبائل ، كما يقول ابن أبى زرع(٢٢) ، بمعنى المحاربين الأشداء ، على أساس أن فرقة عسكرية من ألف مقاتل جيد لا تغلب من قلة ، كما يقول نص ابن خلدون ، فمن الواضح أن المقصود بتلك المقالة هو موقف الدفاع الذى يتحقق بفضله الاستقلال ، وليس الفتح والغزو ، بل الاكتفاء بالدعوة « لدولة الحق »(٢٣) . وهذا ما يفهم فعلا من تواتر الأحداث ، كما فى تكملة النصين السابقين ، حيث تؤكد رواية ابن أبى زرع أن ابن ياسين وجه الألف رجل من المرابطين لانذار أقوامهم ودعوتهم الى الدخول فى « دولة الرباط » ، وتحذيرهم من مغبة الرفض والعصيان حيث يكون الحكم للسيف — وهو حكم الله الذى ينصف « أهل الحق »(٢٤) . ومثل هذا ما تقوله رواية

---

(٢٢) القرطاس ، ص ١٢٥ — حيث النص على أنه عندما اجتمع له من التلاميذ نحو ١٠٠٠ رجل من أشراف صنهاجة ، فسماهم « المرابطين » للزوم رابطته ، وأخذ يعلمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة .

(٢٣) أنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ — حيث النص : « لما كان معهم ألف من الرجالات ، قال لهم شيخهم عبد الله : ان ألفا لن تغلب من قلة ... » .

(٢٤) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ — حيث النص على أنهم لما تفقهوا وكثروا ، وعظهم ...

ابن خلدون ملخصا ، من قول ابن ياسين ، « وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء اليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك »(٢٥) ٠

الدعوة السلمية قبل الأعمال الحربية :

ويؤكد ما نذهب اليه من أن حركة الألف رجل كانت للدعاية « لدولة الرباط » فى قبائلهم ، ما تنص عليه رواية القرطاس استكمالا لما سبق ، من أن كل رجل من المرابطين سار الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم دون جدوى ، اذ لم يكن منهم من يقبل ٠ وعندئذ خرج اليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وقام بمحاولة أخيرة لاستمالتهم الى دعوته ٠ فجمع مؤتمرا عاما من رؤساء القبائل ، حاول فيه أن يعرفهم بأصول مذهبه ، فرغبهم فى الثواب وخوفهم من العقاب ، ودعاهم الى التوبة والتطهر ، كما فعل أهل دعوة الحق فى الرباط ، وذلك على طول ٧ (سبعة) أيام ، وهم لا يلتفتون اليه ٠ وعندما أصابه اليأس آخر الأمر ، أعلن لأصحابه فشل التسوية السلمية وضرورة اللجوء الى القوة(٢٦) ٠

والذى تنص عليه الرواية هو أن أن الجيش المرابط الذى بدأ يغزو جدالة كان يتألف من ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، فهو اذن غير الألف ناسك الذين خرجوا الى القبائل الداعين للدخول فى دولة الرباط ٠ أما عن كيفية جمع الرجال فاغلب الظن أنه تم فى مكان مؤتمر القبائل الذى كان فى أرض محايدة متوسطة بين حمى القبائل المختلفة من غير شك ، وهو المكان الذى أصبح معسكرا جديدا ، فى موضع استراتيجى يسمح بحشد المزيد من الداخلين الجدد من القبائل فى حزب ابن ياسين ، بشكل أفضل من رباط مصب السنغال الذى لم يعد من الممكن فى الظروف الجديدة العودة اليه ٠

= وشوقهم الى الجنة وامرهم بتقوى الا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم دعاهم الى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة ٠٠٠ فقالوا (له) : أيها الشيخ المبارك ، مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو امرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ٠ فقال لهم : اخرجوا ٠٠٠ أنذروا قومكم ٠٠٠ ان تابوا فخلوا عنهم ، وان أبوا ٠٠٠ جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ٠

(٢٥) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - واذا كانت الرواية تعرض بعد ذلك لقتال المصامد من القبائل ، فان هذا مما يأتى فى سياقه فيما بعد - ص ١٩٥ وما بعدها ٠

(٢٦) أنظر القرطاس ، ص ١٢٥ - ١٢٦ - حيث النص على انه لما يئس قال لأصحابه ٠٠٠ وجب علينا جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله ٠

غزو الصحراء :

خضـوع جـدالة :

وهكذا بدأ المرابطون تحت قيادتهم الدينية العسكرية المشتركة ، وان كانت الهيمنة بطبيعة الحال لابن ياسين ، غزو قبائل جدالة لكونهـا أقرب لمواطن صنهاجة الى الرباط من جهة ، وبصفتها المهد الأول لدعوة عبد الله بن ياسين من جهة أخرى ، حيث يكون للانتصار فيها قيمة معنوية تمحو ذكريات الفشل الأليمة ، وتفتح آفاق المستقبل المشرقة أمام حركة التجديد الاسلامية فى صـحراء أفريقيا الغربية · ودون تفصـيلات مثيرة ، تكتفى الرواية بتسجيل هزيمة جدالة ، ومقتل الكثير من رجالها ، بينما « أسلم البـاقون اسلاما جديدا ، وحسنت حالهم » ، وذلك فى صفر سنة ٤٤٤ هـ/يونيـه ١٠٥٢ م(٢٧) ·

فكأن رباط عبد الله بن ياسين يدخـل فى حقيقة الأمر ضمن حركة التجديد التى قامت بها ربط الطرق الصـوفية فى المشرق وخانقاواتها ، والتى سيكون للامام الغزالى عما قريب ، شأن فيها بفضل تجربته الصوفية ، ومن ثم تاليفه « احياء علوم الدين » مما يمت لتاريخ المرابطين والموحـدين بسبب أو بآخر ·

خضوع لمتونة :

ويأتى بعد جدالة غزو لمتونة الذين لم يقاوموا كثيرا كمـا يفهم من رواية القرطاس ، الأمر الذى يبرره وجود زعيمهم يحيى بن عمر على رأس المرابطين الى جانب ابن ياسين · وهكذا أذعنوا الى الطاعة ، وأعلنوا التوبة وخضعوا بالتالى لما تتطلبه من التطهر الجسدى والتزكية بالسوط ·

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٦ ـ حيث السنة ٤٣٤ هـ / ٣ ـ ١٠٤٢ م التى عدلت بداية الدراسة باضافة ١٠ (عشر) سنوات ، حتى يستقيم مسار «الأحداث» (ماء ص ١٦٨) · وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٩ ـ حيث العودة (من الرباط الا ذكر صريح فى رواية ابن شداد الصـنهاجى ، وهى الاصـل) الى جدالة إبن ياسين على جهادهم والنويري (أبو ضيف) ، ص ٣٧٩ ، (نصار ص ٢٥٧ ، حيث التحريض على القتال وتسمية الأنصار بالمرابطين ، وعن جد مما سبق ، ص ٦٩) ·

والأهم من كل ذلك أنهم التزموا بالتمسك بقواعد الشرع من القرآن والتقاليد النبوية(٢٨) .

خضوع مسوفة :

وكان من الطبيعي بعد أن خضعت كل من جدالة ولمتونة أن يتم ادخال ثالث أكثر قبائل صحراء الملثمين الصنهاجية ، وهي قبيلة مسوفة (ماسبق ص ٧١) في دولة الرباط . والظاهر أن الأمر لم يتطلب كثيرا من الجهد ، اذ أذعن المسوفيون بدورهم على نفس الشروط التي قبلتها جدالة ولمتونة ، وهى : بعد التوبة والتزكية الجسدية ، الالتزام بالعمل بما يقضى به الكتاب، وما يقرره مذهب عبد الله بن ياسين السني أصلا ، المالكي فرعا .

دخول بقية قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط والتخلص من بقايا المعارضين :

بعد خضوع القبائل الصنهاجية الكبرى لابن ياسين ، وتجديد اسلامها حسبما يقضى مذهب المرابطين ، وأمام الحماس الدافق من قبل الداخلين الجدد فى الدعوة ، لم يكن أمام بقية الفروع من القبائل والأفخاذ والعشائر الا الاعتراف بنظام الرباط ، وما يقضي به من الالتزام بعمل الخير مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهكذا سارع الجميع « الى التوبة والبيعة » مع تجديد دينهم بالتعلم والعمل(٢٩) .

وكان من الطبيعي أن تبقى بعض عناصر المجتمع القبلي الصحراوى على ما كانت عليه ، تماما كما حدث في أول الدعوة فى جدالة ولمتونة ، مما أدى الى الاعتكاف في الرباط ، وأن يقف هؤلاء من ابن ياسين وحزبه من المرابطين موقف المعارضة . وفى ذلك تقول رواية ابن عذارى (الزهرى الصنهاجى) التى يأخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى أن هؤلاء المخالفين الذين يطلق عليهم اسم الأشرار ، تجمعوا فيما بينهم فى أعداد كبيرة كان يخشى بأسها ، الأمر الذى دعا كلا من ابن ياسين ويحيى بن عمر عمل التربص ، والهجوم

---

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أنهم « بايعوه على اقامة الكتاب والسنة » وعن لمتونة أنظر ما سبق ص ٦٩ .

(٢٩) أنظر القرطاس ، ص ١٢٦ - حيث النص على أن « كل من اقبل اليه تائبا منهم طهره بأن يضربه ١٠٠ (مائة) سوط ، ثم يعلم القرآن وشرائع الاسلام ، ويأمره بالصلاة والزكاة واخراج العشر » .

الى السياسة والمداراة ، بل وربما الى الخدعة ايضا ، فى سبيل التخلص منهم بأهون الأسباب · وهكذا استعانت القيـــادة المرابطية بالمصلحين من قبائل هؤلاء الرجال الذين يوصفون مرة أخرى « بأهل البغى والفساد » فى استمالتهم بالترغيب والترهيب ، على ما نظن · ونجحت سياسة « الحاجة تبرر الواسطة » فى استدراج عــدد كبير من أولئك الذين كان يشك فى ولائهم « للرباط » على الأقل ، بلغ حوالى ٢٠٠٠ (ألفين) الى ساحة كانت تستخدم « زربا » أى حظيرا للابل · وهناك أحيط بهم ، وتركوا أياما بغير طعام · وعندما وهنت قواهم ، أخرجوهم جماعة بعد أخرى لكى يقتلوا عن آخرهم(٣٠) · وأتى العمل الترهيبى بما كان يرجى منه فدانت لابن ياسين قبائل الصحراء ، وسادت هيبة المرابطين وتقويت شوكتهم(٣١) . الأمر الذى يعنى وضع القواعد التأسيسية لدولة الرباط ·

---

(٣٠) انظر ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ ، وقارن النويرى (ابو ضيف) ص ٣٧٩ ، (نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٧ ·

(٣١) نفس المصدر ·

الفصـــل الرابـــع

قيـــام دولة المرابطين

القواعد التاسيسية والسياسة المدنية

القواعد التاسيسية :

المقصود بالقواعد التأسيسية التى قامت عليها الدولة المرابطية ، هى مجموعة المبادىء العامة التى يلتزم بهـــا المسئولون فى تسييرهم لشـئون الحكم ، من أجل تحقيق الأهداف المعلنة من قبل عبد الله بن ياسين ، المنظر الأول للدولة المرابطية ، والتى تتحقق بها مصالح « أهل الحق » من المسلمين الجدد على كل المستويات ، من دينية روحيـــة أو مدنية مادية . فكأن تلك المبادىء التى تعرف فى أيامنا هذه بالمبادىء الدستورية أو بالدستور فقط على وجه الاختصار ، وهى التى يتمسك بها جميع أفراد المجتمع على أساس أنها تحفظ حقوق أبناء الوطن وتنص على ما عليهم من واجبات .

والمهم أن ما تقرر فى الرباط من واجبـــات على جماعة « أهل الحق » أصبح من القواعد الملزمة لرعية « دولة الرباط » . وأول هـــذه الواجبات تتمثل فى التوبة (عما سلف من التفريط فى مجتمع الجاهلية) وما يستتبعها من التطهر وتزكية الجســـد ، حتى تشف الروح وتسمو النفس . ومن ثم يكون حق التائب فى تعلم القرآن وشرائع الاسلام ، من الصـــلاة الى أداء ضريبتى زكاة المـال وخراج الأرض . ومن ثم يصبح المرابط مواطنا صالحا ، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد فى سبيل الله ، ويصير من أهل الخير المبشرين بالجنة ـ الهدف الأسمى من الحياة (ما سبق ، ص ١٩١ ـ ١٩٢) .

السياسة المدنية :

القيادة المشتركة وتقسيم العمل :

تميز الرباط بقيادته المشتركة ، وهو الأمر المقبول من حيث ازدواجية تكوين الرباط كمؤسسة جهادية تعبدية . وهكذا تاسس الجيش منذ بداية الدعوة ، وقام قائد الأمير ، ممثل السلطة المدنية الى جانب الفقيه المنظر ،

ممثل السلطة الدينية ، وله التفوق على الأمير ، من حيث هو صاحب السلطة العليا أو القرار الأخير • وهو ما أكده ابن ياسين ، فى ساحة القتال فيما بعد ، عندما أدب يحيى بن عمر على ما بدر منه من التهور فى القتال ، قبل أن يعرفه بسبب العقوبة • وبذلك تحددت مهام الأمير القائد فى الوقوف وتحريض الجنود على خشن القتال دون مباشرته الحرب ، ففى حياة الأمير حياة رجاله ، وفى هلاكه فناء جيشه(١) • وبذلك تحددت وظيفة الأمير فى مجال الحرب والدفاع ، بينما صارت للفقيه الأمور الدينية من الأحكام ، فكانت الرئاسة الحقيقية لعبد الله بن ياسين(٢) : شهيد الجهاد فى تامسنا (ما بعد ، ص ٢٢٨) ومشرع القوانين التى لم تكن فوق مستوى النقد من قبل المثقفين من أهل القيروان(٣) •

الجيش :

أما عن الجيش الذى تكونت نواته فى الرباط ، فلم يكن جيشا قبليا مبنيا على العصبية كجيوش الصحراء الطبيعية ، اذ كان أفراده يرتبطون فيما بينهم برباط الأخوة فى الرباط ، أى فى التعبد والجهاد بشقيه : النفسى والحربى ـ تماما كما كان الحال بالنسبة للمسلمين الأوائل السابقين من أنصار ومهاجرين • فجيش ابن ياسين أشبه بجيوش الدول الحديثة ، ذات النظم المتحدة أو الاتحادية ، الذى يحارب فيه أبناء العصبيات المختلفة تحت الراية الواحدة ، رمز الوطنية فى الدولة المفردة أو الامبراطورية المركبة ـ انه جيش دولة الرباط والمرابطين ، دولة العباد المجاهدين ، دون تفرقة عنصرية جدالية كانت أم لمتونية مسوفية •

أما عن تسليح هذا الجيش وتقنياته الحربية فالمفروض أنها كانت بسيطة فى بداية الأمر بشكل يتفق مع امكانيات جماعة العباد المحدودة فى

---

(١) البكرى ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ •

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ •

(٣) البكرى ، ص ١٧٠ ـ حيث النص على أنه « مما يحفظ من جهل ابن ياسين أن رجلا اختصم اليه مع تاجر غريب عندهم ، فقال التاجر فى بعض مراجعته لخصمه حاشى لله أن يكون ذلك ، فأمر عبد الله بضربه ، وقال : لقد قال كلاما فظيعا وقولا شنيعا يوجب عليه أشد الأدب • وكان بالحضرة رجل قيروانى فقال لعبد الله وما تنكر من مقالته والله عز وجل قد ذكر ذلك فى كتابه فقال حكاية عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن فى قصة يوسف : « وقلن حاشى الله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (سورة يوسف آية ١٢) ، فرفع الضرب من ذلك الرجل •

الرباط ، ولكنها لم تلبث أن تطورت بشكل سريع يتفق مع ايقاع الوحـدة المتزايد بين قبائل الصحراء ، الأمر الذى كان له مردوده السريع والمتعاظم على المستوى الاقتصادى ، بتوحد ثروات قبائل الصحراء المسيطرة على طرق التجارة مع بلاد السودان (ما سبق ، ص ١١٤) تحت سلطات المرابطين • فحوالى سنة ٤٦٠ هـ/٨ ـ ١٠٦٧ م أى بعد حوالى ١٥ (خمسة عشر) عاما من توحيد الصحراء تحت علم دولة الرباط ، يعطى البكرى صورة جيدة عن نظام القوات المرابطية وتسليحها الجيـد ، وخططها الحربية المتقدمة ، رغم ما يقوله من أن سلطة الدولة الناشئة كانت بعد منتشرة غير موحدة ، وأن الالتئام لم يكن قد تحقق بعد بين أطرافها المتفرقة[٤] •

الخطط الحربية :

ففرق الجيش المرابطى كانت قد تطورت بعد أن أصبحت تحوى الخيل الى جانب المهارى ، وبعد أن أصبحت الحراب الطويلة والمزاريق القصـيرة العمود الفقرى لقوات المشاة ، الكتلة الرئيسية فى الجيش • وهذا التجديد فى التسلح يعنى أخذ المرابطين بأساليب الحرب فى بلاد الحضارة المتاخمـة للصحراء مما كان قد وقع بين أيديهم من أطراف بلاد المغرب ، وخاصة فى بلاد السوس الأقصى ، بلاد التخصص فى استعمال النشاب أو المزاريق التى كان الرجل يحمل عدة منها دفعة واحدة ، الأمر الذى تطلب اتخاذ خطط حربية تناسب هذا التجديد الحضرى فى التسلح[٥] •

فالكتيبة من المرابطين كانت تسير وراء الراية التى استخدمت بمعرفة عبد الله بن ياسين منذ ما قبل الرباط (ما سبق ، ص ١٧٨) والتى يعتبر حاملها من مساعدى القائد الهامين ، حيث كان يتلقى أوامر تحرك الجند فى المعركة من القيادة ويبلغها للجنود عن طريق الراية • فطالما كانت الراية مرتفعة وقف الرجال فى مواجهة العدو بالقنى (الرماح) الطوال للمناوشة والدفاع ، فى الصف الأول ، بينما اصحاب المزاريق يرمون بنشاباتهم التى لا تخطىء • فاذا توجس القائد من خطر هجوم يقوم به العدو ، أمر صاحب الراية بتنكيسها ، وعندئذ يجلسون جميعا على الأرض فى وضـع دفاعى

---

(٤) البكرى ، ص ١٦٦ — عن اسلوبهم فى الحرب ، ص ١٧٠ عن أبى بكر بن عمر وأحوال المرابطين سنة ٤٦٠ هـ •

(٥) البكرى ، ص ١٦٦٦ ، وانظر اعلاه •

كأنهم الهضاب الثـــابتة ، لا يعرفون الفرار . أما اذا إنهزم عـدوهم فهم لا يتبعونه(٦) .

ومما يشير اليه البكرى أنهم لا يستخدمون الكلاب كأدوات مساعدة فى الحرب ، فى أعمال الاستكشاف مثـــلا أو التصنت ، عـلى أساس أنهم يكرهونها(٧) كتعبير عن تشدد المـالكية فى مسألة الطهارة ، كما نظن .

بيت المـــال :

ولـما كان المـال عصب الحرب كما يقال ، كان اهتمـــام عبد الله بن ياسين بانشاء خزانة عامه تحفظ فيها أموال جماعة « أهل الحق » مصاحبا لتكوين الجيش وتنصيب الأمير قائد الحرب ، قبل بناء رباط السنغال ، وهو ما يظهر واضحا فى مدينة « ارتننى » ، رباط لمتونة ـ حيث قبض خصوم الفقيه منه بيت مالهم قبل أن يطردوه ويهدموا داره(٨) . والمهم هنـا هـو تمويل خزانة الرباط عند الخروج لغزو القبائل اعتبارا من سنة ٤٤٤ هـ/ ٣ ـ ١٠٥٢ م . وكان من الطبيعى وقد خـــرج المرابطون لأول مرة ، من معسكرهم خالين الوفاض ، ناقمين على خصومهم من أهل البغى والفساد ، أن يتبعوهم بالقتل والنهب والسلب ، على أساس أن أموالهم ـ التى أخذت من حينئذ ترفد الخزانة المرابطيـــة غـير نقية مستباحة(٨ م) ، الأمر الذى أثار اشمئزاز فقيه السوس وجاج بن زللو فكتب الى عبـــد الله بن ياسين يعبر له عن أسفه لسفك الدماء ونهب الأموال ، وندمه على ارساله اليهم ، فاعتذر اليه عبد الله بأنه مأمة جاهليـــة لا ترعى حرمة الحريم ولا الدية فى الدماء ، ولا توفى عندهم الأموال ، وانه ما تجاوز حكم الله ولا تعداه(٩) .

---

(٦) البكرى ، ص ١٦٦ .

(٧) البكرى ، ص ١٦٦ ـ حيث النص على أنهم يقتلونها التى غيرناها الى الكراهية ، على أساس نجأستها ، كما يظن . أما عن قتل الكلاب فى الصحراء فالمعروف انها كانت تؤكل فى واحات سجلماسة غير بعيد عن السوس الأقصى ، وكذلك فى واحات بلاد الجريد فى الجنوب التونسى ، حيث اعتبر لحمها من أطيب اللحوم وأشهاها . وهنا لا بأس من الاشارة الى ان افتقاد الكلاب فى شوارع بعض بلاد الخليج فى أيامنا هذه كان يعزى الى بعض العمال من الآسيويين من الكوريين أو غيرهم ؟ الذين يقرمون لحمها .

(٨) البكرى ، ص ١٦٦ (ما سبق ، ص ١٨٢) .

(٨ م) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ ـ حيث النص على تتبع المعاندين بالقتل والنهب والسلب الا من أسلم منهم وسالم .

(٩) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٨٠ ، (نصار) ج ٢٤ ، ص ٢٥٩ .

والذى يلفت النظر فى غزو جدالة ولمتونة ومسوفة ، أنه لا ذكر لمثل أعمال العنف هذه ، فكأن المسألة مجرد سوء تفاهم بين الأخوة وأبناء العم ، يمكن أن يزول بمجرد زوال أسبابه ٠

حقيقة انهم انهزموا ، وقتل كثير منهم ، ولكن رواية القرطاس لا تشير الى أموالهم ، اكتفاء بأنهم أسلموا أو أذعنوا وتابوا ، وأنهم أمروا بالصلاة ، والزكاة واخراج العشر ، « وان ابن ياسين جعل لذلك بيت مال يجمعه فيه » ، وأنه « أخذ يركب منه الجيوش ، ويشترى السلاح ، ويغزو القبائل »(١٠) ٠ فكأن هذه القبائل الثلاث تمثل الوطن الذى دخل كرها وطوعا فى الدعوة والذى تمثل أمواله رصيد عملية الفتوح فى غيرها من القبائل والأوطان الخارجة عن طوق الحمى ٠

وهكذا يفهم من رواية البكرى أن غزو قبيلة لمطة ، والتى نرى أن اسمها (لمتة) هو الاسم الأصلى القديم (الجذم) للمتونة (ما سبق ، ص ٦٩) ، حدث وكأنه غزو فى أرض أجنبية معادية مثلها مثل درعه : « أول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم »(١١) ٠ فلقد اعتبر ابن ياسين أن أموال لمطة « مختلطة » حلالها بحرامها ، وأنها لكى تتطهر أو تتزكى (بمعنى التنظيف أو الغسيل الدارج الآن بالنسبة للأموال المجهولة المصدر) يجب دفع ثلثها للمرابطين ، لكى « يطيب لهم (للمطيين) الثلثان » ، فكأن تشريعا جديدا « أفتى به ابن ياسين فى الأموال المختلطة ، وطبقه فى كثير من البلاد المفتوحة(١٢) ٠ وعن هذا الطريق كانت خزانة أمواله المخصصة للغزو والجهاد تقوى من امكاناته فى تحقيق المزيد من الانتصارات ٠ وكان لابن ياسين فى بداية تاريخ الدولة الاسلامية الناشئة خير قدوة يحتذى بها ، فهو يقسم أسلاب القتلى فيئا للمرابطين(١٣) ، وهو فى السوس يسقط المغانم ولا يجبى الا زكاة المال وخراج الأرض(١٤) ، وبالتالى يؤلف القلوب ويهيىء بداية مضمونة لامبراطورية الصحراء الناشئة ٠

---

(١٠) أنظر القرطاس ، ص ١٢٦ ٠

(١١) البكرى ، ص ١٦٦ ٠

(١٢) البكرى ، ص ١٦٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث النص على ابن ياسين كان يأخذ الثلث ⅓ من الأموال المختلطة ، ليحلل باقيها ، وذلك شذوذ الفعل ٠

(١٣) القرطاس ، ص ١٢٩ ٠

(١٤) القرطاس ، ص ١٢٩ ٠

التوسع الاقليمى خارج الصحراء

فتح درعة وسجلماسة :

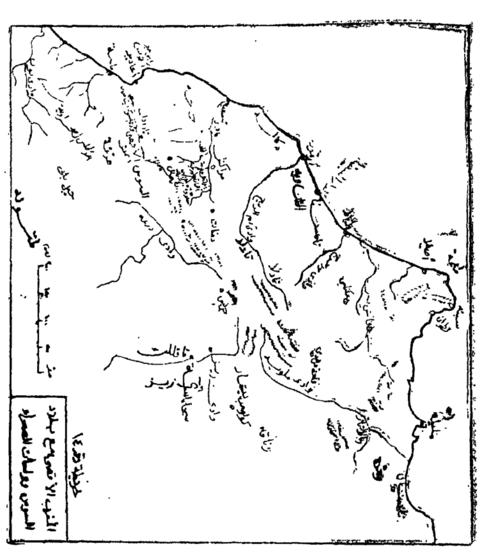
بعد استيلاء المرابطين على كامل تراب الصحراء ، بدخول قبيلة لمطة جنوب السوس الأقصى على شاطىء الاطلنطى ، حيث أكبر مراكزها العمرانية « نول لمطة » : أول محطات القوافل على طريق الساحل نحو غانة والسودان (ما سبق ، ص ٢٠٣) ، كانت الظروف تقضى بأن يوجه ابن ياسين أنظاره نحو الأقاليم المتاخمة ، وكان من الأوفق له البدء بالأقاليم الداخلية على أطراف الصحراء ، لتكون مراكز ارتكاز « لدولة الرباط » القارية أصلا ، قبل توجهها نحو الأقاليم البحرية العامرة غربا وشمالا ، الى شواطىء المحيط والمتوسط عبر ممرات جبال درن • وهكذا كان البدء باقليم درعة الوثيق الصلة بمنطقة سجلماسة العريقة ، من جنوب شرق المغرب الأقصى ، وكانتا تحت سلطان أسرة بنى وانودين المغراوية الزناتية •

واذا كان ابن خلدون (الذى يلخص القرطاس) يحدد تاريخ فتح درعة وسجلماسة بسنة ٤٤٥ هـ/٤ - ٣ - ١٠٥٣ م بعد فتح الصحراء ، فانه يفهم من نفس الرواية أن المسألة بدأت بنوع من التفاهم بين الطرفين عندما خرج المرابطون نحو درعة وسجلماسة يعرفون أهلها بأنفسهم ، ويطلبون « حق الله » من الصدقات فأعطوهم ما عن لهم فيها ، لكى يعودوا الى موطنهم(١) • واذا كانت الرواية تعلل بعد ذلك غزو درعة وسجلماسة بأنه كان استجابة لشكوى أهل البلدين من جور حكامهم من بنى وانودين(٢) ، بمعنى أن استبداهم وتشددهم فى جمع الضرائب من زكاة

---

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث اذن لهم (ابن ياسين) فى أخذ الصدقات من أموال المسلمين ، وسماهم بالمرابطين ، وجعل أمرهم الى الأمير يحيى بن عمر ، فتخطوا الرمال الصحراوية الى بلاد درعة وسجلماسة ، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا والترجمة ،ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ، وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ - حيث أمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج الى السوس وأخذ الزكاة ، فخرج منهم نحو ٩٠٠ رجل ، قدموا سجلماسة ، وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئا له قدر ، وعادوا •

(٢) القرطاس ، ص ١٢٧ - حيث النص على أن فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحائهم ، هم الذين كتبوا الى عبد الله بن ياسين ، مع وضع هذا الفتح فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، وهو مانشير اليه فى موضع تال •



خريطة رقم ١٤ ـ المغرب الأقصى مع بلاد السوس وواحات الصحراء

المـال أو خراج الأرض وغيرها ، فلا بأس أن يـكون ذلك بسبب مطالبتهم بتلك الضرائب كاملة رغم ما أخذه المرابطون من الصـــدقات • ولكنه لما كانت رواية ابن خلدون هذه تنسب تلك الشكوى الى فقيه السوس وجاج ابن زللو(٣) ، الأمر الذى ترتب عليه اعتبار سجلماســة من بلاد السوس الأقصى ، فاننا نرجح رواية ابن الأثير التى تقرر هى الأخـــرى خطأ ، أن سجلماسة من بلاد السوس ، والتى تنص على أن المرابطين « ســـاروا الى سجلماسة يطلبون الزكاة (المعتادة) فامتنعوا (أهلها) »(٤) ، فكان ذلك ذريعة الفتح بالنسبة لابن ياسين •

والحقيقة أن هناك ذرائع أخرى لا يجب التقليل من شأنها - من حيث كونها من النوازل الكونية أى الطبيعية ، وأهمها بالنسبة الى الصحراء آفة الجدب والقحط التى يقدمها ابن الأثير على غيرها فى فتح سجلماســة (من السوس - ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م)(٥) ، الى جانب الانفجار السكانى ، كما تقول الآن ، والذى تقدمه رواية ابن الأثير أيضا كمقـدمة لفتح السوس الأقصى (يقصد تامسنا : بلاد برغواطة أيضا)(٦) فكأن اسم السوس يكاد يعادل اسم المغرب الأقصى من شماله ، حيث السوس الأدنى (فاس وبلاد الريف) الى جنوبه حيث السوس الأقصى (ودواخله الصحراوية) •

والمهم أن درعة التابعة لأسرة بنى وانودين المغراوية الزناتية خضعت سنة ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م لمطالب المرابطين خضوعا يؤكده دفع الجزية (الزكاة) ، بينما رفض اجابتهم أهل سجلماسة وعلى رأسهم أميرهم مسعود بن وانودين الذى فوجىء بخطورة ما كان يواجهه من التحدى • فلقد خرج المرابطـــون بجيش عرمرم ، عدته ٣٠ (ثلاثين) ألف جمـــل سرج(٧) أى من النجب الأصيلة (والمفرد نجيب) وهى المهارى(٨) • واتجهوا نحو درعة حيث كان

---

(٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ج ١ ص ٧٠ - ٧١ •

(٤) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ •

(٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٠ •

(٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ •

(٧) البكرى ، ص ١٦٧ •

(٨) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ج ١ ص ٧٠ وهـ ٢ - حيث خرجوا فى عدد ضخم أكثرهم ركبانا على المهارى ، والمفرد مهرة بمعنى الناقة الأصيلة السريعة العدو ، القوية التحمل على المشاق الطويلة فى الصحراء والاسم نسبة الى مهرة بن حيدان ، أول من أنتجها (القاموس) •

في حماها نحو ٥٠ (خمسين) ألفا من الابل ، الأمر الذى حمل مسعود بن وانودين على ان يخرج سريعا فى محاولة لانقاذها ٠

وكان اللقاء غير متكافىء بين النساك المجـــاهدين الــذين لا يعرفون الهزيمة وبين المغراويين من منتجى الابل العاملين فى خدمة تجار السودان ، فانتهى بهزيمة اهل سجلماسة ، ومقتل وانودين واستيلاء المرابطين عـلى الحمى بدرعه ، ودخولهم مدينة سجلماسة ٠ وبعد أن رتب عبد الله بن ياسين شئون المدينة وأخضعها لنظام حسبته فقتل من وجد بها من نبلاء مغراوة ، وغير ما وجده بها من المنكرات ، فكسر آلات الموسيقى والغنـــاء ، وأحرق المواخير ، وأسقط المغارم ، وبعد أن اطمأن الى استقرار الأمور قدم عليهـا عاملا من لمتونة ، وترك معه حامية قليلة العدد ، وعاد برجاله الى بلادهم(٩)٠

فتح أودغست :

واذا كان البكرى يقول ان المرابطين قد عادوا بعـــد فتح سجلماسة (سنة ٤٤٥ هـ/١٠٥٣ م) الى بلادهم ، فانه ينص بعـد ذلك على أن ابن ياسين قام فى سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م بفتح أودغست جنوب الصحراء ، على مسيرة شهرين ، والتى كانت خاضعة لمملكة غانة ، وهو الأمر المقبول ٠ ففى هذه الحالة يكون القصد من الحملة العظمى التى حوت ٣٠،٠٠٠ من المهارى ليس سجلماسة لذاتها ، بل كمحطة على طريق السودان الى بلاد الساحل ، منطقة أعشاب السافانا التى يمكن أن تمير هذا العـــدد الضخم من الجمال بالعلف والمـاء ٠

ويصف البكرى أودغست وقتئذ ، بأنها مدينة كبيرة ، يسكنها بربر زناتة مع العرب الذين لم يكونوا على وفاق فيما بينهم ٠ واذا كانت رواية البكرى تنص على اساءة المرابطين الى أهل أودغست حيث استباحوا حريمهم

---

(٩) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٨ — حيث النص على اخراج عامل درعة منها ، والاستيلاء على ٥٠ ألف ناقة كانت لمسعود فى مراعيها ، وان الحرب العظيمة انتهت بمقتل مسعود وأكثر جيشه وفرار الباقين ، وان عبد الله بن ياسين أخذ أموالهم وأدوانهم وأسلحتهم مع الابل فاخرج الخمس جميعه ففرقه فى فقهـاء سجلماسة وصلحائها وقسم الباقى على المرابطين ٠ وابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٣ — حيث اختصار رواية ابن أبى زرع — دون الاشارة الى ذلك ٠ وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ — حيث النص على المرابطين ساروا الى سجلماسة وطلبوا الزكاة فامتنعوا ، فهزموا صاحب سجلماسة وقتلوه ودخلوها ، وان كان ذلك فى سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م ٠

واستحلوا أكـــل ممتلكاتهم ، فلا بأس أن يكون ذلك نتيجة للشـــقاق بين الزناتية والعرب المترفين الى جانب ما قدموه من تبريرات أخرى كالخضوع الى غير المسلمين من أهل غانة ، وهو الأمر المقبول على كل حال من حيث حماسهم لدينهم الذى جددوه ، الى جانب رغبتهم الصادقة في نشر الاسلام بين قبائل السودان التى لم تكن قد دخلت بعد فيه(١٠) • ولا بأس أن يكون ابتعاد الجيوش المرابطية ، جنوبا على بعد شهرين من سجلماسة ،فرصـــة انتهزها دهاة مغراوة فى سجلماسة لتحرير بلدهم من نير المرابطين • فلقد نصبوا لحامية النساك شركا فى ظهيرة يوم جمعة وقت الانشغال بالصلاة في المسجد ، وهى الحيلة التى كانت معروفة لدى مدبرى الانقلابات على ما نظن ، فى دولة الاسلام ـ حيث كان قواد المرابطين قد تجمعوا حول رئيسهم القائد « عامل سجلماسة » فغدروا بهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك خلال سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ التالية(١١) •

ولقد تنبه زعماء المدينة الى خطورة المغـــامرة التي انغمسوا فيهـــا ، وحاولوا اصلاح ما يمكن اصلاحه ، « فتواترت رسلهم على عبيـــد الله بن ياسين ، أن يرجع اليهم بالعساكر ، ويذكرون أن زناتة زحفوا اليهم(١٢) • ولم يجد هذا الاعتذار شيئا ، فقد قرر ابن ياسين الأخذ بثأر المغدورين من رجاله •

ولم يكن عبد الله بن ياسين يدرى أن حملة سجلماسة الثانية هذه ، ستؤدى الى انشقاق خطير فى صفوف المرابطين ، وقيام حرب أهلية بـــين قطبى قبائل الملثمين : جدالة ولمتونة ، فجدالة التي كانت لا تنسى أن فضل « اسلام الصحراء الجديد » يرجع الى زعيمها يحيى بن ابراهيم صاحب لقاء القيروان التاريخى مع الشيخ الامام أبى عمران الفاسي ، وترنو الى الأخذ من جديد بزمام القيادة بدلا من لمتونة ، على أمل اعادة توجيه تاريخ المنطقة المستقبلى الى مساره الجدالى السابق ، وهو ما لم تعد تسمح به حتمية التاريخ

---

(١٠) البكرى ، ص ١٦٨ ـ حيث النص أيضا على ان ابن ياسين قتل فى أودغست رجلا من العرب المولدين من أهل القيروان « معلوما بالورع والصلاح وتلاوة القرآن ، وحج البيت ، يسمى زباقرة ، وانما نقموا عليهم انهم كانوا تحت طاعة صاحب غانه وحكمه » ، وعن اودغست انظر فيما سبق ص ١١٦ •

(١١) البكرى ، ص ١٦٧ ـ حيث النص : « فغـدر أهـل سـجلماسة بالمرابطين في المسجد ، وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وذلك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م » ••• الخ •

(١٢) البكرى ، ص ١٦٧ •

فى أوضاعها المستجدة • وكانت أزمة تهدد كيـان البناء المرابطى الذى لم تكن قد تماسكت بعد لبناته اللينة ، لولا حنكة عبد الله بن ياسين الذى لم يظهر بمظهر رجـل الدولة المحنك فقط ، بل وبمظهر القائد الموهوب فى علاجه لمشاكل الحرب والسياسة •

الفقيـه رئيسا :

بدأ عبد الله بن ياسين يعد العدة لعقـاب أولئك المستهترين بدولة الرباط من رؤساء مغراوة ومن يحوم حومهم من أهل سجلماسة ، فنـدب المرابطين الى غزوهم • وهنا لم تلق دعوة جهاد المغاربة المسلمين من أهـل سجلماسة للمرة الثانية القبول من جانب عامة المرابطين فقط ، بل انهـا وجدت معارضة صريحة من جانب الجداليين • ولا بأس أن يكون الملثمون قد حشوا فى هذه المرة مقابلة مع بقايا بنى وانودين المغراويين فى واحات درعة وسجلماسة قد تنقلب الى مواجهة شاملة مع الزناتية قد تكلفهم ثمنا باهظا قد لا يهدد كيانهم فقط ، بل ووجودهم أصلا • فهذا ما يمكن أن نفهمه من انسحاب جدالة الى مواطنها الأولى على سـاحل البحر (المحيط) ، فكأنهم عبروا عن عدم رضاهم عن سياسة ابن ياسين ، بترك مشروع دولة الرباط التى بدأت تتحول من دعوة للجهاد فى الجنوب السودانى الذى لم يدخـل بعد فى الاسلام ، الى دولة اسلامية تقليدية ، تبنى سياستها عـلى الوقائع الجغرافية السياسية الاقتصادية التى تعنى الحلول مكان دول المغرب السابقة فى شمال الصحراء •

والظاهر أن نظرة جدالة نحو الجنوب كانت تجـد قبولا حسنا لدى بنى جلدتهم على حدود السودان ، وربمـا من طوائف أخرى من مسلمة السودان الذين لا يحبذون فكرة التجديد الاسلامية ، بل يفضلون مواصلة عملية نشر الاسلام بين ملاحدة السودان •

انشقاق الملثمين والحرب الأهلية ،
وبدء ظهور « ابو بكر بن عمر » :

هكذا اتخذ عبد الله بن ياسـين الاجراءات السياسية والعسـكرية المناسبة لمواجهة المخاطر المتوقعة من حركة العصيان الجدالية فعمل عـلى تقوية الجهة الداخلية فى مجتمع الرباط ، والتى تتمثل فى جبل لمتونة مركز الثقل البشرى والاقتصادى ، فى دواخـل بلاد الملثمين • فقد أمر الزعيم يحيى بن عمر بالتمركز هناك فى قصبة الجبل المعروفة باسم أزكى «أزقى» ،

وهى عقدة الطرق التجارية الى غانة ، وحيث غابة النخيل العظيمة التى تحوى حوالى ٢٠ (عشرين) ألف نخلة ، وحيث الحصن الذى ينسب بناؤه الى يانو بن عمر أخى الأمير يحيى بن عمر الحاج(١٣) ، تحسبا لهجوم محتمل من قبل جدالة .

هذا ، كما اتخذ ابن ياسين اجراءات تضمن سلامة المرابطين فى درعة حيث كانوا مقسمين الى فرقتين احداهما بقيادة أبى بكر بن عمر ، والأخرى بقيادة أحمد بن أقدجنوا ، فجعل القيادة هناك الى أبى بكر نيابة عن أخيه يحيى الموجود فى أرض لمتونة . والظاهر أن فتنة جدالة استمرت لفترة زادت على سنة وأكثر ، الأمر الذى يعنى ان الجداليين كانوا فى حاجة الى الوقت لاعداد العدة لمواجهة الترتيبات العسكرية فى بلاد لمتونة ، وذلك أن الهجوم الجدالى المرتقب على جبل لمتونة لم يبدأ الا فى مطلع سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م(١٤) .

ولا ندرى ان كان الهجوم الجدالى قد تم بتنسيق مع المغراويين الزناتية أصحاب سجلماسة أم لا . وذلك أن رواية البكرى لا تحدد تاريخا لعودة عبد الله بن ياسين الى سجلماسة . والرواية هنا تكتفى بالقول ان ابن ياسين سار نحو سجلماسة فى حوالى ٢٠٠ (مائتى) رجل من الصنهاجيين وانه نزل فى حصن تامدلت (ما سبق ، ص ١١٣) حيث « اجتمع اليه جيش كثيف من (حصون قبائل) سرطة وترجه »(١٥) ، الأمر الذى يفهم منه أن عبد الله بن ياسين استعاد سجلماسة دون قتال أو أعمال عنف فى سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م التالية ، حسب رواية ابن أبى زرع ، التى تكمل رواية البكرى فى هذا الموضع ، كما نرى . وهكذا يكون خروج عبد الله بن ياسين لاسترجاع سجلماسة ، وأخذ الثأر من أولئك الذين غدروا برجاله المرابطين فى ٢٠ صفر سنة ٤٤٧ هـ/٢٠ مايو ١٠٥٥ م(١٦) .

---

(١٣) أنظر البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٤) البكرى ، ص ١٦٧ .

(١٥) البكرى ، ص ١٦٧ ، وقارن ما سبق ، ص ٧١ ، ٨٨ من مدينة ترغة وسجلماسة ، ص ٧١ عن سرطة وترجة .

(١٦) أنظر روض القرطاس ، ص ١٢٧ — حيث النص على أن أهل سجلماسة وفقهاء درعة وصلحائهم كتبوا الى ابن ياسين والمرابطين يطلبون قدومهم للقضاء على المنكر والعسف والجور ، وذلك فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، فكان ذلك هو الفتح الأول ، وهو ما نراه مناسبا لتكملة رواية البكرى عن الفتح الثانى الذى أعقبه الغدر بالحامية المرابطية سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م .

أما فى جبل لمتونة (ما سبق ، ص ٢١٠) فقد سارت الأمور فى غير مصلحة ابن ياسين · ففى المحرم من سنة ٤٤٨ هـ/مارس — ابريل١٠٥٦ م التالية ، حاصرت جدالة وحلفاؤها من صنهاجة ومن السودان ، كما يقتضى السياق ، الجبل فى جيش كبير يبلغ عدده زهاء ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل · ورغم كثرة اللمتونيين الذين كانوا تحت قيادة يحيى بن عمر مع من انضم اليهم من حلفاء المرابطين من مسلمة السودان الذين كانوا تحت قيادة لبى بن وارجاى رئيس التكرور ، فان المعركة الكبيرة التى وقعت بين الطرفين فى تبفريلى فيما بين قرية (حصن) تاليوين وجبل لمتونة ، انتهت بكارثة بالنسبة لحزب ابن ياسين · فلقد انهزم المرابطون وهم المجاهدون الأشداء ، الذين « يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف »(١٧) ، وبقى قائدهم الأمير يحيى بن عمر فى أرض المعركة ، كما « قتل معه بشر كثير » · وبذلك أصبحت ساحة تبفريلى على حدود السودان مقبرة تذكارية من مقابر شهداء الاسلام على أطراف دولته البعيدة ، مما يذكر بسيدى عقبة (تهودة) سنة ٦٣ هـ/٦٨٣ م ، وبلاط الشهداء (بواتييه ١١٤ هـ/١٣٢) ، وخاصة بشهداء الاباضية فى ورداسة (بتاورغى ١٤٤ هـ/٧٦١ م — ج ٢ ص ٢٤٥) ، حسبما يفهم من الرواية المرابطية المنقبية(١٨) ·

وبعد استشهاد يحيى بن عمر الحاج بن تلاكاكين فى تلك الحرب الأهلية كان على الفقيه عبد الله بن ياسين أن يختار أخاه « أبو بكر بن عمر » لقيادة القوات المرابطية ، فكان اختيار الرجل المناسب الذى سيخلفه الرجل المناسب (يوسف بن تاشفين)(١٨ م) ·

---

(١٧) البكرى ، ص ١٦٦ · وقارن الاستبصار ، ص ٢١٧ (حيث اسم ملك التكرور السابق : وازجاى بن ياسين) ، وقارن امين الطيبى ، تأثير الاسلام فى غانه ومالى ، مجلة العلوم الانسانية ، الكويت ، مجلد ٤ عدد ١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٠ — حيث اسم الملك : وارجابى ابن رابيس ، وانظر فيما سبق ص ١١٩ وهـ ٤٣ ·

(١٨) أنظر البكرى ، ص ١٦٨ — حيث النص : « وهم يذكرون انهم يسمعون فى هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات ، وهم يتحامونه ، ولا يدخله احد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ، ولا شئ من أسلحتهم ولا ثيابهم ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٨ — حيث النص على وفاة الأمير يحيى بن عمر فى جهاد كان ببلاد السودان مع تقديم ابن ياسين لأخيه أبى بكر بن عمر اللمتونى مكانه ، وذلك فى المحرم سنة ٤٤٨ هـ / مارس — ابريل ١٠٥٦ م ·

(١٨ م) نفس المصدر السابق ·

اتحاد قبائل الرباط من لمتونة وحلفائهم ،
تحت قيادة عبد الله بن ياسين :

كان للحرب الأهلية بصماتها الواضحة على النظام المرابطى الذى كان قد تحول الى كيان دينى سياسى على قمته « ثنـــائى رئاسى » ، من : الأمير القائد والفقيه المنظر ، صـاحب الكلمة الأخـيرة على كل حال . هـكذا كان عبد الله بن ياسين يلزم جميــع المرابطين من قبائل الملثمين ومن بعـدهم الداخلين الجدد فى حظيرة دولة الرباط من أهـــل المغرب ، باعلان التوبة والخضوع لعقوبة التطهر الجسدى ـ دونما تفرقة عنصرية .

ولكنه عقب هزيمة تبفريلى ، ومقتل الزعيم اللمتونى يحيى بن عمر اكتفى عبد الله بن ياسين بالخروج من الكارثة بأقل الخسائر ، حيث علمه درس الهزيمة أن يكون واقعيا فى سـياسته : أى أن يرضى بالممـكن دون المسـتحيل كما يقال ، وأن يدع مجـالا للرغبة الشخصية فى عمـل الخير أو النهى عن الشر ، دون كسر لارادة الآخرين .

وهـكذا تقول الرواية تعقيبا على الهزيمة انه « لم تكن للمرابطين بعد ، كرة الى بنى جدالة[١٩] » بمعنى أن عبد الله ابن ياسين لم يثأر « لنكسـة » تبفريلى ، فكأن جدالة خرجت منذ هذا الوقت من الوحدة المرابطية (وحـدة أهل الحق) ، وكأنها صارت قبيلة حليفة وليست تابعة ، وكأن دولة الرباط الموحدة اقتصرت على قبـائل لمتونة التى شـاركتها مسـوفة فى نوع من الاتحاد .

وهـكذا أصبح النظام المرابطى فى معناه وحـدة سياسية سـداتها قبائل لمتونة ولحمتها قبائل مسوفة ، وأما غيرها من القبائل فقد صـارت قبائل حليفة ـ فكأنها فى اتحاد تتمتع بحقوق المتساوين[٢٠] ، شكليا على الأقل .

---

(١٩) البكرى ، ص ١٦٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ ـ حيث يجعل أول أعمال يوسف بن تاشفين الذى كان على مقدمة أبى بكر بن عمر فى مسيرته نحو السوس ، غزو جدالة .

(٢٠) انظر عن الفتوح الاسلامية ونظام الحلف مع القبائل والدويلات التركية المجاورة فى المشرق ، محمد عبد الهادى شعيرة ، الممالك الحليفة ، مجلة كلية الآداب ـ الاسكندرية ، سنة ١٩٤٨ ، المجلد ٤ ص ٤٢ وما بعدها .

وهــذا لا يعنى أن دولة الرباط الوليدة فقدت صبغتها الدينية فى
الوقت المبكر · فطالما عاش الفقيه ، حامل السنة وعالم الشريعة ، ظل
ئام المرابطى مرتديا عباءة الدين ، كما ظل الهدف من الجهاد والفتح هو
.يد الاســلام ونشر دعوة الحق بين من لا يعرفونها · وفى هذا المجال قام
الله بن ياسين بتنشئة أعداد من الطلبة الفقهاء ممن سيساعدونه فى
ـة نظام الدولة وترتيب الدعوة لنشر الاســلام الصحيح[21] — الامر الذى
كون قدوة لمحمد بن تومرت : مهدى الموحدين · أما عن مسار الفتوح
ن منهجيا ، بدءا بشمال الصحراء فى المغرب الأقصى وجنوبها فى بلاد
ـودان ، الأمر الذى تطلب اقامة قيادتين حربيتين ، احداهما شــمالية
أخرى جنوبية · وكانت الجبهة الشــمالية هى التى استأثرت باهتمــام
. الله بن ياسين ، لقوة بلاد المغرب النسبية بشريا واقتصاديا ، الأمر الذى
ن يبشر بمجالات مزدهرة للعمل على كل من مستوى الجهاد والدعوة ·

وهــكذا تتدرج فتوح المغرب الشــمالية فيما وراء درعة وسجلماسة
ا يوردها البكرى ، بدءا بأغمــات سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ثم بلاد المصامدة
نة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، وانتهــاء ببــلاد برغواطة حيث استشــهاد عبد الله
ن ياسين — مقابل سواحل الأندلس : أرض الجهاد وموطن الرباط التى
يكون لها رجالها من المرابطين خلفاء ابن ياسين ، سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ،
هو الترتيب المقبول بشكل عام رغم ما قد يوجد من اختلافات فى ترتيب
أحداث عند من أخذ برواية البكرى ممن أتى بعده من الكتاب · والحقيقــة
، اضطراب رواية البكرى عند المتأخرين يرجع الى أحد سببين ، أولهما : أنهم
لوها عن غيرهم ممن كانوا يعرضون لها بشىء قليل أو كثير من التحوير
التغيير ، والثانى : هو خلط رواية البــكرى الأندلســية المعاصرة برواية
ن شــداد الافريقية المتأخرة بعض الشىء ، والتى تعتبر أقل أصــالة من
يث كونها صحراوية ذات أصول شفوية معرضة للتحول الشديد ·

فرواية ابن الأثير (ج ٩ ص ٦٢١) والنويرى (أبو ضيف ص ٣٨١ —
ـزيرية أيضا) تخلط ما بين بلاد الســوس الأقصى (موطن مصــمودة)
تامسنا (بلاد برغواطة — حيث قتل عبد الله بن ياسين) · ومثل هـــذا
قال عن اللبس بين بــلاد جزولة وجبل لمتونة والسودان فى قصــة وفاة
حيى بن عمر اللمتونى فى كل من البــكرى (ص ١٦٧ — ١٦٨) والقرطاس

---

(٢١) أنظر ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٢١ ·

(ص ١٢٨ - ١٢٩) • وكـل ذلك رغـم الاجتهـادات المحمـودة لكل من ابن أبى زرع ، ومن بعده ابن خلدون ، فى محاولة ترتيب الأحداث بشكل منهجى مقبول •

والمهـم من كل ذلك ان رواية البـكرى التى يرجع الفضل الى دسلان (De Slane) فى تحقيقها وترجمتها والتعليق عليها هى المعتمدة فى ترتيبها الزمنى كما نرى ، وان عانت من قلة التفصيلات التى كان يمكن أن تنفث فى توقيتها الزمنى الجيد نوعا من الحياة •

فتـح اغمـات :

والقضاء على امارة البجليين :

وهـكذا يكون فتح أغمـات قد تم بعد نهاية الفتنة مع جدالة وحلفائها من السودان فى جنوب الصحراء ، حيث قتل الأمير يحيى وآلت القيادة الى أبى بـكر بن عمـر اللمتونى ، بعـد اسـترجاع سجلماسة بمعرفة عبد الله ابن ياسين الذى رأى أن يسـتنفد طاقة المرابطين الذين بـدأت تضيق بهـم الصحراء ، فى توسيع رقعة دولة أهل الحق ، فكان التوجه الطبيعى نحو أغمـات فى سفوح جبال درن ، غير بعيد من الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراكش ، وحيث كانت السلطة هناك للمغراويين الزناتية ، أقارب أصحاب سجلماسة ، فكان فى الاستيلاء على أغمـات (ما يأت ص ٢١٥) ضمان لهدوء الأحوال فى كل من درعة وسجلماسة •

وهـكذا أصدر عبد الله بن ياسين أوامره الى الأمير أبى بـكر بن عمر باعداد جيوشه للمسير نحو السوس الأقصى وجبال المصـامدة • وفى شهر ربيع الثانى من صيف ٤٤٨ هـ/يونيه - يوليه ١٠٥٦ م كانت القـوات المرابطية بقيـادة ابن ياسين وأبى بـكر ، تتجاوز حدود سـجلماسة نحو سفوح جبال درن (أطلس) لكى تخترق دروبها على طول ١١ (أحد عشر) يوما الى أغمات(٢٢) • ومن المهم الاشارة هنا الى أن قائد المقـدمة وقتئذ ،

---

(٢٢) انظر البكرى ، ص ١٥٢ - حيث الطريق من سـجلماسة الى اغمـات يستغرق ١١ يوما على طول المحطـات التـالية : بيجمـامبن (٢ يوم) ، وادى درعة (٢ يوم) ، وزرارت : حبث مساكن هسكورة (٢ يوم) ، هزرجة : حيث جبل الياقوت (٤ يوم) وعلى مسافة يوم واحد من اغمات •

المعين من قبل أبى بكر بن عمر، هو : ابن عم هذا الأخير يوسف بن تاشفين(٢٣) الذى سوف يرتبط اسمه بالأمبراطورية المرابطية ، فكان هذا أول ظهور له على مسرح الأحداث ـ الأمر الذى غاب عن البكرى ٠

ولا بأس أن كانت منطقة تارودانت فى منتصف المسافة هدفا فى حد ذاته بالنسبة لعبد الله بن ياسين ، اذ كان أهلها يعتنقون مذهب الشيعة الاسماعيلية الذى نشره فى المنطقة بعض دعاة الاسماعيلية المعروف بالبجلى الذى تسموا باسمه ، قبل قيام الدولة الفاطمية فى أفريقية(٢٤) ٠ ولا بأس أن يكون ذلك الهدف الدينى من الأسباب الرئيسية لتلك الحملة ، الى جانب الهدف السياسى المعلن فى سجلماسة ، وهو القضاء على حكومة أغمات المغراوية الزناتية التى تمت لبنى وادين أمراء سجلماسة ، بصلة العرق والنسب ٠ وهذا ما كان يحقق للمرابطين أيضا قاعدة للاشراف على مصامدة جبل درن ، وذلك فى الموضع الذى سوف تبنى فيه مدينة مراكش بمعرفة يوسف بن تاشفين ، والتى ستصبح أكبر مدن المغرب الأقصى الذى سيعرف باسمها أى « البلاد المراكشية » ، اعتبارا من عهد الموحدين ٠

والمهم انه كان على المرابطين أن يقضوا على امارة البجليين من الاسماعيلية المتطرفين فى المنطقة وأن يعيدوا اليها السنة المالكية ٠ وفى ذلك تقول رواية ابن أبى زرع : « فقاتلهم الأمير أبو بكر بن عمر ، وعبد الله ابن ياسين ، حتى فتح مدينتهم عنوة ، وقتل بها من الروافض خلق كثير ، وأخذ أموال القتلى فجعلها فيئا للمرابطين ، فكان على الباقين منهم أن يرجعوا

---

(٢٣) القرطاس ، ص ١٢٨ ٠

(٢٤) البكرى ، ص ١٦١ ـ حيث النص على أن الداعية الاسماعيلى محمد بن ورستد ، كان من أهل نفطة من بلاد قسطيلية ، وأنه دعا بربر المنطقة من بنى لماس الى سب الصحابة رضه ، وأحل لهم المحرمات كالربا الذى زعم انه بدع من البيوع ، كما أضاف الى الأذان بعد شهادة : محمد رسول الله : « أشهد ان محمدا خير البشر ، وبعد : حى على الفلاح : « حى على خير العمل آل محمد خير البرية » ٠ وقارن القرطاس ، ص ١٢٩ ـ حيث التماس التبسبط فى تحريف رواية البكرى الى عكس مقصدها حيث النص على أن البجلة منسوبون الى عبد الله البجلى الرافضى ، وانه كان قدم الى السوس أيام قدوم عبيد الله الشيعى افريقية هذا ، ولا بأس أن يكون ذلك قد تم بتمهيد على أيدى دعاة الأدارسة الزيدية فى فاس من حيث انهم كانوا ـ حسب نفى رواية البكرى يرون أن الامامة فى ولد الحسن لا فى ولد الحسين ، وهو رأى الزيدية (الأدريسية) ٠

الى السنة(٢٥) » . والظاهر أن المرابطين نجحوا فعلا فى استئصال البجليين وذلك أننا لا نجد لهم ذكرا عند صاحب الاستبصار الموحدى فى أواخر القرن الـ ٦هـ/١٢م .

وبعد هذا الانجاز الدينى الكبير كان على ابن ياسين أن يسير مرتاح الضمير نحو أغمات التى كانت أشبه بدويلة صغيرة يحكمها أمير مغراوى هو لقوط بن يوسف الذى ربما كانت له علاقة مشبوهة بحركة الهرطقة البرغواطية فى اقليم تامسنا ، من حيث كانت له دولة سابقة فى كل من سبتة وطنجة قبل الانتقال الى أغمات فى سفح جبال المصامدة(٢٦) . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع عندما ينص بعد فرار لقوط بن يوسف ليلا اثر تضييق الحصار عليه الى تادلا ، التى سار اليها المرابطون وفتحوها عنوة ، فقتلوا من وجدوا بها من أمراء بنى يفرن ، وقبضوا على لقوط الذى أمر ابن ياسين بقتله . وبذلك انتهى الأمر باسلام أغمات بمعنى عودة أهلها الى السنة (المالكية) ، تماما كما كان الحال بالنسبة لمنطقة تارودانت . ورغم الاختلاف مع البكرى فى تفصيلات خطوات الفتح المرابطى فى السوس وأغمات يجعل ابن أبى زرع فتح أغمات فى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وهو تاريخ البكرى(٢٧) .

فتح السوس الأقصى :

ومن الواضح ان فتح سفوح جبال درن (أطلس العليا) الشمالية والتمركز فى أغمات التى اتخذها أبو بكر وابن ياسين مقرا للمرابطين كان يعنى التضييق على إقليم وادى السوس الأقصى ، وقطع الطريق بينه

---

(٢٥) القرطاس ، ص ١٢٩ ـ حيث اسم المدينة رودانه وهى تحريف محتمل لتارودانت . والحقيقة أن اسم تارودانت لا يرد فى رواية البكرى ، الأمر الذى يعنى ان اسم تارودانت لم يبدأ فى الظهور الا على عهد الموحدين حيث لها ذكر فى رواية الادريسى ، بينما يصفها صاحب الاستبصار فى أواخر القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م بأنها قرية كبيرة جدا « فكأنها عدة قرى على طول النهر » (الاستبصار ص ٢١١ وهـ ٥) .

(٢٦) أنظر ج ٣ ص ٥٠٨ ـ حيث تغلب الحاجب (لكوت) أو لقوط بدلا مد سكوت ، حسب تصحيح دسلان فى ترجمة ابن خلدون ـ الذى يعرف بالبرغواطى على سبته ، ص ٥٠٩ حيث موقع اغمات فى سفوح جبال المصامدة وارتباطها بكل من فاس وسجلماسة وكذلك بمنطقة السوس الاقصى ، وأهميتها على طرق التجارة ، وانها مدينتان يفصل بينهما نهر وربكة أو بعض روافده ص ٥١١ ـ حيث نهاية لقوط على أيدى المرابطين .

(٢٧) القرطاس ، ص ١٢٩ ، (البكرى ، ص ١٦٨) .

وبين أقاليم مغراوة وغمارة وبرغواطة الشمالية ، بمعنى سقوطه الوشيك بأقل الجهد والتكاليف .

وهكذا اتخذ ابن ياسين من أغمات مقرا حيث استراح المرابطون لمدة شهرين(٢٨) ، من أوائل شتاء سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م . وعندما تحسنت الأحوال الجوية بدأ الاعداد لاتمام حملة فتح وادى السوس . وكان من الطبيعى أن يبدأ الغزو بفتح تادلة حيث لجأ لقوط البراغواطى أمير أغمات لدى بنى يفرن هناك ، حيث تم القبض عليه وكان مصيره القتل(٢٩) ، وذلك فى نفس السنة (٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) حسبما يأخذ به ابن خلدون(٣٠) .

ونرى بعد ذلك ان فتح مدينة نفيس كان مطلبا هاما بالنسبة لابن ياسين من حيث كونها من أول فتوح عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى سنة ٦٢هـ/٦٨١م ، فهى جديرة بتجديد اسلامها قبل غيرها من مدن السوس ، طالما كان مسجدها من أوائل مساجد المنطقة . وبعدها تأتى سائر بلاد جدميوه(٣١) ، وفتح مدينة شيشاوة عنوة ، الأمر الذى دعا قبائل المنطقة من رجراجة وحاحة الى الاسراع الى الحضرة (أغمات) لتقديم الطاعة وآيات الخضوع(٣٢) . واذا كانت رواية القرطاس تذكر فتح مدينة ماست التى تحمل اسم رافد السوس قرب المصب على المحيط ، فالمفهوم أن تمام فتح السوس الأقصى لا يتم الا بفتح « قاعدته » ايجلى مركز انتاج السكر الذى تستهلكه « جميع بلاد المغرب » ، وهو الأمر الذى لا يشير اليه البكرى أيضا(٣٣) . ولا بأس أن يكون ذلك قد تم فى مرحلة أخرى عن طريق حملة تكون قد سارت بطريق المحيط الساحلى ، بدأ من الاستيلاء على نول لمطة ، على ٣ (ثلاثة)مراحل من ماست . وذلك أن بعض الروايات تجعل فتح نول لمطة ضمن فتح المرابطين لبلاد السوس .

وهكذا يكون المرابطون قد فتحوا معاقل بلاد السوس كما يقو

---

(٢٨) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٢٩) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٣٠) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ، ص ٧١ - حيث اسم لقوط فى شكل لجوت (Laghout) بن يوسف بن على المغراوى .

(٣١) القرطاس ، ص ١٢٩ - حيث تكرار فتح جبل درن ، وبلاد روده (؟ : رودانه أو تارودنت) .

(٣٢) القرطاس ، ص ١٢٩ .

(٣٣) البكرى ، ص ١٦١ .

ابن أبى زرع ، واطاعتهم قبائلها جميعا ، من المصامدة وغيرهم وذلك فى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، بنـاء على تقرير البـكرى (ص ١٦٨) . وبعد الفتح تبدأ مرحلة وضع تراتيب الادارة ونظم الحـكم ، من : اخراج الولاة والعمال الى نواحى البلاد المختلفة مع اصدار التعليمات بأن يكون دستور الحـكم على المستوى الدينى ، هو : اقامة العدل واظهار الحق ، وعلى المستوى المـالى والاقتصادى : الالتزام بجباية الزكاة (ضريبة الأموال والممتلكات) والعشر (ضريبة) ناتج الأرض ، وعلى المستوى السياسى : مما عرفه المتشددون من الفقهـاء باسم « المغـارم » أو « المظـالم » ، على أساس عدم شرعيتها من وجهة نظرهم[٣٤] .

فتح تامســنا : بلاد برغواطة :

تمهيد فى السمات العامة للحركة البرغواطية :

كان اســتيلاء ابن ياسين على بلاد الســوس الأقصى مقدمة طبيعية لتمدد دولة الرباط الصحراوية نحو الســواحل الشمالية لبلاد المغرب الأقصى ، فى منطقة تامســنا الممتدة على طول ساحل الأطلنطى ما بين كل من وادى أبو الرقراق (بور جرج) شمالا ، وحتى مصبه فى ســلا والرباط (رباط الفتح) ووادى أم الربيع جنوبا وحتى مصبه آزمور . وهذه المنطقة الغنية بمياهها وأوديتها المحيطة تشبه أن تكون منعزلة عن بقية بلاد المغرب ، من حيث هى المغرب الأقصى حقا أى التى ليست مشرقا بالنسبة لغيرها من البلاد ، كما تسكنها قبائل برغواطة المعدودة أصلا من قبائل المصامدة وان ماجت المنطقة بفسيفساء مختلطة من قبائل زناتة وصنهاجة وغيرهم[٣٥] .

والمهـم أن قبائل برغواطة تمثل اتجاه العزلة التى يوصف بها اقليم تامســنا ، من حيث القول أنهم أندلسيون أصــلا ، سـكنوا منطقة شريش المواجهة لساحلهم ، حيث منطقة مستنقعات وادى برباط التى كانت موضع أول نزول للفاتحين العرب بالأندلس . وفى ذلك قيل ان اسمهم برغواطة

---

(٣٤) انظر القرطاس ، ص ١٢٩ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، والترجمة ص ٧١ ، القلقشندى ج ٥ ص ١٨٩ ـ حيث الأخذ بتواريخ البكرى ، كما فعل ابن ابى زرع وابن خلدون ، رغم الاختلافات فى التفاصيل مما يظهر أصلا فى رواية ابن شداد التى اخذ بها كل من ابن الأثير والنويرى . هـ

(٣٥) انظر ج ٢ ص ٤٣٢ والهوامش .

تحوير لاسم برباطة (مفردها بالأصل برباطى أى برغواطى)(٣٦) ٠

وتتمثــل مظاهر العزلة فى تامســنا فى تمسك قبائل برغواطة هناك بعاداتها القديمة وتمسكها بلغتها البربرية الأصيلة ، الأمر الذى أدى الى اعتنــاقها مذاهب الخوارج الصفرية ، والمشــاركة فى ثورة ميسرة المطغرى سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م الأمر الذى انتهى باقامة امارة بربرية مستقلة جاهدت فى الاستقلال عن دولة الخلافة فى بغداد ، وعن دول المغرب المستقلة ، سواء فى الأندلس أو المغرب الأقصى ٠

هــكذا كانت دولة برغواطة مرتبطة بدولة مطغرة الغمــارية التى قام بها خوارج الريف بقيادة ميسرة الفقير ، واستمر أمراؤها يتسلسلون أبا عن جد فى بلادهم المحتمية بكل من جبل درن وشاطىء المحيط طوال خمســة قرون الى قيام دولة الرباط ، وبعدها دولة التوحيد ، وهى تقاوم معارضة خصومها على كل المستويات من رسمية وشعبية أو دعائية وحربية ، الأمر الذى يعنى نوعا من الصــمود الذى يثير فى النفس نوعا من الاســتغراب ان لم يكن من الاعجاب ٠

هــذا ، ولم تكتف برغواطة بالقدرة على الدفاع عن كيانها المستقل سياسيا وحضاريا ضد الخصوم فحسب ، بل انها نجحت فى اقامة علاقات ودية أشــبه بتلك التى تقوم بين الدول المستقلة فى أيامنا هذه ـ كذلك الذى حدث بين مملكة برغواطة على أيام السابع من ملوكهم : أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار ، الذى ولى سنة ٣٤١هـ/٩٦١م ، عندما راسل الحــكم المستنصر الأموى سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م ، فاستقبل رسوله (صاحب الصلاه عندهم) : أبا صالح زمور البرغواطى رسميا فى قرطبة ، استقبال سفير دولة صديقة (ج ٣ ص ٤٣٦) ، فكان مملكة برغواطة فى تامســنا بلغت القمة كدولة مستقلة ذات سيادة فى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) ٠

ورغم غزو اليفرنيين (الزناتية) لتامســتا ، بعد حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، أى فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، والقول باستيطان بنى يفرن لبــلاد تامسنا التى غزوها ، بل والنص على انقطاع أمر برغواطة فلم يبق لضلالتهم

---

(٣٦) انظر ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها ، وعن المنطقة انظر سيجر سالم ، قادس ... فى العصر الاسلامى ، ص ١٧ وما بعدها .

باقية ولا من أواصر كفرهم أصرة(٣٧) ٠

ماهية هرطقة برغواطة :

وهنــا ، لا بأس من محاولة القاء الضــوء على أحوال اقليمى تـادلا وتامســنا الحضارية والثقافية بشكل عام ، وأوضاع قبائل برغواطة والقبائل الحليفة لها على المستويين الاجتماعى والثقافى والدينى أيضا ، فى سبيل الاقتراب من الحقيقة ، اذا كان الوصول اليها من الصعوبة بمكان ٠ فالمعروف ان أهل الجبال مثــل سكان البادية والصــحراء يصنفون فى أول درجـات السلم الحضــارى مع عامة أهل المطـالب الضرورية ممن يوصفون بالجفـاء والغلظة ، مثلهم مثل العامة من الكادحين أو أهل الشقاء ٠ وهؤلاء مقلون بطبيعة الحال فى أسباب حياتهم اليومية ، من مادية ومعنوية ـ فمثلما هم قليلوا المـال بعامة ، فان بضاعتهم قليلة فى مجالات الثقافة والدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للأعراف والتقاليد ، مما سبقت الاشارة اليه أعلاه ، ومما وصفتهم به روايات المرابطين أو ما جاء على لســان ابن ياسين أو المرابطين مما يأتى ٠

وأول ما تتهم به برغواطة ، حسب رواية القرن الـ ٥هـ/١١م التى يقدمها البكرى ، مــع روايتى القرن الـ ٤ هـ/١٠ م المنسوبتين الى كل من زمور البرغواطى ، وفضل بن مفضل المذحجى(٣٨) ، هى الزندقة المبنية على التنبؤ ، وابتداع قرآن خاص بهم ، يتكون من ٨٠(ثمانين) سورة ، مقسمة ما بين ســور بأسماء الأنبياء ، وأخرى بأسماء الحيوان(٣٩) ٠ اما ما يوجه الى البرغواطية من انحرافات لا تتفق مع أحــكام الشريعة ، فمنها ما يتصــل

---

(٣٧) البكرى ، ص ١٤١ ، وانظر ج ٢ ص ٤٣٤ ، فقد ظلت الحركة البرغواطية باقية ، الأمر الذى قد يفسره قيام المرابطين بجهود اضــافية من أجل القضــاء على ذلك الانحــراف البرغواطى ٠ وهنــا تحسن الاشارة الى ان أقاليم أخرى كانت قد اتهمت بالخروج على الاسلام الصحيح ، سواء فى الصحراء ، من : جدالة الى لمتونة ، وفى أقاليم المغرب شبه الصحراوية كدرعة وسجلماسة ، بل والأقاليم المغربية أصلا كبعض مواضع من السوس الأقصى ، الأمر الذى تطلب تجديد اسلامها ـ مما سبقت الاشارة اليه ٠

(٣٨) البكرى ، ص ١٣٧ ٠

(٣٩) البكرى ، ص ١٤٠ ـ حيث ســور الأنبيــاء : أيوب (أولهــا) ، وفرعون ، ومارون ، وهامان ، ويأجوج ، ومأجوج ، وهاروت ، وماروت ، وآخرها : سورة يونس ٠ ومن سور الحيوان : العجل ، والديك ، والجمل ، والجراد ، والحمل ، وآخرها سورة الحنش : يضاف الى ذلك سورة غرائب الدنيا ٠ وقارن روض القرطاس ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ٠

بالعقائد والعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات الى جانب ما كانوا يتمسكون من عادات وأعراف قديمة مما يتصل بالأخلاق والجنايات والعقوبات ٠

فى العقيدة : ما بين التشدد الخارجي والتساهل الشيعى :

فيمـا يتعلق بالعقيـدة الاسـلامية ، ورغم ما تقوله الرواية من ان البرغواطيين اتخذوا قـرآنا خاصا بهم ، وأنهم حرفوا شعائر الاسـلام ، وخاصة فيما يتعلق بالصلاة والصوم والزكاة ، فانه يمكن أن يستشف من التفصيلات المتعلقة بذلك ، ان المذهب البرغواطى — اذا صحت التسمية — هو مذهب اسلامى أصيل ، وأنه اذا كانت قد شـابته بعض الشوائب ، فتكون من حيث الميل الى التشدد الخارجى والغلو من ناحية أو التساهل الشيعى من ناحية أخرى ٠

فأمير برغواطة الأول صالح بن طريف كان مشتركا بصحبة والده فى ثورة ميسرة المطغرى ، فيكون المذهب فى أصـــوله صفريا (خارجيـا) ، ويكون البرغواطيون من أهل القيام والصيام ، رهبان الليل وفرسان النهار، الأمر الذى يفسر ميلهم الى التشدد فى العبادات ، بدءا من الوضـــوء حيث المبالغة فى التطهر — الى جانب اشارة تساهل فى الجنابة المعتادة عند صاحب القرطاس[٤٠] ٠

وفى الصـلاة يظهر التشدد فى جعلها ١٠ (عشر) صلاوات : خمسة بالنهار ، وخمسة بالليل[٤١] ، الى جانب أشياء أخرى فى الصـلاة يمكن اعتبـــارها نوعا من التيسير ، مثل : قصر الصـلاة[٤٢] ، الى جانب أقوال

---

(٤٠) البكرى ، ص ١٣٩ — حيث النص على غسل السرة فى الوضوء ، والخاصرتين ، والذراعين بدءا من الكتفين ، والرجلين بدءا من الركبتين ٠ وهنـا اذا كان التشدد يضيف الاستنجاء الى كل ذلك ، فان اشـــارة التساهل فى التطهر من الجنـابة الا من الحرام ، التى يضيفها ابن أبى زرع الى رواية البكرى لا تتفق مع هذا السياق ، ونرى أنها موضـوعة ، وخاصة أنه اهتم بجمع أخبار برغواطة فى كتابه الذى سماه « أزهار البستان فى أخبار الزمان ، وذكر الموجود مما وقع فى الوجود » ، الذى ربما انصب على غرائب الموضوع وعجائبه — القرطاس ، ص ١٣١ ٠

(٤١) البكرى ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، الأمر الذى يذكر بما فرضه عبد الله بن ياسين على أهل الرباط ومن لاذ بهم ، من أداء كل صلاة مرتين ، فردا ثم جماعة ، درءا لما يكون قد حدث من التفريط من قبل ، ص ١٩٦ ٠

(٤٢) أو كأداء بعض الصلاة ايماء ، أو رفع الجباه من الأرض بمقدار نصف شبر خشية =

أخرى مثل صلاة الجمعة فى يوم الخميس ضحا[٤٣] . اما ما يقال عن صوم رجب بدلا من رمضان فالظن انه تحريف يقصد به التشويه من قبل بعض الخصوم[٤٤] .

اما عن توحيد الزكاة وضريبة الأرض (الخراج) وجعل كل منهما العشر[٤٥] ، فهو يعنى أيضا نوعا من التشدد الذى كان يقوم به المرابطون عند خروجهم لفتح الصحراء أو بعض أقاليم المغرب ، حيث جعلوا الزكاة عشرا ، أو عندما فرضوا زكاة الثلث على أموال القبائل من الماشية حتى يزكو لأصحابها الثلثان (ما سبق ، ص ٢٠٣) .

وفيما يقال من أن البرغواطيين جعلوا عيد الأضحى فى اليوم الـ ١١ من المحرم بدلا من الـ ١٠من ذى الحجة (البكرى ، ص ١٣٩) ، فهى مقالة لا تعبر الا عن توجه شيعى بين قبائل تامسنا كذلك الذى رأيناه فى تارودانت بالسوس الأقصى ، وذلك ضمن علامات شيعية أخرى ، مثل القول بان أول ملوكهم صالح بن طريف زعم أنه « المهدى الأكبر » الذى يظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما[٤٦] . ومثل استخدام الرقم ٧ (سبعه) الذى له قيمة رمزية خفية عند الشيعة الاسماعيلية ، مثل القول بأن صالح يرجع على عهد السابع من ملوكهم (البكرى ، ص ١٣٥) وأن يونس بن الياس قتل فى سوق المدينة ٧٧٧٠رجلا (البكرى ، ص ١٣٥) .

وفى المعاملات من زواج وطلاق وبيع وشراء وغيرها ، ينسب الى آل صالح التمسك ببعض العادات القديمة كتلك التى عرفها عبد الله

= احتكاك الجباه بالأرض أو باقدام المصلين فى الصف المتقدم ، أو السجود ثلاثا ، انظر البكرى ، ص ١٣٩ . وقارن القرطاس ، ص ١٣١ ـ حيث شرح الصلاة إيماء بلا سجود حيث يكون السجود فى آخر ركعة ٥ سجدات .

(٤٣) البكرى ، ص ١٣٩ ، مما لا نعرف له تبريرا الا اذا كان من تركات الشيعة الذين لا يرون باسا فى ترك صلاة الجمعة انتظارا لرجعة الأمام ـ الأمر الذى قد يقبله بعض الخوارج .

(٤٤) البكرى ، ص ١٣٨ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٠ ـ حيث المقبول أن يكون هناك الاهتمام بالصوم فى رجب كما شعبان قبل رمضان ـ ويؤيد ذلك ما تقوله رواية البكرى من اهتمامهم بصوم يوم أسبوعيا ، والاهتمام بصوم يوم الجمعة على وجه الخصوص ـ وكل ذلك زيادة فى أداء فرائض العبادة .

(٤٥) البكرى ، ص ١٣١ ـ حيث النص على الأمر بإخراج العشر من جميع الثمار .

(٤٦) البكرى ، ص ١٣٥ .

ابن ياسين فى مجتمعات الصحراء (ما سبق ، ص ١٧٧) ، حيث الزواج بالنسبة للسادة ، حسب الاستطاعة ، والطلاق والمراجعة حسب المشيئة ، مع وضع بعض الضوابط ، مثـل عدم الزواج من بنت العم الى ٣ (ثلاثة) جدود ، الى جانب عدم التسرى مما يعادل بطلان زواج المتعة(٤٧) ٠

وفى شـئون الطعام والمطبخ يظهر عندهم بعض التشدد فى عدد من المحرمات ، مثـل : عدم أكل رأس الحيوان ، وعدم أكل لحم الحوت (السمك) الا أن يزكى (أى يذبح حيا) ، وعدم أكل البيض ، وكراهية أكل الدجاج مع تحريم أكل الديكة ، على أساس أنها تذكر الناس بأوقات الصلاة ، الأمر الذى أعطاها تلك الحصانة أو ذلك التبجيل(٤٨) ٠

اما فى الجرائم والعقوبات فلا بأس أن كان لقبائل برغواطة الجبلية مثل قبائل الصحراء ، قوانينهم العرفية التى تتسم بالشدة من أجل انضباط أفراد المجتمع ، والصرامة ٠ فالسرقة عقوبتها الاعدام ، سواء ثبتت بالاقرار أم اتضحت بالبينة ٠ وعقوبة الزنا هى الموت أيضا ، وان كان رجما بالحجارة فى جميع الحالات ٠ هذا ، ولو أنه عرفت الدية ثمنا لحياة الجانى ـ مع اصلاح الضرر اذا أمكن ، على ما نظن ـ وتقدر تلك الغرامة الباهظة بـ ١٠٠ (مائة) من البقر ٠ ومن الطريف هنـا أيضا ، أنه كان للكذب عقوبته الرادعة فى تامسـنا هو الآخر ، حيث كان الـكاذب يسمى « المغير » (للحقيقـة) ، وعقوبته النفى من البلاد(٤٩) ٠

والذى يفهـم من هذا العرض لأحوال قبائل برغواطة فى تامسـنا أنه كان لتلك القبائل عاداتها القديمة التى ظلت محتفظة بها بعد الدخول فى الاسـلام ، وهو الأمر الواقع بالنسبة للتجمعات البشرية ، وخاصة فى البيئات الانعزالية ، مثل تامسـنا ٠ كما كان لتلك القبائل مفهومها الخاص

---

(٤٧) البكرى ، ص ١٣٩ ـ وفى ذلك يقـال ان أبا عفير يحمـد (ت سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) الرابع فى قائمة البكرى ، ص ١٣٧ ، وكان له ٤٤ (أربع واربعون) زوجة ، وان كانت بقية الرواية التى تنص على انهن أنجبن له ٤٤ ولدا (نفس الرقم) تشكك فى صحة الخبر جميعا ، فكأنه لون من أدب الطرائف أو الغرائب ٠

(٤٨) البكرى ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ، ـ حيث اضـافة التبرك بهـا الى درجة الاستشـفاء « ببصاقها » مما يمكن حسبانه فى أدب الغرائب ٠

(٤٩) البكرى ، ص ١٣٩ ـ وعن القانون العرفى عند قبائل الصحراء ، أنظر ما سبق ، ص ١٣٦ ٠

لشريعة الاسـلام وسننه التى تميل الى التشدد منذ البداية بفضل حركات الخوارج ، وجهـود الردع التى قامت بهـا الدويـلات الموالية لدول المشرق أو المغرب والأندلس من سنية أو شيعية ٠

برغواطة وترجمة القرآن وشرحه :

لأول مرة باللغة البربرية :

والتهمة الـكبرى التى تلصق ببرغواطة وهى الزندقة ، عن طريق اتخاذ قرآن جديد ، الأمر الذى يتضمن ادعاء النبوة ، هى تعبير حسـبما نرى ، عن اتجاهات دينيه سياسية هدفها الاستقلال عن طريق تكوين كيان خاص ، ينبنى على التوافق بين روح الاسـلام التى تتواءم مع الظروف البيئية بمعناها الاجتماعى والتقافى ٠ وأول أسباب المواءمة تتمثـل فى فهم قواعد الاسلام الأساسية ، فى نصوصها القرآنية وشروحها فى السنن النبوية ٠ وهكذا نرى ان ما تسميه الروايات المناهضة لآل صالح « بزندقة » برغواطة ، ليس فى حقيقة الأمر سوى ترجمة للقرآن الكريم ومحاولة لتفسيره باللغه البربرية ، لغة قبائل جبال المغرب الأقصى الشمالية الغربية ٠ ورغم ان المحاولة كانت لها أسبابها العملية أو الواقعية بالنسبة لجمهرة المغاربة من البربر ، الا أن الوقت لم يكن مناسبا لتنفيذها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ دولة الاسـلام الفتية ، حيث كانت « العروبة » تكاد تعاد « الاسلام » من حيث أن انتشار الاسلام كان العامل الحاسم فى انتشار اللغة العربية ، قبل أن يسير الاثنان جنبا الى جنب يدفع كل منهما الآخر ويقوى انتشاره ٠ والحقيقة ان التعريب كما يرى بعض الباحثين ، كان معجزة الاسلام فى ذلك الزمان ـ من حيث أنه العملية التى لا يدانيها فى تاريخ العالم الا ما يقوم به الأنجلوسكسون فى أيامنا المعاصرة ، من نشر لغتهم الانجليزية دوليـا (٤٩م) وهى العملية المستمرة حتى الآن ٠

ويتـأكد سبق برغواطة فى ترجمـة القـرآن الى اللغة البربرية من النصوص الخاصة بتطبيق الشريعة الاسلامية فى تامسـنا على أيام البكرى ، فى النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ/١١ م ٠ ويتأكد من حسن النية فى سلامة تلك العملية التى كان يصعب قبولها وقتئذ ، مما يقال فى وصف قبائل برغواطة ، ومن صفات ملوكها من آل صالح بن طريف ٠ فبرغواطة

(٤٩ م) ريسلر ، الحضارة العربية بالفرنسية ، ط ١٩٥٥ ، ص ٤٥ ، والترجمة ، ص ٤٧ ٠

هم أجمل الناس رجالا ونساء ، وأشدهم أبدا(٥٠) ٠

وأما عن آل صالح فأول ملوكهم وهو صالح بن طريف يعتبر — رغم ما ينسب اليه من التنبوء من أهل العلم والخير ٠ والثانى : الياس ، فقد كان — رغم ما يسر به ، تقيا — طاهرا ، عفيفا ، زاهدا ٠ ويونس (الثالث) كان — رغم عنفه مع رعيته — ورعا ، قام بأداء فريضة الحج دون سائر أمراء الأسرة ٠ أما أبو الأنصار عبد الله (الخامس) فقد عرف بأنه سخى ، ظريف ، يفى بالعهد ، ويحفظ الجار ، ويكافىء على الهدية(٥١) ، الأمر الذى يعنى أن أسرة ملوك بنى صالح ، الذين كانوا ما بين عالم ، وعفيف ، وزاهد ، وحاج ورع ، ليسوا الا من أهل السيرة الطيبة والأخلاق الحميدة ٠ وان هذا يعنى انهم مؤمنون مخلصون ، يتمسكون بأصول الشريعة — وما تقضى به قواعد الدين ٠ أما ما ينسب اليه من اختراع قــرآن بلغتهم ، فهو لا يكون فى الحقيقة الا ترجمة للقــرآن ، ربما كانت بتصرف فى بعض المواضع أو تفسيرا لما يحتاجه النص من بيان وشرح ٠ فهذا ما يتضح مما كانوا يقرأونه فى صلواتهم : فكلمة « ياكش» حلت محل اسم « الله » ، تماما كما حلت عند الترك فى المشرق كلمة « تنجرى » محل كلمة « الله »(٥٢) ٠ وهكذا كان افتتاح الصلاة (الاحرام) يبدأ بقول « ابسمن ياكش ، مقر ياكوش » ، تفسيره : « بسم الله ، الكبير الله » (بسم الله ، الله أكبر) ، وفى النهاية ، يقولون فى التسليم بالبربرية : « الله فوقنا ، لم يغب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء (سبحان ربى الأعلى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض) ، ثم يقول : « ايحن ياكش » ومعناه : « الواحد الله » (قل هو الله أحد) ٢٥ (خمسا وعشرين) مرة ، و«وردام ياكش » ومعناه : « لا أحد مثل الله » (ليس كمثله شىء) ، مثلها(٥٣) ٠

وبنــاء على ذلك نرى أن ما يقال عن زندقة برغواطة ليس الا مجرد معارضة لمحاولة استقلالهم السياسى ، الذى حاولوا أن يدعموه ثقافيا عن طريق الدين ، وذلك بترجمة القــرآن الى لغتهم حتى يتمكنوا من الاستغناء

---

(٥٠) البكرى ، ص ١٤٠ — حيث النص على أن الجارية البكر منهن كانت تشب ٣ (ثلاث) حمر مصطفة ولا يمس ثوبها شيئا من الحمر — وان كانت الثيب لا تقدر على ذلك ٠

(٥١) البكرى ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ ٠

(٥٢) انظر للمؤلف ، الترك والمجتمعات ، التركية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، سنة ١٩٥٦ ، المجلد العاشر ، ص ٨٠ — ٨٢ ٠

(٥٣) البكرى ، ص ١٣٩ ٠

(الاستقلال) عن غيرهم فى تعلمهم لقواعد دينهم • وتلك كانت مسألة طموحة ، سابقة لأوانها ، بكل مقاييس ذلك العصر • ولا شك أن اقامة علاقات جيدة بينملك برغواطة فى منتصف القرن الـ ٤هـ/١٠م ، كان يعنى تدعيم الدولة الأموية الأندلسية ، بما لها من سلطان وجاه فى المغرب ، لدويلة برغواطة التامسنية ، والاعتراف بشرعيتها الاسلامية • وبناء على هذهالمقدمات يكون الغزو المرابطى لتامسنا وقبائل برغواطة باسم تجديد الاسلام هناك ليس الا محاولة جديدة ذات أهداف سياسية ، تماما كما سيكون الحال بعد ذلك ، على عهد الموحدين •

ضم تامسنا لدولة الرباط :

وهكذا تقدم المرابطون وعلى رأسهم ابن ياسين لغزو تامسنا ، واسقاط حكومتها البرغواطية (المغراوية) ، وهم يرفعون شعارات تجديد الاسلام ، تماما كما فعلوا فى الصحراء ، وبما تم غزوه من بلاد المغرب • ولنا فيما يقرره البكرى فى نهاية تعريفه بأحوال تامسنا على أيامه ، سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م ، من أن « جميع بلاد برغواطة اليوم على ملة الاسلام »(٥٤) ، سند لمقالنا هذا •

والمعلومات عن فتح المرابطين لتامسنا ، بلاد قبائل برغواطة وحلفائها قليلة ، ومضطربة بما يتناسب والمعلومات المختلطة عن تنبؤ ملوكهم ، وزندقة اعتقادهم • والبكرى يركز اهتمامه هناك على استشهاد ابن ياسين الذى أصبح ضريحه مزارا مبجلا ، يؤمه الناس للتبرك وقضاء الحاجات • وابن الأثير الذى يعتمد على رواية ابن شداد الزيرى الصنهاجي ، يخلط ما بين فتح تامسنا وفتح السوس ، حيث يرى هزيمة المرابطين وقتل ابن ياسين • والنويرى يتبع ابن الأثير فى مساره هذا مع اختلافات جزئية فى التفاصيل • رغم وحدة المصدر • أما ابن أبى زرع الذى يأخذ برواية البكرى عن المرابطين وعن هرطقة (زندقة) برغواطة ، فانه يحاول عرض معلومات البكرى المتفرقة بطريقة « مبرمجة » (منظمة) مع اضافة بعض الشروح من لدنه ، أو محاولة كشف ما قد يكتنف بعضها من غموض • وعن هذا الطريق يقدم ابن أبى زرع رواية بعض التفصيلات منذ تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين ، بالوقت (الساعة) واليوم والشهر والسنة ، ويتكلم

---

(٥٤) البكرى ، ص ١٤١ •

عن معارك ضارية ، ولكن دون تحديد مواضعها ، الأمر الذى يشكك فى أصل الرواية ٠ وعلى نسق ابن أبى زرع توجد بعض التفصيلات عند ابن خلدون ولكنها معروضة بشكل منهجى ، وان كانت غير متكاملة ، على كل حال ٠

معالم حرب تامسنا :

وباستعراض تلك الروايات يمكن تحديد بعض معالم حرب تامسنا المرابطية ، التى تبدأ من أغمات ، قاعدة حملة السوس ، بفضل موقعها الاستراتيجى ، فيما بين السوس وتادلا ، على طول الطريق المؤدى غربا نحو المحيط حيث رباط قوز العامر بالصالحين ، والذى يعتبر ساحل أغمات ٠ والى الشمال من ذلك ساحل تادلا حيث مرسى أسفى ، والرأس البيضاء التى تعتبر ساحل تادلا ٠ والى الشمال من ذلك فيما بين آزمور ، على مصب أم الربيع والرباط على مصب بور جرج (أبو الرقراق) يمتد ساحل « تامسنى » ، حيث جزيرة فضالة ، ساحل برغواطة ٠ ومن الواضح أن بلاد برغواطة ، سواء فى الداخل أو على الساحل ، ليس بها مراكز عمرانية كبيرة ، انما هى قرى جبلية متناثرة فى سفوح الجبال الوعرة ، مما يعنى حصانتها (وصعوبة اجتياحها) ٠

وهنا يمكن أن تقسم الحرب المرابطية فى تامسنا والتى امتدت حوالى ٣ (ثلاث) سنوات ، الى مرحلتين يفصل بينهما مقتل عبد الله بن ياسين ٠ ولا بأس أن تكون المرحلة الأولى أقصر من الثانية بعض الشىء ، حيث كانت وفاة ابن ياسين فى جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ/يونيه ١٠٥٩ م ٠ أما المرحلة الثانية فتنتهى قبل صفر ٤٥٢هـ/مارس ١٠٦٠م بالعودة الى أغمات ، حسب رواية القرطاس(٥٥) ، أو فى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م ــ وهو التاريخ الذى يحدده ابن الأثير خطأ لفتح سجلماسة(٥٦) ٠

والحقيقة أن رواية ابن الأثير هنا ، لا تخلط بين فتح تامسنا وفتح سجلماسة فقط ، بل وبين بلاد السوس بشكل عام أيضا ، فكأن شمال المغرب الأقصى (بلاد جبال درن) يمثل وحدة اقليمية واحدة ، أو بالأحرى وحدة سياسية اقتصادية ، حيث كانت السيادة للزناتية من يفرنية وغيرهم

---

(٥٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣٣ ٠

(٥٦) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨١ ــ حيث عدم وجود التاريخ رغم الاشتراك فى نفس المصدر ٠

وتمتد المنطقة اعتبارا من وادى درعة وسجلماسة فى الأقاليم شبه الصحراوية حتى الأقاليم الجبلية الخصبة فى السوس وتادلا ، وكذلك برغواطة (تامسنا) حيث الأسرة الجديدة من اليفرنيين كانت قد بدأت فى حكمها منذ حوالى ٧٠ (سبعين) سنة ، حيما غزاهم الأمير تميم اليفرينى بعد سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م - أى قبل ثلاثين سنة من الفتح المرابطى للسوس وتامسنا(٥٧) .

وهكذا ، وفى الاطار الدينى الاقتصادى سارت حرب « المطاولة » ، التى تفرق بين عهدين حسب اصطلاح ابن خلدون ، بين الدولة المرابطية الناشئة ودولة زناتة الغاربة ، صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، يوضح فتح تامسنا فى اطار هجرة أهل الصحراء من بلادهم عندما قحطت بلادهم ، وضاقت بهم فى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م(٥٨) . وينفرد ابن أبى زرع بالحديث عن تقدم ابن ياسين ورجاله تسبقهم دعاية واسعة عن هدفهم النبيل ، من القضاء على هرطقة برغواطة الجاهلية ، وتجديد الاسلام في تلك البلاد ، ووجوب تقديم جهادهم على غيرهم(٥٩) .

موقعة كريفلة ومقتل عبد الله بن ياسين :

ويتم اللقاء الرائع بين ملك تامسنا اليفرنى يومئذ ، وبين ابن ياسين ، فى ملاحم شديدة هلك فيها الكثير من الجانبين(٦٠) . وكان أشهر أيامها تلك الواقعة التى حدثت فى موضع يعرف بـ « كريفلت » ، في منطقة الرباط

---

(٥٧) البكرى ، ص ١٤١ - حيث النص على أنه لم تزل برغواطة في بلادها معلنة بدينها ، صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرنى ، وذلك بعد ٤٢٠ هـ / (عشرين وأربعمائة) من الهجرة ، فغلبهم على بلادهم ، وسباهم ، وجلا من بقى واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم ، وعفا آثارهم ، ولم يبق لضلالتهم باقية ، ولا من كفرهم أسرة ، هذا مع النص على جد وعدالة الأمير تميم الذي لم يتردد فى « قتل بنيه لاغتصابه جارية من التجار بوادى « سلا » ، وكذلك على أن « جميع بلاد برغواطة م (سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) على ملة الاسلام » . وانظر ما سبق ، ص ٢٢٦) .

(٥٨) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١ - ٦٢٠ - حيث خرجوا طلبا للزكاة ، كما حدث فى سجلماسة لأول مرة سنة ٤٤٧ هـ ، (القرطاس ، ١٢٧ ، ١٢٨) .

(٥٩) القرطاس ، ص ١٣١ - حيث النص على ان رواية المؤلف (ابن أبى زرع نفسه) تبدأ من الفقرة الأخيرة الخاصة بتقديم جهادهم على جهاد غيرهم .

(٦٠) انظر القرطاس ، ص ١٣٢ - حيث الأمير على برغواطة وقتئذ هو : أبو حفص عبد الله بن أبى عبيد محمد بن مقلد ابن اليسع بن صالح بن طريف ، البرغواطى المتنبى ، فكان أبا حفص هذا من نفس أسرة المؤسسين المتهمين بالمتنبى ، وهو الأمر غير الصحيح كما سبقت الاشارة .

(العاصـمة) ، فى نهار الأحد ٢٤ جمـادى الأولى سنة ٤٥١هـ/٩ يولية ١٠٥٩ م ، حيث قتل عبد الله بن ياسين ، الذى أصبح قبره مزارا يحج اليه كثير من أهل المغرب(٦١) • ومن المهم هنـا ، الاشارة الى مقتل عبد الله ابن ياسين فى حيز الرباط (العاصمة المغربية) يعنى أن ابن ياسين كان قد اجتاح معأم مملكة برغواطة من تخوم تادلا الى نهاية تامسـنا ، أى من وادى أم الربيع جيوبا الى وادى بور جورج شمالا ، فكأنه لم يعد هناك حائل بين المرابطين وبين الأندلس ، أرض الجهاد حقا وموطن الرباط •

وصية عبد الله بن ياسين واتخاذ منظر بديل :

وتأخذ نهـاية عبد الله بن ياسين فى رواية القرطاس شكلا قصصيا مؤثرا ، يعبر عن دقة أوضاع عصره على أواخر أيام الموحدين • فابن ياسين هو مهدى المرابطين ، فكأنه النموذج الذى اقتدى به ابن تومرت فيما بعد • وهو لا يموت فى التو واللحظة فى ميدان المعركة ، بل يدرك وفيـه رمق ، فلا يغادر الدنيا قبل أن يترك وصيته فى جماعة المرابطين ، مثله مثل عظام الرجال من القادة والآباء • وبصرف النظر عن صحة تلك الوصية أم وضعها فمن الواضح أنها تعبر عن آمال الحركة المرابطية فى أوائل عهدها وطموحاتها الدينية والسياسية ، فهى بمثابة دستوره أو برنامجه التأسيسى • فهـو يحرض المرابطين على الوحدة فيما بينهم فى أرض الأعداء ، ويدعوهم الى التمسك بمبادىء أهل الحق ، والتحذير من المخالفة ، أو التحاسد فى سبيل الزعامة وأخيرا يدعو ابن ياسين الى انتخاب رئيس بدلا عنه يقوم بالأمر ويقود الجيش ويجمع الأموال ، ويقسم الفىء(٦٢) • وهذا ما يقرر حدوثه ابن خلدون - دون غيره - اذ ينص على ان جمـاعة المرابطين اختـاروا بعد ابن ياسين أحد فقهائهم ، وهو سليمان بن عدوا ، ليرجعوا اليه فى قضايا دينهم ، وأنه هلك فى السنة التالية ٤٥٢هـ/١٠٦٠م(٦٣) ، فكأنها دعوة الى

---

(٦١) انظر البكرى ، ص ١٦٨ - حيث يوجد على قبره مشهد مقصود ، ورابطة معمورة • وقارن ابن أبى زرع ، ص ١٣٢ - حيث التحديد الدقيق لمقتل ابن ياسين ، وهـ ٧٩ - حيث النص على انه ما زال ضريح عبد الله بن ياسين معروفا ، مزارا بكريفلة ، من أرض قبيلة زعير بحوز الرباط • وقارن ترتيب المدارك للقاضى عياض ، ط • بيروت ، ج ٤ ص ٧٨٢ - حيث استشهد فى تامسنا سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م •

(٦٢) انظر القرطاس ، ص ١٣٢ •

(٦٣) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ - حيث الاسم سليمان بن حرو ، وابن عروا ، والتصحيح من الترجمة ج ١ ص ٧١ ، وان وفاته فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م التى عدلناها الى سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠ م فى السنة التالية على وفاة ابن ياسين •

التمسك بالقيادة الثنائية من الفقيه المشرع ، والأمير المنفذ ، بمعنى عدم انفراد أبى بكر بن عمر بالسلطة ، الأمر الذى يشكك فى صحة الوصية ٠ وقد تكون قرينة ذلك ، ما تنص عليه الرواية بعد ذلك من أن جماعة المرابطين اختارت الأمير أبا بكر بن عمر اللمتونى قائدا للجيوش ، مع التركيز على أهليته وشرف محتدة ونبله من جهتى الأب والأم جميعا(٦٤) ٠

الثأر لمقتل الفقيه وكسر آخر معاقل المقاومة البرغواطية :

ويفهم من رواية ابن الأثير أن المرحلة الثانية من حرب برغواطة بدأت فعلا بانفراد أبى بكر بالقيادة ونجاحه فى لم شمل المنهزمين فى كريفلة من الرجال ، وانه خرج على رأس ٢٠٠٠ (ألفى) فارس (راكب) منهم ، يواجه جحافل الخصوم الذين بلغ عددهم ١٢٠٠٠ (اثنى عشر ألف) فارس من برغواطة ومن زناتة ٠ وبفضل الثبات والصبر هذه المرة ، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وغنمت أموالهم التى قسمت بين المرابطين ٠ وانتهت المعركة الفاصلة بقتل ملك برغواطة ودخول المرابطين مدينته ، وذلك فى (أوائل) سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م(٦٥) ٠

وهنا تقول الرواية ان المرابطين كانوا قد طلبوا من برغواطة التنحى لهم عن الطريق الى الأندلس ، فكأن تامسنا كانت محطة أخيرة فى طريق المرابطين الى الجهاد فى الأندلس ، منذ ذلك الوقت المبكر ٠ وهذا يعنى اخضاع برغواطة والقضاء على ما كان لديهم من الميول الانفصالية ٠ وهو ما يعبر عنه بتفرقهم فى الصحراء واذعانهم لدولة الأمير أبى بكر بن عمر ، وأنهم أسلموا اسلاما جديدا(٦٦) ٠

---

(٦٤) القرطاس ، ص ١٣٢ وكذلك ص ١٣٣ - حيث النص على أن أبا بكر من جماعة بنى ورتانطق النبيلة ، وأن أمه حرة جدالية اسمها صفية ، وأن أول أعماله بعد ان آلت اليه السلطة هو دفن عبد الله بن ياسين ٠

(٦٥) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢١ - حيث اعتبار تامسنا من بلاد السوس وزناته - مما سبق الاشارة اليه - وقارن النويرى ، أبو ضيف ٣٨١ ، حسين نصار ج ٢٤ ص ٢٦٠ ، والقرطاس ، ص ١٣٣ ٠ حيث يفهم ان العمليات العسكرية كانت قد انتهت قبل دخول سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م التى كانت فيها العودة الى أغمات ، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الأحوال ، الأمر الذى يرجح توقيت ابن الأثير الذى أخذنا به ٠

(٦٦) القرطاس ، ١٣٣ - حيث النص أيضا على أنه لم يبق أثر لديانتهم الى اليوم ، وان ابا بكر جمع أموالهم وغنائمهم وقسمها بين المرابطين ٠

والحقيقة أنه اذا كانت الروايات تتحدث عن القضاء تماما على اتجاهات برغواطة الانفصالية فى آنفا وتامســنا والساحل الغربى(٦٧) ، وان المرابطين بدأوا يطالبون بفتح الطريق أمامهم الى الأندلس ، فان الوقت ما زال مبكرا للتفكير فى مثل هذا التمدد ، بعيدا فيما وراء الزقاق • وذلك ان سواحل المغرب الأقصى فى السوس الأدنى (وادى سبو ومنطقة فاس) ، وفى ممرات تازا الى جانب بلاد الريف وسواحل المغرب الأوسط فى وهران وتلمسان ـ فضلا عن سبتة وطنجة ، قمة بر العدوة فى مواجهة جبل طارق والجزيرة الخضراء ـ كانت بعد بعيدا عن قواعد المرابطين •

وهــكذا كان على أبى بــكر بن عمر العودة بجيوشه المرابطية فى مطلع سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م الى مدينة أغمــات التى أصبحت منذ سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م مركز القيادة اللمتونية ، بمعنى العاصمة الجديدة للدولة المرابطية بفضل موقعها المتوسط فى منطقة جبال أطلس الغربية الخصيبة ، وأرضها المعتدلة فى السفوح التى تتحــكم فى منافذ ممرات تلك الجبال ، وبالتالى فى تحركات سكانها من قبائل مصمودة • وهكذا ، فابتداء من هذا الوقت بدأت قبائل المصــامدة تنضم الى الجيوش المرابطية ، لاخضاع بقية من لم يكن قد دخل فى الدعوة من أهل المنطقة ، وما يليها • ومنذ هذا الوقت دخلت فى خدمة القوات المرابطية التى كان يقودها أبو بــكر بن عمر جماعات عرقية مختلفة من صــــنهاجة ، وجزولة أهــل الصــحراء ، ومن قبــائل المصامدة(٦٨) سكان جبال درن ، عصبية الدولة الموحدية فيما بعد ، الأمر الذى يعنى أن صنهاجة بقيادة لمتونة هى صاحبة الدولة ، وان جزولة أصبحت قبيلة حليفة ، مثلها مثل مصمودة •

واذا كان غزو السوس الأقصى قد أدى الى دخول المصامدة فى الجيوش المرابطية ، فان غزو أقاليم أغمات وتادلا وأنفا وتامسنا كان يسمح هو لآخر بدخول جماعات من الزناتية فى خدمة القوات المرابطية ، ليس من بين سادة المغرب القدامى من زناتية بنى خزر ، وأبناء موسى بن الى العافية فقط ، بل ومن المنهزمين فى سجلماسة وتامسنا من زناتية مغراوة وبنى يفرن •

---

(٦٧) العبر ، ج ٦ ص ١٨٣ ، الترجمة ج ١ ص ٧١ •
(٦٨) القرطاس ، ص ١٣٤ •

الفصل الخامس

دولة يوسف بن تاشفين

يوسف بن تاشفين واستكمال فتوح المغرب الشمالية :

والحقيقة ان فتح الأقاليم المغربية الشمالية ، من السوس الأدنى ، أى أقاليم فاس ومكناس وما والاها من بلاد الريف ، وسواحل المغرب الأوسط الغربية ، وهى أقاليم دولة زناتة حقا ، توجع الى يوسف بن تاشفين الذى رأيناه عابرا لمنطقة تارودانت نحو أغمات ، فى بداية فتح السوس الأقصى — دون أن نسمع له ذكرا بعد ذلك ، الأمر الذى يبرر سكوت البكرى، المعاصر وصاحب أهم وثيقة تاريخية عن تلك الفترة المبكرة من قيام الدولة المرابطية . هكذا ملأ عبد الله بن ياسين وخاصة فاجعة استشهاده ، مسرح الأحداث فى جبهة تامسنا ، ومن بعده أبو بكر بن عمر ، بينما كان يوسف بن تاشفين من أبناء عم أبى بكر الأقربين يتم فى صمت فتوح المغرب الشمالية ، وينتزع الأقاليم واحدا بعد آخر — دون اعلان — من بين أيدى الزناتية ليكتمل الشكل الأمبراطورى لجيوش الدولة المرابطية بانخراط العسكر الزناتى فى صفوفها .

وهكذا بينما كان أبو بكر بن عمر ، على رأس قواته المشكلة من صنهاجة وجزولة ومصمودة يثأر لمقتل عبد الله بن يوسين ، سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م ، ويقضى على جيوب المقاومة فى تامسنا غير بعيد من الرباط (العاصمة المغربية) وسلا ، على الساحل الغربى ، كان يوسف بن تاشفين على رأس قوته الصنهاجية أو المرابطية بمعنى اللمتونية ، يفتح باسم الأمير أبى بكر بن عمر تخوم بلاد زناتة فى السوس الأدنى ، من بلاد فازاز وجبالها وتوابع بلاد مكناسة ، أو بلاد لواتة — أشد قبائل زناتة بداوة وأقواها بالتالسى شكيمة — بمعنى اجتياح يوسف بن تاشفين بلاد البدو « الشاوية » (رعاة الشاة) المتاخمة للمغرب الأقصى ، على سفوح جبال درن (أطلس) الصحراوية . فهذا ما يفهم من رواية ابن أبى زرع التى تنص على اجتياح بلاد لواتة ، واقتحام عاصمتها — التى لا نعرف لها اسما مميزا — بعد حصار خانق ، انتهى باستئصال شأفة كثير من أهلها ، من اليفرنيين بحد السيف ، فى آخر ربيع الثانى ٤٥٢هـ/٢ يونية ١٠٦٠م ، فلم تقم لها

قائمة حتى أيام ابن أبى زرع فى مطلع القرن الثامن الهجرى (١٤م) ، على عهد المرينيين(٦٩) ٠

وهنـــا لا بأس من الاشارة الى أن فتوح أقاليم السوس الأدنى ، شمال وشمال شرق السـوس الأقصى ليست واضحة عند الكتاب ، لا على المستوى الجغرافى الذى تختلط فيه المسـميات ما بين سجلماسة والسوس وأغمات ، ولا على المستوى التاريخى (الحولى) للأحداث ، حيث كانت الدولة المغربية وقتئذ لزناتة بأسرها الحاكمة المختلفة ، من : الخزريين الى المغراويين وبنى يفرن ، الأمر الذى يمكن أن يفسر الخلط المشار اليه على مستوييه المكانى والزمانى ٠ والى جانب هذا يمكن أن يفسر ما ينتاب أحداث تلك الفترة من الغموض على الجانب المرابطى ، من تزامن ظهور شخصية يوسف بن تاشفين بكل رموزها السياسية والدينية مع شخصية أبى بـكر بن عمر رجل الدولة القوى ، الأمر الذى كاد يحول النظام المرابطى الثنوى الى نوع من نظام حكم الرجـال الثـلاث (Triumvirat) الذى عرفته رومـا قديما(٦٩ م) ــ لولا استشهاد عبد الله بن ياسين فى ميدان القتال ٠

هـكذا تظهر فتوح المرابطين التى قام بها يوسف بن تاشفين ، تحت امرة أبى بـكر بن عمر فيما وراء السـوس الأقصى ، فى رواية ابن شـداد التى ينقلها كل من ابن الأثير والنويرى ، وكأنها حرب مشروعة فى دولة زناتة التى توصف بأنها دولة ردية مذمومة ، سـيئة السيرة من حيث لا سياسة ولا دين(٧٠) ٠ أما عند ابن أبى زرع الذى حاول ترتيب الأحداث بشكل مقبول على كل حال ، فان فتوح السوس الأدنى تنسب أولا الى أبى بـكر ابن عمر ، ثم الى يوسف بن تاشفين بأمر من أبى بـكر(٧١) ، وذلك قبل

---

(٦٩) القرطاس ، ص ١٣٤ ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٩ ــ حيث فتح لواته على يدى أبى بكر بن عمر قبل رحيله ٠

(٦٩ م) هو النظام الذى اتفق فيه كل من قيصر وبومبى وكراسوس فى روما ضد مجلس السناتو (الشيوخ) ، والذى يشبهه البعض بما حدث فى خلافة أبى بكر يوم السـقيفة ، الأمر الذى يشير اليه فيليب حتى بالنص على أنه « لعل مبايعة أبى بكر كانت نتيجة اتفاق بينه وبين عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ــ الكتلة الثلاثية التى أدارت شئون الاسلام وهو بعد فى مهده » ــ تاريخ العرب المطول ، ط ١٩٦٥ ج ١ ص ١٩١ ٠

(٧٠) ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٢ ، حسن نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٢ ٠

(٧١) القرطاس ، ص ١٣٤ ــ حث فتوح فازاز ، ومكناسة ، ولواتة ٠

عرضها بشكل تفصيلى - وان شابه التعميم ، تحت عنوان دولة يوسف ابن تاشفين بصرف النظر عما اذا كان يوسف بن تاشفين أميرا (قائـدا) للجيش ، أم أميرا (رئيسـا) للمسـلمين(٧٢) • وهنـا نشير الى أهمية حوليات ابن عذارى الخاصة بتاريخ المرابطين فى المغرب والأندلس(٧٣) فى امكانية اعادة شىء من الترتيب فى مسار تلك الأحداث رغم اختلاطها هى الأخرى •

دور أبى بـكر بن عمر فى فتح المغرب قبل الرحيل :

والأمر المستغرب حقا ، هو الغموض الخاص بترك الأمير أبى بكر بن عمر لمسرح الأحداث فى المغرب والمسير الى الصحراء ، لتسوية ما كان قد قام بين قبائل الملثمين هناك من النزاع على حدود بلاد السودان • والأمر لا يتعلق فقط بالطابع القصصى للرواية التى تأخذ شكل واحدة من مؤامرات الحريم فى القصر الملكى ، بل الأهم من ذلك هو التحديد الزمنى - أصـل التاريخ ومادته الأولى - لذلك الحدث المحورى بالنسـبة لتاريخ الدولة المرابطية ، فهو بمثـابة موقعة حاسـمة من مواقع التـاريخ المصيرية بالنسـبة للدولة المرابطية ، اذ يفصـل بين عهدين ، أولهما تاريخى بالنسـبة لدولة الرباط الدينية الطابع ، وثانيهما مسـتقبلى بالنسبة لدولة لمتونة (التاشـفينية) المدنية السمة ، مما نشير اليه فيما بعد (ص ٤٢٨) •

فهنـاك عدد من الأحداث التاريخية الكبرى مما يتعلق مباشرة بترك الأمير أبى بـكر قيادة المغرب **وأولها** : العهد بالامارة الى يوسف بن تاشفين قريبه ، **وثانيها** : بناء مدينة مراكش وهـل تم بمعرفة أبى بكر أم يوسف ، واتخاذها عاصمة للدولة بدلا من أغمات ، **وثالثها** : استكمال فتوح المغرب بفتح فاس والسـوس الأدنى ، وسواحل المغرب الأوسط المواجهة للأندلس، الى جانب السيطرة على عدوة سبتة وطنجة ، بوابة الدخول الى اشـبيلية وقرطبة •

---

(٧٢) القرطاس ، ص ١٣٨ •

(٧٣) وهى التى يرجع الفضل فى التعريف بها الى بروفنسال ويشى ، والتى نشرها احسان عباس كجزء رابع لبيان ابن عذارى - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ •

من توقيت رحيل أبى بكر الى توقيت فتح المغرب :

وفيما يتعلق برحيل أبى بكر الى الصحراء وعهده بادارة المغرب ليوسف بعده ، نفتقد توقيت هذا الحدث فى كل ما وصلنا من روايات الكتاب ، من البكرى وحتى ابن خلدون ، فلا يبق لنا الا محاولة الاستنباط عن طريق مقارنة ما لدينا من أحداث تقترب أو تبتعد عن تاريخ استقلال يوسف بن تاشفين بالمغرب • وفى هذا المجال ليس لدينا - الا مجموعتين من التواريخ ، احداهما ترجع الى ابن أبى زرع صاحب روض القرطاس والأخرى تتمثل فى حوليات بيان ابن عذارى التى تمثل سلسلة فقرات العمود المحورى فى هيكل التاريخ المغربى - الى جانب بعض التواريخ المتناثرة فى المصادر الأخرى ، مثل : تاريخ بناء مدينة مراكش الذى يتراوح ما بين عهدى كل من أبى بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين •

من مناقب الرجال الثلاث :

والتواريخ التى يقدمها ابن أبى زرع لفتح بقية بلاد المغرب خارج السوس الأقصى ، مثل : فازاز وبلاد زناته ومكناسة ، ولواتة فى سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م على يدى أبى بكر ، قبل سفره (ص ١٣٤) ، وكذلك فتح بلاد ملوية فى المغرب الأوسط على يدى يوسف سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م (ص ١٣٨) لا يمكن قبولها ، من حيث أنها تعنى اكتمال فتح بلاد المغرب فى وقت كان القتال لا يزال دائرا فى أنفا وتامسنا ، كما انها تسمح لابن أبى زرع صاحبها ، بالقول : ان يوسف بن تاشفين كان قد تقوى أمره وكبر صيته فى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، حيث بنى مدينة مراكش ، وان مدينة فاس (عاصمة الشمال) وضواحيها كانت قد فتحت ، بعد ذلك، فيما بين سنتى ٤٥٤هـ/١٠٦٢م و٤٥٥هـ/١٠٦٣ ، الأمر الذى يصعب تبريره اقليميا وزمنيا • والقرينة على ذلك ان رواية صاحب القرطاس نفسه ، تعود هنا الى تكرار ما بدأت به أولا من فتوح لواتة ومكناسة ومغراوة مع فتوح فاس (ص ١٣٨ - ١٤٠) •

ونحن لا نرفض قصة فتوح بلاد السوس الأدنى ، وأقاليم ملوية فى المغرب الأوسط كوقائع تاريخية رغم ما قد يعتريها من خلط أو لبس ، ولكنا لا نقبل مواقيت فتحها المقترحة ، من حيث تركيزها فى سنتين أو ثلاث سنوات ، مرتبطة فى وقت مبكر بفتح أقاليم السوس الأقصى وتامسنا • فمن الواضح ان صاحب تاريخ المغرب وأخبار مدينة فاس أراد أن ينسب الى عبد الله بن ياسين ، وأبى بكر بن عمر ، ويوسف تاشفين ، أعمالا عسكرية

ديومبين - فى دراسته لنص العمرى عما اذا كان هناك أمل فى العثور على بقايا لدار الخلافة بملحقاتها ، من : دار البلور ، ودار الريحان ، ودار الماء · اما عن الدراسة التى قام بها هنرى باسيه وهـ· تراس عن جامع الكتبية ، والتى تصحبها صور توضيحية رائعة ، فهى تحوى فضلا عن ذلك ، رصفا لجامع القصبة ، وهو جامع المنصور · وهى الدراسة التى أعدها للنشر هـ· تراس بما تستحقه من عناية وتبجيل (لباسيه) تحت عنوان : معابد وقلاع موحدية(٩٨) ·

والمهم بعد ذلك أو قبله ان الكتاب من مغاربة ومشارقة لم يهتموا الا بالأعمال الانشائية التى تمت فى بناء مراكش (وكذلك ما صاحبها من الفتوح) فى سنواتها الأولى فقط - بصرف النرظ عما يعتريها من خلط فى التوقيت او فى المضمون - منذ فتح أغمات والسوس حتى انفراد يوسف بن تاشفين بالولاية ، وهى الفترة التى يركزون فيها معظم الانجازات الكبيرة فيما لا يزيد عن بضع سنوات باستثناء ابن عذارى الذى مددها الى ما يناهز ٢٠ (عشرين) سنة ، وهو ما رجحناه وأخذنا به ·

والذى يلفت النظر ان هؤلاء الكتاب لم يهتموا بما ينبغى أن يكون قد قام به يوسف بن تاشفين من أعمال عمرانية فى مدينة مراكش ، بشكل مباشر أو عن طريق عماله ومعاونيه ، فالوقت كان ما زال مبكرا بالنسبة لحكم يوسف بن تاشفين الذى امتد الى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م بمعنى مزيد من العمل الحضارى على مدى ٤٠ (أربعين) سنة ، وخاصة فى العاصمة مراكش ، قاعدة جيوش المرابطين العاملة ما بين المغرب وافريقيا (السوداء) والأندلس · حقيقة ان الكتاب لا يهتمون الا بأعمال يوسف بن تاشفين الحربية مثل غيره من أبطال الفتوح الاسلامية ، وخاصة فى الأندلس ، أرض الرباط الحقيقى ، والأعمال الحربية الناجحة على وجه الخصوص · ولكن الأندلس كانت ملهمة للمرابطين أيضا فى مجالات الحضارة المختلفة ، وبخاصة فى مجالات العمارة والبناء والزخرفة - رموز الحضارة المادية الملموسة ·

---

(٩٨) أنظر Sanctuaires et Forteress Almohades) ص ١٠٣ وما بعدها ، وأنظر ارجمة ج· ديومبين للعمرى ص ١٧٩ وهـ٣ - حيث نشر العمل باسم كل من هنرى باسيه ، هـ· تراس فى مجلة هسبيريس عدد ١٩٢٤ - ص ١٨١ ، وعدد ١٩٢٥ - ص ٣١١ ، وتم بالفصلتين ٢ ، ٣ لسنة ١٩٢٦ ·

وهكذا نرى انه ما زال أمام الكتاب والباحثين ، على مستوياتهم النظرية والعملية ، الكثير من العمل فى سبيل الكشف عن أعمال المرابطين الحضارية والعمرانية ، على عهد يوسف بن تاشفين ، فى مدينتهم مراكش العاصمة ، على وجه الخصوص ، على مدى حوالى أربعين سنة ، هى مدة حكم العاهل المرابطى - رمز دولة العباد المجاهدين التى قامت على أفكار حضارية قبل أن تكون أفكارا جهادية ، والفكرة تسبق الوجود ، كما يقال على كل حال .

يوسف بن تاشفين أميرا لدولة العباد المرابطين :

الرجـــل :

نسـبه وصـفاته :

ينتسب يوسف بن تاشفين الى العروق النبيلة من أحرار بنى ورتانطق اللمتونيين . فنجده هو ابراهيم بن ترقوت (ترجوت) بن ورتانطق(١) وهو شريف أيضا من ناحية أمه الحرة : فاطمة بنت عم أبيه(٢) .

اما عن أول صـفاته (التاريخية) التى تهمنا ، فهى أنه كان يبلغ من العمر حوالى ٦٣ (ثلاث وستين) سنة عندما ولى أمر المغرب ، بعد رحيل أبى بـكر بن عمر ، فكأن تجاربه الحياتية وقتئذ كانت تشغل العمر الافتراضى كاملا للانســان العادى ، وكأن تجاربه التالية حتى وفاته سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م ، وهو يحتفل بعد ميلاده المئوى ، اضافة تجريبية فى الحكم والادارة ، تميزه عن غيره من سائر رجال الدولة . فمثـل هذا ما نراه عند المـاوردى وهو يقرر أن كمال العلم لا يتم الا اذا قدر الله للطالب طول العمر(٣) الأمر الذى يعنى أن طول العمر يعتبر بعدا رابعا فى قياسات الانسان (الأنموذج) السـوى .

وفيما يتعلق بصـفات يوسف بن تاشفين الجسمية ، ينفرد ابن أبى زرع بتقديم طائفة من الصفات المميزة ، التى لا نعرف نظيرها لدى غيره من كبار رجال الدولة المرابطية ــ وان لم يعرفنا بأصل مصدرها ، وبالتالى فلا نتأكد من حقيقة كونها . فيوسف ذو بشرة سمراء نقية اللون ، الأمر الذى يعنى

---

(١) آنظر القرطاس ، ص ١٣٦ ــ حيث سلسلة النسب الى الجد العاشر ، وهو الجد الأسطورى ــ تلميت الحميرى الصنهاجى من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير ، وقارن ابن عذارى ص ١٧ ، ١٨ ــ حيث النص على أن جده هو ابراهيم بد ترجوت أو (نورقيت) ابن وتاسن (بدلا من ورتانطق) ، مع المقابلة مع نص الحلل الموشية هـ ١ ص ١٧ ــ حيث : تورقبت بن ورتانطق . وأنظر ما سبق (عن ورتانطق » ، ص ٧٠ هـ ٣٤ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٦ ــ حيث اسمها : فاطمة بنت سيرين بن يحيى بن وجاج ابن ورتانطق .

(٣) الماوردى ، أدب الدنيا والدين ، ص ٤٥ .

نسبة لا بأس بها من الدماء السوداء التى تجرى فى عروقه(٤) . وهو بعد ذلك معتدل القامة ، نحيف الجسم ، بمعنى : الرقة وخفة الحركة ، وهو ما يتجلى أيضا ، فى : رقة الصوت وخفة شعر العارضين (الصدغين) . أما شعر رأسه الجعد فينسدل الى شحمة الأذنين ، بينما تميز حاجباه باقترانهما معا(٥) .

معاشـه :

اما عن طعامه وشرابه فهو الذى اعتاد عليه أهل الصحراء ، مما لا يزيد عما يتبلغ به من القوت الضرورى ، من : خبز الشعير والأذرة ، ولحوم الابل وألبانها ، لا يتركها ، الى غيرها طوال حياته ، فى بوادى افريقية أو فى حواضر الأندلس . وكذلك الأمر بالنسبة لملابسه فقد كان يوسف يكتفى بارتداء ثياب الصوف الخشنة - ملابس الصوفية العباد - لا يزيد عليها مع الاحتزام فى أوقات العمل .

اما عن صفاته المعنوية وأخلاقه ، وهى التى هيأته لتقلد سدة الحكم والرياسة فتتمثل فى قوة التدين ، وكرم الأخلاق (الفضل) ، والورع والعدل ، والشجاعة والنجدة ، وسداد الرأى والحزم ، وأخيرا يمن النقيبة أو سعادة الطالع ، مع شىء من الخبث أو اللؤم الذى يجعل الوسيلة مبررا مقبولا للوصول الى الغاية المنشودة(٦) .

---

(٤) القرطاس ، ص ١٣٦ ، وقارن ابن عذرى ، ج ٤ ص ١٧ - حيث النص على أن قريبه : ابراهيم بن أبى بكر بد عمر ، لا نعرف أمه ، وأنه كان أسود الجلدة ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمواطن لمتونة الجنوبية حيث العلاقات الوثيقة مع بلاد السودان .

(٥) القرطاس ، ص ١٣٦ .

(٦) أنظر القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث عرضت هذه الشمائل على أنها مؤهلات يوسف ابن تاشفين التى حققت اجماع أشياخ المرابطين على تقديمه للرئاسة ، وأنظر أيضا ، ص ١٣٦ - حيث النص بعد صفاته التى تقدمت أعلاه ، على أنه : بطل ، نجد ، شجاع ، حازم ، مهاب ، ضابط لملكه ، متفقد لأحوال رعيته ، جواد ، كريم ، زاهد فى الدنيا . وقارن ابن الأثير ، ج ٩ ص ٦٢٢ - حيث يوصف يوسف بن تاشفين بانه : دين ، خير ، حازم ، داهية ، مجرب ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٩٠ ، حسين نصار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ - حيث النص بمناسبة وفاته على أنه كان دينا حازما ، سئوما ، ذا دهاء ، الا أنه أبان عن لؤم لما اعتقل المعتمد بن عباد باغمات ، فانه لم يجر عليه ما يقوم به حتى كان بناته يغزلن بالأجر للناس ... الخ .

وهكذا يمكن القول أن يوسف بن تاشفين كان فى عنفوان الحلقات الوسطى من عمره المديد ، عندما آلت اليه امارة الصحراء وبلاد المغرب الساحلية (الأطلسية) ، وهو فى سن الثالثة والستين ، وأنه كان مسلحا بمجموعة من القوى الروحية والعقلية والأخلاقية اللازمة فى أمور الحكم والحرب والادارة الى جانب سلسلة تجاربه فى ميدان الحرب والسياسة التى كانت تمكنه من الهداية فى طريق أهدافه المقصودة ٠

يوسف بن تاشفين نائبا لولاية المغرب :

ترتبط ولاية يوسف بن تاشفين الأولى ، سنة ٤٦٣ هـ/١٠٦٨ م بخمسة أحداث مهمة ، تعتبر علامات مميزة فى حياة الرجل ٠ أولها : استكمال بناء قصبة مراكش القديمة التى كان يشرف عليها الأمير أبو بكر بن عمر ، وثانيها زواجه من زينب النفزاوية (طليقة أبى بكر) مما سبقت الاشارة اليه (ص ٢٣٨) ٠ أما الحدث الثالث وهو أخطرها من حيث أهميته بالنسبة لمصير كل من بلاد المغرب والأندلس والسودان الغربى ، فيتمثل فى مسير أبى بكر بن عمر لمواصلة الجهاد فى بلاد السودان فيما وراء الصحراء ٠ والانجاز الرابع يتلخص فى استكمال فتوح المغرب الزناتى فى بلاد فاس ومكناس والريف ، وبلاد ملوية وتلمسان فى المغرب الأوسط ، كتمهيد طبيعى لضم الأندلس ــ وهو الحدث الخامس ــ الى دولة صنهاجة الصحراوية السودانية ، التى تحولت الى مشروع امبراطورية اسلامية اتحادية ، أشبه ما تكون بدولة الخلافة الشرقية ، من حيث البنية الثقافية السنية السلفية ــ وهو الهدف النهائى للحركة المرابطية ، كما نظن ٠

ومجمل تلك الأحداث يعنى انجازات العهد اليوسفى التاشفينى خلال الـ ٣٨ (ثمانية وثلاثين) سنة ، التى تمثل عهدا لا نظير له فى تاريخ ملوك الاسلام ــ ربما باستثناء محمود الغزنوى فاتح الهند ــ من حيث الحركة الدائبة ، والنشاط الذى لا يعرف السكون ــ فكان العاهل المرابطى من ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم المصاعب الا توهجا وحماسا ٠

العهد الى يوسف بالولاية :

بينما كان أبو بكر بن عمر يشرف على بناء قصبة مراكش (سنة ٤٦٣ هـ/١٠٦٨ م) ، اذ وصل رسول من لدن زعماء لمتونة بجنوب الصحراء ، يخبرونه بما كان قد قام من الفتنة بين جدالة ولمتونة ــ بسبب التنافس على أرض السودان ، والعمل على نشر الاسلام بين أهلها كما يظهر

— وأن بنى جلدته من اللمتونيين يطلبون العون لوضـــع حد لاعتـداءات الجداليين على ديارهم وعليهم(٧) ٠

فما كان من أبى بكر — الذى استعظم الخطب — الا أن يعقـد مؤتمرا لشيوخ لمتونة ووجهائها — وأن يعرض عليهم ما رآه من المسير لنجدة اخوانهم فى الجنوب ، والأخذ بثأرهم ، ويطلب منهم بالتالى النظر فيمن يرونه أهـلا لشغل الولاية نيابة عنه أثناء مغيبه هذا ٠ ولم تكن مسألة اختيـــار أمير بصفة مؤقتة ، أمرا سهلا بالنسبة لمجمع حكمـــاء لمتونة ، اذ اختلفوا فيما بينهم ، وعندئذ انتهى الأمر بأن قرر الأمير أبو بكر أن يكون نفسه ، صاحب القرار الأخير فى اختيار الرجل الذى يخلفه فى الولاية ٠ وبعد الاستخارة رأى أن قريبه يوسف بن تاشفين ، قائد جبهة حرب المغرب ، هو أصلح من يقوم بالأمر خلفا له ، ولا بأس أن يكون ابن تاشفين قـد قدم الى مراكش الناشئة ، بناء على دعوة من أبى بكر أو أن يكون قد حضر عندما بلغته أخبار اختلاف المشايخ من أهل الحل والعقد حول خليفة الامير أبى بكر المنتظر ، بل ولا بأس أن يكون يوسف قد فرض نفسه على ملأ لمتونة من حيث انه كان الرجل القوى وقتئذ ٠ فهذا ما يمكن نأ يفهم من الرواية ذات الطابع القصصى عندما تتحدث عن الاستخارة وعن الهاتف الذى صـــدم أبا بكر فأنساه التفكير فى يوسف وحضور هذا الأخير من الجبهة ليقول لأبى بكر : « أنا أكون خليفتك ان شاء الله — عز وجل »(٨) ٠

---

(٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٠ — حيث النص على انه وقف على أبى بـكر رجل راكب على فرس ، أشعث الرأس ، وقال له « أيـد الله الأمير ٠ ان جدالة اغارت على أخوتك فقتلوا الرجال وسلبوا الأموال وهزموهم » ، فما كان من أبى بـكر الا أن استرجع (فقال : انا لله وانا اليه راجعون) ٠

(٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٢٠ — ٢١ — حيث تأخذ الرواية شكل قصص شعبى (فلكلور) يتفق مع طبيعة الحركة المرابطية ، من حيث علاقتها بالتصوف الجهادى ، وما وصف به كل من أبى بـكر ويوسف بن تاشفين من التدين والزهد والعبادة ، وخاصة يوسف الذى اتخذ فى قصصنا التاريخى شكل العـابد المجاهد أو حتى الولى المستجاب الدعاء ٠ وهكذا تقول الرواية ان ابا بـكر دعا الله أن يسـمى له رجلا يستخلفه ٠٠٠ ومع ان الله أنسـاه ذكر يوسف بن تاشفين ، فان هذا الأخير وصـل من جهة المغرب (فكأنه قد سمع ذلك الهاتف) ليقول لأبى بـكر ٠٠٠ « أنا أكون خليفتك انشاء الله — عز وجل » ، ويرد أبو بـكر بالقبول : « صدقت يا يوسف ، أنت والله خليفتى » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٤ — حيث الاشارة الى ان رسول بلاد القبلة قدم على أبى بـكر بعد ٣ سنوات (أشهر فى الأصل) من زواجه بزينب بنت اسحاق ليخبره باختلال الصحراء ، وان الآمير الصالح الورع لم يستحل =

شروط الاتفاق على النيابة :

وسواء كان أبو بكر هو الذى عين ابن تاشفين خلفا له بمحض رغبته دون موافقة أشياخ لمتونة الحكماء ، أو كان يوسف هو الذى فرض نفسه بصفته الرجل القوى فى هـذا الوقت العصيب ، سواء بسبب الخلافات الداخلية بين القبائل ، أو المواجهات الحربية مع ملوك زناته فى أقطار المغرب التى لم تكن قد فتحت بعـد ، أو بلاد السـودان ، مجال نشر الاسـلام الصحيح ، أول أهداف حركة الرباط ، فقـد كان من الضرورى القيـام بتسوية سياسية تحقق المصلحة العامة على مستويات العلاقات الداخليـة والخارجية . والحقيقة أن التسوية فى مثل هـذه الحالة كانت تتلخص فى وصية ولى الأمر ، أى الأمير ، وهى التى عادة ما تتضمن ما يكون متفقا عليه بشكل عام بين المشايخ من زعماء القبائل أو الجمـاعات . والنموذج لذلك وصية عبد الله بن ياسين ، الذى أصيب فى ميدان المعركة ، ومع ذلك فلم يمت الا بعد وقت من النهار ، كان قادرا فيه على املاء وصيته التى عبرت عن مجموعة من القواعد الدينية السياسية والأفكار ، ممـا يمكن اعتباره بمثابة دستور لدولة الرباط (ما سبق ، ص ٢٢٩) .

تركة الأمير الخاصة : نوع من توريث الزوجة :

ونقصد بتركة الأمير الخاصة محتويات داره التى عادة ما تؤول لزوجته أم البنين . ولكنا هنا بصدد مجتمع « أموى » ، لا يعرف تعدد الزوجات الا فى أضيق الحدود ، اذ السيادة فيه للمرأة (ما سبق ، ص) . وفى بيت الأمير أبى بكر كان الأمر والنهى لزوجتـه (الست) زينب النفزاوية وهى التى تواصلت هيمنتها على الأمراء ، منذ ما قبـل الحكومة الزناتيـة السابقة فى أغمات (ما سبق ، ص ٣٢٨) . وفى هذا السـياق يمكن أن نفهم أن الأمير أبا بكر عندما أخبر يوسف بن تاشفين بأنه سـوف يطلق زوجته الرقيقة ، المشهورة الى جانب الجمال بالفهم والرأى والحزم ، ونصحه بفوائد الزواج منها ، انما كان يقصد ، الى جانب استمتاع خليفته بجمـال

= قتال المسلمين وسفك دمائهم ، فسار الى الصحراء ليصلح أحوالها ، ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٨٤ — حيث النص على ان الخلاف كان بين لمتونة ومسوفة (بدلا من جدالة) أهل الصحراء ، حيث أعياصهم ووشائج أعراقهم ، ومنع عددهم ، فخشى افتراق الكلمة ، وانتظام الوصلة ، وتلافى أمره بالرحلة ، وأكد ذلك فارتحل أبو بكر الى الصحراء .

المرأة ، وسعادة طالعها ، الاستفادة بمواهبها العقلية والنفسية الأخرى : من حيث تكون خير مرشد يضمن للدولة تواصل الاستقرار فى سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية المتوازنة(٩) •

تقسيم الجيش :

نصيب يوسف والعمليات العسكرية فى المغرب :

ان تقسيم الجيش المرابطى الذى تشير اليه المصادر ، الى جيشين : أحدهما مغربى شمالى بقيادة يوسف بن تاشفين ، هدفه استكمال فتوح المغرب ، والآخر سودانى جنوبى بقيادة أبى بكر للجهاد ونشر الاسلام جنوب الصحراء ، يعنى أن ابن تاشفين كان قد استدعى من الجبهة على عجل للنظر فى هذا التقسيم ، وانه لما حضر بقواته كان الرجل القوى ، المؤهل للحكم فى المغرب بالنيابة •

وهناك روايتان فى كيفية تقسيم الجيش ما بين نصفين لكل من أبى بكر ويوسف ، فكأنها قسمة عدل بالتساوى ، وما بين الـ ⅓ (الثلث) والـ ⅔ (الثلثين) على أساس أن يكون للأمير ضعف ما لنائبه ، وهو الأمر المقبول شكلا : اذا كان المقصود لمتونة فقط ـ من حيث كونهم مددا لأقاربهم كما تنص الرواية(١٠) • والحقيقة انه ليس من المقبول أن يكون أبو بكر قد سار بمعظم الجيش نحو الصحراء ، والا كان المعنى هو الجلاء عن المغرب ، الى

---

(٩) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ ـ حيث رحيل أبى بكر الى بلاد القبلة ، ووصيته ليوسف بن تاشفين ، ابن عمه ، الذى خرج بصحبته مشيعا ، وتعريفه بأنه ينوى طلاق زينب تبرئة لذمته ، ونصحه بالزواج منها « فانها امرأة مسعودة » ، هذا الى جانب رواية أخرى تشير الى ان زينب بما لها من شخصية قوية ، ونظر بعيد ـ هى التى طلبت الطلاق • وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٥ ـ حيث النص على انه تزوج زينب (بنت ابراهيم) بعد ولايته ، وانها كانت حظية عنده وأمره (أميره عند أبو ضيف) ، وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ، ولا يسمون الرجل الا بأمه فيقولون فلان ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان ، القرطاس ، ص ١٣٤ ـ حيث النص على أن أبو بكر لما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زينب ، وقال لها : « يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وانى سائر الى الصحراء برسم الجهاد لعلى أرزق بالشهادة ••• وأنت امرأة لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء ، وانى مطلقك ، فان اتممت عدتك فتزوجى ابن عمى يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتى على بلاد المغرب » ـ فكان ثمة علاقة سببية بين ولاية المغرب والولاية على المرابطين وزواج زينب •

(١٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢١ •

جانب صعوبات شـــديدة فى الامداد والتموين على طـول الطريق الفقير • بالاضافة الى أنه عندما يصل الى بلاده لن يكون فى حاجـة الى الرجال ، اذ الهدف هو الاصلاح بين المتنافسين • والوطن هناك ، كما يقول ابن خلدون: «أصل أعياصهم ، ووشائج أعراقهم ، ومنيع عددهم» (ما سبق ، ص ٢٥١ بقية هـ ٨) ، يستطيع أن يحشد منه من يشاء سواء للجهاد فى السودان ونشر الاسلام ، أو للعودة الى المغرب اذا عن له ذلك •

وهكذا يكون أبو بكر قد سار على رأس الفيلق السودانى ، المكون من اللمتونيين دون غـــيرهم ، فى أول ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ/٦ ينـــاير ١٠٧١ م(١١) ، من أغمات متجها عبر تادلا وبصحبته يوسف بن تاشفين ، على رأس قواته المغربية الى سجلماسة • وهناك أقام أياما ، ينظر فى شئون المنطقة ويصلح من شأنه استعدادا للسفر • وعندما أزف وقت الرحيـــل استدعى يوسف ، وفوض اليه أمر المغرب ، وأوصاه بما كان يراه • ويقول ابن أبى زرع أنه أمره بالرجوع الى المغرب لمواصلة قتال خصـــوم المرابطين هناك ، من : مغراوة وبنى يفرن ، وغيرهم من قبـائل البربر المختلفة ومن زناتة(١٢) •

فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب :

التمهيد للأعمال العسكرية :

باستقلال يوسف بن تاشفين تبدأ مرحلة جديدة من فتوح المرابطين فى المغرب ، تتميز بأنها تمت بتخطيط أكثر دقة ، وبامكانات أكبر من تلك التى تمت من قبل ، حيث أصبح ليوسف الكلمة الأخيرة فى شـــئون الحرب والسلام • وهكذا استأنفت قواته التى كانت تحارب فى سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م بنى يفرن فى قلعة مهدى على الطريق الى مكناســـة ، نشاطها فى تلك الجهات ولم يستطع معنصر صاحب فاس الذى حاول الدفاع عن القلعة الصـــمود أمام قوات ، يوسف ، فانسحب الى بلده فاس حيث انتقم ممن

---

(١١) نفس المرجع السابق والصفحة •

(١٢) القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على انه اقام بسلجماسة اياما حتى اصلح احوالها • أما عن رحيل ابى بكر من سجلماسة الى الصحراء فيحدد له شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٠٦١ م ،وهو التاريخ المتقدم عن الوعد الصحيح الذى أخذنا به ، بعشر سنوات (ما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٣٧) •

اتهموا بالتعاون مع اللمتونيين فقتلهم ، الأمر الذى أدى وقتئذ الى قيام يوسف بعمل انتقامى من زناتية سدراته ، الذين اتهموا بممالأة معنصر[١٣] ٠

وبطبيعة الحال لم تسمح الظروف الطارئة هذه ليوسف بالاندفاع نحو الغزو والفتح ، فضلا عما عرف به الرجل من التدين والورع بمعنى الاتزان والتروى فى اتخاذ القرار ، بل وبما عرف عنه من السياسة والدهاء ، مما وصف به أحيانا من اللؤم أو الخبث (ما سبق ، ص ٢٤٨ وهـ ٦) ٠

مراكش :

هكذا كانت أمام يوسف مهام أخرى غير حرب المغرب ، ان لم تشغله عن تلك الحرب فقد تطلبت منه بعض الجهد والوقت ، مثل : استكمال بناء العاصمة الجديدة مراكش ، من : التحصينات والسور وأبواب قصر الحجر ٠ وهى الأعمال التى ساهم فيها بنفسه (ما سبق ، ص ٢٤٣) ، والتى شارك فيها معه رجاله المجاهدون ، من غير شك ، كما قدمت له قبائل المنطقة من المصامدة ، المعونات اللازمة ، الأمر الذى كان يوثق الصلة بينه وبينهم ويحبب الناس فيه[١٤] ٠ والحقية أن اكتمال بناء مراكش يعتبر من الأعمال المدنية ذات القيمة الاستراتيجية (العسكرية البعيدة المدى) ، وهذا ما عرفه قدامى الكتاب لمراكش ـ بشكل مباشر (ما سبق ، ص ٢٤٢ والهوامش) ٠

زينب النفزاوية :

ومثل هذا يقال عن تمام زواج يوسف بزينب النفزاوية ، الذى تم بعد ٣ (ثلاثة) أشهر من رحيل الأمير أبى بكر ، أى بعد أن استكملت زينب عدتها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ/مايه ١٠٧١ م ٠ وهنا تقول رواية ابن عذارى ان كلا من يوسف وزينب « سر بالآخر » وأن السيدة البعيدة النظر « أخبرته أنه يملك المغرب كله » ، فكانت صاحبة الفضل ، ليس فى بسط آماله فقط ، بل وفى امداده بالأموال التى مكنته من أن يجلب الخيل الكثيرة حتى صار رجاله فرسانا ، وأن يجمع الجيوش من البربر والحشود من سائر الناس ٠ وهكذا كان لزوجة يوسف الذائعة

---

(١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٩ ٠

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ ٠

الصيت دور عظيم فى تقرير مصيره ، وبالتالى مصـــير الدولة المرابطية ٠ وبذلك يصبح المثل الذى يقول « وراء كل رجل عظيم امرأة » حقـا ، وان اضافت الرواية امرأة أخرى ، وهى أم يوسف - التى لا نعرف عنها شيئا ، كما لا يرد فى غير هذا المكان لها ذكر(١٥) ٠

اعمال يوسف بن تاشفين فى عهد النيابة :

لم تطل نيابة يوسف بن تاشـــفين للمغرب الا حـــوالى فترة سنتين تستغرقان سنة ٤٦٤ هـ/١ - ١٠٧٠ م السابقة ، ثم بعض سنة ٤٦٥ هـ/ ٣ - ١٠٧٢ م التى يعود فيهـــا أبو بكر مدفوعا بالحنين الى بلاد المغرب ، والرغبة فى شىء من الطبيعة المعتدلة والحياة الناعمة ٠ وخـلال تلك الفترة كان يوسف بن تاشفين يعمـــل على توطيد أركان دولتـه ، ان بالحرب أو بالسياسة ، حسبما قضت الظروف ٠

وأول ما يلفت النظر هو أن يوسف بن تاشفين نجح وهو القائد المحنك فى اعداد جيش قوى ، يعتمد على سلاح الفرسان من لمتونة كقوة ضاربة ، وعلى أصناف المقاتلين من مختلف القبائل الحليفـة ، من : مدافعين بالحراب الطوال ، ومهاجمين بالنشاب والمزاريق ، أو راشقين بأنواع السهام والنبال ، مما يأتى ذكره ٠ هذا ، ولا بأس من الاشارة الى رواية ابن أبى زرع التى نجعلها فى سنة ٤٦٤ هـ/٢ - ١٠٧١ م ، التى تقول بشكل عام عن يوسف انه « جند الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد »(١٦) ٠

والأهم من ذلك نجاح يوسف فى تدبير ما يلزم لكل ذلك من الأموال - مع الاستعانة بمشورة زينب ، زوجته وخير مستشاريه ، التى ظهرت حسبما تقضى سلامة الحس فى دولته ، واشتهرت بشهرته وتعاظم سلطانه وبالتالى كثرة أمواله ٠ وهنا ، اذا كانت بعض النصوص تشير الى اخلاص يوسف خلال فترة النيابة هذه للأمير أبى بكر ، ابن عمه الأكبر ، فكان يكاتبه بعيدا

---

(١٥) البيـان ، ج ٤ ص ٢٢ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث النص على زواج يوسف « بزينب المذكورة » فكانت القائمة بملكه والمدبرة لأمره والفاتحة بسياستها أكثر بلاد المغرب الى أن توفيت ٤٧٤ هـ / ٢ - ١٠٨١ م (فى الأصل : ٤٦٤ هـ / ٢ - ١٠٧١ م التى صححت الى ٤٧٤ هـ) ٠

(١٦) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث وضع تلك الأحداث فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التى نرى انها متأخرة ١٠ (عشر) سنوات عن موضعها الصحيح ، كما سبقت الاشارة (ص ٢٥٣ هـ ١٢) ٠

في جنوبي الصحراء ، ويطلعه أولا بأول على مجريات الأمور ، ويتلقى منه الأوامر(١٧) • فهناك روايات أخرى تشـــير الى أنه (يوسف) كان يكاتب بعض اخوانه في السر من أبي بكر وأن جماعة منهم كانت تصل اليه(١٨) ، وهو الأمر الذي لا تمنع منه أصول السياسة •

الحرب في المغرب : تهدين القبائل :

وهكذا كان ابن تاشفين يستطيع ، وهـــو بعـد في سنة ٤٦٤ هـ/ ٢ - ١٠٧١ م ، التالية لنيـــابته أن يتحرك بجيش جرار عبر بلاد المغرب (الأقصى) الى بلاد وطاط وملوية ، من المغرب الأوسط الى جراوة - حيث دوخ القبائل التي دانت جميعا له بالطاعة(١٨ م) •

ولا بأس أن يكون هذا الجيش الذي بلغ أكثر من ١٠٠ (مائة) ألف فارس من : صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة (والأغزاز والرماة) حسب رواية ابن أبي زرع ، هو الذي قصد به يوسف اقليم فاس في تلك السنة (٤٦٤ هـ/١٠٧١ م) وانه واجـــه هناك قبـائل : زواغه ولمـايه ولواته وصدينه وسدراته ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرها • ودارت حرب عظيمة انتهت بانتصار قوات يوسف بن تاشفين النظامية على القوات القبلية غـير المنظمة • وكانت أكبر خسائر الزناتية تلك التي وقعت في بعض ضواحي فاس الشمالية ، وحيث انحصر رجال قبيلة صدينه في مدينتهم ، واقتحمت عليهم القوات المرابطية الموقع الحصين ، وقتلوا فيه ما يزيد على ٤ (أربعة) آلاف رجل(١٩) •

هذا ، كما كان يوسف يستطيع في الشهر الرابع (ربيع الثاني) من تلك السنة (٤٦٤ هـ/ديسمبر ١٠٧١ - يناير ١٠٧٢ م) أن يقضي عـــلى

---

(١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث النص على انه كان يكاتب الأمير ابا بـكر بكل ما يصنع •

(١٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ •

(١٨ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ - حيث نقـل الروايـة اصـلا من نظـم الجمـال لابن القطان •

(١٩) القرطاس ، ص ١٣٩ - حيث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، التي عدلناها الى ٤٦٤هـ/ ١٠٧١ م كما سبق ، ص ٢٥٥ وهـ١٦ ، وأنظر الهامش حيث احتمال أن يكون موضع صدينة في شمال فاس حيث قبيلة شراكة الحالية ، كما يجوز أن يكون موضع تطوان ، حيث قرية صـــدينة •

ثورة قامت في جنوب (قبلة) سجلماسة بمعرفة جماعات من الزناتية وغيرهم . وكان ذلك على أيدى بعض كتائبه اللمتونية بقيادة محمد بن ابراهيم اللمتوني الذى قتل الثوار دون رعاية ، وعاد بالكثير من مغانمهم(٢٠) .

فتح فاس :

ومن صدينة ، التى استكمل بن تاشفين بفتحها السيطرة على أحواز فاس اتجه نحو المدينة نفسها ، حيث ضرب عليها الحصار في آخر سنة ٤٦٤ هـ/أغسطس ١٠٧٢ م ، لمدة ١٠ (عشرة) أيام ، اكتفى في نهايتها — على ما نظن — بشراء المدافعين عن فاس رحيله في مقابل تسليم حاكمهم : بكار بن ابراهيم الذى قتله يوسف(٢١) .

ومن الواضح أن رحيل يوسف بن تاشفين كان مجرد خدعة حربية — لم يتورع عن استخدامها في سبيل تحقيق مآربه ، اذ انه بعد أن سار الى مدينة صفرو القريبة ، ودخلها عنوة ، وتخلص من أمرائها أولاد مسعود المغراوى ، رجع الى فاس ليضرب عليها الحصار .

وتمكن يوسف من فتح فاس في مطلع سنة ٤٦٥ هـ/نوفمبر ١٠٧٢ م، ولم يقم بها الا أياما قليلة اطمأن خلالها على سير الأمور ، وعهد بالحكم فيها الى بعض الولاة من لمتونة(٢٢) .

ما بين فتح غمارة ، وردة فاس ، وطاعة مكناسة :

وسار يوسف بن تاشفين في مطلع سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٢ م من فاس بعد فتحها نحو الشمال لغزو بلاد غمارة ، ولكنه ما أن توغل فيها حتى عاد تميم بن معنصر (بن حمامة) الى فاس ، ونجح في دخولها من جديد ، بل وقتل عامل يوسف الذى كان بها . وبسبب ما كان من التنافس بين كل من أمراء فاس ومكناسة ، على ما يظن ، رأى صاحب مكناسة وهو المهدى بن

---

(٢٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٢ — حيث وصف ثوار الزناتية هؤلاء بالمرتدين — تبريرا لتلك المعاملة الفظة — على ما نظن .

(٢١) القرطاس ، ص ١٣٩ — أحداث سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م التى عدلناها الى ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢ م .

(٢٢) القرطاس ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .

يوسف الجزنائى أن من حسن السياسة أن يقف الى جانب أمير المرابطين القوى ، فاعلن الطاعة ليوسف بن تاشفين • وهنا ثبت ابن تاشفين المهدى ابن يوسف فى ولايته ، وبصفته تابعا له ، واختبارا لصدقه وحسن نواياه ، أمره بالخروج فى نفس السنة (٤٦٥ هـ/١٠٧٢ م) معه لاستكمال العمل فى تهدين المغرب • ولكنه ما أن خرج المهدى فى جيشه من مدينة عوسجة لينضم الى القوات المرابطية ، حتى سارع تميم بن معنصر بالخروج اليه من فاس فى عساكر زناتة « وأنجاد مغراوة » ، ليقطع عليه الطريق ، « ويفرق جمعه » ، بل وليقتله ويبعث برأسه الى لكوت البرغواطى ، صاحب سبتة(٢٣) •

وترتب على مقتل المهدى صاحب مكناسة ان كاتب أهل المدينة يوسف بن تاشفين يعرضون عليه تسليم بلادهم ، وبذلك تكون دويلة مكناسة الزناتية قد انضمت الى بلاده بشكل نهائى(٢٤) •

وتوالت غارات المرابطين على فاس ، الأمر الذى كان يثير غضب أهل المدينة على تميم بن معنصر بسبب انقطاع الموارد وقلة الأقوات • وهنا قرر تميم مواجهة الخطر مهما كانت النتائج ، فخرج الى المرابطين بمن استطاع جمعه من مغراوة ، وبنى يفرن ، وكان لقاء غير متكافىء ، اذ قتل تميم بن معنصر وكثير من رجاله • ولكن فاس لم تسقط اذ تقدم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ، سليل موسى بن أبى العافية ، الذى نجح فى الثأر من المرابطين فهزمهم فى وادى صيفير(٢٥) •

وهكذا تطلب الأمر بذل المزيد من الجهد فى تهدين المناطق المجاورة واخضاع قبائلها الثائرة قبل ضمان الفتح النهائى لفاس ، وضمها بشكل أكيد الى الدولة المرابطية • فعندما وصل نبأ هزيمة صيفير الى يوسف بن تاشفين ، ترك حصار قلعة مهدى ببلاد فازاز لبعض قواده(٢٦) ، ورأى البدء باخضاع القبائل وتهدين البلاد تمهيدا لأخذ فاس وعندئذ فتح بلاد

---

(٢٣) القرطاس ، ص ١٤٠ ـ حيث سكوت بدلا من لقوط •

(٢٤) القرطاس ، ص ١٤٠ •

(٢٥) القرطاس ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ •

(٢٦) القرطاس ، ص ١٤١ ـ حيث النص على ان قلعة مهدى ظلت تقاوم الحصار طوال ٩ (تسع) سنوات طوال ، فلم يدخلها المرابطون الا فى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م

بنى مراسن ، وأميرهم يحى بن يوسف . واتبع ذلك بغزو بلاد فندلاوة ، الأمر الذى استغرق زهاء سنتين (٤٦٦ - ٤٦٨ هـ/١٠٧٣ - ١٠٧٥ م)(٢٧).

وعلى نفس الوتيرة استمر يوسف بن تشفين فى تمهيد بلاد غمارة وجبالها ، من : الريف الى طنجة ، تمهيدا لفتح فاس للمرة الثانية سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، وهو التوقيت الذى يقترب من توقيت ابن عذارى(٢٨) .

اقامة نظم الدولة وتراتيبها :

الدواوين :

والظاهر ان يوسف بن تاشفين كان فى عجلة من أمره فى فترة نيابته تلك - اذ بدأ يقيم تراتيب الدولة ونظمها . فلقد بدأ بانشاء « الدواوين » أى ديوان الرسائل أو ديوان الانشاء ، وثنى بديوان الجند ، بمعنى تحويل العساكر المتطوعة الى جند نظامى ، تسجل أسماؤهم فى قوائم اصحاب الرواتب الشهرية المنتظمة(٢٩) .

واذا لم يكن فى نص ابن عذارى السابق اشارة الى بعض دواوين المال والخراج فان النص على طاعة البلاد له تعنى الخضوع للنظام الضرائبى الذى هو من أعمال السيادة بالنسبة للدولة ، والذى يميز عادة دولة أهل الحضر المستقرين عن دولة أهل البادية من الرعاة الرحل .

ديوان المال والخراج :

وهنا نجد بين أحداث سنة ٤٦٤هـ/٢ - ١٠٧١م - الخطيرة فى تاريخ الدولة المرابطية - ما فرضه يوسف بن تاشفين من ضريبة ثقيلة على اليهود فى كل بلاد المغرب الخاضعة لسلطانه ، والتى وصلت جبايتها مبلغا عظيما مقداره ١١٣ (مائة وثلاثة عشر) ألف دينار(٣٠) . وهو المبلغ الذى لا يبرره

---

(٢٧) القرطاس ، ص ١٤١ - والتاريخ المسجل هو ٤٥٦ - ٤٥٨ .

(٢٨) أنظر القرطاس ، ص ١٤١ - حيث التوقيت المدون هو ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م الذى دجعله ٤٧٠ هـ ، وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٨ - ١٩ - حيث فرار معنصر الى فاس سنة ٤٦١ هـ / ٩ - ١٠٦٨ م .

(٢٩) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٣ .

(٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ .

الا الأعمال الضخمة القائمة وقتئذ ، من : انشاءات حضارية وأعمال حربية . ومثل هذا المبلغ الكبير مما كان يجبي في السابق قبل انشاء الدواوين المختصة بالجباية ، هو الذى يفسر قصة كنوز الذهب والفضة والجواهر التي اكتشفتها زينب النفزاوية في سراديب دار الأمير أبي بكر ، حسبما نرى (ما سبق ، ص ٢٥٤) .

الحرس الأميرى من العبيد السود والصقالبة البيض :

والأهم من كل هذا وذاك ما أخذ به يوسف بن تاشفين فى مجال الجيش المرابطى ، من حيث دخول العبيد السود في الخدمة العسكرية بصفتهم حرسا خاصا للأمير ، وكذلك الأمر بالنسبة للعبيد من النصارى الذين اشتراهم من الأندلس ، أو الذين ألحقهم بالحرس الأميرى من أهل البلاد . واذا كان استخدام «أعلاج» النصارى هؤلاء كان محمودا بحيث لم يزد عددهم فى أول الأمر عن ٢٤٠ (مائتين وأربعين) علجا ، حسب رواية ابن عذارى ، فان عدد العبيد من رجال الحرس السودانى بلغ بسرعة ٢٠٠٠ (ألفى) رجل . والمهم أنه زود الجميع من بيض نصارى أو سود مسلمين على ما نظن ، بالخيل فأصبحوا فرسان أشداء يثيرون الرهبة فى قلوب الناس ، وهم يحفون به فى القصر ، ويحيطون به فى موكبه وهم يرفعون البنود ويضربون بالطبول . وبذلك غلظ حجابه وعظم ملكه[31] .

دار السكة :

ومن أهم الدواوين السيادية ، كما يقال الآن ، دار ضرب النقود ، المعروفة بالسكة التى أقيمت فى نفس سنة ٤٦٤هـ/٢ ـ ١٠٧١م . ولما كانت دار السكة هذه قد أقيمت فى مراكش ، فإن هذا يعني تحول المدينة الجديدة بصفة رسمية الى عاصمة للدولة المرابطية في تلك السنة ، بمعنى اكتمال مبانيها الحكومية ومرافقها العامة ـ وخاصة آبار الماء وصهاريجه . وهنا تنص رواية ابن عذارى على أن تلك النقود التي ضربت فى مراكش

---

(٣١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٣ ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٩ (أحداث سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م التى جعلناها سنة ٤٦٤هـ/٢ ـ ١٠٧٢م كما سبق ، ص ١٦٨ ، ٢٥٦) ـ حيث النص على أن يوسف بن تاشفين جعل فى جبشه الأغزاز (وهم الترك بدلا من المماليك الصقالبة من نصارى الأندلس) ، والبنود ، حيث الاشارة أيضا الي ان يوسف بن تاشفين اتخذ فى نفس السنة كثيرا من الطبول والبنود .

لأول مرة ، كانت دراهم فضة مدورة ، فكأن ابن عذارى(٣٢) ، المراكشى ، يخشى أن يظن أن الدرهم المرابطى مربع مثـل الدرهم الموحدى الذى ابتكره محمد بن تومرت فقيه الموحدين ، الذى اشتهر بأنه صاحب الدرهم المربع الذى ميز النقود المراكشية عن بقية النقود الاسـلامية فى تلك الفترة التي تعتبر العصر الذهبى من تاريخ المغرب العربى وحضارته ٠

والمهـم هنـا أن نقود مراكش الأولى ، هذه كانت مدورة ، وزنة الدرهم منها ١¼ (درهم وربع) درهم ، على أساس وزن الـ ٢٠ (عشرين) درهما أوقية واحدة ، فكأن صـنجة الأوقية تعادل ٢٥ (خمسة وعشرين) درهما حسب رواية ابن عذارى ٠ هذا ، كما ضرب الدينار الذهبى (المرابطى) فى نفس هذا العـام ٤٦٤هـ/٢ ـ ١٠٧٢م ، ولكن باسـم الأمير الشرعى : أبى بـكر بن عمر ـ الأمر الذى يجعل عام ٤٦٤هـ/٢ ـ ١٠٧١م وكأنه العام التأسيسى للدولة المرابطية فى شكلها المدنى أى الحضرى ، للتفرقة بينها وبين دولة عبد الله بن ياسين وخلفائه السابقين ، دولة الفقيه البدوية ، وان كانت دولة « الرباط »، قرين المسجد المدنى أصلا(٣٣) ٠

وفيما يتعلق بالدينـار الذهبى المرابطى ، توجـد رواية لابن عذارى تنص على ضربه فى الأندلس بعد انتصار الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) مع الربط بين ذلك وبين حمل يوسف بن تاشفين للقب أمير المسلمين الذى سلم به عليه أمراء الأندلس ، فكان أول من تسمى بهذا اللقب بالمغرب ٠ فالى جانب ذلك تقول الرواية انه (يوسف) ضرب السـكة ، بمعنى النقود الذهبية من يومئذ ، وجددها أى طورها وحسنها ، مع بيان أن دينـار يوسف بن تاشفين هذا ، كان يحمل النقش التالى : على الوجه الوسط :

ـ سطر ١ = لا اله الا الله ٠

---

(٣٢) البيـان ، ج ٤ ص ٢٢ ٠

(٣٣) أنظر البيـان المغرب ، ج ٤ ص ٢٢ ـ حيث النص على أن هـذا الدرهم كان موجودا على أيام ابن عذارى ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى / ١٤ م ، وأنه كان معروفا بالدرهم الجوهرى ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٧ ـ حيث تأتى قصة النقود المرابطية عرضا بمناسبة وفاة يوسف بن تاشفين ، وما كان يحويه بت المـال حينئذ من النقود ، وفيها : « ربع الورق » أى ربع الدرهم الفضى ، و« ربع الذهب » أى ربع الدينار الذهبى ٠ واذا لم يكن هناك نص على نصف الدينار الذهبى ، فان ذلك يعنى ان ربعين ذهبيين كانا يغنيان عن النصف الذهبى ٠

- سطر ٢ = محمد رسول الله ٠
- سطر ٣ = أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ٠

وفى الدائرة حولها : ومن يبتـغ غير الاسـلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ٠

ويحمل على الظهر ، فى الوسط :

- الأمير عبد الله العباسى ٠

وفى الدائرة حولها : تاريـخ الضرب (كتـابة) ومـكان الضرب (المدينة)(٣٤) ٠

دولة ابن تاشفين فى مهب الريح :

عودة أبى بـكر بن عمر من الصحراء : ٤٦٥هـ/١٠٧٢م :

بينما كان يوسف بن تاشفين منهمكا فى توطيد دعائم الدولة المرابطية بالمغرب ، عن طريق احياء الدواوين التى كانت فى بلاد المغرب من قبـل - بطبيعة الحال - فكأنه كان يحيى تراث النظام المدنى السابق ، المبنى على نظام الحـكم الوراثى ، وخاصة بعد أن تحقق مثـل هذا الحلم ليوسف ، بميلاد أول ولد له من زينب النفزاوية ، فى نفس سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م ، وهو الابن الذى لا يعرف الا بلقبه الملكى « المعز بالله »(٣٥) ، دون المدنى ٠ وفى غمرة هذا الفرح العائلى اذا بيوسف يفاجأ فى أواخر نفس السنة العتيدة) ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م) بتأهب أبى بكر بن عمر للعودة ، الأمر الذى كان مجرد تفكير فيه يقضى مضجعه من غير شك ٠ ولم تطل حيرة يوسف كثيرا ، فلم تدخل سـنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م التالية ، الا وكان الهاجس حقيقة واقعة ،اذ أتت الأنباء تترى بنزول الأمير السابق - ولى الأمر الشرعى - مدينة سجلماسة ، فى طريقه الى أغمات ومراكش(٣٦) ، بعد حين ٠ وكان وصول أبى بكر الى أغمات

---

(٣٤) أنظر فيما بعد ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ والهوامش ، شكل رقم ١٦ ص ٣٧٣ ، وانظر حسن محمود ، المرابطون هـ ١ ص ٢٨٨ - حيث الاشارة الى لافوا (Lavoix) .

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٣ ٠

(٣٦) أنظر النويرى أبو ضيف ، ص ٣٨٢ ، نصـار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ - حيث النص على أنه أقام فى سجلماسة التى يمكن أن تكون السـوس فى حقيقة الأمر - كما سبق ، ص ٢٠٦ - ولكنها مقبولة هنـا على أساس أنها أهم محطة على طريق الصحراء المؤدى الى السودان ، مدة سنة كاملة ، والخطبة له وبيده الأمر ٠

فى ٥ ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ/٢٠ نوفمبر ١٠٧٢م ، حيث نزل فى خارجها ، ومن هناك اندفع كبار رجاله نحو مراكش ، للسلام على يوسف بن تاشفين ، والحصول على صلاته(٣٧) ٠

واســتقبل يوسف النبأ بما يناسبه من الغم ، وكان على أم «المعز بالله» السيدة زينب التى لم يغب عن وعيها وفراستها ما كان يعانيه يوسف من الهم ، أن تعمل بسرعة على تهدئة روعه وتخفيف حزنه ٠ ولم يصعب على المراة الخبيرة بأحوال الرجال وخاصة عندما يتعلق الامر بمن عجمت عوده منهم ٠ وهــكذا ، رأت أن تستغل ما تعر فه فى أبى بكر من الضعف ٠ فعندما كلمها يوسف فى مغبة ما قد يقع بينه وبين ابن عمه من الحرب ، طمأنته بأن أبا بــكر رجل خير لا يحب سفك الدماء ، الأمر الذى بنت عليه خطة التعامل مع تلــك الأزمــة ، والتى تنبنى أســاسا على ســياسة الترهيب والترغيب بدرجاتها المختلفة ، وذلك فى ثلاث خطوات يقوم بها يوسف ٠ أولها الا يشغل باله بوصول أبى بكر ، فيبقى هو فى قصره بمراكش محاطا بحرسه المخلص من العبيد السود والبيض ، ويكون الخطاب مع أبى بكر عن طريق الرسل ، فكأنه خطاب رسمى بين ندين مساويين(٣٨) ٠ وهو ما فسره أبو بكر بن عمر بأنه استبداد بالملكة ، حسب تعبير البيان المغرب ، الأمر الذى جعله يميل الى تسليم الأمر ليوسف(٣٩) ٠

وهنــا عرض يوسف هديته الجليلة (أعلاه ، هـ ٣٨) المكونة من مما يحبه أهل الصــحراء ، من الذهب ، والخلــع ، والأفراس ، والسيوف المحــلاة ،

---

(٣٧) البيــان المغرب ، ج ٤ ص ٢٤ ٠

(٣٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٤ ـ حيث تاخذ الرواية شكل قصص « الأيام » أو المذكرات الشخصية اذ اغتم يوسف غما شديدا بعد أن ذاق حلاوة الملك ، وان زوجته زينب النفزاوية عندما رات ذلك قالت له : والله لا ذاق أبو أبــكر طعمها أبدا ٠٠٠ وانه عندما قال لها لو كان غير ابن عمى لتتلته ، قالت : اذا قدم فلا تخرج اليه ، ولكن بادره بهدية جليلة فلا يقاتلك ، فان الرجل خير ٠ وقارن ، القرطاس ، ص ١٣٥ ـ حيث النص على أن أبا بــكر عندما عرف تغلب يوسف على المغرب أقبل اليه من الصحراء ، ليعزله ويولى غيره ٠ وان الفضــل يرجع الى زينب زوجــة يوسف ، بتعريف هــذا الأخير أن ابن عمــه أبا بــكر ورع ولا يحب سفك الدماء ، وتوصيه بالتقصير فى اظهار الأدب له ، بل واظهار الغلظة حتى كأنه (يوسف) مســاو له ، مع ملاطفته بالهدايا والخلع ، حيث كل شيء من بلاده مستطرف من أهل الصحراء ٠

(٣٩) البيــان ، ج ٤ ص ٢٤ ٠

والجوارى ، والخدم ، والدقيق ، والشعير ، والبقر ، والغنم ، الى جانب العطور الثمينة من المسك والعود والعنبر(٤٠) ، الأمر الذى فهم أبو بكر مغزاه ، وهو طلب الرجوع الى الصحراء بأسلوب مهذب – فكانت الخطوة الثانية ·

اما الثالثة والحاسمة ، فتمثلت فى خروج يوسف بن تاشفين من مراكش نحو أغمات لاستقبال ابن عمه الأمير « المخلوع » ، وهو فى جنده وعبيده · فعندما تم اللقاء فى منتصف الطريق بين المدينتين هال أبو بكر أن يلقاه ابن عمه الأصغر وتابعه راكبا دون رعاية ، الأمر الذى قضى على ما كان يجول من الأمل فى خاطره ، من وجوب الاحترام لزعامته القبليه ان لم يكن لامارته الشرعية · وفى هذا المكان الذى عرف من ذلك الحين باسم « فحص البرنس » نسبة الى البرنس الذى بسط على الأرض ليقعد عليه الرجلان ، ليتناجيا حول مشكلة ثنائية الحكم أو وحدته الرئاسية ، أتى الحل من قبل رجل الصحراء التقى الدين : أبى بكر ، وكان قد اقتنع بأن خصمه يوسف المتمرس بالحرب والخبرة فى الادارة ميال الى التمسك بالملك فأعرب عن رغبته فى العودة من حيث أتى الى الصحراء ، لمعاونة اخوانه هناك ، وأنه يعهد اليه مرة ثانية بولاية المغرب(٤١) ·

ومع شكر أبى بكر ليوسف على الهدية ، وعده يوسف بأن يكون دائما مأمورا تحت طاعته ، وطاعة شياخ لمتونة ، فان الأمر تطلب هذه المرة تنازلا نهائيا عن حكم المغرب ، من قبل أبى أبكر · وهكذا ، وفى حضرة المشايخ

---

(٤٠) أنظر ، البيان المغرب ، ج ٤ ص ٢٦ – حيث النص على ٢٥ ألف دينار من الذهب ، ٧٠ فرسا منها ٢٥ بفاخر الجهازات ، ٧٠ سيفا محلاة ، ٢٠٠ من الأشابر (المهامز – عن الحلل) المذهبة ، ١٥٠ من البغال ، والكثير من الأمتعة والكسى الفاخرة ، ٢٠ جارية أبكارا وجملة من الخدم ، ٢٠٠ من البقر ، ٥٠٠ من الغنم ، ١٠٠٠ ربع من الدقيق (الدرمق) ، ١٢٫٠٠٠ خبزة ، ٧٠٠ مل من الشعير ،، ووزن صالح من العود والعنبر والمسك ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٦ – ويلاحظ فيه ان الهدية بسيطة تتفق مع المطالب الضرورية لأهل الصحراء حتى تنسجم مع مقولة أن القصد منها هو الافصاح السافر لأبى بكر عن طلب عودته الى الصحراء · فالهدية تحتوى على ألف بعير قدمها يوسف لابن عمه أبى بكر وهو يقول : أيها الأمير جئتك بكل ما معى من مال وثياب وشىء من الأدام والطعام لتستعين به على الصحراء · فعرف حاله ، وعلم انه لا يتخلى عن الأمر ·

(٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٥ · وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ – حيث النص على أنهما عندما التقيا سلم (يوسف) عليه (أبى بكر) وهو راكب سلاما مختصرا · وان أبا بكر عندما سأله : ماذا يصنع بهذه الجيوش الكثيرة كلها ، رد عليه قائلا : أستعين بهم على المخالفين ، الأمر الذى أثار الريبة من سلامة جوابه ·

اللمتونيين الذين يعترف لمجتمعهم بالسلطة العليا فى المغرب المرابطى ، أعلن أبو بكر بن عمر اعتزاله النهائى للامارة لصالح نائبه ، وابن عمه ، يوسف ابن تشفاين ، وذلك بشهادة الشهود العدول(٤٢) · وتختتم قصة الاعتزال هذه ـ عند ابن أبى زرع ـ بتوصية أبى بكر لابن عمه الذى استقل بالمملكة المغربية ، وهو الأمر المقبول · وتعبر وصية الأمير الذى عرف بالخير والورع عن أن مسئونية الحكم المعنوية تقع فى النهاية على عاتقه (أبى بكر) نفسه ـ من حيث هو ولى الأمر شرعا ، وهو لذلك يطلب من يوسف حسن رعاية المسلمين (رعاياه) ليخليه ويخلى نفسه أيضا ، من مسئولية عذاب النـار (يوم الحساب) ، مع الدعاء له بالصلاح والتوفيق وعمل الخير(٤٣) ·

ما بين الجهاد جنوب الصحراء والمطالبة بمملكة المغرب :

وبعد وصـية الوداع ، انصرف أبو بكر نحو الصحراء فى رحلة ذات هدف مزدوج ، شقه الأول هو التوفيق بين الاخوة الملثمين ، وخاصة من لمتونة وجدالة ، مادة الاسلام بالصحراء ، والشق الثانى الذى لا يتحقق الا بالأول ، هو : غزو بلاد السودان التى لم تكن قد دخلت فى الاسلام بعد ، ونشر الاسلام الأصولى الصحيح عند من حرفوه منهم ·

والذى يلفت النظر أن معلوماتنا عن رحلة أبى بكر بن عمر ـ ذهابا وعودة ـ وعن عمله الجهادى فى السودان الغربى ليست أكثر من نتف عارضة أو شظايا متناثرة لرواية مبتسرة أصـلا ، الأمر الذى يجعل محاولة اعادة عناصرها فى بنـاء منتظم من الصعوبة بمكان · فاذا كانت رحلة الذهاب الى أغمـات قد تمت عن طريق سـجلماسة ، عقدة مواصلات الطريق الدولى الى أودغست ، فأغلب الظن أن أبا بـكر مر بسجلماسة أيضا وهو فى طريق العودة ، بل ولا بأس أن تكون الرواية التى تنص على بقائه فى سجلماسة لمدة عام وهو يصلح من أحوال المدينة وأحوازها ، حيث كان الأمر والنهى له ،

---

(٤٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ص ٢٥ ـ حيث النص أخيرا على كون « هذا التدبير برأى زينب النفزاوية وزوجه » ، وقارن القرطاس ، ص ١٣٥ ـ حيث اقبال أبى بـكر لعزل يوسف الذى شاور زوجته (زينب) ·

(٤٣) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ ـ حيث نص الوصية : « يا يوسف ولـيتك هذا الأمر ، وانى مسـئول عنه فاتق الله فى المسلمين ، واعتقنى واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا ، فانك مسئول عنهم ، والله تعالى يصلحك ، ويمدك ويوفقك للعمل الصالح ·· وهو خليفتى عليك وعليهم ·

خاصة برحلة العودة أيضا (ما سبق ، هـ ٣٦ ص ٢٦٢) ٠ هذا ، ويمكن أن يكون هذا الخبر متعلقا بابنه ابراهيم (بن أبى بكر بن عمر) ، حيث يكون قد ولاه سجلماسة ، فى محاولة اخيرة للتشبث ببعض أهداب المملكة المغربية ٠ ويؤيد ذلك تلك الدنانير التى حملت اسمه (ابراهيم) ، مع سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م(٤٤) ٠

وهنا لا بأس من الاشارة الى محاولة ابراهيم بن أبى بكر هذا ، المطالبة بملك أبيه بعد ذلك بحوالى ٥ (خمس) سنوات (سنة ٤٦٩هـ/١٠٦٧م) ٠ فلقد كانت مفاجأ ليوسف من غير شك وصول ابراهيم الى البلاد ، ونزوله خارج أغمات ، غير بعيد من مراكش ، يحيط به حشد مختلط من اللمتونيين ٠ واكتفى يوسف بالسماع عن أخبار ابراهيم ومطالبه عن بعد ، دون لقاء ، فأرسل اليه القائد مزد لى (ابن بانلوكا) ، ليعرف منه سبب قدومه ، فأخبره ابراهيم بسذاجة لا ينبغى أن تكون فى أبناء الأمراء والحكام ، حيث قال انه جاء بطلب « ملك أبيه الذى غصبه عمه » (يوسف) ٠

ونجح القائد المحنك فى سفارته الحرجة ، اذ اقتنع ابراهيم بعبثية

---

(٤٤) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٢ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦١ ـ حيث النص على استخلاف أبى بكر فى رحلة الذهاب لابن أخيه : أبو بكر بن ابراهيم بن عمر ، وأنظر هـ ٥ ـ حيث نص المحقق ـ نقلا عن حسن محمود ـ على انه « لعل المقصود ابنه ابراهيم بن أبى بكر بن عمر ، الذى ولى سجلماسة ، وسك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وعام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م ٠ وأنظر حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢٥ ـ حيث الأخذ بالفكرة الروحية المثالية التى ترفع كلا من يوسف وأبى بكر ـ فى استطرادات لغوية مطولة ـ من مستوى دنيا التفكير فى الأمور الدنيوية ، كالحكم والرياسة « فلم يكن يوسف يفكر فى اغتصاب السلطة ٠٠٠ » ٠ وفى المقابل « أكد أبو بكر تولية يوسف على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلائه ، وسعه ملكه ، وحب الناس اياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسميا ، وينصرف هو الى الصحراء ، لأنه كان رجلا زاهدا فى الدنيا عزوفا عن السلطان ٠٠ » ٠ (والهوامش للحلل الموشية) ـ أما عن الاستناد الى قول البكرى أن أبا بكر كان أمير المرابطين فى سنة ٤٦٠ هـ / ٨ ـ ١٠٦٧ م فهذا صحيح فعلا وليس اسما فقط ٠ واما قول لافوا (Lavoix) فى قوائم النقود الاسلامية فى المكتبة الوطنية فى باريس بأن أبا بكر كان حتى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م أمير الدولة وحاكمها الأوحد « استنادا الى العثور على نقود باسمه تحمل هذا الاسم ـ فهو استدلال لا يدل على واقع الحال » ٠ فهناك اشارات تالية (ص ٢٢٦ وهـ ١) الى سك يوسف للنقود باسمه (بل وبلقب أمير المسلمين) الى جانب اعتباره المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين ٠ وعن نقود المرابطين ، أنظر فيما بعد ، ص ٢٩٨ وشكل رقم ١٦ ٠

عمله ، وعدم جدوى مطـالبه ، حيث أن الأمير يوسف هو الرجـل المؤهل بصـفاته وسـجاياه للملك ـ دونهم • وانه يمـكنه أن يطلب هـدية من خيل وازد ، يهود بها الى بلاده ، فهذا خير من الضياع فى سجن القصر الأميرى• وهنـا اتضحت النوايا الحقيقية لولى العهـد (الولد) المطالب بالعرش ، ومن معه من اللمتونيين أبناء العم ، وهى الهدية والصلات من الأمير : العم الأكبر ، شـيخ لمتونة الأول • ولا بأس ان كان « للهـدية الجليلة » التى نالها أبو بـكر من قبـل ، بنصـيحة سـيدة القصر : زينب النفـزاوية ، أصداؤها فى جنوب الصحراء وفى قلوب عامة أهل أغمـات ومراكش ، التى حركت الرغبة فى نفس ابراهيم على قبول مثلها • وهكذا طاب خاطره لهذا الوعد بالهدية وتهدن بينما قام ابن تاشفين الذى كان يعرف كيف يسترضى الرجال ، وخاصة من مقربيه وأهل بيته ، بالزيادة فى الانعام عليه بالمـال والخيل والكسى ، واكرام من بصحبته بالصلات ، حتى لهج لسانه بالشـكر • وانتهى الأمر بانسـحاب ابراهيم بن أبى بـكر بن عمر ، دون أن يجتمـع بيوسف بن تاشفين أو يراه عائدا الى الصحراء حيث بقى هناك الى أن وافته منيته(٤٥) • وكان من حسن طـالع ابن تاشفين أن رزق فى هـذا الوقت (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) بابنه الفضل من زينب النفزاوية(٤٦) •

وبرجوع ولى عهـد أبى بـكر الى الصحراء (سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م) ثم وفاته فيما بعد ، ٤٨٠هـ/١٠٨٧(٤٦م) تخلص مملكة المغرب تماما ليوسف ابن تاشفين ، وبذلك استحق التسمية بلقب أمير المسلمين ، الذى تصر بعض النصوص على اطلاقه على قائد المرابطين منذ بداية الحركة المرابطية ، وبذلك يبدأ العهـد التاشفينى وهو الدور الثـانى لدولة الربـاط ـ دور الذروة والعظمة •

---

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ حيث وصف القائد مزدلى بأنه « كان حسن السياسة صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، ووصف ابراهيم بلقب « الولد » ، وهو لقب ولى العهـد فى الدولة المروانية بالأندلس ـ الأمر الذى يعنى الأثر الأندلسى فى الحضـارة المرابطية » •

(٤٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ •

(٤٦ م) أنظر أمين طيبى ، أثر الاسـلام فى غانه ومـالى ، مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت (بالانجليزية) ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٠ ـ حيث النص على رجوع أبى بكر بن عمر الى الصحراء وقتاله للوثنيين من السودان حتى وفاته فى حملة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م • ومن المقبول أن يكون أبو بكر بتحالفه مع ملك التكرور المسلم قد استعاد أودغست فى نفس سنة ٤٦٩ هـ وكذلك الأمر بالنسبة لعاصمة غانه فى السنوات التالية ، الأمر الذى استمر الى استشهاده فى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م •

عهد يوسف بن تاشفين : ٤٦٥ - ٥٠٠هـ/١٠٧٢ - ١١٠٦م :

الاستقلال والتقسيم :

تعتبر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ، حيث تنازل أبو بكر بن عمر ، فى مدينة أغمات ، عن رئاسة دولة المرابطين لصالح قريبه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، بمثابة خط فاصل أو علامة مميزة ، ليس فى تاريخ دولة لمتونة هذه فقط ، بل وفى تاريخ المغرب الاسلامى على الجملة ، من أوسطه الى أقصاه ، ومن صحرائه الى سودانه ، وحتى بلاد الاندلس عبر المضيق - وذلك على كل المستويات ، من سياسية واقتصادية وثقافية وحضارية ، بعامة .

فعلى مستوى دولة الرباط التى بدأت ثنائية الحكومة ممثلة فى الفقيه والأمير ، انقسمت تلك الدولة الى حكومتين منفصلتين ، احداهما جنوبيه قاريه ذات طابع افريقى سودانى ، والاخرى شمالية بحرية ذات طابع مغربى أندلسى . وهذا التوجه الجغرافى سيكون له أثره فى تحديد مصير بلاد المغرب فى القرون التالية ، حيث ستصبح له عاصمتان ، احداهما فاس ، قاعده السوس الأدنى وبلاد الريف ، التى توجه أنظارها نحو الشمال ، والثانيه مراكش ، قاعدة السوس الأقصى التى توجه أنظارها نحو الجنوب والتى صارت عاصمة لكل بلاد المغرب حتى أنها أعطتها اسمها (مراكش) ثم ثم انها اضطرت بعد فشل عملية الانقاذ التى قامت بها فى الشمال بالأندلس، الى أن تكتفى بالتحول الى عاصمة اقليمية للجنوب ، تماما كما كان الحال بالنسبة لقيروان افريقية .

وبذلك أصبح للمغرب مدينتان تعبران عن توجهاته الطبيعية . هما : فاس عاصمة الشمال التى تحتوى على ذكريات عصور التأسيس الأولى ، ويفوح منها عبق الأدارسة الشرفاء ، ومراكش عاصمة الجنوب التى تخلد ذكريات عصور العظمة أيام المرابطين والموحدين ، ويفوح منها أريج الحضارة المغربية الأندلسية ممزوجة بغرائب السودان وعجائبه .

المرابطون والسودان الغربى :

دولة أبى بكر بن عمر الصحراوية :

خرج الأمير أبى بكر بن عمر بعد اعتزاله سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ، الى الصحراء عبر سجلماسة نحو أودغست ، وهما المدينتان اللتان حققتا للمرابطين السيطرة على طرق التجارة الغربى بالصحراء ، قاعدة لمتونة

المتأخمة لبلاد السودان . وكان عليه أن يبدأ بتهدين البلاد واقرار السلام بين قبائل الملثمين ، قبل أن يستفيد من نشاطاتهم العدوانية ضد بعضهم البعض ، فيوجه حماسهم للحرب والقتال نحو بلاد السودان ، لجهاد غير المسلمين منهم ، ونشر الاسلام السنى بينهم ، وأخذ المحاربين منهم عبيدا أسرى ، يوجهون الى أسواق النخاسة فى المغرب والأندلس ، وربما الى المشرق أيضا - فكأنهم ذهب السودان الأسود ، الى جانب ذهبه الأصفر . وفى ذلك تقول الرواية الدارجة ان أبا بكر بن عمر حشد الجيوش وغزا بلاد السودان على طول مسيرة ٣ (ثلاثة) أشهر وهى المسافة التى تقوم بأكثر من ٣ (ثلاثة) آلاف كم(٤٧) ، فى المنطقة ما بين أعالى كل من نهرى السنغال ، ورافد النيجر الغربى - حيث تم الاستيلاء على أملاك كل من دولتى غانه والسونغاى (مالى ؟) غربا ، وأقاليم تادمكه شرقا(٤٨) .

وحسب رواية ابن عذارى استمر جهاد السودان ٣ سنوات فقط ، انتهت بوفاة أبى بكر بن عمر اثر اصابته برشقة سهم ، وذلك فى ٤٦٨هـ/١٠٧٥م ، وهى الرواية التى تنسجم مع الرواية الخاصة بمجىء ابنه ابراهيم (ابن أبى بكر) مطالبا بملك أبيه الذى غصبه عمه يوسف (ابن تاشفين) - الأمر الذى يجعلنا نأخذ بهذا التاريخ دون غيره ، طالما رجعنا التواريخ التى حددها ابن عذارى (ما سبق ، ص ٢٥٣ وهـ ١٢ ، وما يأتى هـ ٥١ ص ٢٧١)(٤٩) .

---

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ١٣٥ .

(٤٨) أنظر لبون الافريقى ، ص ٥٣٨ - حيث النص على ان مملكة مالى (الماندنج) تمتد ٣٠٠ (ثلاثمائة) ميل على طول نهر النيجر ، وأهلها أول من اعتقد فى الدين المحمدى ، وان ذلك كان على يدى عم يوسف بن تاشفين وهو الذى عاش بعد خروجه من المغرب فى منطقة أدرار الموريتانية ، والذى لم يكتف بحرب السودان ، بل حالفهم عن طريق المصاهرة اذ زوج احدى بناته الملك من الماندنج الماليين ، وظلت السلطة بين حفدة اخوته من أمه الى وقت متأخر (هـ ٣٣) ، كولين ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الافريقى ، الترجمة ، ص ٨٧ .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ص ٢٦ - حيث النص على أنه (أبو بكر بن عمر) أقام بصحرائه ٣ (ثلاث) سنوات ، ويوسف يمده ، الى أن قتله السودانيون المجاورون للمتونة فى الصحراء لأنه يحاربهم ، حتى قضى الله بوفاته بسهم كان فيه منيته سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥ م . وقارن ابن الأثير ، حيث يجعل وفاته سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩ - ١٠٧٠ م - حيث اجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ، ولقبوه أمير المسلمين ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ٨٣٢ ، نصار ج ٢٤ ص ٢٦١ ، هـ ٦ - حيث الاشارة أيضا الى ابن تغرى بردى الذى جعل وفاته سنة ٤٨٠ هـ / ٨ - ١٠٨٧ م ، وأشباخ الذى جعل وفاته سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، القرطاس ، ص ١٣٤ - حيث يحدد تاريخ رحيل أبى بكر الى الصحراء بشهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) ، اما عن =

وهكذا يكون أبو بكر قد قتل بذلك السهم ، مسموما كان أم غير مسموم ، فى حرب غانه التى لم يكن أسلم أهلها ، رغم وجود جاليات اسلامية فى كثير من أنحائها(٥٠) • ولا بأس أن كان اسلام التكرور فى أسافل موريتانيا وغيرهم من مسلمة السودان الغربى ، وانتشار الاسلام هناك على أيدى المرابطين قد تم بشكل لم يكن له نظير من قبل ، فى حركات « التبشير » الاسلامية التى كان يقوم بها دعاة السنة أو الشيعة الأباضية فى العهود السابقة •

والظاهر ان مقتل أبى بكر المفاجىء فى غانه كانت له نتائج وخيمة على مملكة لمتونة الصحراوية وجيشها الافريقى (السودانى) الذى لم يقدر له أن يحتفظ طويلا بفتوحاته الغانية التى شملت كل من موريتانيا الحالية ، وامبراطورية غانه التى تعادل اقليم السودان الغربى ، ووصلت جنوبا حتى مناجم الذهب فى بامبوك • ومن المقبول أن خلفاء أبى بكر الذين خضعت لهم كل الشعوب السوداء ، وكذلك الفولان ، ودفعوا لهم الضرائب لم يكونوا على مستوى المسئولية ، داخليا وخارجيا • فهم لم يستطيعوا منع النزاعات الداخلية من الظهور الى العلن ، الأمر الذى أدى الى ظهور النزاعات الفردية ، وانكار أن يكون للأمير كل السلطات على رؤساء القبائل ، مما أدى الى فقد الهيبة ، وانتشار الفوضى ، ونزول الأمير الى مستوى شيخ القبيلة

= وفاته فيجعلهما ابن أبى زرع (ص ١٣٥) فى شعبان سنة ٤٨٠ هـ / نوفمبر ١٠٨٧ م (وهى الرواية التى تقلها ابن تغرى بردى) — حيث النص على انه أقام بالصحراء مدة (دون تحديد) يجاهد الكفرة من السودان الى أن استشهد — رحمه الله — فى بعض غزواته • رمى بسهم مسموم فمات — رحمه الله — فى شعبان سنة ٤٨٠هـ/نوفمبر١٠٨٧م • بعد أن استقام له أمر الصحراء الى جبل الذهب من بلاد السودان (بمعنى انه وصل الى بامبوك جنوبا ، حيث مناجم الذهب) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ — حيث النص على أن أبا بكر فتح بابا من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة (مسيرة يوم) من بلاد المرابطين •

(٥٠) ما سبق ، ص ٦٣ — ٦٤ ، وأنظر البكرى الذى يكتب سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، ص ١٧٤ — حيث سمة الملك « غانه » اما اسم البلد فهو أوكار (ص ١٧٥) — حيث ملك غانه فى ذلك الوقت « تنكامنين » الذى يوصف بشدة الشوكة وهيبة السلطان • اما غانه العاصمة ، فهى مدينتان : واحدة يسكنها المسلمون وفيها ١٢ مسجدا ، أحدها هو مسجد الجمعة • ولها الأئمة والمؤذنون والخدم المرتبون . وفيها فقهاء وحملة علم • والثانية مدينة الملك على ٦ (ستة) أميال وتسمى الغابة ، والمساكن متصلة بينها ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط ، وللملك قصور وقباب محاطة بسور — وهناك مسجد لصلاة المسلمين فى مدينة الملك هذه — وحولها شعراء وغابات فيها أكواخ (قباب) السحرة والتماثيل (الدكاكير) وقبور الملوك . وكل ذلك تحت الحراسة الشديدة • وللملك سجون وبيت مال ووزراء وتراجمة من المسلمين ••• الخ •

العادى(٥١) ٠

هـذا ، كما صاحب الاضطرابات الداخلية بين القبائل ، ثورات الأمراء المحليين فى أمبراطورية غانه الذين عجزت لمتونة عن قمعهم ، وبذلك انتهى الأمر باسترداد السـود وخاصـة المـاليين منهم ، أقاليم تاجانت ، وجنوب ترارزا ، وأخضعوا أهلها لحـكمهم(٥٢) ٠

ولكن الأمر المستغرب هو أنه برغم الخسـائر العسـكرية التى لحقت بلمتونة فان قبائلها الصحراوية كانت تزداد انتشارا نحو الجنوب السودانى مع مرور الوقت ٠ ويظهر ذلك خلال فترة لا تزيد كثيرا عن ربع قرن من وفاة أبى بكر عندما قامت قبائل الملثمين فى سنة ١١١١م/٥٠٥هـ ، بتأسيس مدينة تومبوكتو(Tim Bokton) التى حلت محل عاصمة غانة القديمة ، الأمر الذى انتهى بأن لم يبق فى الصحراء الموريتانية الا لمتونة وجزء من مسوفة(٥٣) ٠ ولا ندرى ان كان التصـحر فى تلك الأقاليم يعتبر تفسيرا مقبولا لانسحاب الفلاحين السـود جنوبا الى أماكن أكثر خصبا تاركين مناطقهم لتكون مرعى لقطعان الطوارق(٥٤) ٠

وهـكذا كان الاسـلام يزداد انتشارا فى الجنوب نحو بلاد الساحل والسودان الغربى مع مرور الوقت ، وهو ما يظهر بشكل واضح على عهـد أمبراطورية مـالى فى القرن الثامن الهجرى/١٤م ٠

---

(٥١) أنظر التاريخ الصغير لبنى عيد أو عيش ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة١٩٣٧ ، الكراسـة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ ـ حيث يأخذ المؤلف برواية القرطاس بالنسـبة لوفاة أبى بـكر بن عمر (٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م) بدلا من سـنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م التى يقدمها ابن عذارى والتى رجحناها على غيرها مع الاشارة الى وفاة أبى بـكر فى نواحى ايم كريرى (Im Kriri) : تاجانت (Tagant) الحالية بضربة سهم من سودانى ثائر ٠

(٥٢) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٢ ٠

(٥٣) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ، ص ٤٥ ٠

(٥٤) التاريخ الصغير لبنى عيد ، مجلة الدراسات الاسلامية ، سنة ١٩٣٧ ، كراسة ١ ، بالفرنسية ص ٤٢ ـ وهنا لا بأس من الاشارة الى ما تنسبه الروايات القصصية من انه ينسب الى أبى بـكر ابن عمر تقسيم المجتمع المغربى الى ٣ (ثلاث) طبقات ، هى : الشرفاء ، ورجال الدين ، ثم الرعاة : وعليهم خدمة الطبقتين السابقتين ٠

التوسع الاقليمى على عهد يوسف بن تاشفين :

استكمال فتوح المغرب :

بدأ استكمال فتوح المغرب منذ عهد النيابة اليوسفية ، بعـد خروج أبى بكر الى الصحراء وتقسيم الجيش الى فيلقين : صحراوى ومغربى ، بين الأمير ونائبه فى المغرب • ولكنه بسبب ما أثارته رجعة أبى بكر من اضطراب فى مسار الأحداث سنة ٤٦٤هـ/٢ - ١٠٧١م ، كان من الطبيعى أن تتوقف فتوح المغرب مؤقتا ، لكى تعود قوية بعد استقلال يوسف بالامارة : بنظام أفضل وامكانيات أقوى ، خاصة بعد أن نجح يوسف فى اكتساب قبائل المغرب « فأعانته فى جميع أحواله » • وبعد أن ازدادت أعداد جيوشه من البربر (المتطوعة) ، ومن العساكر المحتشدة (النظامية)(٥٥) ، بعد انشاء ديوان الجند ، فضلا عن انشـاء الحرس الأميرى الخاص من العبيد السـود والمماليك البيض (الصقالية) ، الذين كان يزداد عددهم على مر الأيام(٥٦) •

وهنـا نلفت النظر من جديد الى ان التأريخ لعهد يوسف بن تاشفين ، وهو الشخصية المحورية فى تاريخ الأمبراطورية ، ما زال يعانى - فى مرحلته الأولى على الأقـل - من الصـعوبة فى توقيت أحداثه السـياسية الهـامة والعسـكرية ، وخاصـة ما يتعلق بفتـوح المغرب فى خطواتها المتوالية • ويرجع السبب فى ذلك الى نقص الوثائق الرسمية ، واعتماد الكتاب على الروايات الشفهية والقصص الشعبية التى لم تدون الا فى فترات متأخرة ، الأمر الذى لا يضمن الدقة فى التوقيت أو فى صحة الخبر • وفى اطار هذا السياق فان ما وصلنا من الرسائل أو من الخطاب مما ينسب الى المرابطين يعانى من الصـنعة الى جانب سـوء النسخ وعدم سلامة الحفظ ، ناهيك عن أن الدولة الصحراوية كانت فى بداية أمرها ، وأن دواوينها الناشـئة وسجلاتها لم تكن بعد تعرف أساليب التنظيم والحفظ •

وهـكذا اختلف الكتاب من مؤرخين وغيرهم فى تحديد أحداث العصر الكبيرة ، مثـل : بنـاء مراكش (ما سبق ، ص ٢٣٩) ، وفتـح فـاس وتلمسان والجزائر ، مما يأتى ذكره • والخلط فى الأحداث الكبرى والاختلاف فى توقيتها لا ترجع مسـئوليته الى الكتاب وحدهم ، بل كثيرا ما يكون

---

(٥٥) البيـان (ابن عذارى) ، ج ٤ ص ٢٢ •

(٥٦) البيـان ، ج ٤ ص ٢٣ •

بسبب طبيعة الأحداث نفسها • فحرب الصحراء والخلاوات حيث يكون أسلوب القتال ، هو الأسلوب البدوى المبنى على فن « الكر والفر » أو الغارات التى يقصد بها الاستكشاف قبل الاستحواذ والاستقرار أو الخضوع والحلف العسكرى •

وبناء على كل ذلك يختلف الكتاب فى تحديد المسار الزمنى لأحداث التوسع المرابطى فى بلاد المغرب على عهد يوسف بن تاشفين ما بين الاختصار المخل ، كما فى كامل ابن الأثير ، ونهاية النويرى • والاسهاب المختلط ، كما فى قرطاس بن عذارى ، الذى حاول ابن خلدون ترتيبه ـ دون الاشارة الى ذلك صراحة ـ وبيان ابن عذارى الذى نفتقد ـ للأسف الشديد ـ بعض أجزائه ، والذى يعتبر بمثابة العمود الفقرى بالنسبة لتاريخ المغرب ، منذ بدايته وحتى أيام المؤلف ، فى مطلع القرن الثامن الهجرى (١٤ م) والذى نفضل أن نتخذ روايته مصدرا أولا فى هذا المقام ، طالما وجدت ، مع المقارنة والمقابلة مع النصوص الأخرى ، حسبما يقضى المنهج ، وعلى قدر الطاقة •

فتح الأقاليم البحرية فى شمال المغرب :

خضوع منطقة سلا :

وهنا نرى أنه كان على يوسف بن تاشفين أن يبدأ بتهدين بلاد المغرب ، حسب سياسته التى انتهجها بقصد تحبيب القبائل فيه وتحالفها معه • ونسجل أنه لا بأس من تعديل تاريخ الرواية التى يقدمها ابن أبى زرع فى تهدين المغرب الزناتى ، من : السوس الأدنى ، بلاد مكناسة وفاس ، الى : غمارة والريف ، من حيث تزامنها مع خروج أبى بكر الى الصحراء فى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م(٥٧) • ففى هذا الوقت تقول الرواية ان ابن تاشفين هدن البلاد حتى ملوية ، فى تخوم المغرب الشرقية ، وأنه ميز (عرض) جيوشه ، فوجد ٤٠ (أربعين) ألفا من المرابطين ، فانتخب منهم النصف (٢٠٠٠٠) من حرسه الخاص ومن المقربين من لمتونة وجعلهم تحت قيادته ، بينما قسم الآخرين (٢٠ ألفا) الى ٤ (أربعة) ألوية ، كل منها ٥ خمسة آلاف رجل حسب تنظيمهم القبلى ، وجعل لكل لواء قائدا • فكان على لواء

---

(٥٧) أنظر القرطاس ، ص ١٣٨ ـ حيث تقديم أبى بكر ليوسف فى الامارة سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١ م التى رأينا أن تقدم ١٠ سنوات فتصبح سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حسب رواية ابن عذارى ـ أنظر ما سبق ، ص ١٦٨ ، ص ٢٥٦ وهـ ١٩ •

جدالة : محمـد بن تميم (الجدالى) وعلى مسوفة : عمـر بن سـليمان (المسـوفى) ، وعلى تلكاتة : مدرك (التلـكاتى) ، وعلى لمتونة سير بن أبى بكر (اللمتونى) • وتقدمت الألوية الأربعة يتبعها يوسف بن تاشفين ، ساقه للأمن والحماية ، وهم يغزون قبائل المغرب ، قبيلة بعد أخرى ، وبلدا بعد بلد ، وقوم يفرون منهم ، وقوم يقاتلون ، وقوم يدخلون فى طاعته(٥٨) ، الأمر الذى يعنى اقرار السلام المرابطى فى تلك البلاد ، بدخول قبائل البربر من الزناتية (البتر) فى الطاعة ، وقبول دفع الضرائب المقررة •

والحقيقة أن أهمية هـذا النص تتلخص فى أنه يعرف ببنـاء الجيش التاشفينى فى بداية عهد « أمير المسلمين » يوسف ، وكيف أن نواته كان الحرس الأميرى ، وتوابعه الرئيسية الى جانب لمتونة ، هى قبائل : جدالة ومسوفة وتلكاتة (التى ربما كانت من أفخاذ لمتونة ؟) •

أمـا عما بعد اخضـاع القبائل فى اقليـم ملوية ، فيفهـم من رواية ابن عذارى ، أن أول أعمال يوسف بن تاشفين بعد أن آلت اليه الامارة ، هو التأكد من خضوع قبـائل برغواطة ، فى حيز سـلا من بلاد تامسـنا المتاخمة للسـوس الأقصى • ففى شهر صفر من سنة ٤٦٦هـ/أكتوبر ١٠٧٣م التالية لاعتزال أبى بكر ، وجه ابن تاشفين جيشا ضخما بقيادة الأمير مزدلى ابن بانلوتكا نحو سـلا ، فكان مجرد ظهور القائد المقرب من الأمير كافيا لتقديم القبائل هناك فروض الطـاعة ، بما يستتبع ذلك من دفع الضريبة — على ما هو متعارف عليه • وهكذا لم تستغرق حملة استعراض القوة هذه أكثر من (ثلاثة) أشهر ، اذ كان خروج مزدلى من تامسـنا نحو مراكش ، فى ٢٥ ربيع الثانى/٢٩ ديسمبر من نفس السنة(٥٩) •

التوسع فى السوس الأدنى : فتح مكناسة :

من الواضـح فى حوليات ابن عذارى ، أن عملية تهدين تامسـنا كانت مقدمة لضم السـوس الأدنى الى الدولة المرابطية بشكل نهائى على يدى يوسف بن تاشفين ، بمعنى أن ما قام به المرابطون قبل ذلك فى السوس الأدنى كان مجرد أعمال تمهيدية للضم النهائى (ما سبق أعلاه) • ففى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م كان يوسف بن تاشفين ، يوجه حملة عسكرية تحت

---

(٥٨) القرطاس ، ص ١٣٨ •

(٥٩) البيـان ، ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ •

قيادة بطى بن اسماعيل ، تهدف الى تأكيد خضوع زناتية مكناسة ، وعلى رأسهم : الخير بن خزر الزناتى • فعندما وصلت الحملة الى قلعة بهت ، بعث القائد بطى رجل بريد عداء (رقاص) الى الخير بن خزر يخبره بالعفو عنه نظير عودته الى الطاعة ، ويسلمه الخطاب الخاص بالأمان ، اذا ما سلم مدينة مكناسة ، وسار معه الى الحاضرة مراكش للقاء الأمير يوسف •

وعقد الخير اجتماعا لرؤساء زناتة وعرض عليهم الأمر فهالهم ما سمعوا ، وعبروا عن تمسكهم برئاسته وبأنهم على استعداد للقتال حتى النصر ، واخراج الجيش اللمتونى من بلادهم • وهنا أفهمهم الخير أنه لا سبيل الى ذلك ، وأعلمهم أنه سيراسل القائد المرابطى للتفاوض معه • وأوفد فعلا سفيرا من لدنه ، وهو : منغفاد بن عبد العزيز الزناتى ، الذى احتفى به بطى وأكرمه • وبعد مشاورات عبر فيها رسول مكناسة عن أن الخير ومن معه هم رجال يوسف بن تاشفين ، وانهم متمسكون بالاجتماع معه للاتفاق على الشروط الخاصة بتسليم البلاد • وعندما أعلن القائد المرابطى أنه يضمن من جانبه ، تنفيذ تلك الشروط انحلت الأزمة • وهكذا خرج الخير بن خزر الزناتى ومن كان معه من قواد زناتة ، الى موضع القناطر ، خارج مكناسة ، ودخل بطى بن اسماعيل المدينة ، ورتب شئونها كولاية مرابطية ، وعهد بحكمها الى الأفضل اللمتونى •

وبعد أن اطمأن بطى بن اسماعيل على حسن سير الأمور بمكناسة ، خرج ليصحب الخير ومن معه من الزناتية ، الى مراكش • وهناك حظى الزعيم المكناسى بمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين الذى أنعم عليه بكل ما أراده ، ثم انه أذن له بالانصراف ، فعاد الخير الى وطنه ، ولكنه أقام بخارج مكناسة حيث بقى حتى وفاته(٦٠) • وبذلك تهدنت مكناسة ، واطمأنت الى دخولها فى حظيرة الدولة المرابطية ، على عهد يوسف بن تاشفين •

فتح فاس :

بعد ضم مكناسة كان من الطبيعى أن يأتى دور عاصمة السوس الأدنى ، قيروان المغرب الأقصى ، فاس : مدينة الشرفاء الأدارسة ، ومقر آخر سلالتهم الحموديين ، خلفاء قرطبة بعد المروانيين • فبعد وصول الخير بن خزر الزناتى الى حضرة مراكش كان أول ما فكر فيه يوسف بن تاشفين

---

(٦٠) البيان ، ج ٤ ص ٢٧ •

هو اخضاع حكام فاس الزناتية المغراويين بدورهم ، وضم المدينة «المقدسة» الى دولته ، الأمر الذى كان يضفى المزيد من البهاء عليها والاجلال • وفى هذا الجو المفعم بروح النصر سير ابن تاشفين « عسكرا جرارا » عهد بقيادته الى قائد من بنى عمه المقربين ، هو : يحيى بن واسينوا اللمتونى ، لمنازلة فاس •

وكان وصول يحيى الى فاس فى آخر رجب سنة ٤٦٧هـ/ ١٩ مارس سنة ١٠٧٤م ، حيث كان أبناء حمامة الذين حوصروا حصرا شديدا ، لمدة ٧ (سبعة) أيام حتى استسلموا فى اليوم الثالث ، ودخل رجال يحيى ابن واسينوا المدينة عنوة ، بعد مقتل كثير من المدافعين • واستبيحت فاس لفترة من الوقت ، سلبت فى أثنائها الدور ونهبت الأموال ، قبل أن يعلن العفو عن أهلها والأمان لهم • ونجح الفتوح ودوناس أبنا حمامه فى الاعتصام بقصرهما بعض الوقت ، ثم انهما طلبا الأمان فعفى عنهما ، وان كان فى نفسيهما فقط ، دون الأموال • وأرسلت الكتب بأخبار فتح فاس الى مراكش ، فأمر يوسف بن تاشفين باطلاق سراح الأميرين الزناتيين ابنى حمامة ، والسماح لهما بالمسير أينما شاءا ، فرغب الفتوح فى المسير الى بلاد مغيلة • وبذلك تكون لمتونة قد استولت نهائيا على فاس ، وضمتها الى دولتها المرابطية(٦١) •

ولا نعرف ان كانت رواية القرطاس (الهامش السابق) تبالغ اذ تقول ان يوسف بن تاشفين قتل من أهل فاس بجامع القرويين وجامع الأندلس

---

(٦١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٨ • وقارن القرطاس ، ص ١٤١ - حيث الفتح الثانى لفاس سنة ٤٦٠ هـ / ٨ - ١٠٦٧ م ، مع فتح جميع بلاد غمارة وجبالهم وبلاد الريف الى طنجة • أما عن الفتح الثالث لفاس فكان يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٦٣ هـ / ١٨ مارس سنة ١٠٧٠ م حيث نزل عليها يوسف بن تاشفين بجمع جيوشه ، وشدد عليها الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف ، فقتل من مغراوة بها ، وبنى يفرن ، ومكناسة ، وقبائل زناتة حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى ، وقارن العبر ، ج ١ ص ١٨٥ ، أنظر القرطاس ، الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م • وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٤ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م بتحريض صاحب مكناسة مهدى بن يوسف الجزنائى ، ثم الفتح الثانى (ص ١٨٥) - حيث قتل معنصر ، ثم الفتح الثالث (ص ١٨٥) - حيث أخذت عنوة بيدى يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ، وقارن صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٧ - حيث الفتح الأول سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م • والفتح الثانى (ص ١٨٨) - حيث قتل معنصر سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، والفتح الثالث (ص ١٨٨) ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م - حيث فتحت عنوة ، وهرب الناجون الى تلمسان •

ما يزيد على ٣ (ثلاثة) آلاف رجل ، وأنه فر من بقى منهم الى أحواز تلمسان. هذا ، وان كان لا بأس فيما تقوله تلك الرواية من أن يوسف بن تاشفين قام بتحصين مدينة فاس عندما دخلها ، وان اعتبرت أن أمره بهدم الأسوار التى كانت تفصل بين المدينتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، بمعنى توحيد المدينة المقسمة ، وجعلها حاضرة واحدة ، وكأنه نوع من العقوبة التى أنزلت بأهل فاس(٦٢) • أما ما تقوله الرواية من أنه اعتنى بفاس ، وأنه أمر ببنيان المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها وأنه عاقب أهل كل زقاق لم يجد فيه مسجدا ، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، الى جانب أنه بنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها(٦٣) فنرى أنه من أعمال العمران التى عرفتها المدينة فى فترات الاستقرار التالية بعد تمام الأعمال العسكرية • وربما كان ذلك على أواخر أيام يوسف ، أو حتى فى عهود تالية • فذلك بعامة ، من سمات عصور الاسترخاء والترف ، التى تتاوا عصور الانجازات العسكرية والسياسية الكبير(٦٤) •

فتح تلمسان :

لما كانت بقايا زناتة المنهزمين فى فاس ، قد فروا الى أحواز تلمسان ، حسبما تنص رواية ابن أبى زرع(٦٥) يصبح فتح تلمسان من الأحداث التالية لفتح فاس ، كما يأتى عند ابن عذارى ، وذلك فى سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م ، التالية • فلقد جهز يوسف بن تاشفين لهذا الأمر جيشا ضخما عهد بقيادته الى قريبة القائد مزدلى اللمتونى ، وسيره نحو تلمسان مزودا بخطاب الى أميرها العباس بن يحيى ، كبير زناته هناك ، يعده فيه بالعفو اذا ما أذعن للقائد المرابطى دون قتال • وخرج ذلك الجيش من مراكش فى أوائل المحرم ٤٦٨هـ/أغسطس ١٠٧٥م لكى يصل الى تلمسان فى أواخر صفر/منتصف سبتمبر ، بمعنى أن الرحلة استغرقت زهاء شهرين ، الأمر الذى يبرره ضخامة الجيش وصعوبة امداده وتموينه على طول الطريق •

---

(٦٣) الفرطاس ، ص ١٤٦ ، وفارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ •

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤١ •

(٦٤) أنطر القرطاس ، ص ١٤١ – ١٤٢ – حيث النص على ان يوسف بن تاشفين نعد أن فتح فاس أفام بها الى شهر صفو سنة ٤٦٣ هـ / نوفمبر ١٠٧٠ م (وهو التاريخ السابق على توقيت ابن عذارى بـ ٥ (خمس) سنوات – كما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١) ، ثم انه خرج منها الى بلاد ملوية ففتح حصون وطاطا سنة ٤٦٤ هـ / ٢ – ١٠٧١ م التالبة ، فارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ •

(٦٥) ما سبق ، ص ٢٧٦ وهـ ٦١ •

والمهم أنه بمجرد أن قدم ساعى البريد (الرقاص) الخطاب الأميرى الذى حمله مزدلى الى العباس ، بادر هذا الأخير بمغادرة تلمسان ، ودخلها مزدلى بقواته المرابطية « فى مهلة وحال هدنة » . وبعد أن رتب مزدلى أحوال المدينة ، عهد بولايتها الى ابنه : يحيى بن مزدلى ، وعاد هو وبصحبته العباس الى مراكش ، فوصلها فى ٥ ربيع الثانى/١٨ نوفمبر ، فكأنه لم يمكث فى تلمسان الا أسبوعين أو ثلاثة ، على حساب أن رحلة العودة كانت أسهل ، من حيث بقاء حامية مرابطية معقولة الحجم فى تلمسان ، خففت من ثقل العسكر العائد الى الحاضرة .

وفى مراكش ، ومثلما حدث للخير صاحب مكناسة (ص ٢٧٥) ، حظى العباس بلقاء الأمير يوسف الذى أنعم عليه بكل خير ، ومن ذلك امتيازات خاصة يتمتع بها فى بلده ، ربما كان أهمها الاعفاء من دفع الضريبة ، بعد أن سمح له بالانصراف اليه والاقامة فيه(٦٦) .

وآخر ما تسجله رواية ابن عذارى التى عثر على أوراقها مؤخرا فى جامع فاس ، والخاصة بفتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، هو حروبه الشديدة فى سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م ضد أمير تازا أبو يعلى (الزناتى) فى فحص الوادى . وكان يعاون هذا الأخير أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن ابن أبى العافية الذى كان قد غلب على فاس بعد مقتل تميم بن معنصر سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م الذى كان على رأس الزناتية الذين انتصروا على المرابطين بموضع آجرسيف(٦٦) .

ومما يؤسف له أن بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب تنقطع فى ابن عذارى بعد فتح تلمسان حيث يوجد خرم كبير ، ضاعت فيه أخبار

---

(٦٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٢٩ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ ـ حيث وضع فتح تلمسان سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، على يدى مزدلى ، على رأس ٢٠ ألفا وظفره بأميرها معلى بن يعلى المغراوى الذى قتل ، ثم عودته الى مراكش حيث لقى فيها يوسف ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ـ حيث النص على قتل العباس بن يحيى أمير تلمسان . وأنزل محمد بن تيغمر المستوفى بها فى عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا لملكه ، واختلط مدينة تاكرارت (تاجرارت) بمكان محلته ، وهو اسم المحلة بلسان البربر .

(٦٦م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٠ ـ حيث النص خطأ على أن أبا القاسم بن أبى العافية كان رأس لمتونة (بدلا من زناتة) ، مع الاشارة الى أن توقيت هذا الحدث ربما كان فى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، السابقة .

الأحـداث من سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م الى ٤٩٥هـ/١١٠١م(٦٧) ، الأمر الذى يتطلب الرجوع الى قرطاس ابن أبى زرع ، الذى نلاحظ أن توقيتاته الأخيرة للأحداث تقترب من تاريخ ابن عذارى وهو ما يطمئن بعض الشيء ، الى جانب الاستعانة بغيره من الروايات المتأخرة ، مما فى الحلل الموشية وغيره من كتب التاريخ أو التراجم ·

تهدين البلاد والتقسيم الادارى :

والذى يفهـم من رواية القرطاس أنه عند مستوى هذه الفتوح التى أضاف اليها يوسف بن تاشفين فتـح مدينة الدمنة من أعمال طنجة ، وكذلك جبل علودان بمنطقة فاس ، ثم فتـح جبـال غيـاثة وعدد من مستوطنات القبائل ، مثـل : بنى مـكود ، وبنى رهينـة ، من أحـواز تـازا عند ابن خلدون ، مع ردع المخالفين(٦٨) ، اطمأن يوسف بن تاشفين الى اكتمال نمو الدولة المرابطية تحت رعايته ، بمعنى أنها أصبحت أمبراطورية متحدة ، يسودها الأمن والسلام ، ويعترف بها رؤساء الأقاليم ومشايخ القبائل ، فلم يبق أمامه سـوى اعتراف هؤلاء جميعـا بسـلطنته وحـده دون قرين أو منافس منهم ، فكأنه كان يستحق يومئذ لقب « أمير المسلمين » الذى يميزه عن سائر الأمراء ·

وهـكذا ، وجه يوسف بن تاشفين الدعوة الى « أمراء المغرب ، وأشياخ القبائل ، من : زناتة ، والمصامدة ، وغمارة وسائر قبائل البربر ، فقدموا عليه ، وبايعوه ، فكسى جميعهم ، ووصلهم بالأموال » · وأكثر من ذلك تضيف الرواية أنه « خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر الى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس »(٦٩) · كما كان عليه أن يهيىء نظم الدولة السياسية والعسكرية ، بما يضمن لها الاستقرار ، والاضطراد فى النمو والنجاح ·

وهنـا كان على يوسف بن تاشفين اعادة تقسيم البلاد الى ٤ (أربعة)

---

(٦٧) أنظر البيـان ، جـ ٤ ص ٣٠ ، هـ ١ — حيث النص على ان هذا الحرم ضيع بقية فتوح يوسف بن تاشفين فى المغرب ، وأخبار جوازاته الى الأندلس ، وموقعة الزلاقة ، وسقوط أكثر دول الطوائف وذلك ما يمكن مراجعته فى روض القرطاس والحلل الموشية وغيرهما ·

(٦٨) القرطاس ، ص ١٤٢ — حيث تم ذلك فيما بين سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م و٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ ·

(٦٩) القرطاس ، ص ١٤٢ ·

ولايات ، لكل منها قائد من أهل الخبرة والثقة ، المقربين كالآتى :

١ ــ مكناسة وبلاد مكلاته ، وبلاد فازاز ، ويليها : سير بن أبى بكر ٠
٢ ــ فاس وأحوازها ، ويليها : عمر بن سليمان ٠
٣ ــ سجلماسة ودرعة ، ويليها : داود بن عائشة ٠
٤ ــ مدينتا أغمات ومراكش ، وبلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، وبلاد تامسنا ، ويليها : ولده : تميم بن يوسف بن تاشفين(٧٠) ٠ فكأن تلك الولاية التى تمثل قلب الدولة المرابطية ، اقطاع ولى العهد ، أوسمة لمنصب ولاية العهد ــ تماما كما كانت ولاية ديوان المغرب (النصف الغربى للدولة العباسية) ببغداد من رموز ولى العهد على أيام المهدى والرشيد ٠

غزو العدوة الافريقية : سبتة وطنجة :

والحقيقة انه كان قد بقى جزء مهم بالنسبة لدولة الرباط لم يعد فى حوزتها ، ألا وهى عدوة الأندلس الافريقية ، ممثلة فى منطقتى سبتة وطنجة ٠ فهذا ما تنبه اليه مؤرخوا المرابطين عندما قالوا : ان عبد الله بن باسين ، عندما دخل تامسنا للقضاء على هرطقة برغواطة ، كان يعلن أنه لا يطلب منهم الا التخلى له عن منطقة العبور الى الأندلس ، أرض الجهاد حقيقة (ما سبق ، ص ٢١٣ ، ٢٣٠) ٠

واذا كان هذا الأمر وقتئذ بعيدا عن تفكير ابن ياسين وزعماء الملثمين ، فانه لم يعد كذلك بعد أن وصلت الفتوح فى المغرب على أيدى يوسف بن تاشفين الى تخوم كل من سبتة وطنجة ، بل والدخول فى صراع مع أسرة لكوت الحاجب ، الذى ورث ولاية سبتة من الحموديين ٠ والظاهر ان ما فعله ابن ياسين ، أعاد سيرته ابن تاشفين من جديد ٠ فهذا ما يفسر رواية ابن أبى زرع التى تقول ان بداية اتصال المعتمد بن عباد صاحب اشبيليه ، بيوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز برسم الجهاد ونصر البلاد ، كان فى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م ٠ وان رد ابن تاشفين السلبى كان مبررا بأنه لا يملك سبتة وطنجة ، مما دعا ابن عباد الى أن يعرض عليه معونته البحرية لتمكين قواته البرية من تحقيق هذا الهدف(٧١) ٠

---

(٧٠) القرطاس ، ص ٦٤٢ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ ٠

(٧١) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن العبر ، ج ٦ ص ١٨٥ ــ حيث النص : « ثم استدعاه المعتمد بن عباد الى الجهاد (سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م) فاعتذر بمكان الحاجب (سكوت) وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبتة ، فأعاد اليه ابن عباد الرسل بالمشايعة اليهم ، فجهز اليهم قائده صالح بن عمران فى عساكر لمتونة ٠٠٠ الخ ٠ ٠

والذى نراه أنه لما كان سقوط طليطلة بين أيدى القشتاليين قد وقع فى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، أى بعد عشر سنوات وأكثر ، فان تبرير فتح سبتة وطنجة بغرض معونة أهل الأندلس فى كفاحهم ضد خطر أمراء الدويلات الأسبانية المسيحية وملوكها ، لا ينهض دليلا مقنعا فى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م ، حيث كانت فتوح المرابطين فى شمال المغرب قد وصلت الى تخوم العدوة ٠ فضلا عن طرد البرغواطيين من آل لقوط من أغمات (ما سبق ، ص ٢١٦) وهكذا كان من الطبيعى أن يبدأوا غز سبتة وطنجة قريب ذلك الوقت ، على يدى يوسف بن تاشفين ، بصرف النظر عن الأزمة الأندلسية التى كانت تتراوح مكانهـا ما بين تقييم فكرتى محاسن ومثالب الاعتماد على الذات ، وطلب المعونة من وراء الزقاق ، سواء من العرب أو من البربر ٠

فتح طنجة :

ففى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م ، قبل ٨ (ثمان) سنوات من سقوط طليطلة ، سير يوسف بن تاشفين قائده صالح بن عمران نحو طنجة على رأس جيش كبير من ١٢ (اثنى عشر) ألف فارس من المرابطين (لمتونة) ، و٢٠ (عشرين) ألف رجل من سائر القبائل الزناتية وغيرهم(٧٢) ٠ وعندما اقتربوا من تخوم طنجة خرج اليهم الحاجب لكوت الذى كان وقتئذ ، شيخا معمرا فى الـ ٨٦ (السادسة والثمانين) من عمره ، بمن لديه من العساكر ٠ وكان اللقاء فى موضع وادى منى قرب طنجة ، وانتهى القتال الشديد بمقتل لكوت ، وهزيمة جيشه ٠ وبذلك دخل المرابطون طنجة بينما بقيت سبتة بين يدى ضياء الدولة يحيى بن لكوت الذى اعتصم بها(٧٣) ٠

وأعقب ذلك فتـــوح بلاد الريف ، من جرسيف الى مليلة (ســـنة

---

(٧٢) القرطاس ، ص ١٤٢ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥ ـ حيث اختصار تفصيلات القرطاس ٠ هذا ولقد جعلنا جيش الزناتية رجالة فى مقابل فرسان لمتونة ، بناء على رواية ابن خلدون التى يقول فيها بعد بنـاء مدينة مراكش (٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) ان ابن تاشفين صرف عزمه الى مطالبة مغراوة ، وبنى يفرن ، وقبائل زناتة المغرب ، وجذب الخيل من أيديهم ، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٤ ٠

(٧٣) القرطاس ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ حيث النص على تصميم الحاجب لكوت على مقاومة المرابطين حيث قال : والله لا يسمع أهل طنجة طبول اللمتونيين وأنا حى ، الى جانب النص على بقاء الحاجب ضياء بسبتة ، وكتابة القائد صالح بالفتح الى يوسف (فتح طنجة) ٠

٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م) وتخريب نكور ، فلم تقم لها قائمة بعدها ، وفتح وجدم وتنس ووهران وجبال وانشريش ، وجميع أعمال وادى شلف حتى مدينة الجزائر (فى سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م) ، وكـل ذلك على يدى يوسف بن تاشفين فيما بين ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ و ٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م[٧٤] · ويكون ختام فتوح المغرب بطلب المعتمد بن عباد المعونة لمواجهة العدو بالأندلس ، وذلك فى سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م حيث يرد يوسف بن تاشفين بأنه سيلبى النداء اذا فتح الله له سبتة ، كما سبقت الاشارة[٧٥] — فكان فتح سبتة كان من شئون فتح الأندلس ، بمعنى المقدمة الطبيعية لمحاولة انقاذ بلاد المسلمين مما كان يتهددها من خطر حرب الاسترداد ، وذلك على أيدى المرابطين ·

---

(٧٤) أنظر القرطاس ، ص ١٤٣ — حيث رجوع يوسف بن تاشفين الى الجزائر ، عقب فتوح سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ، ربيع الثانى ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ·

(٧٥) انظر ما سبق ، ص ٢٨٠ وما بعد ، ٢٩٧ ·

الفصـــل السادس

المرابطون وحرب الاسترداد فى الأندلس :

على عهد يوسف بن تاشفين :

كان من الطبيعى ، وقد استكمل يوسف بن تاشـــفين فتوح المغرب الأقصى بضم طنجة بعد غمارة وبلاد الريف وفاس (٤٦٢ هـ/٧٠ - ١٠٦٩ م) أن يوجه الزعيم المرابطى أنظـــاره الى ما وراء المضيق ، الى الأندلس التى كانت تعانى من وطأة حرب الاسترداد (الركونكستا (Reconquista)) التى كانت تمثل وقتئذ ، خطرا داهما على الوجود العربى الاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية ، الأمر الذى كان يتطلب نوعا من الانقاذ العاجل من جانب الأخوة المغاربة فيما وراء العدوة . والحقيقـــة ان هذا ما كان يدور بخلد عبد الله بن ياسين ، مؤسس الحركة المرابطية ، عندما دخل تامسنا ، وأعلن انه جاء يطلب اخـــلاء الطريق أمامه نحو الأندلس أرض الرباط الحقيقى والجهاد . وبصرف النظر عن صحة هذا الادعاء وقتئذ ، فالمعروف تاريخيا أن هناك نوعا من الربط ، بناء على الواقع الجغرافى بين كل من شبه جزيرتى المغرب والأندلس ، فالتنظيـــم السـياسى الأقوى فى أى من البلدين عـــادة ما يفرض نفوذه المعنوى ان لم يكن سلطانه المـــادى على الطرف الآخر .

وهكذا ، وفى اطار التجربة الاسلامية كان الفتــــح العربى للأندلس حتمية تاريخية بعد فتح المغرب الأقصى ، ترتيبا على تداعى الأحداث(١) . وعندما قويت كل من دولتى المروانبين بالأندلس ، والفاطميين بأفريقيـــة التونسية ، وارتفعتا الى درجة الخلافة ، ظل الصراع محتدما بينهما من أجل السيطرة على العدوة المغربية فى سبتة وطنجة . وعندما هاجرت خـــلافة المهدية الى القاهرة ، واضمحلت خـــلافة قرطبة ، رنا الحماديون ، ســـلالة الأدارسة فى فاس ، بأبصارهم نحو قرطبة فى محـــاولة لملء الفراغ الذى

---

(١) وفى ذلك قيل ان فتح الأندلس كاد يتم منذ أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان . انظر العبر ، ج ١ ص ١٦٢ ، كما قيل ان مراكب الفتح أحرقت تحميسا للفاتحين ، فكأنه استكمل بجماعة المحاربين الأوائل من أصحاب طارق ، أو بدون حاجة الى أسطول : انظر أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب ، ط ١ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ وما بعدها .

تركه المروانيون هناك • وكان فشل احياء حكومة الخلافة فى قرطبة ـ بصرف النظر عن لونها السياسى أو المذهبى ـ ايذانا بعصر الطوائف ، عهد التفتت السياسى وبالتالى الضعف العسكرى والمعنوى الذى عانت منه بلاد المغرب الأقصى أيضا ، فكانت حركة الاحياء المرابطية تحت مظلة الاصلاح الدينى والتجديد الثقافى والروحى ، بمثابة المنقذ من « الضلال » ، سمة العصر حسبما يفهم من عنوان بعض كتب الغزالى ، امام الاسلام المعاصر وقتئذ ـ وفى كل وقت •

وهنا لا بأس فى محاولة تقييم الموقف العام فى الأندلس ، فى ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس الهجرى/١١ م ، على المستويات المادية والمعنوية المتشابكة فى مجريات الحياة اليومية هناك ، بهدف حسبان أوجه الكسب والخسارة ، وان كان من الممكن اعادة الاتزان المختل الى كفة الميزان ليعتدل • فمن الجانب الآخر كانت الجبهة المسيحية ، وهى تقود حرب الاسترداد (الريكونكيستا) ، تتكتل وتقوى ، فى مقابل التفتت والضعف فى الجانب الاسلامى ، حيث كانت الطوائف تخسر المعنويات مع خسران الأرض ، وبالتالى تضل الطريق فى غمرة الدهشة الى عملية الانقاذ ، وهو طريق الوحدة والقوة فتتمادى فى متاهة التقسيم والفرقة ، طريق الأغراض الشخصية من : عارضة وأنانية(٢) •

وفى هذه الظروف التعسة ومع انكماش الحدود الاسلامية متراجعة نحو الجنوب والغرب يوما بعد يوم ، أصبحت أراضى الأندلس الاسلامية وكأنها جميعا جبهات قتال لا صاحب لها (no man's land) ، لا تعرف لها خطوط فاصلة أو حدود • وهكذا ، بينما كان يوسف بن تاشفين يهدن المغرب الأقصى فيضم المدائن ويخضع القبائل ، كان فرناندو الأول (ابن شانجه) يضم مملكة ليون الى قشتالة ، ويفرض هيمنته على بقية الممالك الاسبانية ، من : شمالية مسيحية ، مثل غاليسيا (جليقية) وأراجون ، وجنوبية اسلامية ، تدفع الجزية ، مثل : سرقسطة وطليطلة وبطليوس حتى

---

(٢) أنظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٠ ـ حيث عدد الطوائف ٢٣ دولة ، وأنظر الخريطة ، كذلك ، شكل ١١ ، ص ١١٢ • وقارن زامباور ، الترجمة ص ٨٦ ـ ٩٢ ـ حيث تعداد ٢٥ مملكة ، أولها مالقه وآخرها دانية ، ويضاف اليها ميورقة ذات الدولتين : بنو مجاهد وبنو غانية ثم مملكة مينورقة (رقم ٢٧) حيث دولة ابن الحكم القرشى •

اشبيلية وتابعتها قرطبة ٠ وكانت فرصة مواتية لكنيسة روما انتهزها البابا اسكندر الثانى الذى أصدر فى سنة ١٠٦٣ م/٤٥٥ هـ ، مرسوما بالغفران لكل من يساهم من المسيحيين فى قتال المسلمين بالأندلس ، فكان ذلك حافزا لكثير من الفرسان الفرنسيين على المشاركة فى الصليبية الاسبانية ، بمهاجمة قلاع المسلمين الشمالية فيما وراء الجبال(٣) ٠ بينما كانت جماعات أخرى من الفرسان الاسبان المسيحيين (أو المستعربة) مثل : السيد (El-Cid, Mio Cid) عند المسلمين وهو القنبيطور (Campiador) بمعنى البطل عند الاسبان ، ممن يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع الثمن ، يثقلون بأحمالهم على صدور المسلمين ، فيزيدونهم وهنا عن وهن ، بانهاكهم عسكريا واستنزافهم ماليا(٤) ٠

تهديدات الفونسو السادس :

وهكذا ، وفى الوقت الذى كانت قوات يوسف بن تاشفين تدخل طنجة تمهيدا للعبور الى الجزيرة الخضراء ، كانت الأخبار تترى عبر الزقاق ، عن تلك الغارة الجريئة التى قام بها الفونسو السادس (وريث فرناند الأول) فى سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م ، حيث « شق بلاد الأندلس شقا ، يقف على كل مدينة فيها ٣ (ثلاثة) أيام ، فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ويرتحل الى غيرها »(٥) ٠ وفى تفصيل ذلك يقول ابن أبى زرع ان الملك القشتالى نزل على اشبيلية فأفسد أحوازها وخرب كثيرا من قرى مزارعها وجناتها المعروفة بالشرف ، وكذلك الأمر بالنسبة لشذونة وأحوازها ٠ وهنا تخرج الرواية من نطاق الواقع التاريخى الى رحاب القصص الشعبى ، فتنص على أن الفونسو السادس أدخل قوائم فرسه فى البحر ، وقال « هذا

---

(٣) أنظر جوليان ، (ش ٠ أ) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١١ ٠

(٤) أنظر جوليان (ش ٠ أ) ، ج ٢ ص ١١٢ — حيث اسم السيد : ردريق (دياز دى فيفار : (Diaz De Vivar) وكان له دور سياسى فاصل ، فكان يضع سيفه مرة فى خدمة ملك قشتالة ، ومرات فى خدمة دولة بنى هود بسرقسطة ، وكان فى أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية ، وقارن حسن أحمد محمود قيام المرابطين ، ص ٢٥٠ — حيث النص على بلوغ حرب الاسترداد ذروتها بمطالبة « فرديناند » ليس باخضاع المسلمين فقط ، بل وبجلائهم عن البلاد استنادا الى رواية ابن عذارى ٠

(٥) القرطاس ، ص ١٤٣ — حيث النص على ان جيوش الفونسو السادس كانت لا يحصى عددها ، من : الروم (الأسبان) ، والأفرنج (الفرنسيين) والبشكنس (الباسك) والجلاقة (الغاليسيين) وغيرهم ٠

آخر بلاد الأندلس وطاته (وطئته) »(٦) ، فكأنه يعيد سيرة عقبة بن نافع في اجتياحه الثاني للمغرب (٤٦٢ هـ/٧٠ - ١٠٦٩ م) الذي تحل هنا محله بلاد المسلمين الأندلسية(٧) ٠

ومن الواضح أن الرواية تنصد أن تلك الغارة البعيدة المدى كانت تهدف الى التظاهر بالقوة ارهابا للمسلمين ، اد تنص على أنه عندما عاد الفونسو السادس نحو بلاده ، عرج على سرقسطة وضرب عليها الحصار ، مظهرا العزم على الاستيلاء عليها ، الأمر الذي دفع اميرها المستعين الى الوفاء بما كان قد قصر في دفعه من الضريبة السنوية ، مع ما اقتضاه الحال من الزيادة(٨) ٠

سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م :

وحتمية التدخل المرابطي :

والحقيقة أن سقوط طليطلة بين يدي الفونسو السادس ، في سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، أتى ليكرس عجز نظام الطوائف عن مواجهة الخطر المسيحي في الأندلس ، بل وينذر بحلول النكبة (الفاقة) ، فكان من الطبيعي أن تتوجه أنظار أهل الأندلس ، حكاما ومحكومين رضوا أم لم

---

(٦) القرطاس ، ص ١٤٣ ٠

(٧) عن عقبة ، أنظر ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ٠

(٨) القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث النص على ان الملك القشتالي حلف ألا يرحل عن سرقسطة حتى يدخلها أو يموت دون ذلك ، وأنه أراد أن يقدم فتح سرقسطة على غيرها من بلاد الأندلس ، الأمر الذي يعني - حسبما نرى - أنه أراد ألا تكون شوكة في جنبه عندما يغير على بلاد المسلمين في الجنوب ، وان كان يقف دونه قوة تحصينات سرقسطة واستعدادها لمواجهة الحصار الطويل بموفور المخزون في أهرائها من الطعام ، وهو ما جعلنا نرجح أخذ الملك القشتالي للضريبة التي ربما زيد قدرها بعض الشيء ، رغم مقولة أنه لم يقبل المال من المستعين ، اذ قال له : « المال والبلاد لي » ، التي ربما عبرت عن الاستيلاء على سرقسطة بعد حين (ما بعد ، ص ٢٨٨ ، ٣٩٠) ٠ وانظر جوليان ، الترجمة ج٢ ص١١٣ - النص على ان ملك سرقسطة (ابن هود) كان يلاقي عناء كبيرا في الصمود أمام ضربات ملك الأرغون وكونتات برشلونة ، وقارن ص ١١٢ - حيث النص على أنه لولا الخلافات والضغائن بين السيد القنبيطور وبين الفونسو السادس لتحقق النصر لهما على المسلمين ولاختصر المسيحيون الآجال ، طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة ، وقارن حسن أحمد محمود ، قيام المرابطين ، ص ٢٥١ - حيث القول ، استنادا الى ابن عذاري وأشباخ ، أنه بدأ للناس أن أيام المسلمين في شبه الجزيرة معدودات ، وأنه لولا وفاة فرديناند سنة ١٠٦٥ م/ ٤٥٨ هـ ، وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لزالت دولة المسلمين بالأندلس ٠

يرضوا ، الى ما وراء المضيق ، تنشد من « أمير المسلمين » العون والنجدة – لعل وعسى !

والحقيقة أن تحول طليطلة الاسلامية ، فى هذا الوقت الصعب ، الى حظيرة اسبانيا المسيحية وان كانت له أصداء مدوية أو مكتومة ، من حزنية أو فرحية فى كلا الجانبين ، الا أن التحول نفســـه تم دون ضجة أو كاد ، فكأنه من أحداث الحياة اليومية فى جانب أو آخر • فالحقيقة أن أمير طليطلة القـادر بالله ابن ذى النون الذى يوصف بالترف والسرف(٩) ، كان تابعا متعاونا لالفونسو السادس ، الأمر الذى لا يستريح له عامة أهل المدينة • وهنا فكر الفونسو السادس فى حـــل يرضى ظاهريا كـلا الطرفين : هو والقادر ، وذلك بأن يقايض طليطلة ببلنسة التى كانت للفتيان العامرية قبل أن تدخل فى طاعته ، الأمر الذى وجد فيه ابن ذى النون حـلا لمشكلة العامة المزعجين فى بلده(١٠) • والحقيقـــة أن الفونسو كان يترك بلنسية ليتخلص من عبء حليفه غير المضمون ، المحارب المغامر : السيد الكامبادور (ص ٢٨٥) ، ليكون تركة « غير مرغوب فيها » بالنسبة للقادر ، الأمر الذى سيسفر بعدئذ عن أحداث مأساوية فى شرق الأندلس ، مما تأتى الاشارة اليـه •

---

(٩) بنو ذو النون ، من قبائل البربر الذين كانوا قد دخلوا فى خدمة الدولة العامرية • ناصل الاسم : « زنون » بربرى ، تصحف فى شكل عربى فصار « ذوالنون » • ووصل منهم : عبد الرحمن بن ذى النون الملقب بالمظفر وهو على ولاية شـنتبرية الى ملك طليطلة عندما طلب منه أهلها – المضطربون دائما – المعونة فسير اليها ابنه اسماعيل – الذى أحسن حكمها باستشارة اهل الحل والعقد فيها ، وعلى رأسهم الفقيه أبى بـكر بن الحديدى • وان كان ابن بسام – يعتبره على المستوى العام – : جرثومة النفاق والعصيان ، بسبب رفضه الاعتراف بامامة بنى أمية فى قرطبة •• وبعد اسماعيل خلفه فى الامارة ابنه يحيى (المأمون) فاصبحت طليطلة ملكية وراثية الى أن استولى عليها الفونســو السادس ، على عهد القادر حفيـــد المـأمون (٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م – ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م – أنظـر ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٧٦ ، ابن بســام ، الذخيرة ، جـ ٧ ص ١٤٢ (عن ذى النون وابنه اسماعيل) ، ص ١٤٦ (يحيى : المـأمون بن اسماعيل) ، حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطلول ، ج ٢ ص ٦٣٩ •

(١٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ (والنرجمة ص ٧٦) – حيث النص على انتهـاز الطاغية (الفونس ٦) الفرصة فيها ، بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف ، فحاصر طلبطلة . وبها القادر بن يحيى بن ذى النون حتى نال منهم الجهد ، وتسلمها منه صـلحا سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م على أن يملكه بلنسـية ، فبعث معه عسكرا من النصرانية فدخل بلنسـية ، وتملكها على حين مهلك صاحبها أبى بـكر بن العزيز قبل قليل من حصار طليطلة (بين يدى حصار طليطلة) •

والحقيقة أن ضياع بلنسية من الفتيان العامريين (الصقالبة) لا يرجع الى اعتداءات أمراء قشتالة وليون أو أراجون فقط ، على شرق الأندلس(١١) ، وكذلك الأمر بالنسبة لطليطلة ، بل والى النزاعات الداخلية مع بنى هود أصحاب سرقسطة وغيرهم ، ممن كانوا يلجأون الى ملوك النصارى وأمرائهم عندما يطلب هؤلاء منهم المعونة أو عندما يطلبون هم المساعدة منهم ، حسب مقتضى الأحوال(١٢) . وبذلك لا تقع مسئولية سقوط بلنسية أو طليطلة على صاحبيهما فقط ، اذ المسئولية تضامنية بين زعماء الطوائف جميعا ، وان أمكن أن يفرد لصاحبى الثغر الأعلى (ابن هود) والثغر الأوسط (ابن ذى النون) نصيب أكبر من المسئولية ، اذ كان لكل منهما — بصفتهما حراس الحدود — تحالفات مع المسيحيين ضد بعضهم والبعض ، الأمر الذى كان ينذر بضياع سرقسطة ، عاصمة الثغر الأعلى ومحط أنظار ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة ، كما رأينا(١٣) .

ما بين الوعى والغيبوبة :

وبطبيعة الحال لم يكن يخفى على أمراء الطوائف ما يحدق ببلاد المسلمين جميعا ، من الخطر الذى كان يحدق بكل واحد منهم على حدة ، وكثيرا ما كانوا يثوبون الى رشدهم أو ينوءون بشدة وخز ضميرهم ، فيراجعون أنفسهم ، ويرجعون الى التآزر فيما بينهم للوقوف أمام عدوهم ، ولكنا

---

(١١) عن تبدل أحوال بلنسية ، أنظر زامباور ، الأسر الحاكمة ، الترجمة ، ص ٨٩ — حيث الاشارة الى ملك العامريين لها سنة ٤١٢ هـ / ٢ — ١٠٢١ م وفتح السيد القمبياطور — لها سنة ٤٨٩ هـ / ٦ — ١٠٩٥ م وفتحها على يد المرابطين سنة ٤٩٥ هـ / ٢ — ١١٠١ م . وأنظر أيضا حتى (فيليب) ، تاريخ العرب المطلول ، ج ٢ ص ٦٤٨ — حيث كان السيد القمبياطور (المبارز) فى خدمة ألفونسو السادس ، ملك ليون وقشتالة ، الذى أقصاه عن بلاده سنة ١٠٨١ م / ٤٧٤ هـ ، وأنه أحرز لقب السيا(El Cid, Mio cid) وهو فى خدمة بنى هود ملوك سرقسطة ، وأن أشهر أعماله هو اقتحام بلنسية سنة ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ .

(١٢) عن الصراع بين بنى هود (بسبب استيلائهم على وادى الحجارة) وبين بنى ذنون أصحاب طليطلة الذين لجأوا آخر الأمر الى النصارى — أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٧ والصفحات التالية عن غير ذلك .

(١٣) أنظر ما سبق ، ص ٢٨٥ . ولا بأس من الاشارة الى ما تذكره النصوص من قبل ذلك ، عن دخول الكونتات (القومسان (Comes) أبنا شانجه الى بلاد ابن هود ، ظاهرا لحساب ابن ذنون (المأمون) ، وعساكر ابن هود يتفرجون عليهم من وراء الأسواء ، الى ان ينضج محصول القمح فيحصده القشتاليون ، الأمر الذى استغرق مدة شهرين « مما قوى أطماع العدو فيهم ، فامتدت آماله الى التغلب على كل بلاد المسلمين » — حسبما ينص ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٧٨ .

لا نعرف ان كان ذلك نوعا من خداع النفس ، اذ لا يظهر بينهم من يجعل التعاضد فيما بينهم أو التوحد مطلبا فى حد ذاته ، وهو الهدف الذى كان ينادى به أحيانا بعض رجال العلم والسياسة ممن لا يخشون فى الدعوة الى الصالح العام لومة لائم ، مثل ابن حزم القرطبى ، الذى عاش الفترة الأولى من عصر الطوائف(١٤) ، فكأن محاولة اعادة الوحدة الى الجماعة التى فتتتها الفتنة قد أصبحت هدفا صعب المنال ، ان لم نقل من المحرمات(١٥) ٠

فيحيى بن ذى النون عندما حاول التصالح مع المعتضد بن عباد كان هذا الأخير مشغولا بحرب ابن الأفطس صاحب بطليوس ٠ وعندما تم ذلك التقارب أدى الى زيادة تعقيد الموقف ، اذ وثق ابن هود علاقاته بنصارى الشمال وعلى رأسهم فرناندو (فرزلند) الذى سينجح فى توحيد غاليسيا وليون مع قشتالة ، وبالغ فى اغرائهم بالأموال والهدايا ، تحريضا لهم ضد ابن ذى النون ٠ وهكذا « خرج فرديناند الى ثغر طليطلة ، فأفنى حماته ورجاله وعاث فى بلادهم » ٠ وانتهى تكرار تلك الغارات « بفساد بلاد الثغر ، وذهاب أموال أهل طليطلة ، واحتماء أهل الريف والضياع حولها بأسوار المدينة » التى انكشفت ، كما نرى فكأنها تعرت من ثيابها أمام

---

(١٤) أنظر ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٤٤ — حيث النص على قول ابن حزم : واجتمع عندنا فى صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يخطب بالخلافة بالموضع الذى هو فيه ، وذلك فضيحة لم ير مثلها ، دلت على الأدبار المؤبد ٠ وهم : خلف الحصرى بأشبيلية ، ومحمد بن القاسم الحسنى بالجزيرة ، ومحمد بن أدريس بمالقة ، وأدريس بن يحيى بسبتة ، هذا ، ولو ان ابن حبان — حسبما ينقل عنه ابن بسام فى الذخيرة (ق ١ م ١) — وهو يشير الى ان عنف ابن حزم فى عرضه لأرائه انتهى بتمالؤ الفقهاء على بغضه فردوا قوله ، واجتمعوا على تضليله وشنعوا عليه ، وحذروا سلاينهم من فتننه ٠٠٠ ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم ٠٠ وهو فى ذلك غير مرتدع ولا راجع الى ما أرادوا (ص ١٦٨) حتى انتهى الأمر باحراق كتبه ٠ ولا بأس أن يكون من أسباب ذلك « تشيعه لأمراء بنى أمية ، ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس ، وباعتقاده لصحة امامتهم ٠٠٠ (ص ١٦٩) ٠

(١٥) وهنا لا بأس فى عرض تلخيص المقرى لهذا الموقف أذ يقول (نفح الطيب ، بيروت ١٩٤٩ ، ج ١ ص ١٩٩) عن ملوك الطوائف انهم : « صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ، ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والأدباء ، ويحب أن يشهد عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة ٠٠ وعندما وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن أيام الجماعة ، وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ، ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد ، وتمكن العدو منهم بالتفرقة وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع ٠٠٠ الخ » ٠

المهاجمين[١٦] ٠

واضطر أهل طليطلة الى مراسلة ابن هود يطلبون الصلح ، بينما كان أميرهم يحيى بن ذى النون يحاول بدوره التحالف مع غارسيه أخى فرديناند ومنافسه فى الامارة على غاليسيا ٠ فكأن بلاد الثغر جميعا من أعلى وأوسط قد دخلت تحت حماية دويلات حرب الاسترداد فى الشـمـال ، وان كان بشكل تبادلى ، بمعنى أن كلا من ابن ذى النون ، وابن هود الخصمين متحالف مع أمير مسيحى معاد لحليف أخيه المسيحى الآخر ٠ ولقد اعتبر ابن حزم هذا الأمر كرامة أكرم بها الله المســلمين وقتئذ ، والا لمـا صـمدوا أمام الاخوة الأعداء لو اتحدوا[١٧] ٠

ولكن الذى أضعف موقف يحيى بن ذى النون أكثر ، هــو أن أخاه عبد الرحمن (ابن اسماعيل بن ذى النون) كان ينازعه سلطانه وينضم الى جانب الخصوم فكان يدلهم على عورات بلد أخيه ، مما أدى الى سقوط كثير من القلاع المحيطة « بمدينة سالم » بين أيدى الأعداء ٠ وأدى هذا الأمر الى أن حرض يحيى حليفه غارسيه بالمــال والذخائر ، على تخريب بلاد ابن هود فيما بين مدينتى تطيلة ووشقة ، وبذلك تم للمسيحيين فتح قلبرة من ثغر تطيلة سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٥ م ٠ فكان ذلك يحدث دون محاولة من ابن هود للدفاع عن بلاده ومصالح رعيته ، مكتفيا بالاعتصام بأسوار حصـــونه ، تاركا الأراضى الزراعية نهبـا للعـــدو ٠ وبدون الأرض الزراعية المحيطة ، ما كان يمكن للقلاع أن تعيش[١٨] ٠

---

(١٦) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٧٨ – حيث دعت الضرورة ابن ذنون الى مخالفة المعتضد بن عباد ، ص ٢٧٩ – حيث مظاهرة سليمان بن هود النصارى ، من : فرديناند (فرذلند) بن غارسية ، وردمير بن شانجة بن غارسية ، وهم الاخوة الذين كان بينهم من التنافس والتباعد والعداوة والحرب أشد ما بين آبقين (ص ٢٧٩) ٠ ومع ذلك فقد « صب » الله على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاءة له ، فلا يكاد أحد منهم يلفى نصرانيا فى قرار من الأرض الا ويوليه الدبر غير مستحيين من الله سبحانه من الفرار أمامه ٠٠٠ (ص٢٨٠) ٠

(١٧) أنظر ابن بسـام ، الذخيرة ، ق ١ م ٩ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ – حيث النص : « وكان من أعظم ما حبا الله به الاسلام يومئذ عندما بعث فتنتهم (النصارى) ومحدث فرقتهم ، ونشتت كلمتهم ، والفاقرة بين من أنظر منهم الشتات والعداوة حتى صاروا أسوة المسلمين حذو النعل بالنعل فى افتراق الكلمة وزوال أمر المملكة ، فان الفتنة بأفقنا جاءت يومئذ من المسلمين وزعماء الطاغية حضور وفيهم عدو الله شنجة ابن فرذلند ٠٠٠ الخ » ٠

(١٨) أنظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٨٩ ٠

وعندئذ يتلخص الموقف بين ملوك الطـوائف المسلمين على الحـدود الشمالية وبين جيرانهم ملوك أسـبانيا المسيحية ، فى أن الاسبان كانوا يمثلون طبقة عسكرية خشنة من أهل الجبال ، صناعتهم الحرب ، كالفاتحين العرب الأوائل . فهم يعيشـون اما على غزو الأراضى الاسـلامية الخصبة ونهبها ، واما على ما يدفعه ملوك الطوائف من الاتاوات السنوية لهم . بينما كان المسلمون فى الجانب الآخر ، مثلما كان أهل البلاد من الاسـبان وقت الفتح ، اما زراع أو صناع يقضون وقتهم فى العمـل من أجل الرزق ، ثم انهم يهبـون للدفاع عن بلادهم اذا تطلب الأمر ، الى جانب قوات أمرائهم الذين كانوا قد فقدوا كثيرا من خشونتهم العسكرية بانصرافهم الى اللهـو واللعب منذ مدة ، واستكانوا الى دفع الجزية(١٩) .

وهكذا بينما كان يحيى بن ذى النون يحاول الدفاع عن أطراف مملكته فى مدينة سالم خرج فرديناند ، حليف ابن هود ، وبصحبته ابن عم يحيى ومنافسه ، نحو بلاد طليطلة ، ففرت أمامه جموع أهلهـا نحو المدينـة التى غصت بهم فاضطربت أحوالهم(٢٠) . وعندما راسله أهل طليطلة من أجـل الصلح ، اشتط فى شروطه وتعسف . وعندما هددوه بالاستعانة بالمرابطين (البربر) أفهمهم أنهم لا يستطيعون ذلك بسبب ما كان بينهم من العداء . وأخيرا كشف لهم عن أهدافه النهائية وهى : استرداد البلاد منهم ، وعودتهم الى بلادهم الأصلية فيمـا وراء العدوة . والمهم أن ذلك حدث قبـل ٤٠ (أربعين) سنة من سقوط طليطلة (أى سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م) كانت الأحوال بعدها قد ازدادت سوءا . فعندما توفى سليمان بن هود ، وتنفس يحيى بن ذى النون الصعداء ، كان كل همه الطمع فى أملاك بنى الأفطس فى بطليوس ، الأمر الذى أدى الى سوء العلاقة بينه وبين المعتمد بن عباد ، الذى ضم قرطبة الى مملكته (اشبيلية) بناء على طلب أهل قرطبة (أهـل

---

(١٩) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٥٠ ـ حيث التدليل على اختلاط الأمور مع قيام عصر الطوائف ـ بعد قصة سخرية ابن حزم من وجود ٤ خلفاء ، دفعة واحدة على أيامه (ص ٢٨٩ وهـ ١٤) برواية تنسب الى أبى الوليد بن جهور ، صاحب قرطبة انه قال : وردت على من الكتب فى يوم واحد : كتاب من ابن صمادح صاحب المرية ، يطالب جارية عوادة ، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة ، وكتاب من لقوط (سكوت : سواجات) صاحب سبتة (مولى يحيى بن على بن حمود) يطلب قارئا يقرأ القرآن ، ويظهر أبو الوليد عجبه من ذلك ويقول (بلسان الواعظ) : بجاهل يطلب قارئا ... وعلماء يطلبون الأباطيل .

(٢٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٦ .

الجماعة) ، بعد ما تطاول ابن ذي النون عليهم وحاول أخذ مدينتهم[٢١] .

أما عن آخر بني ذى النون وهو القادر بالله (حفيد المأمون : يحيى ابن اسماعيل بن عبد الرحمن بن زنون) فهـو ناعم لين الجانب . يصفه ابن بسام بأنه أجبن من قبره : ان حزم لم يعزم وان سد لم يلحم[٢٢] . وفى مقابل هذه الشخصية الضعيفة الجسم ، الكثيرة المرض ، كان الطاغية أذفنش (الفونس السادس) يظهر لوفود الطوائف ، ثائر الرأس ، كريه الوجه ، خبيث النفس ، وسخ الثياب ، درن الأظفار[٢٣] . وهكذا لم يقتنع أهل طليطلة بملكهم المترف ، لولا فقيههم ابن الحـديدي الذى كان ما يزال يترأس أهل الحل والعقد . والحقيقة ان السبب المباشر فى ضيـاع طليطلة هو ما قام به القادر بالله من الحماقة عندما عول على أن يقبض على مقـاليد الأمور بكلتا يديه ، فتخلص من أبى بكر بن الحديدى بطريقة مأساوية ، اذ قتل زعيم أهل طليطلة ، وهو يتعلق بأذياله مستجيرا به دون جدوى .

وهنا انحلت أمور طليطلة ، وكانت قيامة أهلها الذين تآمروا مـع المتوكل ابن الأفطس سـنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ م ، ممـا أدى الى فرار ابن ذى النون من طليطلة نحو كونكة (Cuenca) على عجل ، وخروج زوجته العامرية وابنته من المدينة راجلتين . وكان من الطبيعى أن يؤدى ذلك الى تدخل ألفونسو السادس ، حامى ابن ذى النون ، اعتبارا من سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١ م الى أن انتهت المطاولة بينه وبين الطليطليين الى الاستيلاء على المدينة

---

(٢١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - حيث دوام الفتنة بين ابن هود وابن ذى النون من سنة ٤٣٥ هـ /١٠٤٦ م الى ٤٣٨ هـ / ١٠٥٩ م - وحيث طلب صاحب قرمونة (من بنى برزال) المعونة من ابن ذى النون ضد ابن عبـاد الذى كان قايضه عنها (قرمونة) بحصن المدور . وكيف ان ابن عبـاد طلب من ابن ذى النون الموافقة على أخذ ، قرمونة مع الايحاء له بأخذ قرطبة فى نظير ذلك ، ولكنه غدر به ولم يوف له بشىء .

(٢٢) الذخيرة ، ج ٧ ص ١٤٢ - هذا ولا بأس من الاشارة الى ان ابن بسام يعتبر جده : اسـماعيل (ناصر الدولة) : رئيس الخلاف ورأس الانحراف ، وأنه كان أول الثوار المفارقة للجماعة وانه صار جرثومة النفاق ، وأول من استن سـنة العصيان والنفاق من حيث : رفض طاعة بنى أمية اذ كان يقول : « أحقهم بالملك من استقل به والله ما أولى غير نفسى » .

(٢٣) ابن بسـام ، الذخيرة ، ج ٧ ق ٤ م ٢ ص ١٦٦ ، وقارن ق ١ م ١ ، ص ١٨٤ - حيث وصف شانجه بن غرسية ، ملك قشتالة ، الذى رآه الكاتب أبو أمية بباب تطيلة يلبس ثيابا من ثياب المسلمين ، مع رجوليته وكمال أدواته ، فلا يعدله الا صهره وسميه : شانجه ابن غرسية صاحب البشكنش .

فى سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، بعد أن أرهقهم بالضرائب ، وروعهم بالترهيب. وكان الايذان بسقوط المدينة عندما دخل المدينة المصورة العجيبة ، التى كان المأمون ، جده ، قد جلب اليها كل حسن ، فاتخذ عروشها مرابط لأفراسه وايواناتها ملاعب لأراذلته وأرجافه(٢٤) .

واذا كانت الرواية تلقى بكل التبعية على أمير طليطلة المترف المسرف ، الذى كانت تميد الأرض تحت قدميه ، وهو مع ذلك يمسك الأصطرلاب بيده ليرى فيه أى وقت يرحل ، وعلى أى شيء يعول ، وأى سبيل يتمثل ، والناس من نصارى ومسلمين يضحكون من فعله ويتعجبون من جهله(٢٥) . ولكن هذا لا يعنى كما قلنا ابتداء ، أن يلقى بالمسئولية جميعا على كتفى الرجل الضعيف ، فالخطيئة هى نتاج عصر بأكمله ، والمسئولية تضامنية يشارك فيها كل ملوك الطوائف ، بل كل أفراد العصر ، لا يتنصل من تحملها أحد ، كبر أم صغر - فهذه أمثولة التاريخ ، وهى أمثولة أيامنا هذه .

التدخل المرابطى فى الأندلس :

عملية الانقاذ المرابطية ، ما بين الأمنية والواقع :

كان سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م) اذن ، بمثابة نذير لكل مسلم على كل من ضفتى العدوة (المجاز) وليس بالنسبة لأهل الأندلس وملوك الطوائف فقط ، بأن أراضى المسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا أصبحت فى مهب الريح ، وأن عملية الانقاذ أصبحت أكبر من أن تقع على كاهل الأندلسيين وحدهم ، من العرب والبربر والمولدين ، ممن حافظوا على نقائهم

---

(٢٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٥٢ - ولا بأس من الاشارة هنا الى ما نقرله الرواية عما أنفقه المأمون فى بنيان مجلسه الفاخر المعروف « بالمكرم » من الكنوز التى جمعها والده اسماعيل ، وما كان يتحمله فى سبيل ذلك من مضايقات صانعه الفنان المتعجرف دون أن يبالى بما كانت تتعرض له بلاد ابن الأفطس من غارات فريناند المدمرة . وفى ذلك كان وزيره يقول : انه لم يكن يدرى من أى الثلاثة يعجب ، من : ابن ذى النون أم من نفسه (أى الوزير) لخدمته مثله ، أم من جرأة الصانع على ابن ذى النون (الذخيرة ، ق ٤ م ١ ، المجلد ٧ ، ص ١٢٩ - ١٤٧ . وعن اختلاف الرواة فى تحديد تاريخ سقوط طليطلة وغزوة الزلاقة أنظر : حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨١ - حيث الاشارة الى ان آخر النقود التى ضربت فى طليطلة الاسلامية كانت تحمل تاريخ ٤٧٨ هـ .

(٢٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٧ ص ١٦٦ .

العرقى أو ممن اكتسبوا الطابع المحلى فأصبحوا أندلسيين أولا وقبل كل شىء ـ عن قصد أو عن غير قصد • وهذا هو السند الذى كان يتكىء عليه ملوك الطوائف ، على ألوانهم العرقية ، فى تمسكهم بالاستقلال دونما نظر الى تميز العروبة أو التمسك بالقرشية • وهذا الاتجاه الوطنى الأندلسى الذى استفحل كرد فعل لمجىء دفعات المغاربة الجدد من الصحراويين المرابطين ، ومن بعدهم الجبليين الموحدين حتى الوطنية الأندلسية فى العصر الموحدى ، هو ظاهرة لا تخفى على أحد بظهور قادة محليين لحما ودما ، مثل ابن همشك أو ابن مردنيش ، فكأن حركاتهم لمن البشائر المبكرة لوطنية العصور الحديثة •

طلب النجدة من يوسف بن تاشفين ، ما بين القبول والرفض :

وهكذا ، فرغم الحاجة الملحة الى نجدة المرابطين التى كانت تمليها الأخوة فى الدين والمصالح المشتركة بين الأندلسيين ، من عرب وبربر وموالى ، فان مصالح الطوائف الخاصة كانت تمنع من ذلك الى حد كبير • وهذا ما عرفه الفونسو عندما هدده ، أهل طليطلة بالبربر (المرابطين) فأكد لهم أن الفرقة بين الطائفتين لا تسمح بذلك (ما سبق ، ص ٢٩١) • وهذه الفكرة هى التى تعبر عنها رواية ان خلكان التى تقول ان يوسف بن تاشفين عندما تاق الى العبور الى جزيرة الأندلس (دون دعوة) ، فأنشأ الشوانى والمراكب للعبور ، كره ملوك الأندلس أن يصبحوا بين عدوين : الفرنج شمالا ، والملثمين جنوبا • هذا ، فى الوقت الذى كانوا يخوفون الفرنج بيوسف بين تاشفين(٢٦) ، فكأن الاستعانة بالمرابطين كانت مجرد تمويه ليس الا •

والذى يظهر فى رواية ابن الأثير هو أن ملك الفرنج لطليطلة أشاع الخوف (بين ملوك الطوائف) من غلبة النصارى على كل البلاد ، وأنهم عندما تطلعوا الى النجدة من البر الافريقى ، دار بخلوهم الاستعانة أولا بعرب افريقية (من هلال وسليم) ولكنهم خافوا منهم(٢٧) بسبب فسادهم الذى كان قد ذاع على ألسنة شعراء القيروان فى الدولة الزيرية ، فى كل من صقلية والأندلس (ج ٣ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨) •

---

(٢٦) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٢ •

(٢٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥١ •

والحقيقة أن التفكير في الاستعانة بالعرب أولا : يمكن أن ينسب الى آل عباد باشبيلية من حيث انهم من أرومة عربية عريقة(٢٨) ٠ وعلى هـــذا الأساس تصبح مقولة أن المعتمد بن عباد كان أول من فكر فى الاستعانة بمسلمى المغرب مقبولة من حيث المبدأ ، الأمر الذى تؤيده فـكرة أنه كان أولى ملوك الطوائف وأحقهم فى استيعاب فكرة الوحدة الأندلسية المفتقدة أو الاتحاد ، وهى التى ترمز اليها مدينة أهل الجماعة قرطبة العتيدة ، التى كانت قد انضمت الى أملاك أشبيلية ، بعد قرمونة (ما سبق،ص٢٩١-٢٩٢) ٠ هذا ، واذا كانت مقولة المعتمد بن عباد : أن رعى الجمال فى صحراء الملثمين أحب اليه من رعى الخنازير فى جبال غاليسيا وقشتالة(٢٩) ، تعنى الشجاعة المعنوية والتضحية من جانب الأندلسى : سليل الرفاهية والعلم ، فانهـــا تعنى فى ذات الوقت منتهى اليأس من فكرة الخلاص كنتيجة محتملة لعملية الانقاذ المرابطية(٢٩ م) ٠ والمهم أن سفير المعتمد بن عبـاد الى يوسف بن تاشفين فيما وراء العدوة ، كان قاضى قرطبـــة : ابن أدهم (عبد الله بن محمد)(٣٠) ، سليل قضاة الجماعة (فى قرطبة عاصمة الخلافة) - فكأنه رمز الوحدة فى عهد الطوائف والفتنة(٣١) ٠

---

(٢٨) ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٩٣ ٠

(٢٩) وفيات الأعيان ، ملحق ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٤ - حيث ابتداء النص بأن المعتمد عرف ان الفرنج والملثمين ضدان له ، ولكن الملثمين أهون ٠

(٢٩ م) أنظر للمؤلف ، عملية انقاذ المرابطية للأندلس ، ندوة الأندلس بكلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٩٣ ٠

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٩ ٠

(٣١) وقارن الروض المعطار ، عن الزلاقة (ص ٨٣ وما بعدها) ، وملحق ، البيـان ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها - حيث أستعانة المعتمد بيوسف بسبب سوء العلاقة مع الفونسو الذى اشتط فى مطالبه المـالية والاقليمبة الى جانب ما تقوله القصة الشعبية من طلب السـماح لزوجته بان تلد فى المسـجد الجامع فى موضع الكنيسة القديمة ، الأمر الذى أدى الى ثورة ابن عبـاد الذى أقدم على قتل سفير الفونسو اليهودى (الذى قد يبرر ظهور أسـطورة الولادة) مما جعل الفونسو يهدد بغزو قرطبة ، وهو السبب المباشر للاسـتعانة بابن تاشـفين ٠ وكان مما جـذر به من ملوك الطوائف ابن عبـاد من يوسف قولهم له : « السيفان لا يجتمعان فى غمد واحد » ٠ وكانت السفارة التى كونها ابن عباد للقاء يوسف تتـكون من قاضى بطليوس وقاضى غرناطة ويرأسـهما ابن أدهم ، قاضى الجمـاعة بقرطبة ، وهؤلاء لوعـظ يوسف وترغيبه فى الجهـاد ، وأضاف اليهم الوزير ابن زيدون ، فنيا لابرام العقود الرسمية (السلطانية) ٠ مع الاشارة الى الوفود الشعبية التى أتت الى يوسف من ثغور الأندلس مستعطفين ، باكين ، مستنجدين ٠ وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٥٨ وما بعدها - حيث تسلط الفونسو بعد أخذه طليطلة ، ومطالبته بأخذ الحصون فلا يبقى لابن عباد الا السهل ٠ اما عن سفير ألفونس فكان وزيره اليهودى شليب ، ومعه ٥٠٠ فارس ، =

ويتضح من هذا العرض أن ملوك الطوائف بالأندلس كان لهم موقفهم الحذر من دعوة المرابطين الى مساعدتهم فى الحد من خطورة حرب الاسترداد المسيحية ، وأنهم لم يفضلوا « رعى الجمال على رعى الخنازير » بمعنى الخضوع للاخوة الأعداء من البربر المرابطين الا تحت ضغط العامة من أهل الأندلس ٠ وهؤلاء كانوا يستجيبون لتوجيه قيادتهم الروحية الممثلة فى العلماء ورجال الدين ، الى جانب أهل الثقافة والأدب من الشعراء والزجالين والقصاصين ٠ أما عن المرابطين فى المغرب فكان تمددهم نحو الأندلس أمرا طبيعيا ٠ حسبما كانت تمليه طبيعة الأحوال هناك ٠

فتح سبتة وعبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس :

٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م - ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م :

سبتة :

اذا كان الشائع لدى مؤرخى الدولة المرابطية أن عبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) يرتبط بشكل عام بفتحه لمدينة سبتة (قلب العدوة والمجاز) التى يرتبط فتحها بدورها المتعلق بسقوط طليطلة على يدى الفونسو السادس (٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م) فان تداعى الأحداث يجعل فتح سبتة تاليا لفتح طنجة (٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م) الذى واكب غارة ألفونسو السادس الكبرى حتى طريقة (ما سبق ، ص ٢٨٥) ٠ وهكذا

= وكان يطالب بـ ١٢ ألف دينار ، فقرقهم المعتمد وقتلهم ، كما قتل اليهودى ضربا بالنعال المسمرة حتى خرجت عيناه ٠ وعن فقهاء قرطبة الذين كانوا يخشون ضياع بقية مدن الأندلس ، فانهم ساروا الى القاضى ابن ادهم يعلمونه بما هم فيه من الذلة ٠٠ وطلبوا منه الكتابة الى عرب أفريقية ليصلوا اليهم على أن يقاسموهم فى أموالهم ، والخروج معهم مجاهدين ٠ ولكنه عندما أعرب عن خوفه من أن يخربوا الأندلس ، واقترح مكاتبة المرابطين وافقوا على أن يأتى يوسف بن تاسفين اليهم ٠

ووافق المعتمد على مقترحاتهم تلك ٠ وتم ارسال القاضى اليه مع الكاتب ابن القصيرة ٠ وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ - حيث كتب أمراء الأندلس ورؤساؤها الى يوسف يستنصرونه ، ويطلبون منه الجواز الى الأندلس ، مع اضافة ان المعتمد عبر بنفسه الى يوسف الذى طلب منه العوده للاستعداد ، وانه يأتى فى اثره ٠ وأنظر ص ١٥٩ - قصة مسير المعتمد الى يوسف فى شكل أسطورة ، يفاجا فيها يوسف حتى يظن ان ابن عباد أتى اليه بعساكره أو أساطيله ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة ، ص ٧٧ - حيث كان حصار سرقسطة سبب مخاطبة المعتمد ليوسف لينجز وعده ، وصريخ الاسلام بالعدوة ٠ كما كاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة - وهو تلخيص مستوحى من رواية القرطاس المتميزة عن المرابطين ٠

تصبح رواية ابن أبى زرع التى تقدم لنا التاريخ المقبول لفتح المرابطين لسبتة ، وهو : شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ/يوليه ١٠٨٤ م ، فى حمية المفاوضات التى كانت دائرة بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف من ناحية ، وبين وفود الأندلس الشعبية وبينه من ناحية أخرى ، مقبولة . وكان ذلك الفتح على يدى ولده المعز الذى حاصرها بجيش عظيم حتى استسلمت . ووصل كتاب الفتح من المعز الى والده يوسف وهو مقيم بمدينة فاس ، « ينظر فى أمر الجهاد ويستنفر له قبائل العرب » ، وان كانت الرواية تستطرد قائلة « ففرح (يوسف) ، وخرج من حينه نحو سبتة ليجوز منها الى الأندلس » ، فكأنها تربط بشكل تلقائى فتح سبتة (٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م) بالجواز الى الأندلس (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) — الأمر الذى يغفر لابن أبى زرع[٣٢] . ويرجح صحة فتح المرابطين لسبتة قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م) ، أن وفد المفاوضين الأندلسيين الذى أسرع نحو العدوة بعد سقوط عاصمة الثغر الأوسط ، وجد ابن تاشفين مقيما بسبتة[٣٣] .

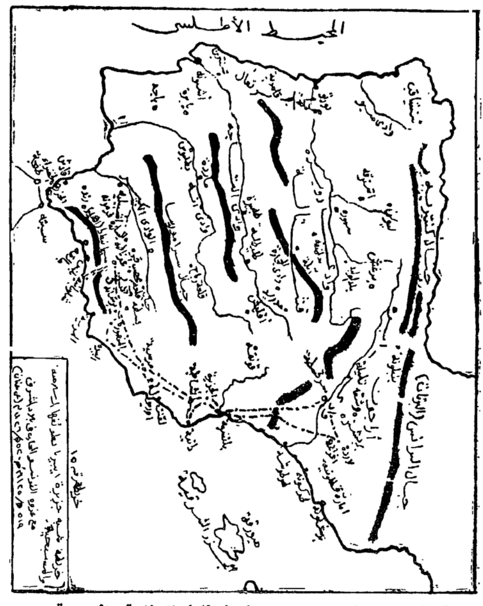
وهكذا عندما أتت الى يوسف بن تاشفين وفود ثغور الأندلس مستعطفين باكين اثر سقوط طليطلة (ص ٢٨٦) ، وقرر يوسف الاستجابة لندائهم كانت سبتة فى حوزته منذ أوائل سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م . وكان فتح المدينة قد تم بصفة مشروعة ، بناء على فتوى الفقهاء بجواز قتال صاحبها (ابن لكوت — ص ٢١٦) بناء على امتناعه عن فتح المجاز أمام المجاهدين . وبذلك تم اقتحام سبتة من قبل الجيش المرابطى الذى كان على أهبة الاستعداد للعبور ، وذلك بمساعدة الأسطول وبمعونة محسوبة من أسطول ابن عباد[٣٤] ، بعد أن تم اجماع الأندلسيين على طلب المعونة ، منذ اختراق

---

(٣٢) أنظر القرطاس ، ص ١٤٤ — حيث وضع فتح طليطلة سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فكأنه فتح سبتة ، وحيث عزم ألفونسو السادس على دخول سرقسطة بعد أن ملك طليطلة . والصحيح انه كان بعد الغارة الكبرى على طريفة (ما سبق ص ٢٨٥) .

(٣٣) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٣٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٢ — حيث الاشارة الى عبور يوسف مع من طلبه من العساكر من مراكش واقبالها ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٥٩ — حيث الأخذ عما نقله ، أهل التاريخ عن القاضى ابن القصيرة ، وفيه أن يوسف كان ينظر فى سبتة مجىء بقية العساكر ، وأنه دخل فى آخر فوج منها . الى جانب تلك الرواية التى تقول بأنه (يوسف) فوجىء بدخول ابن عباد عليه بسبتة حتى ظن فزعا انه (ابن عباد) جاء بعساكره ، مما يعنى أنه كان قد جاء مع مراكبه معونة ليوسف ، مما سبقت الاشارة اليه (ص٢٩٦وهـ٣٠) .



خريطة رقم ١٥ ـ شبه جزيرة ييبريا بطوائفها الاسلامية والمسيحية ـ مع غزو الفونسو المحارب في بلاد الشرق (٥١٩ ـ ٥٢٠ هـ/١١٢٥ـ١١٢٦ م)

طريفـه ـ بحسـن نيـة من كـلا الطرفين : المرابطى والأندلسى ، أم بغير حسن نية ٠

العبــور :

ربيع الأول ٤٧٩ هـ/يونيه ١٠٨٦ م :

فى هذه الظروف المشـوشة بالنسـبة للأندلسيين على الأقل ، وفى يوم الخميس ١٥ ربيـع الأول ٤٧٩ هـ/٣٠ يونيه ١٠٨٦ م كان عبـور طلائع القوات المرابطية من ساحل سـبتة دون عوائق ، لـكى تنزل فى الجزيرة الخضراء ، حيث لقيت استقبالا حارا من أهلهـا الذين قدموا لهم الأقوات والضيافات(٣٥) ٠ وهنا يمكن التفكير فى أن العبور كان عبئا على أهـل العدوة الأندلسـية ، وهو الأمر المقبول ، اضـافة الى ما كانوا يقدمونه من المعونة لضعفاء المتطوعين والمساعدة ٠ هذا ، ولو أن أهـل المنطقة كانوا يستفيدون أيضا من وجود هذا العسكر الكثيف ، من حيث اقامة الأسواق لهم ، وفيها يعرضون عليهم ما كانوا يحتاجون اليه مما عندهم من السلع : استهلاكية كانت أم حربيـة معمرة(٣٦) ، الأمر الذى كان يؤدى الى رواج التجارة الداخلية ويساعد بالتالى على زيادة الانتاج ٠

ومن الجزيرة الخضراء ، واصلت القوات المرابطية مسيرتها شـمالا ، جيشا وراء جيش ، وقبيلا بعد قبيل(٣٧) ٠ وكان عبور الجيوش المرابطيـة

---

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ٣٣ ٠ وهنـا لا بأس من الاشارة الى ان رواية القرطاس (ص ١٤٥) تشير الى ان ابن عبـاد وجميع أمراء الأندلس ورؤسائها كانوا فى استقبال يوسف بن تاشفين ، وهو الأمر المستبعد اذ كان يكفى أن يكون ابن المعتمد (والى الجزيرة الخضراء) فى استقبال يوسف بينما يكون الأمراء الآخر مشغولين باعداد الجيوش وتجهيز المؤن اللازمة للحشود ٠ وشبيه بذلك ما تشير اليه رواية الحلل الموشية (ص ٤٩) من نزاع قام بين يوسف وابن عبـاد بشأن تملك الجزيرة الخضراء (مجاز العدوة الأندلسية) قياسا على تملك المرابطين سـبتة ، وهو الأمر غير المناسب فى هذا الوقت (وأنظر يوسف حوالة ، بنو عبـاد ، ص ٢٨٦ وما بعدها) ٠

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ص ١٣٣ ـ حيث النص على خروج أهل الجزيرة الخضراء ، واقامة السوق فى السـماط ، مع الاذن للغزاة فى دخول البلد حيث امتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين الذين تواصى أهل المدينة بهم جدا ٠

(٣٧) ابن عذارى ، (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ . وقارن القرطاس ، ص ١٤٤ ـ حيث النص على انه لحقت بيوسف فى سـبتة العساكر والجنود ، وقدمت عليه الوفود ، وأتاه من بلاد الصحراء والقبلة والزاب ، والقبائل والحشود فشرع فى تجهيز الجيوش الى الأندلس الى=

الكثيفة فى الأراضى الاسلامية بالأندلس يمثل عبئا اضافيا على كل حال ، بالنسبة لأهل البلاد الذين كانوا يقاسون من اجتياحات فرسان النصارى وجولاتهم الحربية من ردعية وتخريبية • فبينما كان ابن عباد يبعث ابنه الى لقاء يوسف ، كان عمار البلاد يجلبون الأقوات والضيافات التى كان ينوء بحملها أهل البلاد ، وان لم يمنع ذلك من سرور المرابطين بها(٣٨) •

التحالف الأندلسى المرابطى ورد الفعل الاسبانى المسيحى :

الممهد لمعركة خاصة :

والمهم أن اللقاء بين ابن عباد وابن تاشفين ، وسط وجوه أصحابهما ، كان معبرا عن الود والصداقة ، التى تأكدت عند انفرادهما بالمصافحة والمعانقة ، والتعاهد على الصبر والرحمة • وكان المعتمد بن عباد قدوة لبقية ملوك الطوائف الذين خرجوا برجالهم واعانوا بأموالهم(٣٩) وكان من الطبيعى ان تثير حشود المرابطين والأندلسيين المتحالفة ثائرة الفونس السادس (ابن فرذلند) واشفاقه ، فقام بدعوة جميع المحاربين من اهل بلاده وكان لرجال الكنيسة من القسيسين والأساقفة ، وكذلك رهبان الأديرة ، دورهم فى التحريض على الانخراط فى صفوف القوات المسيحية ، من : غاليسيا غربا (الجلاقة) الى أراجون (أرغونة) شرقا(٤٠) •

وتعبر رواياتنا العربية عن قوة الجبهة المسيحية ، حيث يظهر ألفونسو السادس (ابن فرذلند) الذى يستحق أن يلقبه المسلمون « بالطاغية » ، وكأنه صاحب شبه الجزيرة الايبيرية جميعا ، بكل أراضيها من مسيحية فى الشمال حيث كون نواة دولة اتحادية كبرى من : قشتالة وغاليسيا وليون ،

= جانب الاشارة الى ان الجيش حوى الى جانب الأنجاد من الرجال الصلحاء أيضا ، من الذين يعتبر ابن تاشفين واحدا منهم • وفى ذلك يقال ان يوسف دعا : « اللهم ان كنت تعلم ان جوازى هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » •

(٣٨) أنظر فيما سبق ص ٢٩٥ وهـ ٢٩م — عن تعبير الأندلسيين عن ضيق بلادهم عن تحمل العساكر الكثيرة ، وأنظر البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ — حيث النص على أن يوسف ابن تاشفين كان يسر بهذه الضيافات ، وبهدايا ابن عباد والطائفة ، مما كان يرد الى معسكر يوسف (محلته) — الأمر المقبول بالنسبة للمجاهدين المغاربة فى غربتهم •

(٣٩) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٣ — ١٣٤ •

(٤٠) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ •

أصبحت تدور فى فلكها بقية الامارات الصغيرة ، أو اسلامية فى الجنوب . خاضعة لدفع الاتاوة السنوية من المال والقلاع ، ابتداء من الثغر الأعلى حيث بنو هود فى سرقسطة (أقوى امارات التغور) ، وانتهاء بأشبيلية دولة بنى عباد (أقوى ملوك الطوائف) أصحاب قرطبة . وبالتالى أصبح وكأنه صاحب الحق الشرعى فى اعادة الوحدة المفتقدة الى البلاد ـ الأمر الذى كان يتطلب حتما ، عملية الانقاذ المرابطية(٤١) .

والحقيقة ان مبادرة الفونسو السادس الى لقاء الحلفاء المسلمين حيث تجمعوا فى عقر دارهم ، تعنى أنه كان على ثقة من النصر ، الأمر الذى أراد أن يحققه أيضا باللجوء الى الحرب النفسية التى قد تضعف من معنويات المسلمين ، عن طريق التهديد بقواته التى لا تقهر(٤٢) . ولا بأس أن يكون المسلمون قد قاموا بدورهم بحرب نفسية مضادة ، فهذا ما يمكن أن يفهم من الرواية التى تنسب الى ألفونسو السادس رؤيا ركوبه الفيل ونقره الطبل (على طريقة السودان) فكأنه أبرهة الواثق من انتصاره ، ونهايته الفاجعة ، كما فى سورة الفيل(٤٣) .

---

(٤١) وهنا لا بأس من الاشارة الى ما تقوله بعض المصادر من أن ألفونسو السادس عندما سمعر بفوته على كل الملوك من مسيحين ومسلمين تلقب بالأمبراطور (أمير المؤمنين) ، بل وسمى نفسه ورئيس الملتين المسيحية والاسلامية ، أنظر الحلل الموشية ، ص ٤٠ ، وأنظر ابن الكردبوس ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ويوسف بن أحمد حوالة ، بنو عباد ، رسالة ماجستير من جامعة الملك عبد العزيز ، ص ٢٦٢ .

(٤٢) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ ـ حيث النص على أن الفونس برز بالمختار من أنجاد جموعه ، وقال بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ، وبناء على تلك المقولة قدرت الرواية العربية قوات ألفونس بـ ٤٠ (أربعين) ألف فارس منقلين بالحديد (دارع) ، لكل راحد منهم تابع أو اثنان ، فكان اجمالى عددهم ١٠٠ر٠٠٠ (مائة ألف) رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ـ الأمر الذى يشكك فيه صاحب الرواية عندما يقول ان النصارى يتعجبون ممن يقول ذلك ، وكأن المسلمين يبالغون فى تقدير القوة المسيحية ، وان ختم بقوله ان المسلمين كانوا أقل من المشركين (على كل حال) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ـ حيث النص على أن الفرنج كانوا فى ٥٠ (خمسين) ألفا ، وانهم عندما اجتمعوا تحت قيادة الأدفنش ، قال : « بهذا الجيش ألقى اله محمد » ، وأنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٠ ـ حيث النص على أن حشد الفونس بلغ ٤٠ (أربعين) ألف فارس .

(٤٣) القرآن ، سورة الفيل ، آية ١ ، وذلك أثر المراسلات التى تمت بين ألفونس السادس ويوسف بن تاشفين ، والتى أساء فيها الملك الفرنجى ، المغتر بقوته الى « أمير المسلمين على لسان بعض أدباء المسلمين » فأمر يوسف كاتبه (أبا بكر بن القصيره) بأن يختصر اجابته عليه فى ظهر كتابه ، فى جملة واحدة هى : « الذى سيكون ستراه » ـ تعبيرا =

هذا ، ولا بأس أن تكون قصة عبور الجمال الى الأندلس التى أمر بها يوسف بن تاشفين ، بعد جوازه ، والتى يوردها ابن خلكان ، ضمن الحرب النفسية التى شنها المرابطون أيضا على الاسبان[٤٤] ، اذ المعروف أن المرابطين لم يستخدموا الجمال فى فتوحهم ، خارج الصحراء الا فى حمل المتاع ، وربما الطعام ، فالمعروف أن الحصان هو آلة الحرب بالامتياز فى بلاد الحضر ، وهذا ما حدث منذ بدء حرب السوس الأقصى ، ومن ثم فى سائر بلاد المغرب حتى الواحات • ومن الواضح أنه لا ذكر للجمل اطلاقا فى الموقعة التى ستدور بين الطرفين فيما يأتى سرده •

والحقيقة أن الرواية المتزنة هى التى تقول ان هدف الفونسو السادس عندما قرر المسير الى لقاء المسلمين فى عقر دارهم ، كان الحرص على حفظ بلاده من ويلات الهزيمة ، اذا كانت الدائرة عليه[٤٥] - وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من الاعتراف للرجال بالجرأة والمعنويات العالية ، رغم سمعة المرابطين التى كانت تدوى فيما وراء المضيق ، وبما للثقة فى عدم خلوص النوايا فى الجانب الاسلامى •

موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) فى بطليوس :

ميدان المعركة : ما بين التلقائية والاختيار :

وفى تكييف أوضاع اللقاء بين الفونسو السادس قائد الحلف الاسبانى المسيحى ويوسف بن تاشفين قائد الحلف الأندلسى - المغربى الاسلامى نرى أنه تم بايقاع سريع خلال عدة أشهر من ربيع الأول (يونيه) حيث بدأ

= عن الثقة فى حكم الله وقضائه • الأمر الذى ارتاع له الادفنش فكانت الرؤيا التى حطمت معنوياته ، عندما عرف تفسيرها من بعض المسلمين ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٠ - حيث اضافة بيت الشعر :

ولا كتب الا المشرعة والقنا ولا رسل الا الخميس العرمرم

(٤٤) انظر ابن عذارى ، ج ٤ (الملحق) - عن وفيات الأعيان ، ص ١١٥ - حيث قيل انه عبر من الجمال بأمر يوسف بعد جوازه ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جمالا ، وأن خيولهم تقلق منها وتذعر • وذلك الى جانب الاشارة الى أن فكرة يوسف من استخدام الجمال « أن يحدق بها عسكره » ، أى أن تكون ساترا للعساكر ، وهذا من فن حرب جمالة الصحراء منذ القديم (أنظر قسما سبق ، ص ٧٦ •

(٤٥) البيان ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ •

العبور الى رجب (آكتوبر) حيث كانت الموقعة الكبيرة • وخلال تلك الفترة ، وأثناء الحشد خارج اشبيلية بلغ يوسف بن تاشفين نبأ وفاة ابنه أبى بكر : سير الذى كان مريضا بسبتة ، الأمر الذى حير ابن تاشفين حتى هم بالانصراف ، كما تهول بعض الروايات لولا أنه آثر الجهاد(٤٦) • والمهم أن اللقاء تم فى موضع بأراضى مملكة بطليوس ، وملكها المتوكل : عمر ابن الأفطس ، بعيدا عن أراضى الفونسو السادس ، والمعتمد بن عباد ، وهما طرفا النزاع الأصيلان منذ البداية ، على أساس كونهما أقوى ملوك الطوائف فى كل من الجانبين ، بصرف النظر عن استنجاد الواحد أو الآخر بالحلفاء من خارج البلاد •

والحقيقة أن وقوع المعركة فى أراضى مملكة بطليوس يمكن أن يفسر على أساس جغرافى سياسى مزدوج • فمن الوجهة السياسية كانت امارة بطليوس ، بفضل طموح حكامها (بنو الأفطس) ، منافسة لكل من مملكة طليطلة التى آلت الى الفونسو السادس الذى يريد اعادة الوحدة لاسبانيا المسيحية تحت شعار « الاسترداد » ، ولمملكة اشبيلية حيث ابن عباد الذى يرنو الى توحيد الأراضى الاسلامية بالأندلس تحت رايات اشبيلية وخاصة انه كان يملك وقتئذ قرطبة ، حيث صوت أهل الجماعة ، ممثلى الأمة ، كان ما زال مسموعا ـ وان بايقاع خافت • فقبل سقوط طليطلة كان ابن الأفطس يهفو الى امتلاك طليطلة ـ عاصمة الثغر الأوسط ، التى استحوذ عليها فعلا لبعض الوقت (ما سبق ، ص ٢٩٢) • وقبل أن يضم ابن عباد قرطبة ، بكل ما ترمز اليه من وحدة التاريخ الأندلسى وعظمة حضارته الاسلامية ، كان طموح ابن الأفطس (المتوكل) فى الاستئثار بها أمرا سهل المنال لا يكلفه أكثر من مدينة قرمونة يقدمها ثمنا لسكوت ابن عباد (المعتمد) ، لولا غدر هذا الأخير ، ونكثانه بوعده (ما سبق ، ص ٢٩١) •

وهكذا ، اذا كان ابن الأفطس قد ظهر منذ وقت غير بعيد ، وكأنه الخصم المشترك لكل من الفونس السادس وابن عباد ، فان لقاء المتصارعين فى أرض بطليوس يمكن ألا يكون عفويا بل اختيارا مسبقا • واذا صح ذلك فيمكن اعادة النظر فى أن تكون تهديدات ألفونس السادس للمعتمد نوعا

---

(٤٦) أنظر الحلل الموشية ، ص ٦٦ ـ حيث النص أيضا على ان ابن تاشفين أنفذ القائد مزدلى (أبو عبد الله مزدلى بن سلنكاه ـ ت ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م فى حرب قشتالة) الى مراكش • وأنظرالمؤلف ، عملية الانقاذ المرابطى فى الأندلس ، أعمال ندوة الأندلس بآداب الاسكندرية ، ١٩٩٣ •

من الدعاية المصطنعة فى الجبهة الأندلسية ، تبريرا للإنسحاب من ضواحي اشبيلية نحو أراضى بطليوس فى اتجاه مسار الفونس ، الى جانب تحريض المسلمين على حسن الاستعداد للمعركة — بطبيعة الحال • أما من الناحية الجغرافية فان أرض بطليوس ، من حيث كونها آخر الأراضي الاسلامية المواجهة لطليطلة فى منطقة الغرب ، تجعل من موقع اللقاء ثغرا أو جبهة قتال طبيعية ، ليست ملكا لأحد من المتحاربين ، فهي : « أرض لا صاحب لها » (no man's land) » حسب المصطلح الحديث • وبذلك يكون موضع اللقاء ، حينئذ ، مناسبا لجميع الأطراف ، حسبما كانت تقضي أعراف الحرب والسلام فى تلك العصور وتقاليدها •

وقعة الزلاقة :

واذا لم تكن هناك نصوص تشير الى اتفاق مسبق بين المتحاربين على موضع المعركة فى أرض الزلاقة (ساكر الياس : (Sacralias)) بمعنى السهلة[٤٧] ، فهناك روايات تنص على أن وفود الجواسيس كانت تترى على الجانبين : الاسلامى والمسيحى ، تنقل الأخبار من صحيحة ومصطنعة ، كما توجد روايات يفهم منها تبادل الرأى حول وقت اللقاء (السبت أو الاثنين)• ويمكن أن تكون قرينة على نوع من الاتفاق حول المكان أيضا — وان كان ذلك بشكل ضمنى • فالمفترض أن الفونسو السادس الذى كان يحاصر سرقسطة ، ترك الثغر الأعلى متجها نحو طليطلة ، وقد أرسل الى كل من رذمير (سانشو راميرز ، ملك أرجوان وصاحب بنباونة) الذى كان يحاصر طرطوشة ، والبرهانس (البارفانييث : (Alvar Fanes) ' القائد القشتالى وابن أخى السيد القمبيطور ، الذى كان يحاصر بلنسية ، للحاق به بجيوشهما • كما لحقت به حشود أخرى من قشتالة وغاليسيا وبنبلونة[٤٨] ، وذلك على الطريق الى الزلاقة ، مرورا بطليطلة وعبروا وادى تاجه ، الى أن وقف فى مواجهة الجيوش الاسلامية التى كانت تعرف مسيرته ، وتتجه هى

---

(٤٧) أنظر القرطاس ، ص ٤٦ ، وه٨٨ — حيث الزلاقة = السهلة ، والاشارة الى أن نهر بطليوس كان يحجز بين الفريقين ، وكل منهما يشرب منه وعن الزلاقة (حديثا : (Sagrajas) التى تعنى بالعربية الزلقة ، فكأنها من نوع السبخة ، أنظر الحلة السيراء ، ص ١٠١ ، وه ١ — حيث ينص حسين مؤنس على أن الموضع يقع على أحد نهيرات وادى آنه ، ويعرف باسم جريرو (Guerrero) على بعد حوالى ١٢ كم شمال بطليوس ، مع الاشارة الى أن الفضل يرجع الى زايبولد (Seybold) فى تحديد هذا الموقع •

(٤٨) القرطاس ، ص ١٤٥ ، وه ٨٦ •

الأخرى للقائه(٤٩) ٠

وحط الفريقان كل فى معسكره (محلته) ، وبينهما مسافة فرسخ أى حوالى (ثلاثة) أميـــال ٠ والذى يفهم من الروايات أن العــلاقات بين الطرفين كانت متصلة بشكل علنى عن طريق السفارات ، وبشكل سرى عن طريق الجواسيس(٥٠) ٠ وان الحرب والسلم كانا موضوعا للمناقشة ٠وهكذا تقول رواية البياسى التى ينقلها ابن خلكا نأن يوسف بن تاشفين عرض على الفونسو السادس (الادفنش) ، من مركز القوة وكأنننـــا فى عصر الفتوح

---

(٤٩) أنظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٠٠ - حيث النص على انه لحق بيوسف خارج أسبيلية كل من : صاحب غرناطة (بلكين بن حبوس الصنهاجى) فى نحو ٣٠٠ (ثلاثمائة) فارس ، وأخوه تميـم من مالقة فى نحو ٢٠٠ (مائتى) فارس ، وابن صاحب المرية فى عدد قليل من الخيل ٠ وتنص الرواية على ان ابن تاشفين تقدم مستعجلا فى حركته الى بطليموس . وابن عبـاد وراءه ٠ وان المتوكل صاحب بطليموس ، خرج اليهم وأوسـعهم برا وضـيافة ٠ أما ألفونسـو فكان وصوله عشية الجمعة ، وانه اقترح أن يكون اللقاء بعد يومى الجمعة (عيـد المسلمين) والأحـد (عيد النصارى) أى يوم الاثنين (اليوم المفضل عند المسلمين وكذلك يوم الخميس) ، فكان ذلك نوعا من الاتفاق أو على الأقل موضوعا للمناقشة ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٦ - حيث قصد ألفونس يوسف الذى قصده هو الآخر (حسبما تسمح حدود بطليموس) ، وقارن ابن خلدون ، ح ٦ ص ١٨٦ - حيث النص على ان االفونس (ابن ألفونس) ملك الجلالقة جمع أمم النصرانية لقتاله (يوسف) بالزلاقة ، وأنظر الترجمة ، ص ٧٨ ، وهـ ١ - حيث النص على ان ابن خلدون يعرف ان اسمه ألفونس وان أباه فرديناند وأنه ليس ملك الجلاقة (غاليسـيا) فقط ، بل وليون وقشـتالة ٠ وهو يشير الى وجود نقش فى كندرائية سان جان دى كومبوستل مؤرخ بسنة ٨٧٤ م / ٢٦١ هـ يبين أن ألفونس السادس وقتئذ ، كان ملكا لأشتوريش (غاليسيا)ولبون ٠

(٥٠) أنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث تواجه الجيشـان فى الموضع لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ، والرسل تختلف بينهم الى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة يوم الاثنين ١٤رجب٤٧٩هـ/ ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، كان المعتمد « يجعل (خلالها) على عسكر العدو عيونا على خيل سبق يأتونه بأخبارهم » ، وأيضا ص ١٥٠ - حيث نص الكتاب الذى يقال ان يوسف أرسله الى العدوة ، وفيه خيرنا العدو فاختار الحرب ، ٠٠ وان الاتفاق تم على الملاقاة يوم الاثنين ١٤ رجب ٠٠ وأضمر اللعين خلاف شرطنا ٠٠ وجعلنا عليهم العيون التى أتتنا فجر يوم الجمعة ١١ رجب بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ٠ وهنـا لا بأس من الاشارة الى ان معسكر المرابطين كان موضوعا تحت رقابة صارمة من المعتمد بن عباد نفسه ، والذى كان يستخدم البريد الطائر عن طريق الحمـام الزاجل ، أنظر الحميرى ، الروض المعطار ، القـاهرة ١٩٣٧ (الزلاقة رقم ٨٢) ، ص ٨٨ - حيث جواسس كل فريق مترددون بين الجمبع ، وص ٩٠ - حيث رقابة المعتمد بنفسه لمعسكر الصحراويين ، وأنظر نفس النص فى ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٢) ، ص ١٣٦ - ١٣٧ ٠

الأولى ، الاختيار ما بين : الاسلام أو دفع الجزية أو الاحتكام الى السيف(٥١)، وهو الأمر المقبول من جانب المجاهد الأصولى ، وهو ما قد يفسر لما ينسب الى الأذفنش ، من ثورة عارمة وتهديدات طنانة (ما سبق ، ص ٣٠٠) . والمهم أن المعركة وقعت فى يوم الجمعة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ/٢٢ أكتوبر ١٠٨٦ م(٥٢) .

ادارة المعركة :

أما عن سير المعركة فالمهم أن ادارتها كانت ليوسف بن تاشفين الذى قسم القوات الاسلامية الى ٣ (ثلاثة) جيوش ، أولها : جيش الأندلسيين الذين جعلهم يوسف وحدة واحدة ، ملتفة حول المعتمد بن عباد فى مركز القلب ، وهو جيش المقدمة أو الصدام مع العدو(٥٣) . أما عساكر المرابطين فقد ونقسموا الى قوتين ، أولاهما : جيش يتكون من ١٠ (عشرة) آلاف فارس بقيادة أبى سليمان داود بن عائشة ، فهو الجيش الثانى الذى كان

---

(٥١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان (يوسف بن تاشفين) ، ط . بيروت ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٦ (ونفس المصدر فى ابن عذارى ، ج ٤ ملحق ١ ص ١١٥) — حيث البياسى : أبو الحجاج يوسف بن محمد ، وكتابه : « تذكير العاقل وتنبيه الغافل » الذى يورد روايات تفصيلية جديدة عن الزلاقة ، وان لم يشر الى مصدرها ، القرطاس ، ص ٩٠ .

(٥٢) ابن خلكان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ (نفس المصدر فى ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ١) ، ص ١١٦) ، وأنظر القرطاس ، ص ١٤٧ — حيث الوقعة فى ١٤ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٠٨٦ م ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٤ — حيث صدور كتاب المعتمد من المحلة الى ابنه فى أشبيلية بتاريخ ٢٠ رجب . ولا بأس من الاشارة الى ما قيل من أن ألفونسو أراد الغدر بالمسلمين يوم الجمعة ، وكان قد قرر أن تكون السبت (حسب البياسى) أو الاثنين بعد الأحد ، عيد النصارى (حسب ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ — حيث الوقعة يوم الجمعة — فى العشر الأول من رمضان) ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ (العشر الأول من رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م وص ٢٤ حيث الاختلافات فى تحديد التاريخ من سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، مع اعتماد الجمعة ١٢ رجب : تاريخ خطاب الفتح ليوسف بن تاشفين ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٦ — حيث اليوم المشهود (الزلاقة) سنة ٨١ (٤) هـ / ٢٤ أكتوبر ١٠٨٦ م ؟ .

(٥٣) حسب رواية ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ ، على أساس أن الأندلسين أصحاب خبرة بالبلاد وبالأعداء الأسبان المسيحيين ، وأنظر القرطاس ، ص ٤٦ — حيث النص على ان يوسف بن تاشفين أمر أمراء الأندلس ، ابن صمادح (المرية) وابن حبوس (غرناطة) وابن مسلمة (الثغر الأعلى) وابن ذى النون وابن الأفطس أن يكونوا مع المعتمد ، فتكون محلة الأندلس واحدة .

عليه أن يتبع جيش الأندلسيين ، فكأنه ساقه لهم حماية (ردء) • أما الجيش المرابطى الآخر فعماده الحرس الأميرى الخاص المكون من المماليك السودان على وجه الخصوص والقرابة المقربين تحت لواء الأمير يوسف القائد العام(٥٤) •

أخبار الجواسيس :

وبناء على المعلومات السرية الواردة الى المعسكر الاسلامى ، والتى عرف منها أن هجوم العدو سيوجه الى ابن عباد أولا فى محاولة لكشفه حتى يسهل على العدو التعامل بعد ذلك مع الصحراويين الذين لا يعرفون البلاد ، قرر ابن تاشفين ادخال تعديل على مهام الكمين الذى كان يعده لمفاجأة العدو• وذلك أنه أمر واحدا من قواده بأن يسير بكتيبة خاصة عينها له يقتحم بها معسكر الفونسو السادس ، أثناء انشغاله بقتال ابن عباد ، فيضرمه نارا(٥٥) •

والمهم أن أخبار الجاسوسية الأندلسية كانت صادقة فى الهجوم الوشيك للعدو ووجهته ، اذ لم تلبث أن ظهرت « طلائع ابن عباد والروم فى اثرها » ، الأمر الذى أدى الى اضطراب المعسكر الاسلامى الذى كاد يروح نهبا للفوضى ، وخاصة عندما كثف العدو هجومه حتى غمرت خيله المعسكر الأندلسى الذى كادت تحل به الهزيمة التامة • ويرجع الفضل فى صمود الجيش الأول (الأندلسى) الى المعتمد بن عباد ، وهو الرجل المترف الذى أظهر من العزم والثبات فى تحمل الضربات ، ومن البطولة والقوة فى مناجزة الأعداء ، ما صار مضربا المثل فى الشجاعة والصبر على تحمل المكاره.

---

(٥٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، يوسف بن تاشفين ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ، ص ١١٧ (وملحق ١ فى ابن عذارى ، ج ٤ ص ١١٦) - حيث النص على ان ابن عباد اختار (بمحض ارادته) أن يكون المصادم أولا : وان انهزم يميل عليهم يوسف ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٠ (ملحق ٢ فى ابن عذارى ، ج ٤ ص ١٣٦) - حيث النص على أن ابن المعتمد أذكى عيونه فى محلات الصحراويين خوفا عليهم من مكايد ابن فرذلند (الفونس) اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ••• حتى كان يطيف بنفسه بالمحلة ويضع الكراديس من الخيل على أفواه طرق محدثهم •

(٥٥) الروض المعطار ، ص ٩٢ ، (ملحق ٢ من البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) - حيث كان ابن القصيرة كاتب ابن عباد الوسط فى تعريف يوسف بن تاشفين بما كان يرد للمعسكر الأندلسى من أخبار العدو . وأنظر القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث اعداد ابن عباد كتائبه وجعل عيونه على عسكر العدو يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم •

والآلام(٥٦) .

تباطؤ « حركة المرابطين » :

وتميل الرواية الأندلسية المنسوبة الى البياسى ، والتى ينقلهـــا ابن خلكان ، الى تأخر الجيش المرابطى الثـــانى الذى كان تحت امرة داود بن عائشة فى التدخل الى جانب الأندلسيين آصـــحاب الجيش الأول بقيـــادة المعتمد بن عباد ، الأمر الذى يثير الشك فى كون أصحاب تلك الرواية ممن يرون أن يوسف بن تاشفين ربما فكر فى انهاك قوى الجـانبين : الأندلسى والاسبانى المسيحى فى القتال ، حتى ينتهى الأمر بانفراد القوة المرابطية ، وحدها بالبلاد ، دون منافس . ولكنه يستشف من تفاصيل القتـــال فى رواية صاحب القرطاس التى تظهر موالية للمرابطين ، على أساس أنها تعبر عن الرواية المرينية المناهضة للموحدين خلفاء الأعداء المرابطين ، أن ادارة المعركة التى انفرد بها يوسف بن تاشفين اتسمت بالحنكر والذكاء ، وخاصة فى تحريك القوات فى الوقت المناسب ، الأمر الذى ترتب عليه الانتصـــار الحاسم(٥٧) .

فمن الواضح أن داود بن عائشة أدى المهام التى كلف بها من القائد الأعلى فى وقتها المقرر ، واذا كان هناك من لوم فانه يقـــع على عاتق أمراء الأندلس الذين انتثروا فى أول صـدام ، بشكل يشـــبه الهزيمة ، حيث وصلوا فى فرهم (فرارهم) حتى مشارف بطليوس ، الامر الذى أدى الى حرج موقف ابن عباد .

---

(٥٦) أنظر الروض المعطـار ، ص ٩٢ – حيث النص على أن « ابن فرذلند (ألفونس) مال على المعتمد بجموعه ، وأحاطوا به ... (وان المعتمد) صبر صبرا لم يعهد مثله لأحد » ، وانه أثخن جراحات ، وضرب رأسه – كما تبالغ الرواية – ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ٣ (ثلاثة) أفراس ، وهو يضرب يمينا وشمالا ، (وقارن نفس الرواية فى الملحق فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٧) ، وأنظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٠١ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٧ – حيث النص على ان المعتمد أرسل الى يوسف أن يكون على أهبة الاستعداد لأن العدو صاحب مكر وخديعة فى الحرب . وان يوسف عندما علم بزحف العـدو فى فجر الجمعـة (١٠ رجب) أرسل قائده المظفـر داود بن عائشة فى جيش عظيم من لمتونة ووجوه المرابطين وأقيالهم ليكونوا طليعة له .

(٥٧) عن أدب الزلاقة وما قبـل فيها ، أنظر حسن أحمـد محمود ، قيـام المرابطين ، ص ٢٧٣ ، وعن اختلاف مواقف المشاركين فيها من الأندلسيين والمغاربة ، أنظر نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

الكمين : الحرس الأميري يحسم المعركة :

والمهم أن ابن عائشة التحم مع قوات البرهانس (الفارفانييث : (Alvar Fan:ez) التي احاطت بابن عباد في ذلك القتال المحتدم فلم يقوم ميزانه ، بل ظلت كفته تتأرجح لصالح العدو . وعندما تقدم ألفونسو السادس هو الآخر بغواته فوقع في جيش داود بن عائشة الذي كاد حينئذ يستأصل ، وهو يحسبه جيش يوسف بن تاشفين ، رأى هذا الأخير أن ينفذ خطة الكمين الذي يفاجىء معسكر ألفونس ، وهو مشغول بالقتال ، بالحرق والتخريب . وخرج ابن تاشفين من وراء المرتفع الذي كان يتخفى فيه بحرسه الخاص من مماليك السودان وطبوله التي صدعت الجو ، مع المقربين من لمتونة وغيرهم بقيادة سير بن أبي بكر ، لكي يشاركوا في ضرب محلة الفونس واضرامها نارا تشتعل(٥٨) .

وفوجىء ألفونس السادس بالغارين من محلته التي راحت نهبا للحريق والقتل والتدمير ، فأسرع نحوها بجيشه ليفع فريسه لقوات الحرس الأميري المدربة ، التي أطلق منها يوسف عليه ٤ (اربعه) آلاف مملوك من السودان الذين يحسنون حرب الالتحام بالمزاريق يصيبون بها الخيل ، والخناجر يطعنون بها الرجال والفرسان ، فكان نصيب ألفونس طعنة خنجر هتكت حلقات الزرد وأصابع الفخذ ، وعوقته مدى الحياة(٥٩) .

---

(٥٨) القرطاس ، ص ١٤٧ - حيث ابن عائشة في جيش عظيم ، طليعة ليوسف بن تاشفين - وحيث قسم الفونس عسكره على فرقتين : واحده بقيادته وقع بها في جيش ابن عائشة والأخرى بقيادة البرهانس (الفارفاييث) داهموا محله ابن عباد وهزموها ، فلم يثبت منها الا ابن عباد وجيشه ، وص ١٤٨ - حيث سار سير بن أبي بكر اغاثه لابن عائشة وابن عباد ، في قبائل المغرب وزناتة ، والمصامده وغمارة وسائر قبائل البربر الذين كانوا في محلته ، ومسير يوسف في لمونة والمرابطين الى محلة الفونس لاحراقها وقتل من بها من الرجال والفرسان .

(٥٩) وفيات الأعيان ، ج ٧ ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٧ - حيث نص البياسي : « ودهمنهم خيل العدو فغمرت ابن عباد ... وفر رؤساء الأندلس .. فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد خيله .. فعمدوا الى محلة الادفنش فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، وضربت الطبول فاهتزت الارض وتزاحفت الروم الى محلتهم .. فقصدوا أمير المؤمنين ، فافرج لهم عنها ثم كر فأخرجهم منها .. ولم الكرات بينهم تتوالى الى ان أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء ٤ (أربعة) آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها .. وتلاحق الادفونش بأسود فدق مزاريقه بالدف ، فاهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على أعنته ، وانتضى خنجرا كان منتطقا به ، فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه ، ومشك فخذه ، مع بداء سرجه ، ... وصدقوا الحملة على =

الربح والخسارة فى المعركة الفاصلة :

وهكذا انتهت معركة الزلاقة الى صالح المسلمين فى الأندلس والمغرب — رغم قلة عددهم النسبية — واعتبرها كثير من كتاب المسلمين وكأنها من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الاسلام — وهو الأمر الصحيح ، ليس من حيث النتائج المباشرة فقط ، بل والمستقبلية لفترة جاوزت القرن ، وسمحت بتدخل الموحدين فى الأندلس بعد حين من تدخل المرابطين ، فتنفس الصعداء فيها العرب والمسلمون(٦٠) .

فلقد كانت الهزيمة تامة على ألفونس السادس الذى نجح فى الهرب تحت جنح الظلام مع قلة من المحيطين به ، لا يتجاوز عددهم الـ ٥٠٠ (خمسمائة) فارس(٦١) ، بينما بقى معظم رجاله فى أرض المعركة ، لم

= الأدفنش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم (ونفسه فى ملحق البيان ، ج ٤ ص ١١٧) . وقارن الروض المعطار الزلاقة ، ص ٩٢ — ٩٣ — حيث : نفس مجىء ابن عائشة ، عن ابن عباد قبل اقبال يوسف ، وعهور ريح الظفر ونباشير النصر ، ثم رجوع المنهزمين حين علموا بالتحام الفئتين ، فانكشف الطاغية ، وفر هاربا مذ زما ، وقد طعن فى احدى ركبتيه طعنة بقى أثرها بقية عمره ، فكان يخمع لها (وملحق ، البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٨ — حيث النص : « فاخبر (ألفونسو) بحرق محلتها ونهبها .. فرد وجهه الى قتاله (أمير المسلمين) وكان على فرس أنثى يمر بين صفوف المسلمين يحرضهم ويعوى نفوسهم على الجهاد والصبر ... فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة » . وعندما رأى ابن عباد وأصحابه انهزام الروم .. شدوا عليهم وحمل القائد سير (عليهم) فاستمرت الهزيمة على الروم .. وتراجعت الطائفة المنهزمة من المسلمين . واشتد القتال على الفونسو حتى أيقن بالفناء .

(٦٠) أنظر الحلة السيراء (لابن الأبار) ، ج ٢ ترجمة المتوكل (عمر بن محمد ابن الأفطس) رقم ١٢٨ وص ٩٦ وهـ ٢ — حيث يقول ابن جهور (عبد الله بن أحمد) ، أحد مشاهير أدباء وفقهاء أشبيلية فى القرن السادس الهجرى (٥١٦ — ٥٩٦ هـ / ١١٢٢ — ١٢٩٩ م) ، فى الزلاقة وكأنها معركة العالم العربى وقتئذ :

لم تعلم العجم اذ جاءت مصممة   يوم العروبة أن اليوم للعرب

وقارن القرطاس ، ص ١٥١ — حيث هذا البيت لأبى جوهر ، وأيضا لابن اللبانة :

يوم العروبة كان ذاك الموقف   وأنا شهدت فأين من يستوصف

(٦١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٣ — حيث النص على أن « أمير المسلمين سار الى خيام الفرنج ونهبها فانهزم الفرنج ، ونجا الأدفونش فى نفريسير . ثم النص (ص ١٥٤) على انه لم يرجع من الفرنج الا ٣٠٠ فارس ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٣ — حيث النص على ان الفونس لجأ (بعد الهزيمة) الى تل كان يلى محلته (معسكره) فى نحو الخمسمائة فارس ، كلهم مكلوم (نفسه : ملحق فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٨) ، القرطاس ، ص ١٤٨ — =

ينج منهم الا من لاذ بالفرار ، كما آلت عدده وســـلاحه للمسلمين وطيرت كتب النصر مع الحمام الزاجل من ميدان المعركة الى اشبيلية مباشرة ، كمـا حملت مع رجال الأخبار الى غيرها من المدن ، وعبر المجاز الى مراكش باسم « أمير المسلمين » • ولتأكيد كتب انتصار الزلاقة هذه ، التى يؤيدها قول الشاعر : « السيف أصدق انباء من الكتب » ان نمـــاذج من جماجم قتلى الأعداء سيرت الى عواصم الأندلس وكذلك الغرب ـ كشـــاهد مادى على الانتصار الكبير فى الزلاقة(٦٢) •

هذا ، ولا بأس من الاشارة الى أن المسلمين دفعوا ثمنا باهظا نظير هذا النصر الكبير فى تلك « الغزوة المبـــاركة » • فاذا كانت رواية القرطاس تبالغ ، من غير شك ، فى مقولة أن عدد القتلى من « الروم » (الاســـبان المسيحيين) بلغ ٣٨٠ ألفا ما بين فارس (١٨٠ ألفا) وراجل (٢٠٠ ألفا) ، فأغلب الظن أن تلك الاحصائية الحزنية فى جبهة العدو ، هى المقدمة المقبولة لفاجعة استشهاد ٣٠٠٠ر٣ (ثلاثة آلاف) رجل من المسلمين ـ وهـو الرقم الذى نراه قريبا من الواقع(٦٣) •

= حيث : فلما رأى ألفونسو ان الليل أقبل مر مهزوما على وجهه فى نحو ٥٠٠ فارس على غير طريق ، (ص ١٤٩) ـ حيث مات منه م ٤٠٠ فلم يدخل طليطلة منهم الا ١٠٠ فقط ، وركبهم المرابطون بالسيف يقتلونهم فى كل فج وسهل الى ان حال الليل بظلمته بينهم •

(٦٢) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة ٨٤٤ ، ص ١١٨ ـ حيث النص على أن أصحاب الأدفونش « أفلتوا بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الآلات والآنية والمضارب والأسلحة • وأمر ابن عبـاد بضم رؤوس القتلى من الروم ، فنشر منها أمامه كالتل العظيم ثم كتب ابن عبـاد الى ولده الرشيد ، كتابا ، وأطار به الحمام يوم السبت ١٦ محرم يخبره بالنصر (نفس البيان ، ملحق ج ٤ ص ١١٧) ، وقارن الروض المعطار ، ص ٩٣ ـ حيث القول بشىء من المبالغة انه بعد لجوء الأدفونش الى مرتفع : « وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها ، وابن فرذلند ينظر الى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وبأصحابه » (نفس البيان ملحق ٢ ، ص ١٣٨) ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٩ ـ حيث : وبات المسلمون على خيولهم تلك الليلة يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وأنهم صلـوا صـلاة الصبح وسط المقتلة • وأن (أمير المسلمين) أرسل من جماجمهم ١٠ (عشرة) آلاف الى أشبيلية ، ومثلها الى : قرطبة وبلنســية وسرقســطة ومرســية ؟ كما بعث الى بلاد العدوة ٤٠ (أربعين) ألفا قسمت على مدنها ؟

(٦٣) القرطاس ، ص ١٤٩ ـ حيث ينفرد ابن أبى زرع بهذه الاحصائيات الكبيرة العدد ، وان كانت مقبولة نظرا للامتحانات الصعبة التى واجهها المسلمون أمام قوات الأدفنش والبرهانس وحلفائها ، التى جعلت من النصر وكأنه ـ حتى آخر ساعات « يوم الزلاقة » ـ أمنية صعبة =

التقييم الختامي للزلاقة :

ودون محاولة استقصاء نصيب كل من الأندلسيين والمرابطين فى تلك التضحية الباهظة بالدم ، أو التساؤل عما حصل عليه كل من يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس من المكاسب المـادية والأدبيـة ، نرى أن المعركة بوقائعها السلبية كانت خسارة مادية ــ بشـكل أو بآخر ــ لكل الأطراف المتحاربة • واذا كان الطرف الاسبانى المسيحى هو أكثر الأطراف خسارة فى الرجال والعتاد ، فان المرابطين بدورهم كانوا أكثر الخاسرين فى الجهد والنفقات ، من حيث طول مسيرتهم ذهابا وايابا من الجنـوب المراكشى ، وركوب البحر ، وتجشم القتال فى بلاد غريبة • وأكثر من ذلك تلك الصدمة النفسية التى أصابتهم لمـا عاينوه بالأندلس من الترف الذى لم يصيبوا منه شيئا طالمـا تحددت مهمتهم فى المعركة وحدها دون مقدمات فى التعرف على البلاد ، أو عائدات مـادية تقابل ما بذل من الجهـد والعطـاء • حقيقة ان الأندلسيين قدموا لهم الترحيب والضيافات ، قبل أن تكلل هاماتهم هالات النصر والفخار ، ولكن ذلك لا يكافىء وزن الفداء ، على كل حال •

والحقيقة أيضا أنه لكى تتم الفائدة من دعوة المرابطين الى الأندلس كان ينبغى أن يستثمر النصر الى أقصى حد ، بمعنى ان يدفع المهزوم تكاليف المعركة ، من الأموال والأراضى وناتج العمل • وهذا ما كان يراه المعتمد بن عباد عندما طلب من يوسف بن تاشفين استئصال شأفة الاذفنش بعـد هزيمته ، وهو ما لم يستجب له أمير المرابطين • ولقد فسر الجانب الأندلسى اصرار ابن تاشفين على عدم متابعة الأذفونش ، بأنه خاف أن ينتهى بهلاكه السبب فى دعوة المرابطين الى الأندلس ، فكأن الأندلسيين كانوا يرغبون فى استغلال المرابطين لتحقيق أهدافهم الأنانية ، فى الوقت الذى راى فيه ابن تاشفين أن انقاذ الأندلس واجب سياسى دينى لا مناص منه فى كل وقت وحين(٦٤) •

= المنال • وأنظر فيما سبق ، هـ ٥٩ ص ٣١٠ ــ حيث تحريض ابن تاشفين ــ فى آخر لحظات القتال ــ على الشهادة والجنة ، وقتال المسلمين قتال من يطلب الشهادة ــ وأنظر الروض المعطار ، ص ٩٤ ــ ٩٥ ــ حيث النص على انه كان من بين كبار الشهداء : ابن رميلة ، وقاضى مراكش أبى مروان عبد الملك المصمودى ، وغيرهم •

(٦٤) أنظر الروض المعطار ، ص ٩٣ (ملحق ٢ فى البيان ، ج ٤ ص ١٣٩) ــ حيث النص على ان شـيع بن عباد قالوا بخوف يوسف من هلاك العدو فيقع الاستغناء عنه ، وقال شيع يوسف انما أراد ابن عبـاد قطع حبال يوسف من العود الى الأندلس ، بينما قال المحايدون ان كلا من الرجلين أسر حشوا فى ارتغاء ، وان كان ابن عبـاد أحرى بالصواب •

وهكذا تكون وقعة الزلاقة (المباركة) قد فشلت ، رغم تحطيم قوات العدو الاسبانى ، فى تحقيق أهم أهدافها ، وهو استرجاع الأراضى الاسلامية المفقودة فى طليطلة ، وهى سبب استدعاء المرابطين · والحقيقة أن القاء تبعة ذلك الفشل على نوايا كل من الطرفين ، حسنة كانت أم سـيئة مشتركة بينهما ، فالصحيح أن عملية الانقاذ لم يكن يكفيها جبهة موحدة أو متحدة ، بل جبهة واحدة ، الأمر الذى يعنى انفراد المرابطين بالأمر فى الأندلس ، حتى تكرس موارد البلاد جميعا لمواجهة حرب الاسترداد ، بدلا من تبديد تلك الموارد فى أعمال الترف والفساد فى بلاط الأمراء ، الأمر الذى كان يعيه أفراد الطبقة المثقفة مثل القاضى أبى الوليد البـاجى[٦٥] ، بل وأمراء الأندلس أنفسهم ، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد عندما فضل رعى الجمال على رعى الخنازير (ما سبق ، ص ٢٩٥) ·

حرب الاحلال والتجديد المرابطية :

وبذلك تكون حرب احلال وتجديد اسلامية قد قامت من قبل المرابطين، الى جانب حرب الاسترداد المسيحية ، ضـد أمراء الأندلس · واذا كانت بداية تلك الحرب ، وهو الأمر المستغرب ، هى عودة يوسف بن تاشفين الى المغرب ، فالحقيقة التى نراها هى أن الأحوال الجـوية فى الأندلس فى تلك الفترة الخريفية من نهاية أكتوبر وبداية نوفمبر ، كانت تملى على المجاهدين العودة الى بلادهم ، انتظارا لتحسن الأحوال الجوية فى فصل الربيع ، حيث يكون استدعاؤهم من جديد الى الأندلس ضرورة حتميـة لمواجهة العـدو المطالب بالثأر · وهذا يعنى أن تلبية الدعوة للقتال فى معركة الزلاقة تمت

---

(٦٥) انظر الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٩٨ - حيث كان القاضى أبو الوليد الباجى يطوف على رؤسـاء الأندلس ويندبهم الى لم الشمل ومدافعة العدو ، وان اختلف الأمر فى اصغائهم الى وعظه أو استبرادهم نزعنه ، وأنظر وفيات الأعيـان ، ج ٧ ترجمة يوسف بن تاشفين ، رقم ٤٤ ، ص ١١٨ - ١١٩ (ملحق ١ فى البيان ، ج ٤ ص ١١٨) - حيث « أمير المسلمين » يطلب المعونة من المرية ، والفتوى من قبل جماعة من الفقهاء بجواز الاقتداء بعمر بن الخطاب ، وفتوى القاضى أبى الوليد وغيره من القضاة والفقهاء بالعدوة (المغرب) والأندلس وتقيد ذلك بأن يكون أمير المسلمين فى حاجة ماسة الى المعونة المـالية ، الأمر الذى يتأكد بحلفائه ، وأن يكون ذلك من أجل الجهـاد · وهنـا تنص الرواية على ان « أمير المسلمين » أقام بعد الوقعة بشن الغارات على بلاد الفرنج - الأمر الذى يعنى بقاء الحامية المرابطية بقيادة سير بن أبى بكر · كما تأتى الاشـارة بعد ذلك الى تعلق يوسف بن تاسفين على ما شاهده من ترف بن عبـاد فى منطقة الشرف ، من غرب اشـبيلية ، بقوله : « يلوح انه مضيع لمـا بين يديه من الملك » حيث تؤخذ أمواله بالظلم والاستهتار ·

فى غير موعدها الصحيح ، فى مطلع فصل الصيف حيث تطول العمليات العسكرية على مدى شهور هذا الفصل ، حيث تسمى صائفة • ولا بأس أن كان ذلك محسوبا من قبل المرابطين بالنسبة للقاء بعيد ، غير مضمون النتائج مع المجهول • ولكنه بعد أن نجحت التجربة فى الزلاقة لم يكن بد من مواصلة العمل من أجل الحفاظ على بلاد المسلمين فى الأندلس ، الأمر الذى لا يتأتى الا بوضعها تحت سلطان واحد : تحت هيمنة امارة المسلمين المرابطية •

يوسف بن تاشفين أميرا للمسلمين :

وهكذا كانت الدولة المرابطية تتحول على يدى يوسف بن تاشفين من دولة اقليمية صغرى الى دولة عالمية كبرى ، أشبه بدول الخلافة الامبراطورية، التى نافست خلال القرنين السابقين خلافة بغداد ، مثل : دولة الأمويين فى قرطبة أو دولة الفاطميين فى المهدية ثم القاهرة • والحقيقة أن الدولة المرابطية بتمددها جنوبا الى تخوم السودان وشمالا الى ما وراء المضيق ، استحقت أن تكون امبراطورية (متعددة الأقاليم والأجناس) ، مثل دولة الخلافة • ولكنها لما كانت دولة سنية سلفية تعترف بالخلافة العباسية ، لم يكن لها أن تخرج - قانونا - عن طاعة خليفة بغداد : أمير المؤمنين (جميعا) •

والحقيقة أنه اذا كان ما تقوله الرواية الدارجة من أن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصار الزلاقة(٦٦) ، وكأنه مكافأة على الانتصار العظيم الذى حققه لجماعة المسلمين - تماما كما تعطى حديثا رتبة (الماريشالية : المشير) مكافأة لكبار القواد على انتصاراتهم فى المعارك العالمية الكبرى •

واذا كان هذا الأمر مقبولا بالنسبة للمعاصرين ، فانه لم يكن كذلك بالنسبة لمؤرخى الدولة المرابطية ، من قدامى ومتأخرين • اذ لما كانت الدعوة المرابطية بمثابة تجديد للاسلام فى صحراء المغرب ، اعتبر القائمون بها أصحابهم وكأنهم المسلمون حقا (أو أهل الحق) ، وهو أقل رتبة من لقب « أمير المؤمنين » الخلافى • وفى ذلك قيل ان أول من حمل هذا اللقب هو الأمير أبو بكر بن عمر(٦٧) ، فكأنه لقب عريق فى دولة المرابطين • وهذا

---

(٦٦) القرطاس ، ص ١٤٩ - حيث وفى هذا اليوم (الزلاقة) تسمى يوسف بن تاشفين « بأمير المسلمين » •

(٦٧) أنظر النويرى ، ط • نصار ، ج ٢٤ ص ٢٥٧ - حيث النص على أن الذى سمى ابا بكر بأمير المؤمنين هو عبد الله بن ياسين •

ما يفسر اطلاق لقب أمير المسلمين على يوسف بن تاشفين منذ بداية ظهوره كشخصية تاريخية ، وخاصة عند المتأخرين . وبطبيعة الحال فان عدم معرفة البكرى (حوالى ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م) بيوسف بن تاشفين ، أو بلقب « أمير المسلمين » (ما سبق ، ص ٢١٥) ، يرجح فكرة عدم معرفة المرابطين بذلك اللقب قبل وقعـــة الزلاقة ، الأمر الذى يؤيده خلو النقود المرابطية ، التى ضربت ما بين سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م ، و٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م من لقب أمـير المسلمين(٦٨) .

وهكذا تصح الرواية التى تربط بين اللقب السلطانى الرفيع (أمير المسلمين وناصر الدين) ، وبين الانتصار الكبير فى موقعة الزلاقة (المباركة) ، وان لم تجعلها مكافأة للمجـــاهد الكبير على جهده ، فى خدمة الاســـلام بالأندلس ، بل أعطتها شكلا رسميا ، على قاعدة القانون والشرعية . وفى ذلك تقول الرواية ان فقهاء الأندلس قالوا ليوسف بن تاشفين انه لا تجب على المسلمين طاعته الا بعهد من الخليفة ، الأمر الذى دعاه الى ارسال سفارة الى بغداد ، تقدم هدية وتعرف بما فعل (يوسف) بالفرنج ، وما قصده من نصرة الدين والجهاد فى سبيل الله ، وان ديوان الخليفـــة المســتظهر بالله (ولايته : ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/١٠٩٤ ـ ١١١٨ م) رد على طلبه بهدية وكتاب وتقليد وخلع(٦٩) .

---

(٦٨) انظر حسن محمود ، المرابطون ، ص ٣٣٣ وما بعدها ، وهـ التالى .

(٦٩) انظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٩٠ ، ونصــار ، ج ٢٤ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ (والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢) ـ حيث النص على أنه تسمى بأمير المسلمين (كما فى القرطاس ، ما سبق ، هـ ٦٦ ص ٣١٤) ، وانه خاطب المستظهر (المستنصر) العباسى ، الخليفة ببغـداد لعهده ، وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربى (العرب) الأشبيلى ، وولده أبا بـكر (القاضى) فتلطفا فى القول ، وأحسنا فى الابلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس ، فعقد له . وتضمن ذلك مكتوب الخليفة ، منقولا فى أيدى الناس . وانقلبا اليه بتقليد الخليفة وعهده ، على ما الى نظره من الأقطـار والأقاليم . هذا ونضيف الرواية الى ذلك : « وخاطبه الامام الغزالى ، والقاضى أبو بـكر الطرطوشى ، يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف بحـكم الله » ، وقارن أحمد مختار العبـادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٣ ـ حيث النص على ان ما ظهر من وثائق (خاصة بالمرابطين والخلافة العباسية) يتفق مع رواية ابن خلدون ، وصحة سفارة ابن العربى . وقارن ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٥ ـ حيث أرسل (يوسف) الى المقتدى بأمر الله (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/١٠٧٤ ـ ١٠٩٤م) ببغداد فأتاه الخلع والأعـلام والتقليد ، ولقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وانظر حسن أحمد محمود ، المرابطون ، ص ٢٣٥ ـ حيث النص على ان اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرابطية =

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن لقب « أمير المسلمين » لقب شرفي حظى به يوسف بن تاشفين بعد انتصار الزلاقة فى الأندلس ، فكأنه تكريم شعبى من قبل العلماء والفقهاء الذين ينقاد لهم عامة النـاس ، الأمر الذى جعل المتأخرين من الكتاب يضفونه على يوسف بن تاشفين بأثر رجعى ، كما يقال ، فشرفوه بحمله منذ بده ظهوره على مسرح الأحـــداث ، حتى أصبح لقب « أمير المسلمين » مفردا ، مرادفا لاسم يوسف بن تاشفين ، دون غيره من الناس ـ وخاصة فى الأندلس التى أعاد اليها الأمل فى الصمود والبقاء ـ فكأن عهده بها تجديد لعهـــد الناصر « أمير المؤمنين » ، أو ابن أبى عـامر « المنصور الحاجب » ٠

امارة المسلمين تنهى نظام أمراء الطوائف :

والمهم أن يوسف بن تاشفين كان فى بر العدوة بعد وقت قصـير من الزلاقة ٠ وعندما دخلت سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م كان مقيما فى قصره بالحضرة مراكش ٠ وعندما دخل الصيف وتحسنت الأحوال الجـوية خرج فى دفء ربيع الثانى/يوليه ، فى جولة تفقدية طاف خلالها أرجـاء بلاده المغربية ٠ وهو ينظر فى أحوال الرعية ، ويطمئن على حسن سير الأمور ، من اسـتقامة العمال وعدالة القضاة(٧٠) ـ مؤكدا اهتمامات أمير المسلمين الجـــديدة ـ بصفته رأس كل من السلطتين التنفيذية والقضائية (التشريعية) الى جانب قيادته الحربية ، فكأنه بذلك أصبح صاحب السيف والقلم جميعا ، كمـا تقضى بذلك أصول النظم السلطانية فى دولة الاسلام ٠

مشكلة التوقيت :

ومن شذرات التاريخ الخاصة بالتـــدخل المرابطى فى الأندلس الذى انتهى بالقضاء على نظام الطوائف يتبين أن هـــذا الأمر استلزم من أمـير المسلمين (يوسف بن تاشفين) العبور ٣ (ثلاث) مرات أخرى الى الأندلس ، خلال فترة وجيزة لا تتجاوز ٤ (أربع) سنوات فقط ، فيما بين ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م ، حيث الجواز الثانى ، وسـنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م تاريخ الجـواز الرابع الذى أنهى نظام الطوائف ، فأصبحت بلاد الأندلس بموجب هـــذا

= هو : « عبد الله أمير المؤمنين » ، الأمر الذى أثار جدلا حوله عند بعض الباحثين ، وهو الأمر الذى لم يتأكد بعد (وقارن أيضا ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ـ حيث الاشارة الى نصوص تؤيد اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية قبل الزلاقة والحصول على اللقب) ٠

(٧٠) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ ٠

الوضع الجديد ، الولاية الثالثة فى امبراطورية الاتحاد المرابطى ، بعد : الصحراء والمغرب (الأقصى) ٠ واذا كان تاريخ العبور الرابع والأخير أكيد بسبب أحداثه المعروفة فى الأندلس ، فان العبور الثانى يوضع فى سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م بناء على ترجيح رواية ابن أبى زرع الواضحة رقما (٤٨١ هـ/١٠٨٨ م) وكتابة (بعد سنتين من الزلاقة) على رواية كل من ابن الأثير والنويرى التى يشوبهـا الغموض عندما تتكلم عن عودة أمير المسلمين الى العدوة بعد الزلاقة ، وتردف ذلك بوضع العودة الى الأندلس فى العام المقبل (الكامل) والعام الآتى (النهاية) (٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م) ، وهو الأمر غير المقبول ، حيث كان يوسف يطوف فى البلاد المغربية فى شبه نزهة ترويحية ـ يستحقها هو ورجاله ـ مع الأخذ فى الاعتبار بأحوال المعسكر المعادى بأسبانيا الذى كان ما زال بعد ينفض عن نفسه غبار الهزيمة(٧١) ٠ أما الجواز التالى وهو الثالث فلا بأس فى تأريخه بعد سنتين أى فى سنة ٤٨٣ هـ كما تقول رواية الحلل الموشية ، المدعمة برواية القاضى أبى بكر بن عقاب(٧٢) ٠

الحامية المرابطية الأولى :

ومن المهم الاشارة هنا الى انه رغم الوحشة التى لفت العلاقات الأندلسية المرابطية عقب انتصار الزلاقة ، الأمر الذى يظهر فى عودة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى بلاده مباشرة وبشكل مريب (ما سبق ، ص ٣١٣) ، فمن الواضح أنه كانت قد اتخذت ترتيبات ثنائية للابقاء على حبل المودة موصولا بين الجانبين ، احتسابا لطارىء يلم أو نازلة تفاجىء طرفا أو الآخر ٠ من ذلك ابقاء حامية مرابطية فى الأندلس بقيادة سير بن أبى بكر (اللمتونى) ، أقامت فى بعض القلاع على حدود الثغر الأدنى من

---

(٧١) القرطاس ، ص ١٥٢ ـ حيث سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، وفيها جاز أمير المسلمين الجواز الثانى الى الأندلس ، برسم الجهاد ، وأنظر الحلل الموشية ، ص ٦٦ (وملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤١) ـ حيث التاريخ (٤٨١هـ/١٠٨٨م) مدعم برواية الوزير أبى بكر ابن عقاب حيث لفظ سنتين محرف الى سنين ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ ـ حيث النصر بعد الزلاقة على انه فى العام المقبل عاد (أمير المسلمين) الى الأندلس ٠ وأنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، (نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧) ـ حيث رجوع يوسف من الزلاقة الى مراكش فاقام بها الى العام الآتى ، ثم دخل الى الأندلس (وهى الرواية المحورة عن الخروج للطواف فى المغرب سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، كما فى القرطاس ـ ما يأتى ، ص ٣١٨ وهـ٧٥ـ٧٧) ٠

(٧٢) أنظر الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٣ ٠

غرب الأندلس . وهذه الحامية التى لا يعرف عددها على ما نظن هى التى قامت ، بما سينسب الى أمير المسلمين القيام به بعد الغزوة ، من : مهاجمة بعض حصون العدو فى المنطقة ، واحراز بعض المكاسب فى الأراضى المسيحية المتطرفة(٧٣) .

ومن الأمور التى تستدعى التأمل ما تقوله الرواية السابقة من احتجاج أهل رابطة سير هذه حياة الخشونة والضنك التى عاشوها مدافعين عن الحدود ، بينما ينعم أمراء الأندلس برغد العيش ، الامر الذى جعل ابن تاشفين يأمر سير بن أبى بكر باخراج ملوك الأندلس من بلادهم والحاقهم بالعدوة . واذا كان ذلك يعنى أن ضم الأندلس الى امبراطورية المرابطين كان أمرا محسوما منذ العبور الأول سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وانتصار الزلاقة ، فمن الواضح أن بقية الرواية ، تعنى رسم خطة الاستيلاء على البلاد خطوة بعد خطوة ، كما يقال الآن ، بدءا بمجاورى الثغور الذين يحل أمراء العساكر المرابطين محلهم وأكابرهم ، وانتهاء بأشبيلية وابن عباد(٧٤) .

وهكذا تعبر تلك الرواية عن أن التخطيط لانهاء نظام الطوائف كان قد ارتسم فى حرب الزلاقة التى تكون بمثابة مرحلة استكشافية أولى تتلوها مرحلة ثانية يتم فيها القضاء على أمراء الحدود (الثغور) ، وبذلك تسقط أشبيلية وصاحبها المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، ثمرة ناضجة دون جهد - فى آخر الأمر .

العبور الثانى وحصار حصن لييط (٤٨١ هـ/١٠٨٨ م) :

استيلاء الأسبان على حصن لييط :

اذا كان عبور يوسف بن تاشفين مرة ثانية الى الأندلس بعد سنتين

---

(٧٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ ، (ملحق ١ فى البيان ، ج ٤ ص ١٢١) - حيث يحيط الرواية نوع من الغموض ، اذ تقول ان سير بن أبى بكر بعد أن بعث بما حصل عليه من المغانم عقب الزلاقة الى بر العدوة (المغربية) استأذن من يوسف بن تاشفين فى البقاء فى الأندلس ، وقال له : انه افتتح معاقل فى الثغور ، ورتب فيها مستحفظين ورجالا يغنون فيها . وانظر جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، الترجمة ، ج ٢ ص ١١٤ - حيث النص على عودة ابن تاشفين الى المغرب « ولم يترك للمعتمد الا ثلاثة آلاف من البربر » .

(٧٤) وفيات الأعيان ، ترجمة رقم ٨٤٤ ص ١٢٢ .

فقط من الزلاقة ، بطلب من الأندلسيين حكومة وشعبا ، كما يقال الآن ، وممثلهم المعتمد بن عباد كبير الأمراء ، يمكن أن يثير الشك حول نتـائج الزلاقة بالنسبة لاستقرار الأمور فى الأندلس ، وبالتـالى الشك فى نوايا أمير المسـلمين الذى لم يسـتثمر النصر كمـا كان يرجو الأندلسـيون • فالحقيقة أن المشكلة الأندلسية كانت أكبر من أن تحل فى معركة واحدة مهما كان حجمها ، أو بمعرفة رجل واحد مهمـا كان قدره أو امكاناته • فالاصابة فى طليطلة التى لم يتحقق علاجها فى الزلاقة ، كانت فى موضع القلب ، بمعنى أنها تقطع سبل الاتصال بين أرجاء البلاد ، وبالتالى تكرس التفتت وما يترتب عليه من مظاهر الضعف والاضمحلال ، مثلها مثل الثوب الذى ينسل من وسطه ، كما قال الشاعر(٧٥) •

وهكذا اذا كان نصر الزلاقة قد نجح فى تهدين غرب الأندلس لمدة ٦٠ (ستين) عاما ، كما يرى ابن أبى زرع(٧٦) ، فانه لم يكن له أصداء تسمع فى الشرق • فالحقيقة أن حرب الاسترداد المسيحية كانت قد حققت معظم أهدافها فى غرب الأندلس قبـل الزلاقة ، حتى كان آلفونس السـادس يستطيع أن يصل عبر الحدود النازلة جنوبا بغرب ، وهى الجبهة المفتوحة على المحيط ، بعيدا عن قواعد الاسلام الشرقية ، كمـا كانت تتلقى فوق ذلك مسـاعدات الصليبيين البحرية ، وهم فى الطريق الى شرق المتوسـط الى طريفة (٤٧٥ هـ/١٠٨٢ م) (ما سبق ، ص ٢١٥ وما يأتى ٣٥١) الأمر الذى مكنه من أخذ طليطلة ، وكأنها ثمرة ناضجة دانية القطاف • وبذلك كان بدء الضغط على شرق الأندلس أمرا طبيعيا ، بعد أن دجنت بلاد بنى هود فى الثغر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) ، بفضل تطبيع علاقاتها بدول الاسترداد ، والضغط جنوب برشلونة على بلنسية ومرسية ، حيث ظهر أعداء جدد من أمـراء الاقطـاع الأحـرار ، الذين يعملـون لحسـابهم الخـاص ، ويقدمون سيوفهم لمن يدفع لهم الثمن — والمثل لذلك : السيد القمبيطور (ما يأتى ،

---

(٧٥) عن موقع طليطلة وسط الجزيرة الأيبيرية ، أنظر الروض المعطار ، ص ١٣٠ — حيث طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس ، وسط بين كل من قرطبة وبلنسـية والمرية (٩مراحل)، وهى عظيمة القطر ، ودار الملك القديمة ، وأنظر للمؤلف عملية الانقاذ المرابطية ، ندوة الأندلس بآداب الاسكندرية ١٩٩٣ • وأنظر يوسف بن حوالة ، بنو عبـاد فى اشبيلية ، ص ٢٦٣ — حيث بيت الشاعر ابن العسال اليحصبى ، الذى يقول فيه :

الثوب ينسـل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسـولا من الوسط

(٧٦) القرطاس ، ص ٤٩ — حث النص على انه « لم تقـم للشرك قائمـة نحـو ٦٠ (ستين) سـنة •

ص ٣٥٨ ، ٣٦٠) . وهؤلاء اذا كانوا قد سمعوا عن انتصار المسلمين فى الزلاقة ، فانهم لم يشعروا بصداه حيث كانوا فى الشرق ، بل وربما عملوا متأثرين بما أصاب اخوانهم فى الغرب بنواحى بطليوس .

وهكذا هدد السيد القمبيطور بلنسية ، ونجح فى انتزاعها من ابن ذى النون الذى كان قد استبدلها بطليطلة . والأخطر من ذلك أن الاسبان المسيحيين بدأوا يفرضون هيمنتهم أيضا على أهل مدن لورقة وبسطة ، ويرهقونهم بالاتاوات والضرائب ، بعد أن استولوا من المسلمين بتدبير ألفونسو السادس على حصن الييط (Alédo) على بعد ½ ميل من لورقة ، ذى الموقع الاستراتيجى الهام وسط الأراضى الاسلامية ، واستخدموه فى استنزاف موارد أهلها(٧٧) .

وراحت الشكوى تترى الى المعتمد بن عباد ، كبير الأمراء ، الذى أصابه الهلع ، اذ تبين له أن التضحية الكبيرة فى الزلاقة لم تؤت ما كان يرجى منها ، وبلغ به الأمر الى حد تجشم أعباء السفر بنفسه الى المغرب مستصرخا أمير المسلمين . ولم يستجب ابن تاشفين لنداء الملهوف الا بعد أن استوثق من حسن نواياه تجاه المرابطين ، على أن يكون عبوره الى الأندلس من جديد عندما يعتدل الجو تماما بتمكن فصل الصيف . وعاد المعتمد الى اشبيلية لكى يجهز العساكر ، وينشط فى صنع آلات الحرب من السهام والمطارد والرعادات وغيرها ، الأمر الذى وقع عبؤه على أهل المملكة كل على حسب طبقته . وعندما جاز أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء ، كان على ابن عباد أن يقدم لجيشه الميرة والضيافات على قدر طاقته . ومن الجزيرة الخضراء وجه أمير المسلمين الدعوة الى أمراء الأندلس فى مالقة وغرناطة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ، قبل أن يغادر الخضراء فى ربيع الأول ٤٨١ هـ/يونيه ١٠٨٨ ، على أن يكون اللقاء معه بعساكرهم على حصن لييط

---

(٧٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ وما بعدها - حيث النص على أن ألفونسو السادس ، عمد بعد هزيمته فى الزلاقة الى حصن لييط (لبيط) الموالى لعمل بن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وأمر بالغارة على بلاد ابن عباد ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤١) ، وأنظر الروض المعطار ، رقم ٤٦ ص ٤٤ (عن بسطة القريبة من وادى آش ، وعلى مسافة ٣ مراحل من جيان) ، لورقة ، رقم ١٦٢ ص ١٧١ وما بعدها - حيث تفسير الاسم (لورقة) باللغة اللاتينية الزرع الخصيب (ص ١٧٢) ، وهى من بلاد تدمير (مرسية) بينهما ٤٠ ميلا .

« من شرق الأندلس »(٧٨) :

حصار حصن لييط (Alédo) :

حب دون هوادة وصمود دون نهاية :

رغم اتفاق بعض الروايات المعاصرة ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله (رئيس غرناطة) والمتأخرة ، مثل : الحلل الموشية (لمجهول) على أن رؤساء الاندلس جميعا ، شاركوا فى حصـــار حصن لييط ، فان الذى يفهم من مسار الأحداث ، الأمر الذى يرجح رواية ابن الأثير التى تظهر أصداؤها عند ابن أبى زرع ، هو أن الحضـور الى الموعد على حصن لييـط حسبما طلب أمير المسلمين ، كان فاترا . وفى ذلك يقول ابن أبى زرع انه لم يحضر ذلك الموعد من الرؤساء غير المتضرر الأول من عدو لييط وهو صاحب مرسية : عبد الرحمن بن رشيق ، الى جانب المعتمـــد بن عباد الذى كانت تحركه أغراض أنانية ، الا صاحب غرناطة الأمير عبـد الله(٧٩) ، الأمر الذى كان

---

(٧٨) أنظر القرطاس ، ص ١٥٢ - وتتميز رواية ابن أبى زرع هذه . والتى ينقلها صاحب الحلل الموشيه مع التصرف ، بأنهـا أوفى الروايات الخاصة بحصن لييط وأوضحها ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ (ملحق ٣ فى البيان ، ص ١٤٢ - ١٤٣) ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث الخلط مع فتح غرناطة ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ - حيث الحصن « ليـطة » مع الاشارة الى حصره - وعدم القدرة على فتحه . وعن شقورة أنظر الروض المعطار ، رقم ٩٥ ص ١٠٥ - حيث هى من أعمال جيان ، وفى جبلها شجر الطخش الذى تتخذ منه القسى . وبها أيضا قبر على بن همشك .

(٧٩) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤ - حيث : وفى العام القابل (بعد الزلاقة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م) عاد (يوسف) الى الأندلس ومعه المعتمـد وعبد الله بن بلكين الصنهاجى ، صاحب غرناطة وأنهم سـاروا حتى نزلوا على حصن لييـط . وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، القرطاس ، ص ١٥٢ - حيث النص على انه « لم ياته ممن كتب اليه منهم غير ابن عبد العزيز (والصحيح هو ابن رشيق الذى حل محله) صاحب مرسـية ، والمعتمـد بن عبـاد ، وأنهما نزلا على الحصن ، وشرعا فى قتاله ، بينما شن يوسف الغارات على بلاد الروم فى كل يوم » ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٨ - ٦٩ - حيث النص على ان يوسف بن تاشفين اجتاز على مالقة واستنصر صاحبها تميم (المستنصر بالله) الذى تلاحق به أخوه عبد الله (المظفر) صاحب غرناطة ، والمعتصم (ابن صمـادح) صاحب المرية ، الى جانب رؤسـاء شـقورة وبسـطة وجيـان ، وغيرهم من الرؤساء بشكل عام . من كل مكان ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٨ - حيث النص على أن تحرك ابن عبـاد فى هذه الغزوة كان لأغراض شخصية ، هدفها وضع ابنه الراضى فى مرسـية عوضا عن الجزيرة الخضراء ، مع النص على مشاركته (نفسه) فى قتال لييط مع غيره من الرؤساء « كل رئيس يقاتل على حسب =

يسىء ظن أمير المسلمين برؤساء الأندلس ، من غير شك . والمهم أن عبء اعداد آلات الحصار وقع على عاتق ابن رشيق ، أمير مرسية الذى أحضر من بلده (مرسية) النجارين والبنائين والحدادين ، فأحاطوا بها الحصن ، وسدوا المنافذ على من كان بداخله ، وكانوا ١٠٠٠ (ألف) فارس و١٢ (اثنى عشر) ألف راجل(٨٠) .

وتلخصت خطة الحصار من جانب أمير المسلمين والمعتمد بن عباد فى ارهاق أهل الحصن بالحرب المتصلة ليل نهار ، بهدف تحطيم معنوياتهم . وهكذا اقتسمت الحرب مداولة بين الأمراء الثلاثة(٨١) واستمر الحصار طوال ٤ (أربعة) أشهر الصيف من يوليه الى أكتوبر دون طائل حتى يأس كل من يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد من سقوط الحصن(٨٢) .

والواقع أن أمير مرسية (ثالثهم) كان فى الحبس مثقفا فى الحديد ، ولا بأس ان كان طول الحصار والانشغال بالجدل فى تقلب الأحوال ، قد ساعد على اثارة ما كان من ضغائن بين ابن عباد وبين ابن رشيق ، الذى أتهم بالتعاون كما كان فى الماضى ، مع ألفونس السادس .

والحقيقة أنه كان للفقهاء الذين كانوا يتقربون من أمير المسلمين ويصاحبونه فى جولاته العسكرية أو التفقدية ، دورهم الهام فى تقرير مصير رؤساء الطوائف ، بالشكل الذى أدى الى نهاية نظامهم فى الأندلس بشكل عام ، وكانت حالة ابن رشيق فى لييط هى البداية لتلك النهاية . فممن أتى ذكرهم فى معسكر لييط من الفقهاء : عالم غرناطة الشهير القليعى الذى

= مجهوده » ، وانظر الذخيرة لابن بسام ، ج ٥ (ق ٣ م ١) - عن عبد الرحمن ابن رشيق الذى قيضه الله ليكون للمعتمد « عدو فى ثياب صديق » - حيث أخرجه من مرسية ، ج ٢ (ق ١ م ٢) ، ص ٧٣٣ - حيث دخل ابن صمادح فى غمار الأمراء الخارجين الى لييط يجر جيشا ويعرض نفسه على أمير المسلمين .

(٨٠) الحلل الموشية ، ص ٦٩ .

(٨١) الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠٩ - حيث نصبه المجانيق ، وان أمير المرية ابن صمادح أتى « بفيل » (دبابة) اقامة ، خرق به العادة ، وان « أحرقه أهل الحصن » .

(٨٢) القرطاس ، ص ١٥٣ ، وقارن الحلل ص ٦٩ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) - حيث استمر الحصر الى مدة شهر فقط ، وقارن النويرى ، ابن ضيف ، ص ٣٨٧ - حيث النص على انهم حاربوا الحصن أياما فلم يطيقوا فتحه فرحلوا بعد مدة ،

كان في صحبة الأمير عبد الله - وكان أكثرهم توددا الى أمير المسلمين - كما يظهر من رواية أمير غرناطة الذى يصف خباء (خيمة) ابن القليعى بتلك المحلة ، بأنه قد صار « مغناطيسا » (جذابا) لكل صادر ووارد ٠

وهنا يشكو الأمير عبد الله من تأييد ابن القليعى لرعيته ، بل ومن حثهم على الامتناع عن دفع الضرائب المعتادة ، على أساس انها من المغارم غير الشرعية ، بينما كانوا يقومون بما يكلفون به من تقديم الطعام للجيش المرابطى ، وما كان يلحق بذلك من المجاملات وحقوق الضيافة وكان ذلك يصيب أمير غرناطة - كما يقول بالضرر الشنيع(٨٣) ٠

والمهم انه رغم ما قام به ابن رشيق من بذل الأموال للمرابطين ، واصطناعه للأمير سير ، كبير القواد ، والدعوة لأمير المسلمين من على منبر مرسية ، الأمر الذى جعله يتيه على المعتمد ابن عباد ، ويزيد فى حسرته ، احتجاجا عليه بأحكام السنة ، فقد انتهى الأمر بوقوف أمير المسلمين ، كما تقضى السياسة ، الى جانب كبير رؤساء الأندلس ضد ابن رشيق(٨٤) ٠ وفى ذلك تقول رواية الأمير عبد الله انه عندما استغاث ابن رشيق بأمير المسلمين ، أجابه : « انه لو كان الأمر عندى لوهبته لك ، غير أنها أحكام السنة ، لا أستطيع ازالتها عن مراتبها(٨٥) » ٠

وما كان من أمير المسلمين الا أن استفتى الفقهاء فى أمر انرئيس « المتعاون » ، فجرموه ، وكان عقابه التثقيف (التأديب ضربا) والحبس ٠ وكان لهذا العمل رد فعل سيء لدى عسكر مرسية والعاملين من أهلها فى خدمة المعسكر الذين تسللوا الى بلدهم ٠ وهناك لم يكتفوا باظهار السخط ، بل أعلنوا الثورة (على أمير المسلمين) فقطعوا الميرة عن المعسكر المضروب أمام لييط حتى اختلت أموره وغلت الأسعار فيه ، وصعب المعاش على الناس فيه(٨٦) ٠

---

(٨٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٠ ٠ وهنا لا باس من الاشارة الى جهود الفقيه القاضى ابن الوليد الباجى (ت٤٧٤هـ/١٠٨١م) فى سبيل لم الشمل بالأندلس حتى قال فيه ابن بسام انه « مشى بين ملوك أهل الجزيرة » وكانه مؤمن آل فرعون - الذخيرة ، ج ٣ ق ٢ م ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ ، وكذلك الأمر بالنسبة للوزير أبى العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر الذى شخص مع أمير المسلمين من شرق الأندلس الى حصن لييط (ص ٢١٨ - ٢٢٠) ٠

(٨٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٠ - ١١٢ ٠

(٨٥) نفس المصدر ٠

(٨٦) الحلل الموشية ، ص ٦٩ - ٧٠ (البيان ملحق ٣ ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقارن =

وهنا وجد ألفونسو السادس أن الظروف مناسبة لإعلان تمام نفض غبار هزيمة الزلاقة ، وأنه يمكنه اعلان القوة عن طريق الاستجابة لطلب النجدة من المحاصرين فى لييط الذين كانوا يعانون من طول الحصار والجوع ، فحشد رجاله وسار نحو حصن لييط ، وكانت فرصة انتهزها أمير المسلمين للتعجيل بالرحيل عن الموقع الحصين ، فتنحي عن طريق ألفونسو الى طريق لورقة - المرية - الجزيرة الخضراء ، ثم جاز الى العدوة . وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأته أحد الى نزال حصن لييط(٨٧) ، ولكن دون أن ينسى ارسال حامية الى بلنسية لحمايتها من العدو(٨٨) ، فكان أمير المسلمين يستطيع اثبات وجوده ، وهو يغيب منسحبا • وفى مقابل ذلك يقوم ألفونسو السادس بعمل مماثل ، فهو يخلي الحصن ويقوم باحراقه بعد أن أخلى أهله ، فكأنه أراد تحريرهم من معاناة ذكريات الحصار والشدة ، وعاد بهم الى طليطلة(٨٩) •

وهكذا انتهى حصار لييط دون تمكن أحد طرفي الصراع فى الأندلس من املاء ارادته على الآخر ، بل وبنوع من اعلان كل من الطرفين وكأنه فى حاجة الى شىء من الهدنة التى تسمح له بلم شعثه واعداد معسكره قبل مواصلة الصراع المحتوم • وكان على أمير المسلمين أن يبدأ بتصفية حسابه مع أولئك المتخاذلين من أمراء الأندلس ، حتى تتوحد الجبهة الاندلسية ، تحت رايات المجاهدين المرابطية استعدادا لمواجهة العدو المتنمر - صفا واحدا - تحت قيادته الراشدة •

= القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث أدى النزاع بين ابن عبد العزيز (؟) أمير مرسية وابن عباد الى أن قبض القائد سير بن أبى بكر على « ابن عبد العزيز » (ابن رشيق) وتسليمه الى المعتمد ، وان اختلال المحلة كان سبب الفشل ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ - ١١٣ - حيث الاشارة الى المشاجرات بين المعتمد وصاحب المرية « المعتصم » ، وبينه هو نفسه وبين أخيه صاحب مالقة ، وان سبب الفشل النهائى فى لييط كان ورود الخبر بقدوم ألفونس •

(٨٧) أنظر القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث نزوال تحريفا لنزال ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٦٩ (ملحق فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٢) •

(٨٨) الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) - حيث النص على أن حامية بلنسية كانت مكونة من ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) رجل ، مع القول أيضا بأنه أردف بعد عسكرا عظيما بقيادة محمد بن تاشفين الى بعض الجهات ؟

(٨٩) القرطاس ، ص ١٥٣ - حيث النص على أن ابن عباد أخذ الحصن بعد اخلائه وفناء من كان به بالقتل والجوع ••• حيث لم يبق فيه غير مائة من الرجال ، وهم الذين عاد بهم ألفونسو ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧٠ (ملحق ٣ فى البيان ، ج ٤ ص ١٤٣) •

توحيد قيادة الجبهه الأندلسية تحت رايات أمير المسلمين :

انهاء نظام الطوائف : فتح اسلامى جديد :
٤٨٣ - ٤٨٤هـ/١٠٩٠ - ١٠٩١م

وبناء على ما تقدم يمكن القول أن فشل حصار حصن لييط فى شرق الأندلس فى الجواز الثانى لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى الأندلس ، فى صيف سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، قد أثبت حقيقتين تتعلقان بقضية أزمة « الجماعة والطوائف » لدى المسلمين فى الأندلس · وتتمثل أولاهما فى ان انتصار الزلاقة لم يحقق الهدف المأمول منه ، فى ايقاف خطر حرب الاسترداد الأسبانية ، والثانية تعنى بالتالى ، فشل مشروع التحالف المغربى - الأندلسى فى مواجهة الخطر المسيحى ، الأمر الذى كان يستدعى انفراد الطرف المغربى الناهض بعملية الانقاذ ، دون الارتباط بمعوقات الطرف الأندلسى المتهالك · وهذا ما كان يفكر فيه زعماء المرابطين الأوائل منذ دخولهم الى بلاد السوس ، وحربهم لبرغواطة التى شنوها تحت شعار فتح طريق الجهاد فى الأندلس (ما سبق ، ص ٢٣٠) ·

والحقيقة ان الأندلسيين بدورهم ، كانوا يرون ان زوال نظام الطوائف حتمية تاريخية منذ أن فتحوا الحوار مع يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، وأتى القضاء على ذلك النظام فى جواز أمير المسلمين الثالث ، الأمر الذى لم يستغرق الا « صائفتين » فى سنتى ٤٨٣هـ/١٠٩٠م - ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، ليؤكد على أرض الواقع صحة فرضية تلك الحتمية التاريخية · وهنا يمكن القول أن ضم الأندلس الى الدولة المرابطية - بهذا الشكل لم يكن فتحا بالمعنى المتعارف عليه ، بل كان أقرب ما يكون الى عمليات التسليم والتسلم بين كبار الموظفين ، أو بين رجال الحكم والادارة ، عندما يشغل الواحد مكان آخر - عن طريق التعيين أو عن طريق الاختيار ، فتشوب فرحة المتسلم القادم مرارة « المستسلم » الراحل · واذا كان البعض يعتبر هذا التغيير بالأندلس بمثابة فتح اسلامى جديد ، فالحقيقة انه كان نوعا من التجدد الاسلامى - الذى كان يتم عادة مع مطلع كل قرن ، معبرا عن حيوية الاسلام وصلاحه لكل زمان ومكان ، حسبما اعتقدت أوساط المتفائلين من المفكرين الاسلاميين ·

شريط الأحداث :

اما عن « سيناريو » (أحداث) التغيير فقد تم على الوجه التالى : دولة صنهاجة الزيرية فى غرناطة وفى مالقة وتوابعهما كانت أول دويلات الطوائف المستسلمة لأمير المسلمين ٠ واذا كان ذلك قد تم فى ظروف غامضة فيمكن تفسير ذلك على أساس القرابة العرقية بين لمتونة الصحراء الصنهاجية (المرابطية) ، وبين صنهاجة افريقية الزيرية (الفاطمية) ، أصحاب غرناطة ، حيث أخذ التغيير – على استحياء وبدون تكلف – شكل التسليم والتسلم ٠

وهـذا ما يفسر ظاهرة الخلط فى توقيت واقعة تنحية الأمير عبد الله ، صاحب غرناطة ، وتقديمها الى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، مباشرة بعد عام الزلاقة ، أو سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، بعد لييط بدلا من وضعها الصحيح فى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ، حيث يكون الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين ، الذى يتم فيه أخذ غرناطة ، وحدها دون بقية الممالك التى تسقط فى السنة التالية ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، بين يدى قواد أمير المسلمين الذى كان يشرف ، من سبتة ، على عبورهم الى الأندلس ٠ وهنا يسود نوع من الغموض على أحداث ذلك العبور (الثالث) حتى ليخيل الى الباحث فى هذا الأمر وكأن سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م كانت سنة عبور رابع(١) ، لولا ما سنعرفه فيما بعد من أن جواز أمير المسلمين الرابع يقع فى سنة ٤٩٦هـ/٣ – ١١٠٢م وانه لم يكن عبورا عسكريا ، بل جوازا تفقديا للنظر فى أحوال البلاد والعباد ، وأصول الحكم والادارة حسب مفهوم النظم المرابطية وتراتيبها (ص ٣٦٤) ٠

الأسباب العامة :

والحقيقة ان الغموض لا يحيط فقط بتوقيت ضم مملكة غرناطة قبل غيرها ، بل ان الأسباب من أساسية وثانوية لهذا الضم تتكاثر فيما بينها

---

(١) انظر ابن الأثير ، ج ١ ص ١٥٤ – حيث يجعل اخذ غرناطة سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م (أو فى نوبة الزلاقة – ص ١٨٩) ، او بعد حصار لييط ، (سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م) ، وانه حدث دون حرب بطريق الغدر عندما دخل يوسف بن تاشفين المدينة ولم يخرج منها ، بل أخرج صاحبها ، ص ١٥٥ – حيث كانت غرناطة اول ما ملكه من الأندلس ، ص ١٨٧ – حيث ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التى كانت للمسلمين (سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م) ، وقارن النويرى ، ابو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٧ – ٢٦٨ ، ثم ص ٢٦٩ – حيث النص على أنه فى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ملك فى جزيرة الأندلس ما كان بقى من بلاد المسلمين بها ، وذلك أنه سار فى هذه السنة من مراكش الى سبتة ٠٠٠ الخ ٠

وتتشابك بما يجعل تجليتها للعيان من الصعوبة بمكان ـ وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقارنة بين مواقف رؤساء الطوائف فيما بينهم أو بموقفهم من أمير المسلمين الذى كان يستطيع أن يتساهل فى حقوقه ازاء بعضهم الا أن يكون الأمر تفريطا فى حقوق الله أو سنن رسوله (ما سبق ، ص ٣٢٣) .
وهنا نبدأ بمذكرات الأمير عبد الله ، لنقلب النظر فى رأيه على وجوهه المختلفة فيما أصابه من الخلع ، وهو ما يعنى النظرة السياسية الواقعية فى مقابل الرؤية المثالية الشاملة ، فى الجانب الآخر . وهنا تتلخص الرؤية المستقبلية لحتمية الخلع ، كما رآها صاحب غرناطة ، فى عدد من الأسباب غير المباشرة التى رتبها زمنيا بشكل مقبول وهى :

١ ـ الأهمية النسبية لموقع غرناطة مقارنة بموقع مالقة ، من حيث كون الأولى على طريق الغزو المرابطى .

٢ ـ التجربة الفاشلة فى العمل المشترك فى حصار حصن لييط ـ حيث قال أمير المسلمين للرؤساء : « أصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم » ، ورفض أن يعطيهم عسكرا لمناجزة العدو .

٣ ـ جزاء سمار الذى نفيه ابن رشيق أمير مرسية ، بعد المحاولات التى قام بها من أجل التقرب من المرابطين وعلى رأسها ما انفرد به من اعلان خطبة الجمعة باسم أمير المسلمين .

٤ ـ تهديد الفقيه ابن القليعى بالثأر لما أنزله به (عبد الله) من التثقيف ، بسبب موقفه المعادى له فى لييط (أليدو) ، الأمر الذى تحقق بشكوى الفقيه فعلا الى أمير المسلمين ـ الى جانب شكوى فقيه غرناطة الآخر أبى بكر بن مسكن .

٥ ـ طمع الرعية بسعيهم فى حط (اسقاط) المغارم (الضرائب المستجدة) اكتفاء بالزكاة والعشر عند المرابطين .

٦ ـ المصالحة الخفية التى عقدها عبدالله مع ألفونس السادس ، وقضت بدفع الأموال المتأخرة منذ سنة الزلاقة ـ تماما كما فعل صاحب سرقسطة .

هذه الأمور هى التى أثارت اشفاق الأمير عبد الله من مصير مجهول على يدى أمير المسلمين أو ألفونس السادس الذى اضطر عبد الله الى مصالحته على أساس علاقات الحماية السابقة ، الأمر الذى دفعه الى العناية بتأمين بلده

ببناء الحصون المنيعة والأسوار الدفاعية(٢) ٠

الأســباب المباشرة :

لا شك أن أخطر الأســباب التى قطعت حبل الود بين رؤساء الطوائف ويوسف بن تاشفين ، بعد فشل لييــط الذى هبط بانتصار الزلاقه الى مستوى الحضيض ، كانت عودة العلاقات بين عدد من أمراء الاندلس وبين ألفونس السادس الى سابق عهدها ، من : التبعية ودفع الجزية السنوية — بما فيها ضريبة سنة الزلاقة ، كما فعل كل من أمير سرقسطه (ابن هود) وأمير غرناطة (ابن بلقين الصنهاجى) : « قريب » ابن تاشفين (الهامش السابق) ٠

والحقيقة أن أمير غرناطة كان يعرف خطورة هذا العمــل ، اذ يحاول استرضاء أمير المسلمين أثناء عبوره الثالث عن طريق السفراء الذين أرسلهم الى ســبتة على أمل أن يقبل يوسف الأمر الواقع ، ولكن دون جدوى(٣) ٠

---

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٣ — ١٢٥ — حيث النص أخيرا على القول : « وصرفت وجه احتيالى الى تشسييد الحصون ، فان غلب المرابط لم يفتنا الدخول فى طاعته ٠٠٠ وان غلب الرومى كنا منه على حذر » ٠ وهنــا يقرر الصنهاجى انه كان مضطرا الى أن يدفع لألفونس جزية ٣ (ثلاثة) أعوام بما فيها ســنة الزلاقة والتى تلتها ، وقدرها ٣٠ ألف دينار مرابطى ، دفعها من مدخراته وليس من أموال الرعية ، خشية الشكوى الى مراكش (مروكش) ، والقول : « أخذ أموالنا ، وأعطاها للنصارى » ، وقارن القرطاس ، ص ١٥٣ — حيث النص على ان سبب غزوة غرناطة أن صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حيوس كان قد صالح الفونسو الــ ٦ ، وظاهره على يوسف ، وبعث اليه بالمــال ، واشتغل بتحصين بلده ٠ وفى تحصين البلد قال بعض الأدباء المعاصرين ٠

يبنى على نفسه ســفاها   كأنه دودة الحــرير
دعوه يبنى فسوف يدرى   اذا أتت قدرة القدير

هذا كما يشير الأمير عبد الله الى مسائل ثانوية أخرى ، مثــل : تهديد ألفونس للمعتمد (ص ١٢) ، ونفاق يهود اليســانة (Lucena) ضاحية غرناطة ، الأغنياء ، الذين كان يقع عليهــم عبء الكثير من الضرائب الطارئة (ص ١٣٠ — ١٣١) ، وقصة زواج الأميرتين أختى عبد الله من بعض رجال الدولة ، دون عرض ذلك أولا على أمير المسلمين (ص ١٣٩ ، ١٤٣) ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٧١ — حيث الجواز الثالث سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ، وان السبب : ما كان على حصن لبيــط من ملوك الأندلس مما أحفظه (يوسف) وأوغر صدره عليهم ٠ وأنهم لمــا علموا ذلك نظر كل منهم لنفسه بغاية عزمه ٠ وأول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه المظفر (عبد الله بن بلكين ، صاحب غرناطة) ، وغضب يوسف بن تاشفين لذلك ٠

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٤ — حيث تكونت السفارة من ابن سهل القاضى ، =

وهكذا فعندما التقى يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد بقرطبة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) وتأكدت لديه شبهة العلاقة بين ألفونس السادس وعبد الله بن بلقين ، أرسل الى هذا الأخير يأمره بالحضور لديه فى التو واللحظة • وعندما اعتذر اليه عبد الله عن طريق الرسل ، أساء أمير المسلمين الى السفيرين ، وأخبرهما بعزمه على غزو صاحبهما ، تماما كما يغزو ألفونس « والذى يقدر عليه (عبد الله) فليصنعه »(٤) •

غرناطة أولا :

وبدأت كتب يوسف بن تاشفين تصل الى أهل اليسانة (Lucena) وقواد الحصون يطلب منهم الخضوع له(٥) • ولم تمض الا أيام قليلة ، قضاها عبد الله بن بلقين متفجعا مدهوشا ، حتى وصل العسكر المرابطى الى غرناطة ، يسبق أمير المسلمين • وفشل رسل عبد الله ، من فقهاء حاشيته فى اقناع يوسف بن تاشفين بقبول الهدية المالية ، اعتبارا لرابطة الدم بينهما ، حيث اعتبر عبد الله نفسه بمثابة ابن له • وأصر يوسف على خروجه اليه ، مع اعطائه الأمان فى نفسه وفى أهله ، دون المال(٦) • وهكذا ، وبمجرد

= وباديس بن زاوى النلكانى ، وحيث قال لهما أمير المسلمين : « يصنع ما شاء ؛ لست ممن يكلف أحدا الا طاقته » — ويعلق عبد الله على ذلك قائلا : « فكان ذلك منه دهاء وحذقا » • ولا بأس أن يكون ذلك ردا على افراح الأمير عبد الله بأنه كان مستعدا لتقديم المساعدة العسكرية لأمير المسلمين أو المالية ، ولكن دون أن يخرج بنفسه للمشاركة فى العمليات العسكرية المحتملة (ص ١٢١) •

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٧ — حيث أحد الرسل : ولد حجاج ، والآخر ابن ما شاء الله ، اللذين قرعا وثقفا فى الحديد •

٥ — مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٨ — حيث كان محتوى خطابات يوسف بن تاشفين : الآية من سورة الاسراء (رقم ٨١) التى تقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » •

(٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٤٩ — حيث اضافة أسباب أخرى مؤذنة بالزوال (ص ١٥٠ — ١٥١) — من ابتهاج الجند من البربر بأقاربهم المرابطين ، وعجز المطمعين من التجار وأهل البلدة عن الحرب ، وطمع الرعية فى الحرية • وفى التخفف من الضرائب باستثناء الزكاة والعشر • وهكذا كان الجميع يأمل فى مستقبل أفضل ، من : حماة الحصون من « الرقاصة » ، والعبيد الصقالبة ، بل والخدم من النساء والخصيان ، كل طامع فى اقبال الدنيا عليه والخروج من ثقاف العصر الى راحة التسريح ، والاستهتار بالرجال ، وما أشبه ذلك • وعن « الرقاصة » من حراس الحصون من العبيد السودان الذين كانوا يحملون البريد أيضا أنظر دوزى (Dozy) ، ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، ج ١ ص ٥٤٧ (حيث راقص المغربية تعادل ساع المشرقية) •

وصول أمير المسلمين خرج عبد الله بن بلقين اليه متوكلا على القدر ، حيث يقول : « وكأنما نساق الى الموت » • واذا كان عبد الله قد اطمأن بتأكيد الأمان له ولأهله فقد كان عليه ان يقدم ما لديه من الأموال ووثائق الممتلكات ، بعد ما صودر ما كان قد أخرجه بصحبته من الذهب والجواهر « والدنانير المرابطية » ، وذلك بمعرفة قرور : « أمين السر » الذى يشكك عبد الله فى أمانته التى قد لا تقاوم اغراء تلك الذخائر والكنوز(٧) •

والذى نراه أن رواية الأمير عبد الله تمثل التحليل الدقيق ، وبالتالى الواقعى الصحيح ، لموقف أمراء الأندلس جميعا وبلااستثناء ، من يوسف بن تاشفين : أمير المرابطين (المغاربة) وأمير المسلمين (الأندلسيين) - وهو باختصار موقف التمزق ما بين هاجس الخسران الفردى الآنى وأمل المستقبل الأفضل للأمة والجماعة • ولا شك أن صلة القرابة الصنهاجية كان لها دورها في وقوف عبد الله بن بلقين ذلك الموقف المتوازن ، الذى يعبر فى الحقيقة عن الواقع الغامض ما بين شك الخوف ويقين الرجاء •

والى جانب تلك الرواية المتوازنة ، يمكن أن نرى روايتين مختلفتين من حيث وقوف احداهما الى جانب اليمين المرابطى ، والأخرى الى جانب اليسار الأندلسى • والأولى هى رواية ابن أبى زرع التى لا تريد أن يكون الهدف الأول لأمير المسلمين ، فى جوازه الثالث سنة ٥٨٣هـ/١٠٩٠م ، هو الاستيلاء على أملاك المسلمين فى الأندلس ، بل تحطيم العدو الأسبانى المسيحى فهو يرى هنا أن ذلك العبور كان برسم الجهاد ، وأنه نزل على طليطلة وحاصرها وبها ألفونس ، وخرب نواحيها وقتل أهلها • أما عن غزوة غرناطة فكانت ثأرا من أمراء الأندلس الذين لم يستجيبوا لندائه للحاق به - الأمر الذى لا سند له فى مذكرات الأمير عبد الله أو غيرها من المصادر • والحق ان نص ابن أبى زرع بعد ذلك ، على ان يوسف بن تاشفين سار من حرب طليطلة الى منازلة غرناطة لأن صاحبها كان قد صالح ألفونسو السادس ، وظاهره على

---

(٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥٥ - ١٥٨ - حيث التفتيش الدقيق الذى يبلغ حد حفر الأرض ، والبحث عن الودائع عند الناس ، ومصادرة كل شيء ، والمهم ان عبد الله وجد العزاء عن كل ذلك فى ثقافة جيدة اذ يقول لأمه بتلك المناسبة : « ليس يدخر المال الا لثلاث : سلطان ، أو فتنة تدوم أو عمر يطول » • وعن ذخائر قصور غرناطة المصادرة ، أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٥ - حيث السبحة التى تحوى ٤٠٠ جوهرة ثمن الواحدة منها ١٠٠ (مائة) دينار ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦٨ •

يوسف ، وبعث اليه بالمـال ، واشتغل بتحصين بلده(٨) ، يشكك فى أن يكون ابن تاشفين قد مر بغرناطة مرور الكرام ، وأنه ترك فتحها لحين العودة من الجهاد •

اما عن رواية الحلل الموشـية التى تعبر عن وجهـة النظر الأندلسـية بعامة ، فهى ذات قيمة تاريخية عالية ، من حيث أنها تنص على أن يوسف ابن تاشفين بدأ باخراج تميـم ، أخى عبد الله بن بلقين الأصغر من مالقة ، وهو على الطريق الى غرناطة • ولمـا كان عبد الله لم يعرف بمصير أخيه الا فى مدينة مكناسـة بعد نفيه الى المغرب(٩) ، فان ذلك يعنى اختلاق قصة مهاجمة طليطلة ، كما ترد فى القرطاس قبل فتح غرناطة •

والمهـم أن الأمير عبد الله استقبل أمير المسلمين خارج المدينة لتسليمه البلـد ، وهو الأمر الذى يأخذ فيه صـاحب الحلل الموشـية برواية الأمير عبد الله ــ أهم وثيقة وصلت الينا فى هذا الشأن(١٠) •

وهـكذا تكون مملكة غرناطة الصنهاجية قد سلمت بشقيها فى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م الى أمير المسلمين بمحض ارادة أصحابها ، أقارب لمتونة أصلا دون حرب • أما عن تحديد اقامة الأميرين عبد الله وتميم بعيدا فى أغمـات ، بعد التعرف على أحوال البلد وتوطيد أمورها(١١) ، فهو أمر مشروع من حيث تأمين الأوضاع فى الاقليم الشمالى (الأندلسى) الذى دخل جديدا فى حظيرة المغرب ، الذى صار الاقليم الجنوبى من الدولة المرابطية (المتحدة) •

---

(٨) القرطاس ، ص ١٥٣ •

(٩) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ ــ حيث أبعد تميـم الى السـوس ، وأنه زار أخاه عبد الله على طريق مكناسـة ، فاخبره بهول ما قاسى ــ رغم انه كان أول من أطاع يوسف بن تاشفين ، وضرب الدراهم المرابطية •

(١٠) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، وما سبق ص ٣٣٠ أما عن رواية القرطاس المتحيزة للمرابطين فتجعل استسلام غرناطة بعد شهرين من الحصار (القرطاس ، ص ١٥١) •

(١١) الحلل الموشية ، ص ٧١ ، والقرطاس ، ص ١٥٤ ــ حيث النص على خـسـوف ابن عبـاد ، وانقباضه عنه ومشى الوشاة بينهما بالنمائم ، وتغير عليه يوسف •

استسلام بقية الأمراء فى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م :

سير بن أبى بكر نائبا لأمير المسلمين بالأندلس :

كان استســلام الأمير عبد الله وتسليمه غرناطة للمرابطين يعنى بداية النهاية بالنسـبة لبقية رؤســاء الطوائف بالأندلس ٠ وهذا ما كان أعلنه تقريبا ، أمير المسلمين بعد دخوله غرناطة ، عندما أتاه المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية وكبير الرؤساء ، وبصحبته المتوكل بن الافطس ، صاحب بطليوس للتهنئة بأخذ غرناطة ، فكان استقباله الفاتر لهما أشـبه ما يكون بالرفض لمسعاهما(١٢) ، فكأنه الانذار النهائى ، كما فى المصطلح الحديث ٠

وهــكذا بدأت الوحشة بين يوسف بن تاشفين وأمراء الأندلس بضم مملكة غرناطة الصنهاجية الى الدولة المرابطية ، وتمثلت القطيعة التامة بين الطرفين فى عــودة أمير المســلمين الى مراكش فى رمضـــان ٤٨٣هـ/أكتوبر ١٩٩٠م(١٣) ، فى أثر الأميرين عبد الله وتميــم (ابنى بلقين) ليطمئن على حسن عزلهما ، كما نظن ، بعد أن ترك زمام الأندلس ، وتقرير مصير بقية رؤسائها الى القائد سير بن أبى بكر ، الذى صار من وقتئذ بمثابة نائب الملك ــ بالنسبة لأمير المسلمين(١٤) ٠

والحقيقة أنه كان لطرد أمير غرناطة من الأندلس رنة حزن فى قلوب أمراء أشبيلية(١٥) ، ولم يكن أمام المعتمــد سوى أن يعيد سيرة أمير غرناطة ، اذ أخذ فى بناء الأســوار وترميم (عمل) القنطرة(١٦) ٠ وعندما تحسنت الأحوال الجوية بحلول صيف سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، أخذ يوسف بن تاشفين من ســبتة مقرا له ، حيث جمع جيوشه التى أعدها لانهاء نظام الطوائف ،

---

(١٣) القرطاس ، ص ١٥٤ ٠

(١٤) أنظر القرطاس ، ص ١٥٤ ــ حيث النص على ان يوسف بن تاشفين عندما جاز الى العدوة قاصدا مراكش قدم على الأندلس قائده : سير بن أبى بكر اللمتونى ، وفوض اليه جميع الأمور كلها ، ولم يأمره فى ابن عباد بشىء ٠

(١٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٧ ــ ١٨٨ ــ حيث كان الرشيد بن المعتمد يتوجع فى مجالس أنســه عندما يجرى ذكر غرناطة وقصرها ويتطير بذلك ٠ وقارن الحلل الموشية ، ص ٧٢ ــ حيث انصرف المعتمــد والمتوكل الى بلادهما اثر عودتهما من غرناطة وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف ٠

(١٦) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ــ الأمر الذى جعل الرشــيد يذكر والده المعتمــد بما كان من اعتراضه على دعوة الصحراوى الذى يخرجهم من بلادهم ٠

مكتفيا بالاشراف على جواز العساكر الى الأندلس حيث كان سير بن أبى بكر ، دون أن يعبر بنفسه(١٧) . فكأن الأمر يتعلق بفتنة لا يصح أن ينغمس فيها أمير المسلمين .

ولقد اقتضت « فتـوح » المرابطين فى الأندلس أن يترك أمير المسلمين مراكش العاصـمة ليتخذ رباطا ثانيا فى سـبتة ـ كما سيتخذ الموحدون رباطا ثالثا لهم فى الرباط الحالية ، ولكن من أجل فتوح برغواطة . وتطلب الأمر تطوير سـبتة وما فيها من المرافق بحيث تقدم الخدمات اللازمة لحشود العساكر من مقيمة فيها وواردة وصادرة . ولقد قام يوسف بن تاشفين بترميم جامع سـبتة والزيادة فيه من جهة الشمال حتى أشرف على البحر ، كما اعتنى ببناء بلاط المحراب الأعظم ، وزخرفته(١٨) بما فيه من المحراب والمنبر ، على ما يظن .

هـذا كما تطلب الأمر العناية بميناء سـبتة حيث رممت أسـواره السفلى (الستارة) ، الأمر الذى كان يؤمن مخيمات العساكر التى كانت فى حالة استرخاء ، من عناء السفر ، انتظارا للعبور(١٩) .

مسـار الأحداث :

وهنـا نشير الى ان سرد أحداث هذا الفتح الجديد للأندلس ، منتظمة فى مسارها الزمنى الصحيح ، ليس أمرا سـهلا بسبب فقدان الوثائق الأصلية وخاصة من الرسائل الرسمية ، التى أصابها التحريف على مر الزمن وتوالى الدول من صـديقة ومعـادية ، وكذلك الأمر بالنسـبة للروايات التاريخية التى نفتقد الكثير منها ، كما تعرض ما وصل الينا منها الى أعمال البتر والزيادة والتصحيف ، بل والتشويه ، بقصد أو بغير قصد ، حتى بعدت فى كثير من المواضع عن أصولها الأولى . واذا كان الفضل يرجع الى قدامى الأساتذة من المحدثين فى توطئة دراسة هذه الفترة وتمهيدها عن طريق الكشف عن مخابىء المصادر المخطوطة ثم التحقيق والنشر والبحث ، مما ظهر فى عمل جوزيف أشباخ ، وبخاصة أعمال رينهارت دوزى ، وخليفة

---

(١٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ (النويرى ، ص ٣٨٧) ـ حيث النول ـ وهما ـ أنه سير العساكر مع سير عبر المضيق .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٧٢ .

هذا الأخير : ليفي بروفنسال ـ كما كان يسميه الأستاذ عبد الحميد العبادي ـ ومن اهتدى بخطاهم ، مثل : عنان ومؤنس ، فان الأمل ما زال مرجوا في مواصلة الكشف عن وثائق جديدة ، والجهد في البحث والتقصي ، حتى تتلاحم أجزاء الموضوع ويغمر الضوء ما يكتنف أحداثه من الغموض ، فتتجلى الحقيقة واضحة للعيان ·

وهنا نرى أن كتاب التبيان لعبد الله بن بلقين الصنهاجي الذى نشره بروفنسال تحت عنوان « مذكرات الأمير عبد الله ، أمير غرناطة المعاصر ، الذى عاش الأحداث ، وشارك في نسيج سداتها ولحمتها ، هو أفضل وثيقة وصلت الينا فى موضوع الطوائف · والحقيقة أنها شهادة اعتراف أخيرة من رجل يتقدم بخطى ثابتة وعقل متفتح نحو نهايته الغامضة ، وهو لا يريد من سعيه هذا الا حكم التاريخ · فهو رغم مشاهدته لخلع بقية ملوك الطوائف بشكل مباشر ، فانه يذكر ما بلغه نقلا مما يقبله العقل ، لا بتخليط الناس »(٢٠) ·

الوحدة تحت الراية المرابطية : بداية لعملية الانقاذ :

والسبب الرئيسى لخلع بقية ملوك الطوائف ، هو نفس السبب الذى تم به خلع عبد الله من امارة غرناطة ، وهو خوف يوسف بن تاشفين على « بلاد المسلمين » بالأندلس من الرومي (ألفونس الـ ٦) · فأمير المسلمين لا مطمع له فى مال أو بلاد(٢١) ، فكان روايته موالية للمرابطين ـ ربما بحكم القرابة مما سبقت اليه الاشارة (ما سبق ، ص ٣٣٠) · وهذا ما يؤكده أيضا قول عبد الله فى مذكراته : ان أمير المسلمين ما كان يخالع ابن عباد الا بذنب ، وانه كان قد عرض عليه السماح والعفو شريطة التزام الرباط والجهاد ، واسقاط المغارم ، ولكن ابن عباد لم يرض بذلك(٢٢) ·

والى ذلك فلا شك أن فكرة توحيد المسلمين في الأندلس تحت راية

---

(٢٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ ·

(٢١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٤ ـ حيث النص على أن أمير المسلمين ، قبيل مجيئه الى غرناطة وقد وعد المعتمد بها ، اذ قال له : « أنا رجل مغربي وليس قدمنى أخذ مال ولا بلاد الا الخوف على غرناطة من الرومي ·· وكذلك كان موقف ابن الأفطس وصاحب المرية » ·

(٢٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ·

أمير المسلمين (المرابطية) في مواجهة حرب الاسترداد المسيحية الى جانب تخفيف عبء الضرائب عن كاهل الناس ، كانت تحظى بموافقة المجاهدين فى الحصون ، والرعية من التجار وأهل الأسواق ، وتزيد فى ارتباطهم بدعوة أمير المسلمين ، وترجح كفة أنصاره المرابطين . وهكذا كان المرابطى يستميل حماة المعاقل ويثير الرعية بكل قطر . الأمر الذى كان يضعف من قدرة ملوك الطوائف على المقاومة والصمود ، ويجعل المواجهة وما يتبعها من الاستسلام أشبه بأعمال التسليم والتسلم بين كبار رجال الدولة الواحدة ، حقا .

خطة شاملة لغزو ملوك الطوائف :

من الواضح أن يوسف بن تاشفين عندما رجع بعد الاستيلاء على غرناطة الى مراكش ، فى خريف سنة ٤٨٣هـ/١٠٦٠م ، كان يهدف الى اعداد العدة لتقضاء — دفعة واحدة على بقية ملوك الطوائف المتحالفين مع ألفونس السادس كسابق العهد بهم ، وبدون استثناء رئيسهم ، المعتمد بن عباد وبنيه الذين كانوا يسيطرون على معظم أراضى الوسط والجنوب الأندلسى ، فى : آشبيلية وقرمونة ورندة الى حدود الجزيرة الخضراء جنوبا ، وشمالا الى قرطبة وحتى قلعة رباح — آخر امتداد الأراضى الاسلامية فى اتجاه نهر تاجه(٢٣) .

والذى يفهم من الخطة التى قضت ببقاء أمير المسلمين فى المغرب ، واتخاذ سبتة قاعدة للحشد ومركزا متقدما للاشراف على سير العمليات الحربية فيما وراء المضيق ، هو اعطاء يوسف بن تاشفين الفرصة لمواجهة ما قد تتطلبه الجبهة الأندلسية من حشود وامدادات من مراكش ، فى الوقت المناسب . كما كان ابتعاده عن ميدان المواجهة صونا لذاته من التعرض لتجريح الغيبة والنميمة ، وحفظا لشخصه من التعرض لمخاطر القتال ، كما حدث فى الزلاقة ، وهو الأمر الذى لم تكن تسمح به النظم المرابطية الأولى ، والدولة فى بداية أمرها على عهد عبد الله بن ياسين وأبى بكر بن عمر فما بالنا وقد أصبح أمير المسلمين مركز الدائرة ، ومعقد الآمال فى كل بلاد الأندلس ، فضلا عن المغرب(٢٤) .

---

(٢٣) القرطاس ، ص ١٥٥ .

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٦ — حيث التعليق على استيلاء السيد (El-Cid) على مدينة بلنسية بقوله : وأول ما يجب أخذ أنفسنا به : اخلاص النية لأمير المسلمين — أيده الله ، لأن صلاح المسلمين بصلاحه .

ورغم ما يوجد من تقديم وتأخير في فتح مدن الأندلس وترتيب خضوعها لحكم يوسف بن تاشفين في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد غرناطة ، فان مملكة العبـاديين كانت الهدف الأول بالنسبة للقائد سير بن أبى بكر ، من حيث كونها فى مركز الوسط ، أشبه بحجر الزاوية الذى تسقط بسقوطه أركان البناء • أما مقولة أن أمير المسلمين لم يأمر نائبه القائد سير بن أبى بكر بشىء فى ابن عبـاد(٢٥) ، فهدفهـا ، كما نرى تجميـل موقف يوسف بن تاشفين الذى كان يرى ابتداء ، أنه من حسن السياسة أن يقرب المعتمد من نفسه حتى يسهل عليه التخلص من صغار المشاغبين من الأمراء كابن رشيق (صاحب مرسـية) أو قريبيه الصنهاجيين : تميـم وعبدالله (صاحبى مالقة وغرناطة) •

وفى محـاولة تلخيص الأعمال الحربية التى قامت بها حامية الأندلس المرابطية بقيادة سير بن أبى بكر ، والجيوش الأخرى التى أرسلها يوسف ابن تاشفين من سـبتة عبر المجاز سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، يتراوح الأمر بين ٤ (أربع) عمليات كبيرة استهدفت ٤ (أربع) مدن هى : أشبيلية والمرية وقرطبة وبطليوس(٢٦) ، أو ٦ (ست) باضافة : قرمونة وجيان(٢٧) •

واذا كان مما يحمد لصاحب كتاب الحلل الموشية (المجهول) اجتهاده فى محاولة تلخيص عمليات استيلاء يوسف بن تاشفين على الأندلس ، وضمها الى البلاد المراكشية فى السنة الثانية من العبور الثالث (٤٨٤هـ/١٠٩١م)

---

(٢٥) القرطاس ، ص ١٥٤ •

(٢٦) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٧٧ ، ١٩٣ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٢ ، ٣٨٧ - ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ •

(٢٧) القرطاس ، ص ١٥٤ - ١٥٦ ، وقارن ابن خلدون (الذى ينقل عن القرطاس - دون أن يشير الى ذلك) ، ج ٦ ص ١٨٧ وما بعدها - حيث الجواز الثانى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م خطأ وهو مصحح الى ٤٨١هـ/١٠٨٨م فى ترجمة دسلان ، ج ١ ص ٧٩ - حيث الخلط بين جواز لبط (اليدو) ٤٨١هـ/١٠٨٨م وفتح غرناطة ومالقة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م وص ١٨٨ - حيث الجواز الثالث فى سنة ٤٨٠هـ/٧ - ١٠٩٦م بدلا من ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ثم جواز الأمير يحيى بن أبى بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ٩٣(٤)هـ/١١٠٠ - ١٠٩٩م ، وانضمام محمد بن الحاج اليه مع سير بن أبى بكر - حيث اقتحموا عامة الأندلس من أيدى ملوكها ، وذلك بدلا من سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وقارن ص ١٨٨ ، والترجمة ص ٨٢ - حيث الجواز الرابع فى سنة ٩٧(٤)هـ/١١٠٤م - وهى السنة التى زحف فيها المنصور بن ناصر الحمادى الى تلمسـان •

وى ٤ (أربع) حملات موجهة بشكل متوازى الى :

١ ــ أشبيلية ثم بطليموس ، بقيادة نائب الأندلس سير بن أبى بكر .
٢ ــ قرطبة بقيادة أبى عبد الله محمد بن الحاج .
٣ ــ المرية بقيادة أبى زكريا بن واسينوا(٢٨) .
٤ ــ رنـدة بقيادة جوْذر الحشمى .

فانه مما يؤسف له اعتـذاره عن هـذا الاختصار بأن الأمر مشهور ، ولا داعى اذن لنتقصى(٢٩) . و هنـا يحسن أن نشير الى أن رواية القرطاس وهى أوفى الروايات من حيث اهتمام صاحبها ابن أبى زرع ليس بالتقصى فقط ، بل وبالعناية بتدعيم الأحداث بما أمكنه من التواريخ الدقيقة .

اما عن رواية الأمير عبد الله فهى الأجدر بالثقة من غير شك . هذا ، كما يتضح من الروايات جميعا أن اهتمام المؤرخين منصب على بلاد الوسط والغرب من الأندلس ، بينما تأتى أخبار شرق الأندلس شـبه عابرة ، ربما بسبب عدم دخول بنى هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى فى مشروع الضم ، لتطرف الثغر المجاور للبلاد الأسبانية المسيحية فى الشمال الشرقى . وساعد على ذلك أيضا موقف ابن هود المتزن من ألفونسو والمرابطين ، والذى كان مقبولا من أمير المسلمين ، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسـبة لأمراء الوسط والجنوب ، لقربهم من العدوة المغربية .

وعلى أسـاس القرب أو البعد من قاعدة الحشـد العسكرى المرابطى فى سـبتة ، حيث كان مستقر أمير المسـلمين ، توجد معلومات متناثرة ، تنقصها التواريخ الدقيقة ، عن شرق الأندلس والثغر الأعلى مما يتعلق بترك ابن هود فى مملكته لأنه كان من الشجعان(٣٠) ، الى جانب أخبار عن عواصم

---

(٢٨) وهو فى القرطاس ، محمد بن عائشة وانظر ما يأتى ، ص ٣٤٢ هـ ٣٦ .

(٢٩) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(٣٠) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ــ حيث اضطراب النص الذى يبدأ (فى ص ١٨٧) عن ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التى للمسلمين بالكلام عن أخذ قرطبة واشبيلية فى رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م لكى يجعل بعد ذلك (فى ص ١٨٩) مسيرة سير بن أبى بكر بعد عبوره الخليج (خطأ) مباشرة الى اخضاع كل من مرسـية وشـاطبة وبلنسـبة (وهو الأمر المستغرب) وان فسر ذلك بأن تلك الحملة الشرقية وقعت أثناء حصـار اشبيلية ، فكأنها كانت لمواجهة الجيش الذى أرسله ألفونس الـ ٦ نجـدة للمعتمـد والحقة أن الأمير عبد الله يقول بعد سقوط نظام الطوائف فى اشبيلية وبطليوس انه « نشأ بعد ذلك أمر بلنسبة ... » =

الشرق من : طرطوشة ودانية وشاطبة وشقورة وبلنسية ، فى مرحلة ما بعد تهدين اشبيلية والغرب(٣١) ٠

نهاية مملكة العباديين باشبيلية وتوابعها :

رغم قلة المصادر اللازمة لدراسة نهاية عصر انطوانف ، من حيث ان الاساسى منها قد لا يتجاوز كثيرا أصابع اليدين عدا ٠ ورغم قصر الفترة الزمنية التى قد لا تتجاوز ربع القرن من أواخر عهد أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ، وهو الشخصية المرموقة بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا وشبه جزيرة أيبيريا على الأقل ، فان ترتيب أحداث تلك الفترة بشكل منهجى من الصعوبة بمكان ٠ فالوثائق الأصلية ما بين مفتقدة فى غمار ما مر بالبلاد من الاضطرابات السياسية والدينية أو ممسوخة بسبب ما اصابها من آفات البتر والزيادة والتشويه ، باستثناء القليل ، مثل : مذكرات الأمير عبد الله التى يرجع الفضل فى اكتشافها الى الأستاذ ليفى بروفنسال (مثلما اكتشف مذكرات البيدق ، فى أخبار مهدى الموحدين ابن تومرت) ٠

فبفضل آراء الأمير عبد الله بن بلقين (صاحب غرناطة) يمكن التعرف على بواطن الضعف فى نظام رؤساء الأندلس فى مواجهة المرابطين ، مما يلخصه فى مقولة : ان « صلاح المسلمين بصلاح أمير المسلمين » (مما سبق ، ص٣٣٥ ، هـ٢٤) ٠ وبفضل حاسته التاريخية العلمية التى تقضى باستبعاد ما لا يقبله العقل من تخليط الناس ، والتوقف عن اثبات ما لا يصح من الأخبار ، يمكن الاسترشاد فى محاولة اعادة شيء من الترتيب لنهاية الطوائف ٠ ويظهر ذلك فى عرض الموضوع فى شكل ممالك مستسلمة وليس فى شكل بلاد منهارة تماما ، كما حدث فى غرناطة الصنهاجية وتوابعها ، مما كان قدوة يحتذى بها ، حتى تتسق بداية الاستعانة بالمرابطين مع النهاية

= ويبين ان الصراع كان ما زال سجالا بين المرابطين والنصارى فى هذا الشان ، وانه يترك التأليف ناقصا الى أن يتم ما يرجوه من « ان يكون الظهور للمسلمين » ٠ وأنظر بعد ، ص ١٩٣ –حيث النص الى جانب شجاعة بنى هود ، استعداد مدينتهم روطة لمفاجآت الحصار ، وقارن النويرى ، ص ١٦٨ – حيث النص على انه بعد انقضاء الدولة العبادية صار ملك الأندلس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وص ١٦٩ – حيث النص على ان سرقسطة والثغر الأعلى « فكانا بيد ابن هود » (منذر بن يحيى) ٠

(٣١) أنظر القرطاس ، ص ١٥٦ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ – عن سرقسطة وبلنسية وبرشلونة ٠

المتوقعة للرؤساء الأندلسيين - وهو الأمر الذى كان يستوعبه المعتمد بن عبـاد ، عندما فضل « رعى الجمال على رعى الخنازير » (ما سبق ، ص ٢٩٥) ، والذى ربما كان القصد منه ، فى حينه مجرد الحوار ٠

قيـادة الحامية المرابطية :

مقر نيابة الأندلس :

الذى يفهـم من الروايات الخاصة بالحامية المرابطية فى الأندلس أنها كانت موزعة على العواصم الكبيرة ما بين ٣ آلاف وألف رجل ، بينما كانت حاميات الحصون على الحدود (الثغور) تعد بالمئات وربما العشرات(٣٢) ٠ وعندما عبر المعتمد بن عبـاد فى السنة التالية للزلاقة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) عن الشكوى من نصارى حصن لييط (Alédo) ، يفهم من بعض الروايات ان أمير أشبيلية ، كبير الرؤساء ، كان يأمل أن يبعث معه أمير المسلمين حامية يقودها بنفســه الى لييـط ، وربما لتكون تحت تصرفه بعد ذلك(٣٣) ٠ واذا كان يوسف بن تاشفين قد رفض ، بعد فشل حصار لييـط ، مطالب الأمراء بترك حامية لديهم ، فانه خص بلنسـية التى كان يهددها الأسـبان بحامية من ٤ (أربعة) آلاف رجل (ما سبق ، ص ٣٢٤) فكأن عسـاكر المرابطين كانوا متفرقين فى العواصم والثغور ، الأمر الذى دعا الى تململ المجـاهدين منهم ، مما كانوا فيه من الجهـد والتعب ، بينما كان السـادة الأندلسيون ينعمون بحياة الرفاه والترف (ما سبق ص ٣١٨) ٠

اما بعد سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ودخول غرناطة الصـنهاجية فى الدعوة المرابطية ، فكان من الطبيعى أن تصـبح « حصون الحمراء القديمة » مقرا للحشد الكبير من المرابطين فى الأندلس ، بمعنى أن غرناطة كانت بمثابة مقر القائد ، نائب أمير المسلمين ، سير بن أبى بكر ، منذ تلك الفترة السابقة على صيف سنة ٣٨٤هـ/١٠٩١م ٠ أما عن مقولة أن سير بن أبى بكر كان على رأس الجيش الأول ، الذى عبر من سـبتة فى صيف ٤٨٤هـ/١٠٩١م

---

(٣٢) ما سبق ، ص ٣١٨ و٧٣هـ ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٦ ، والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٨٢ - حيث النص على أنه عند رجوع أمير المسلمين الى المغرب بعد الزلاقة ، خلف عسكرا باشبيلية تحت قيادة محمد ومجون (ابن مجمون (ou-Meggoun) بن سيموين (Semouin) بن محمد بن وركوت (ابن وركوت (ou-Reggout) من عشيرته ويعرف ابوه بالحاج - وكان محمد من بطانته ، واعاظم قواده ٠

(٣٣) أنظر يوسف أشباخ ، ترجمة عنان ، ج ١ ص ٩ ٠

ما سبق ، ص ٣٣٦) ، فأغلب الظن أنها تعنى اشراف سير بن أبى بكر من الجزيرة الخضراء على عملية العبور ، بينما كان أمير المسلمين يصدر اليه الأوامر من سبتة • وكان من بين تلك الأوامر بدء سير بالتوجه لأخذ أشبيلية •

الشروع فى غزو أشبيلية :

والذى يفهم من الرواية المرابطية ان الأوامر قد صدرت من سبتة الى سير بن أبى بكر بأن يبدأ بالشروع فى انهاء نظام الطائفة الأشبيلية ، وذلك مع بداية صيف سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م • ومن الواضح ان الخطة كانت تقضى بأن يرجىء استخدام العنف الى آخر وقت ، وفى أضيق الحدود • ولا بأس أن كان نموذج دخول غرناطة سلما هو الأفضل ، بصرف النظر عما يقال من الغدر أو الخديعة (ما سبق ، ص ٣٢٧) • فهذا ما تعنيه رواية القرطاس التى تنص على أن الأمير سير بن أبى بكر كان يتوقع عندما أقبل على أشبيلية أن يخرج اليه المعتمد بن عباد بما كان متعارفا عليه من الترحيب بنائب أمير المسلمين وتقديم الضيافات لعسكره ، وكأن الو… ما زال متصلا بين المعتمد وبين أمير المسلمين •

وهنا وجد سير اعلان المعتمد بضرورة تسليم بلاد مملكته(٣٣م) التى كانت تشتمل على كل من : قرطبة وقرمونة ورندة ، كما كانت تخضع لها جيان ، وعدد من الحصون والقلاع ، التى حكمها بعض أبناء المعتمد الذين بلغوا مائة ذكر غير الاناث(٣٤) ، والمقربون منه من رجال الدولة • ولم يستجب المعتمد للدعوة الموجهة اليه باسم أمير المسلمين فقط ، بل انه حذر ابن الأفطس فى بطليموس ، وأخذ فى مراسلة ألفونسو السادس طالبا منه النجدة(٣٥) •

وعندما وجد سير ان أعمال التحصين أخذت تسير على قدم وساق فى المدينة ، كان عليه أن يتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة لاحكام الحصار

(٣٣ م) القرطاس ، ص ١٥٤ ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٨ - ١٦٩ •

(٣٤) أنظر النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ ، وأنظر فيما بعد ، ص ٣٤٧ •

(٣٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ - حيث يسمى الفونس « بالرومى » ، وينص على انه « قعد عنه » خيفة من التغرير بمعنى انه آثر السلامة خشية التورط فى ذلك الأمر •

حولها ، بهدف ارغام المعتمد الذى كان معتصما بقلعة قصوره المعروفة بالقصبة على طاعة أوامر أمير المسلمين(٣٦) • ولما كانت مدينة أشبيلية مفتوحة من جهة الغرب على نهر الوادى الكبير ، حيث كان مرسى الأسطول الذى كان يحميها من ذلك الجانب ، ويخفف من وطأة الحصار المفروض على الضفة الشرقية للنهر ، كان الأمر يتطلب اعداد جيش ثان لمواجهة الأسطول •

ودون تضييع الوقت انتظارا لاستكمال الحشود والعدد كان على سير أن يلجأ الى اثارة أهل البلاد على حكامهم العباديين فى كل مكان ، واستخدم فى ذلك الفقهاء والعلماء الذين كانوا يرون أن غزو المرابطين لبلادهم أمر مباح ، وذلك ما سهل سقوط الكثير من عواصمهم ومعاقلهم دون جهد كبير(٣٧) •

أخذ المرية :

وهكذا كان دخول المرابطين الى المرية بغير قتال على يدى القائد محمد بن عائشة(٣٨) ، اذ تقول الرواية ان أميرها محمد بن صمادح مات غما ، وهو على سرير المرض ، عندما علم بقدوم المرابطين بينما فر ابنه المعز فى رمضان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م فى البحر لاجئا الى بجاية فى كنف المنصور بن الناصر بن علناس الحمادى(٣٩) •

---

(٣٦) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ ، القرطاس ، ص ١٥٤ •

(٣٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ – حيث النص على ذهاب كثير من معاقل ابن عباد بالطاعة ، وقارن الذخيرة لابن بسام ، ق ١ م ٢ ، ص ٦٥١ – حيث القاء تبعة الفتنة منذ بداياتها الأولى على المعتمد – حيث القول : « وأشد هذه العصابة المشئومة ابن عباد الذى سل سيف الفتنة والبغى من قرابة ••• فغزا على الاسلام فى عقر دارهم ••• واستعار اثم الشهيد هشام المؤيد لغير أهله •

(٣٨) أنظر القرطاس – ص ١٥٥ ، وهو فى الحلل الموشية : أبو زكريا بن واسينوا (ما سبق ، ص ٣٣٧) •

(٣٩) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٧ – حيث النص على أنه مات عندما وصل المرابطون الى باب المدينة ، مع الاشاره الى أنه كان قد أوصى ابنه وولى عهده المعز بأن يبقى محصنا بالمدينة طالما بقى المعتمد صامدا فى القصبة (القلعة) • فاذا ما خرج من اسبيلية فعليه أن يغادر المرية فى التو واللحظة على أن يلجأ الى الجزائر فى كنف بنى حماد •• وهذا ما فعله المعز فعلا ، اذ خرج عندما تأزم الموقف فى مركب شحنه بجميع ما يقدر عليه من ذخائره ، بل وكان ذلك فى السر ، وعلى أنه « ناهض الى أمير المسلمين بهدية ، ليهدن بذلك أهل المرية » • وقارن ابن بسام ، الذخيرة ، ج ٢ ق ١ م ٢ ، ص ٧٣٤ – حيث النص على أن ابن صمادح – مثل المعتمد – كان قد جاهر بالعصيان • =

سقوط جيان وقرطبة :

وهكذا رأى سير بن أبى بكر ألا يضيع كل جهده فى حصار أشبيلية ، وأن يحسن استغلال نجاح الدعاية المرابطية فى اكتساب شعب الأندلس الى جانب سياسة أمير المسلمين التى قد تؤمن لهم عملية الانقاذ حقا ، وأن تبدأ بأخذ ما يمكن أخذه من البلاد بأيسر السبل . وأصدر سير أوامره فعلا الى مرءوسه القائد بطى بن اسماعيل بالمسير الى جيان التى كان صاحبها عبد الله بن بكر من أتباع ابن عباد ، وأخذها . وبعد أن حاصر بطى المدينة نجح فعلا فى دخولها صلحا(٤٠) .

ورأى سير أن يستغل الظروف المواتية ، فاسرع وهو يزف الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خبر خضوع جيان ، بالكتابة الى بطى بن اسماعيل يأمره بترك تلك المدينة ، والمسير لأخذ قرطبة التى كانت تحت امرة المأمون بن المعتمد بن عباد(٤١) . ولم يطل حصار مدينة الخلفاء طويلا فلقد سقطت بفضل مداخلة أهلها ، وذلك فى ٣ صفر ٤٨٤هـ/٢٦ مارس ١٠٩١م . وكانت عقوبة المأمون بن المعتمد هى القتل ، وكذلك الأمر بالنسبة لوزيره ابن زيدون(٤٢) .

= أما عن ميتته فكانت أدبية تناسب موضوعات الكتاب . فعندما سمع جلبة أصوات المرابطين ، وهو مريض قال : لا اله الا الله ، نغص علينا كل شىء حتى الموت . وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على هرب صاحبها (معز الدولة) فى البحر الى افريقية بامواله اله ، وأسلم له البلد ، فملكها المرابطون ، وكتب محمد بن عائشة بالفتح الى أمير لمين ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، والترجمة ص ٧٩ - حيث النص انه بمجرد بدء العداوة مع المعتمد ابن عباد بعث (يوسف بن ناشفين) جيشا الى رية ، ففر عنها ابن صمادح ، ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية (وان وضع ذلك خطأ فى الجواز الثانى) سنة ٨٦(٤)هـ/١٠٩٣م بدلا من (٤٨١هـ/١١٨٨م) . وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٢ - حيث يجعل فتح المرية ، بعد سقوط اشبيلية وعلى يد سير بن أبى بكر نفسه ، وان واليها محمد بن معن بن صمادح مات غما ، وأن ولده خرج باخوته واهله فى مركب الى الجزائر (بامواله) والتحق ببنى حماد فاحسنوا اليهم ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ ، نصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ - حيث نهاية النص « والتحق ببنى حماد » الذين اسكنوه تدلس ، وهو تحريف كما نرى .

(٤٠) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤١) القرطاس ، ص ١٥٤ .

(٤٢) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ - حيث النص على قتل من يسمى ا ن بكر (مع الوزير) واغلب الظن انه عبد الله بن بكر والى جيان السابق الذى قد يكون لجأ الى قرطبة .

تهدين أعمال قرطبة وموقف المعتمد من الفونس :

وكان على بطى أن يهدن بـلاد قرطبة بالاستيلاء على أعمالها من البلدان والقرى وما يتبعها من القلاع ، من : بياسة الى أبذة أو حصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة . ولما كان ابن أبى زرع يذكر بشىء من المبالغة ، كما نرى ، أنه لم ينته شهر صفر الذى فتحت قرطبة فى اليوم الثالث منه ، حتى لم يبق بيد أبى عباد بلد الا وقد ملكه المرابطون ، ما عدا قرمونة وأشبيلية(٤٣) ، فأغلب الظن أن هذه الرواية تحمل فى ثناياها فكرة سقوط تلك البلاد والحصون بمداخلة من أهلها ، والطاعة لأمير المسلمين ، حسبما ينص عبد الله بن بلقين على أن « المرابط داخل معاقله (المعتمد) فقامت عليه الرعايا بكل قطر » . وهنا يكون استنجاد المعتمد - الذى كان يرى قرب نهايته - بألفونس حسب تقرير الأمر عبد الله ، فى موضعه الصحيح(٤٤) ، كما تضع الرواية الأخرى التى يأخذ بها ابن الأثير ومن تبعه من الكتاب ، وهى التى تقول ان الأفرنج ، والمقصود ألفونس السادس ، كانوا قد قرروا منذ البداية تقديم المساعدة للمعتمد ، ليس حبا له ولكن خوفا من المرابطين(٤٥) . هذا ، ولا بأس أيضا أن يكون التفكير فى المساعدة العسكرية للمعتمد قد حدثت بعد أن طلبها المعتمد اثر سقوط قرمونة فيما بعد ، أى فى يوم السبت ١٧ ربيع الأول ٤٨٤هـ/١٠ مايو ١٠٩١م ، كما يرى ابن أبى زرع(٤٦) . وما يتبعها من سقوط رندة ، التى استولى عليها قرور من الراضى بن المعتمد خدعة ، بعد أن مناه بالأمان فى نفسه دون المال ، ثم قتله(٤٧) .

---

(٤٣) القرطاس ، ص ١٥٤ ، وأنظر الروض المعطار ، ص ٥٧ - حيث بياسة على ٢٠ ميلا من جيان ، ص ١١ - حيث ابذه على ٧ اميال من بياسة ، ص ٨٥ - حيث الحصن المدور قرب بياسة ، ص ١٠٥ - حيث شقورة من أعمال جيان .

(٤٤) المذكرات ، ص ١٦٩ ، وما سبق ، ص ٣٣٧ .

(٤٥) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤٦) القرطاس ، ص ١٥٥ - حيث النص على دخول قرمونة عنوة من قبل سير بن أبى بكر ، وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أنها فتحت قبل سقوط اشبيلية ، ومات فيها عالم كثير .

(٤٧) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ - حيث النص على أن قرور تخلص من الأمير العبادى الراضى دون اذن من السلطان (أى أمير المسلمين) ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ - حيث النص على غلبة (والى الأندلس الأمير) سير (بن أبى بكر بن محمد ابن وركوت) على كل عمله (ابن عباد) ، واستنزل أولاده : المأمون من قرطبة ، ويزيد الراضى من رندة وقرمونة - واستولى على جميعها وقتلهم .

تحييد القشتاليين : هزيمة البرهانس :

وهكذا سارت خطة تصفية مملكة بنى عباد على ما يرام ، وكان الأمير سير بن أبى بكر فى موقف يسمح له باجهاض أية عملية مساندة من قبل القوات الأسبانية المسيحية ، قد تمكن المعتمد من الصمود · فعندما علم سير بقدوم القائد (القومس : الكونت) المسيحى البرهانس (Alvar Hanez) على رأس حملة كبيرة يزيد عددها على ٢٠ (عشرين) ألف رجل ، بين فارس وراجل لمساعدة المعتمد على فك الحصار حول اشبيلية ، أسرع سير بانتخاب ١٠ (عشرة) آلاف فارس من خيرة الرجال ، وسيرهم تحت قيادة الأمير ابراهيم بن اسحق اللمتونى ، الذى التقى بالأسبان فى منطقة حصن المدور حيث دارت واحدة من ملاحم المرابطين المشهورة فى الأندلس · فلقد انتهت المعركة التى صبر فيها الفريقان الى حد الفناء ، بانتصار دفع المرابطون فيه الكثير من الشهداء ، بينما استؤصل رجال البرهانس ، فلم ينج منهم الا العدد القليل — الأمر الذى قطع الأمل تماما ، فى امكانية صمود ابن عباد(٤٨) ·

الثغر الأقصى : قلعة رباح :

والمهم من كل ذلك أن بطى بن اسماعيل نجح فى المهمة التى كلفه بها سير بن أبى بكر ، وهى دخول قرطبة وتهدين أعمالها ، الأمر الذى سمح له بالاستقرار فيها ، من حيث كان يشرف على رم ثغورها · وهكذا اهتم بطى بن اسماعيل بأعمال قلعة رباح ، آخر حصون بلاد قرطبة على الحدود مع قشتالة ، فخصها بحامية مرابطية من ألف فارس من المرابطين يرأسهم قائد لمتونى مكلف بالنظر فى حسن سير العمل فى القلعة ، وضبط الأمور على طول الجبهة(٤٩) ·

نهاية العباديين فى اشبيلية :

وهكذا كان يمكن لسير وقد تخفف من هاجس معونة محتملة يقدمها

---

(٤٨) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ — حيث النص بشيء من المبالغة على تكوين حملة البرهانس ، من ٢٠ ألف فارس و٤٠ ألف راجل · الأمر الذى أوجب الاكتفاء بالرقم الأول دون الثانى حتى ينسجم مع عدد الحملة المرابطية ، وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ (والنويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٣) · وقارن مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٦٩ — حيث خاف الأدفنش من التورط فى ذلك الأمر ·

(٤٩) القرطاس ، ص ١٥٥ ·

الفونس السادس الى المعتمــد ، أن يحكم الحصار حول اشبيلية ، عن طريق جيش جديد يهاجم الضفة الغربية للمدينة عبر النهر • وفعلا استولى الجيش الثانى على الأســطول الاشبيلى فى نهر الوادى الكبير ، وتمكن من اعتلاء الاسوار ودخول المدينة بمخامرة أنصار المرابطين من اهلها ، وذلك فى يوم الاحد ٢٢ رجب سنة ٤٤٨هـ/١١ سبتمبر ١٠٩١م(٥٠) •

وتظهر فى رواية ابن الأثير نزعة أندلســية عندما تتحدث عما لحق بأهل اشــبيلية على أيدى الغزاة المرابطين من أعمــال النهب والسلب ـ وانتهاك الحرمات ، بمعنى فتــح العنوة واستباحة المدينة المفتوحة ، وقد يؤكد ذلك ما تنص عليه رواية موازية من ان المعتمــد بن عباد سلم البلد بالأمان ، وأنه كتب نسخة العهد ، ولكن المرابطين لم يوفوا له(٥١) • اما عن الرواية المغربية التى يمثلها ابن أبى زرع فتقتصر على استمرار سير (والمرابطين) فى حصار اشــبيلية حتى دخلها على المعتمــد ، فأمنه فى نفســه وأهله وولــده(٥٢) فكأن الأمان تفضــل كريم على المعتمــد ، من قبل نائب أمير المسلمين •

والحقيقة أن الرواية الأندلســية النزعة تتبلور حول شخصية المعتمــد ابن عبــاد ، الذى يشــتغل بالحرب والشرب والذى يقول الشــعر ويعشق

---

(٥٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٠ ـ حيث ينص المؤلف الغرناطى على أن دخول اشــبيلية كان بعد عام من دخول غرناطة ، مدينته المفتقدة • وقارن القرطاس ، ص ١٥٥ ـ حيث نفس التاريخ ٢٢ رجب ٤٨٤هـ/٩ سبتمبر ١٠٩٦م ، عن طريق الوادى ، والنويرى • أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ـ حيث نفس رواية ابن الأثير مع مزيد من بعض التفاصيل ، الذخيرة لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ص ٥٦ ـ حيث دخل عليه البلد فى ٢٠ رجب (٤٨٤هـ/ ٩ سبتمبر ١٠٩١م) فخاطب ، منجمه (أبا بكر الخولانى) شعرا •

ارمــدت ام بنجومك الرمــد   قد عاد ضــدا كل ما تعــد

(٥١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٠ ـ حيث القول ان الفاتحين سلبوا الناس ثيابهم ، فخرجوا من مســاكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، ••• وسبيت المخدرات وانتهكت الحرمات ـ وكأن الأمر يتعلق بأعمال الفتن التى كانت تثور قديما بين العرب والبربر أو بين العساكر وأهل المدينة ، وخاصة فى قرطبة العاصمة التى حلت محلها الآن اشــبيلية • وقارن النويرى أبو ضيف ص ١٦٣ ـ حيث النص على أسر المعتمــد ومعــه أولاده الذكور والاناث ، بعــد استئصال جميع أموالهم • وقيل ان المعتمــد سلم البلد بأما ن، وكتب نسخة الأمان والعهد واستحلفهم على نفسه وأهله وماله وعبيده ••• فلما سلم العهد اليهم لم يفوا له ، ونصار ، ج ٢٤ ص ٢٦٩ ـ حيث اختلاف الرواية المبتسرة هنــا عن السابقة •

(٥٢) القرطاس ، ص ١٥٥ •

النســاء(٥٣) ، فى مقابل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى يوصف بالبساطة والورع ، والتمسك بتعاليم الدين ، فلا يقلل من شأنه الا اساءته للمعتمـد ، التى تعتبر مدخلا لوسـمه بشىء من الخسة واللؤم (ما سبق ، ص ٢٤٨) ٠ والحقيقة ان المعتمـد بن عبـاد الذى تنسب اليه ضروب من الشـجاعة فى الدفـاع عن مدينته ، لا تقـل كثيرا عمـا نسب اليه يـوم الزلاقة(٥٤) ، كان ما يزال يقاوم الاستسلام بعد سقوط اشبيلية (المدينة) ، وهو معتصم بالقصبة (القلعة الكبيرة) التى كانت تعتبر بمثابة الحى الملكى فى اشبيلية ، يتوسطه القصر (Alcazar) والجامع ، ويحيط بهما معسكرات الحرس الخاص ، ومقار كبار القواد ٠

والمهـم أن مقاومة المعتمـد انتهت ، كما تقضى أصول السياسة ، تحت الحاح أهل الحاشية والمقربين بالاستسلام(٥٥) ، وذلك نظير الأمان فى النفس، دون الأموال والعبيد والخدم والحشم ــ تماما كما حدث فى غرناطة قبل

---

(٥٣) هـذا وان كان وراء هذه الواجهة الناعمة غلظة قلب لا مزيد عليها ، لا تتمثـل فقط فى القتل واراقة الدماء فى الحرب ، بل التى تصل فى حب الثار والتشفى الى حد الاحتفاظ برؤوس القتلى مصبرة فى بعض الخزائن وكانها تحف أثرية ، أو التوسع فى ذلك ونصبها فى رؤوس العيدان وكانها حديقة الموت ــ أنظر الذخيرة لابن بسـام ج ١ (ق١ م١) ، ص ٣٨٨ ــ حيث رؤوس أمراء بطلبوس المختزنة (من حرب سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م) عند ابن عباد باشـبيلية ، ج ٣ (ق٢ م١) ، ص ٢٧ ــ حيث النص على وجود حديقة ، بباب المعتضـد بن عبـاد ، تطلع كل وقت ثمرا من رؤوسهم (الأعداء) المهداه اليه مقرطة الآذان برقاع الأسماء ٠٠٠ ترتاح نفسه لمعاينتها ٠٠٠ وكان محمد بن عبد الجبار المهدى ، مفرق الجماعة بقرطبة سبق ابن عبـاد الى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه ٠ وفيها قال صاعد ابن الحسين :

جلاء العين بهجة النفوس　　　حدائق أطلعت ثمر الرؤوس

ص ٢٨ ــ حيث النص على أنه لمـا خلع المعتمـد ، وجد جوالق مطبوع عليه ، وظن أنه مـال أو ذخيرة ، فاذا هو مملوء رؤسـاء (منها) : رأس يحيى بن على بن حمود ، ثابت الرسـم متغير الشكل ، فدفع الى بعض ولده فدفنه ٠

(٥٤) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ، وقارن النويرى ، ابو ضيف ، ص ١٦٣ ، وما سبق (عن الزلاقة) ، ص ٣٠٧ ٠

(٥٥) الذخيرة ، ج ١ (ص ٢ م ١) ، ص ٥٢ ــ حث تقول الرواية انه يوم دخل عليه المدينة ، فى منتصف رجب سنة ٤٨٤ هـ / ٤ سبتمبر ١٠٩١م قال فى ذلك شعرا منه :

قالوا الخضـوع سـياسة　　　فليبد منك لهم خضـوع

وألذ من طعـم الخضوع　　　على فمى السـم النقيع

عـام(٥٦) ٠ وهذا ما يفسر تلك الرواية التى تقول ان المعتمـد سلم البلد بأمان ٠٠ وأنه كتب نسخة العهد ٠٠ فلم يوفوا له (ما سبق ، ص ٣٤٥) ٠ بمعنى ازدواجية فتح اشـبيلية : عنوة (بالنسبة للمدينة وأهلها الذين نكل بهم) ، وصلحا (بالنسبة للمعتمـد وأهله ، حسبما قضت شروط الصلح) _ وهو الأمر الدارج فى كثير من الفتوح الاسلامية الأولى ٠

وتمثل انتهاك أمان المعتمـد فى مقاتل أبنائه ممن كان يخشى خطرهم ، سواء فى اشـبيلية أو أعمـالها من قرمونة ورنـدة ممن تزخـر أشـعاره برثائهم(٥٧) ٠ والقبض عليه بعد اطلاق أمهات الأولاد من نسائه ، ومن كان لا يخشى منه من أبنائه الذين بلغوا حوالى المـائة عدا(٥٨) ، ثم حمله مع الأبناء الصغار الى جانب البنات ، بحرا عبر المجاز(٥٩) الى سـبتة ، ومنها ساروا الى مكناس موضع تجمع الأمراء المنفيين من الأندلس ، حيث التقى بهم صاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، قبل نقل الجميع الى أغمات(٦٠) ٠

نهاية المعتمـد بن عباد فى أغمات :

والذى نراه أن نفى المعتمـد الى بلاد البربر على يدى أمير المسلمين ، هو الذى فجر طاقات الأمير المحارب ، شاعر المناسبات الموهوب ، وجعلته

---

(٥٦) أنظـر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ _ حيث النص على انه : « لمـا ظفـر بابن عبـاد فيأ الأمير سير خدمه وعبيده (أى اعتبرهم فيئا يقسم كالغنيمة) ، حاشى أمهات الأولاد ٠ وفى قفول يوسف بن ناشفين بعد ذلك (من سبتة) الى مراكش ، تقول نفس الرواية : و» بعد الفتح انصرف أمير المسلمين الى مراكش (وقد) امتلأت يداه بالمـال (الذى) قسمه على أجناده ، وأهدى الى الصحراوى عمه من تلك الذخائر ٠

(٥٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩١ _ حيث النص على مقتل ولديه الفتح (صاحب قرطبة) ، ويزيد (الراضى صاحب رنـده وقرمونه ؟) بين يديه (فى اشـبيلية) صبرا ، وقارو النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٦ _ حيث يقول المعتمد فى رثاء ولديه اللذين ذبحا بين يديه :

يقولون صبرا لا سـبيل الى الصـبر　　سـأبكى وأبكى ما يطـاول من عمرى
ولو عدتما لاخترتما العـود فى الثرى　　اذا انتمـا أبصرتمـــانى فى الأسر

(٥٨) أنظر النويرى ، أبو ضبف ، ص ١٦٤ ٠

(٥٩) أنظر الذخيرة لابن بسـام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٥٦ _ حيث النص على أنه اطلقت أمهات أولاده وبنيه ٠٠٠ وعمر بهم مركبا ، فركبوا البحر ورزقوا السلامة فيه الى أن وصلوا الى أمير المسلمين ٠٠٠ وبقوا هناك فى كنفه ، تحت احسانه عليهم الى أخريات أيامه سنة ٤٨٨ هـ / ٥ _ ١١٠٤ م ٠

(٦٠) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧١ ٠

يصنع من نهايته المحتومة ، مأساة فاجعة أشبه بمآسى اليونان القديمة أو مقاتل الطالبيين الاسلامية ، كما شاركه فى هذا الصنيع ندماؤه من الأدباء والشعراء الذين نعوا مجالس أنسه ، بنفس الايقاع الذى كان ينعى به نفسه • ولا نعرف ما اذا كان بعضهم وهو يرجو أخذ عطاء الأسير ، كما كان يفعل وهو أمير ، كان يحسن الظن بما يكتنزه من المال أم كان لا يهتم باستنزاف بقية ما كان يدخره لبناته - اللاتى اضطررن الى الغزل بالأجر •

والمهم ان اقامة المعتمد ، مثقفا بأغمات كما تقول بعض الروايات ، كان موضوعا لذلك النوع من الشعر الشجنى الذى ساد فى ذلك العصر ، والذى كان يعالج أشياء من أحوال البلاط ومجالس الأنس ، على وجه الخصوص • فمما نظمه المعتمد فى أسره بأغمات ، تلك الأبيات التى وجهها الى الشيخ عبد الجبار بن أبى بكر بن حمد يس ، بالمهدية :

غريب بأقصى المغربين أسير   يبكى عليه منبر وسرير
أذل بنى ماء السماء زمانهم   وذل بنى ماء السماء كبير(٦١)

وقريب من هذا ما قاله المعتمد أيضا فى يوم عيد ، وهو بالمعتقل أسير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا   فصرت كالعبد فى أغمات مأسورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا   فردك الدهر منهيا ومأمورا(٦٢)

ومن شعر وزير المعتمد الشهير : أبى بكر محمد بن اللبانة ، الذى ذهب اليه بأغمات ، ومدحه وهو فى سجنه فقال :

انما أنت درة للمعالى   ركبت الدهر فوقها أصدافا
أنت للفضل كعبة ولو انى   كنت أستطيع لالتزمت الطوافا

---

(٦١) الذخيرة ، لابن بسام ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٥ ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٧ - حيث النص على ان ابن حمديس كان قد توجه الى الأندلس سنة ٤٧١ هـ / ٩ - ١٠٧٨ م فقصد المعتمد وأقام عنده الى أن خلع ، وكان مما رد به على المعتمد ، فى أغمات ذلك البيت :

جرى لك جد بالكرام عثور   وجار زمان كنت منه تجير

(٦٢) النويرى ، أبو ضيف ، ص ٢١٦ •

وكانت هدية المعتمد التى حملها ابنه شرف الدولة الى الشاعر (الوزير السابق) ٢٠ (عشرين) مثقالا مرابطية ، وثوبين من القماش ، وبضعة أبيات شعر من نظمه يعبر بها عن الاعتذار عن قلة الهدية التى لا تتناسب وقدر المهدى ، ومنها :

اليك النزر من كف الأسير ... وأن تقنع تكن عين الشكور
ثقيل ما يذوب به حياء ... وان عذرته حالات الفقير(٦٣)

وفى حفيد المعتمد « فخر الدولة » الذى عمل بصنعة الصاغة بعد نهاية الدولة ، قال أبو بكر الدانى ، وقد رآه وهو ينفخ النار بقصبة الصائغ :

صرفت فى آلة الصواغ أنملة ... لم تدر الا الندى والسيف والقلما(٦٤)

اما أجمل ما قيل فى ابن عباد ، فهو ما أنشده وزيره ابن اللبانة على قبره يرثيه فى يوم عيد :

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عداك عن الجواب عوادى(٦٥)

غزو بطليوس : آخر ممالك الوسط والغرب :

وبسقوط اشبيلية لم يبق أمام سير الا بطليوس ، التى تمتد أعمالها غربا حتى أشبونه (لشبونه) وشنترين (Santarem) من جنوب البرتغال حاليا(٦٦) ، وكان صاحبها : المتوكل عمر بن الأفطس يساعد المعتمد بن

---

(٦٣) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦٤) الذخيرة ، ج ٣ (ق ٢ م ١) ، ص ٧٩ ، وقارن النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٨ - حسث نخر الدولة ابن المعتمد (وليس حفيده) وانه تعلم حرفة الصياغة بناء على طلب حميه الخباز ، الذى رفض أن يزوج ابنته الجميلة « الا ممن له صناعة يستر حاله وحالها بها ان احتاج اليها » . وفى ذلك قال المعتمد « هذا رجل عاقل ، فامر باحضار الصناعة الى القصر ، وعلم نخر الدولة الصياغة ... الخ » .

(٦٥) الذخيرة ، ج ٣ ، (ق ٢ م ١) ، ص ٤١ ، النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٦٧ .

(٦٦) أنظر عبد الله عنان ، الطوائف ، ص ٣٦٩ ، عن استعادة أشبونة (نوفمبر ١٠٩٤ ؟/ذو القعدة ٤٨٧هـ) ، وص ٣٨٣ عن نفوذ فرذلند (فرناندو) سنة ١٠٥٧م / ٤٤٩هـ الى شمال البرتغال ؟ والى أطراف بطليوس الشمالية الغربية وحصاره مدينة بازو (Vizeu) واقتحامها على أهلها المسلمين ، واستيلائه على لامجو (مليقة) شمالها واسكان النصارى بها ، دون أن يتحرك ابن الأفطس .

عباد على الصمود فى مواجهة المرابطين ، ولا يدارى فى التعاون مع ألفونس السادس • ورغم أن ابن الأفطس لم يكن يســتطيع الوقوف وحـده أمام القوات المرابطية المظفرة فى كل الجبهات ، كما تحظى بتأييد أهـل البــلاد الساخطين على أمرائهم فى كل مكان ، فان سير بن أبى بكر رأى استخدام الحيلة فى أخذ بطليوس بأيسر السبل ، عن طريق استخدام خصم بن عباد ، صاحب مرسية السابق : عبد الرحمن بن رشيق ، بصفته أندلسيا خبيرا فى تدبير المكائد ، نظير استعادته لمدينته مرسية (ما يأتى ، ص ٣٥٣) • فأطلقه من حبسه ــ الأمر الذى أثار وتئذ الكثير من التخمينات • وتبعـا للخطة المدبرة دخل ابن رشيق بطليوس كخصم للمرابطين ــ على ما نظن • وعن هذا الطريق نجـح فى مداخلة أهـــل البلد ، بل وفى اشراك حرس القصبة (القلعة الأميرية) فى تدبيره ، وبذلك تم له القبض على « الشيخ » : المتوكل عمر بن الأفطس ، وابنيه الفضل ولى العهد ، والعباس ، اللذين قتلا ، بين يدى أبيهما دون رحمة أو شفقة(٦٧) •

والحقيقة ان ابن الأفطس لم يؤاخذ بذنب التحالف مـــع المعتمد بن عباد ، بل بمغالاته وبعض بنيه فى التشبث بالملك الى حد الوقوف فى صف ألفونس السادس ، دون مواربة • وتظهر هذه النزعة ــ التى لا تفسرهـا الا العلاقات الوثيقة بين بنى الأفطس وجـــيرانهم الأسبان من البرتغـاليين والقشتاليين • فلقد بلغ الأمر الى حد أن عرض ولد ابن الأفطس على أبيــه المتوكل الاختيار بين التخلى عن الرئاسة للمرابطى أو الفرار الى « الرومى » « ألفونس السادس » والسكنى فى بعض البلاد (الاســـلامية) التى فى طاعته • وأنه عندما رفض المتوكل هذا الاقتراح ، خرج الابن هو نفسه ، بماله وولده مهاجرا من بطليوس(٦٨) •

وبسقوط بطليوس (Badajoz) يكون المرابطـــون قد ضموا الى حولتهم كل أراضى الوسط والغرب من الأراضى الاسلامية الأندلســية ، ولم

---

(٦٧) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٤ ــ حيث النص على أن الأمير سير أمر بقتل المتوكل مع ابنيه • وقارن ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٩٣ ــ حيث النص على ان ابن الأفطس طلب أن يقدم ابنه (ولى العهد) قبله ليكون فى صحيفته ، والنويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٨ •

(٦٨) أنظر مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٧٢ ــ حيث الاشارة الى أن الفقيه ابن الأحسن السجلماسى أصلا ، والبطليوسى اقامة ، والذى كان مقربا من الأمير المتوكل ، كان يعلن ان « كونه فى الثغر ينفع المسلمين » ، وهو يعمل (حقيقة) فى خلع صاحب بطليموس •

يبق أمامهم الا اقليم الشرق الذى كان موضع الشــد والجذب بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا منقسمين بدورهم على أنفسهم ، مما كان يزيد فى تعقيد المواقف ، وبالتالى فى صعوبة الوصول الى ترتيبات أمن واستقرار فى أحد الجانبين أو الآخر ٠

المرابطون فى شرق الأندلس :

ويتميز تدخل المرابطين فى الشرق ، حيث : مرسية ودانية وبلنسية وطرطوشه ثم سرقسطة بالصعوبة الشديدة ، مقارنة بسهولة اســتحواذهم على اقاليم الغرب ٠ ويمكن تفسير ذلك بأنه رغم وطأة الضغط المسيحى على الشرق ، فان ما حققته حرب الاسترداد من نجاح هناك كان أقل كثيرا مما تحقق فى الغرب ٠ ولا شك أن بدء المقاومة المسيحية ، فى منـــاطق ليون واشتوريش وغاليسيا فى الركن الشمالى الغربى من أيبريا ، حول مركزى شنت ياقب (سنتياجو ديكومبوستيلو) وافييدو (Oviedo) ، ســهل استرجاع الأراضى الغربية الموازية لساحل المحيط الأطلنطى من الشمال الى الجنوب ، حيث غابت الأساطيل الاسلامية عن تلك السواحل التى صــارت مسرحا لمراكب المجوس (النورمان) منذ القرن الثالث الهجرى (٩ م) قبل أن تصبح المياه الاقليمية فيها ، منــذ القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، ممرا عموميا لمراكب الفرنسيين والانجليز الصليبية ، الذاهبـــة الى شرق المتوسط ، والتى كانت تمد يد العون لصليبية الاسترداد الاسبانية ٠ وهذا ممـــا يسر نزول الثغر الأدنى جنوبا بغرب الى حـــدود لشبونة شنترين (ما بعد ، ص ٣٦٩) ٠

وعـــلى العكس من ذلك كان الوجود الاســـلامى فى الجزر الشرقيـــة (ميورقة : البليار) بصفة خاصة ، الى جانب الوجود الاسلامى فى صقلية وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا (البروفانس والألب) ، من العوامل التى ساعدت على ثبات المسلمين فى شرق الأندلس ، مقـــابل : دانية وشاطبة وبلنسية ، وعلى بقاء الثغر الأعلى شمالا فى سرقسطة وأعمالهـــا ، بحيث صارت الحدود الاسلامية تسير من الشمال : جنوبا بغرب ، من سرقســطة (الثغر الأعلى) ، الى طليطلة (الثغر الأوسط) الى بطليوس الثغر الأدنى الذى لم يلبث أن انزلق ، بعد سقوط طليطلة (الثغر الأوسط) ، ســـنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م الى قلعة رباح (أقصى ثغور قرطبة) ، الأمر الـذى كان يســمح فى قرننا (الـ ٥ هـ/١١ م) هذا ، بغارات مسيحية تهدد الأراضى الاسلامية الى طريفة ، على شاطىء المجاز (ما سبق ، ص ٢٨٥) حتى قدرت الأراضى المسيحية بـ ٧/٨ (سبعة أثمان) مساحة ايبيرية ، مقابل الـ ١/٨

الثمن) فقط للمسلمين عندما فكر المرابطون فى الجواز الى الأندلس (ما سبق ، ص ٣٠٠ ، والحلل ، ص ٤٩) ٠

وهكذا اذا كان يوم الزلاقة قد جدد الأمل فى رتق فتق طليطلة ، وتهدين الغرب فى اشبيلية وبطليوس ، فان ما وقع فى لييط (Alédo) غداة الزلاقة كان يعنى خرقا جديدا قد ظهر فى الشرق ، فى مرسية التى خرجت على أمير المسلمين ، وفى بلنسية التى أرسل اليها ابن تاشفين ٤ (أربعة) آلاف فارس من المرابطين (ما سبق ، ص ٣٢٤) ٠ وبذلك يكون المرابطون قد انغمسوا فى مشاكل الشرق قبل غزوهم للغرب ، اذا لم تكن مسألة لييط الشرقية هى السبب المباشر للقضاء على أمراء الأندلس فى الغرب ٠

والظاهر أن هذا التدخل المبكر من قبل المرابطين فى شئون شرق الأندلس ، كان السبب فيما يظهر لدى بعض الكتاب من اختلاط الروايات المتعلقة بفتح الشرق ، بتلك التى تتعلق بغزو الغرب السابقة عليها ، مما نراه فى محاولة رسم الخطوط العريضة لخضوع اقليم الشرق لسلطان المرابطين ٠ وهنا لا بأس من الاشارة الى أن اختلاط الروايات هو الصدى الطبيعى لاضطراب الأحوال ٠

فالذى يفهم من رواية ابن الأثير أن فتح المرابطين لاقليم شرق الأندلس جميعا ، من مرسية الى دانية وشاطبة وبلنسية ، قد تم دفعة واحدة بمعرفة سير بن أبى بكر ، وكأنه تكملة لفتوحه فى الوسط والغرب ، خلال العبور الثالث ليوسف بن تاشفين ، وأنه كان فى السنة الثانية لذلك العبور وهى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م أى مع غزو اشبيلية وبطليوس(٦٨ م) ٠ أما النويرى الذى يشارك بن الأثير نفس المصدر ، فهو عند نهاية ملوك الطوائف ، وحيث يذكر نهاية غرناطة ، يقول : «وانقرضت جميع هذه الدول ، وصارت الأندلس جميعها للملثمين ، على ما نذكره — ان شاء الله عز وجل — فى أيام أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين »(٦٩) ٠ ولكنه فى ملك أمير المسلمين لجزيرة الأندلس لا يشير الى شرق الأندلس ، ولا يقول فى نهايتها الا : « وتتابعت

(٦٨م) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٨٩ ٠

(٦٩) النويرى ، أبو ضيف ، ص ١٧٢ — حيث النص على فتح غرناطة سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م بدلا من ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ٠

الفتوح على أمير المسلمين حتى احتوى على جميــع بلاد الأندلس التى كانت للمسلمين ... وفتح فى بلاد الفرنج فتوحا كثيرا »(٧٠) . ولـما كان صاحب الحلل الموشية قد أعرض عن تفصيل غزو المرابطين لممالك الطوائف(٧١) ، لا يبقى لنا الا قرطاس ابن أبى زرع ، وعبر ابن خلدون الذى ينقــل عنه ويضيف اليه ، مع محاولة ترتيب الأحــداث ، وان تعرضت روايته الى التحريف مما يظهر فى ترجمة دسلان (Du Slane) .

أخذ قبرة ومرسية : شعبان ٤٨٤ هـ/سبتمبر ١٠٩١ م :

وآخر ما عرفناه عن مرسية ، ثورتها التى أدت الى فشل حصار حصن لييط حيث ثارت المدينة على يوسف بن تاشفين اثر مجاملته للمعتمد بن عباد ، عندما امر سير بن أبى بكر بالقبض عـــلى ابن رشيق أمير مرسية وتسليمه بعد تنقيفه الى ابن عباد الذى ســجنه فى اشبيلية (ما سبق ، ص ٣٢٣) . أما آخر ما عرفناه عن ابن رشيق ، فهو أنه كان وسيلة سير الذى أطلقه من السجن الكى يحيك مؤامرة سقوط قرطبة ـ نظير استعادته لمرسية (ما سبق ، ص ٣٤٢) . ولـما كان سقوط قرطبة قد تم فى شهر رجب ، وتبعها سقوط مدينة « قبرة » فى شهر شعبان بين أيدى المرابطين ، وذلك قبل قليل من سقوط مرسية فى شهر شـــوال التـالى ، بين يدى يوسف بن داود بن عائشة ، وكذلك أعمالهـــا ـ حســبما ينص ابن أبى زرع(٧٢) . ولما كانت قبرة القريبة من شرق قرطبة ، على بعد ٣٠ (ثلاثين) ميلا ، فى منتصف الطريق المؤدى جنوبا بشرق من شقندة : ضاحية قرطبة الجنوبية الى البيرة المتاخمة لغرناطة ، من حيث يكون الطريق ، عبر بسطة ولورقة الى مرسية(٧٣) ، فبفضل الموقع الاستراتيجى لقبرة ما بين مرسية

---

(٧٠) النويرى ، أبو ضيف ، ص ٣٨٧ ـ حيث قرطبة واشبيلية والمرية وبطلبوس . ص ٣٨٩ ، نصار ، ج ٢٤ ، ص ٢٦ ـ ٢٧٠ .

(٧١) الحلل ، ص ٧٣ ـ حيث النص على انه « كان ما هو مشهور من الاستيلاء على بلادهم ، والغلبة على ممالكهم ، وليس هذا موضع التقصى » .

(٧٢) أنظر القرطاس ، ص ١٥٥ ـ حيث اسم المدينة نبرة ، وهو تحريف لقبرة ، كما نرى . وذلك بصرف النظر عن اختلاف كل من المذكرات (ص ٣٤٢) والقرطاس (هنـا) فى تحديد شهر سقوط قرطبة .

(٧٣) أنظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٤٩ ـ حيث منطقة قبرة كثيرة المياه ، وجبلها غنى بضروب النواوير وأصناف الأزاهر وأجناس الأفاوية والعقاقير ، كما تحسن بها ضروب الغراسات ويكثر الزيتون . أما سوقها الجامع فيوم الخميس ، وأما مسجدها الجامع فله ٣ (ثلاث) بلاطات . وعن موقع قبره ، أنظر عبد الله عنان ، الآثار الباقية ، الخريطة أمام ص ٢٦ .

وقرطبة ، نرى أن يكون عبد الرحمن بن رشيق قد قام بدور مهم في دخول مرسية في شعبان سنة ٤٨٤ هـ/سبتمبر ١٠٩١ م ، في طاعة المرابطين ، مثلما دبر استسلام قرطبة خدعة بغير قتال ٠ ولا بأس أن يكون ذلك مدعاة لما تقوله الرواية من أن القائد يوسف بن عائشة كان « عادلا ورعا فأحبه الناس »(٧٤) ٠

وهكذا عاد عبد الرحمن بن رشيق الى رئاسة مرسية تحت رايات المرابطين ، ولا بأس أن يكون ما تقوله بعض الروايات من أنه دعا في الخطبة لأمير المسلمين (ما سبق ، ص ٣٢٣) يعني بعد رئاسته الثانية هذه ، والتي استمرت الى وفاته بمرسية سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣(٧٥) ٠

دخول دانية وشاطبة :

وبعد أن قضى الجيش المرابطي في مرسية أشهر الشتاء الأخيرة من سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ، خرج يوسف بن داود بن عائشة ، عندما تحسنت الأحوال الجوية في سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، ليستكمل فتح الشق الأوسط من ساحل الشرق ، مما وراء مرسية ، حيث مدينتي دانية ـ دار صناعة الأسطول ، وقاعدة الغزو ، في جزر البحر الشرقي ـ وشاطبة(٧٦) ٠ وكانت دانية قد آلت ، منذ رمضان سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م (عام طليطلة) ، بعد العامريين : بني مجاهد أصحاب الجزائر الشرقية ، الى المنذر بن أحمد المقتدر بن هود صاحب طرطوشة(٧٧) ، فانتزعها منه ابن عائشة دون مقاومة ٠ ومن دانية على الساحل سار ابن عائشة نحو الداخل غربا الى شاطبة القريبة ، التي دخلها المرابطون دون قتال أيضا ، سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، بعد أن فر صاحبها ابن منقذ(٧٨) ٠

---

(٧٤) القرطاس ، ص ١٥٥ ٠

(٧٥) النويري ، أبو ضيف ، ص ١٧٠ ٠

(٧٦) القرطاس ، ص ١٥٦ ، وعن دانية أنظر الروض المعطار ، ص ٧٦ ـ حيث النص على ان السفن واردة عليها ، وان الأسطول كان يخرج منها الى الغزو ، وبها ينشأ أكثره لأنها دار انشاء ، ومن أعلى جبلها في الجنوب كانت تظهر جبال يابسة ثالثة جزر ميورقة ـ في البحر ٠

(٧٧) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى في عصر المرابطين ، ص ١٤ ٠

(٧٨) القرطاس ، ص ١٥٦ ـ اما ما تقوله رواية ابن أبي زرع من ان ابن عائشة سار بعد ذلك الى مدينة شقورة فنرى أنه تكرار لا داعي له ـ حيث أنه سبق النص على فتح شقورة مع بياسة وأبذة ، بعد فتح قرطبة ، وهو الأمر المقبول ابتداء ، من حيث ان شقورة كانت من أعمال جيان ، كما نص الحميري في الروض المعطار (ما سبق ، ص ٣٤٣ وهـ ٤٣) ٠

غزو بلنسية :

نهاية القادر بن ذى النون :

وبعد شاطبة يأتى خضوع بلنسية للمرابطين فى خريف سنة ٤٨٥ هـ/ سبتمبر ١٠٩٢ م ، مكملا « لصائفة » ابن عائشــة المظفرة • والحقيقــة أن الأوضاع فى بلنسية وقتئذ ، كانت اشبه بتلك التى عرفتها طليطلة قبيل سقوطها بين يدى الفونس السادس سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م • وذلك أننـا لا نعرف شيئا عن مصير الحامية التى كان قد أرسلها يوسف بن تاشفين بعد ليبط الى بلنسية للدفاع عنهـا ، والتى بلغت ٤ (أربعــة) آلاف فارس (ما سبق ، ص ٣٢٤) ، وهــل كانت قد دخلت المدينـة حقـا ، أم أن مـآلها كان المرابطة فى غرناطة ، قاعـدة المرابطين الصـنهاجية ، حقيقة ! فالقادر بن ذى النون كان يملك بلنسية التى استبدلها ، بمعرفة الفونس السادس ، بطليطلة — بمعنى أنه كان أميرا تابعا ، وان الحكم كان لعمــلاء الفونس السادس الذين كانوا يفرضــون الضرائب والاتاوات على ســـائر أعمالها(٧٩) • والحقيقة ان منطقة بلنسية كانت واقعة تحت حماية الســيد الكمبيادور (El Cid, El- Compeador, Alvar Roderigo)او ميوسيد(Mio Cid) الذى كان قد سخط عليه الفونس السادس ، فصار يعمل فى شرق الأندلس لحساب بنى هود أصحاب سرقسطة والثغر الأعلى(٧٩ م) ، الذى نجحوا فى مد نفوذهم حتى دانية(٨٠) قبل أن يعمل (السيد) لحسابه الخــاص • وكان أهل بلنسية ساخطين بطبيعة الحال على هذه الأوضاع ، كما فعل قبلهم أهل طليطلة ، بفضل تحريض أهل العلم والدين ، وكان عــلى رأسهم قاضى

---

(٧٩) ابن عذارى ، ص ٣١ — حيث النص على ان « القمبيطور » (النبيطور) أخذ بمخنق بلنسـبة يجبى رعينها ويشتغلها : حاضرة وبادية ، وقد استضعف ابن (حفيـد) ذو النون ، ملكها المشتنوم ، وانظر القرطاس ، ص ١٥٦ — حيث النص على أنه كان بها « بلنسـية) القـادر بن ذى النون ، والحاكم فيها من النصارى يجبون خراجها ، وقارن مجهول ، فى ابن عذارى ، ج ٤ (ملحق ٤) ، ص ١٤٧ — حيث النص على ان القادر بن ذى النون صادق الفونس (الفنش) ، وهاداف فخاف أهل بلنسـية ان يملكها (الفونس) كما ملك طلبطلة •

(٧٩م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣١ — حيث النص على ان ابن هود كان يمير لزريق وأصحابه ويقصـده بالسـلفة ، وانه كان فى شعبان سنة ٤٨٥هـ/سبتمبر ١٠٩٢م مســتقرا بسرقسطة وقد استخلف على أطعمته المختزنة وضرائبه المفترضة ببلنســية • فتنفس مخنق أهلها ، وانفرجت الضيقة عنها •

(٨٠) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٣ — مع ملاحظة اضطراب بعض التواريخ •

المدينة الشهير : ابن جحاف (أبو أحمد جعفر بن عبد الله) الـذى ينسب اليه حث المرابطين - عندما وصلوا الى مرسية - على تقديم المعونة العسكرية لبلنسية ، الأمر الذى يذكر بالمفاوضات الأولى مع المعتمد قبل الزلاقة ، مـع الاستعداد للاعتراف بسيادة أمير المسلمين على المدينة وأعمالها(٨١) .

وهكذا تكون بلنسية التى استقبلت - على دفعتين - عددا قليلا من رجال ابن عائشة لم يزد عددهم على ٣٠٠ (ثلاثمائة)(٨٢) ، قد دخلت طوعا فى النظام المرابطى بالأندلس ، ولم تفتـح عنوة أو صـلحا مثـل غيرها من الممالك الغربية ، وان كان القادر بن ذى النون قد دفع حياته ثمنا لذلك على يدى ابن جحاف الذى قبض عليه مختبئا فى بعض دور المدينة ، ليلة الجمعة ٧ رمضان ٤٨٥ هـ/١٢ أكتوبر ١٠٩٢ م(٨٣) .

ابن جحاف رئيسا تحت الحصار :

وبالتخلص من ابن ذى النون آلت الرياسة الى ابن جحاف الذى حاول أن يعيد سيرة القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد فى اشبيلية ، فكان يجلس محاطا بالوزراء والفقهاء ، ويركب فى موكب من العبيد والجند ، فكأنه ملك جديد من ملوك الطوائف(٨٣ م) ، لولا عودة السـيد الكمبيادور الذى طالب بتركة القادر والثأر له ، وأحاط المدينة برجاله فى محاولة لعزلها ، عـلى أمل خروج فرسان المرابطين - بعد أن استثقلهم ابن جحاف - منها(٨٤) .

---

(٨١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣١ - حيث النص على انه كان الى جانب القاضى ابن جحاف ، فى الترحيب بمجىء أول دفعة من فرسان المرابطين صاحب الأحـكام : ابن واجب ، وأهل العقد والحل من أهل بلنسـية .

(٨٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٣) ابن عذارى ، ج ٤ ، ص ٣١ - ٣٢ - حيث النص على ان قتل القادر بن ذى ذنون كان ثأرا أو نوعا من القصاص لمقتل الزعيم الطليطلى أبى بـكر بن الحديدى ، اذ تولاه فتى من أوليائه من بنى الحديدى ، وقارن ملحق ٤ ص ١٤٧ (لمجهول) - حيث قتل القادر ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان / ٢٨ أكتوبر وبويع ابن جحاف (بالامارة) فى صبيحة الثلاثاء نفسه ٢٤ رمضان / ٢٩ أكتوبر ، ودخل بعدها القصر لكى يستمتع بكل ما فيه من ذخائر ورياش ومتـاع .

(٨٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ .

(٨٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ - حيث النص على ان ابن جحاف استثقل المرابطين ، الأمر الذى سمح بمداخلة الكمبيادور اياه فى اخراجهم من المدينة - واستبداده (ابن جحاف) بالملك - الأمر الذى لم يكن فى مقدور ابن جحاف قبوله ، وقارن ملحق ٥ (أعمال الاعلام) .

ومن الواضح أن القوات المرابطية التى كانت تحت قيادة ابن عائشة (يوسف) كان قد أصابها الهزال والوهن بعد ما قامت به من جهد طوال « صائفتى » ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م و ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م ، وعلى طول الجبهتين : الغربية والشرقية ، وعرضهما · فهذا ما يستشف من قلة عدد الحامية المكونة من ٣٠٠ (ثلاثمائة) فارس ، التى أرسلت الى بلنسية ، وأيضا على دفعتين· واذا التمسنا العذر لعدم التقدم لمواجهة « السيد » فى حينه ، بدخول فصل الخريف ثم الشتاء ، فان عـدم الاقدام على مواجهته فى السنة التـالية ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م ، بعد تحسن الأحوال الجوية ، يؤكد افتراض ما حـل بجيش الشرق المرابطى من الضعف والتعب ، الأمر الذى جرأ قوات الكونت (القمط) المغامر على احكام الحصار حول بلنسية وقطع الميرة عنها نهائيا ، والمدد(٨٥) ·

ولكن ما هو أغرب من ذلك هو عجز القوات الكبيرة التى تجمعت من كل بـلاد الأندلس ، من مغاربة وصـحراويين وبلديين ، فى شـاطبة بأمر يوسف بن تاشفين ، تحت قيادة الأمير أبى بكر بن ابراهيم اللمتونى ، عن مواجهة العدو الذى قسم جيشه الى فرقتين (حتى تسـهل له المناورة) ، الأمر الذى ربما أثار مخاوف القائد المرابطى ، الذى عاد ادراجه الى معسكره فى شاطبة ، بعد ما كانت قواته قد أشرفت على بلنسية ـ وبذلك انقلب أمل الفرج عند المحاصرين وراء الأسوار الى يأس وقنوط من النجاة ·

عودة السيد الى بلنسية :

وهكذا قدر لأهل بلنسية أن يقضوا مطلع سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م ، ما بين هم القحط والجوع ، ويأس الرضا بالموت فى المدينـة ، الأمر الذى كان يضاعف حقد العدو وغضبه(٨٦) ، ففى أوائل السنة ، فى ربيع الأول

= ص ١٥٠ ـ حيث طالب الكامبيادور بما كان له من حق «الأطعمة» التى كانت له بحصون بلنسـية وان ابن جحاف رد عليه بان البلد « لأمير المسلمين) · هنا ، ولو أن الرواية تقول بعد ذلك ان السيد الكامبيادور خدع ابن جحاف حتى أنه صرف اللمتونيين الذين استثقلهم ، كما ضاق بمؤونتهم ·

(٨٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٢ ـ ٣٤ ·

(٨٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٣ ـ حيث النص على أنها زادت على أزمة طليطلة أضعافا ، اذ هلك أكثر الناس جوعا ، وأكلت الجلود والدواب ، وقارن الملحق (لمجهول نشر بروفنسال)، ص ١٤٧ ـ حيث عرض لبعض ما ذكره ابن علقمة (أبو العباس أحمد) كشاهد عيان فى =

٤٨٧ هـ/فبراير ١٠٩٤ م ، بلغ ثمن رطل القمح ٥ر١ مثقال والشعير ١ مثقال ، وأوقية الجبن ٣ (ثلاثة) مثاقيل ، وبيضة الدجاجة ٣ دراهم ، ورطل الجلد البقرى ٥ دراهم ، ورطل اللحم البغلى ٦ دنانير(٨٧) ٠

وفى جمادى الأولى عدمت الأقوات وهلك الناس واستحكم الوباء ، ولم يبق حيا من دواب الركوب الا ٤ (أربع) : اثنتان للقاضى الرئيس ابن جحاف وابنه ، واثنتان لابن الربرتير (الرتبير) : قائد جماعة المرتزقة من المسيحيين ٠ ولقد ثمن فرس ابن الربرتير بـ ٢٠٠ (مائتى) دينار دفعها له الجزارون الذين باعوا الرطل من لحمه بعشرة دنانير ، بينما بيع رأس الفرس بـ ١٥ (خمسة عشر) دينارا ٠

وأمام تفاقم الأزمة ، واليأس من وساطة محتملة من ابن هود (صاحب سرقسطة) أو نجدة تأتى من مرسية (حيث المرابطون) انتهى الأمر باستسلام القاضى ابن حاف بالأمان ، على أن يحتفظ بمنصبه كقاض للمدينة التى تتفق على أن يقدم ابن عدبس مشرفا لها ، على أن تكون أبوابها بيد المستعربة (المسيحيين) من أهلها ٠ وفى آخر جمادى الأولى ٤٨٧ هـ/١١ يونيه ١٠٩٤ م خرج القاضى ابن جحاف لاستقبال السيد الكمبيادور(٨٨) ، الذى ظهر بمظهر السياسى الرشيد حتى انتشطت الأنفس ، وانبسطت الآمال ، وأمن الناس(٨٩) ، بينما كان على أهل دانية وأعمالها أن يقاسوا من الغارات التى أخذ يشنها « السيد » على بلادهم ٠

= تاريخه عن حصار بلنسية هذا — حيث ضاق الكمبيادور المدينة فحصرها ونصب عليها المجانق حتى عدم الناس الطعام وأكلوا الفئران والكلاب والجياف الى ان أكل الناس الناس ٠ الأمر الذى يمكن ان يكون قد استفاد منه ابن خلدون فى وصف حصار تلمسان بمعرفة المرينين سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ٠

(٨٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٨ ٠ وعن حصار تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، أنظر ابن خلدون ج٦ ص٩٥-٩٦ — حيث قائمة الأسعار فى المدينة التى كانت تعانى من الجوع أثناء الحصار كالآتى : بعد لحم الجيف : رطل لحم البغال والحمير ٨ر١ مثقال ، رطل لحم ايلحل ١٠ دراهم ، ثم الجلد البقرى ميتة أو مذكى ٣٠ درهما ٠٠٠ الخ من الخضر والفاكهة والأدم ٠

(٨٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٩ — حيث النص على أن قائمة الأسعار فى يوم ١٥ من هذا الشهر دانت كالآتى : رطل القمح : ٣ مثاقيل ، الشعير : ٥ر٢ مثقال ، أوقة الجبن : ١٠ دراهم ، بيضة الدجاجة : ٨ دراهم ٠

(٨٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٤ ٠

امير المسلمين يعود بنفسه للاشراف على العمليات الحربية :

وأمام استصراخ الناس لأمير المسلمين وهو بمراكش من أجل انقاذ الشرق ، كما سبق له تهدين الغرب ، قرر أن يعاود الكرة ٠ وانتقل يوسف ابن تاشفين فعلا من مراكش الى سبتة التى صارت مرة أخرى قاعدة العمليات الحربية فى الأندلس ، حيث حشدت بها الجيوش من أجناد نظامية، وقبائل متطوعة ، وعهد بقيادتها الى الأمير أبى عبد الله محمد بن تاشفين (ابن أخيه لأمه) ويعاونه كقائد ثان ابن أخيه الآخر : أبو بكر (ابن أخيه لأمه أيضا وابن عمه فى نفس الوقت) ٠

وكان عبور هذا الجيش الذى تكون من ٤ (أربعة) آلاف فارس وما يقدر بأكثر من ضعفهم من الرجالة فى شهر رمضان ٤٨٧ هـ/سبتمبر ١٠٩٤ م ، على أن يلحق بهم على مشارف بلنسية قوات غرناطة بقيادة الوالى اللمتونى ، وشنتيرية حيث بنو رزين المغاربة أيضا ، وكذلك الأمر بالنسبة للشنياطى : المحارب الشجاع الذى كان من أهل الثقة من قواد الحصون بالثغر الأعلى(٩٠) ٠ والى جانب الغــوات أقبلت قوافل التموين تترى من كل البلاد على مشارف بلنسية ، حيث تضخم المعسكر فصار كالمدينة العظيمة أو البحر المحيط(٩١) ولكن السيد الكمبيادور الذى كان قد خبر المرابطين فى السنة الماضية ، لم يرعه ذلك الجمع ولا عبأ به ٠ وبصفته عارفا بأحوال البلاد والعباد ، اكتفى بأن يطرد من بلنسية ، نحوهم : « الضعفة من النساء والولدان » الذين تلقفهم ضعفة النفوس من السودان والسفلة من سياس الدواب ، ومن الباعة بأعمال الفسق والفجور ، الأمر الذى أثار الاضطراب فى المعسكر ، وأدى الى افتقاد النظام والضبط ، مما انتهى الى اختلال الجيش ، وبالتالى الانسحاب الى دانية ــ وبذلك صح ما توقعه « السيد » ، وكأنه صار خبيرا فى شئون المسلمين ٠

---

(٩٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٥ ، وانظر ص ٤٠ ــ حيث النص على أنه فى نفس الوقت (رمضان ــ شوال) كانت محلة الأمير محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير المسلمين) تستقبل الى جانب العساكر المغربية والصحراوية ، جميع عساكر الأندلس والثغر الأعلى ، من قبل : تأييد الدولة (لاردة) وسند الدولة (طرطوشة) وحسام الدولة (شنتبرية) ونظام الدولة (البونت) والشنياطى (الثغر) وابن ياسين (شبرب) وابن يملول (حصن الأشرف) ، وهو الجمع الذى جعل النصارى المعاهدين يتصنعون (بدارون) لمن كان بالمدينة من المسلمين ٠ ومن الواضح ان فى ذلك خلط مع احداث فتح بلنسية سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، الذى سيؤدى الى فتح المرابطين لسرقسطة بعد ذلك ٠

(٩١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٥ ٠

والمهم أن الموقف ازداد سوءا بوصول الفونس السادس الذى كان قد استجاشه السيد ، اذ أصبح الجيش الاسلامى الكبير صيدا سهل المنال بالنسبة لرجلى الريكونكستا(٦٢) . فالكامبيادور (السيد) كان يستطيع أن يخدع الأمير محمد بن تاشفين بسهولة ، فيخرجه من المعسكر (المحلة) ليخلو له الجو لنهبه ، وسد حاجاته منه(٩٢ م) .

وكانت فرصة انتهزها الفونسو السادس ، فاكتسح جيشه وادى آش من نظر غرناطة (مقر صنهاجة) لكى يعود من هناك وبصحبته جماعات من المستعربة لعمارة أرض طليطلة . ورغم غضب يوسف بن تاشفين لما حدث ، وسخطه على ابن أخيه الهزيل ، فلم يكن بوسعه الا قبول الأمر الواقع ، والعمل على التشبث بشاطبة ، وقطع الطريق على بلنسية التى كان على أهلها أن يعانوا حصار اخوتهم المسلمين - « فكانت هدنة على دخن »(٩٣) .

« السيد الكمبيادور » أميرا لبلنسية : التخلص من ابن جحاف : والصمود أمام المرابطين :

وهكذا انتهت الجولة الأولى من أجل السيطرة على بلنسية بانتصار السيد على المرابطين ، وغلبته التامة على المدينة ، فكأنه أمير جديد من رؤساء الطوائف ، وذلك عندما تخلص من القاضى ابن جحاف ، ليس بالقتل ثأرا للقادر بن ذى النون ، بل حرقا بالنار فى مأساة فريدة من مآسى عصور انحطاط المسلمين فى أسبانيا(٩٤) ، تلتها مأساة أهل بلنسية الذين كان عليهم أن يعانوا بعد ذلك حصار المرابطين - بعد نزع سلاحهم .

---

(٩٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦ - حيث اعتبار ما حدث قدرا مكتوبا يلتمس له العذر ، سواء من ضعف الرجال أو من خور محمد بن تاشفين (ابن أخى أمير المسلمين لأمه) ، الأمر الذى لم يتطلب من العدو استخدام السيف أو اراقته للدم .

(٩٢م) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠ - حيث استهلال شهر شوال وصلاة العبد بمنزل عطاء بساقية هواره . واعلان السيد فى ٨ شوال ٤٨٧ هـ / ٢٢ أكتوبر ١٠٩٤ م ان ملك أرغون (ابن ردمير) أتاه مددا ، وايهام المرابطين أنه (السيد) خرج لمناوشتهم ، وتمكنه من مفاجأته المعسكر المرابطى ونهبه - فكأنه تعلم درس يوسف ابن تاشفين فى الزلاقة .

(٩٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٩٤) عن نهاية ابن جحاف فى بلنسية وتعرضه لواحدة من عمليات التعذيب بالنار =

ففى شهر شعبان ٤٨٨ هـ/أغسطس ١٠٩٥ م ، عندما تحسنت الأحوال الجوية وأتت الأنباء بمسير المسلمين من مرسية نحو بلنسية ، كان على أهل المدينة أن يتخلصوا تحت التهديد بالقتل ، من كل ما لديهم من الآلات الحديدية ، فسلموا كل ما لديهم مما يمت للحديد بصلة ، حتى الابر والمسامير - على باب القصر (القلعة) • كما كان عليهم أن يعرضوا بعد ذلك فى ساحة القصر للتمييز • ولما كان الضعفاء والفقراء قد طردوا قبل ذلك فى حادثة اضطراب المعسكر الاسلامى ، فانه تم فى هذه المرة طرد من يخشى بأسهم من ذوى القوة والهمة ، وربما بلغ الأمر الى حد قتلهم ، اذا أقيمت مآتم العزاء فى دورهم وبين أهليهم • وبذلك لم يبق فى بلنسية من المسلمين الا المتيسرين الذين أخضعوا بعد مساومات من اليهودى وزير السيد الكمبيادور « الى جباية بلغت ٢٠٠ (مائتى) ألف دينار (مثقال) ، جمعت تحت التهديد من قبل نواب الجباية ، من : الموكلين والمتصرفين وأصحاب الرسوم ، كما كان على أهل المدينة بعد ذلك جر القطع البحرية من الماء الى البر - خشية أن تفاجئهم مراكب المسلمين فتستولى عليها ، وتحكم الحصار من جهة البحر أيضا - كما نظن(٩٥) •

فتح بلنسية : رجب ٤٩٥ هـ/ابريل ١١٠١ م :

والمهم أن صمود بلنسية أمام محاولات استرجاع المرابطين استمر تحت حكم « السيد الكمبيادور » لمدة تزيد على ٨ (ثمانى) سنوات ، وذلك أن استخلاصها لم يتم على يدى القائد مزدلى الا فى مطلع شهر رجب من سنة ٤٩٥ هـ/أواخر ابريل ١١٠٢ م • واذا كنا نفتقد أحداث تلك الفترة بافتقاد الجزء من بيان ابن عذارى الخاص بالمرابطين ، فانه من حسن الحظ أن بقيت لنا منه القطعة الخاصة باستعادة بلنسية ، وان كانت فى حالة رثة • والذى يفهم منها أن المدينة كانت تئن وقتئذ تحت وطأة الحصار المرابطى - لا فرق فى ذلك بين المسيحيين ، ومن كان قدر له البقاء فيها من المسلمين - بعد أكثر من سنتين من وفاة السيد « الكمبيادور » (ت ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م) ،

= الشنيعة ، التى تذكر بعملية السمل بالحديد المحمى - حيث وضع الرجل قائما فى حفرة وأوقد الحطب حوله فى محاولة لاجباره على الاقرار بما كان لديه من ذخائر القادر بن ذى النون ، وشجاعة القاضى البلنسى الذى كان كل همه ان يحكم بلنسية بمعونة المسلمين او النصارى ، وكيف أنه يطلب الشهادة وهو يضم ما تصل اليه يداه من الحطب المشتعل الى جسده ، أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨ ، والملحق رقم ٥ ص ١٥٠ - ١٥١ •

(٩٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠ •

بفضل اصرار زوجته وخليفتـــه « شيمين » التى استنجدت بملك قشتالة انفونس السادس(٩٦) ٠

والظاهر أن الفونس كان قد قرر أن يضع حـدا لتلك المطاولة المملة بين المسلمين والمسيحيين ، بأن يتم الجلاء عن بلنسية ، فسار هـــذه المرة بجيش أكثر عددا (أخشن) من المعتاد ، ممـــا دعا مزدلى الى أن يفسح له الطريق الى المدينة ، بينما يعود هو الى معسكره فى قليرة ٠ ومن الواضح أن الفونس السادس كان يرغب فى اجلاء المسيحيين من بلنسية ، كمـــا سبق أن أجلى أهل لييط(٩٧) ٠ ولكنه أمام الحاح أهل المدينة المسيحيين ، قرر أن يستكشف بنفسه القوة الحقيقية للمرابطين على مشارف بلنســية فخرج بجيوشه نحو الأمير مزدلى بقليرة ٠ وعندما تواجه الجيشان وعاين الفونس كثرة كتائب خصمه وحسن كفاحها فى القتال ، انتهز فرصة غروب الشمس لكى ينسل من ميدان المعركة ، عائدا أدراجه نحو بلنسية ، وقد قرر ترتيب الجلاء عنها ، ولكن بعد تحريقها بالنار ٠ وبذلك دخل مزدلى بلنسية ، مدينة الأطلال فى شهر رجب ٤٩٥ هـ/مايه – يونيه ١١٠٢ م – بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف(٩٨) ٠ وتم اخطـــار أمير المسلمين فى مراكش بذلك الفتح

---

(٩٦) البيـان ، ٤ ص ٤١ – حيث يتضـح مما بقى من الرواية أن القائد مزدلى كان قد ضرب معسكره فى بلده قليرة Cullera: قليرة أصلا) جنوب بلنســية ، من حيث كان يقوم بالغارات على بلنســية ، ما بين الحين والآخر ، وانه فى مطلع سنة ٤٩٣هـ/نوفمبر ١٠٩٨م ، وربما بسبب ضعف ردود الفعل من جانب أرملة « السيد » قرر مزدلى أن يستكشف حقيقة الموقف ، فتقدم بمعسكره الى قرب بلنســية الأمر الذى دعا الى طلب النجدة من ألفونس ٠ وانظر دوزى ، تاريخ المسلمين بالاندلس ، بالفرنسية ، ج ٣ ص ١٥٣ ، وقارن اشـباخ (يوسف) ، المرابطون والموحدون ، ج ١ ص ١١٤ – ١١٥ – حيث سقوط بلنســية بين أيدى السيد (ص ١١٤) ، واسترجاع المسلمين لها بعد ٣ (ثلاث) سنوات من وفاته (ص ١١٥) ، محمد عبد الله عثمان ، الطوائف ، (ص ٣٦٨) – حيث حصار بلنســية فى أواخر سنة ٤٨٨هـ/ ديسمبر ١٠٩٥م ، وعدم تمكن المرابطين من دخول المدينة الا فى شعبان سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م ، وأيضا ص ٤٠٠ – حيث استيلاء السيد على بلنســية فى ١٠٩٤م ، ودخول الفونس اليها بعد استغاثة أرملة السيد فى مارس ١١٠٢م واسترجاع المرابطين لها فى مايه ١١٠٢م/جمادى ٤٩٥هـ ٠

(٩٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ – حيث النص : « فأقام الأدفونش ببلنســية نحو شهر والروم ترومة على التمسك بها ويرغبونه فيها ، ويهونون عليه أمر جيوش المسلمين ، وعن لييــط انظر ما سبق ، ص ٣٢٤ ٠

(٩٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ – حيث النص على اضرام النار فى الجامع والقصر وبعض الدور ، وقارن ابن بسـام ، الذخيرة – حيث أخذ بلنســية فى شهر رمضان من نفس السـنة ٠

السعيد(٩٩) ٠

ومن المهم الاشارة الى أن القائد مزدلى لم يبق فى بلنسية الا حوالى ٤ (أربعة) اشهر انتهت بأن حل محله فى ولايتها ، فى مستهل ذى الحجة (٤٩٥ هـ/سبتمبر ١١٠٢ م) ، القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة - والظاهر أن تنحية مزدلى عن قيادة بلنسية يعنى تغيرا فى طبيعة العلاقة بين يوسف بن تاشفين وبين أمير سرقسطة وقتئذ المستعين ابن هود ٠ وذلك ان ابن فاطمة كان عليه أن يترك كرسى امارة بلنسية ، نيابة لأحد قواده ، وأن يسير الى سرقسطة على رأس ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) فارس ، بناء على طلب للمساعدة ضد الاسبان فى الثغر الأعلى ، كان قد تقدم به ابن هود ، ليدخل سرقسطة فى ١٢ من ذى الحجة/٢٧ سبتمبر (ثانى أيام الأضحى ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م) ٠ وبهذا يكون ابن هود قد انتهج سياسة مداراة أمير المسلمين ، جاره الجديد فى الجنوب ، على حساب جيرانه الاسبان فى الثغر ، وعلى رأسهم الفونس السادس(١٠٠) ٠ وهكذا تكون ولاية سرقسطة قد بدأت مرحلة الدخول الجدى فى طاعة المرابطين ، وبذلك تكتمل وحدة المسلمين فى شرق الأندلس وفى الغرب ، وتحت رايات أمير المسلمين ٠

اعلان ولاية العهد فى غرناطة : مقر النيابة المرابطية فى الأندلس :

بدخول سرقسطة والثغر الأعلى فى الطاعة المباشرة للمرابطين ، تكون بلاد المسلمين فى الأندلس جميعا ، قد توحدت فى أواخر سنة ٤٩٥ هـ/ سبتمبر ١١٠٢ م تحت رايات يوسف بن تاشفين الذى كان يدبر شئونها من مراكش منذ عودته من العبور الثالث سنة ٤٨٤ هـ/١١٠٢ م ٠ وهكذا

---

(٩٩) القرطاس ، ص ١٥٦ - حيث تضع رواية ابن ابى زرع فتح بلنسية (خطا) فى سنة ٤٨٥ هـ ، مع النص على فرار القادر من ذى النون ، وأعوانه المسيحيين من جبالة الضرائب ، ودخول القائد أبن عائشة (خطا) المدينة ، فكان فتح بلنسية هذا من توابع الجواز الثالث لأمير المسلمين ٠ أما عن اخطار امير المسلمين فهو الأمر المقبول ٠ اما عن فتح المرابطين لمدينة « افراغ » من بلاد شرق الأندلس فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م التالية ، فاغلب الظن أن هذا سوف يحدث فيما بعد ، على عهد على بن يوسف ، ضمن الصراع وقتئذ بين المرابطين وبين أصحاب الريكونكستا فى الثغر الأعلى ٠

(١٠٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ - حيث النص على ان أبن فاطمة ولى بلنسية فى مستهل ذى الحجة ، وانه استتاب ونهض الى سرقسطة ، لما وصل ولد ابن هود من العدوة بكتاب من أمير المسلمين ٠

كان أمير المسلمين يمكنه الاطمئنان الى استقرار الأمور فى الأندلس ، ويعمل بالتالى على أن يستكمل ذلك بالاطمئنان على مصير الدولة المرابطية بعده ، عن طريق تعيين ابنه أبى الحسن على بن يوسف وليا لعهده ، وهذا ما كان قد حسمه فعلا فى مراكش ، فى ذات السنة ٤٩٥ هـ/١١٠٢ م ، حسبما يرد فى الكتاب الرسمى لولاية العهد(١٠١) . وبسبب الأهمية الخاصة التى اكتسبتها أخبار الأندلس ، رأى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وله الحق فى ذلك ، أن يقوم بجوازه الرابع الى الأندلس فى سنة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م(١٠٢) ، ليس بهدف الفتح والجهاد هذه المرة ، بل من أجل القيام بجولة تفقدية فى البلاد بصحبة ولديه أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على الذى كان أصغر سنا من أخيه تميم(١٠٣) .

وفى ذلك ينص الخطاب الرسمى الخاص بولاية عهد الأمير على بن يوسف ، على أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وجد تعيين خليفة له من واجباته الدينية ، بصفته راعى عباد الله المؤمنين . ففى ذلك رحمة بهم وتأكيد لوحدة الجماعة والائتلاف فيما بينهم . أما عن تبرير اختيار على بعده فلأنه الرجل المناسب ، وهو الأمر الذى يقره أهل الرأى على القرب والنأى(١٠٤) .

والمهم أن غرناطة التى عهد بولايتها الى القائد على بن الحاج ، الذى تجمع حوله قواد المرابطين وكبار رجالاتهم الى جانب رؤساء الأندلس ، كانت موضع بيعة الأمير على بن يوسف بولاية العهد ، حيث قام هؤلاء الأعيان من مغاربة وأندلسيين ، فى حضور أمير المسلمين بالبيعة لولى العهد برئاسة الدولة بعد والده(١٠٥) . فكأن غرناطة الأندلس أصبحت قرينة العاصمة

---

(١٠١) أنظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ ، وأنظر أيضا ص ٧٩ وهـ ٦٨ — حيث يورد ابن الخطيب فى الاحاطة نصا آخر لولاية العهد كتبه محمد بن سليمان (ابن القصيرة) بقرطبة ، وهو مؤرخ بذى الحجة ٤٩٦ هـ / سبتمبر ١١٠٣ م .

(١٠٢) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ — حيث وسم هذا العبور من حضرة مراكش والجاز الى الأندلس ... المرسوم بالانوار الجليلة .

(١٠٣) أنظر الحلل الموشية ، ص ٧٧ — حيث تبرير تفضيل الأمير على الأصغر سنا ، واذ يقول شعراء الأندلس :

وان كان فى الأسنان يحسب ثانيا ... على ففى العلياء يحسب أولا
كذلكم الأيدى سواء بنانها ... وتختص فيهن الخناصر بالحلا

(١٠٤) الحلل الموشية ، ص ٧٩ .

(١٠٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٢ — ٤٣ .

الرسمية للدولة المرابطية مراكش ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، ذلك التقليد الذى أخذ به منظروا النظم الاسلامية ، اعتمادا على الأمر الواقع الذى يقضى بأن مكان البيعة بالخلافة عادة ما يكون البلد الذى يتوفى فيه الامام(١٠٦) ، والذى عادة ما يكون العاصمة . واذا صحت هذه المقولة تكون الأندلس قد أكملت غلبتها الحضارية على المغرب بالغلبة السياسية - وهو الأمر المقبول على كل حال .

وهنا كان لسرقسطة والثغر الأعلى تحت قيادة بنى هود ، دورهما فى رفع رايات الاندلس عالية فى حفل تنصيب على بن يوسف وليا للعهد ، اذ وجه المستعين : أحمد بن هود ، ابنه عماد الدولة عبد الملك الى (غرناطة) بهدية ثمينة ، منها مجموعة من الأوانى الفضية المنتقاة من ذخائر قصره بـ « روطة » والمنقوشة باسمه ، والتى رأى يوسف بن تاشفين أن تحول الى قطع من النقود الصغيرة برسم الاحتفال الأميرى . وفعلا ضربت أوانى الفضة « الهودية » الى قراريط نقدية ، وفرقت فى قواد المرابطين بمناسبة عقد ولاية العهد للأمير على بن يوسف ، وذلك فى ليلة عيد النحر من سنة ٤٩٦ هـ/١٤ سبتمبر ١١٠٣ م ، وكان كاتب العهد الوزير أبا بكر بن القصيرة ، بينما كان ضيف الشرف ولى عهد الثغر الأعلى عماد الدولة : عبد الملك بن المستعين(١٠٧) .

العودة الى مراكش ونهاية يوسف بن تاشفين :

بعد أن تأكدت البيعة بولاية العهد للأمير على بن يوسف بن تاشفين فى غرناطة ، فى أواخر سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٣ م ، كان دخول اقطاع بنى رزين فى كورة شنتبرية (Santaver) من الثغر الأوسط بعد ذلك ، أى فى السنة التالية ٤٩٧ هـ/٤ - ١١٠٣ م ، فى طاعة المرابطين اثر وفاة يحيى بن (ذى الرياستين) حسام الدولة بن هذيل بن عبد الملك بن خلف، وأيلولة تلك الولاية الى يوسف بن تاشفين(١٠٨) . فقد أخذ أمير المسلمين

---

(١٠٦) الأحكام السلطانية للماوردى ، الفصل الأول ص ٤ .

(١٠٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ - حيث صاحب روطن (Rueda) والثغر الأعلى ، هو المعتمد بالله (بدلا من المستعين) - وحيث المسير بالهدية الى قرطبة (بدلا من غرناطة) ، وأنظر هـ ٥ - حيث اسم الكاتب فى احاطة ابن الخطيب ، هو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور « بدلا من ابن القصيرة) .

(١٠٨) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٣ والهوامش - حيث تعرف شنتبرية أيضا باسم « سهلة بنى رزين » نسبة الى أول المتزين بها وهو هذيل بن خلف بن رزين .

فى الحـــركة الى حضرة مراكش بعـــد أن اطمأن الى ضبط أحـــوال بلاد الأندلس(١٠٩) التى تركها أمانة فى عنق ولى عهده على بن يوسف ٠ وفي ذلك تقول رواية الحلل الموشـــية انه خصص لضـــبط الأندلس ١٧٠٠٠ (سبعة عشر ألف) فارس من المرابطين ، يوزعون كالآتي : ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) لاشبيلية ، و١٠٠٠ (ألف) لكل من قرطبـــة وغرناطة ، و٤٠٠٠ (أربعة آلاف) للشرق ، والـ ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس الباقية توزع للمرابطة فى الثغور والحصون المصاقبة للعدو(١١٠) ٠ ولا بأس أن كان يهود غرناطة ، أثرياء ضاحية اليسانة (Lucena) ، قد خضعوا لتلك الضريبة التى تتناسب مع يسارهم ٠ فهذا ما يفهم مما تقوله الرواية من أن اليهــود خضعوا لتلك الضريبة تحت التلويح بادخالهم قسرا فى الاسلام فى ســـنة ٥٠٠ هـ/٧ ـ ١١٠٦ م التى كانت على الأبواب وهي سنة وفاة يوسف بن تاشفين الذى كان مريضا منذ سنتين ، (وذلك اذا لم تتحقق نبوءة منسوبة اليهم ، تقرر ظهور نبى منهم فى تلك السينة)(١١١) ٠

واذا كان الأمر كذلك يمكن القول أن غرناطة كانت قد صارت مركز الحكومة المحلية أو النيابة فى الأندلس ، بمعني أنها صارت منافسة لكل من قرطبة واشبيلية كمركز للحكومة ، كما أصبحت خزانة البلاد العامة حيث كانت اليسانة أهم مركز لتجمع الأثرياء من اليهود فى البلاد ٠ أما أشبيلية حيث تمركز أكبر حامية مرابطية فتصبح بمثابة مركز القيـــادة المرابطية العامة ، المسئولة عن حماية الثغور ، حيث القائد الأعلي ، وقتئذ : أبو محمد عبد الله بن فاطمة(١١٢) ٠

الموقف فى شرق الأندلس :

والمهـم أن أوضاع المرابطين اذا كانت قد استقرت فى الغرب ، فانه

---

(١٠٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ ٠

١١٠ ـ الحلل الموشية ، ص ٨٠ ٠

(١١١) انظر الحلل الموشية ، ص ٨٠ ـ ٨١ ـ حيث النص على نسبة تلك النبوءة الى ابن مسرة بمعرفة أحد فقهاء قرطبة ، أو بناء على فتوى قاضى الجماعة : أبى عبد الله محمد ابن أحمد التغلبى ، مع الاشارة الى أن القدوة فى ذلك كان بعض عمال البحرين قديما ، الأمر الذى يسمح باعتبار الرواية من القصص الشعبى (الفولكلور) والذى كان يسمح من جهة أخرى بتفسير تلك القصة على أنها رمز لسوء استغلال الجالية اليهودية سواء فى المغرب أو فى المشرق ـ بحق أو بغير حق ٠

(١١٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ ٠

موقفهم فى الشرق كان مـا زال غير أكيـد رغم دخـول منطقة الثغـر الأعلى وسرقسطة فى دائرة نفوذهم ٠ فمنطقة بلنسية قرينة طايطلة ، ظلت قلقة رغم استعادتها من خلفاء السيد الكمبيادور ، اذ ظلت واقعة فى دائرة نفوذ طليطلة وصاحبها الفونس السادس ، الذى حمـل اقب الامبراطور ، وان رفض لبس التاج حتى يأخذ قرطبة مما سبقت الاشارة ا يه (ص) ٠

وهكذا ، وبينما كان يوسف بن تاشفين يعبر المضيق نحو العـدوة المغربية كان يصدر الأوامر الى واليه (النائب) عـلى غرناطة الذى كان منصرفا من وداعه ، وهو أبو الحسن على بن الحاج ، بالنهـوض الى شرق الأندلس ، ويستحثه على سرعة المسير ـ فكان العملية العسـكرية المنوطة بابن الحاج كانت سرية مفاجئة ، تتفق مع « تكتيك » الكمائن المعروف عنـد البدو ، والذى كان يجيده أمير المسلمين ٠ والمهم أن الرسالة الخطية لم تصل الى ابن الحاج الا وهو على مقربة من الجزيرة الخضراء ، من حيث توجـه الى ما أمر به من سرعة المسير الى بلنسية ـ التى وصلها ابن الحاج فى شـهر صفر من سنة ٤٩٨ هـ/أكتوبر ١١٠٤ م ٠ ولا بأس أن تكون مرابطـة ابن الحاج فى بلنسية قد أحبطت ما كان يتوقعه أمير المسلمين من أعمـال عدوانية آزفة من قبل العدو ، وذلك أن أول أعمال عدائية قام بها الفونس السادس لم تصل أخبارها الى بلنسية الا فى شهر رمضان ، بعد أكثر من ٦ (ستة) أشهر ، وكان هدف هذا العدوان مدينة سالم (مدينة الفرج) من أعمال سرقسطة والثغر الأعلى ٠

ولم يتردد ابن الحاج فى المسير للقاء الفونس السادس على رأس حملة قوية من المشاة والخيالة ، وعرج فى طريقه على قلعة أيوب حيث اسـتمد القائد الأعلى : أبا محمد عبد الله بن فاطمة ، الذى سار برجاله معونة له ٠ والظاهر أن الملك القشتالى ترك منازلة مدينة سالم عائدا الى طليطلة ، وذلك أن القائدين المرابطين قررا اثر اجتماع بينهما ، متابعة العدو نحو طليطلة وغزو بلاده فى حملة تاديبية رادعة ٠ والذى يفهم من نص ابن عذارى المقطع الأوصال ـ للأسف ـ والخاص بتلك الحملة ، ان التكتيك الذى كان يتبعه طرفا النزاع فى الأندلس وقتئذ ، من المرابطين والقشتاليين كان ينبنى على مبدأ الغش والخداع ، أى انتهاز الغرة من العدو ـ الأمر الذى يعنى استشعار تكافؤ ميزان القوى بين الطرفين ، بمعنى استحالة تفوق طرف على الآخر الا اذا أحسن استخدام عنصر المفاجأة والتخفى ، وهذا ما كان يرجوه الفونس السادس عندما ترك مدينة سالم ، وسار نحو طليطلة ، واتجه مدها نحـو طلبيرة من حيث يكون الدخول الى الثغور الاسلامية لكل من مملكتى قرطبة

وبطليوس(١١٢ م) التى رأى الفونس أن ينقل اليها ميدان القتال • والمهم ان الحرب كانت تدور سجالا على طول الطريق ، فلم تتوقف المطاردة الا عندما انتهت بعض الاشتباكات بوفاة قائد غرناطة : الأمير على بن الحاج ، الذى وجد ميتا بكامل سلاحه ودرعه ، لا أثر فيه لضربة واحدة ، فانفض اللقاء ، وعادت قوة غرناطة تحمل تابوت قائدها الأمير ، الذى دفن فى تطيلة مدينة الثغر الأعلى ، فى قبلى جامعها أى فى اتجاه القبلة(١١٣) •

مرض يوسف والتطاول على الغرب :

وبينما كان يدور هذا النزال الخفيف بين القوات المرابطية فى الأندلس وبين خصومها من قوات العدو القشتالى ، فى خلال سنة ٤٩٨ هـ/ ٥ ــ ١١٠٤ م ، انتشر خبر مرض أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، وما كان يعانيه من آلام ذلك المرض (الفالج ؟) الذى لا أمل فى البرء منه ــ الأمر الذى شغل أهل الدولة ، وأثار القلق بينهم والشقاق(١١٣ م) •

وكانت فرصة انتهزها الفونس السادس لكى يعاود فرض سلطانه على بلاد المسلمين • وبدأ بعملية جس نبض عسكرية فى منطقة اشبيلية الغنية بخيراتها الزراعيــة ، اذ جاسها على رأس قوة بلغت حوالى ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) فارس ، هاجمت القرى فى منطقة « مقاطع » ، وعادت « بالمغانم الموفورة والأسلاب الكبيرة » ، فى وقت كانت تسود فيه المجاعة • ولكنه عندما خرج أمير اشبيلية الى بعض الحصون هنــاك ، انتظارا لمجىء الامداد من عسكر غرناطة الذين وافوه بقيادة الأمير أبى محمد بن الحـاج ، « هرب جميع الكفرة ، وولوا أمامهم فارين مهزومين ، وكانت فرصة انتهزها العسكر المرابطين لكى يشفى غليله منهم ، قتــلا واستلحاما حتى كادوا يستأصلون(١١٤) • ورغم ما تنص عليه الرواية من استئصال العــدو ،

(١١٢م) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ •

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ ــ حيث الاشادة بالأمير على بن الحاج ، الذى اقتفى أثر أبيه فى تعضيد الحق وانصاف المظلوم وتأمين الخائف ، وسد الثغور ونكاية العدو • هذا كما كان أخص الناس به أبو محمد عبد الله بن أسباط الذى نال به الآمال ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال •

(١١٣م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ ــ حيث النص على خوض أهل الدولة فى أمر مرض أمير المسلمين ، فكانوا يستنبطون الغوائل ، ويشعلون نيران الشقاق والنفاق •

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٤ ــ ٤٥ ــ حيث النص على انه قتل منهم ١٥٠٠ لحل ، فى ذلك الوقت من سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م الذى كان يعم فيه القحط بلاد الأندلس والمغرب ، الأمر الذى يبرر عنف الثأر من العدو القشتالى •

فالظاهر أن ابن الحاج دفع منصبه ثمنا لتلك المفاجأة غير السارة التى دبرها ألفونس السادس لمنطقة أشبيلية ، اذ أنه عزل فى سنة ٤٩٩ هـ/٦-١١٠٥م التالية من ولاية غرناطـــة ، التى آلت الى القــــائد أبى بكر بن ابراهيم اللمتونى(١١٥) ٠

هذا ، ومما لا شك فيه أنه مما زاد فى كلب العدو الاسبانى على بلاد المسلمين اعتبارا من سنة ٤٩٩ هـ/٦ - ١١٠٥ م ، هـــو بداية الحـروب الصليبية ، التى كانت حملاتها البحرية المـارة بسواحل الأندلس الغربية ، تقدم العون والمساندة للاسبان فى حربهم ضد المسلمين ، فكأن الريكونكستا فى الأندلس كانت الشرارة التى أشعلت الحـــروب الصـــليبية فى المشرق البعيد(١١٦) ٠

والى جانب القحط ، ومرور الصليبيين بالميـــاه الاقليمية الغربيـــة وتعديهم على السواحل الاسلامية كانت علة أمير المسلمين تزداد عليه شدة ، الأمر الذى دعا الى عودة الأمير تميم من شرق الأندلس وكذلك الأمر بالنسبة لولى العهد الأمير على ، الى مراكش العاصمة ، لالقاء نظرة الوداع الأخير ، على الوالد المجاهد الذى قضى أجله فى مســـتهل ســـنة ٥٠٠ هـ/٢ سبتمبر ١١٠٦ م(١١٧) ٠ وهكذا توفى أكبر مجاهدى العصر ، وأكثرهم ألفة مـــع ميادين القتال ، على سريره (أى رغم أنفه) ، وهـــو على أوله فى العـــدل والجد ، وفى نصرة الدين وعضد الاسلام ، واظهار كلمتـــه ٠ ودفن بقصره بالحضرة مراكش(١١٨) ٠

---

(١١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - هذا ، كما ينص ابن عذارى على عزل القاضى ابن منظور عن قضاء اشبيلية بامر من ولى العهد على بن يوسف ٠

(١١٦) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على خروج ٧٠ (سبعين) قطعة من البحر الغربى (الأطلنطى) ، قصدت بيت المقدس ، ولكن « الريح فرقتها وأغرقتها ، فكفى الله المسلمين شرها » ٠

(١١٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ - حيث النص على انه فى سنة ٥٠٠هـ/٧ - ١١٠٦م استأثر الله امير المسلمين يوسف بن تاشفين فى يوم الاثنين مستهل ، شهر المحرم من السنة ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٣ - حيث النص على أنه حضر موته ابناه : أبو الطاهر تميم ، وأبو الحسن على ، مع من حضر من عترته الصنهاجية وأسرته اللمتونية ٠

(١١٨) الحلل ، ص ٨٣ ٠

وفاة يوسف : نهاية مرحلة القوة المرابطية :

بوفاة يوسف بن تاشفين تنتهي مرحلة القـوة التي عرفتهـا الدولة المرابطية والفتوة ، وهي المرحلة الثانية في حياة الدولة بعد مرحلة التنظير والتأسيس ، وهي المرحلة الأولى لدولة الرباط ، والتي تبـدأ بعبد الله بن ياسين وصاحبه الأمير يحيى بن ابراهيم ، وتنتهي بظهور يوسف بن تاشفين في فتوح المغرب وتامسنا ، والتي تعتبر عهـد تمدد الدولة المرابطية في الأندلس وفتوتها • وذلك أن مرحلة حكم علي بن يوسف التالية تعتبر عصر الذروة في تاريخ الدولة المرابطية حيث تبدأ عمليـة التحضر والازدهار ، نذير التدهور والانحدار ، حيث تدخل الدولة والجمـاعة في مرحلة الترف المؤذنة بفساد « العمران » ، كما يرى ابن خلدون بحق ـ وحيث تبدأ مرحلة المطاولة (أو الصراع) بين الدولة وبـين خصـومها الذين يتآمرون ضـدها ويخططون للحلول مكانها(١١٩) •

والصورة المبجلة التي يرسمها الكتاب ليوسف بن تاشـفين ، تبرز فيه صفات الرجل المثالي ، الذي يمكن أن تقارن صفاته بصفات عمر بن الخطاب، مؤسس الدولة الاسلامية حقا ، وواضع نظمها ، والمنظر لثقافتها • فيوسف : حسن السيرة ، خير ، عادل ، فاضل ، زكي ، فطن ، حاذق ، نبيه ، زاهد ، عزيز النفس يأكل من عمل يده ، كثير الخـوف من الله ، ينيب الى الخـير والصلاح ، كتوم لسره ، مقبل على الصلاة ، كثـير الدعاء ، والاستخارة ، محب لأهل العلم والدين والصلاح ، متواضع كثير الحياء(١٢٠) •

أما عن صورته الطبيعية فلا نعرف عنها الا أنه كان أسمر اللون نحيف القد معتدل القامة • أما عن القول بأنه لا يعرف العربيـة(١٢١) فربما كان المقصود به أصول اللغة ومعرفة الأدب والشعر •

أما عن أخباره ، فهو محب للعفو والصفح في الذنوب(١٢٢) ، فأكثر

---

(١١٩) ابن خلدون ، المقدمة ، الباب ١ الفصل ١٨ ـ في ان من عوائق الملك حصول الترف •

(١٢٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ـ ٤٧ ، الحلل الموشية ، ص ٨١ ـ ٨٢ ، روض القرطاس ، ص ١٣٧ ، ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ ، النويري (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ •

(١٢١) أنظر محمد الميلي ، تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥٨ •

(١٢٢) أنظر ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ ـ حيث قصة الثلاثة رجال الذين تمنى أحدهم ١٠٠٠ دينار والثاني عملا والثالث زوجة يوسف بن تاشفين النفزاوية ، وكيف أنه أحضرهم =

عقابه الاعتقال الطويل – الا من انتزى وشق العصا « فالسيف حسم لانتشار الداء »(١٢٣) • كما كان يفضل الفقهاء ويعظم العلمـــاء ، ويصرف الأمور اليهم ، ويقضى على نفسه بفتياهم ، تماما كما كان يفعل يحيى بن ابراهيم الجدالى أول أمرائهم مع عبد الله بن ياسين المنظر الأول •

وفى هذا السياق يرى صاحب الحلل الموشية ، ان بلاد الأندلس أقامت فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، بعد أن أحيا الجهاد الذى كان قد انقطع بها منذ ٧٩ سنة – من مدة آل عامر • فقـد قام أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما « ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة ، لم تفسدها الحضارة »(١٢٤) •

ومما يذكر لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الأعمـــال الخاصـة بالأندلس ، عنايته الفائقة بمدينة العبور فى العدوة المغربية وهى سبتة • فبعد أن استقرت أمور الأندلس بعد دخولها تحت المظلة المرابطية ، عهـــد يوسف بن تاشفين الى القاضى ابراهيم بن أحمد ببناء ســـور الميناء تامينا لجواز القوات المرابطية وهى واردة الى الأندلس وصادرة عنها • وبعد ذلك بأعوام ، وفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م قرر أمير المسلمين ترميم مسجد سبتة الجامع وزيادة سعته حتى يستوعب أعداد الجنود ، الوفيرة من العـابرين ، وحتى يليق بدولته التى أصبحت امبراطورية عالمية عظيمة • وفعـــلا قام القاضى محمد بن عيسى الذى عهد اليه بالاشراف على تلك المهمة فرمم الجامع وزاد مساحته من جهة الصحن شمالا حتى أشرف على البحر – الأمر الذى يظن معه أن صحن جامع سبتة على الأقل ، كان وقتئذ بارزا عـــلى البحر ، خارج السور(١٢٥) •

هذا ، كما كان من شواهد سعادة عصره أن دينـــاره تبر (أى خام ذهب خالص) ، فى احدى صفحتيه :

« لا اله الا الله ، محمد رسول الله » •

= ولبى رغبة الأولين بينما أرسل الثالث الى زوجته التى تركته فى خيمة لعدة أيام يأكل مد نفس انطعام ثم قالت له كل النساء شىء واحد • وامرت له بمـال وكسوة واطلاته •

(١٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ •

(١٢٤) الحلل الموشية ، ص ٨٢ •

(١٢٥) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٨ ،

وتحت ذلك : « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » .

وفى الدير : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » ــ الآية .

وفى الصفحة الأخرى : اسم أمير المؤمنين العباسى(١٢٦) . أما عنوان كتبه : فـ « من أمير المسلمين وناصر الدين » الى فلان(١٢٧) ، وهـو اللقب الذى تقول الرواية انه حصل عليه من ديوان الخلافة ببغداد ، بعد انتصار الزلاقة بالأندلس على عهـد الخليفة أبى العباس : أحمـد المستظهر بالله (٤٨٧ ــ ٥١٢ هـ/١٠٩٤ ــ ١١١٨ م)(١٢٨) .

وأما ما توج به أعماله ، كما يرى محمد بن الخلف فى البيان الواضح ، فهو : « تولية الأمر فى حياته لابنه الأمير أبى الحسن (على بن يوسف) ، ذى العقل الرصين ، والرأى الحسن ــ قدس الله روحهما ، وبرد ضريحهما(١٢٨) .

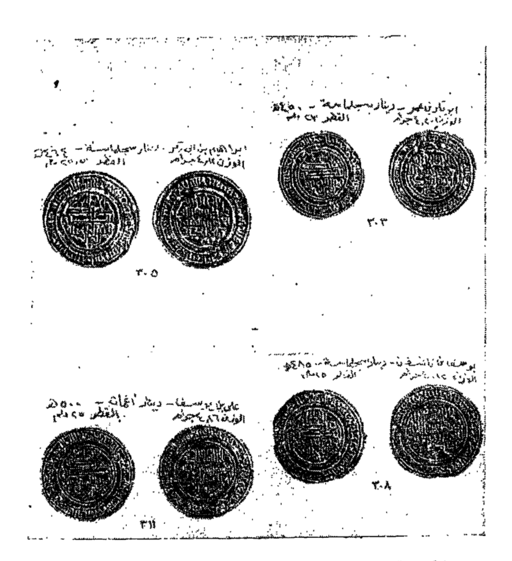
---

(١٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وقارن القرطاس ، ص ١٤٣ ــ حيث النص على أن كتابة اسم يوسف بن تاشفين على السكة لأول مرة كان فى سنة ٤٧٣ ــ حيث بدل السكة فى كل أرجاء المملكة ، وأيضا ص ١٣٧ ــ حيث تجديد السكة بمناسبة انتصار الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) ، واتخاذ لقب أمير المسلمين (وناصر الدين) ــ حيث تكملة الآية بـ « وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، ثم الأمير عبد الله العباسى ، وبعد ذلك « تاريخ ضربة وموضع سكته » ، وقارن حتى : فيليب ، تاريخ العرب المطول ، ج ٢ ص ٦٤٥ ــ حيث الاشارة الى قيام الفونس الثامن ملك كاستيل (قشتالة : ١١٥٨ ــ ١٢١٤ م) بتقليد هذه النقود ــ حيث احتفظ بالكتابة العربية الا أنه طبق اللفظ على العقائد النصرانية ، فأورد لقبه هكذا : « أمير القتولقين (الكاثوليكيين) » واسم بابا روما جاء هكذا : « امام البيعة المسيحية » . وقد صدرت السكة باسم : الأب والابن والروح القدس ، اله واحد ، بدل الشهادة ، واستعملت الآية : « فمن آمن واعتمد يخلص » عوضا عن الآية : « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (البقرة ٧٩ ، ٢) . وقارن فيما سبق ، ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ ، وفيما بعد ، ص ٢٧١ ــ ٢٢٧ .

(١٢٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦ ، وانظر عن النقود المرابطة ، مجموعة ولبم قازان ، المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٢٦٦ (عن دنانير الأميرين : أبو بكر بن عمر ، وابراهيم بن شكر) ، ص ٢٦٨ (عن دنانير الأميرين : يوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف) ، وانظر شكل ١٦ .

(١٢٨) النويرى (أبو ضيف) ، ص ٣٩٠ ــ حيث النص على ان فقهاء المسلمين قالوا : « لا تجب ليوسف طاعة الا بعهد من الخليفة ، فارسل قوما من أهله بهدية الى بغداد ، وكتاب يذكر فيه ما فعل بالفرنج ، وانه جاءه رسول من أمير المؤمنين المستنصر بالله بهدية وكتاب وتقليد خلع » .

(١٢٩) الحلل الموشية ، ص ٨٣ ــ حيث النص على أن توليته لابنه التى توصف بالنظر الجميل والرأى الأصيل كانت « مما سلى النفوس كل التسلية ، وأطفأ نار الرزية » .



شكل رقم ١٦ ـ نقود مرابطية ، مجموعة وليم قازان الخاصة ، المسكوكات الاسلامية ، بيروت ١٩٨٤

وهكذا فاذا صحت مقارنة ولاية يوسف بن تاشفين بخـلافة عمر بن الخطاب بصفتها رمز مرحلة التأسيس تصح مقارنة عهـــد على بن يوسف بخلافة عمر بن عبد العزيز من حيث ما كانت عهد العدل وسيادة الفضيلة . وهنـــا لا ندرى ما اذا كان ما يورده ابن عـــذارى من خبر النجم المنظـور الضوء ، ذى الذؤاية الطويلة ، الذى يسجل آخر أحداث سـنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥ ـ ٦ ، يمكن أن يرمز الى البشارة ، بولاية على بن يوسف فى مطلع سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م(١٣٠) .

---

(١٣٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٥ ـ هذا ، ولا باس من الاشارة هنا الى واحدة من المراثى المعبرة التى أنشدت على قبر يوسف بن تاشفين ، وهى قصيدة ، أبى بكر بن سوار ، التى يقول فيها (ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٧) :

ملك الملوك وما تركت لعـامل   عمـلا من النقوى يشـارك فيه
يا يوسف ما انت الا يوسف   والـكل يعقـوب بما نطـويه
اسـمع أمير المؤمنين وناصر الـ   ـدين الذى بنفوسـنا نفـديه
فى كل عـــام غـزوة مبـرورة   تردى عـديد الـروم أو تفنيه
ولقد ملكت بحمك الدنيـا وكم   ملـك الملـوك الأمـر بالتمويه
انا لمفجـوعون منـك بواحـد   جمعت خصال الخلق أجمع فيه
ومضى قد استرعى رعبنه ابنه   فأقـام منهـم حق مسترعيـه
واذا (على) كان وارث ملكه   فالسـهم ملقى فى يدى باريه

الفصــل الســابع

على بن يوسف بن تاشفين

٥٠٠ هـ/١١٠٦ م - ٥٣٧ هـ/١١٤٢ م

ذروة العصر المرابطى : بداية الانحلال :

لم يكن من المستغرب أن يتحول تاريخ الدولة المرابطية عند الكتاب من مغاربة وأندلسيين الى تاريخ الأندلس فقط ، منذ بدأت عملية الانقاذ المرابطى لتلك البلاد بعبور يوسف بن تاشفين لمضيق جبل طارق الى الجزيرة الخضراء ، وهو « الجواز » الذى تكرر على حياة ابن تاشفين لأربع مرات على مدى ١٦ (ستة عشر) عاما ، كان آخرها جواز سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٣ م ، بقصد تفقد أحوال بلاد المسلمين فى الأندلس ، وتأكيدا للعلاقة العضوية بين القطرين الاسبانى والمغربى بتجديد ولاية العهد للأمير على « ولد » أمير المسلمين يوسف ، فى العدوة الأندلسية · ولا شك أن تجديد الاحتفال بولاية العهد بالأندلس يعنى اعترافا ضمنيا من أمير المسلمين بالدور المتفوق الذى أصبحت تقوم به بلاد الأندلس فى توجيه مسار الأحداث فى الدولة المرابطية ، الأمر الذى كان يتمثل وقتئذ فى هيمنة الكتاب أو الوزراء الأندلسيين على الشئون الادارية فى الدولة التى أصبحت مقسمة بين هؤلاء الوزراء الأندلسيين وبين رجال الحرب من القواد (الأمراء) المرابطين · هذا ، بينما أصبح أمير المسلمين وكأنه الحكم الذى يقع على عاتقه تنظيم أداء كل من الطرفين (الأندلسى والمغربى) بما يحقق التوازن فى أداء كل طرف منهما لدوره سواء فى أمور الحكم والادارة فى الجانب الأندلسى أو فى شئون الحرب والمال فى الجانب المرابطى ·

وبطبيعة الحال كان للأندلسيين دورهم الحضارى المؤثر فى ميادين الثقافة فى مجالات الكتابة والأدب والشعر الى جانب مجالات الفن من العمارة والزخرفة ، وترتيب الأثاث والرياش ، وفى كل أسباب الحياة اليومية من التقاليد والعادات ، مما يتعلق بأحوال الطعام والشراب ، ومجالس الفرح والأنس والتسلية ، وهى الأمور التى جذبت انتباه المغاربة حتى تحول الكثير من المرابطين الملثمين ، فى مجالات الترف الى نوع من غلاة الأندلسيين منهواةالحياة الناعمة · والنموذج لهؤلاء هو حاكم سرقسطة

المرابطى : أبو بكر بن ابراهيم الذى بالغ فى تقليده لبنى هود (أصحاب المدينة السابقين) فى الشراب ولبس التاج ، وفى رعاية الفلاسفة ، كما فعل مع ابن باجه الفيلسوف « العلمانى » (المتحرر) ، حسبما يقول دوزى(١) • الأمر الذى يؤكد مقولة ابن خلدون فى أن الحضارة بعلاماتها المميزة من الترف والأخذ بمباهج الحياة ، هى نهاية العمران ومؤذنة بفساده(٢) •

وهكذا حق لعبد الواحد المراكشى أن يقول : انه حين ملك يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين جزيرة الأندلس عد من يومئذ فى جملة الملوك ، على أساس أن « جزيرة الأندلس : حاضرة الغرب الأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه ••• واستحق اسم السلطنة ••• فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » • هذا ، كما عمل أعيان الكتاب (الوزراء) فى دولة المرابطين ، مثل : ابن القصيرة وابن عبدون الذى كتب لسير عند دخوله أشبيلية ، قبل أن يتصل بأمير المسلمين(٣) •

صورة على بن يوسف : أمير المسلمين وناصر الدين :

والمهم أنه اذا كان الكتاب قد رسموا صورة لعلى بن يوسف ، أمير

(١) المسلمون فى أسبانيا (بالفرنسية) ، ج ٣ ص ١٦٣ •

(٢) المقدمة ، ط • التجارية ، باب ٤ الفصل ١٨ - فى ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ••

(٣) المعجب ، ص ١٦٣ - ١٦٨ - حيث عرض رسالة ابن عبدون الوزير فى فتح شنترين عن الأمير الذى فتحها على عهد أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين، فمكان الكتابة من داخل مدينة شنترين ، وفتح المعقل الحصين تم بحسن سيرة أمير المسلمين « فامكننا الله تعالى من ذروتها ، وانزل ركابها لنا عن صهوتها » ، وأنظر أيضا (المعجب) ، ص ١٧٣ - حيث النص على أعيان الكتاب فى عهد على بن يوسف ، ممن تم استدعاؤهم من الأندلس ، ومنهم أبو القاسم بن الجد (المعروف بالأحدب) ، وأبو بكر محمد بن محمد ابن القبطرنة (الرأس المستديرة) ، وأبو عبد الله بن أبى الخصال واخوه أبو مروان (وهو أنبههم) ، ثم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، ص ١٧٦ - حيث فقرات خاصة بابن عبد الله ابن أبى الخصال وأخيه أبى مروان اللذين ظلا فى خدمة على بن يوسف الى ان أخرهما لموجدة كانت منه عليها عندما أمرهما بالكتابة الى جند بلنسية المرابطى اثر هزيمة قبيحة لحقت بهم من ابن ردمير ، فانتهزا الفرصة وغلظا لهم فى القول أكثر من الحاجة مما شككه فى بغض أبى مروان للمرابطين ، الأمر الذى دعا أبا عبد الله الى الاستعفاء بعد وفاة أخيه أبى مروان بمراكش ، والعودة الى قرطبة حيث توفى فى أول الفتنة القائمة فيها على المرابطين (سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م ، أنظر ما يأتى ، ص ٣٨٤) •

المسلمين الثانى تختلف الى حد كبير عن صورة والده يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين الأول ، فان البعد الزمنى الذى يصل الى ٧٧ (سبعة وسبعين) عاما بين الأب الصحراوى أصلا والابن الأندلسى منشأ يمكن أن يبرر الفارق بين الصورتين ٠ والحقيقة أنه رغم أن الكتاب يتفقون على رسم صورة معنوية لعلى تكاد تكون نسخة طبق الأصل ، كما يقال ، من صورة والده يوسف ، من حيث المشاركة تجريديا فى كثير من الصفات الأخلاقية والدينية السامية التى ترفعهما عاليا فى درجات الانسانية ، فان عليا وهو الشخصية المدنية يتفوق على والده ، رجل الحرب بالامتياز ، باهتماماته الدينية المتميزة ، وفى انفراده بصورة طبيعية (فوتوغرافية) واضحة ، خصه بها ابن أبى زرع ، تتفق ونصف الدم الاسبانى الذى كان يجرى فى عروقه ٠

فالأمير على بن يوسف الذى ولى وعمره ٢٣ (ثلاثة وعشرون) سنة يوصف بأنه أبيض اللون مشرب بخمرة تام القد ، أسيل الوجه ، أفلج اقنى (الأنف) ، خفيف العارضين ، سبط الشعر ، أكحل العينين[٤] – ومثل هذه الصورة مفتقدة بالنسبة ليوسف الوالد ، وهو الشخصية التاريخية العارمة ٠

والحقيقة انه اذا كانت صورة يوسف بن تاشفين تمثل الفارس المحارب فان صورة على ابنه تمثل الراهب العابد ٠ وفى ذلك تقول رواية الحلل الموشية انه كان فى طبعه منذ مولده مثل كاهن يأتى بعجائب الأخبار[٥] ٠ وهو أقرب عند عبد الواحد المراكشى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين منه الى أن يعد فى الملوك والمتغلبين[٦] ٠ فعلى منذ ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ظهرت عليه مخايل النبل والفهم والذكاء ، الأمر الذى جعل والده يسند اليه النظر فى نظام الشكايات المعروف « بالمظالم » ، مما حقق النفع للناس ، والخير للصالح العام[٧] ٠ وفى ذلك عرفت عنه البراعة فى الاضطلاع بما يعهد به اليه من الأعمال والقيام بها مقاما محمودا ، حتى أحبه الناس جميعا حبا مشوبا بالهيبة ٠ هذا ، كما عرف عنه الذكاء وحسن السيرة ، وجودة الطوية ، ونزاهة النفس والبعد عن الظلم[٨] ، وعلو الهمة ، من حيث :

---

(٤) روض القرطاس ، ص ١٥٧ ٠

(٥) الحلل ، ص ٨٤ (حيث فى طيعه ومولده (بدلا من منذ مولده) ٠

(٦) المعجب ، ص ٧١ ٠

(٧) الحلل الموشية ، ص ٨٤ ٠

(٨) المعجب ، ص ١٧١ ٠

محبة الأشراف ، وتقليد العلماء ، وايثار الفضلاء ، مما حقق له اتفاق الكلمة واجتماع الأمة(٩) .

اما عن أفراد أسرة على بن يوسف فان صاحب الحلل الموشية يعرف بثمانية من أبنائه الذكور هم : تاشفين (ولى عهده) وأبو بكر (بيكور) وعمر (الكبير) وابراهيم واسحاق وتميم وداود ، وعمر الصغير(١٠) .

وصية يوسف بن تاشفين لولى عهده الأمير على : فى أصول الحكم :

رغم ما هو معروف من أن يوسف بن تاشفين كان يعانى فى السنتين الأخيرتين (٤٩٨ - ٤٩٩ هـ/٥ - ١١٠٤ م) كثيرا من آلام المرض الذى ألم به ، الأمر الذى دعانا الى التفكير فى أن يكون مرضه الذى مات فيه ربما كان الفالج (الشلل النصفى) أو الدرن السرطانى ، فهنـــاك رواية فى الحلل الموشية تجعل أمير المسلمين يوسف فى تمام وعيه وهـــو فى ذروة أزمته الصحية ، اذ تنص على أنه ترك لخليفتـــه على وصـــية تعبر عن البرنامج السياسى المثالى الذى يجب أن يقتدى به فى ادارته للدولة ، والذى يتلخص فى ٣ (ثلاثة) مبادىء هى :

١ - ألا يهيج أهل جبال درن (أطلس - بعامة) والمصامدة (بخاصة).

---

(٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، الحلل ، ص ٨٤ ، ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٤١٧ - حيث النص على أنه : ازداد فى اكرام العلماء والوقوف عند اشارتهم ، وأنه كان يخشع عندما يعظه أحدهم ويلين قلبه ، المعجب ، ص ١٧١ - حيث النص على ايثارة لأهل الفقه وانه كان لا يقطع أمرا دون مشاورة الفقهاء ، وانه اذا ولى قاضيا يعهد اليه الا يقطع امرا ولا يبت فى حكومته فى صغير او كبير من الأمور الا بمحضر ٤ (اربعة) من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، وانظر أيضا ص ١٧٢ - ١٧٣ - حيث الاهتمام بالفروع اى فروع مذهب مالك والاكثار من ذلك حتى نسيان النظر فى كتاب الله ، واعتبار علم الكلام بدعة ، وتكفير كل من ظهر منه الخوض فيه ، والتشدد فى ذلك حتى الاجتراء على احراق كتب الغزالى بخاصة والتهديد بسفك دم كل من وجدت عنده ، وقارن دوزى ، المسلمون فى الأندلس ، ج ٣ ص ١٥٥ - حيث النص على ان على بن يوسف أكثر بنى تاشفين استحقاقا للمديح ، وانه لم يولد للحـكم ، بل الأوفق لو كان راهبا (ناسكا) يكرس اعماله للخير والصلاة والصوم .

(١٠) الحلـل ، ص ٨٤ - حيث النص على ان ابا بكر (بكور) كان ذا حدة ونجدة ، وأن أباه سجنه مكبولا بالجزيرة الخضراء الى ان مات والده ، وهو ابن ١٦ سنة ، وان ابراهيم هو الوحيد الذى (حـج) يذكر له حجة منهم ، اما تميم فقد ثار على أخيه ابراهيم وقتل فى حينه ، بينما كانت أم عمر (أصغرهم) رومية تسمى بـ « رياض الحسن » .

٢ - أن يهادن بنى هود بالأندلس (بالثغر الأعلى) ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم (الاسبان) .

٣ - أن يدارى أهل قرطبة فيقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم(١١) . وهو الأمر الذى يذكر فى وصية المعز لدين الله الفاطمى لنائبه فى حكم أفريقية : بلقين بن زيرى مؤسس أسرة بنى زيرى الصنهاجية(١٢) ، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة أن تلك الوصية تعبر عن الصعوبات التى كانت تعرض لها الدولة فى بلاد المغرب وقتئذ ، والمبادىء الأساسية التى ينبغى أن تسير عليها أية حكومة مغربية فى تلك العصور .

أما عن الامبراطورية التى ورثها يوسف لابنه على ، فكانت تحتوى على ثلاثة أقطار عظيمة الجرم ، وهى :

١ - جميع بلاد المغرب ، من : مدينة بجاية (فى المغرب الأوسط) الى بلاد السوس الأقصى .

٢ - جميع بلاد القبلة (الصحراوية) من سجلماسة الى جبل الذهب من بلاد السودان (اقليم بامبوك) .

٣ - بلاد الأندلس (الاسلامية) من شرقها الى غربها ، كما ملك الجزائر الشرقية : ميورقة .

وهكذا خطب له على أكثر من ٢٣٠٠ منبر ، على طول تلك البلاد وعرضها(١٣) .

مبايعة رؤساء القبائل لعلى ، وتوزيع الحكام على الولايات الهامة :

بعد احتفال الجنازة والدفن الذى أقيم ليوسف بن تاشفين كان على ولى العهد على ابنه ، أن يأخذ البيعة من جديد على زعماء القبائل الموجودين

---

(١١) الحلل ، ص ٨٢ ، وانظر فيما يأتى ص ٤٠٣ .

(١٢) انظر كتابنا ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ - حيث تشتمل الوصية على المبادىء اللازمة وقتئذ للحكم ، وهى ألا يرفع بلقين السيف عن البربر ، والا يرفع الجباية عن أهل البادية ، وأن يفعل مع أهل الحاضرة خيرا ، الى جانب ألا يولى احدا من اخوته أو بنى عمهم .

(١٣) روض القرطاس ، ص ١٥٧ .

بالعاصمة مراكش ، وأن يقوم بعـــد ذلك بجولة تفقـدية بصحبة أخ
الأسن : تميم ، على القبائل القريبة من لمتونة وغيرهم من قبائل الملثمين
وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل المصامدة فى بلاد السوس الاقصى ، حيـ
نعيا « أمير المؤمنين ! » الوالد ، وأخذا البيعة لعـــلى كأمير للمسلمين
« خليفة » للوالد . وكان على تميم أن يجدد هو الآخر البيعة لأخيــه ؤ
حضور زعماء تلك القبائل - أى بشكل نهائى .

وكان أول ما أمضاه الأمير على بن يوسف هـــو تقليد كبـار القو
(الأمراء) للولايات الهامة وتسييرهم على رأس قواتهم اليها ، لحفظ النظ
واقرار الأمور . وهكذا عين الأمير أبو الطـاهر تميم (الأخ الأسن لعلى
واليا لمنطقة مكناسة ، والأمير يحيى بن أبى بكر واليا لمنطقة فاس بالمغر
الأقصى ، والأمير مزدلى قائدا لمنطقة تلمسان بالمغرب الأوسط ، كما جدد
ولاية الأمير سـير بن أبى بكر الذى كان قد أعلن الطـاعة وتجـديد البيـ
لمنطقة أشبيلية ، بينما أمر الأمـــير أبو بكر بن ابراهيم (بن تيفلويت
بالاسراع الى مركز ولايته بغرناطة التى وصل اليهـــا فى ربيــع الأول ه
السنة (٥٠٠ هـ/أكتوبر ١١٠٦ م)(١٤) .

ومن الواضح أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) كان يشـغ
ولاية غرناطة كنائب لأمير المسلمين على الأندلس ، فهذا ما يفهم من روا
ابن عذارى التى تنص على انه تلقى التهانى بولاية أمير المسلمين عـــلى !
يوسف من زعماء الأقطار والمدايح من الشعراء الذين أجزل لهم العطاء
والظاهر أن احتفالات غرناطة بالحدث السعيد استمرت طوال شـــهرين
وذلك أن أبا بكر بن ابراهيم (ابن تيفلويت) لم يخرج من غرناطة الا ؤ
شهر رجب/فبراير من السنة(١٥) .

الادارة المدنية بالمغرب والأثر الأندلسى :

والحقيقة أنه اذا كان لأسلوب الحياة الأندلسية الراقية تأثيره عـــ

(١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر الذخيرة ، ج ٦ (ق ٣ م ٢) ص ١٢
والهامش - حيث (ابن تيفلويت) ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وأنه ولى غرناطة سنة ٤٩٩ هـ
١١٠٥ م ثم سرقسطة سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، وأنظر ص ٦٢١ - حيث رثاء ابن باـ
الفيلسوف الذى كان فى خدمته له شعرا .

(١٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

المرابطين فى الأندلس . فان هذا التأثير كان محدودا فى بلاد المغرب ، على كل حال . فاذا كان عدد من وزراء الطوائف كان لهم الظهور على عهد يوسف ابن تاشفين فذلك لأن أحداث الأندلس كان لها الأولوية وقتئذ . ولكنه بعد ان استقرت أوضاع المرابطين فى الأندلس عادت الأمور فى المغرب لمجاريها الطبيعية على عهد أمير المسلمين الثانى : على بن يوسف ، وبدأت أخبار العاصمة مراكش من سياسية وعسكرية ومدنية فى الظهور فى عناوين الأحداث . فابن أبى زرع فى تعريفه الأولى بدولة على بن يوسف ينص على أن كاتبه الذى يظهر وكأن له دور فى أخذ البيعة لسيده الأمير فى مراكش هو : أبو محمد بن اسباط(١٦) الذى ربما كان من قبيلة الأمير لمتونة . واليه ، على ما يظهر ، كان واجب الكتابة الى جميع بلاد المغرب والأندلس ، وبلاد القبلة ، يعلمهم (باسم الأمير على) بموت أبيه واستخلافه .. ويأمرهم بالبيعة(١٧) .

وكذلك الأمر بالنسبة لأول وزراء الأمير على بن يوسف : ينتيان بن عمر بن ينتيان ، الذى يظهر من اسمه أنه بربرى أصيل ، والذى كان يمكن أن يكون باكورة أسرة وزراية مرابطية ، لو قدر لدولة الملثمين أن يطول عمرها بعض الشىء ، وذلك أنه خلف ينتيان فى الوزارة ، على أواخر أيام على بن يوسف ابنه : اسحاق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان(١٨) .

أما عن أول رياح أندلسية هبت على المجتمع المغربى فى مراكش فتمثلت فى ظهور الاسبانيات (الروميات) فى بلاط الأمير ، حيث كانت أم الأمير على بن يوسف ، وهى « قمر » الرومية التى كانت تكنى «بأم الحسن» (ص ٣٧٧) ، بينما كانت ظل ابنه عمر (الصغير : أصغر أبنائه سنا) أسبانيا أيضا ، وهى : « رياض الحسن »(١٩) .

وعلى مستوى نظم الدولة كان الأمير على بن يوسف أول من استعمل الاسبان (الروم) فى المغرب كحرس أميرى من الخيالة ، بعد استخدام السودان والأغزاز (جمع غزى) الترك . هذا ، كما عهد اليهم بجباية

---

(١٦) روض القرطاس ، ص ١٥٢ .

(١٧) روض القرطاس ، ص ١٥٨ .

(١٨) الحلل الموشية ، ص ٨٤

(١٩) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

الضرائب فى أحواز مراكش العاصمة ، وبلاد السوس ـ الأمر الذى سيثير نعرة محمد بن تومرت العرقية ، عما قريب . وهنا تحسن الاشارة الى أنه لما كانت تلك الضرائب يطلق عليها البعض اسم المغارم (بمعنى المظالم)(٢٠) ، فكأن الدولة المرابطية ـ فى نظرهم ـ قد حادت عن سياستها الأصولية فى انكار ما زاد عن الزكاة والخراج من الضرائب ، على اعتبار أنها غير مطلوبة بالنص الشرعى ـ الا اذا كان ذلك دعاية مغرضـــة من خصـوم الدولة من الموحدين الذين ظهروا على عهد على بن يوسف اعتبارا من منتصف العقـد الثانى لولايته .

احوال الأندلس تثير اهتمام على بن يوسف منذ ولايته :

والحقيقة أن اهتمام الأمير على بن يوسف الشخصى بشـئون الأندلس يظهر منذ بداية ولايته ، وهو الأمر الذى تكرر لأربع مرات على طول عهـده خلال ٣٧ (سبع وثلاثين) سنة ، كما كان الحال على عهـــد والده يوسف بالأندلس ، على طوال حوالى عشرين سنة . والمهم أنه كان ثمة خلل قد طرأ على أحوال الأندلس وقتما ولى عهـــد امارة المسلمين فى مراكش ، فى أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ/٢ سبتمبر ١١٠٦ م . فهناك اشارة فى ابن عـذارى الى أن والى قرطبة وقتئذ ، وهو محمد بن الحاج ، ظل خاملا فى بداية عهـد الأمير على ، بل انه وقع تحت الاعتقال لفترة من الوقت الى أن رضى عنـــه الأمير فولاه مدينة فاس فى المغرب ، حيث بقى الى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م ، عندما أعاده الى الأندلس واليا لمدينة بلنسية(٢١) .

ويشرح ابن الأبار سخط الأمير على على الوالى والقائد الكبير (ســنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م) بأن ابن الحاج تلكأ فى مبايعته ، بل وانه « رام القيام عليه » ، الأمر الذى لقى قبولا من أعيان أهل قرطبة ومشيختها وفقهائها(٢٢)

---

(٢٠) الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

(٢١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ـ ٤٩ ـ حيث توقيت هـذا الحـدث تحت رواية سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م .

(٢٢) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ١ ـ حث الاشارة لرواية ابن الأبار فى « أصحاب الصدفى » . أنظر ط . مدريد ١٨٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٠ ـ حيث أبو بكر محمد ابن عبد الملك اللخمى الاشبيلى نزيل قرطبة ، الكاتب الجليـل ، المعروف بابن المرخى (ص ١٣٢) .. ولأبى بكر أيضا رواية عن أبى على الصدفى الذى لقيه بمرسـية ... وكان سبب ذلك اختصاصه بأمير قرطبة أبى عبد الله محمد بن الحاج داود اللمتونى هو وأبى عبد الله بن أبى الخصال الى أن رام القيام على بن يوسف بد تاشفين . ودفع أمرته ـ

- دون الاشارة الى السبب ، وهل كان الأمر يتعلق بحدة مزاج أهل قرطبة وميلهم الى الفتنة ، مما رأيناه فى وصية يوسف بن تاشفين الى ولى عهده على . ام تعلق الأمر بالميل الى أبى الطاهر تميم أخى الامير على بن يوسف الاسن ؟ . وهنا لا بأس من الاشارة الى أن موقف قرطبة الفاتر وواليها (ابن الحاج) من على بن يوسف كان من الأسباب التى دفعت الامير الى تجديد ولاية القائد سير بن أبى بكر على مدينة أشبيلية المجاورة لقرطبة ، ودفعه الى المسير بسرعة على رأس قواته الى الأندلس فى ذلك الوقت من فصل الخريف (من أوائل سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م) ، حيث كان وصوله الى مقر ولايته فى شهر ربيع (نوفمبر) . ولا شك أن هذا الأمر أثار قلق الأمير على أحوال الأندلس ، فكان دافعا له على بداية عهده بالجواز الى الأندلس بمجرد تحسن الأحوال الجوية فى الشهور الأخيرة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م ، أول سنى حكمه - وفى ذلك تقول الرواية انه تحرك الى الأندلس « لتفقد أعلها ، وسد خللها »(٢٣) .

العبور الأول لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين :

واذا كانت الروايات الخاصة بهذا العبور الأول تكتفى بتحديد سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م دون اشارة الى الشهر أو الفصل من السنة ، فمن الواضح أن هذا الجواز كان فى الشهور الأخيرة من ذلك العام ، وأغلب الظن فى شهر شوال بعد عيد الفطر أى فى بداية الصيف من شهر يونيه . وكان خروج الأمير على فيما يشبه الحملة الحربية ، اذ تقدمته الجيوش من المرابطين: أهل الدولة ، والمصموديين أتباعها من أهل السوس ، كما أحاطت به الجنود من الحرس الأميرى الذى دخلت فى تشكيله ، الى جانب الأحباش السود

= وتلكا (ص ١٣٣) عن بيعته لأول ولايته سلطان ابيه ، ومالاه الملا من أهل قرطبة : مشيختها وفقهايها ، وذلك سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، ثم نكب وقبض عليه ، وفسد تدبيره ، فهرب أبو بكر حينئذ الى شرق الأندلس وسمع من أبى على كثيرا .. ولم يفارقه الى أن رضى على بن يوسف على ابن الحاج وأخيه وقومه ومن عليه وصفح عنه ، وولاه مدينة فاس ، وما اليها من أعمال المغرب ، فلحق به أبو بكر وصحبه هناك ، وبسرقسطة اذ وليها مع دلنسه بعد ذلك ، حتى استشهد بالموضع المعروف « بالبورت » وتفسيره بالعربية «الباب» سنة ٥٠٨ هـ / ١١٠٨ م (ص ١٣٤) - توفى ١٧ من ذى الحجة ٥٣٦ هـ / ١٤ يولية ١١٤٢ م ، وهو ابن ٧٠ سنة ودفن بمقبرة أم سلمة وصلى عليه ابنه أبو الحكم ، وكانت جنازته مشهودة ، وحضرها الرئيس أبو محمد بن الزبير بن عمر اللمتونى ، ومولده فى صفر سنة ٤٦٨ هـ / سبتمبر ١٠٧٥ م ، (ص ١٣٥) .

(٢٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ .

والأغزاز من الترك البيض ، وجماعات من العسكر الاسبانى المسيحى ممن عرفوا باسم « الروم » ، كما تبعته أعداد من المتطوعة الوافدين من مختلف القبائل من سائر الأمصار ، ممن عرفوا باسم الحشود ·

وكانت المسيرة سريعة نحو سـبتة من حيث كان العبور الى الجزيرة الخضراء – حيث استقبل أمير المسلمين الجديد : على بن يوسف بن تاشفين بما يليق به من تبجيل واحترام ، من كل فئات الخاصة من أهـل الأندلس على مراتبهم ، وفى طليعتهم رجال الدين ، من : القضـاة والفقهاء ، يتبعهم الأعيان المدنيون ، من : الزعماء والرؤساء ثم بطانة هـؤلاء ، من : الأدباء والشعراء ، الذين احتفلوا به بمدائحهم ، ونالوا عطاءه · وتبـع ذلك أن اجتهد الأمير على فى اكتساب رضاء الجميع « فقضى لمن كان ذا ارب اربه ، وسنى لكل ذى مطلب مطلبه »(٢٣ م) ، فكان ذلك ممـا حقق له الشعبية العارمة ، من : « اتفاق الكلمة واجتماع الأمة » (ما سبق ، ص ٣٧٨) ·

وبدأت الحملة التفقدية (الرادعة) فى الأندلس بصدور الأمر بتعيين أبى الطاهر تميم ، أخى أمير المسلمين على بن يوسف (الذى كان موجودا فى المغرب كنائب لأمير المسلمين) ، واليا لغرناطة فكأنها ظلت محتفظة بمركزها المتفوق كمقر لنيابة الأندلس وولاية العهد ، من حيث كانت قاعدة صنهاجية أصلا · أما عن محمد بن الحاج ، والى قرطبة المتهم بسوء النية ، فانه عزل من موقعه هذا وحل مكانه : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى(٢٤) من عصبية الأمير ·

هذا ، كما أصدر الأمـير قرارا بعزل قاضى أشبيلية ابن منظور اثر التشكيك فى ذمته ، من قبـل الوزير : الطبيب الشهير أبى العـلاء بن زهر(٢٥) ·

(٢٣ م) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر الحلل الموشية ، ص ٨٥ – حيث نفس النص تقريبا ·

(٢٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٨ ، وأنظر روض القرطاس ، ص ١٥٩ – حيث الاشارة الى عزل الأمير تميم عن بلاد المغرب فى السنة التالية ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (بدلا من النص على تعيينه على بلاد الأندلس) وتعيين القائد أبى عبد الله محمد مكانه (بدلا من القول بعزله عن قرطبة – مما يأتى ذكره) واليا على فاس وسائر أعمال المغرب لمدة ٦ (سـتة) أشهر قبل توليه بلنسـية من حبث يكون دخوله الى سرقسطة سنة ٥٠٢ هـ /١١٠٨ م ·

(٢٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ وهـ ٢ – حيث شرح سبب الخصومة بين الطبيب الوزير ابن زهر والقاضى الشهير ابن منظور ، وهى التى أدت الى عزل الأخير ، نقلا عن كتاب « تقصى =

وهكذا تحققت أهـــداف جواز الأمير على بن يوسف الى الأندلس ، اذ تفقد أمورها « وعمت البيعة دانيها وقاصيها » حسبما سمحت الظروف ، اذ من الواضح أن أمير المسلمين كان فى عجلة من أمره خشية نهاية الصيف واقبال فصل الشتاء ، وأنه كان عليه أن يصدر الى سبتة ، قبل نهاية العام (ذو الحجة ٥٠٠ هـ/أغسطس ١١٠٧ م) ، ومنها الى مراكش (العاصمة)(٢٦) ٠

وبمجرد وصوله ا لى الحاضرة كان على أخيه أبى الطاهر ـ نائب الملك ـ أن يخرج الى ولايته بغرناطة ، حيث كان وصـــوله الى الأندلس فى مطلع سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م دافعا الى اطمئنان النفوس وراحة البال ، وبذلك تم له الفرح « بمملكته ، وظهر به جمال دولته »((٢٧) ٠ وكان على أبى الطاهر تميم أن يؤكد ولايته لغرناطة وبالتالى لسلطانه على كـــل الأندلس بتأكيد سيطرته على بلاد المسلمين ، وفرض هيمنته على الجيران الاسبان المسيحيين ٠

فتح أقليش :

وهكذا كان عليه أن يهيىء نفســه للغزو ، عن طريق حسن سياسة الجند ، والترتيب للعمل الجماعى مع القريبين منه ، من سائر التواد ، وكان حصن أقليش (Ucles) من كورة شنتبرية ـ على منابع وادى آنه قرب وبذه من شرق طليطلة ـ هو هدف حملته التى قادها فى أواخر شعبان/ ١٣ ابريل ١١٠٧ من نفس العام ٠ وكانت مدينة جيان مكان التجمـع بين قواتها وجيوش الحملة ، وكذلك القوات الوافدة أيضـــا من قرطبة ، ومن غيرها من البلاد(٢٨) ٠ والتى كان من كبار قادتها عبد الله بن محمـــد بن فاطمة ، ومحمـــد بن عائشة اللذين كانا أقرب المستشـــارين الى الأمـير

= الأنباء فى سياسة الرؤساء » لابن الصيرفى (الذى لم يصـل الينا) ، وفيه أن الطبيب مرض ذات يوم فسخر من ذلك القاضى ابن منظور قائلا : « طبيب ماهر يمرض » ، فما كان من ابن زهر الا أن رد على ذلك بكلام يقول فيه : ان أبا الطب والأطباء جالينوس كان يمرض دائما ، الى جانب شعر ، قال فيه انه :

« كما : قد يعثر من مشى قد يكون من الفقيه أكل الرشا »

(٢٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ ٠

(٢٧) نفســه ، وانظر ما سبق ، ص ٣٨٤ والهامش ٢٤ ـ حيث الاشارة الى نص روض القرطاس ، ص ١٥٩ عن عزل الأمير تميم عن المغرب وتولية ابن الحاج فكانه بديل عن القول بعزله عن قرطبة (سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م) ٠

(٢٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٩ ـ ٥٠ ٠

تميم(٢٩) :

وخرجت القوات المرابطية بقيادة الأمير تميم ، أخي أمير المسلمين والي غرناطة ونائب الأندلس ، الى منطقـــة طليطلة لتضرب الحصـــار على حصن آقليش ، وتتمكن بعد نزال عنيف من اقتحامه لكي يلجأ سكانه الى قصبته الحصينة ، يحتمون بها انتظارا لمجيء النجدة من قبل الفونس الســادس . ورأى الملك العنيد الذى كان يعيش وقتئذ أيامه الأخيرة ، أن يواجه نائب الأندلس الأمير تميم بن يوسف بقرين له هـــو الأمير ولى عهده « الفنت » (Infante) شــــانجه (Sancho) ابنــه من زوجته زائدة (زوجـــة المـأمون بن المعتمد بن عباد السابقة) التي كانت قد تنصرت(٣٠) .

ووافى الأمير القشـــتالي الذي كانت تجرى في عروقه بعض الـــدماء العربية — في جيش انقاذ مسيحي كبير ، يبلغ عدده حوالى ٧ (سبعة) آلاف رجل ، على رأس كـــل ألف منهم واحـــد من قوادهم المعروفين بالقوامس (جمع قومس : (Comes) أو قومط : كونت)(٣١) . ومن الواضـــح أن

---

(٢٩) انظر نظم الجمان لابن القطان ، ص ٨ ، هـ ١ (عن ابن عائشة) صاحب مرسية وهـ ٢ (عن ابن فاطمة) صاحب بلنسية ، اللذين ينسب اليهما تقويم الموقف عند انهزام عسكر قرطبة لعدة أميال فقاما بمهاجمة محلة النصارى وطاردوهم ثم تبعهم الأمير تميم (ص٩) ، ولجأ الأسبان الى حصن بلشون (هـ ٣ (Belinchon) — حيث رعبتهم من المسلمين ، ولكنهم أخذوا ابن ألفونس وقتل ، روض القرطاس ص ١٦٠ . وقارن الرسالة الرسمية ، نشر حسين مؤنس ، الثغر الأعلى فى عصر المرابطين ، ص ٤٠ وهـ ٢ — حيث النص على أنه « لم نعلم الا من هذه الوثيقة ان هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة » (؟) ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ — حيث النص : كان مدير الحملة هو أمير قرطبة ابن رنغى ؟ وجماعة عن الرؤساء بالأندلس ، ص ٨ — حيث مشاركة ابن عائشة وابن فاطمة فى تلك الحملة .

(٣٠) أنظر القرطاس ، ص ١٩٥ — ١٦٠ — حيث اسم الوقعة اقليج ، وتاريخها ، فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، وان الفونسو عندما استعد للخروج اغاثة لبلده أشارت عليه زوجته أن يوجه ولده بدلا عنه فيكون مقابلا لتميم ابن ملك المسلمين وسانشو ابن ملك الروم ، فبعثه فى جيوش كبيرة ، وقارن حسين مؤنس الثغر الأعلى فى عصر المرابطين ، ص ٢٠ — حيث رواية ابن أبى زرع هذه ، وقارن ابن القطان نظم الجمان ، ص ٧ وهـ ٥ — حيث عمر الشاب ولى العهد ١٥ سنة ، وان رواية القرطاس مقتبسة من نظم الجمان .

(٣١) قارن حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٢٠ — حيث تسمى الوقعة بموقعة الأكناه السبعة بالاسبانية(Los Siete Condes)وانظر الرسالة الرسمية الخاصة بالموقعة (الوثيقة الأولى) ، ص ٣٥ — حيث تبدأ الرسالة بعنوان « رسالة كتب بها ... ابن شرف عن بعض =

المحيطين بالأمير القشتالى الصغير ، من كبار القواد أو المستشارين لم يكن لهم مثل دراية الفونس السادس فى أمور الحــرب والسياسة . وذلك ان الحرب التى لا نعرف من تفصيلاتها عند المؤرخين سوى أنهــا كانت طويلة يصعب شرحها(٣٢) . بينما لا تظهر تلك التفصيلات فى الرسالة الرسمية بسبب عناية الكاتب بالمحسنات اللفظية والسجع على حساب الموضوع ، الى جانب تحريفات النساخ ، انتهت بهزيمة مؤلمة للعسكر الاسبانى ، اذ قتل الشاب الصغير سانكو (ولى العهد : الانفانت) وعــدد من كبار القــواد (الأقماط) ، منهم : غرســية أوردونش (Ardoñez) وغرسية بقبدره (De Carba) بينمــا أتيح الهرب للقــائد البرهانس (Alvar Hanes) ابن عم السيد (El Cid) ونصير الفونس السادس(٣٣) . أما من بقوا فى أرض المعركة من الرجال فقد اجتز من رؤوسهم على ٣ (ثلاثة) آلاف رأس ، جعلت أكواما من أجل الأذان عليهــا(٣٤) ، ممــا يذكر بمعركة الزلاقة .

= رؤساء المغرب .. فى فتح اقليش أعادها الله » وهو العنوان الذى يعلق عليه مؤنس فى الهوامش — حيث يقول فى (ص ١) ان كلمة « الغرب » تعنى المغرب وانه كان يطلق أيضا على الأندلس فى ذلك الحين (؟) ، وفى (هـ ٣) انه لم يتم فتح اقليش فى هذه الحملة . اذ بقيت قصبة البلد فى يد النصارى ، كما سنرى ولهذا يقول : « أعادها الله » . والذى نراه ان هذا العنوان ليس من صلب الرسالة بل انه من وضع الكاتب الذى نقل الرسالة فى وقت متأخر (كما هو الحال بالنسبة للقلقشــندى فى صبح الأعشى) فهو الذى يدعو : « أعادها الله » . اما تفسير اغفال سقوط القصبة فى الرسالة فلأن الرسالة يمكن أن تكون كتابتها فى اليوم التالى للمعركة : كما يرى مؤنس (ص ٤٢ هـ ٣) ، أى قبل استسلام القصــبة صلحا ، كما تشير بعض النصوص التاريخية . وهذا ما يبرره أيضا ، ما كان يصيب مثل هذه الرسالة من الخرم والتحريف والتبديل على أيدى النساخ . (وانظر ص ٣٧ والهوامش) ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٧ — حيث نزول عساكر المسلمين على المدينة الحصينة ... فارسل أدفونس ابنه بنحو ١٠ (عشرة) آلاف فارس لاغاثة اقليش .

(٣٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ ، القرطاس ، ص ١٦٠ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٦ — حيث النص على ان اقليش من غر الوقائع وجليلها .. ثم أن عساكر المسلمين اقتحموها فلجأ من كان اسفلها الى القصبة العليا .

(٣٣) الرسالة رقم ١ فى الثغر الأعلى لحسين مؤنس ، ص ٣٩ وهـ ٢ ، وقارن نظم الجمان لابن القطان ، ص ٧ وهـ ١ .

(٣٤) الرسالة رقم ١ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ٤٢ وهـ ٢ ، ص ٣٩ وهـ ٣ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦٠ — حيث المبالغة فى عدد قتلى العدو الذى بلغ زيادة على ٢٣ (ثلاثة وعشرين) الفا ، نظم الجمان لابن القطان ، ص ٩ — حيث النص على انهزام المشركين الذين قتلوا قتلا ذريعا مع ذكر استشهاد الامام الجزولى فى الجانب الاسلامى ، وجماعة من الأعيان والعربان (الهلالية) .

وكانت كارثة مؤلمة بالنسبة لألفونسو السادس ، اذ ينسب اليها وفاته ، وان كان فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٠٢ هـ/يوليه ١١٠٨ م التالية(٣٥) . أما بالنسبة للجانب الاسلامي فكان هذا النصر في أول حرب ضد الاسبان المسيحيين ، من بشائر السعد بالنسبة لباكورة عهد علي بن يوسف بن تاشفين فى الأندلس(٣٦) .

العبور الثانى لأمير المسلمين علي بن يوسف الى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م :

وهكذا ، بوفاة كل من يوسف بن تاشفين (سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م) والفونس السادس (سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م) في مطلع القرن السادس الهجرى/١٢ م . يظهر وكأن الزمن كان يعمل لصالح الدولة المرابطية وذلك باعتدال ميزان القوى فى أول سنة لملك الأمير علي بن يوسف ، وهى السنة قبل الأخيرة لألفونس . والظاهر أن أمير المسلمين الثانى (على) استبشر بما حققه أخوه تميم فى أقليش ، ورأى أن يكون له نصيبه هو الآخر فى احداث مفاخر الغزو والجهاد فى الأندلس ، فقرر أن يكون عبوره الثانى الى الأندلس فى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م التالية — وهو الجواز الذى تحقق فيه فتح مدينة طلبيرة ذات الموقع الاستراتيجى الهام بالنسبة لمنطقة طليطلة ومدينتها العتيدة . والحقيقة انه اذا صح يوم الخميس ١٣ محرم ٥٠٣ هـ الذى يعادل ١٢ أغسطس كتاريخ لبدء فتح طلبيرة يكون عبور الأمير على قد تم قبل ذلك فى شهر ذى الحجة المبارك الذى يعادل يوليه من شهور الصيف(٣٧) .

---

(٣٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦٠ — حيث النص على ان الفونس اغتنم لقتل ولده وهلاك عسكره ، فمرض بالفقعة ومات لـ ٢٠ (عشرين يوما من الكائنة) ، وانظر هـ ٩١ — حيث تصحيح المحقق بالنص على أن وفاته كانت بعدها بنحو عام (٣ يونيه ١١٠٩ م) .

(٣٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٠ — حيث النص ، ورجع الأمير أبو الطاهر الى غرناطة ، فكان ذلك حسب مقالة ابن الصيرفى فى كتاب « تقصي الأنباء فى سياسة الرؤساء » ، دليل اليمن والبركة ولولاية على بن يوسف فى اول دولته . وقارن هـ ١ — حيث النص على ان انتصار أبى الطاهر كان فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠ م حسب روض القرطاس ، ونظم الجمان (هـ ٢) — حيث النص على زائدة زوجة المأمون بن المعتمد .

(٣٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ — حيث اصل الرواية ، على أساس ان ١٣ محرم (٥٠٢ هـ) هو يوم الوصول الى طلبيرة ، وانه أول =

والمهم أن الأمير على خرج من الحاضرة مراكش الى الأندلس فى أواخر سنة ٥٠٢ هـ/صيف ١١٠٩ م أو أوائل سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م برسم الغزو الصيفى (الصائفة) ، وأنه بعد أن أجاز يمم شطر غرناطة حيث أقام بعض الوقت ، ريثما تلحق به بقيـــة كتائب الحملة المغربيـــة (العدوية) ، من العساكر والحشود والمطوعة ، وحتى تتأهب بدورها القـوات الأندلسية • ومن غرناطة سارت الجيوش بقيادته نحو قرطبة حيث أقام أياما لحين اكتمال تجمع الرجال ، وعندئذ سار بصحبته القاضى ابن حمـــدين نحو الهدف ، وهو طلبيرة : بوابة الدخول الى طليطلة(٣٨) •

فتح طلبيرة واجتياح منطقة طليطلة :

ولا ندرى ان كان وصول القوات الاسلامية كان مفاجأة لأهل طلبيرة ، أم انهم فضلوا عدم مواجهة المرابطين ، تاركين الدفاع عن المدينـــة لرجال الحامية الذين اكتفوا بدورهم باللجوء الى القصبة والاعتصام بهـا • وهكذا سنحت الفرصة بدخول القوات المرابطية طلبيرة ونهبهـــا واستنقاذ أسرى المسلمين فيها ، بينما هرب العساكر من أفراد الحامية الاسبان ليلا عن طريق النهر الذى كان يحيط بالمدينة كالخندق ، ومن ثم عبر المحلات المحيطة بهـا وبذلك نجحوا فى الافلات من الحصار(٣٩) •

وهكذا كان فتح طلبيرة سهلا فكأنها مدينة مفتوحة ، اذ لا نجـد الا ذكرا للمغانم التى امتلأت بها أيدى المسلمين من سقط المتاع ، من : الثياب

= يوم من أيام المعركة التى استغرقت عدة أيام ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ — حيث الجواز (دون تحديد) يوم ١٥ محرم / ١٤ غشت اغسطس ١١٠٩ م بدلا من تاريخ الانتصار فى طلبيرة التى تظهر خطأ فى شكل مدينة طلابوت ، وانظر أيضا الحلل الموشية ، ص ٨٥ — حيث الجواز الثانى وبرسم الجهاد ونصر الملة وقصد طلبيرة •

(٣٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، ص ١٣ ، القرطاس ، ص ١٦١ — حيث الجواز من سـبتة ، والاقامة فى قرطبة لمدة شهر (الأمر الذى يزيد فى تأخر الصائفة) ، الحلل ، ص ٨٥ — حيث البدء بقصد طلطلة •

(٣٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ — ١٤ — حيث الرواية التفصيلية من احاطة المسلمين بالمدينة ليلا ، وخرقهم الوادى الذى كان يحيط بالمدينة ليهرب المـاء ويمكن الوصول الى السـور يوم السبت — حيث تم اقتحام المدينة واستنقاذ أسارى المسلمين • هذا كما كان فى صحبة الحملة القاضى ابن حمدين فى سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤ م ، وكان يحرض الناس على القتال ، القرطاس ، ص ١٦١ ، والحلل ، ص ٨٥ — حيث فتحت عنوة بالسيف •

والماشية والأسلحة · هذا ، كما طهر المسجد الجامع ، ورد الى ما كانت عليه هيئته أيام المسلمين · وبعد أن رتب الأمير على بن يوسف حامية مناسبة من الرجال والفرسان والرماة تحت امرة قائد من المرابطين ، غادر المدينة ، وسار غربا نحو طليطلة(٤٠) ·

ومن الواضح أن النزول على طليطلة لم يكن لحربها بل لمجرد ترهيب أهلها ، وبالتالى ردع المسئولين من خلفاء الفونس السادس · وذلك أنه بعد الاقامة حولها لمدة ٣ أيام ، عادت الجيوش الاسلامية أدراجها صوب غرناطة بعد أن ساءت ظنون أهل طليطلة — مع ما هى عليه من الحصانة والمنعة(٤١) · وبذلك تكون حملة الأمير على الثانية بالأندلس قد دامت حوالى ٤٠ (أربعين) يوما ، ويكون الهدف قد تحقق من ردع العدو وترهيبه(٤٢) ·

سرقسطة ما بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

الدخول تحت المظلة المرابطية :

ومن المهم أيضا ما حققته القوات المرابطية فى منطقة الشرق ، من دخول سرقسطة ، قاعدة الثغر الأعلى فى نفس سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م ، فى طاعة المرابطين — رغم ما كان معروفا منذ بدء التدخل المرابطى فى شئون الأندلس ، من موافقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على الحفاظ على استقلال امارة بنى هود فى الثغر الأعلى ، متميزة على غيرها من رئاسات الطوائف ، من حيث كونها امارة فاصلة بين الممالك المسيحية فى الشمال وبين بلاد المسلمين فى الأندلس ، وهو ما أوصى به ولى عهده عليا ، على أنه قاعدة سياسية ذهبية لا يصح الاخلال بها(٤٣) ·

---

(٤٠) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ·

(٤١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٦١ — حيث فتح ٢٧ حصنا من أحواز طليطلة ؟ ثم وصل الى طليطلة وحاصرها شهرا ، وقطع ثمارها ، وبلغ فيها من النكاية كثيرا ، ثم قفل الى قرطبة ، الحلل الموشية ، ص ٨٥ — حيث قصد طلطلة (قبل طلبيرة) ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة بخارجها ، وانتشرت جيوشه على تلك الأقطار . ودوخ بلاد المشركين ، فلاذوا بالفرار الى المعاقل واعتصموا بالحصون المنيعة ؟

(٤٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٢ — حيث النص على انه لم يعهد فى ذلك الوقت مثل هذه الغزوة قوة وظهورا وعدة ووفورا ، وقارن الحلل الموشية ، ص ٨٥ — حيث النص على ان غزوة طلبيرة لم يعهد مثلها « قوة وظهورا وعدة ووفورا » فكأنه منقول عن ابن عذارى ·

(٤٣) أنظر الحلل الموشية ، ص ٩٨ — ٩٩ — حيث كتاب عماد الدولة عبد الملك الى أمير المسلمين على بمناسبة التفكير فى أخذه بلاده وفيه : وكان المستعين بالله خاطب أباك ··· =

ففي سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م كان المستعين أحمد بن هود أمير مملكة سرقسطة يتخذ حصن روطة (Rueda) مقرا له ، وعندما قرر في تلك السنة أن يعهد بولاية عهده الى ابنه عبد الملك نزل الى مدينة سرقسطة حيث جدد البيعة عن أهلها قبل أن يقوم بغزو أراضي مجاوريه من الاسبان المسيحيين ، وذلك في شهر جمادى الثاني/ديسمبر من تلك السنة .

وكان من بين المدن والقرى المحصنة التي داهمها المستعين أحمد بن هود تطيله وارنيط التي صالحه أهلها على دفع الجزية السنوية وأخذ منهم الرهائن ضمانا لذلك(٤٤) . واذا كان من الواضح أن الرواية تبالغ فيما أنزله بهذا الصقع المجاور لمملكة سرقسطة من الهدم والحرق والسبي ، قبل أن يعود الى بلاده ، فلا بأس أن يكون ذلك من الأسباب التي دعت الى ملاحقة كتيبته الفرسان التي تجمعت من أنحاء المنطقة للمستعين ، ونشوب معركة حامية بين الطرفين انتهت بهزيمة مروعة لجيش سرقسطة ، اذ استشهد المستعين أحمد بن هود ، وتبدد رجاله بعد أن بقي الكثير منهم في أرض المعركة ، وذلك في أول رجب سنة ٥٠٣ هـ/٢٤ يناير ١١١٠ م(٤٥) .

ومع أن عبد الملك بن أحمد بن المستعين خلف والده في امارة سرقسطة متخذا لقب عماد الدولة الا أن هزيمة أول رجب هذه كانت نذير شؤم لمملكة سرقسطة ، اذ أضعفت موقف الأمير الجديد بالنسبة لأهل سرقسطة ، الأمر الذي مهد لقاعدة الثغر الأعلى الدخول في طاعة المرابطين بشكل سافر دون مواربة أو مداراة . فعندما طلب عبد الملك البيعة من أهل سرقسطة اشترطوا عليه ألا يستخدم عسكرا من الاسبان المسيحيين ، بل وأن يقطع علاقاته بهم(٤٦) . هذا ، في الوقت الذي كان فيه والى بلنسية المرابطي

= يسأله الدعة ويرغب في الهدوء والاستعانة على العدو ، فاقام واقمنا مريحين ، ومن تعب النفاق فرحين ، ثم دهمنا من جهتكم داهم أبدى صفحته ... ولا يمكننا تسليم ما بايدينا اليكم ، فيتحكم فينا الاذلال والله حسيب من بغى .. وتنتهي الرواية بالقول ان امير المسلمين على بن يوسف خاطب قائده ابا بكر بن تيفلويت يأمره بالكف عن بلاده (ابن هود) فوافاه الكتاب وقد ادخلته الرعية مدينة سرقسطة .

(٤٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ — حيث النص على أن اهل ارنيط (في الأصل : أرنبه ؟) اعتصموا بكنيسة منيعة لديهم ، هي التي ضمنت لهم الصلح .

(٤٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ — حيث النص على انه « بايعه الناس بسرقسطة بعد ما اشترطوا ألا يستخدم الروم ، ولا يتلبس بشيء من أمرهم » .

يتربص بسرقسطة الدوائر ، وفعلا قام القائد عبد الله بن فاطمة بعد شهر واحد من مقتل المستعين فى واقعة أول رجب ، بالتحرك على رأس حامية نحو سرقسطة ، ولكنه عندما اقترب منها نبهه زعماء المدينة الى خطورة الموقف الذى قد يؤدى الى استنجاد عماد الدولة عبد الملك بالاسبان المسيحيين ، ودخول بلدهم فى دوامة الفتنة من جديد ، ونصحوه بناء على ذلك بالانصراف عنهم - ترقبا لما تصير اليه الأمور ، وهو ما استجاب له القائد المرابطى(٤٧) .

ولما كانت الأوضاع فى الثغر الشمالى تفرض ضرورة التعامل بين المسلمين والمسيحيين ان بالحرب أو السلم ، ولما كان استخدام المسيحيين من الاسبان كعسكر فى صفوف الدويلات الاسلامية قد صار أمرا دارجا ، ليس من المستحسن الاخلال به حتى العصر المرابطى ، بل وعند المرابطين أيضا (ما سبق ، ص ٢٦٠) ، لم يكن من المستغرب بعد ، ألا يفى عماد الدولة عبد الملك بشرط عدم استخدام « الروم : الاسبان » ، فى عسكره ، وقطع صلته بهم . وهكذا لم يكن وفاء عبد الملك بهذا الشرط أو عزمه على مداخلتهم (الروم) كافيا لاستدعاء أمير بلنسية الجديد محمد بن الحاج (أمير قرطبة السابق)(٤٨) ، اذ الأقرب أن يكون ذلك أمرا مبيتا من زعماء سرقسطة ، كراهية لأميرهم ابن هود ، تماما كما كان الحال من قبل ، لكل من أهل طليطلة وبلنسية بالنسبة لأميرهم ابن ذى النون (ماسبق، ص٢٩٢) . وهذا الأمر يعنى أن الحركات الشعبية فى المدن الاسلامية بالأندلس فى ذلك الوقت من أواخر القرن الخامس وبداية السادس (١١ - ١٢ م) ، كانت أقوى من أن تحجمها سلطات أمراء الطوائف الصغار ، ربما بسبب تأييد المرابطين لتلك الحركات سياسيا ، الى جانب دعايتهم الدينية التى كانت تلقى التأييد شعبيا . وهذا ما يتأكد بعد انفراد المرابطين بالسلطة ، حيث استمر الغليان الشعبى الناتج عن مأزق الضعف السياسى والاقتصادى، فى مقابل حركة القوة المتصاعدة فى جانب حرب الاسترداد المسيحية (الريكونكستا) ، وبيان عجز حركة الانقاذ المرابطية وحدها عن مواجهتها .

هكذا استجاب القائد محمد بن الحاج أمير بلنسية الجديد من قبل أمير المسلمين على بن يوسف (بعد أن رضى عنه) لدعوة أهل سرقسطة ،

---

(٤٧) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ .

(٤٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٣ - ٥٥ .

وتقدم اليها فى ١٠ من ذى القعدة ٥٠٣ هـ/مايه ١١١٠ م ، حيث فتحت المدينة أبوابها لدخول قواته التى استقرت فى موضع المصلى (الشريعة) ، بينما دخل محمد بن الحاج قصور الجعفرية الشهيرة بعمارتها الفاخرة وفنونها الزخرفية الرائعة(٤٩) .

المهم انه حدث ما كان يتوقعه زعماء أهل سرقسطة من قبل ، من استصراخ عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين بالفونس بن ردمير (ملك أراجون المعروف بالمحارب) الذى وافاه بحصن تطيلة (Tudela)

وهنا رأى محمد بن الحاج الذى كان قد خرج للتحرش بابن هود أن يعود الى سرقسطة ، ترقبا لتطور الأحداث . وعندما تقدم ابن ردمير نحو سرقسطة حيث توقف على مسافة فرسخين منها خرج له ابن الحاج على رأس المرابطين بينما عهد بقيادة أهل سرقسطة الى ابنه أبى يحيى . ورغم ما بذله ابن الحاج من الجهد فى ترتيب أهل سرقسطة فى هيئة القتال ، الا أن هؤلاء لم يصمدوا طويلا عندما اندلعت الحرب ، اذ لم يأت آخر النهار حتى أخلوا بنظام التعبئة ، بل وتسلل كثير منهم الى داخل المدينة . وكانت فرصة انتهزها ابن ردمير الذى قسم قواته الى فرقتين ، وقفت احداها ازاء ابن الحاج بيمنا صدمت الأخرى عسكر أهل المدينة المختل فحلت بهم الهزيمة وقتل أبو يحيى بن محمد ابن الحاج وكثير من أصحابه السرقسطيين ، وذلك عشية يوم الأحد ٥ من ذى الحجة ٥٠٣ هـ/٢٦ يونيه ١١١٠ م(٥٠) .

ذروة الصراع بين المرابطين والاسبان المسيحيين :

يعتبر انتصار المرابطين على قوات الفونس السادس فى أقليش (شرق طليطلة) سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م فى مطلع عهد على بن يوسف ، ذروة النجاحات التى حققتها حركة الانقاذ المرابطية فى الأندلس والتى تتوجت بضم آخر امارات الطوائف فى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى ، الى أراضى المسلمين فى الأندلس لتتم وحدتها تحت رايات المرابطين . والحقيقة أن الصراع سوف يستمر سجالا طوال عشر سنوات تقريبا ، بين حركتى الانقاذ

---

(٤٩) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ - حيث النص على ولاية ابن الحاج بلنسية عوضا عن ابن ناطمة والى غرناطة ، وانظر القرطاس ، ص ١٦٠ - أحداث سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م - حيث سار محمد بن الحاج من بلنسية الى سرقسطة فدخلها وأخرج عنها بنى هود .

(٥٠) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٤ .

المرابطى والاسترداد الاسبانى ، عندما يبدأ رجحان كفة « الريكونكيستا » نتيجة ففدان حماس المرابطين الحربى من ناحية ، وافتقاد ثقة الاندلسيين فى كفايتهم بشكل عام ، الأمر الذى يمكن أن يكون قد ساعد على قيام حركه الموحدين فى المغرب ، التى زعزعت قواعد الدولة المرابطية فى مهـدها من جهة ثالثة فى بلاد المصامدة ، وخاصة فى منطقة مراكش حاضرة المرابطين ، على مشارف بلاد السوس الأقصى ٠

وتمثلت علامات التحول الأول فى الجانب الأندلسى فى وقوف عبدالملك ابن المستعين بن هود صـاحب سرقسطة السـافر الى جـانب ابن ردمير (المحارب) ، الأمر الذى يشبه ما فعله المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس عندما فضل المسير الى أرض يسيطر عليها الفونسو السادس بدلا من مواجهة يوسف بن تاشفين (ما سبق ، ص) — الأمر الذى لم يجعـل الحرب سجالا فقط بين المرابطين والمسيحيين فى ضـواحي سرقسطة بل جعلهـا تصبح فى سنة ٥٠٤ هـ/١١١٠ م ميدانا للحرب والمناوشـة بين الطرفين صباحا ومساء ٠ واذا كان النص يجعل التفوق (الظهور) لابن ردمير فى كثير من الأحيان(٥١) ، فان وصول القائد أبى عبد الله بن عائشـة ، والى مرسية ، نجدة الى ابن الحاج بأمر من أمير المسلمين ، بدل الموقف فاعتدل ميزان الحرب بين الطرفين ، وهكذا : « لم تزل الحرب بعـد ذلك متصلة ، والمضارب مترددة ، وغزوات محمد بن الحاج متوالية » ولكنه عنـدما زاد ضغط المرابطين فى منطقة نفوذ عبد الملك بن المستعين ، اثر توجيه على بن كنفاط اللمتونى لحصار بعض حصون بنى هود فى جهة قلعة أيوب ، استغاث عبد الملك بملك أراجون فوجه اليـه مددا من العسـاكر الاسبان (الروم) الذى لم ينجح فقط فى الدخول الى الحصن رغم الحصار ، بل نجح أيضا فى التسلل خلال المعسكر المرابطى المطمئن ليلا ليأسر قائده « على بن كنفاط »، ويعود به رهينة ثمينة الى عبـد الملك بن المستعين بمقر امارته فى روطة (Rueda) حيث بقى بيده قبل أن يفك أسره عندما تم توقيع الهدنة بين الطرفين — وان لم يمنع ذلك من معاودة القتال ، « والحرب سجال والنفوس آجال »(٥٢) ، كما حدث فى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م ، حيث خرج عمـاد الدولة من روطة لحرب محمد بن الحـاج وانتهى الأمر دون هزيمة أحـد ، باكتفاء عماد الدولة بالاياب(٥٣) ٠

---

(٥١) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ ٠

(٥٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ ٠

(٥٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ ٠

والظاهر أن توازن القوى الذى ترجح فيـه شيئا ما كفة الاســبان المسيحيين فى الأندلس على كفة المرابطين لم يكن مقبولا من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى مراكش ، الأمر الذى جعله يلجأ فى اواخر سنة ٥٠٤ هـ/يونيه ١١١١ م الى تغيير القيادة العليا فى الأندلس ، وذلك بنقل أخيه تميم - نائب الملك - من ولاية غرناطة الى ولاية تلمسان ، قاعدة المغرب الأوسط(٥٤) • ووقع الاختيار على واحد من أكفأ القواد المرابطين الذين عملوا فى الجبهة الاندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبو محمد بن سرلنكان: ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) الذى آلت اليه فى مطلع ســنة ٥٠٥ هـ/يوليه ١١١١ م ولاية كل من قرطبـة وغرناطة والمرية وما انتظم معها من الحصون والقرى - بمعنى النيــابة أو المملكة(٥٥) • والظاهر أن سياسة القوة التى أظهرها الأمير على نالت رضاء عاما من بعض الزعمــاء الذين عملوا فى الجهة الأندلسية ، وهو الأمير مزدلى (أبومحمد بن سرلنكان: عاد بعضهم الى الانتظام فى صفوف حزبه الطبيعى ، الاسلامى • ففى هـذا الوقت المبكر من سنة ٥٠٥ هـ صفر/أغسطس ١١١١ م ، كان المنصور بن المتوكل عمر بن الأفطس يرجع من أرض أسبانيا المسيحية الى مدينة أشبيلية - حيث كان الأمير سير بن أبى بكر (منذ فتح المدينة على عهد يوسف) ، الذى رتب توجهه الى حضرة أمير المسلمين بمراكش ، حيث لقى اسـتقبالا حسنا ، وصارت مه منزلة رفيعة فى كنف الأمير(٥٦) •

وتظهر سياسة القوة التى انتهجها المرابطون فى العقد الأول من ولاية الأمير على بن يوسف نتيجة طبيعية لتضافر عدد من العوامل التى هيــأت استقرار الأمور فى كل من المغرب والأندلس • أولها حسن اختيار الأمير على لمساعديه من الرجال الأكفاء من أهل الحرب والسياسة ، من أمثال محمد بن الحاج ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن عائشة وعلى رأسهم مزدلى ، ومن وقف الى جانبهم من الكتاب والوزراء من أهل العلم والأدب والفن : أصحاب الخبرة فى الادارة وشئون الحكم • هذا ، الى جانب التمسك بتطبيق سياسة دينية أصولية مبنية على مبادىء المذهب المـالكى وقواعــد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الأمر الذى أدى أيضا الى تقريب الفقهاء ، والعهد اليهم بالبت فى كل الأمور ، مما جل منها وما صغر(٥٧) •

---

(٥٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٥ •
(٥٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ •
(٥٦) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ •
(٥٧) قارن المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٦١ - ١٦٢ •

وهكذا كان للأمير سير بن أبى بكر ، والى أشبيلية من قبل يوسف بن تاشفين منذ ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م ، أعماله الهامة فى اقليم الغرب حتى سنة ٥٠٤ هـ/١١ - ١١١٠ م ، بل والى وفاته باشبيلية (جمادى الأولى ٥٠٧ هـ/ أكتوبر ١١١٣ م)(٥٨) حيث ينسب اليه فتوح مدن : برتقال (Porto) ويابره (Yavora) والاشبونه (Lisbau ; Lisbonne) حتى شريش فى الجنوب ، الى جانب تهدين منطقة بطليوس ايضا - حيث كانت هذه الأعمال موضوع كتب رسمية أرسلت باسمه الى أمير المسلمين على بن يوسف • وبعد الأمير سير آلت ولاية أشبيلية الى القائد محمد بن فاطمة الى حين وفاته فى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م(٥٩) •

هذا كما كانت للقائد مزدلى بصفته والى غرناطة ، ونائب الأمير بالأندلس ، أعماله الحربية المجيدة التى أكدت التفوق المرابطى فى تلك الحقبة الأولى من ولاية على بن يوسف • ففى سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م التى تسلم فيها مزدلى ولاية قرطبة وغرناطة خرج على رأس جيش كبير من المرابطين والحرس الأميرى (الحشم) ممن حضروا من المغرب ، ومن قوات امارته ، وبما أمده به سير بن أبى بكر من قوات أشبيلية الى جانب المطوعة من الفرسان والرجالة • وكانت وجهة هذا الجيش الكبير منطقة طليطلة - هدف المرابطين وكل المسلمين ، الصعب المنال - « فدوخها واكتسح (مزدلى) به أوديتها ، وأبلغ فى نكايتها » ، قبل أن يعود الى قرطبة « ظافرا ، ظاهرا على عدوه » • واذا كانت هذه الأعمال موضوع اتفاق كل من ابن عذارى وابن أبى زرع(٦٠) ، فان الأخير يضيف اليها فتح مزدلى فى تلك الغزوة حصن أرهينه (أرينه أو أوريخا) عنوة • « وقتل من كان به من الرجال ،

---

(٥٨) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ - حيث يفهم من رواية ابن عذارى ان وفاة سير كانت مفاجئة ليلة خروجه للاحتفال بزفاف ابنته فاطمة الى أمير المسلمين ، وذلك فى موضع يسمى باغرنات قرب اشبيلية • وكان يشيع مع ابنته زوجته حواء (بنت تاشفين : أخى يوسف ابن تاشفين لأمه ، وابن عمه (على) فى نفس الوقت) • وعقب الحفل الكبير الذى استمتع فيه الناس بالموسيقى (اللهو) والأطعمة الفاخرة ، نزف بالأمير سير مغص شديد صار يتزايد عليه حتى قضى عليه عند الفجر ، وشهد جنازته بشر عظيم - بعد ولاية ناهزت الـ ٢٥ سنة • اما عن حواء بنت تاشفين ، زوجة سير فقد عرفت بأنها شاعرة جليلة ماهرة ، ذات نباهة وخطر ، وأنها كانت تحاضر كثيرا من رجال الدولة من الادباء والشعراء ، مثل : ابن القصيره وابن المرخى •

(٥٩) روض القرطاس ، ص ١٦١ - ١٦٢ ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٦ •

(٦٠) البيان ، ج ٤ ص ٥٧ ، القرطاس ، ص ١٦٢ •

وسبى النساء والذرية » . هذا ، وتضيف الرواية أن القائد الاسبانى الشهير : البرهانس (Alvar Hanez) عندما خرج مسرعا لنجدة أهل المنطقة لم يستطع مواجهة مزدلى فى معركة مكشوفة ، بل انه فر عائدا الى بلده مستترا بسواد الليل . وقبل ان يرجع مزدلى الى قرطبة أمر بتحصين أرينه وحمل الميرة اليها ، كما رتب بها حامية مناسبة من الفرسان والرجالة(٦١) .

ولا ندرى ان كان من حسن حظ مزدلى فى صائفته تلك (سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م) ان شتت النوء العاصف الحملة الصليبية البحرية التى خرجت من فرنسا (الأرض الكبيرة) فى نحو ٥٠٠ (خمسمائة) مركب تحمل عشرات الألوف من المقاتلة ، من : الفرسان والرماة والرجالة : والتى كانت تصحبها مراكب الحجاج مشحونة أيضا بالأطعمة والأزواد(٦٢) . وذلك أن مثل هذه الحملة الضخمة عادة ما كانت تقدم المعاونة على طول الطريق ، وأثناء مرورهم بحذاء الساحل الأندلسى الغربى ، اذا ما طلبها منهم محاربوا الاسترداد ، بل وكان يبقى بعضهم فى أسبانيا عندما تفوتهم المراكب المتجهة الى بلاد الشام وفلسطين - ومن المعروف أنه كان لذلك أثره فى نشأة مملكة البرتغال التى استقلت بجزء من غربى شبه الجزيرة الايبيرية .

من علامات الهبوط : وفاة مزدلى بالثغر واستشهاد ولده محمد :

والظاهر أن أيا من نشاط مزدلى الشخصى أو كفاءته العسكرية لم تكن وحدها ، بل ولا كلاهما كافيتين لتقويم الأمر الواقع وتعديل ميزان القوى الى مصلحة المرابطين . وذلك أنه عندما علم مزدلى بتهديد غرسية بن الرند ، صاحب وادى الحجارة (Guadalajara) المدينة المحصنة فى الثغر ، بالاستيلاء على مدينة سالم (Medinceli) الاسلامية بعد أن حاصرها ، خرج الى لقائه ، ولكن مجرد خبر وصوله الى المنطقة كان كافيا لهرب ابن

---

(٦١) القرطاس ، ص ١٦٢ . وقارن ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٧ وهـ ١ - حيث الاشارة الى ان المصادر الأسبانية تذكر أن الأمير مزدلى فتح حصن « أوريخا » الذى يمكن أن يكون اسم أرينه تحريفا له - عن مجلة تطوان ١٩٥٨ .

(٦٢) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٥٨ - حيث النص على أنها كانت تحمل نخبة من الفرسان ، يبلغ عددها ١٥٠٠ فارس ، ومن الرماة ٥٠٠٠٠ ، وأن الريح الصرصر العاتية أغرقتهم فلم تبق منهم باقية .

الرند ، « تاركا جميع أسبابه وأثقاله ومضاربه » التي وقعت جميعـــا بين يدى مزدلى .

ومع نجاح تلك الحملة التى ربما بدأت في الربيع أو الصيف المبكر ، فانه لم يقدر لمزدلى العودة الى مقر نيابته فى قرطبة وغرناطة ، اذ استمر في غزو الثغر الأعلى (بلاد الروم) استكمالا للصيـــائفة المبكرة ، حيث كانت بداية سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤م فى أوائل يونيه ، وهي السنة التي توفى فيها مزدلى ، ربما بسبب الاجهاد ان لم يكن من المرض(٦٣) . وعندما بلغ الخبر الى مراكش (العاصمة) صدر الأمر من ديوان أمير المسلمين بتعيين ولدى مزدلى وهما : عبد الله بن مزدلى ومحمـــد بن مزدلى اللذين كانا فى كنفه بالحضرة مكانه ، فكان لعبد الله غرناطة ولمحمد قرطبة ، وتم لهما الاستقرار بولايتيهما فى آخر ذى القعدة من سنة ٥٠٨ هـ/٢٧ ابريل ١١١٥ م(٦٤) .

واستمر محمد بن مزدلى فى الغزو بمنطقة الثغر هذه لمدة ٣ (ثلاثة) أشهر أى حتى نهاية الصيف ، ولكنه توفي شهيدا في ساحة القتال ، في ظروف صعبة على ما نظن ، وذلك ان الرواية لا تحدد تاريخا لذلك المصاب خلال سنة ٥٠٨ هـ/٥ ـ ١١١٤ م(٦٥) .

وهكذا كانت قائمة وفيات كبار القواد وأسر بعضهم تزداد طولا مـــع مرور الوقت خلال العقد الأول من عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ، الأمر الذى يمكن أن يعتبر سمة مميزة لنهاية عهد الصعود المرابطى فى الأندلس ، وبداية بالتالى لعهد الهبوط ، وهو ما يجعله عبد الواحد المراكشي بداية لعهد الفساد والتردى(٦٦) ، الأمر الذى يتفق مع نظرية ابن خلدون فى أن الحضـــارة

---

(٦٣) عن مزدلى : هو : أبو محمد مزدلى بن سـولنكان ، ابن عم أمير المسـلمين يوسف بن تاشفين ووصل جثمانه الى قرطبة شي بداية شهر شوال ، ثانى يوم وفاته ، وصلي عليه أثر صلاة العصر ، الفقيه القاضى أبو القاسم بن حمدين ، ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ والهامش رقم ١ للمحقق ، وانظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ — حيث النص على كثرة غزواته فى بلاد النصرانية .

(٦٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٠ ، وقارن القرطاس ، ص ١٦٢ — حيث خلف والده مزدلى بشكل عام .

(٦٥) روض القرطاس ، ص ١٦٢ .

(٦٦) أنظر المعجب ، لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٧٧ — حيث النص على اختلال البلاد (الأندلس) بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م باستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ... وأمير المسلمين .. يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه ... الخ .

ذروة العمران ومؤذنة بفسادها(٦٧) .

مظاهر الهبوط والتردى على عهد على بن يوسف :

والحقيقة أن عبد الواحد المراكشى يبالغ عندما يقرر بشكل عام _ ان اختلال الدولة المرابطية بدأ مع عهد على بن يوسف بن تاشفين ، بعد سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م ، فكأنه يجعل عهد يوسف والد على ، هو ذروة العصر المرابطى . والصحيح أن عهد يوسف بن تاشفين هو عهد التاسيس والقوة العسكرية _ والسياسة _ أساس حكومة الاستقرار التى تزدهر تحت مظلتها أسباب الحضارة والرقى فى جميع أشكالها ، وهو الأمر الذى ظل يتحقق فى عهد أمير المسلمين الثانى : على بن يوسف الى أن بلغ أوجه حوالى منتصف امارته (٥١٨ هـ/١١٢٤ م) وهو التوقيت المقبول كبداية لتفاقم أسباب الهبوط قبل التردى .

وعبد الواحد المراكشى يعدد أسباب الاختلال فى كثير من المظاهر التى يطلق عليها اسم « المناكر » (جمع منكر بمعنى الشر ، عكس المعروف بمعنى الخير) كالآتى :

١ _ استيلاء أكابر المرابطين على البلاد _ فكأن القواد والولاة من المرابطين كونوا طبقة ارستقراطية من السادة الجدد الذين حلوا مكان رؤساء الطوائف وأعادوا سيرتهم الأولى من حيث الاستقلال أو الاستبداد أو الافتئات على السلطة المركزية الممثلة فى سلطان أمير المسلمين(٦٨) .

٢ _ حصول المرأة المرابطية (أى الصنهاجية أو اللمتونية من قبيلة يوسف بن تاشفين _ بخاصة) على مركز متميز ، كما هو الحال فى المجتمع المغربى البربرى حيث نظام الأسرة ذات السيادة الأموية (الماتريارقية) ، وخاصة عند الصحراويين الملثمين ، مما يسمح للمرأة بالسفور ، وباجتماع النساء والرجال فى العلانية (ما سبق ، ص ٧٤) ، مما لم تعرفه المجتمعات المدنية الاسلامية وخاصة فى عواصم المغرب الكبرى والأندلس

---

(٦٧) المقدمة ، طبعة التجارية ، باب ١ الفصل ١٩ (فى ان الحضارة غاية العمران) ، ص ٣٧١ ، وأنظر العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ ، عن مزدلى وكثرة غزواته ، وعلى بن يوسف وانه كان خير ملك ، كما كانت أيامه صدر وداعة ..

(٦٨) المعجب ، ص ١٧٧ _ حث النص على استبداد أكابر المرابطين وتطاولهم على السلطان الى حد التصريح « بأن كل واحد منهم خير من على أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه » .

حيث حياة السرارى والجـــوارى الى جانب الحرات من ذوات الحسب ، فى مجتمعات الحريم بالقصور المغلقة ومجالس الخاصـــة(٦٩) ، الأمر الذى كان يثير مشاعر المتشددين من المصلحين ، مثل محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية المناهضة للمرابطين ، الذى لفت الأنظار الى هذه « البدع » — وهو ما كان يعتبر من حرب الدعاية التى قام بها مختلف الخصوم ضـــد قيـــام الدولة الفاطمية فى أفريقية (ج ٢ ص ٥٦٨ ، ج ٣ ص ٣٥) .

٣ — ويعتبر السبب الثالث والأخير ، وهو الخاص بتغافل أمير المسلمين أو ضعفه ، مما قدمه عبد الواحد المراكشى لاختلال الدولة المرابطية ، السبب الرئيسى على اعتبار أن غيره من الأسباب توابع له ، اذ يقول ان ضعف على ابن يوسف كان يتزيد ويقوى مع مرور الوقت ، حتى « قنـع باسم أمير المسلمين ، وبما يرجع اليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود الى حالتها الأولى ، ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس »(٧٠) .

والذى نراه نراه أن ضعف أمير المسلمين عـــلى بن يوسف أو تبتله وتحوله الى ولى من أولياء الله الصالحين « يقوم الليل ويصوم النهار » مهملا أمور الرعية وخاصة بالنسبة للأندلس ، انما هو تهرب من مواجهة الموقف الذى أخذ يتأزم وبخاصة فى حرب الاسبان المسيحيين (الريكونكيستا) . والحقيقة أن الأمير على — الذى خلق لكى يكون كاهنا ، كمـــا يقول دوزى (ص ٣٧٨ ، هـ ٩) — ما كان يصلح لمثل هذا الموقف الذى يحتاج الى نوع آخر من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا عزما واصرارا ، تماما كما كان الحال بالنسبة لوالده يوسف : ابن الصحراء الذى تمرس : باختبارات البيئة الصعبة التى لا تسمح بالبقاء الا للعناصر القوية من النـــاس . وهكذا لم يتحمل الأمير على فشل قواته أكثر من مرة فى مواجهة القوات الاسبانية ، وما كان يصاحب ذلك من استشهاد الشجعان من قواده — فكان تحوله من أمير قائد الى ولى صالح .

---

(٦٩) المعجب ، ص ١٧٧ — حيث المبالغة فى القول : « واستولى النســاء على الأحوال ، وأسندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسـد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر ومأخور » .

(٧٠) المعجب ، ص ١٧٧ .

مصاعب الحرب الاسبانية :

وتوابعها من الاضطرابات الداخلية والتحديات الخارجية :

ومن سوء حظ الأمير علي بن يوسف أنه لم يواجه في بداية ملكه حرب الاسترداد وحدها في الأندلس ، بل كان عليه أن يواجه ثورات الزناتية ، خصوم المرابطين الأوائل في المغرب ، كما حدث في بلاد الريف وفي المغرب الأوسط بتلمسان ، الى جانب الغارات البحرية التي بدأت تقوم بها أساطيل الجمهوريات الايطالية البحرية ، سواء علي جزر الأندلس الشرقية أو بعض السواحل الليبية ٠

اضطرابات الزناتية في العدوة المغربية :

ففي سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م ثار الزناتية ببلاد غمارة في الريف ، حيث قام رجل يعرف بابن الزنر الذي ادعى أنه من أبناء معنصر الزناتي ، آخر ملوك فاس السابقين ٠ والظاهر أن الدعوة الى قيام دولة مغراوية من جديد لقي نجاحا لدى زناتية الاقليم ، وذلك أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يستطع أن يقضي على تلك الثورة بالقوة ، الأمر الذي دعاه الى استخدام بريق الذهب لتهدين الغماريين الذين خلصوه من الثائر ، فقتلوه غدرا وأتوه برأسه ٠

أما عن ثورة تلمسان حيث قام ماخوخ الزناتي الذي لم يستقر في عاصمة الاقليم بل اتخذ مدينة أميرية خاصة به ، فكان يكفي للقضاء عليها خروج أمير المسلمين نحو الثائر لكي يفر أمامه ويخرج من بلاده(٧١) ٠

غارات ردعية للجنوبيين على ميورقة وبرقة :

هذا ، كما واجه الأمير علي بن يوسف تهديد أساطيل جنوة التي بدأت تهيمن على الملاحة في البحر المتوسط ، وتكون امبراطورية تجارية كبرى تستطيع أن تؤمن متاجرها بقوة الأساطيل الحربية اذا لم تجد العلاقات الديبلوماسية ومعاهدات السلام ٠

وهكذا كان الجنوبيون يهاجمون في سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤ م جزيرة

---

(٧١) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٥٨ ٠

ميورقة (البليار) التى كانت بيد الفتى مبشر ، مولى على بن مجاهد ، ودخلوها عنوة بعد حصار شديد(٧٢) • ومن الواضح أن الغارة الجنوية كانت انتقامية للردع فقط ، وذلك أن الأسطول المرابطى المكون من ٢٠ (عشرين) مركبا حربيا ، حشدت من أجل استرجاع ميورقة ، وجدت الجزيرة خالية من العدو عندما وصلت اليها فى السنة التالية ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م(٧٣) •

وفى سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م هذه كان الجنويون يهاجمون برقة ويستولون عليها ويخلونها من أهلها • ولكنهم بعد أن تركوها لم يلبث العمران أن عاد اليها بفضل القائد مرتانا قرطت المرابطى ـ الأمر الذى يعنى أن النفوذ المرابطى كان يصل فى بعض الأحيان شرقا الى برقة(٧٤) ـ ان لم يكن برا فعن طريق الأسطول بحرا •

وقعة قرطبة واستشهاد محمد بن مزدلى :

وهنا نلاحظ أن مظاهر بلوغ عهد الذروة عند المرابطين يتمثل فى استخدام الأسطول فى الجهاد وخاصة ضد صقلية النورمندية ، حيث تمدنا حوليات ابن عذارى بمعلومات جيدة بهذا الشأن • ففى سنة ٥٠٩ هـ/مايو ١١١٥ م كان الاسبان يردون على غارات محمد بن الحاج ومزدلى على بلادهم فى سرقسطة وطليطلة بغارات انتقامية على القواعد الاسلامية فى قرطبة وأشبيلية • ففى بداية ٥٠٩ هـ/١١١٥ م « ضرب العدو على نظر قرطبة » وتعجل محمد بن مزدلى فى مواجهة المعتدين • والظاهر أنه تهور بعض الشىء فى مطاردته لهم ، الأمر الذى مكنهم من مفاجأته على حين غرة • وانتهت المفاجأة بكارثة كبرى فى يوم الخميس مستهل صفر ٥٠٩ هـ/٢٦ يونيه ١١١٥ م ، يمكن أن تعتبر قرينة وثأرا لهزيمة « الفنت سانكو » ولى عهد الفونس السادس ، وصحبه الأقماط السبعة فى أقليش (ما سبق ، ص ٣٨٥) • واذا كانت رواية ابن عذارى تبالغ عندما تحدد عدد القتلى من

---

(٧٢) ابن عذارى ، نشر كولان وبروفنسال ، ج ١ ص ٣٠٥ ، وقارن ابن القطان نظم الجمان ، ص ١٩ ـ حيث النص على قتل الرجال وسبى النساء والأطفال •

(٧٣) روض القرطاس ، ص ١٦٢ ـ حيث النص على ملك أمير المسلمين على الجزائر البحرية شرق الأندلس ، وابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٥ ، ابن القطان ، ص ١٩ ـ حيث النص على ان الروم ، هاجموا الجزيرة ، والمقصود ، أهل جنوة وبيزة وقطالونيا • •

(٧٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ •

الأمراء المسلمين (القواد) بما يناهز الثمانين قائدا ، فان هـذا التهويل يعنى فى حقيقة الأمر رسم عـلامة مميزة على مسار الانقـاذ المرابطى فى الأندلس ، بما يفيد أن وقعة قرطبة هذه يمكن أن تعتبر نذير شؤم عـلى طريق بداية النهاية بالنسبة للوجـود المرابطى بالأندلس · فالى جـانب استشهاد محمد بن مزدلى يذكر مقتـل كل من : أبى اسـحق بن غانيـة (دانية أصلا) وأبى بكر بن واسينوا ، وجملة كبيرة من رجال الحرس الأميرى (الحشم) وأهل الأندلس - « فكان مصابا عظيما ، وخطبا جسيما »(٧٥) ·

الهياج الشعبى على المرابطين :

ثورة قرطبة ٥١٤ هـ/١١٢١ م بداية النهاية للمرابطين :

هذا ، واذا كانت حوليات ابن القطان تذكر غزوة لعبد الله بن فاطمة الذى آلت اليه ولاية أشبيلية فى نفس السنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م (بدلا من فاس)(٧٦) يمكن أن تعتبر انتقاما لوفاة مزدلى واستشهاد ابنه محمد بن مزدلى فى ميدان الجهاد ، فان ثورة قرطبة ، قاعدة البـلاد وحاضرة الخلافة العتيدة ، منذ أواخر سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م ، تعتبر بحق عـلامة بداية النهاية بالنسبة للمرابطين بالأندلس ·

والحقيقة أن ثورة قرطبة هذه كانت نوعا من الهيـاج الشعبى الذى عرفته العواصم الاسلامية ، بعد عهد من الاستقرار تضخم فيه عدد سكانها ، وازدادت فيه رقعتها خارج الأسوار ، أشبه ما يعرف حاليا بالبناء العشوائى خارج المدن ، كما حدث فى بغداد على عهد الأمين والمـأمون ، وفى قرطبـة أيام الحكم الربضى ، وفيما بينهما بالاسكندرية ثم فى مدن المغرب الكبرى وصقلية ، والأندلس على مر الزمن ، الأمر الذى ينتهى بقيام حكومات مدن الطوائف ·

---

(٧٥) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦١ - حيث تضيف الرواية الى زمرة القواد الشهداء ، الأمير محمد بن الحاج ربما تحت تأثير ضخامة الكارثة أو من أجل المقارنة بحادثة ابن الحاج وهو الأمر المقبول · فمن المعروف أن مجال جهاد محمد بن الحاج كان فى منطقة الثغر الأعلى وبرشلونة شمالا ، وأنه استشهد سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (السابقة) فى موقعة البورت (البـاب) (هـ ١ - حيث الاشارة الى معجم الصدفى لابن الأبار) التى تعنى ممرات جبـال البرانس المعروفة بالبرتات (الأبواب) · وأنظر فيما سبق ص ٣٨٣ وهـ٢٢ - حيث رواية ابن الأبار (المعجم) ترجمة رقم ١٢٠ ص ١٣٤ - حيث استشهد محمد بن الحاج أثناء ولايته سرقسطة بالبورت (الباب) سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م ·

(٧٦) نظم الجمان ، ص ٢١ وهـ ٢ ·

ففى خلال احتفالات عيد الأضحى من سنة ٥١٤ هـ/فبراير ١١٢١ م ، وخروج عامة أهل قرطبة رجالا ونساء الى المنتزهات وشطآن النهر الكبير ، كان الاغراء أشد من أن يحتمل السكوت عليه بالنسبة لبعض رجال الحرس الأميرى من العبيد السود ، فامتدت يده الى امرأة وهى تمر بالقرب منه — الأمر الذى يعنى أن الحدث وقع على الرصيف المواجه لسور القصر على طول شاطئ النهر ، غير بعيد من القنطرة .

والمهم أن الحدث الفردى هذا ، لم يمر بسلام بل انتهى بقيام العامة على حرس أبى بكر بن يحيى بن رواد ، والى قرطبة وقتئذ ، ودامت «الفتنة» العظيمة بين العبيد السودان من رجال الحرس وأهل البلد طوال النهار . وعندما تدخل زعماء العاصمة من الفقهاء والأعيان ورأوا ان يشترى الوالى أبو بكر تهدئة العامة بقتل واحد ما ، من عبيده الذين أثاروا الفتنة ، أنف من ذلك واعتبره تطاولا على سدة الحكم ، واستعد لمواجهة العامة الذين ردوا رجاله الى داخل القصر . وعندما ضيق القرطبيون حصارهم على القصر ، اضطر الوالى الى الهرب منهم ، فكانت فرصة انتهزها العامة لنهب القصر ثم تمادوا الى دور المرابطين فأحرقوها وأخرجوا أصحابها من البلد(٧٧) . وبذلك تكون قرطبة قد قلبت ظهر المجن للمرابطين وعادت جمهورية شعبية ، كما كان الحال على أيام ابن جهور (ما سبق ، ص ٢٩٣ وص ٢١) .

وعندما وصل خبر ثورة قرطبة على المرابطين أرسل أمير المسلمين على ابن يوسف الى أهلها خطاب تقريع وتهديد ، فلم يؤثر فيهم ذلك الترهيب ، وعندئذ قرر المسير بنفسه على رأس حملة عبرت الى الأندلس فى ربيع الأول سنة ٥١٥ هـ/مارس ١١٢١ م قبل أن يزداد الخرق اتساعا . ولكنه رغم وصوله أمام المدينة لم تفتح له الأبواب . وعندما ضرب جيشه الحصار عليها وقف أهلها على أهبة الاستعداد للقتال . وأخيرا انتهى الأمر الى المفاوضة فى الصلح على أساس ما قيل له من وصية والده بالاحسان الى محسنى أهل قرطبة والعفو عن مسيئهم — لما لهم من منزلة خاصة (ماسبق ، ص ٣٧٩) ، واستجاب القرطبيون ، الى ما قرره الأمير (المتبتل) من أن يغرم أهل قرطبة

---

(٧٧) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ — حيث النص على ان هياج قرطبة الجديد هذا ، كان قبل سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م ، وقارن ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ — حيث تحديد حملة الأمير على قرطبة فى سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م ، بعد ان لم يستجيبوا الى تهديده فى السنة السابقة (٥١٤ / ١١٢١ م ، سنة الثورة) .

للمرابطين ما نهبوه من أموالهم ، وعاد من قتالهم(٧٨) . وهنا لا ندرى ان كان يمكن المقارنة بين فتح الامير على هذا لقرطبة وفتحها الاول على عهد أمير المسلمين يوسف ، فالاختلاف واضح بين الترحيب الشعبى الأول وموقف القهر الآتى الذى يجعل من امير المسلمين الثانى واحدا من ملوك الطوائف .

والمهم هنا الاشارة الى أن ثورة قرطبة هذه التى بدأت خلال سنة ٥١٤ هـ/١١٢١ م واستمرت الى أوائل سنة ٥١٥ هـ/مارس ١١٢١ م كانت متزامنة مع ظهور دعوة مهدى الموحدين محمد بن تومرت ، وهو التوقيت الذى يعتبر بدء اختلال الأمور على عهد الامير على بن يوسف ، بل واهم أسبابه(٧٩) .

وهكذا يكون موقف المرابطين العسكرى والسياسى قد ضعف فى الأندلس على المستويين الخارجى والداخلى بحكم التداعى ، من حيث أدت نجاحات حركة الريكونكيستا الى افتقاد ثقة أهل البلاد فى قدرة حكامهم الجدد على تحقيق عملية الانقاذ الخارجى ، الأمر الذى أدى بالتالى الى التحول السلبى فى الموقف الأدبى الذى كان يؤدى الى الضعف المعنوى للجبهة الداخلية مما يمكن التعبير عنه بالانفصال الروحى بين الشعب والدولة الحاكمة .

الموقف الدينى والثقافى فى الأندلس والمغرب :

فى أوائل عهد الأمير على بن يوسف :

ويظهر أثر ذلك التحول الادبى فى الجهة الداخلية فى كل من الأندلس والمغرب فيما طرأ على الفكر الدينى من التطور ، نتيجة طبيعية لتطور الثقافة الاسلامية التى كانت قد بلغت الذروة فى القرن الـ ٥ هـ/١١ م فى المشرق

---

(٧٨) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٥٥٨ .

(٧٩) أنظر ابن القطان ، ص ٢٣ — حيث النص فى أخبار سنة ٥١٥هـ/١١٢٢م : ثم هاجر الامام أرضه وحل بجبل ايجليز ومع ذلك اتصل بعلى بن يوسف أن أهل قرطبة قاموا على الملثمين ، أنظر ابن عذارى ، ط ، بيروت ، ج ١ ص ٤٤٣ — حيث النص فى سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١م . وفيها كان حلول ابن تومرت الملقب المهدى بأغمات محرضا على الخروج على السلطان وتفريق الكلمة المنتظمة . وقارن الحلل الموشية ، ص ١٠٢ — حيث النص : وان أمير المسلمين على بن يوسف اضطربت عليه الأمور من لدن ظهور المهدى عليه ... وبعد هذا الكلام أعرف بالمهدى ، وبداية أمره ... وأعود الى اتمام دولة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين .

بظهور كبار المفكرين هناك على كل المستويات ، مثل : الفارابى والماوردى ونظام الملك فى الفكر السياسى ونظم الحكم ، والفارابى والرازى وابن سينا فى الفلسفة والطب ، والماوردى والغزالى والشهرستانى بعدهم ، فى علوم الدين والتصوف ، الأمر الذى كانت له أصداؤه فى القرن الـ ٦ هـ/١٢ م ، فى الفكر الاسبانى المغربى والحضارة فيما تمثل فى أعمال كل من ابن رشد وابن زهر فى الفلسفة والطب أو أعمال ابن عربى وابن تومرت فى الفكر السياسى والتصوف الدينى أو أعمال ابن بصال وابن العوام فى فلاحة الأرض والزراعة . وهى الأعمال التى تمثل نهضة الغرب الاسلامى التى بدأت بواكيرها فى ذلك الوقت المتقدم من عهد على بن يوسف بن تاشفين ، والتى ستبلغ الذروة عما قريب على عهد الموحدين الذى يعتبر استمرارا طبيعيا لتطور الحضارة المغربية الأندلسية الناشئة فى كنف دولة المرابطين .

المالكية المرابطية على عهد على بن يوسف :

ويظهر التطور الدينى على عهد على بن يوسف بن تاشفين فى بلوغ المذهب المالكى الى قمة قوته بفضل مساندة الآمير « المتبتل » الذى أحاط نفسه بفقهاء المالكية ، كما وضعهم على رأس الجهاز الادارى ، حيث شغلوا مناصب القضاء واقامة الصلاة فى المساجد العظمى بالأمصار ، كما شغلوا مناصب الشورى الى جانب أمير المسلمين فى مراكش ، وفى نيابة الأندلس وقواعدها الكبرى ، كما فى المغرب . الى جانب ما كان لبعضهم ، من وظائف الوزارة والكتابة التى ارتقى بعضهم فيها وبلغ درجة الرشد والكمال(٨٠) .

وأهم المصادر المعتمدة للتعريف بأحوال المالكية فى الأندلس على عهد على بن يوسف وهيمنة المذهب المالكى فى تلك الفترة المصيرية من تاريخ الدولة المرابطية هو كتاب ابن الأبار المعروف بمعجم أصحاب الصدفى :

---

(٨٠) أنظر معجم الصدفى لابن الأبار ، رقم ١٢٠ ص ١٢٣ ـ حيث ترجمة ابن المرخى : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز الاشبيلى ، الكاتب الجليل ، أحد المقربين من امير قرطبة محمد بن الحاج ، والذى وصف بانه أحد رجال الكمال بالأندلس ، رقم ١٢٥ ص ١٤٦ ـ حيث يوصف محمد بن أبى الخصال (ذو الوزارتين ـ ت ٤٥٠ هـ / ١١٤٥ م) بانه أحد رجال الكمال ، وانظر أيضا رقم ١٤٤ ص ٢٠٣ ـ حيث رسالة من أبى على الصدفى الى صديقه صاحب الترجمة : الركلى السرقسطى (عبد الله بن درى ـ ت ٥١٣ هـ) يخبره انه لو كان معه فى بغداد أثناء رحلته الشرقية ، اذن لعرف الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك له قدره ووفاه حقه وقسطه « اذ يقل وجود مثلك وتكثر حاجاتهم الى من دونك فكيف بهم لو ظفروا بك ... هو أو من كنت تتصل به من أهل الدولة العباسية » .

شيخ مرسية ، شهيد موقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ/١١٢٠ م(٨١) . ويظهر الاهتمام بالمذهب المالكي في عناية أفراد الأسرة الحاكمة - اقتداء برأس الأسرة أمير المسلمين علي بن يوسف . وهذا ما يتضح في ترجمة الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف (المعروف بابن تغيشت - اسم أمه) ، أخي الأمير علي الذي دخل في زمرة تلاميذ أبي علي الصدفي بحكم موقعه في امارة مرسية ، والذي استشهد معه أبو علي الصدفي في كتندة(٨٢) . والمهم أن ابن الأبار يختم ترجمة الأمير ابراهيم الذي ولي مرسية بعد أشبيلية ، مؤكدا سيادة العلم والايمان وقتئذ ، قائلا : وفي دولة أخيه (أمير المسلمين علي) نفقت العلوم والآداب ، وكثر النبهاء ، وخصوصا الكتاب(٨٣) .

والحقيقة أنه رغم أن المشرق ظل حتى ذلك الوقت من بداية القرن الـ ٦ هـ/١٢ م منهل العلم والثقافة بالنسبة لعلماء المغرب الاسلامي ، فان حواضر الأندلس كانت قد أصبحت مراكز علمية مرموقة بفضل أبنائها الرحالة الذين أصبح يشد اليهم الرحال بدورهم - حتى أصبح اسم « الرحالة » يطلق على من كان لهم تجوال في عواصم الأندلس العلمية أيضا(٨٤) .

أما عمن أخذ عنهم من مشاهير الأندلسيين من المشارقة في ذلك

---

(٨١) أنظر المعجم في أصحاب الصيدفي لابن الأبار ، مدريد (مجريط) ١٨٨٥ .

(٨٢) معجم الصدفي ، ترجمة ابراهيم بن يوسف ، رقم ٤٠ ص ٥٥ - ٥٦ - حيث أرسل ابراهيم وزيره يطلب مد الصدفي أن يسمع علبه في منزله فرحب الشيخ بذلك على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماع أصحابه - وان طمع في البداية في تشريف الأمير له مجلسه . وعن استشهاد أبي علي مع الأمير ابراهم في كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، أنظر ترجمة رقم ٣ ص ٨ ، ٢ - ٤١ (عن كاتبه ابن قزمان) ، ص ٣٠٦ (عن سماع كبار المرابطين) .

(٨٣) معجم الصدفي ، ص ٥٦ - حيث النص على أن أبا بكر الصدفي حكى في تاريخه ان علي بن يوسف استجاز أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جمع رواياته لعلو اسناده فاجاز له ، وأضاف الى ذلك ، وأبوه (علي بن يوسف) أبو يعقوب (يوسف بن تاشفين) مع نشأته في الصحراء ، كان لا يمضي أمرا الا بمشورة الفقهاء .

(٨٤) معجم الصدفي ، ترجمة رقم ١٢٤ ص ١٤٠ - ١٤١ - حيث أبو الطاهر السرقسطي ، الاشتركوي الذي يوصف بانه كان رحالة في طلب العلم ببلنسية وشاطبة وقرطبة ومرسية وغرناطة ومالقة واشبيلية . كما ينسب اليه التضلع في عدد من العلوم ، من : اللغات والآداب والمسلسل (من الحديث عن طريق علماء الأندلس فيما بينهم) والمقامات اللزومية والقراءة والحديث .

الوقت ، فمنهم : أبو الطاهر السلفي (الشافعي) الذي جعل من الاسكندرية واحدة من أهم مراكز علم الحديث اعتبارا من سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م، وحتى وفاته في ٥ ربيع الآخر ٥٧٦ هـ/أغسطس ١١٨٠ م[٨٥] . وكان عدد تلاميذ السلفي من الأندلسيين الذين أخذوا عنه لا يحصون كثرة ، كما كان كثير من المعاصرين للأمير علي بن يوسف بن تاشفين قد تتلمذوا عليه بطريق المراسلة (المكاتبة) ، مثل : أبي عمران بن أبي تليد ، وأبي الوليد بن رشد ، وأبي علي بن سكرة الصدفي (صاحب المعجم)[٨٦] .

وأخذ الأندلسيون بالاسكندرية أيضا عن أبي بكر الطرطوشي ، صاحب أول مدرسة مالكية بالاسكندرية[٨٧] وأبي الحسن الخلعي ، وأبي الحسن بن داود الفارسي بمصر ، وابن أبي العالم (أبي القاسم) وابن أبي الحديد (أبي عبد الله) والمقدسي (أبي الفتح نصر) ، والاسفراييني (أبي الفرج بن سهل) بدمشق[٨٨] والبيضاوي (أبي الفتح) ، والنهاوندي

---

(٨٥) معجم الصدفي ، رقم ٣٦ ص ٤٨ — حيث صلى عليه أبو الطاهر بن عوف بجامع عبد الله بن عمر بن العاص ، وكان دفنه في مقبرة وعلة (مقبرة كوم الدكة) .

(٨٦) معجم الصدفي ، رقم ٣٦ ص ٣٦ ، ٤٨ — ٥١ — حيث النص على ان السلفي قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م للسماع من الرازي (أبو عبد الله بن الحطاب) وفي نيته اختراق بلاد المغرب والأندلس للاخذ عن أصحاب أبي عمر بن عبد البر وغيرهم ثم العودة الى أصبهان بلده ولكنه انشغل بسماع السكندرنيين منه ، وباحسانهم اليه فاقام بالثغر الى أن مات الرازي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م وله من العمر ١٠٠ (مائة) سنة ، فخلفه في الأسماع . وطال عمر السلفي الذي زاد شيوخه على الألف (؟) ليطول الانتفاع به . وينص ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) على انه تتلمذ على أكثر من ٢٠ (عشرين) شيخا من تلاميذ الرازي من الأندلسيين والمشرقيين ، سمع منهم جميع رواياته وتوالفه ، ص ١٤٢ — حيث ينص محمد بن أحمد بن موسى ، من أهل مرسية على سماعه من الرازي والسلفي ، وأنه جلب الى المغرب فوائد جمة عند مقدمه من المشرق ، ص ١٧٩ — حيث كتب اليه السلفي والمازري من المشرق ، ص ٢٤١ (عن السلفي) ، ص ٢٥٣ (عن السلفي والمازري) .

(٨٧) معجم الصدفي ، ترجمة رقم ١١٦ ص ١٢٦ — حيث محمد بن ابراهيم (أبو بكر الغساني — من أهل المرية) الذي أخذ أيضا بالاسكندرية من ابن الحضرمي الذي كان من رحالة الفقهاء المشاورين والذي ولي قضاء مرسية بعد وروده من المرية في شعبان ٥٢٧ هـ / يونيه ١١٢٣ م الى المحرم سنة ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٣٤ م ، وتوفي منكوبا في مراكش سنة ٥٣٦ هـ / اغسطس .

(٨٨) معجم الصدفي ، ترجمة رقم ١٢١ ص ١٣٥ — حيث محمد بن يحيى (أبو المعالي : القرشي : ابن الصايغ) قاضي دمشق وخال ابن عساكر ، ص ٢٣٦ (الخلعي) .

(أبى نصر) فى مكة(٨٩) ، وابن طرخان التركى (أبى بكر) بدمشق(٩٠).

أما عن أهم الكتب الدارجة في حلقات هؤلاء العلماء مما كان يمثل مقررات الدراسة فى هذا الوقت من امارة على بن يوسف ، فمنها القديم المتواتر بين الأجيال ، ومنها الحديث المؤلف بمعرفة رجال العصر المحدثين . وأشهر تلك الكتب التى كان يدرسها كبار العلماء وقتئذ من أهل المشرق أو من تلاميذ الأندلس الذين عرفوا بأنهم من رجالات الأندلس ، بل ومن أصحاب الكمال منهم ، سواء بالسماع أو القراءة أو الرواية أو الكتابة أو الاجازة ، هى كتب الحديث بطبيعة الحال .

ويأتى فى المقام الأول بعد الصحاح كتب الدارقطنى (ت ببغداد ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م) ، من : السنن ، والمؤتلف والمختلف ، والاستدراكات على البخارى ومسلم والتتبع والالزامات(٩١) ، وبعدها يأتى رياضة المتعلمين لأبى نعيم(٩٢) وجامع الترمذى(٩٣) ، ثم كتب أبى عمر بن عبد البر ، مثل الوسيط والتقصى(٩٤) ثم مشتبه النسبة لابن عبد الغنى(٩٥) .

وأهم كتب المعاصرين ، هى : الاستدراك على أبى عمر بن عبد البر فى الصحابة ، لأبى اسحق ابراهيم بن يحيى (ابن الأمين ت ٥٤٤ هـ/

---

(٨٩) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ١٢٣ ص ١٣٩ — حيث محمد بن الحسين الانصارى (أبو عبد الله الميورقى) الذى سكن غرناطة ، والذى امتحن بالقبض عليه من ابن رجال (أبو الحكم) ، وابن العريف (أبو العباس) ، فقصد المشرق ثانية ، وأقام بمدينة بجاية برهة وحدث بها فى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م .

(٩٠) معجم الصدفى ، ترجمة رقم ٢١٨ ص ٢٣٨ — حيث ترجمة عبد الرحمن بن محمد النفطى (أبو القاسم بن الصايغ) الذى خرج من دمشق الى نفطة بلده سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م فولى الصلاة والخطبة بتوزر .

(٩١) معجم الصدفى ، ص ٨٩ (السنن) ، ص ١١٩ (المؤتلف والمختلف) ، ص ٢٩٥ (الاستدراكات والتتبع والالزامات) . وعن الدار قطنى الذى أخرج ٢٠٠ (مائتى) حديث من صحيح البخارى « ذهب الى أنها ضعيفة » ، أنظر تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، مراجعة حسين مؤنس ، ج ٣ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٩٢) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٧١ ، وكذلك حلية الأولياء ، ص ١٢٦ .

(٩٣) المعجم ، ص ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ .

(٩٤) المعجم ، ص ١٢٨ (الوسيط) ، ٢٠٩ (التقصى) .

(٩٥) المعجم ، ص ١٤٥ ، ٢٩٥ .

١١٤٩ م)(٩٦) ، وكتاب الاهتداء بمصابيح السماء لموفق المسنالى (من أهل المرية)(٩٧) . أما تواليف « المرسى » : أبو محمد عبد الله بن محمد النفزى (٤٥٣ هـ/١١٦١ م - ربيع الثانى ٥٣٨ هـ/سبتمبر ١١٤٣ م) ، فهى : الفوايد المبسوطة وبستان المتيقن ورياض العابدين وسبيل الهدى ، الأمر الذى يؤكد اتجاهاته فى الزهد والتصوف(٩٨) - الذى كان قد بلغ الغاية فى هذا الوقت الموصل ما بين القرن الـ ٥ هـ والـ ٦ هـ/١١ - ١٢ م ، حيث بدأ دمغ الاسلام بطابع الطرق الصوفية - علامة التوكل والسلب : نذير الاضمحلال والضعف . أما عن أعمال الرشاطى : أبو محمد عبد الله بن على الحافظ النابه - الأريولى ساكن المرية - ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ م - ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م) ، المعدود من رجالات الأندلس العلماء ، فله عدة تآليف فى علم الحديث ، منها : كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهـار » وكتابان فى نقد الحديث ، أولهما فى نقد كتاب الدارقطنى : « المؤتلف والمختلف وما فيه من الأوهام » ، والثانى فيه رد على القاضى ابن عطية (أبى محمد عبد الحق) فى نقده لكتابه هو (أى الرشاطى) « الكبير فى النسب »(٩٩) .

غريب الحديث والتسامح الدينى :

ومما يثير الانتباه فى معجم الصدفى هو اهتمام علماء الحديث فى تلك الفترة الأولى من عهد الأمير على بن يوسف بن تاشفين بدراسة التاريخ كعلم

---

(٩٦) معجم الصدفى ، ص ٤ .

(٩٧) معجم الصدفى ، ص ٢ - ١٩ - حيث سماعه من أبى على سنة ٥٠٥هـ/١١١١م وسنة ٥٠ هـ / ١١١٢ م بمرسية .

(٩٨) معجم الصدفى ، ترجمة ١٩٨ ص ٢١٥ .

(٩٩) معجم الصدفى ، لابن الابار ، ترجمة رقم ٢٠٠ ص ٢١٧ وما بعدها - حيث النص على ان الرشاطى كان مشاركا فى اللغات والآداب ، ومحققا بالآثار والأنساب ، وله كتب : « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار فى أسماء الصحابة ورواة الآثار » ، وهو فى تعدير ابن الابار طراز جديد « لم يسبق الى مثله » ، « الاعـلام بما فى كتاب المؤتلف والمختلف للدراقطنى من الاوهام » ، « اظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد » ، الذى رد فيه على القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية . وانتصر فيه لنفسه لما تعقب عليه مواضع من كتابه الكبير فى النسب ، وعابه أشياء اوردها فى تضاعيفه لم يخل فيها من تحامل وتعسف كان تركها أولى ، حسبما يقول ابن الابار (ص ٢١٨) - وتوفى الرشاطى شهيدا فى المرية عندما تغلب عليها الروم (الأسبان) صبيحة الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ / ١٨ أكتوبر ١١٤٦ م) .

مساعد للحديث(١٠٠) مع اهتمام خاص بغريب الحديث(١٠١) ، حيث تنتهى تراجم كبار العلماء بما أخذ عنهم فى مسلسلاتهم التى يؤخذ فيها الحديث فيما بينهم أخذا باليد — زيادة فى التأكيد والاطمئنان(١٠٢) .

ولا بأس أن يكون أول الغريب من الحديث فى ذلك المجتمع الذى تسود فيه السنية المالكية هو الأحاديث الشيعية ، حيث يشار فى بعض الأحيان ، الى عدم صحتها لفساد اسنادها ، ويسكت عن ذلك مواضع أخرى(١٠٣) . ومما يسترعى الانتباه عناية الأندلسيين فى ذلك الوقت باستخراج الغريب من الاحاديث ذات الموضوعات الأخلاقية مما تدعو الى الفضيلة ، والتحلى

---

(١٠٠) أنظر معجم الصدفى لابن الآبار — حيث الاشارات الى تاريخ البخارى (التاريخ الكبير) ، ص ٨٩ ، وصحيح مسلم فى التاريخ ، ص ٢٠٩ ، وتاريخ ابن خيثمة ، ص ١١٩ ، ٢٧١ ، وتاريخ أبى بكر بن الخطيب ، ص ١٢٦ .

(١٠١) معجم الصدفى لابن الأبار — حيث غريب الحديث لأبى عبيد ، ص ١٢٨ ، ٢١٥ ، وكتاب الغريبين ، ص ٢٠٣ ، وغريب الصحيح للبخارى ، ص ٢٠٣ ، وانظر أيضا ص ٢٠٤ (ترجمة ١٨٤) لعبد الله بن درى : الركلى السرقسطى (ت ٥١٣ هـ / ١١١٩م) الذى كان أبو على كثيرا ما يحضه على تخريج غريب الصحيح للبخارى ، اشادة بتقدمه الشهير فى الآداب واللغات ، وانظر ص ٢٠٩ — حيث الحديث المسلسل فى الأخذ باليد الذى حمله الناس وسلسلوه من حيث القوة فى الأندلس وتقييد المهمل (لأبى على الغسانى) ص ٢٠٦ . وكمشكل الحديث (لابن مدرك) ص ٢١٥ ، وغرائب الحديث للخطابى ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) المسلسل من الحديث بمعنى المسند أو المأخوذ باليد بين علماء الأندلس . انظر معجم الصدفى لابن الأبار ، ص ١٤١ — حيث النص على ان الاشتركوى : محمد بن يوسف السرقسطى (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م) وهو آخر من روى عن الصدفى ، ألف المسلسل الى جانب المقامات اللزومية ، ص ٢٠٩ ، ترجمة رقم ١٩٥ (لأبى محمد عبد الله بن أيوب — الشاطبى — ت ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م) — حيث السماع بشاطبة (من الصدفى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م) الحديث المسلسل فى الأخذ باليد ، ص ٢١٠ — حيث يرى ابن الأبار أن الحديث المسلسل هو الذى يتأكد أخذه مع الترحيب بالأخذ باليد تبعا لقول الرسول ، وهو يرحب ببراء ويأخذ بيده ، ويقول له : « لا يلقى مسلم مسلما فيهش به ويرحب به ويأخذ بيده الا تناثرت الذنوب بينهما ، كما يتناثر (ورق الشجر اليابس) ، حسبما كتبه من خط ابن أيوب ، وانظر أيضا ، ص ٢٩٧ — حيث يفهم أن المقصود بالتسلسل هو الأستاذ بين مشايخ أهل العصر الأندلسيين المعروفين قبل تسجيل المتن .

(١٠٣) أنظر معجم الصدفى ، ص ١٢٥ — حيث حديث مسند عن على بن موسى الرضا عن على بن أبى طالب ، عن النبى ، يقول فيه : « الايمان اقرار باللسان ومعرفة بالقلب . وعمل بالأركان » فرغم جودة المتن ووضع الدار قطنى بين المسندين فانه (الدار قطنى) يصفه بأنه لا يصح بسبب الاسناد ، وانظر ص ١٢٧ — حيث حديث : « ومن يبغض آل محمد يدخل النار » ، ص ٣١٧ — حيث الحديث : « النظر الى وجه على بن أبى طالب عبادة » .

بحسن الخلق ، والحلم ، والود ، والنصح ، والكرم ، والتعاون ، والرحمة(١٠٤) ، ومما ينهى عن الرذيلة ، من : من الكسل والجبن والكراهية والفجور والغضب والبخل والهجر(١٠٥) .

ومما خرجه علماء الأندلس من غريب أحاديث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما يتراوح ما بين الافراط فى شدة والتفريط تساهلا ، ان لم يكن فى النص ففى التطبيق ، مثل التشدد مع قاطع الطريق ، والتساهل نوعا ما مع شارب الخمر(١٠٦) .

---

(١٠٤) معجم الصدفى ، ص ١٢٢ — حيث : « خير ما أعطى العبد الخلق الحسن » ، ص ١٤٠ — حيث « وجبت محبة الله على من أغضب فحلم » ، ص ٢٠٩ — ٢١١ — حيث : « لا يلقى مسلم مسلما فيهش به ، ويرحب به ، ويأخذ بيده ، الا تناثرت الذنوب بينهما ، كما يتناثر ورق الشجر اليابس ، وهنا يقول ابن الأبار ، انه حديث مسلسل كتبه من خط ابن أيوب ، ولا بأس فى ايراده مع ذكر طائفة من رواته بالأندلس وبلادها ، وص ٢١٨ — حيث حديث : « شرط النصح لكل مسلم » ، ص ٢٣٧ — حيث : الكرم بتقديم الهدية للأهل حين العودة من السفر مهما قل قدرها ، ص ٢٤٧ — حيث « طعام السخى شفاء » ، ص ٢٦٢ — حيث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .. » ، ص ٢٦٧ — حيث أول حديث قصد به التسلسل : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا اهل الارض يرحمكم من فى السماء » (هكذا) .

(١٠٥) أنظر معجم الصدفى ، ص ١٢٩ — حيث النص : « اللهم انى أعوذ بك من الكسل والهرم والجبن والبخل وفتنة الرجال ، وعذاب القبر ، وقارن ص ٢١٧ — حيث « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل (وضلع) الدين وغلبة الرجال » . وبالمقارنة يتضح أن نص الى (فتنة ؟) ، نقصت منه كلمات (الحزن) و(العجز) ، وأضيفت اليه — بما قد لا يتفق مع السياق — (وعذاب القبر) ، بينما نرى أن تصحح (فى النص الثانى) « (ضلع ؟) الدين » الى ضعف الدين . وأنظر ص ١٣٦ — حيث : « المعروف كله صدقة » ، وان آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة : « اذا لم تستحى فاصنع ما شئت » ، ص ٢٤٧ — حيث : « طعام البخيل داء ... » .

(١٠٦) أنظر معجم الصدفى ، ص ٢٤٨ — « ولا يدخل الجنة قاطع » ، بينما يظهر التساهل فى الخمر وهى « عصارة أهل النار فى النار » (ص ٢٢١) ، — حيث يعرض حديث : « وجوب النصح لكل مسلم ، كما ينسب الى عمر بن عبد العزيز : مطالبته رجال شرطته (من العسس) بتطبيق حديث : « ادرؤوا الحدود بالشبهات » بالنسبة للشيخ « السكير » ، حسن الهيئة ، الذى ضبط أكثر من مرة متلبسا ، والذى أنزلت به ضعف عقوبة الجلد المستحقة خطأ ، لأنه كان عبدا — وذلك فى قصة هزلية انتقدها ابن عطية واعتبرها من الفكاهات أو الحكايات الغثة ، ص ٢٢٢ . ومثل هذا يمكن أن يقال عن حديث : « انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » . الأمر الذى جعل الصغير الذى كان يسمع بصحبة والده أن يضيف من عنده « والقرصة » (الرغيف) حتى تكتمل الوجبة — وهو ما أثار اعجاب الحاضرين (لحضور ذهنه) — ص ٢٨٧ .

وهنا تحسن الاشـــادة بذلك الاتجاه نحو التسامح الدينى من جانب المحدثين الأندلسيين فى بعض ما استخرجوه من الغريب ، الأمر الذى يمكن أن ينسب الى البيئة الاجتماعية والأوضاع الخاصة التى تجعل من التعامل مـــع أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصـــارى بالأندلس أمرا مقبولا . والمثل انعام هنا هو الحديث الذى لا يفرق بين الناس جميعا الا بأعمالهم فى حياتهم اليومية ، حيث ينسب الى النبى حديث ينص فيه على أن : « أهـــل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة»(١٠٧) ، الأمر الذى يشبه آراء القدرية الذين يقولون : السعيد سعيد وهو فى بطن أمه والشقى شقى وهو فى بطن أمه ـ دونمـا تفرقة عرقية أو مذهبية . وعلى هذا النسق يأتى حديث التسامح الدينى حقيقة ، الذى يعبر عن المحبة والأخوة فى الانسانية ، دونما حقد او ضغينة فكأنه من مبادىء حقوق الانسان الحديثة أو أزيد . ففى ذلك الحديث يقول الرسول : « ان هذه الأمة مرحومة لا عذاب عليها ، عذابها بأيديها ، فاذا كان يوم القيامة أعطى كل رجل منهم رجلا من أهل الأديان فكان فكاكه من النار »(١٠٨) .

وهكذا كون فقهاء الأندلس مدرســـة حديث لا تكتفى بالنقـــل من مجموعات الصحيح الدارجة ، بل تجتهد فى البحث عن الجـــديد فى علم الحديث ، ليس على سبيل الجمع والاستقصاء فقط ، بل من أجـل التصنيف النوعى أيضا ، فكان اجتهادهم فى البحث عن الغريب الذى صنف بدوره ما بين : « عال » والجمع « عوالى » ، « وما لا يصح »(١٠٩) .

وارتفع شان مدرسة الحديث الأندلسية المـالكية هذه ، وكان لهـــا

---

(١٠٧) معجم الصدفى ، ص ٢٧٣ .

(١٠٨) معجم الصدفى ، ص ١٥٢ ـ حيث النص على انه غريب من حديث ابى بكر بن أبى بردة ، تفرد به عروة بن عبد الله ، ولم يروه عنه بهذا الاسناد غير الأشهب .

(١٠٩) أنظر معجم الصدفى ـ حيث العوالى من الاحاديث الخاصة بالعبادات ، مثـل عوالى بن خيرون ، (ص ٦٧) وبكيفية أداء الصلاة ، كتلك الاحاديث« التى صافح أبو على (الصدفى) فيها : الامامين البخارى ومسلم (ص ٢٠٩) . ومنه الأحاديث الآحادية السند التى لا يعرف لها الا رواية واحدة (ص ٢٠٦) ، مثـل الحديث الذى ينص على ان النبى أطعم اعرابيا لقيمات ، فقال له « انك رجل صالح » مكتفيا بتكرارها دون الدخول فى الاسلام ـ وفيه يقال : « لا نعلم رواه الا حفص بن غياث (ص ٢٠٧) ، ومنه ما كان عرضة للنقد حتى وضع فى مرتبة الفكاهات أو الحكايات الغثة (ما سبق ص ٤١٢ وهـ ٦) الى جانب الأحاديث الشيعية مما سبقت الاشارة اليه (ص ٤١٠ وهـ ١٠٣) .

الذكر فى المشرق بفضل علمائها الرحالة الذين جعلوا من أداء الحج والزيارة رحلة للعلم والثقافة ، اختصوا بهـــا تبعا لامكاناتهم المـادية التى لم تكن تتوفر لغيرهم من أهل الأقطار الأخرى بنفس السهولة ، وهكذا لم يكن فى نية الفقيه الشافعى أبى الطاهر السلفى الاقامة فى الاسكندرية — التى صار شيخها الأول — عندما وصلها فى سنة ٥١١ هـ/١١١٧ م ، بل للأخــذ عن الرازى (ت ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م) الذى كان يدرس هناك ، على أن يقوم بعد ذلك — كما يقول ابن الأبار — باختراق المغرب والأندلس للأخذ من علمـاء الأندلس من تلاميذ أبى عمر بن عبد البر(١١٠) .

اتجاهات مالكية متشددة على المستوى الرسمى :

رغم انفتاح مدرسة الحـــديث المـالكية الأندلسية على ثقـافة المشرق الاسلامى المزدهر فى ذلك الوقت من نهاية القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، ممثلة فى مذاهب أهل السنة والشيعة وما عاصرها من أفكار الحـكماء والفلاسـفة والمتصوفة ، وأخذها بطرف من كل ذلك ، الأمر الذى يعبر عن اتجـــاهات تسامحية تستحق الاشادة بها . ولكن الحال لم تكن دائما على هذا المنوال ، فالى جانب التسامح ظهرت فى المقابل اتجاهات متشـــددة أخرى بالنسبة لأصحاب المذاهب والديانات المخالفة(١١١) ، الى جانب أحاديث أخر ممـــا يظهر فيما يسمى بالطب النبوى ، والتى لا بأس فى السكوت عنها(١١٢) .

ويظهر التشدد بصفة خاصة على المستوى الرسمى ، لدى العاملين فى الدولة على مستوى الدواوين أو حاشية الأمير ، حيث رفضت الأفكار الدينية السياسية المخالفة ، وخاصة عندما يستشعر خطرها عـــلى أمن الدولة أو النظام العام أو سلامة الأمير . ولا يظهر ذلك فى مقاومة الدولة فقط لبعض

---

(١١٠) معجم الصدفى ، ص ٤٩ — حيث النص على ان السلفى كان ينوى بعد رحلة الأندلس العودة الى بلده أصبهان لولا أن شغله السكندريون بالأخذ عنه والاحسان اليه ثم جلوسه مكان الرازى بعد وفاته (وما سبق ، ص ٤٠٨ وهـ ٨٦) .

(١١١) معجم الصدفى ، ص ١٣٢ — حيث الحديث المعدود فى سباعيات أبى على الصدفى ونصه : « أنا أول شفيع يوم القيامة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة ، ان من الأنبياء من ياتى يوم القيامة ما معه مصدق غير واحد » .

(١١٢) معجم الصدفى ، ص ١٩٥ — حيث حديث : « من قرا ياسين عدلت له ٢٠ (عشرين) حجة ، ومن كتبها ثم شربها ادخلت جوفه الف يقين والف رحمة ، ونزعت منه كل غل وداء ، مع النص على أنه : غريب من خط أبى على (الصدفى) ، وقارن الطب النبوى لابن الجوزى .

حركات المتصوفة - التى بدات تستشرى فى أرجاء عالم الاسلام - بل وفى الشك فى مواقف المقربين من أعيان المستشارين كالفقيــــه القرطبى الشهير ابن رشد الجد (أبو الوليد) ٠

والحقيقة أنه يمكن القول ان الفتور كان قد اعترى العـــلاقة بين أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، ورعيته من الأندلسيين اعتبـــارا من السنة العاشرة لولايته وهى ســـنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م ٠ ففى تلك السنة حسبما تنص رواية ابن عذارى ، سرت بين العامة من الناس شائعات تتنبأ بقرب نزول كوارث خطيرة بالبلاد ، أعظمها اختلال أمر الدولة بموت الأمير السلطان فى شهر رمضان (٥١٠ هـ/يناير ١١١٧ م)(١١٣) ، الأمر الذى يمكن ان يكون دعاية ســــوداء من بعض المدعين بالولاية أو الـكرامات من أدعياء السوء ٠

وهنا كان على الأمير أن يواجه تلك الفرية بما يليق بها من محــاولة تهدئة خواطر الناس عن طريق دعوة المسئولين ، من الحـكام والقواد الى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن طريق اقامة الحق والالتزام بالعـــدل والبعد عن الشبهات ، مع الالحاح على مدارة الرعية ورفع الغبن عن الناس ، واغاثة الملهوف منهم(١١٤) ٠

احراق كتب الغزالى : بشارة قيام مذهب التوحيد :

أما ما يعبر حقيقة عن تسلط المرابطين المذهبى ، فهو ما يؤخذ عـــلى مالكية الأندلس على عهد متبتلهم أو كاهنهم الأمير على ، الأمر الذى يمكن أن ينسحب على المـالكية بعامة ، ويسمهم بالتعصب الذميم ، وهو احراق كتب الغزالى التى يقصد بها احياء علوم الدين على وجه الخصوص ٠ وهـذا الأمر الذى يمثل نوعا من التناقض مع مسار الفكر الاسلامى الذى كان قـد بلغ الذروة بفضل كبـــار العلمـاء والمفكرين من أمثـــال الفارابى وابن سينا والماوردى ، وكذلك الغزالى ، مما لم يكن يخفى على رحالة الأندلس من العلماء - وهو ما سوف تظهر تباشيره عما قريب ، عـــلى عهـــد الموحدين خلفـاء

---

(١١٣) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٢ ٠

(١١٤) ابن عذارى ، ج ٤ ص ٦٣ - ٦٤ - حيث نص الرسالة الموجهة الى الولاة بضرورة الالتزام بحسن السيرة والاستقامة وتهديد المخالفين منهم بالخلع ٠

المرابطين ، حيث يتم نضج الحضارة المغربية ـ الاسبانية المعبرة عن تكامل وحدة الغرب الاسلامى ٠

والمهم هنـــا هو أن احراق كتب الامام الغزالى فى الأندلس يعبر عن المقدمات التاريخية لقيام دولة الموحـــدين ، بمعنى أن فترة الصراع بـين الدولتين المرابطية والموحدية ، وهى فترة « المطاوله » عنـد ابن خلدون ، تمتد الى هذا الوقت المبكر من العقد الاول لولاية الامير على بن يوسف بن تاشفين ـ حيث بدأ ظهور منظر حركة التوحيد محمد بن تومرت ، فى رحلته العلمية المشرقية التى بدأت بمراكز العلم الأندلسية قبل السفر بحرا نحو المشرق ، على أواخر أيام الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ/١١١١ م) ، أشـهر أساتذة النظامية سواء فى بغداد أو نيسابور ، وصاحب احياء علوم الدين أكثر الكتب الاسلامية رقة روحية وشفافية عند كبار علماء المسلمين ، كما هو عند المستشرقين ـ رغم أصوليته الدفينة ٠

والحقيقة أن كتاب الاحياء هو الذى رفع من شأن الغزالى وسما به الى درجة الحجية فى الاســلام ، فهو يبين من ناحيـــة تبحر الغزالى فى معرفة المذاهب الاسلامية المختلفة ، من مذاهب أهل السنة الخمسة (حيث يجعل خامسها مذهب سفيان الثورى) والشيعة (التى يميل الى المعتدل منهـــا ويكره الباطنية) ، والمتكلمين (فلاسفة الاسلام المدافعين عنه) ثم الصوفية٠ وهو من ناحية أخرى يمثل مشروع الغزالى الاصـــلاحى الذى يهدف الى لم شمل الفرق الاسلامية المختلفة تحت مظلة واحدة تعيد الى الدين شـبابه وحيويته بفضل التفكير المنطقى سمة المعرفة العقليـــة ، والشفافية الروحيـــة سمة الوعى القلبى (الصوفى) ، وعن طريق التمسك بالعلم الأخروى ، ونبذ كل ما دونه من العلم الدنيوى الذى لا يبتغى به وجه الله ، بل ارضاء السلاطين والملوك(١١٥) ٠ كان الخلاف بين الغزالى وبين فقهاء الأندلس من

---

(١١٥) أنظر احياء علوم الدين للغزالى ، ج ١ ص ٢ ـ حيث النص على أنه سلك فى اخراج الحديث وبيان صحته أو حسنه أو ضعفه فخرجه ٠٠ وهو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة ، ص ٥ ـ حيث النص على ان ثمرة هذا العلم : طب القلوب والأرواح المتوصل به الى حياة تدوم أبد الآباد ، ص ١٣ ـ حيث تفصيل علم الآخرة الذى يعتبره الغزالى فرض عين ، ص ٢١ ـ حيث الاجماع على أن تقدم أبى بكر لم يكن بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشىء وقر فى صدره ، كما شهد له سيد المرسلين ، فليكن حرصك فى طلب ذلك الشىء ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ٠٠٠ ، ص ٢٢ ـ حيث زعماء الفقه الخمسة ، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الخلق فى الدنيا ، ومريدا بفقهه =

المالكية الذين كانوا فى خدمة المرابطين ، والذين كانوا يقفون مع من يصنفهم الغزالى من فقهاء العصر من طلاب الدنيا ، من : المال والجاه والسلطة ، فهم من هذا الوجه من خصوم أهل الآخرة من : الفقهاء الأوائل(١١٦) .

والى جانب اتهام فقهاء العصر بأنهم طلاب مال وسلطان وجاه ، الأمر الذى كان يثيرهم من غير شك ، فلا بأس أن كان تبحر الغزالى فى العلم ومعالجته لموضوعات شتى من الفلسفة كالكلام ونظريات الفيض الصوفية ، أو « معنى النفس والروح والقلب والعقل » (ج ٣ ص ١٢) ، الى جانب تعرضه لأمور تفصيلية غير معهودة فى عدد من المعاملات ، كما فى الحب والعشق وآداب النكاح (ج ٢ ص ١٩) ، بل وفى محاولة تأييد آرائه بغريب الحديث ـ كما فعل تلاميذه الروحيون من الرحالة الاندلسيين (ص ٤١٣) ـ حتى فى تفسير القرآن(١١٧) الذى كان يثير فقهاء المحدثين (من

= وجه الله تعالى ، ص ٤٣ ـ حيث العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى ، وانظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ، بغداد . ١٩٧٧ ، ج ١٢ ص ٤ ـ حيث القول عن الغزالى انه « وزع أوقاته على وظائف الخير ، ثم ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب . وحيث القول عن الأحياء : انه « أجل الكتب وأعظمها حتى قيل انه لو ذهبت كتب الاسلام وبقى الاحياء لا غنى عما ذهب » ، وأنظر فتح الله خليف ، فلاسفة الاسلام (ابن سينا ، والغزالى والفخر الرازى) ، الاسكندرية بدون تاريخ ، ص ٢٦٥ ـ حيث موقف الغزالى من الصوفية .

(١١٦) أنظر احياء علوم الدين للغزالى ، ج ١ ص ٣ ـ حيث النص على ان أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ... ولم يبق الا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ... ، ص ١٩ ـ ٢٠ ـ حيث تفسير أعراض المسلمين عن الاشتغال بالطب لأنه فرض كفاية قد قام به جماعة (خصوصا أهل الذمة) ، ولأن الطب ليس يتيسر الوصول به الى تولى الأوقاف والوصايا أو حيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان ، واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور ، ص ٢٢ ـ حيث ونحن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ما تعلم به ما ذكرناه ليس طعنا فيهم ، بل هو طعن فيمن اظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم ، وهو مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم ، ص ٣٧ ـ حيث أصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى فى كل عصر .

(١١٧) أنظر احياء علوم الدين للغزالى ، ج ١ ص ١٣٤ ـ حيث تفسير « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، بالقول : سكارى من كثرة الهم ، أو من حب الدنيا ، وشرح ذلك بـ « كم من مصل لم يشرب خمرا وهو لا يعلم ما يقوله فى صلاته » ، ج ٢ ص ٨٦ ـ حيث شرح : « ومن شر غاسق اذا وقب » بانه « قيام الذكر أو اذا دخل » ، استنادا الى ابن عباس ، وان كان المحقق فى هـ ١ يقول : هذا حديث لا أصل له .

الظاهرية) الأندلسيين ضد آراء « حجـــة الإسلام » المعـادية لهم ـ دونه مواربة • ولا شك أن غزارة علم الغزالي وجرأته من حيث عدم الخشية في سبيل معرفة الحقيقة لومة لائم يمكن أن تكون مبررا كافيا لكراهية « احيـاء علوم الدين » ـ الذى يظهر فى بعض المواضع وكأنه دعوة الى العودة بالاسلام الى نقائه الأول أى الى سذاجته الأولى ، دون اعتبار لسنة التطور والتجدد ـ ولكن ليس الى درجة الاعدام حرقا ، على ما نظن(١١٨) •

والمهم أن مجلس شورى فقهاء قرطبة انعقد فى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٥ م برئاسة القاضى أبى عبد الله محمد بن حمدين وقرر احراق كتاب احياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ، الأمر الذى تم تنفيذه علنـــا فيما كان لديهم من النسخ ، وذلك فى رحبة المسجد الجامع ، المواجهة للباب الغربى للجامع •

واذا كان ابن القطان الذى يسجل قصة حرق الاحياء فى خبر غريب يجمع مابين تفصيلات المذكرات الشخصية وخيالات القصة الأسطورية يجعل وقوع الحرق بأمر من الأمير على بن يوسف بن تاشفين فى تلك السنة المبكرة من أوائل حكمه(١١٩) ، فالذى يفهم من بعض روايات ابن الأبار أن مناهضـــة كتاب الاحياء كانت متدرجة ، حيث بدأ القاضى ابن حمدين بمنع الرجوع الى كتاب الاحياء قبل الاقدام على حرقه(١٢٠) • هذا ، كما كان لأمر حرقه

---

(١١٨) انظر الاحياء ، ج ٤ ص ٤١٩ ـ عن الموت والحساب والسراط بتفصيلاتها المذهلة ، فكانها شهادة شاهد عيان ، عن : حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر من الاستجواب مع استخدام الميزان فى شكل مادى عجيب حسب تصور اهل أواخر القرن الـ ٥ هـ / ١٢ م ، تماما كما الفنانون المسيحيون فى نفس هذا الوقت ، فى تصوير يوم الحساب على واجهات الكاتدرائيات الرومانسكية فى فرنسا وأسبانيا ـ الأمر الذى كان يثير البعض ، كما سنرى عند ابن تومرت •

(١١٩) انظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٤ ، ١٥ وهـ ٢ ، ٣ ـ حيث اخذت نسختى ميمون بن ياسين (أبو عمر اللمتونى) الذى سكن المرية وعنى بجمع الكتب ، وكانت له رحلة حج (ت ٣٥٠ هـ / ١١٣٥ م) ، وابن العربى (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى الاشبيلى) (٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ـ ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) الذى كانت له رحلة سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م اخذ فيها عن الطرطوشى بمصر ، والغزالى ، وعاد سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م الى الأندلس والمغرب حيث دفن بفاس •

(١٢٠) انظر معجم الصدفى ، ص ٢٣٢ ـ حيث ترجمة أبى الحسن عبد الرحمن بن أحمد ابن طاهر (من أهل مرســية) ـ حيث النص على انه لما جاورهم هذا الشيخ الذى زخر علمه لجة ، وجعل ابن حمدين تركه الأخذ عن أبى حامد حجة الاسلام ، قد قدروا قدره فاكبروا مكانه ـ وعمروا ازدحاما عليه وابتدروا (وابتدارا) اليه زمانه وتنافس فيه أولو احسابهم ••• الأمر الذى يعنى ان ابن حمدين بدأ بترك الأخذ عن الغزالى (قبل تقرير حرقة الاحياء) •

الإحياء معارضة قوية ، وخاصة من أولئك الذين جلبوه معهم من المشرق ، أو الذين درسوا على أيديهم فى الأندلس ، مثل : الفقيه أبى الحسن على بن محمد البرجى (ت ٥٠٩ هـ/١١١٥م) الذى كان يرى انزال عقوبتى التأديب والغرامة المالية بمن أحرق كتب الغزالى(١٢١) ٠

وهكذا تكون السلطة المراكشية ممثلة فى شخص أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين قد استجابت لمطالب فقهاء الأندلس ، وعن هذا الطريق انتشرت عملية الرقابة الدينية فى شكل محكمة تفتيش قرطبية نشرت ظلالها القاتمة على أهل البلاد ، ولم تفرق فى بحثها الباطنى عما يدور فى القلوب والنفوس أو العقول ما بين المسلمين ، بل والمعاهدين ، الأمر الذى استمر ثم استشرى على عهد تاشفين بن على مع ازدياد خطر الدعوة الموحدية التى ارتبطت بفكر الغزالى ٠

وعن هذا الطريق كان الأمير تاشفين الذى كانت له نيابة الأندلس سنة ٥٢٣ هـ/١١٢٨ م قبل أن تؤول اليه الامارة سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م(١٢٢) يصدر الأوامر فى السنة التالية ٥٣٨ هـ/١١٤٣ م الى الولاة والفقهاء ، مثل : يحيى بن على بن الحاج أمير بلنسية ، وكذلك قاضيها أبى محمد بن جحاف ، يأمرهم بالبحث عن كتب البدع ، وعلى الأخص كتب الغزالى التى يجب استئصالها بالحرق المتتابع(١٢٣) ٠

---

(١٢١) انظر معجم الصدفى ، رقم ٢٥٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢ — حيث ترجمة البرجى الذى أوجب فى كتب أبى حامد الغزالى حين أحرقها أبو عبد الله بن حمدين بأمر تاشفين (هكذا) تأديب محرقها وتضمينه قيمتها لأنها مال مسلم (وعندما) قيل له أتكتب بما قلته من خط يدك ، قال : « سبحان الله ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ٠ وفعلا كتب البرجى فتياه هذه ووافقه عليها عدد من فقهاء المرية ومشايخها الذين وقعوها بخطوطهم ، ومنهم القاضى أبى عبد الملك مروان بن عبد الملك ، الأمر الذى غاظ ابن حمدين فكتب الى القاضى الزاهد الذى قبل العزل راضيا ٠

(١٢٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٨ — حيث النص على عظم شأن على بن يوسف وأنه عقد لابنه تاشفين على غرب الأندلس ، وانزله قرطبة واشبيلية ، وانه عقد فى نفس الوقت لأبى بكر بن ابراهيم المسوفى على شرق الأندلس ، بينما عقد لابن غانية على الجزائر الشرقية ٠ دانية وميورقة — واستقامت أيامه ٠

(١٢٣) أنظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٦ — حيث النص (تحت أحداث سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م) على توالى الاحراق على ما اشترى منه (الاحياء) فى المغرب ، وقارن بن عذارى ، ج ٤ ص ٥٩ — حيث رواية ابن القطان التى تنص على أن الاحراق كان بأمر على بن يوسف الذى وجه الى جميع بلاده يأمر باحراقه٠ وانظر هـ ١ — حيث الاشارة الى رسالة =

ولا ندرى ان كان يمكن أن يذكر الى جانب أعمال التفتيش عن كتاب الاحياء منذ العقد الأول من ولاية الأمير علي بن يوسف ، ما حدث فى أواخر العقد الثانى من ولايته ، مما شارك فيه (بعد ابن حمدين) ، قاضى قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد (المعروف بابن رشد الجد) في أواخر أيامه ، من الفتوى بتغريب جماعات المعاهدين من نصارى غرناطة واعمالها وتغريمهم بحجة تورطهم فيما قام به ابن ردمير الطاغية (الفونس السابع) الذى حل محل الفونس السادس في تحدى المرابطين واكتساح الاراضى الاسلامية فى أواخر سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م وأوائل سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م . فلقد تجشم ابن رشد مشقة الرحلة من قرطبة الى مراكش حيث التقى بالأمير على بن يوسف الذى قبل فتواه ، وأصدر أوامره باجلاء معاهدى الأندلس عن أوطانهم الى العدوة المغربية . وفعلا تم نفي عدد كبير منهم الى المغرب حيث تعرضوا أثناء المسيرة التى بدأت في شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ/ أكتوبر ١١٢٥ م ، لكثير من أعمال النهب والسلب والتدمير(١٢٤) . الأمر الذى يضع علامة استفهام أمام ما يعزى الى المجتمع الإسلامى من أعمال انسانية فى أمور التسامح مع الأقليات العرقية والدينية ، مما لا يعرف له نظير لدى المجتمعات الأخرى الا في اعلانات حقوق الانسان التى نعيشها الآن .

والمهم أن الفقيه المالكي الكبير (ابن رشد) لم يقصر فتواه على نقض المستعربين الأندلسيين للعهد ، بل كانت له تنبيهاته الخاصة بالاجراءات العسكرية الكفيلة بالوقوف أمام الخطر الموحدى فى المغرب . فلقد نصح الأمير على بن يوسف باتخاذ أساليب الدفاع المعروفة فى الأندلس ، من الأسوار والبوابات الحصينة للعاصمة مراكش . والأمر الذى يلفت النظر هو أن تلك الأساليب الدفاعية المستوحاة من الأندلس تقرر تعزيزها هناك أيضا حيث عرفت عملية التحصين فى الأندلس بالتعتيب ، وان وقع عبئه

= الأمير تاشفين (بن على أمير المسلمين) الى ابن الحاج وابن جحاف فى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م(؟)، والتى ينص فيها على البحث عن كتب البدعة وخاصة كتب الغزالى ، وتتبع أثرها وقطع خبرها بالحرق المتتابع . وانظر عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، ج ١٢ ص ٤ - حيث النص على انه عندما دخل الاحياء المغرب أنكرا ما فيه وصنفوا عليه : « الاملاء فى الرد على الاحياء » ، ص ٥ - حيث القول : « وأنكروا عليه (الغزالى) ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » ، مع التعليق بالقول : « ومثل هذا يجوز الترغيب والترهيب ، والكتاب فى غاية النفاسة .

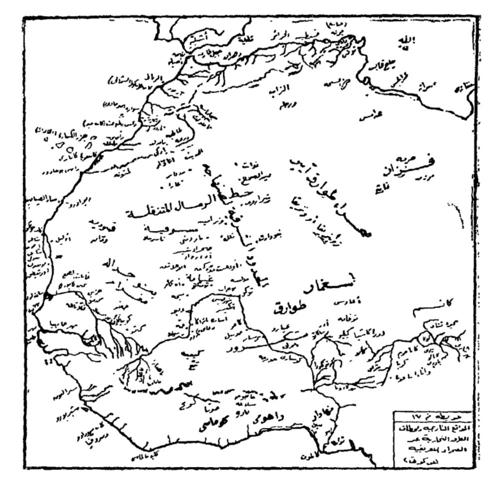
(١٢٤) أنظر ابن عذارى ، ج ٤ ص ٧٢ - ٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ .

هناك على أهل كل مدينة أو حصن ، الأمر الذى كان يمثل عبئا ماليا جديدا تنوء به مقدرة أهل البلاد فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تتعرض فيها البلاد لاجتياحات العدو(١٢٥) ٠

والمهم فى النهاية هو أن محاولة استئصال احياء علوم الدين ، أهم أعمال الغزالى ، وأحد دواوين الفكر الاسلامى فى عصر نهضته فى القرن الـ ٥ هـ/١١ م ، كان علامة مميزة فى طريق الدولة المرابطية نحو الاضمحلال ٠ فالحقيقة أن هناك نوعا من الربط بين احراق كتاب الاحياء وبين قيام حركة التوحيد التى قامت عليها دولة الموحدين خلفاء المرابطين فى المغرب والأندلس ٠ وفى ذلك تريد الرواية الموحدية - رمزا ان لم يكن واقعا - أن يكون الامام الغزالى قد « أجاز » تلميذه محمد بن تومرت ، الفقيه السوسى (قبل سنة ٥٠٥ هـ/١١١١م - تاريخ وفاة الغزالى) فى الثأر لذلك العمل الهمجى الذى قامت به دولة لمتونة المرابطية ضد مشروع تجديد الاسلام الذى كان يعده الامام ، فكانت تلك الاجازة بمثابة المحرك لقيام ابن تومرت بحركة التوحيد ٠ وبذلك يرتفع عبء العمل الحضارى فى كل من المغرب والأندلس ، عن كاهل أهل الصحراء الملثمين ليقع على عاتق أهل السوس الجبليين اعتبارا من مطلع القرن الـ ٦ هـ/١٢ م ، مما يكون موضوعا للجزء الخامس من الكتاب ، ان شاء الله ٠

---

(١٢٥) ابن عذارى ٠ ج ٤ ، ص ٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٩٧ - ٩٨ (عن ابن رشد) ص ٩٠ (عن تسوير مراكش) والعتبة وجمعها اعتاب تعنى أسفل مدخل الباب وأعلاه ، والتعتيب تعنى التسقيف المعقود ٠ والمستعتب هو المسكن المسجل الذى يخضع للضريبة (كما فى حالة التحصينات الأندلسية هنا) - أنظر دوزى ملحق القواميس العربية ، ج ٢ ص ٩٣ ٠



خريطة رقم ١٧ ـ المواقع التاريخية ومحطات الطرق التجارية عبر الصحراء الافريقية

فهرس المصادر والمراجع المذكورة فى الهوامش

- **ابن الآبار (ت ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م) :**

كتاب الحلة السيراء فى ٢ ج ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، ١٩٦٣ ·
أصحاب الصدفى ، مجريط (مدررو) ، ١٨٨٥ ·

- **ابراهيم بن محمد الساسى العوامر :**

الصروف فى تاريخ الصحراء وسوف ، تونس ، ١٩٧٧ ·

- **ابن الأثير :**

الكامل فى التاريخ (ج ٩ ، ج ١٠) ، الطبعة الأوروبية ، فى ١٣ ج ·

- **احمد ابو زيد :**

المجتمعات الصحراوية فى : مصر شمال سيناء · دراسة اثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية ، القاهرة ١٩٩١ ·

- **احمد فكرى :**

المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ ·

- **احمد مختار العبادى :**

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ،
مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية العدد ٢١ ، سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ·
دراسات فى تاريخ المغرب ، ١٩٦٨ ·

- **الادريسى :**

المغرب العربى - من كتاب نزهة المشتاق · حققه ونقله الى الفرنسية، محمد حاج صادق ، ط ١٩٨٣ ·

- **الاستبصار (كتاب) :**

وصف مكة والمدينة ومصر والمغرب والسودان فى القرن ٦ هـ/١٢ م.
تحقيق المؤلف ، نشر جامعة الاسكندرية ، ١٩٤٨ .

- **اسماعيل العربى :**

الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر ، ١٩٨٣ .

- **الاصطخرى :**

المسالك والممالك ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- **أطلس التاريخ الافريقى :**

تاليف كولين ماكيفيدى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

- **أطلس مصر والعالم :**

جيوبرجكتس ، انجلترا ، ط ١٠ ، ١٩٨٧ .

- **أمين توفيق طيبى :**

تأثير الاسلام فى غانا ومالى فى العصور الوسطى (قرن ١٠ — ١١ م) ، بحث بالانجليزية فى مجلة الدراسات الانسانية بجامعة الكويت ، صيف ١٩٨٤ .

AMIN TAWFIQ TIBI, The impact of Islam on Medieval Ghana and Mali (10 - 14th C.)
Arab Journal for Humanities, Kuwait University, 1984.

- **بدرى محمد فهد :**

العمامة ، بحث منشور فى ١٩٦٨ .

- **ابن بسام (أبو الحسن الشنتريني — ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م) :**

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، كتاب فى ٤ أقسام ، فى ٧ مجلدات بمعدل مجلدين للأقسام الثلاثة الأولى وواحد للأخير ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ .

- **ابن بشكوال :**

كتاب الصلة ، فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، ٢ ج ، ط ، مجريط (مدريد) ، ١٨٨٢ ·

- **ابن بطوطة :**

الرحلة ، تحقيق على الكتانى ، ٢ ج ·

- **البكرى :**

المغرب فى ذكــر بلاد افريقية والمغرب ، نشر دسلان ، مـع تعريف بالبكرى بالفرنسية وبالكتاب الذى يعنون ب : وصف أفريقيا الشمالية (Description de l'Afrique Septentrionale) ، الجزائر ، ١٨٥٧ ·

- **هـ· تراس وباسيه** (H. Terrasse et Basset) :

بيوت عبادة وقلاع موحدية ، دراســة فى مجلة هسبيرس ، عـــدد ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ تحت عنوان :

Sanctuaires et Fortersess Almohades, 1926.

- **الجـاحظ :**

رسالة مناقب الترك ، فى رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون·

- **جروسيه (رينيه) :**

امبراطورية السهوب ، باريس ، ١٩٣٩ ·

R. Grousset, l'Empire des Steppes, Paris, 1939.

- **الجزنائى (أبو الحسن على) :**

كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشر الفراد بيـــل ، الجزائر ١٩٢٢ ·

- **جمال الدين الشيال :**

أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مصر – دار المعارف ، ١٩٦٥ ·

- جوتييه :

ماضى شمال افريقية ، بالفرنسية ، ١٩٤٢ .
E.F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1942.

الصحراء ، بالفرنسية ، بايو ، باريس ، ١٩٤٦ .
E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1946.

- جودة حسنين :

وحسن أبو العيون ، سطح هذا الكوكب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- جوليان (ش. ا.) :

تاريخ أفريقيا الشمالية بالفرنسية ، باريس ، ١٩٣١ .
Ch-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie — Algerie — Maroc, Payot, Paris, 1931.

والترجمة العربية تحت عنوان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ج ٢ (من الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠) . تعريب : محمد مزالى ، البشير بن سلامة .

- الحبيب الجنحانى :

المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق ٣ - ٤ هـ/ ٩ - ١٠ م) ، الجزائر ، ١٩٧٨ .

- حتى (فيليب) :

تاريخ العرب المطول ، ٢ ج ، ١٩٦٥ .

- حسن أبو العيون ، أنظر جودة حسنين .

- حسن احمد محمود :

قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

المرحلة الافريقية من تاريخ المرابطين ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١١ ، ج ٦ ، القاهرة ١٩٦٥ .

- حسين مؤنس :

الثغر الأعلى فى عصر المرابطين .

- الحلل الموشية لمجهول ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

- ابن حوقل :

صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

- ابن الخطيب :

أعمال الأعمال ، نشر بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .

- ابن خلدون :

العبر ، ج ٦ (بيروت ، مصور عن بولاق) ، ١٩٧١ .
ترجمة دسلان (De slone) تحت عنوان : تاريخ البربر (Hist. des Berbères) بالفرنسية ، ١٩٢٧ .

المقدمة ، ط التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ .

- دائرة معارف لكسيكون يونيفرسال Lexicon Universal
أفريقيا (Africa) والساحل (Steppes) ، نيويورك ، ١٩٧٥ .

- درش (جان) :

أصل تاريخ التسميات فى جبال أطلس العليا ، مجلة الدراسات الاسلامية ، بالفرنسية ، كراسة ٣ - ٤ ، ١٩٣٩ .
Contribution a une étude de la Toponymie de Haut Atlas, Adrarn Deren, d'après les cartes de Jean Dresch. Revue des Etudes Islamiques, 1939 — Cahier 3 - 4, P. 201 - 312.

- دوزى Dozy :

ملحق القواميس العربية بالفرنسية ، ليدن ، ١٩٦٧ .
تاريخ المسلمين فى اسبانيا ، ٣ ج ، بالفرنسية .

— ديفردان G. Deverdun :

مراكش (المدينة) ، بالفرنسية ، الرباط ، ١٩٥٩ .

— ديلافوس :

الزنوج ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ .
Delafosse (Maurise), Les Nègres, Reider, Paris, 1927.

— ابن رسته :

العلق النفيس ، ليدن ، ١٨٩١ .

— زامباور :

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة واخراج زكى محمد حسن ، ١٩٥١ .

— ابن ابى زرع :

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ .

— سالم ، السيد عبد العزيز :

تاريخ المغرب الاسلامى .

— سالم ، سحر السيد عبد العزيز :

مدينة قادس (بالأندلس) ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ .

— سعد زغلول عبد الحميد :

تاريخ المغرب العربى ،
ج ١ (فتح المغرب) — ج ٢ (الأغالبة الرستميون الأدارسة) — ج ٣ (الفاطميون والزيريون) .
الماوردى بين التاريخ والسياسة ، محاضرات كلية الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٧٠ .
الترك والاسلام ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٩ .

الترك والمجتمعات التركية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، عدد ١٩٥٦ .

- سيليرييه (جان) :

مراكش (مجموعة الاتحاد الفرنسى) بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٨ .
Jean Célérier, Maroc, Paris, 1948.

- ابن شاكر الكتبى :

عيون التواريخ ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ، ونبيلة عبد المنعم ، بغداد ، ١٩٧٧ .

- شعيرة ، محمد عبد الهادى :

المرابطون : تاريخهم السياسى (٤٣٠ هـ - ٥٣٩ هـ) ، القـــاهرة ، ١٩٦٩ .

- عبد اللطيف البغدادى :

كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعـــاينة بأرض مصر ، لندن ١٨٠٠ .

- عبد الله كنون :

عبد الله بن ياسين ، مجلة الثقافة المغربية ، العدد ٤ ، ابريل ١٩٧١ .

أبو عمران الفاسى ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ - يناير - فبراير ، ١٩٧٠ .

- عبد المنعم الحميرى :

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ، جمع سنة ١٨٦٦ هـ/١٩٦١م ، نشر وتصحيح بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

- ابن عذارى المراكشى :

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ٤ ج ، نشر احسان عباس ، بيروت.

- عصمت دندش :

دور المرابطين فى غرب أفريقيا ، ١٩٧٤ .

- علال الفاسى :

التصوف الاسلامى فى المغرب ، مجلة الثقافة المغربية ، عدد ١ يناير ١٩٧٠ .

- العمرى (ابن فضل الله) - ت ٧٤٩ هـ/بداية ١٣٩٤ م :

مسالك الابصار - القسم الخاص بشمال افريقية ، ترجمة ج. ديومبين G. Demombynes ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٢٧ .

- العمرى :

مسالك الابصار ، نشر أبو ضيف .

- عياض (القاضى) :

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك (المدارك) ، تحقيق ابن تاويت الطنجى ، الرباط (الـ ٣ ج الأولى - مكتبة د. سالم) + نسخة ثانية ، ط بيروت ، الجزء الرابع .

- بنو عيد :

التاريخ الصغير لبنى عيد ، ترجمة فرنسية مع دراسة ، مجلة الدراسات الاسلامية ، ١٩٣٧ (كراسة ١) .

- ابن الفرضى :

تاريخ علماء الأندلس ، ٢ ج ، ط مجريط (مدريد) ١٨٩٠ م .

- الغزالى :

احياء علوم الدين ، ٤ ج ، ط. محمد صبيح ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- فتح الله خليف :

فلاسفة الاسلام (انظر الغزالى) ، الاسكندرية ، بدون تاريخ .

- فيدج :
مقدمة فى تاريخ غرب أفريقيا ، بالانجليزية ، كامبريدج ، ١٩٦٢ ٠

- ابن القاضى (أحمد المكناسى) :
جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ٢ قسم ، الرباط ، ١٩٧٣ ٠

- ابن القطان :
نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، الرباط ٠

- القلقشندى :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، فى ١٤ ج ، القاهرة ، ١٩٦٣ ٠
كولى (Cooley.) ، تاريخ وجغرافية أفريقيا فى العصر الوسيط ، بالانجليزية ، ط ١٩٦٦ ٠
كولين ماكيفيدى ، أنظر أطلس ٠

- لارنود (مارسل) :
الجزائر (مجموعة الاتحاد الفرنسى) ، بالفرنسية ، باريس ١٩٥٠ ٠
Marcel Larnaude, Algerie, Paris, 1950.

- لسار :
سجلماسة : المدينة وعلاقاتها التجارية فى القرن الحادى عشر عند البكرى ٠
J.M. Lessard, Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales au XIe siecle d'aprés El-Bakri. ٠ ١٩٦٩ (Héspéris) مجلة هسبيريس

- أ ٠ و ٠ لين E.W. Lane :
عادات وتقاليد المصريين المحدثين Manners and Customs of the Modern Egyptians ، انجلترا ، ١٩٥٤ ٠

- ليون الافريقى :
الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ترجمة عن الفرنسية بمعرفة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ٠

— ج. مارسيه G. Marçais :

المجمل فى الفن الاسلامى Mannuel d'Art Musulman
٢ ج ، بالفرنسية ، ١٩٢٦ .

شمال افريقيا والمشرق الاسلامى فى العصر الوسيط ، بالفرنسية .

والترجمة العربية بمعرفة م. هيكل ، تحت عنوان : بلاد المغـــرب وعلاقتها بالمشرق فى العصور الوسطى .

— المـاوردى :

أدب الدنيا والدين ، ط. القسطنطينية ، ١٢٩٩ هـ .

— محمد توفيق بلبع :

نشأة الرباط وتطوره ، مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية ، ١٩٦٨م

— محمد سعيد القشاط :

التوارق : عرب الصحراء الكبرى ، ليبيا ، ١٩٨٩ .

— محمد بن شاكر الكتبى :

عيون التواريخ ، ج ١٢ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم ، العراق ، ١٩٧٧ .

— محمد عبد الله عنان :

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول : عصر المرابطين (وبداية الموحدين) ، ط. القاهرة ١٩٦٤ .

دول الطوائف منذ قيامها حتي الفتح المرابطي ، القاهرة ١٩٦٩ .

— محمد الميلى :

تاريخ الجزائر ، ١٩٧٦ .

— مذكرات الأمير عبد الله (كتاب التبيان) :

نشر وتحقيق بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- مرميسى (فاطمة) Mermissi :

جنس ، فكر ، إسلام (مجموعة المرأة والمجتمع) ، ترجمة فرنسية من الامريكية .

- المسعودى :

مروج الذهب ، ٤ ج ، ط. بيروت .

- ابن منظور :

لسان العرب ، ط. بيروت ، ١٥ ج .

- مولار (جاك ريشار) :

افريقيا الغربية الفرنسية ، بالفرنسية ، باريس ، ١٩٤٩ .

Jacque Richard — Molard, Afrique Occidentale Francaise, Paris, 1949.

- نبيلة حسن محمد :

انتشار الاسلام فى غرب أفريقيا (ق ٣ - ٩ هـ/٩ - ١١ م) رسالة ماجستير ، مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧١ .

- النويرى (أحمد بن الوهاب - ت ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م) :

الجزء ٢٢ من مخطوط موسوعة نهاية الأرب (دار الكتب المصرية بالقاهرة) ، تحقيق مصطفى أبو ضيف ، تحت عنوان : تاريخ الغرب الاسلامى فى العصر الوسيط (٢٧ - ٧١٩ هـ/٦٤٩ - ١٣١٩ م) ، الدار البيضاء .

نسخة ثانية بتحقيق حسين نصار ، ومراجعة عبد العزيز الأهوانى - وهى الجزء ٢٤ من موسوعة النويرى (نشر دار الكتب المصرية) ، ١٩٨٣ .

- هاينز D.E.L. Haynes :

طرابلس فى العصور القديمة ، بالانجليزية ، طرابلس ، ليبيا ، بدون تاريخ .

- هوباك (بيير) :

تونس (مجموعة الاتحاد الفرنسي) ، باريس ، ١٩٤٨ .
Pierre Hubac, Tunisie, Paris, 1948.

- والطون كنيث :

الأراضي الجافة ، ترجمة علي عبد الوهاب شاهين ، مصر ، ١٩٧٢ .

- فازان (وليم) :

المسكوكات الاسلامية ، مجموعة خاصة ، بيروت ١٩٨٤ .

- عبد الواحد المراكشي :

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

- اليعقوبي :

كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ .

- يوسف اشباخ :

المرابطون والموحدون ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ١٩٤١ .

- يوسف بن جواله :

بنو عباد في اشبيلية - دراسة سياسية وحضارية ، ١٩٨٩ .

أســـماء الأشـــخاص والقبـــائل والجمـــاعات

(ب)

(ت)

(ك)

(ل)

(م)

اسـماء المـدن والجبـال والأنهـار والأماكن والمواضـع

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ش)

(ك)

(ن)

---

* مع الشكر للطبيبة/فاطمة سعد زغلول ، على مساعدتها الذكية فى عمل الفهارس .

رقم الايداع ١٩٩٥/٤٩٩٩

I. S. B. N
977 — 03 — 0194 — 9

مطبعــة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٥٧٨٧٧٩٧ ــ القاهرة